فاضل الربيعي

فلسطين المُتخَيّلة

أرض التوراة في اليمن القديم

المجلد الثاني



بسم الله الرحمن الرحيم

فلسطين المتخيلة

(أرض التوراة في اليمن القديم)

المجلد الثاني

فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في الـــيمن القـــديم/
فاضل الربيعي .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .-
٢مج (٥٦٠,٧٥٢ ص)؛ ٢٥ سم.

ISBN: 978-9953-511-09-2

١-٩٣٠ ر ب ي ف ٢-العنوان ٣-الربيعي
مكتبة الأسد

فاضل الربيعي

فلسطين المتخيلة

(أرض التوراة في اليمن القديم)

المجلد الثاني



دار الفكر - دمشق - برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

فلسطين المتخيلة

(أرض التوراة في اليمن القديم)

فاضل الربيعي

الرقم الاصطلاحي: ٢-١١٠٢٠٦٢٠٠١١-٢٠٦٢

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-09-2

الرقم الموضوعي: ٩٥٦ (تاريخ العرب والإسلام)

المجلد الثاني ٧٥٢ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الثالثة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ط١/٢٠٠٨

المحتوى

الجزء الثالث

حملات سنحاريب
على بني إسرائيل
في نجران

المقدمة

أين وقعت الحملات الآشورية بالضبط؛ وأين جرى الحادث التاريخي الذي يعرف بالسبي البابلي؟ ألم تقع هذه الحروب فوق المسرح الفلسطيني التاريخي؟ إذا كان هذا الكتاب يشكك بقوة في صدقية القراءة الراهنة للتوراة، ويدعو إلى نسف فرضياتها السائدة من الأساس؛ ومن ثم يقترح قراءة مغايرة تعيد وضع الأحداث في مكانها الصحيح، فللمرء أن يتساءل: أين جرت أحداث السبي البابلي إذن وكيف يمكن إخراجها من التاريخ الفلسطيني؟ ومن ثم أين يجب علينا أن نضعها؟ ولكن، هل استهدفت حملات الآشوريين المتعاقبة منطقة نجران حقاً، ولم تستهدف فلسطين قط -كما تقول نظرية المؤلف-؟ إذا كان التاريخ المكتوب في ضوء الأدلة الأركيولوجية لا يؤيد وقوع السبي البابلي في فلسطين، إذ لا وجود لأي دليل تاريخي حقيقي، نقشاً أو لوحة أو دلائل لغوية، فأين وقعت هذه الأحداث التي وصفتها التوراة في أسفار عدَّة؟ لا بد أن ثمة خطأ من نوع ما؟ هل وقع محقِّقو التوراة في هذا الخطأ، أم أن سارد النص التوراتي هو مَنِ ارتكب الخطأ بمفرده، أم أن المشكلة تكمن أولاً وأخيراً في القراءة التعسفية للنص التوراتي؟

هذا ما سوف يتولى الكتاب الإجابة عنه، ليبيّن كيف ولأي غرض بالضبط أدخل علماء التوراة، إلى التاريخ المكتوب والذي ندرسه

ونتداول وقائعه وكأنها حقائق نهائية؛ أحداثاً لا وجود لها في الواقع وحروباً لم تقع أبداً، وأبطالاً لا شاهد موثوقاً به عن حقيقة وجودهم. كما يوضح كيف أن علماء التوراة تخيَّلوا معارك لا نصيب لها من الواقع، وملوكاً لا وجود لهم في سجلات الممالك والإمبراطوريات في العالم القديم. وإلى هذا كله تخيَّلوا وجود أناشيد نصر تغنَّى بها الإسرائيليون القدامى، وصدح بها شعراؤهم في بقاع مجهولة من الأرض؛ في حين أنها - كما سيكشف الكتاب - لم تكن في الواقع سوى شعر الحماسة القديم نفسه في صوره الأولى، يوم كان يكتب بلهجات القبائل وهو شعر لا نعرف عنه الكثير ولم يصلنا منه شيء، لأنه مكتوب بلهجات العرب البدائية والقديمة المنقرضة. إن ما يعرف عند المستشرقين وكتاب التاريخ القديم، بضياع الشعر الجاهلي (الأصلي) المكتوب بلهجات القبائل العربية -البائدة- في طفولتها البعيدة والمنسية، والذي دعا طه حسين (في الأدب الجاهلي) إلى افتراض أنه شعر غير حقيقي، وأنه موضوع من قبل الرواة المتأخرين؛ يمكن أن يكون مفهوماً وقابلاً للتفكيك حين نقرأ الشعر العبري في التوراة بطريقة صحيحة ولكن مغايرة. في هذه الحالة سنتعرف إلى جزء من مشهد الطفولة الضائعة للشعر الجاهلي. وباختصار شديد؛ فإن التوراة التي بين أيدينا اليوم، وكما حققها المحققون وترجمها المترجمون، ليست أكثر من نتاج مباشر لقراءة مغلوطة للتاريخ القديم، ولنقل نتاج صناعة للتاريخ القديم قام بها وعلى أكمل وجه، جيل من المحققين الاستشراقيين المهووسين بفلسطين. إن التوراة في نصها العبري لا تذكر قط اسم فلسطين ولا تعرف اسم الفلسطينيين. وما يدعى معركة مياه-مجدو (هر - مجدو) ليس سوى قراءة مغلوطة، تاريخية وثقافية ولغوية لمعارك ساحل بني مجيد على البحر الأحمر. هذه المعارك التي وقعت بالفعل بين بني كنانة وبني إسرائيل لم

تشهدها شواطئ البحر الأبيض المتوسط؛ بل ضفاف البحر الأحمر (والتي لا تزال حتى اليوم تعرف ساحلاً طويلاً باسم مياه مجيد-مجدو). ولسوف ندلّل كيف أن القراءة التي قدمها علماء التوراة لقصص الحملة العسكرية التي قام بها أسرحدون وسنحاريب، قد انتهت إلى تزييف التاريخ القديم والتلاعب به؛ فهما لم يتجها قط إلى فلسطين، ولم يأسرا قبائل من بني إسرائيل هناك، بل اتجها صوب السراة اليمنية لإخضاع القبائل المتمردة على الإمبراطورية الآشورية. ونحن إذ نقدم - في هذا الكتاب- لائحة بأسرى القبائل كما سجلها ودوَّنها الشاعران النبيّان عزرا ونحميا؛ فإننا نقدم في السياق مقاربة جديدة للقائمة التي سجلها الهمداني لمواطن هذه القبائل العربية اليهودية، وهي قائمة تتطابق كلياً ومن دون أدنى تلاعب مع قوائم التوراة. وسوف يلاحظ القراء كيف أن أسوار أورشليم التي أعادت القبائل ترميمها فور العودة من السبي البابلي، لا وجود لها في فلسطين؛ بل هي موجودة في السراة اليمنية تماماً كما وصفها عزرا-نحميا؟

هذا الكتاب، أخيراً، وهو الجزء الثالث من فلسطين المُتخيَّلة، هو خلاصة اكتشاف مثير وجديد غير مسبوق؛ وهو يدعو إلى التأمل لا إلى إصدار الأحكام، وإلى التمعن في الحقيقة التاريخية لا إلى تقريرها. إن التاريخ كما تحقَّق، ومهما كانت درجة التزوير والتلاعب في وقائعه من جانب البشر المعاصرين، ليس بحاجة إلى مؤيدين ومعترضين. كل ما يلزمه هو إنعام الفكر والتأمل، وفوق ذلك إلى الكثير من الشجاعة في رؤية الحقيقة كما هي لا كما يتمناها المرء. وبكل تأكيد؛ فإن قراءة متكاملة وصحيحة تتطلب - من القراء والمهتمين- عودة إلى الكتابين السابقين، فقد شرحت فيهما قصة الاكتشاف؛ بكل تفاصيلها الضرورية التي لا غنى عنها بالنسبة إلى قراء هذا الكتاب. إن سعادة المؤلف ستكون غامرة، لو

أن القراء الكرام تلطفوا عليه بمشاركته في التأمل العميق وحسب، في مغزى هذا التماثل المذهل بين وصف الهمداني والشعر العربي القديم، من جهة وبين نصوص التوراة من جهة أخرى.

فاضل الربيعي - هولندا
صيف ٢٠٠٢

الفصل الأول

أشعيا: في وصف حملة أسرحدون

(الآشوريون يهاجمون الساحل اليمني)

تقدِّم لنا واحدة من أهم قصائد أشعيا النبي (النص العبري: ١٠: ١٧: ٣٣: والنص العربي: ١٠: ٢٧: ١١:) وصفاً نادراً للحملة الحربية التي قادها أسرحدون ٦٨٠-٦٦٩ ق.م، لتأديب القبائل العربية العاربة (البدوية البائدة) التي اندثرت نهائياً وتلاشت من المسرح التاريخي ومنها قبيلة بني إسرائيل؛ وذلك في حملة كبرى استهدفتها على امتداد نجد (مرتفعات) وساحل اليمن. لقد صُوِّرَت هذه الحملة في المِخْيال الأوروبي دون وجه حق، على أنها اتجهت صوب فلسطين حيث جرى إخضاع مملكة اليهودية ومحاصرة أورشليم في عصر ملكها منسه. بيد أن الحملة كما سوف نُبيِّن استناداً إلى وصف الهمداني والشعر الجاهلي، لم تتجه قط نحو فلسطين وإنما نحو سلسلة جبال حِمْيَر (سرو حِمْير). وهي حملة تقليدية تجسد السياسة التي اتبعتها الإمبراطورية الآشورية، إزاء القبائل المتمردة على امتداد سواحل البحر الأحمر. إن قراءة مُتَمَعنة في الإشارات الشعرية والتاريخية والتوصيف الدقيق للمواضع، سوف تكشف لا الاختلاق والتزوير وحسب؛ وإنما كذلك التلاعب غير الأخلاقي في

ترتيب الوقائع التاريخية. اليوم سنعلم كيف أدخل علماء التوراة أحداثاً في التاريخ لا وجود لها، ولفقوا مسرحاً لحروبٍ لا أصل لها، وخلقوا أبطالاً لا وجود لهم. وبذلك تكون القراءة الأوروبية للتوراة قد ساهمت في صناعة تاريخ لا مكان له في السجلات أوالنقوش. فمَنْ ذا يستطيع البرهنة على أن أسماء المواضع التي اجتاحها أسرحدون، هي بالفعل في فلسطين، وأنها أماكن حقيقية هناك؟ ومَنْ ذا يستطيع تصور مثل هذا التسلسل التاريخي غير المعقول: أي إن تقع الحملات الآشورية الحربية والسياسية لإخضاع القبائل البدوية، وفي آنٍ واحد، في فلسطين وفي ساحل البحر الأحمر قرب نجران؟ مثل هذا التسلسل يمكن رؤيته وبكل تناقضه عند مقارنة السجلات الآشورية بالرواية التوراتية؟ ولكن هل من المنطقي الاعتقاد أن الآشوريين شنوا في وقتٍ واحد، حملة حربية في فلسطين وفي نجران؟ لسوف تساهم أي محاولة لإعادة بناء الرواية التاريخية عن الحملات الحربية الآشورية وتحديد مسرحها الحقيقي، وإلى حد كبير، في البرهنة على الطابع الاستشراقي الفاضح للقراءة الأوربية للتوراة، وفي كشف الحقيقة التاريخية الضائعة عن هذه الحملات، التي اتجهت نحو نجران والسراة اليمنية، ولم تكن موجهة قط نحو فلسطين. سنرسم -هنا- إطاراً تاريخياً لقراءة قصيدة أشعيا :

في العام ٦٨١ ق. م لقي سنحاريب حتفه بعد مؤامرة ناجحة لاغتياله في بابل. والتوراة تشير إلى هذه الواقعة وتسجلها في سفر الملوك الثاني. كان سنحاريب عائداً من حملة حربية لتأديب القبائل البدوية في البادية العربية (وهذا أمر مؤكد في السجلات الآشورية بينما تقول القراءة الاستشراقية لسِفر الملوك الثاني إنه كان عائداً من فلسطين وذلك ما يستحيل تأكيده بسبب عدم وجود مصدر آشوري يدعم مثل هذا الادعاء) عندما تعرض موكبه لمحاولة الاغتيال هذه حيث قتل على الفور. كان

أسرحدون -ابنه- هو الوريث الشرعي، الذي حظي بقبول وتأييد النبلاء والوجهاء في بابل، وقد بدا أن خبرة هذا الأمير تؤهله لقيادة البلاد بالفعل؛ إذ سبق له أن أدار السلطة على نحو ما بعد فتح بابل نحو العام ٦٨٩ ق. م في عهد والده. ولهذا نُظر إلى أسرحدون كملك قوي يستطيع مواصلة قيادة الإمبراطورية، وتعزيز نفوذها وصمودها في مواجهة مصر. كانت الحملة التقليدية التي قادها أسرحدون، استطراداً عسكرياً وسياسياً مألوفاً في الحملات الحربية ضد البدو، وهي لا تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى فلسطين، وليس هناك أي إشارة مهما كانت عابرة، إلى أن الحملة اتجهت إلى شاطئ المتوسط؛ بل على العكس من ذلك، هناك كل الدلائل التي تؤكد على أن الصراع مع المصريين كان يتمركز-في هذه الحقبة من التاريخ العراقي القديم - على سواحل البحر الأحمر وقرب نجران. ولذا، سنبدأ من القصيدة قبل الشروع في إعادة بناء المسرح التاريخي الحقيقي للحملة. هنا قصيدة أشعيا مع اختصار بسيط فهي تبدأ بدعاء ديني يشير إلى معارك آشور مع مصر:

لكن- كي- ءمر- ء دوني- يهوه- صبئوت- ءل- تيرء -عمي - يشب- صيون-م-ء شور:

يصور-م-بلو- شكمك

وعلو-م- فني- سمن

وحبل

بء-عل- عيت

عبر- ب- مجرون

ل-مكمس

يفقيد-كليو- عبرو

م-عبره

جبع-ملون- لنو

حرده-وها-رمه

وجبع شاول

نصه- صهلي-قولك- بت- جليم

هتقشيبتي-ليش

عنيه-عنتوت

نده-مدمينه

يشبي-ها- جبيم

هعيزو-عود-ها-يوم

ب-نوب

ل-عمد

ينفف-يده

هر- صيون

جبعت يروشليم

هنه-ها-ءدوني- يهوه- صبئوت

م- شعف -فـءره-ب- معرصه

ورمي-ها-قومه-جدعيم-وها-جبهيم-
يشفلو

وتفف - صبكي - ها - عير - ب -
برزل - وها -

لبنون - ءدير - يفلو.

ما تقوله القصيدة حسب ترجمتنا للنص هو التالي:

هكذا، وكما قال السيدُ رَبُّ النجوم:

لا تخفْ من آشور

يا شعبي الساكن في صهيون (صيون)

يخرجون من أكتافك

ولا يصعدون من أعالي ظهرك

من حبل

أو الأعالي من أمام سمن

جاؤوا من عيت

وعبروا مجرون

إلى أشراف مكمس كلها

عبروا إلينا من عبره (عبرى)

وجبع

وملون

ومن حرده

والرما

ومن جبع شاول

يا نضة،

يا ابنة الجليّم فلترفعي عقيرتك

ولتسمعكِ الليث

لتُجِبْ عنتو

ولتتحرك مدمينه

لأن ساكنة الجبيم

والعود

اختبؤوا

اليوم هو في نوب

وفي عمد

يدهُ تلوحُ في جبل بنت صهيون

وجبعة و أورشليم

وها هنا قال القيُّوم رَبُّ النجوم:

بالقضبان المُزخرفة في أعراضهِ

سيرمي القامات ويفلق الهامات

يدمر الغابات

والمنازل

وبالحديد يفلُّ لُبنان

وأذير.

تصور هذه القصيدة الحزينة، معاناة القبائل البدوية المُضْطهَدَة (على الرغم من تحذيرات أشعيا المتكررة من مغامرات الصدام مع الإمبراطورية الآشورية والتي ذهبت هباء) وحسب؛ وإنما كذلك وعلى نحوٍ دقيق للغاية، معاناة الشاعر نفسه وهو يشاهد تخاذل الجماعات البدوية ثم فرارها أمام بطش الآشوريين المخيف. بيد أن ما هو هام للغاية فيها، فضلاً عن هذا الجانب الإنساني؛ وصف القصيدة وضبطها الدقيق لأسماء المواضع والأماكن التي زحف نحوها أسرحدون. هذه الأماكن لا وجود لها في فلسطين مهما فتشنا هناك؛ والزعم بوجودها في فلسطين سوف يصطدم بمعضلة غير قابلة للحل: إذ لا يمكن الوصول إلى لُبنان من جبل أذير-

ءدير، كما لا يمكن الوصول إليه من جبعة أو من وادي حبل؟ لأنها ببساطة غير موجودة لا في فلسطين ولا في لبنان. والمثير أن السجلات التي تركها أسرحدون، واللوحات الصخرية العظيمة التي تخلد معاركه، لا تتركان مجالاً للشك في أن هذه المعارك إنما جرت في الصحراء، وليس على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، فالنص التوراتي يتحدث عن أعداد من الجمال والإبل كانت مع قوافل الأسرى اليهود. وإلى هذا كله، فإن اللوحات الآشورية تظهر الأسرى وهم يلبسون ملابس بدوية (مع مئزر قصير شبيه بمآزر اليمنيين المعاصرين)؟ فأين حدث الخطأ؟ هل وقع الأسر البابلي في فلسطين أم في مكان آخر؟ سوف نفتش عن مسرح الحدث استناداً إلى النص نفسه الذي اعتمده علماء التاريخ ولكن بالاستعانة بالشعر الجاهلي ووصف الهمداني (اليمني) وإلى التاريخ المكتوب أيضاً.

الأماكن والمواضع في مرثية أشعيا وفي وصف الهمداني لليمن

إذا كانت الأماكن والمواضع الواردة في مرثية أشعيا، لا وجود لها في فلسطين وعلماء الآثار فشلوا في الحصول على دليل واحد، يؤيد المزاعم عن وقوع الحدث التاريخي هناك؛ فأين يمكن لنا أن نجدها؟ هل لفق أشعيا أسماء هذه الأماكن؟ هل أخطأ المحرر في تسجيل الأسماء كما سجلتها المرثية؟ إليكم وصف الهمداني وضبطه للمواضع الواردة في هذه القصيدة؛ وفيه على سبيل المثال لا الحصر، تحديد دقيق لوادي (حَبْل) الذي لا وجود له قط في أي مكان آخر سوى اليمن (صفة: ٢٨-٢٨٣). ففي وصفه للأودية الشهيرة في اليمن القديم، يورد الهمداني الوصف التالي الذي يبيّن موقع الوادي ضمن جغرافية بعينها، تضم منطقة نجران حيث دارت أحداث قصص الحملة العسكرية الآشورية؛ وهو وصف لا وجود لما يضاهيه في جغرافية فلسطين:

وَحْبل وعضلة، والصمع، أودية تسيل إلى - ثم- الغائط والحَضَن بنجران.

وجود وادي حَبْل-حبل في هذا الفضاء الجغرافي، يتوافق تماماً مع تحديدات الأعشى لجبل صهيون على مقربة من نجران (انظر مادة صهيون في شعر الأعشى عندنا، وكنا حددنا جبل صهيون في قصيدة الأعشى عن نجران، فانظره في الجزء الأول من هذا الكتاب). كما يتناسب مع تحديدات أشعيا للجبل نفسه. هذا يعني أن الحدث وقع قرب نجران وليس في فلسطين التي لا تعرف اسم الوادي، لا قديماً ولا حديثاً. يقول أشعيا:

يا شعبي الساكن في صهيون

لا تخف من آشور

يخرجون من أكتافك

ولا يصعدون من أعالي ظهرك

من (وادي) حَبْل.

هذا يعني أن الجيش الآشوري، في أثناء حملة أسرحدون، هاجم المواضع ذاتها التي سوف يهاجمها نبوخذ نصر تالياً في حملة متأخرة، وهي أيضاً المواضع نفسها التي استهدفتها من قبل سائر حملات الملوك البابليين، وصولاً إلى ملوك الحيرة المتأخرين حتى عشية الإسلام[١]؛ الذين كرَّروا الهجمات الحربية المنظمة ضد القبائل نفسها وفي المكان نفسه. هذا هو المسرح التقليدي للتنافس مع المصرين على الساحل اليمني

---

(١) انظر حول حملات ملوك الحيرة (مثلاً حملة المنذر الأكبر) ما كتبناه في هذا الكتاب، وفي كتابنا (أبطال بلا تاريخ: الميثولوجيا الإغريقية والأسطورة العربية) دار الفرقد، دمشق ٢٠٠٥.

من أجل السيطرة عليه وإخضاع القبائل المتمردة. وهذه بالطبع، هي المنطقة المثالية بجغرافيتها الوعرة وشراسة قبائلها، لوقوع حدث ضخم من هذا الطراز. لقد كانت باستمرار المصدر الحقيقي للتهديد الذي ظلت ممالك العراق القديم تواجهه؛ بينما على العكس من ذلك، كانت بلاد الشام هادئة ومستقرة نسبياً في علاقاتها مع الآشوريين. صعد الجيش الآشوري في أثناء مهاجمة ساحل عدن من نقطة ما على الساحل، متفادياً الطريق الوعر لسلسلة الوديان والجبال في هذه المنطقة؛ وهذا مغزى قول أشعيا: إن أشور خرج لمحاربة القبائل من موضع يدعى عيت-غيت. وبكل تأكيد ليس ثمة من وادٍ يدعى وادي حبل أو جبل سمن في ساحل فلسطين. وفي الواقع؛ فإن جبل سمن هذا يقع على مقربة من وادي حَبْل تماماً كما في القصيدة. هاكم وصف الهمداني للمنطقة المحيطة بنجران صفة: ٢٢٦ حيث بلد يام-يام (وفي مرثية أشعيا: يام):

> **بلد يام: ليام وطن بنجران، نصف ما مع همدان منها، ثم بلدهم يطرد عليها ناحية الحجاز إلى حدود زبيد وما يليها حارة وملاح-ثم-سمنان وقابل نجران.**

ها هو جبل سمنان (تثنية سمن) أو جبل سمن كما عرفه الشعر الجاهلي في المكان نفسه، قرب وادي حاره (حاره في قصة هروب داوود)[1] وعلى مقربة من وادي ملاح-ملاح في التوراة. قال عبد بن حبيب (معجم-ط: بيروت، ٣: ٤١) راسماً الاسم في صيغته القديمة:

تركنا ضُبْعَ سُمنٍ إذا استباءت كأن عجيجهُن عجيجُ نيبِ

في تحديد جبل سُمن تحديداً دقيقاً، احتار القدماء من الجغرافيين

(١) انظر حول حارة وسواها مما يرد في هذا الجزء، ما كتبناه في الجزء الأول.

المسلمين، وأخطأ البكري في تحديد جبل سمنان الوارد في نص الهمداني والمصادر القديمة، حين قال عنه: إنه موضع في نيسابور. بينما يمكن الاستنتاج من الأشعار العربية الجاهلية أن المكان واحد كما حدده الهمداني آنفاً، عند قابل نجران (كبول في العبرية. والكلمة لا مكافئ لها في العبرية المعاصرة). وإذا ما تتبعنا توصيف أشعيا؛ فإن الآشوريين بقيادة أسرحدون ساروا على الطريق من موضع عيت-غيت، بمحاذاة الساحل تفادياً لوعورة الجبال والوديان. وليس ثمة من مكان يُدعى عيت في فلسطين بكل تأكيد؛ ولكن توجد في المقابل بلاد ساحلية قديمة عرفت باسم بلاد غيث- بالثاء المُعجمة التي لا تعرفها العبرية وتستعيض عنها بالتاء عادة -وهي بلاد ساحلية على مقربة من ساحل عدن (صفة: ٩١) هاكم ما يقوله الهمداني عن هذه البلاد:

غُبَّ الغيث بطن من مهرة، فغُب القَمَر (...) وفي المنتصف من هذا الساحل شرقاً بين عُمان وعدن: ريسوت،فمن أراد عدن فطريقه عليها (..) إلى بلاد الغيث من مهرة.

ريسوت هذه، تقع في منتصف الطريق الساحلي ومنها يمكن الانطلاق نحو بلاد غيث-الغيث، وسكانها بطن من قبائل مهرة اليمنيين وكانت من أكثر المدن الساحلية شهرة، بسبب استهداف الحملات العسكرية لها، فما من حملة حربية لإخضاع الساحل اليمني إلا وبدأت بإنزال بحري في هذا المكان، وقد أفرد لها مؤلف كتاب الطواف حول بحر أرتيريا، وهو مؤلف يوناني مجهول من القرن الأول الميلادي، حيزاً خاصاً نظراً لمكانتها وشهرتها. كما استهدفها البرتغاليون الغزاة في أواسط القرن العاشر الهجري. ولذلك سيبدو قول أشعيا مفهوماً تماماً: قاد الآشوريون هجومهم من نقطة استراتيجية على الساحل اليمني في حركة التفافية

لتطويق قبائل الداخل. وسوف يتضح هذا المعنى جلياً في المقطع التالي من القصيدة، ولنلاحظ حرف الميم في أول الأسماء العبرية؛ وهو برأينا أداة تعريف منقرضة لا تزال مألوفة في كلام أهل اليمن، مثل أم رجل في الرجل، أمسفر في السفر، ءم بعير في البعير؛ بينما احتار علماء اللغة العبرية به:

جاءوا من عيت-غيت

وعبروا مجرون-الجرون

إلى أشراف مكمس-الكامس كلها

عبروا إلينا من عبره-عبرى

وجبع

ومَلْون

ومن حَرده

والرّما

عبرت القوات الآشورية من هذه النقطة الساحلية الاستراتيجية، لتضرب القبائل المتمردة هناك قبل أن تزحف عبر طريق السرو، متجهة إلى موضع يدعى مجرون-الجرون وهم من البطون الحِمْيَرية. هاكم ما يقوله الهمداني عن عبره و مجرون في المكان نفسه الذي وصفته القصيدة (صفة: ١٨٦-١٨٧):

رجع إلى ردمان: نوعه لجُران وهم من حِمْيَر، وهم في ناجية[١]- قبيلة ناجية-. وهم في المُسمق الأعلى. والمُسمق الأسفل لبني مليك،

(١) عند نسّابة العرب يظهر لؤي- لوي في التوراة كبطن من بطون ناجية وهو لؤي بن غالب (بن كالب في التوراة). انظر ما كتبناه في (شقيقات قريش - مصدر مذكور).

وحرية للرمسيين (.......) رجع إلى صفات الميمنة: طريق السرو ثم مرخة وأولها العُبْرَة.

ها هنا قبيلة الجُران الحِمْيَرية التي هاجمها أسرحدون، ثم واصل زحفه في مناطقها حتى بلغ مشارف مكمس. وها هنا عُبْرَة التي عبر منها (عبرو-م-عبره) ماراً في طريق زحفه المتواصل على جبع-جبأ وملون ووادي حرده وجبل الرما. لابد هنا،من بعض الملاحظات الضرورية والهامة للغاية: إن موضع رمس الذي يُنسب الرمسيون إليه، وهم من القبائل والبطون اليمنية القديمة كما في نص الهمداني الآنف، هو ذاته الموضع الذي اشتبه على محققي التوراة فظنوا واهمين أن اسم المكان رمس -في العبرية رمس- يقصد به اسم المدينة المصرية رمسيس. لذا زعموا دون أدنى دليل من النص نفسه، أن بني إسرائيل أقاموا في هذه المدينة الفرعونية، فيما يتضح أن المقصود به رمس وهي موضع قبلي في اليمن، ويرسم في العربية في صورة رمس تماماً ولا علاقة له بالفراعنة. وأهمية الموضع تكمن في وجود موضع في نطاقه الجغرافي يدعى عمد، (الوارد في النص العبري أعلاه). وهذا أمر يستحيل توقعه على أساس المصادفة. هاكم وصف الهمداني ومحققه لهذه المنازل القبائلية (مصدر مذكور أعلاه):

(حَرْبَة قرية دارسة تنتابها البدو الرُّحل للإقامة في أطلالها لرعي الأغنام والإبل وتقع في عُمد من سارع-الإكليل ج٢: ٢٥-والرمَسيين هم بنو رمس)

ها هنا عُمد-عمد من عُزلة سارع وهي بالرسم ذاته في العبرية عمد. بيد أن المترجمين توهموا أن الكلمة تعني (وقفَ) بتحويل المضارع (يعمد) إلى فعل ماضي؛ ولذلك ترجموا بيت الشعر: (ب-نوب-ل-عمد-

ينفف-يده) على النحو التالي: (اليوم ما زال يقف في نوب يحرك يده). وهذه ترجمة غير مقبولة لأن حذف حرف الجر لا مبرر له، كما أن عمد لا تعني وقَف؛ بل هي اسم مكان كما هو واضح من سياق النصّ. ولذا فالبيت يقول واصفاً زحف الجيش الآشوري: (اليوم في نوب وفي عمد يدهُ تلوح). وليس ثمة بالطبع، كلمة تؤدي معنى -ما زال- التي أضافها المترجمون لفك لُغز البيت الشعري. ثم عبَر الآشوريون من موضع يدعى عُبْرَة إلى الجنوب من ردمان، واتجهوا في طريق السرو صاعدين نحو جبع. إن فلسطين لا تعرف مثل هذه الجغرافية ولا مثل هذه الأسماء، وليس بوسع الباحث أو السائح، ببساطة، أن يسير من عُبْرَة في فلسطين إلى جبع لأنه لن يجدها هناك، بينما يستطيع أن يشاهدها بسهولة إذا ما سار في طريق السرو اليمني. إن جبع التوراتية هذه، هي ذاتها سلسلة جبال جبأ-جبع كما ينطقها اليمنيون اليوم، بتخفيف العين وتحويلها إلى همزة، على جري العادات الصوتية للقبائل[1] وهذا أمر مشهود ومألوف في كلام القبائل (مثلاً: اسم العالم والفقيه اليمني الجباعي-الجبائي الذي ينطق ويرسم في الصورتين). هذه الجبال هي جبال جبأ-جبع المعافر أشهر المخاليف اليمنية وأكثرها ازدهاراً، وكنا تحدثنا عن (جبعة) التي اكتشفها علماء الآثار في المعافر اليمنية وعن قصرها الأثري الذي عثر فيه المنقبون على بعض اللقى. وبكل يقين لا تعرف فلسطين موضعاً يُدعى جبعة أثرية أو جبع جبلية، يستطيع فيه علماء الآثار الحصول على دليل حقيقي عن وقوع الحدث؛ بينما تعرف السراة اليمنية هذا الموضع باسمه التوراتي (جبعة) تماماً. بقي أن نشير إلى حقيقة أن وادي عُنة-عنتوت هو في هذه السلسلة الجبلية وبالوصف ذاته في القصيدة التوراتية. وإلى هذا كله توجد

---

(١) مثل قول ذي الرمة (أعن ترسمت) وهو يريد: (أإن ترسمت) فتحولت العين إلى همزة. وانظر ما كتبناه حول أشير التوراة وهم الأشعريون عند الهمداني.

قرية دارسة تُدعى منوب-نوب بالقرب منه (لاحظ الميم اليمنية) فضلاً عن موضع دمينه- مديمنة (ولاحظ الميم هنا أيضاً). إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٩٣-١٩٨):

رجعنا إلى غربي محجة عدن: السحل أرض بني مجيد (..) وأما جبأ وأعمالها وهي كورة المعافر فهي في فجوة بين جبل صبر وجبل ذخر وطريقها في وادي الضباب ويسكنها السكاسك، ومنازلهم من قاع جبأ (...) وصحارة، والدمينة -ثم- مخلاف السحول: غلاس وعُنة وجبأ الذي يُنسب إليه جبأ المعافر (....) وذو مناخ بن عبد شمس وريمان وعروان (..) ومن هذا المخلاف: جبل أدِم ودمت ومنوب.

إذا سلمنا بتوصيف قصيدة أشعيا للطريق التي سلكها أسرحدون، في حملته على نجران والقبائل المتمردة؛ فهذا يعني أنه سلك الطريق في السرو من غربي عدن، وليس أي طريق آخر. وكنا رأينا أن هذا الهجوم بدأ من مكان يدعى غيث- بلاد الغيث، وهي نقطة ارتكاز ساحلية في منتصف الطريق على مقربة من عدن، ليتجه من هناك صوب سرو حمير، مكتسحاً القرى والمنازل القبلية ومُسيطراً على الممرات الاستراتيجية في الجبال والوديان، وباسطاً نفوذه في أهم المخاليف-الممالك اليمنية. وهكذا؛ فإنه يكون قد مرّ بجبال جبأ-جبع واجتاز وادي عُنَة والدمينة-مدمينة. وهذا الطريق سوف يُفضي بالجيش، بكل تأكيد، إلى المواضع التالية تماماً كما في القصيدة: مخلاف (مملكة) عود- وهي مملكة عود في التوراة، ووادي حرد-حرده، وملون-ملو، وجبل الرما-الرما. ولنلاحظ هنا ما يلي: إن أسفار التوراة وخصوصاً صموئيل الأول والثاني، تشير إلى أن صموئيل النبي كان يُقيم قرب جبل الرما في واد يدعى نوب، وكنا رأينا أن جبل الرما يقع قرب دُمت (انظر ما كتبناه عن

دُمت والرما) وهما موضعان في جبال جبأ-جبع المعافر. يعني هذا أن الهجوم طاول السكان في جبل الرما كما يقول أشعيا. ومن هذا الجبل اتجه أسرحدون إلى مخلاف عود مباشرة. لقد عبثت الترجمة العربية-في نسخة التوراة- بالمعاني الحقيقية للقصيدة، وذلك من خلال تقديم وتأخير تسلسل الأبيات الشعرية، وهذا ناجم عن صعوبة فظيعة واجهت المترجمين، الذين لم يفهموا المقصود من كلمة عود الواردة في سياق يجعل من معناها غريباً ومثيراً. فإذا ما ترجموا البيت التالي: (هعيزو-عود-ها-يوم-ب-نوب-ل-عمد) حرفياً وحسب السياق؛ فهذا يعني أنهم يجب أن يقولوا على لسان أشعيا ما يلي: (اليوم تجرأ ثانية ووقف في نوب). لكنهم بدلاً من هذا الاحتمال المقبول نسبياً، قدموا جملة مفككة تقول ما يلي: (قد اتخذوا ملجأ، اليوم ما زال يقف في نوب). في الواقع لا تعني كلمة ها-عيزو: اتخذ ملجأ، لأن الكلمة الدالة على الملجأ هي هعيزر- بالراء- بينما تعني ها- عزه- تصريف عزو-: تجرؤ، تجاسر، وقاحة. أما كلمة عود هنا فلا تعني ثانية أو أيضاً؛ بل هي اسم المخلاف اليمني العامر، الذي اجتاحه أسرحدون مباشرة بعد دخوله جبال جبع ووادي حرده. إليكم وصف الهمداني للمواضع الواردة في القصيدة (صفة: ٢٠٠-٢٠١):

> ومليان هو مخلاف يسكنه العوديون وغيرهم من أقباض-أي أخلاط حِمْيَر-والعود للعدويين منه مصانع رُعين ومن الأودية وادي حرد (..) ومليان.

ها هو مخلاف عود، الذي تقطنه قبائل من أخلاط حِمْيَر وهو للعدويين (عديتيم في التوراة). ومن هذا المخلاف سوف يتجه أسرحدون للسيطرة على وادي حرده-حرد ووادي ملون- مليان مجتازاً الدمينة-

مدمينة. المُثير للاهتمام في هذا النطاق، أن المترجمين ترجموا جملة (وجبع - شاول- نصه) إلى (وفرّت جبع شاول). وهذه ترجمة غير مقبولة وغير مفهومة، لأن المقصود من كلمة نصه العبرية وحسب سياق النص الشعري، الإشارة إلى موضع بعينه يدعى نضه، وقد خاطبه الشاعر متوسلاً بقبائله أن تتحرك لنجدة المُحاصرين. وبالطبع ليس ثمة ما يشير إلى (فرار جبع). ومهما كانت مُخيلة الشاعر القديم جامحة؛ فإنه لا يمكن أن يقول (فرَّ الجبل أو هرب الوادي). والصحيح أن البيت يقول ما يلي:

(يا نضه

يا ابنة الجليم فلترفعي عقيرتكِ)

يتوجه الشاعر بندائه هذا إلى القبائل البدوية-من العرب العاربة في منطقة الحجر، وهذا هو سر الوصف الذي يُطلقه عليها: ابنة الجليم. والجلم- أو الجلام في صيغة الجمع هو أطراف الجبال في كلام أهل اليمن (صفة: ٢٧١-٢٧٢):

> والجلام أطراف الجبال حيث انجلمَ الطول وانقطع.

وها هنا نضه (العبرية تستبدل الضاد المُعجمة بالصاد المهملة مثل: ءرص، أرض) في أطراف السرو في منطقة الحجر كما يقول الهمداني (صفة: ٢٣٥):

> وبحذاء بلد الحجر أعلى تُرج وجوانب بيشه التي تلي السراة قرية مما يُصالي بيشه يُقال لها نضه (..) ومن أوديتها الغورية فرشاط وأسفله من كنانة.

وسوف يكون مفهوماً تماماً المغزى الحقيقي لقول أشعيا،مباشرة بعد

مخاطبة نضه-نصه ابنة الجلام: ولتسمعكِ الليث (هقشبيتي-ليش) لأن الليث من ساحل كنانة.وهذه الأودية هي أسفل فرشاط ووادي نضه وبيشه- بيش- في التوراة.

إليكم وصف الليث في صفة جزيرة العرب (صفة: ٢٣٢):

ووادي بيش- بيشه- ثم بلد حرام من كنانة والسرين وساحل كنانة هو الليث.

بذلك يتضح مغزى المساندة التي توخاها أشعيا في قصيدته: أن تهبّ القبائل العربية العاربة في الساحل وفي أطراف السرو لمقاومة أسرحدون، بعدما تخاذلت القبائل في مخلاف العود وفي أطراف الجبال أو الجبيم، واختبأت أو فرت أمام الجيوش الزاحفة. أما الجبيم -الجمع العبري من جب- والتي تخاذلت قبائلها، فليست سوى موضع الجبات (الجمع العربي من جب) والتي وصفها امرؤ القيس في قصيدة شهيرة:

غشيتُ ديار الحي بالبكرات فعرمة فبرقة العبراتِ

فغول فحليت فنفء فمنعجٍ إلى عاقلٍ فالجب ذي الأمراتِ

الفصل الثاني

معارك أسرحدون في السراة اليمنية وإعادة بناء أورشليم في سرو حِمْيَر

هذه الحملات الحربية التقليدية التي تزخر بأخبارها السجلات واللوحات الفنية الآشورية العملاقة، حيث مشاهد الأسرى المصفدين بالسلاسل من رجال القبائل، بأزيائهم البدوية وهم يُجَرجَرون في الساحات العامة؛ تبدو أمراً مألوفاً في التاريخ الآشوري. وفي إطارها وقع بكل تأكيد حادث هام للغاية: لقد تمكن الآشوريون، في حملة خاطفة بقيادة أسرحدون، من أسر ملك من ملوك بني إسرائيل يُدعى منسه. وحسب رواية النص التوراتي؛ فإن الملك الإسرائيلي اقتيد مكبلاً بالحديد إلى بابل هو ورجاله.

إذا ما وضعت أخبار هذه الحملة المُبكرة من حملات أسرحدون، في سياق التاريخ الشخصي لهذا الملك الآشوري القوي، فيجب -في هذه الحالة- أن نفترض أنها وقعت نحو العام ٦٤٢ ق. م وليس أبعد من هذا التاريخ؛ لاعتبارات عدة، من أهمها أن وجود الملك الإسرائيلي منسه في

أسر الآشوريين لم يدم طويلاً ؛ إذ سرعان ما شعر الآشوريون بالحاجة إلى إعادة تنصيبه ملكاً في مملكة-مخلاف اليهودية[١]. وعلى هذا الأساس جرت عملية تحريره ورجاله، وتمّت إعادتهم لتنصيبهم في أورسالم-أورشليم والسماح لهم بإعادة بناء ما تهدم منها، وذلك في إطار اتفاق سياسي جديد بين الإمبراطورية والقبائل المتمردة، يقوم فيما يقوم، على أساس مواصلة الولاة والحكام في الأقاليم الواقعة تحت سيطرة الآشوريين، لأدوارهم التقليدية في ضمان خضوع قبائلهم وممالكهم الصغيرة. وبذلك تكون هذه الحروب والأدوار السياسية للملوك المُعاد تنصيبهم، قد تجاوزت مسائل دفع الضرائب أومنع القبائل من التمرد على الإمبراطورية؛ إلى الاستمرار في مقاومة المطامع المصرية، ومنع وحرمان المصريين من مد نفوذهم في الساحل الطويل للبحر الأحمر. وبذلك أيضاً، تكون هذه أول محاولة لإعادة بناء أورشليم تعرفها التوراة وتسجلها.

من وجهة نظر العهد القديم وكاتب السفر التوراتي؛ فإن الملك الإسرائيلي منسه ارتكب خطايا جلبت عليه غضب الرّب، حتى أرسل له آشور ليؤدبه ويعاقبه ويأخذه أسيراً. ومن بين هذه الأفعال الشريرة ممارسة الملك لفنون السحر والتنجيم والكهانة، كما أنه أمر أولاده بطاعة النيران في جبل هنوم، حيث عُبدت النجوم آنئذٍ على جري عادات دينية قديمة:

(وبن-مزبحوت-ل-كل-صبء-ها-شميم-وهوء-ها- عبير-ءت-بنيو-ءشر- بني-بن-هنوم)
(وبنى مذبحاً لكل نجوم السماء وأجاز الخطيئة لأبنائه الذين في وادي هنوم)

(١) انظر الكتاب الرابع المكرّس لبحث مسألة مخلاف- مملكة يهوذا.

لقد سبق لنا - في الكتابين السابقين- تحديد جبل هنوم هذا، في السراة اليمنية وبالصيغة العبرية ذاتها هنوم، ولذلك لا حاجة للتكرار. ولكن بصدد الواقعة التي تتحدث عن وجود عبادة وثنية في جبل هنوم، لا بد من الإشارة هنا إلى وجود علاقة عضوية بين المكانين؛ إذ عندما عاد منسه إلى أورشليم (أورسالم)[1] باشر هو ورجاله في إعادة بناء ما تهدم منها، انطلاقاً من مكان يقع قرب جبل هنوم؛ والنص التالي (النص العبري) يحدد على أكمل وجه المناطق التي شملها البناء. وسوف يكون من قبيل التعسف أن يُرى إلى هذه المواضع على أنها في فلسطين (٣٣: ٨: ٢٢: من سفر الأخبار الثاني- والنص العربي: ٣٣: ١٠: ٢٥):

> **(ءحيري-كن-بنه-حومه-حيصونه-ل-عبر-دود-م-عربه-ل-جيحون-ب-نحل-لبوء-ب-شعر-ها-دجيم-وصبب-ل-عفل ويجبيهه)**
> **(وأسّس كذلك وبنى سوراً حصيناً إلى عبرى داوود، ومن عربه إلى جيحون، وفي وادي لبو، وفي-جبل-شعر، والدجيم فترتفع إلى-وادي- الضباب وجبيهة)**

يتضح من هذه النصوص أن الآشوريين دمروا منطقة واسعة، قبل أسرهم الملك الإسرائيلي الذي كان يُقيم في جبل هنوم، وأن هذا الملك، وفور عودته من الأسر أعاد بناء أسوار أورشليم المُهدمة، وأصلح مكاناً بعينه يدعى منازل داوود. كما قام بإصلاحات في وادي ها-عربه-العرب وجيحون و لبوء-لبو، وجبل الشعر والدجيم ووادي صبب-ضباب ويجبيهه (جبيهة). إذا كانت أورشليم هذه وطِبْقاً لوصف محرر سِفر الأخبار الثاني، تقع قرب هنوم وسائر المواضع أعلاه؛ فإنها بكل تأكيد

(١) لا يزال سكان اليمن حتى اليوم يعرفون بعض الأماكن (قرى بائدة قرب صنعاء) كانت تحمل اسم أورسالم.

ليست القدس العربية في فلسطين. إن فلسطين لا تعرف مكاناً لعبادة النار في جبل يدعى هنوم، ولا مواضع بمثل هذه الأسماء. ولذا يتعين إعادة وضع هذه الحملة المبكرة على القبائل العربية العاربة، ضمن التاريخ الآشوري في السراة اليمنية وليس في فلسطين. (انظر ما كتبناه عن هنوم والشعر وجبيهه الحجر والضباب وعبره وسواها). ولأجل التحقُّق من وجود هذه المواضع والأماكن كما وردت في النص العبري، فسوف نعيد رواية الحادث بصوت الهمداني. لقد اشتهرت اليمن القديمة بما يُعرف بنار اليمن وهي، كما يبدو من الإخباريات والمرويات الكلاسيكية، نيران بركان جبلي في سلسلة جبال هنوم، المؤلفة من جبلين كبيرين وجبل صغير ثالث وتعرف بسراة عذر وهنوم. تتصل سراة هنوم بسراة جُبلان عبر سراة المصانع من صنعاء؛ وبذلك فهي تتصل بالفعل بوادي العرب -ها-عربه وبيت بوس، التي تصفها التوراة بأنها أورشليم. وإذا ما سار المرء في هذه السراة الجبلية فسوف يصل إلى يجبيهة التوراتية في سراة الحجر. إليكم وصف الهمداني للمواضع المذكورة في النص التوراتي (صفة جزيرة العرب: ١٢٢)

> **في وصف سراة جبلان: رمع وباب كحل والعرب ونقيل السود (حيث بيت بوس-انظر بيت بوس عندنا). ثم يتصل بها سراة المصانع.**

يضيف الهمداني (صفة: ١٢٦-١٢٧) ما يلي:

> **موتك وحجَّة وقد يكون إلى سراة المصانع أميل، فذاهباً إلى جبل الشرف المطل على تهامة ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهنوم.**

إذا ما تقبلنا الخبر الذي ينقله كاتب سِفر الأخبار الثاني، باعتباره خبراً تاريخياً كتب بلغة مثيولوجية، عن قيام الملك مَنَسه ببناء أسوار

أورشليم المُهدمة (وهذه تقول التوراة عنها أنها بيت بوس) وأن هذه البناء كان جزءاً من سلسلة إصلاحات واسعة شملت وادي العرب -ها-عربه ووادي لبوء- لبو؛ فهذا يعني أن المكانين الموصوفين في التوراة هما متقاربان؟ إليكم وصف الواديين (صفة: ٢٠١-٢٠٥) كما شاهدهما الهمداني عندما سار في أرض اليمن نحو مملكة -مخلاف العود- العود في التوراة وأوديته وصولاً إلى صنعاء، يقول الهمداني:

ومن الأودية وادي سيان ووادي حرد ومن المصانع كحلان ولبو (..)-إلى-مخلاف جيشان ومخلاف مأرب (..)-ثم- المخاليف التي بين المعافر وصنعاء غرباً جُبلان العركية (..) وجُبلان هذه بين وادي زبيد ووادي رمع وجُبلان ريمة هي ما فرّق بين وادي رمع ووادي سهام ووادي صيحان والعرب إلى صنعاء، ويفرق بين جبل بُرَع وبين جبل ضلع وادي سير ووادي العرب.

هذا هو الطريق المؤدي إلى وادي لبو-لبوء، تماماً كما في وصف سِفر الأخبار الثاني، حيث يمكن للسائر أن يصل إلى وادي العرب، مجتازاً سلسلة من الوديان والجبال في السراة باتجاه النجد (نجد همدان). وها هنا وادي حرده- حرد. أما جيحون التوراتية فهي جيحان في الشعر العربي وهي التي قال فيها ابن الرقاع (صفة: ٣٥٣):

وجيحان جيحان الجيوش واللسّ وحزم خزا زى والشعوب القواسر

إن القدس العربية في فلسطين لا تعرف أي موضع، أو مكان ينطبق عليه وصف التوراة في هذا النصّ. والمدهش أن المترجمين قاموا بإعطاء مكافئ خيالي وغرائبي لجملة (ب-نحل-لبوء-ب-شعر-دجيم) هو التالي (في الوادي إلى مدخل بيت السمك). وهي ترجمة مُخادعة وشاذة الغرض

منها مُطابقة اسم الجمع العبري ها-دجيم، مع اسم الحي في القدس الغربية - اليوم- والذي يدعى بيت السمك، وذلك من أجل الإيحاء أن التوراة وصفت مواضع في فلسطين قرب القدس. بينما المقصود هو جبل الشعر قرب موضع يدعى دجيم (الجمع العبري من دج: وفي الجمع العربي: دجوج). وهذا اسم موضع شهير ومعروف في الشعر العربي القديم. إن الترجمة الصحيحة والأمينة للجملة وللنص ومقاصده هي ما يأتي: (في وادي لبو، وفي - جبل- شعر، وفي دجيم). علماً أن الترجمة الاستشراقية قامت بحذف كلمة (لبو) من النص لأنها لم تجد لها أي مقابل أو معنى واستعاضت عنها بكلمة مدخل. كما قامت بمكافأة الاسم شعر بكلمة باب. ولذا أصبحنا أمام تركيب لغوي غريب (مدخل بيت السمك). كل هذا من أجل مُطابقة الاسم التوراتي دجيم مع اسم حي جديد في القدس زُعم أن اسمه القديم هو باب السمك. لكن الأسماء الواردة في النص العبري، هي لمواضع معروفة ليس بينها ما يُدعى مدخل بيت السمك. قال الشاعر شبيب بن البرصاء (صفة: ٣٤٩) في وصف موضع دج- دجيم (الجمع العربي دجوج):

فالسكران إلى دجوج كأنها ورق المصاحف خُطَّ بالأقلامِ

هذه هي جغرافية الحملات الحربية التي وقعت في عصر أسرحدون عندما اجتاحت قواته السراة اليمنية.

في القَدَس اليمنية

أريدُ -في ختام هذا المقطع من الفصل- أن أرسم صورة موجزة ولكن دقيقة، عن القدس اليمنية في مخلاف المعافر؛ وهي جبل مبارك لا يزال معروفاً حتى اليوم، حيث عاش هناك ذات يوم بعيد من التاريخ، شعب يدعى بالعبرية فلستيم ويدعى في العربية الفلس، أو الفلست حسب

طريقة الكتابة اليمنية. وفي نطق بعض أهل اليمن: ءم فلس أي الفلس (مثل ءم رجل في الرجل، وءم بعير في البعير). هذا الشعب صوَّرته القراءة الاستشراقية على أنه شعب من الغرباء، الذين عاشوا وأقاموا في فلسطين التاريخية. عاش الفلستيون-كما تقول التوراة في نصوص متفرقة- كجماعة وثنية دخلت في معارك وحروب طاحنة مع بني إسرائيل. ويكفي القارئ مراجعة ما كتبناه في هذا الكتاب حولهم، ليتبيَّن له أن المواضع والأماكن التي أقاموا فيها لا وجود لها في فلسطين قط. ولذلك سوف نعطي وصف الهمداني لموضع هذه الجماعة اليمنية القديمة في جبل قَدَس، للتدليل على أن المقصود شيء آخر لا علاقة له بالقدس العربية. وفي الواقع لا وجود لجبل في القدس العربية كما أنها لا تقع على جبل. بكل تأكيد نحن الآن في مواجهة الحقيقة التالية: إن جبل قَدَس هذا ظل يحمل الاسم القديم للجماعة التي تدعى الفلستيين في التوراة. إليكم هذا الاكتشاف: يصف الهمداني المواضع أول سراة اليمن ابتداءً من أرض المعافر، فساحل بني مجيد-مجدو (راجع ما كتبناه عن معركة مجدو في هذا الكتاب) فجبال عدن. وفي هذا الشريط الساحلي الطويل نشأت ممالك يمنية قديمة تُعرف بالمخاليف ومنها: مخلاف ذبحان وجبأ- جبع وصبر وصحارة ووادي الضباب، ومعظم سكانها من قبائل همدان والأشعريين. يقول الهمداني في (صفة: ١١٨-وانظر هامش المحقق حول وادي الضباب) ما يأتي:

ثم يتصل بمخلاف المعافر في هذه السراة، بلد الشراعب من حِمْيَر (والضباب وادٍ في قَدَس من المعافر جنوبي هذا، والضباب أيضاً في المفاليس[١] من المعافر أيضاً) ثم يتصل بسراة الكلاع سراة بني سيف.

---

(١) قارن بين المفاليس وأومفاليس الكلمة الإغريقية- انظر الهامش التالي.

ها هنا قَدَس وها هنا المفاليس[1] (ها-فلستيم. والميم اليمنية-الحميرية بديل من الهاء العبرية كأداة تعريف). يعني هذا أن التوراة وهي تتحدث عن قَدَس وعن ها-فلستيم إنما تتحدث عن هؤلاء حصراً لا عن الفلسطينين. وسوف نعود إلى قدس هذه وإلى الفلستيين وحيث تتطلب الحاجة.

(١) المثير للاهتمام في هذا النطاق أن الإغريق عبدوا - تحت تأثير معبودات وآلهة الفينيقيين- معبوداً يدعى (أمفالس) Omphalos وهو عبارة عن حجر مخروطي وجد في معبد أبولو (هبل). لقد قدّس الإغريق هذا المعبود بوصفه رمزاً لسرّة الأرض (سرّة العالم). هذا المعبود يحيلنا إلى اسم الفلس ووظيفته، فهو أيضاً رمز (سرّة الأرض) والفلس في اللغة: السرّة. وما يلفت الانتباه أكثر أن كلاً من الفلس و(أمفالس) عبد بوصفه رمزاً لإله الخصب، وتكمن رمزيته الجنسيّة المقدّسة في الشكل المخروطي للعضو الذكري. كما يلفت الانتباه أكثر التماثل بين الاسمين (أمفالس، ومفاليس ولاحظ الهمزة والميم مثل ءم رجل في الرجل). للمزيد: انظر الكتاب الخامس من فلسطين المُتخيّلة (التوراة الإغريقية).

الفصل الثالث

لائحة أسرى القبائل في السبي البابلي بين عزرا والهمداني

تتضمن القائمة التالية التي أعدها عزرا النبي، للأسرى من القبائل اليمنية اليهودية في بابل، بعد قرار الملك الفارسي قورش عام ٥٣٩ ق. م إطلاق سراحهم، والسماح لهم بالعودة إلى أورشليم القديمة إثر سقوط بابل في يده، وبعد عام واحد فقط من انتصاره؛ طائفة نادرة من الأسماء التي لا وجود لها في فلسطين. إن هذه القائمة التي نُعيد -هنا- ضبطها في سياق إعادة تحديد المواطن التاريخية الحقيقية، للقبائل والجماعات المنفية والعائدة تالياً من النفي، تؤكد لنا بشكل قاطع صحة ما ذهبنا إليه، من أن الذين تعرضوا للسبي لا صلة لهم بفلسطين المزعومة؛ وأن الحدث برمته لم يقع هناك، وأن قائمة الأسرى تحتوي، في الأصل، على أسماء زعماء ورجال وأبناء قبائل من الذين تعرضوا للسبي في سراة اليمن، إثر سلسلة من الحملات العسكرية والأعمال الحربية المتواصلة. وهؤلاء رجال من أبناء قبائل عربية-يمنية دانت بدين بني إسرائيل في اليمن القديم. هاكم مُلخصاً عن الرواية كما دوَّنها عزرا (النص العبري: ١: ١١: ٢: ٢٠). في العام الأول لسقوط بابل قرر الملك الفارسي قورش، إعادة

المسبيين من القبائل إلى مدنهم وقراهم الأصلية. ولأجل هذا الهدف نُشر في بابل نداء الملك الذي تضمن حق هذه الجماعات، في العودة وفي إعادة بناء ما تهدم من مدنها وخصوصاً -أورشليم التي في يهوذه- أي أورشليم (التي هي بيت بوس في سرو حِمْيَر). كما تضمن قرار الملك الفارسي السماح للعائدين من الأسر، بالحصول على تبرعات من سكان بابل، لأجل بناء مدنهم المهدمة. وإلى جانب هذا كله، قام قورش بإعادة مُمتلكات الهيكل المنهوب في أورشليم، وتسليمها إلى زعماء وأنبياء القبائل العائدة. ونظراً لطول النص فسوف نكتفي بأسماء أبرز القبائل والعائلات العائدة من السبي. يقول عزرا ما يلي:

(وء له-بني-ها-مدينه-هعليم-م-سبي-هجوله-ءشر-ل-هجوله-نبوكد نصر-ملك-بيل-ل- بيل-ويشوبي-ل- يرو شلم- ويهوده-ء يش-ل عيرو-ء شر-بئو-عم- زربيل-يشوع نحميه-شريه-رعليه-مردكي-بلشن-مصفر-وبجوي-رحوم بعنه).

(وهؤلاء أبناء البلاد من الذين صعدوا من السبي والنفي الذي قام به نبوخذ نصر ملك بابل، إلى بابل. عادوا إلى أورشليم ويهوده. كل إنسان إلى منزله؛ والذين جاؤوا مع زُرْ ببل: يشوع، نَحْميَه وشريه ورعليه ومردك وبلشن-بلسن ومسفر، وبجاي وبعنه...)

يضيف النص ما يلي: ومن بين القبائل العائدة من السبي هناك: بنو جبر: خمسة وتسعون نفراً، وبنو بيت لحم-لخم: مئة وثلاث وعشرون نفراً، وبنو حريشه، وكروب وأذن وأمير. وبعض هؤلاء بحث عن كُتاب أنسابه فلم يُعثر له على دليل يؤيد انتسابه الصريح إلى بني إسرائيل؛ ولذلك تم استبعادهم من سلك الكهنة واعتبروا غرباء. ولذا عاش بعضهم في بابل إلى الأبد مندمجاً مع السكان. ومع هذا تم السماح لبعضهم الآخر بالعودة

ضمن القائمة. وفي قائمة نحميا- نحمْيَه الثانية كان هناك بنو صيحه وبنو حسفه وبنو رصين -رضين وبنو ناصح وبنو حجاب وبنو عبيد وبنو شلمه وبنو شعرئيم- الشْعراء وبنو حشم (انظر سِفر نحميا : النص العبري : ٧: ٢٧ : ٥٩). فأين يمكن للمرء، إذا ما أراد معرفة الحقيقة عن السبي البابلي؛ أن يعثر على هذه الجماعات والقبائل؟ إن فلسطين التاريخية لا تعرف قبيلة واحدة من هذه القبائل، وليس ثمة ما يدعم فرضيات الرواية الاستشراقية القائلة بوقوع السبي في فلسطين؛ إذ لا وجود لمثل هذه الأسماء حتى في صورة بقايا لغوية، علماً أنها أسماء مواضع ومواطن وبطون قبائل عربية - يمنية صريحة النسب. في هذا النطاق أرغب في لفت انتباه جمهور القراء والمختصين إلى اسم الأسرة (شرية) في القائمة؛ فهو اسم يمني بامتياز، وفي التاريخ العربي القديم اشتهر الراوي والإخباري اليمني عبيد بن شَرْيَة الجُرْهُمْي، برواية قصص يهود اليمن حتى عشية الإسلام؛ بما يعني أن اسم شَرْيَة اسم لا وجود لنظير له في فلسطين. سنقوم هنا، بإعادة تركيب للرواية التاريخية من منظور وجود الجماعات المذكورة آنفاً، في السراة اليمنية لنبرهن على أن حادث السبي البابلي -وهو حادث تاريخي لا شك فيه- إنما وقع في المسرح اليمني القديم. هاكم -أولاً- القائمة التي أعددناها عن قائمتي نحميا-نحميه وعزرا-عزره:

قائمة القبائل العائدة من الأسر البابلي

الاسم في العبرية	الضبط العربي
١ : بنو جبر	بنو جبر
٢: بنو بيت لحم	بنو لخم
٣: بنو حريشه	حريش
٤ : بنو صيحه	صيحه

٥: بنو حسفه	حسفه
٦: بنو رصين	رضين
٧: بنو ناصح	ناصح
٨: بنو حجاب	حجاب
٩: بنو عَبيد	عَبيد
١٠: بنو شلمه	سلمه
١١: بنو حشم	حشم
١٢: بنو شعرائيم	الشَّعْرَاء
١٣: بنو أمير	أمير
١٤: بنو أذن	أذن
١٥: بنو كروب	أكراب
١٦: بنو عدين	عدين
١٧: بنو مسفر	السفر
١٨: بنو جزم	جذم
١٩: بنو حقوفه	حقف
٢٠: بنو برقش	برقش
٢١: بنو محيدا	الحيدا
٢٢: بنو قروس	بني قريس
٢٣: بنو سوطه	سوط
٢٤: بنو حارف	بنو خارف
٢٥: بنو نطوف	نُطوف

هذه الأسماء تعطي فكرة عمومية؛ ولكنها شديدة الأهمية عن طبيعة ومضمون القائمتين الطويلتين لعزرا ونحميا، كما أن الأسماء في صيغها الأصلية توفر للقارئ فرصة التعرف بنفسه، وبموضوعية أكبر إلى العدد الحقيقي للقبائل العائدة من السبي. ومن ثم فإن ما تبقى منها، مما لا يتسع المجال لذكره،إنما يعدُ قليلاً للغاية وسبق لنا الإشارة إليه، أو سنكتفي بالإشارة إلى بعضه ضمن النص.

١- بنو جَبَر: أقام بنو جَبَر -بالفتح- قديماً في سرو حِمْيَر سوية مع بني أذان، وهم من يافع، كما أقاموا في خولان العالية. وقد وصف الهمداني مواطنهم القديمة وأوديتهم ومنازلهم بشكل تفصيلي على النحو التالي (صفة: ١٧٢-١٧٣):

> سرو حِمْيَر وأوديته وساكنُه: العر لأذان من يافع وذو ناخب لبني جَبَر منهم، سَلَب لبني جَبَر، العِقة للأهجور منهم. وادٍ وهم بنو هجر، وفي كل هذه المواضع قُرى ومساكن كثيرة أرض حلالهم وأحلافهم من بني جعدة. من الأودية: الضباب ووادي حضَر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء.

هذه هي منازل بني جبر وأذان تماماً كما في القائمتين، وفي المكان نفسه الذي استهدفته الحملات الآشورية. إن توصيفاً دقيقاً كهذا يستحيل العثور عليه في فلسطين؛ بينما يمكن عند وضع الرواية التاريخية عن السبي البابلي، في إطارها الجغرافي الصحيح، الحصول على تصور دقيق عن طبيعة أهداف الحملات الحربية وخط سيرها. وهذا ما يتوافق كلياً مع المُصوَّرات الآشورية التي يظهر فيها الأسرى من البدو، والتي تُزين جدران المتاحف العراقية. والمثير للاهتمام أن عزرا ونحميا يشيران في قائمتيهما،إلى أعداد الجمال التي سُمح للقبائل بحصرها ضمن ممتلكات

العائدين. هذا يعني أن العائدين كانوا جماعات بدوية ظلت تحتفظ بممتلكاتها من الجمال طوال سنوات السبي في بابل.

٢- بنو بيت لحم-لخَمْ[١]. أشرنا في أكثر من فصل في هذا الكتاب إلى قبيلة لخم اليمنية العتيقة، فلا حاجة للتكرار (انظر عندنا مادة: بيت لحم). وهم سكان موضع يُعرف باسم بيت لخم الذي انتقل إلى فلسطين مع هجرة القبيلة إلى بلاد الشام، بينما أقام بطن منه-اللخميون- في العراق وأسس مملكة الحيرة الشهيرة. قال النابغة الذبياني (الديوان، وصفة: ٣٢٥):

ولخم ملوك الناس يُجبى لهم   إذا قال منهم قائل فهو واجبُ

٣- بنو حريشه[٢]-حريش: أقام بنو حريش في منطقة الفلج على مقربة من موضعين شهيرين في التوراة: مسيل مياه أون ووادي الشكول-ءشكول. هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٦٤) لمنازلهم التي تُعرف- تاريخياً- بهدار بني الحريش:

ثم من بطانة العارض من عن يمينه ماءان متدانيان يُقال لأحدها أوان (..) ومياه منها الشكول فتأخذ إلى الطريق الآخر على الهدار هدار بني الحريش أول الجزع فيه لبني خلدة من الحريش.

ويضيف (صفة: ٢٦٥):

(.. رجعنا إلى الفلج: مهب الجنوب منه المذراع مذراع بني قُشير بن سلمة من بني الحريش ثم الشطبتان وهما نخل ومياه لبني الحريش. ثم العقيق وفيها متنا يهودي ونخل كثير..).

(١) اليمنيون القدماء ينطقون الحاء المهملة خاء معجمة تماماً كما عند اليهود اليوم.

(٢) حريشه: اليمنيون يزيدون الهاء في آخر الكلمة فيقولون في وادي بيش- بيشه، انظر ما كتبناه في الجزء الأول.

تُرى هل هي محض مُصادفة أخرى أن يكون بنو حريشه-حريش في هذا المكان الصحراوي حيث بقايا قبائل عربية يهودية؟

٤- بنو صيحه: أقام بنو صيحة في موضع يحمل الاسم نفسه في الجوف اليمني، على مقربة من سلسلة مواضع شهيرة في التوراة سبق لنا أن أشرنا إليها، ومنها وادي صيد-صيده وبيت بوس التي هي أورشليم. ومن غير شك؛ فإن وجود بني صيحة قرب أورشليم اليمنية التي عادوا إليها من السبي البابلي، يعدُّ أمراً مذهلاً لجهة تطابقه مع وصف الهمداني. هاكم هذه المقاربة بين النصوص:

التوراة: (نصوص متفرقة)	الهمداني (١٥٦- ١٥٨)
بيت بوس وهي أورشليم	بيت بوس
وعاد إلى أورشليم بنو صيحة	وصيحة.

وهنا وصف الهمداني لمنازل بني صيحة في منطقة الجوف اليمني، وهم ممن عاد إلى أورشليم القديمة حسب قول عزرا ونحميا (صفة: ١٥٨):

> **والحيفه - حيفا- وبيت ذانم فصيحة، فمساك وناعط وبلد الصيد وبه أودية من ظاهر بلد همدان.**

ثم يضيف (صفة: ٢٢٠):

> **(.....أول حدود حاشد رحابة وما وراءها إلى صنعاء وأما البون فقراه: ريدة وصيحة ومساك وبيت الفواقم)**

ها هنا منازل بني صيحة الذين عادوا إلى قراهم المُهَدَّمة قرب أورشليم اليمنية وليس إلى فلسطين.

٥- بنو حسفه: أقام بنو حسف حسب ضبط الهمداني، في وادٍ من أهم أودية خولان يُعرف بالاسم نفسه، وقرب سلسلة من الوديان والجبال التي سجلتها أسفار التوراة كأسماء منازل للأسباط، مثل حجلة وصُرَع وأدير وعاشر وسحر. هاكم وصفه لهذا الوادي (صفة: ٢١٥ - ٢١٦):

صُرَع وسامك وأدير وأودية منها سحر ووادي عاشر ومن أقصاه حجلة والحسف وبالجوف قتلت همدان من مذحج بشراً، ووادي قروى ودبرة وأودية عنس. فأما جمهور مياه هذا المخلاف-أي: ذي جُرَة- فإلى ثلاثة مواضع إلى مأرب وإلى الجوف وإلى تهامة.

هذا هو وادي حسف وها هنا قبائله، في الجوف اليمني أي: في المكان نفسه الذي جرى فيه حادث السبي البابلي. وإلى هذا المكان عاد هؤلاء وليس إلى فلسطين .

٦- بنو رصين-بنو رضين: سنلاحظ من نصوص متفرقة، تالية، من التوراة أن المعارك بين بني إسرائيل والآراميين -من آرام اليمن- قد تم توظيفها للبرهنة على وجود ملك في التاريخ السوري يُدعى رصين. كما لاحظنا أن القراءة الاستشراقية زعمت أن أحد ملوك مصر كان يدعى سو-سوءه، وأنه وقع في أسر القوات الآشورية في معركة رفح (انظر تالياً عندنا حول معركة رفح). علماً أن قوائم ملوك سورية ومصر المعروفة لا تتضمن مثل هذين الاسمين، كما أن وجود رصين-رضين في قائمة العائدين من السبي البابلي، بوصفه اسم بطن من بطون القبائل العائدة، يجعل من المُتعذر قبول خلط من هذا النوع. يعني هذا أن المخيال الأوربي ظل يتجاهل عن قصد، أوعن جهل، حقيقة الالتباس في الترجمة وفي التأويل السائد للأحداث؛ إذ من المستحيل أن يكون رصين اسماً لملك سوري، وفي الآن ذاته هو اسم بطن إسرائيلي؟ ولذلك يجب أن

يُرسم الاسم في صورة رضين بالضاد المعجمة التي لا تعرفها العبرية. إليكم ما يقوله الهمداني عن منازل بني رضين (صفة: ٢٢٠- ٢٢٣):

ثم البون وهو من أوسع قيعان نجد اليمن وصيحة ومساك (..) وكورة حاشد العظمى خيوان وهي بين آل معيد وبين آل ذي رضوان (..) وباري للفائش من الجبر.

هؤلاء هم بنو رضين-رضون على مقربة من منازل بني جبر (وهم من ألفياز في التوراة- الفائس عند الهمداني). ها هنا بنو صيحة تماماً كما في قائمتي عزرا ونحميا، وهم بالفعل من ملوك همدان. هاكم ما يقوله الراجز اليمني أحمد الرداعي (صفة: ٢٦٤):

ثم الصلول فإلى خيوان أرض الملوك من همدان

بني مُعيد وبني رضوان والنهل المخضّب ذي الأفنان

ليس في الأمر أدنى مُصادفة تحتمل توافقاً مبنياً على حقائق تاريخية من هذا الطراز، أو يمكن أن تقول الفكرة ذاتها: أن بني رضين -رضون هم من الملوك، تماماً كما في نصوص التوراة؛ فمثل هذا التوافق المثير سوف يطرح السؤال ذاته لماذا لا تحدث هذه المُصادفة في تاريخ فلسطين؟

٧- بنو ناصح: أقام بنو ناصحه إلى جوار بني حريش على مقربة من وادي الرمة -وفي القائمتين هناك جماعة عائدة من السبي تُدعى بنو الرمة- . إليكم وصف الهمداني (صفة: ٢٥٨):

ومن قصدَ الطريق الأيسر إلى قرن اليمانية، ناصحة والبغرة وبريم ويبدو له حصن من شرقي قرن اليمانية ثم ترجع فتأخذ أطراف العبرى ثم ساق الفروين وأبانان الأسود وأبان الأبيض يمر بينهما بطن الرمة.

ثم يضيف (٢٦٤-٢٦٥):

رجعنا إلى الطريق الآخر فتأخذ على الهدار هدار بني الحريش ثم بيشة إن تياسر، البغرة وناصحة.

وسوف يتضح لنا تالياً، المعنى الذي ينطوي عليه وصف عزرا ونحميا للعائدين إلى أورشليم مع (جمالهم و إبلهم) فهذه البيئة البدوية الخالصة، لا نظير لها خارج جغرافية الجزيرة العربية وتهامة اليمن القديم.

٨- بنو حجاب: أقام بنو حجاب في وادٍ قديم لم يعد اليوم موجوداً؛ رغم أن الهمداني وصفه بشيء من التفصيل على مقربة من وادي أمير- أمير في القائمة وإلى جوار بني نقُد. وهؤلاء لم نسجل اسمهم في قائمتنا وهم سكان أعلى خولان أي قمته -النون أداة التعريف المنقرضة مثل عدنن في العدن. كما أنهم أقاموا قرب منقل السفر-مسفر (ولاحظ الميم وكيفية تحولها إلى أداة تعريف عربية حديثة). هذا المنقل يُدعى اليوم سفران؛ بينما يُدعى وادي حجاب - وادي الحجابات (بالجمع). ورغم وصف الهمداني للوادي فقد أخفق العلامة الأكوع في الاستدلال إليه ولم يعثر له على أثر. هاكم وصف الهمداني للقبائل والجماعات التي أقامت في كريف خولان، الذي أشرنا مراراً إلى أنه كان أحد مسارح الغزو الآشوري في السراة اليمنية (صفة: ١٢٨):

فبلد الشاكريين فمنقل سفران فبلد حرب بن عبد ود، ووسطها وغورها أخرف ونجد المطحن وهنوم وعُذر والحجابات وأمير ثم يتصل بها سراة خولان ويُسمى القد.

من المستحيل توقع مُصادفة كهذه: أن يقع وادي أمير قرب وادي حجاب-حجابات ومنقل سفر -مسفر ونقد- القد؛ في المكان نفسه الذي

عاشت فيه قبيلة بني عبد-عبدي (عبده). أي تماماً كما في قائمتي عزرا وتحميا؟ وهذه، كما هو واضح لنا، مواضع تسمت بها بطون وجماعات يمنية (وانظر ملاحظة الهمداني عن المواضع التي هي أسماء رجال). إننا لا نعرف في فلسطين، جماعات كانت من بين الأسرى العائدين من بابل إلى أورشليم، لا تزال تحمل مثل هذه الأسماء. ويبدو أن العرب القدماء عرفوا القد- نقد هذا في رسمه العبري: نُقدُه- نقوده تماماً كما في القائمتين. ويُستدل من بيت شعر اختلف فيه الجغرافيون؛ أن لبيد بن ربيعة عنى هذا الموضع في قصيدة ذائعة الصيت. قال (البكري، معجم، طبعة بيروت: ٤: ١٠٨):

فقد نرتعي سَبتاً وأهلُكِ جيرةً   محل الملوكِ نُقدة فالمغاسلا

٩- بنو عَبيد: الرسمُ العبري للاسم هو عبيده-عبيدي؛ ولكن الرسم العربي الشائع في ترجمات التوراة هو: عَبيد. ونظراً لافتقاد النص العبري للفواصل فقد تم دمج الاسم مع بني شلمة-سلمه، ليصبح اسماً غريباً في تركيبه: عبيَد سُليمان، مع أن لا صلة بين الاسمين إلا في حالة واحدة: أن يقال أن عبيد هذه هي عبيد سلمه، تماماً كما يقال اليوم في الجزيرة الفراتية عبيد طي، في إشارة إلى بطن من بطون القبيلة يدعى عبيد وتمييزاً له عن بطن آخر يحمل الاسم نفسه. يُدلل هذا النموذج، مرة أخرى، على طبيعة العقلية الاستشراقية التي قرأت التوراة. إنها تبحث عن (عبيد) بمعنى خدم مُفترضين لسليمان الملك، ولذا وجدتهم في تواتر الاسمين عبيدي وسلمه. في الواقع لم يكن هناك عبيد لسليمان الملك بين الأسرى، بل هناك بطن من قبيلة عبيد ينتسب إلى سلمه، وهؤلاء عاشوا في بلاد الشرق (تكثر الإشارة إلى بلاد الشرق في التوراة وفي قائمتي عزرا ونحميا، ويُسجل الاسم سوية مع بني سفر وحجاب ونقد وبني وادي أمير) وهذا أمر آخر مثير للاهتمام، لأن فلسطين لا تعرف مثل هذا التعبير؛ بينما يكثر

الهمداني - على غرار النص التوراتي- من استعمال وصف بلاد الشرق. أقام بنو عبد-أوعَبيد؛ الذين يعرفهم التاريخ بوصفهم من قبائل زبيد، كما أنهم من بطون بني حريش أيضاً؛ في مخلاف عامر على مقربة من بني سلمه- شلمه وفي المحافر قرب محافظة حجة (والمحافر هذه تسجلها التوراة في صورة محفر أو الحفر- انظر مثلاً أسماء منازل الأسباط) تماماً كما في قائمتي عزرا ونحميا. هاكم وصف الهمداني للجماعتين (صفة: ١٨١- ١٨٣):

ابتدأتُ بصفات مخلاف بني عامر: فأول ذلك ما في الميمنة وقد خرجت من حدود عنس وادي يوجح لبني سلمه وعزان لبني سلمه والأكراب (..) وللصقاعب أحلاف لهم من همدان فإلى صلحلح[1] مُشرقاً على السر ولبني سلمه من زوف وهم عماد الزوفيين ثلاثة أبيات- بيوت: بنو مالك، ويُقال: إن أصلهم من زبيد، وبنو عبد، وبنو يصوت.

ها هنا: بنو عبد- عبدت، وها هنا سلمه وإلى جوارهم بنو أكراب- كروب وعزان- وهم في القائمتين: بنو عزا. ليس ثمة عبيد لسليمان في حادث الغزو ثم السبي البابلي، ونبوخذ نصر لم يأسر بكل تأكيد عبيداً لملك مات قبل عدة قرون سابقة عليه؟ وهل من المنطقي أن يظل عبيد الملك على قيد الحياة بعد كل هذه القرون؟ وهل بقي عبيد لملكٍ لم يبق من أثر لمملكته عام السبي؟. وهل هي مُصادفة أخرى أن نعثر على القبيلتين متجاورتين؟

---

(١) انظر حول صلحلح - صلصح التوراتية عند قبر راحيل في التوراة في جبل يامن ما كتبناه في الجزأين السابقين (مقطع: قبر راحيل).

١٠- بنو سلمه: يقول النص العبري عن بني عبد- سلمه ما يلي: (وءله-هعليم-م- تل- ملح) (وهؤلاء صعدوا من تل الملح). ومع هؤلاء: بنو حريشه، وأذن وكروب وأمير. هاكم هذه المقاربة مع نص الهمداني (٢٠٣- ٢٠٤):

مخلاف رداع وثات: وكومان بلد واسع يسكنها كومان، وهم من زوف وسلمه (..) مخلاف مأرب: وهذه المواضع مساقطها من الجبل جنوبي مأرب فإلى جبل الملح، وليس بجبل منتصب، ولكنه جبل في الأرض يُحفر عليه ويمعن في الأرض .

هذا التماثل المُذهل في وصف المكان قرب صنعاء شرقاً حيث تل الملح، والذي جاء منه بنو سلمه يُدلل-مرة أخرى- على أن عزرا ونحميا، كانا يصفان قبائل يمنية عاشت عند سفوح تل الملح، وهو جبل في الأرض وليس بجبل حسب وصف الهمداني، أي إنه تل عظيم مرتفع. وهذه القبائل عادت من الأسر البابلي إلى ديارها شرق صنعاء وليس شرق فلسطين. إن عبارة الهمداني القائلة: جبل الملح ليس بجبل منتصب، بل جبل في الأرض تشير بكل تأكيد إلى تل أو مرتفع صخري، تماماً كما أراد النبيان- الشاعران اليمنيان عزرا ونحميا من توصيفيهما. ولنتذكر هنا أن الشاعر عند العرب القدماء كان يوصف بالنبي، كما يوصف النبي بالشاعر وهذا هو-برأينا- المصدر الحقيقي للقب الشاعر العربي الشهير أبو الطيب المتنبي، لا لأنه تنبأ كما يزعم الرواة؛ بل لأن الشاعر في التقاليد الثقافية القديمة الراسبة والمستمرة في مجتمعات القبائل، يُقرن بالنبي. وكنا رأينا من النص الآنف العلاقة بين أمير والأكراب-كروب، وبني سلمة.

١١- تنتسب قبيلة خُشم إلى جذام- جزم في التوراة، القبيلة الأكثر شهرة عند العرب (جزم في قائمة عزرا ونحميا) وهي من بطونها التي

هاجرت إلى مصر. ومن غير شك؛ فإن وجود حُشم وجذام ضمن القائمتين يؤكد أن القبائل العائدة من السبي، إنما عادت إلى بلادها القديمة ومواطنها ضمن مجموعات تجمعها إلى بعضها روابط أسرية حقيقية، كما هو الحال مع حريشه وبطونها من سلمة وعبد.

١٢- شعرائيم: يعطي المترجمون لهذا الاسم، عادة وحيث ما وردَ في نصوص التوراة، مكافئاً غريباً هو: الباب- الأبواب. ويبدو أن الحيرة تملكت المترجمين حين وجدوا أنفسهم أمام قائمتي عزرا ونحميا، والتي يظهر فيها اسم قبيلة من القبائل التي أسرها نبوخذ نصر تُدعى شعرائيم، وهي عادت إلى أورشليم بعد قرار قورش الملك الفارسي. على هذا النحو واستطراداً في المخيالية، تمت مكافأة الاسم بـ (البوابين) وبذلك أصبح لدينا قبيلة لا وجود لها ويستحيل العثور عليها هي (قبيلة البوابين). في الواقع ليس ثمة قبيلة تُدعى (البوابين) من بني إسرائيل، بل هناك قبيلة عربية-يمنية بائدة عاشت في موضع الشَّعْراء-شعريم (اسم الجمع العبري من شعر وانظر ما كتبناه عن شعر-شعرئيم).

١٣- بنو أمير: تقول واحدة من الروايات الشعرية، أن بعض رواة الشعر الجاهلي لم يكونوا يعرفون اسم وادي أمير هذا، لقدمه وربما لبُعده عن البادية العربية. حتى الأعراب كانوا يُخطئون في تحديده. إن فلسطين التاريخية لا تعرف قبيلة تنتسب إلى موضع يُدعى أمير؛ بينما تعرف جغرافية اليمن القديم هذا الوادي والقبائل التي أقامت فيه. هاكم وصف الهمداني (صفة: ١٣٤):

> **وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم ثم يتلوه في العِظَم وبُعد المآتي زبيد ومساقي مَوْر تأخذ غربي همدان، وبعض غربي خولان وكريف خولان وُيسمى ما يصل إليه: أمير.**

ويضيف الهمداني (صفة: ١٦٢) ما يلي:

أودية من بلد شاكر ومن بلد وائلة وبلد أمير: أودية منها حلف، والذي بين الجوف ونجران-يعد-من الأعراض الكبار.

هذا هو وادي أمير - بلد أمير الذي عاد إليه الأسرى من القبائل اليمنية.

١٤- بنو أزن- أذن: أثار اسم هذه الجماعة الالتباس عند محققي ومترجمي النص العبري؛ فظنوا أنه ذاته سبط أذان السبط الإسرائيلي (قبيلة أذان اليمنية). ولذا رسموا الاسم في صورة أدان، والصحيح ءذن-أذن كما في النص العبري. إن بني أذن هؤلاء، من القبائل البدوية التي عاشت عند أطراف نجران الرملية (وهذا ما يفسر قول النص: إنهم عادوا مع جمالهم التي بلغت أربع مئة وخمسة وثلاثين جملاً). وبعض بطونهم عاشت بالفعل في سرو حمير قرب جبل العر، وكانوا يحملون الاسم نفسه أذان. هاكم وصف الهمداني لمنازل الجماعة البدوية (البطن القبلي من أذان اليمنية) التي عادت إلى يهوذه- وأورشليم (صفة: ٢٢٨- ٢٢٩) أي إلى السراة اليمنية وليس إلى فلسطين:

وأول الأودية من نجران ماوة وخليقا ثم الخل ثم مدرك وبأعلاه الشليلة ثم ماءان عدان وبئر ذي بئرة ثم صرحان وهو وادٍ بينه وبين رملة الأذن.

وبالعودة إلى القائمتين سنرى اسم جماعة تدعى بئروت-نسبة إلى مكانها أو موطنها (بئرة- بئرُت) لم نسجلها في قائمتنا (سبق لنا الكلام على بئر وت هذه). ها هنا بنو الأذن الذين ينتسبون إلى موطن عرف بأنه

من مواطن البادية يدعى الأذن، وها هنا الجماعة الأخرى بئرة-بئروت في المكان نفسه الذي شهد الاجتياح الآشوري.

١٥- الأكراب: أقام بنو-الأكراب في مخلاف عامر الساحلي على مقربة من إخوتهم بني عزا-عزان وبني سلمه؛ تماماً كما في نص عزرا ونحميا. وقد وصفهم الراجز اليمني الرداعي في أرجوزته عن الحج على النحو التالي (صفة: ٣٥٥):

فالأجرعين فحمى الأكراب فالضمانين إلى الشحباب

فأحرماً منها إلى الثعلاب مواطناً مُكلئة الجناب

وهذا الرجز يحدد -على غرار قائمتي نحميا وعزرا- موضع بني ءحرم قرب الأكراب؛ إذ بالعودة إلى القائمتين سنجد اسم بني حرم هؤلاء (انظر ما كتبناه عن ءحرم وما كتبناه عن أكراب آنفاً) الذين كانوا من حكام صور اليمنية .

١٦- بنو عدين-عدين: يُطلق اسم مخلاف الكلاع في الماضي البعيد لليمن، على ما يُعرف ببلاد ذي السفال (انظر السفل عندنا في مرويات التوراة عن الفلستيين) وعلى بلد حبيش وعلى عدين - تصغير عدن-. هاكم وصف الهمداني ومحققه لموضع بني عدين اليمنيين (صفة: ١١٨):

من بلد الكلاع نخلان والثجة والسحول- وهذه أماكن نذكرهاعلى التوالي والكلاع بالفتح كان يُطلق في القديم على العدين وبلاد ذي السفال وبلد حبيش وبلاد إب-.

هذه هي بلاد عدين التي عاد إليها أبناؤها من القبائل التي وقعت في الأسر، أي إلى مخلاف الكلاع القديم. وكنا رأينا- في ما سبق من صفحات هذا الكتاب- أن الكلاع اشتهرت بإلحاق النون في كلام أهل

اليمن (وانظر في الجزء الأول من الكتاب ما أوردناه من أشعار عن العدين).

١٧-١٨- بنو مسفر، بنو جزم-جذم: حددنا في الصفحات السابقة، ما يُدعى عند الهمداني منقل سفر-سفران؛ في الفضاء الجغرافي نفسه لسائر المنازل التي أقامت فيها القبائل. كما أشرنا في أكثر من مناسبة إلى وظيفة (الميم) اليمنية في الأسماء مثل ءم سفر: السفر، مكمس: الكامس. ويتبقى أن نحدد منازل بني جزم-جذم، والعبرية تستبدل الذال المُعجمة بالزاي. تُعد قبيلة جَذم أو جذام من أكبر القبائل اليمنية البائدة، وأحد أكبر بطونها حُشم. وهذا أمر معروف فلا حاجة للتكرار.

١٩- بنو حقوفه -حقف. يُعد وادي الأحقاف (جمع حقف) من أودية حضرموت في بلد مهرة، وهو رمال تُعرف باسم رمال الحقف - مفرد أحقاف. وفي الموروث الديني والمثيولوجي للعرب القدماء وللقبائل اليمنية؛ فقد دفن النبي هود- يهوده في هذا المكان داخل كهف. قال الراجز اليمني الرداعي (صفة: ٤٠٠):

ثم استطفت كقطاة الحقف   عن منزلٍ شأزٍ قليل الوقفِ

تعتسف الموماة أي عسف   براكبٍ لم يدرِ ماذا يخفي

يقول الهمداني (صفة: ١٦٩-١٧٠) عن وادي حقف-الأحقاف ما يلي:

> وساكن شبام من حمير ثم تريس وهي مدينة عظيمة، وينحدر المنحدر منها إلى ثوبه قرية بسفلى حضرموت في وادٍ ذي نخل، ويفيض وادي ثويه إلى بلد مهرة وحيث قبر النبي هود، وقبره في الكثيب الأحمر ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الأحقاف، وهو وادٍ

يأخذ من بلد حضرموت إلى بلد مهرة مسيرة أيام وأهل حضرموت يزورونه هم وأهل مهرة في كل وقت.

في هذا الموضع أقامت الجماعة العائدة من الأسر البابلي، وهي عُرفت نسبة إلى واديها الحقف- أحقاف، تماماً كما عُرف الآخرون بمواطنهم. وبالطبع ليس ثمة مكان ولا جماعة في فلسطين تحمل هذا الاسم. وإلى جوار هؤلاء أقامت جماعة أخرى عادت إلى مواطنها وتُدعى في العبرية برقش.

٢٠- بنو براقش - برقش: أقام بنو برقش إلى جوار أخوتهم من بنو حقف، في موضع يحمل اسمهم هو براقش. وحول هذا الموضع دارت سلسلة من أساطير لقمان الحكيم[1]. هاكم أولاً وصف الهمداني (صفة: ١٧٠-١٧١):

وقبر النبي هود في الكثيب الأحمر أسفل وادي حضرموت. وما بين بيحان وحضرموت شبوة مدينة لحمير وأحد جبلي الملح. فلما احتربت حمير ومذحج خرج أهل شبوة من شبوة فسكنوا حضرموت وبهم سُميت شبام (..) ويسكن الكسر في وسط حضرموت ويُعرف الكسر بكسر قُشاقش وفيه يقول أبو سليمان بن يزيد بن أبي الحسن الطائي:

وأوطنَ منا في قصور بَراقش فمأودَ وادي الكسر كسر قُشاقش

إلى قينان كل أغلب رائش بهاليل ليسوا بالدناةِ الفواحشِ

وفي وصفه لمواطن الجوف اليمني؛ يصف الهمداني بَراقش هذه على النحو التالي (صفة: ٢٨٠-٢٨٢):

---

(١) انظر كتابنا: شقيقات قريش ففيه تفصيلات وافية عن هذه الأساطير- مرجع مذكور.

من أوطان الجوف: معين[١] وبراقش ثم كمنا وروثان (..) وأتان إلى وتران. كل هذا شَعْراء بين شاكر والشعر أودية كتاف يسيل إلى العقيق، والعطف، وضدح، وادٍ لأمير ينتهي إلى الغائط والحضن بنجران لها ولأمير.

ها هنا بنو أمير في واديهم أمير؛ وإلى جوارهم إخوتهم من براقش وشعرا-شعرثيم على امتداد الجوف، كما أنهم أقاموا قرب أخوتهم من بني معين-معونيم في القائمتين. وفي رمال حضرموت أقام بنو حقف-الأحقاف. يضيف الهمداني عن براقش: صفة: ٣٢٢ ما يلي:

المشهور من محافد اليمن وقصورها القديمة التي ذكرتها العرب في الشعر والمثل ناعط وصرواح وسلحين وريام، وبراقش ومعين وروثان والنجير بحضرموت.

٢١- بنو محيدا - بنو الحيدا (الميم أداة التعريف اليمنية المنقرضة): أقامت هذه القبيلة في وادٍ يُعرف بالاسم نفسه هو وادي الحيد-محيد على مقربة من أخوتهم بني معين-معونيم عند عزرا ونحميا. ها هنا وادي محيدا-الحيد عند الساحل غير بعيد عن معين؛ تماماً كما في نصي عزرا ونحميا. لقد عرف اليمنيون القدماء وادي الحيد وسكانه من قبائل

---

(١) معين: مملكة يمنية مزدهرة لعبت دوراً بارزاً ومشهوداً في الحضارة اليمنية القديمة. عاش الشعب المعيني في منطقة الجوف في عصر يعود إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عندما كانت الجوف (ما يعرف اليوم بمنطقة الحزم شمال شرق اليمن) هي المنفذ التجاري الأهم الرابط بين جنوب وشمال الجزيرة العربية. ولا تزال نقوشها تتضمن الكثير من وقائع التاريخ غير المكتوب بعد. وإلى هذا فإن بعض الحروف التي استخدمتها تشبه طريقة رسم الحرف العبري.

الساحل؛ وهؤلاء عاشوا على مقربة من إخوتهم في وادي بيض-بيصه عند عزرا ونحميا وعادوا سوية من الأسر. هاكم مقاربة أخرى:

نحميا،	الهمداني ٢٣٢
وبنو بيصه ثلاث مئة وأربعة	ووادي الحيد ووادي خُلب (..) وعثر ساحل
وعشرون (..) وبنو محيدا	جليل، ووادي بيض.

هذا هو الساحل وهناك وادي بيصه- ومحيد: بيض والحيد.

٢٢- بنو قروس- قريس: يُعرف الهمداني ومحققه موضع قريس - بالسين المهملة- هذا على النحو التالي (صفة: ٢٢٠- وانظر الهامش):

> ثم البون، وهو من أوسع قيعان نجد اليمن فأما جهران ففيه قرن وقَريس. وأما البون فقراه ريدة وصيحة ومساك (قريس -بالفتح- قرية وحصن أطلال وخرائب وكان في الحصن نفق إلى البئر التي في شماله وقد درست، وقُريس -بالضم- موضع خرب بين الضيق و-جبل- أفق شمال ذمار بفرسخ وفيه آثار حِمْيَرية)

في هذا الحصن-الذي أصبح اليوم خربة-أقامت الجماعة القديمة بنو قُريس.

٢٣- بنو سوطه-سوط: أقامت هذه الجماعة في موضع يحمل الاسم نفسه؛ هو وادي سوط في اليمامة وكان- في عصر الهمداني لبني جَرُمْ (انظر بيت تُجرمه[1]) يقول في وصف أودية اليمامة وقبائلها ما يلي: (صفة: ٢٥٣):

---

(١) انظر الاسم في مرثية حزقيال لمدينة صور.

وهذه الأودية مفضاها واحد، مفضى في بطن السوط، الأبرك، النعام؛ فإنه يفضي في ذات نصب وهو من ديار جرم أسفل المجازة والعرمة وأسفل وادي نعام. وكل هذه الأودية فيها نخل وزروع ومساكن وهي تسمى الثنايا ثنايا العارض وهو قف مستطيل أدناه حضرموت.

٢٤- بنو حارف-خارف: في النص العبري يُسجل اسم الجماعة، وعدد أفرادها العائدين إلى يهوذه على هذا النحو: بني-حرف -مئه- شنيم-عشر (بنو خارف مئة واثنا عشر). ولأن العبرية لا تعرف حرف الخاء المُعجمة، فقد استعاضت عنه بحرف الحاء المهملة (حارف). والضبط الدقيق للاسم هو قبيلة خارف اليمنية الشهيرة، التي عُرفت بموطنها القديم خارف. هاكم وصف الهمداني لها (صفة: ٢٢٠- ٢٢١):

أول حدود حاشد رُحابة وما وراءها إلى صنعاء وعليه كان القديم ثم البون وهو من أوسع قيعان نجد اليمن، وقريس وصيحة ومساك، وظبرة لبني حاطب من الخارف.

ثم يضيف (صفة: ٢٢٣):

أما أسواق حاشد فأولها وأقدمها سوق همل، وهمل من الخارف وهي سوق جاهلية وباري للفائش-الفائس[١] من الجبر-جَبْر.

ها هنا بنو حارف-خارف وإلى جوارهم أخوتهم من بني جبر، تماماً

(١) تخبرنا التوراة أن «ليفز- أليفس (أليفاز في الرسم الشائع) هو من عيصو. وعند الهمداني هم من الفائس بطن من جبر وجدهم الأعلى العيص- عيصو.

وبالضبط كما في القائمتين؛ وهم يعيشون على مقربة من قريس و صيحة في المكان نفسه.

٢٥- نطوفه[١]-نطوف: يُرسم إسم هذا الوادي بدقة في بيت شعر لأمية بن أبي عائذ في صورة وادي النطوف، من دون الهاء الزائدة. ومن الواضح أن للهجات القبائل وأشكال نطقها للحروف، أكثر من دورٍ حاسمٍ ومكرّس لطرائق النطق عند الآخرين؛ وفي ظهور أساليب رسم متباينةً كذلك. قال أمية بن أبي عائذ، راسماً الاسم على نحو مُطابق للرسم العبري (معجم البكري، طبعة بيروت: ١: ١١٣):

لمن الديارُ بعليَ فالأخراصِ فالسودتين فمجمع الأبواصِ

فضُهاء أظلمَ فالنطوف فصائف فالنمر فالبرقات فالأنحاصِ

بينما يقول كثير في وصف رحبة صنعاء (صفة: ٣٤٧):

وأعرضَ من ذهبان مغرورق الذرى تربعُ منه بالنطاف الحواجرُ

وادي نطوف هذا أو النطاف كما عند كثير؛ من أودية تهامة اليمن، وقد وصفه الهمداني وحدده على مقربة من هضبة جبلة[٢]، وبطن السرير وأسفل وادي الرمة. وبدوره، وعلى جري عادات العرب الصوتية، رسمه في صورة نُطاف استناداً إلى كثير الشاعر (صفة: ٢٥٩):

> وبطن السرير وهو أسفل وادي الرمة (..) وهو واد فيه المياه: عكاش وخُف والنُّطاف.

---

(١) الهاء الزائدة من لهجات العرب- انظر عندنا في الجزء الأول حول بيش- بيشه.

(٢) اسم جبلة اليمنية هذه نقلتها القبائل العربية المهاجرة إلى الساحل السوري وهو اليوم هناك.

هذه -بصورة إجمالية- القبائل والجماعات العائدة من الأسر البابلي إلى سلسلة جبال يهوذه، أو ما سيُعرف تالياً بسرو حمير. وما تبقى منها وهو قليل للغاية سبق لنا الإشارة إليه في منازل الأسباط، أو في فصول هذا الكتاب المختلفة. فهل هي مصادفة أن القبائل التي وقعت في الأسر هي قبائل يمنية؛ وبالأسماء نفسها كما في نصوص التوراة والهمداني والشعر الجاهلي؟

وهل تعرف فلسطين اسماً واحداً مما ورد في القائمتين؟

الفصل الرابع

اكتشاف أورشليم
قصة بناء المدينة
وهيكل الرب في السراة

على امتداد عقود وعقود، تحولت قصة بناء أورشليم في المِخيال الغربي إلى قصةٍ، يمتزج فيها الغموض بالمعجزات وأفكار التحرير -من الأسر- بسحر البناء الذي لا يبدو أن هناك ما يُضاهيه؛ لأن الهيكل بُني في أورشليم فوق قمة جبل. ولهذا؛ أصبح التعبير التوراتي (جبل الهيكل) المُستخدم اليوم في وصف القدس (والمسجد الأقصى استطراداً) تعبيراً كاشفاً عن الطبيعة الماكرة والمُخادعة لهذه القراءة. وبالطبع، لا تعرف فلسطين جبلاً بُني فيه هيكل يهودي؛ كما أن المسجد الأقصى وقبة الصخرة لم يبنيا قط فوق جبل؛ بل لا وجود لجبل هناك ولا وجود لدليل أثري واحد يؤيد هذا الخيال، والحفريات قلبت أرض القدس عاليها سافلها، بحثاً عن بقايا الهيكل دون جدوى. فهل من المنطقي تخيُّل أن هذا الجبل غاص -فجأة- في الأرض حتى أصبح تحت قبة الصخرة؟ إن إعادة تركيب القصة طِبقاً للنص الحرفي الوارد في سياق التوصيف التوراتي، ومن دون تلاعب أو تغيير في الحروف و الكلمات والوقائع،

سوف يبرهن على أن قصة البناء كلها دارت في مكان آخر لا علاقة له بفلسطين، وأن فلسطين ضحية خداع وتضليل مارسه علماء الآثار لا الحاخامات وحدهم. سنعطي -هنا- موجزاً أميناً إلى أقصى حد ممكن التزاماً بروح العلم، عن ظروف عودة المنفيين من بابل كما وصفتها التوراة، ومن ثم شروعهم في بناء أورشليم أي: شروع القبائل اليمنية اليهودية في بناء أسوار المدينة التي خربتها الحملات والحروب المتواصلة في سلسلة جبال (سرو) حِمْيَر. وذلك استناداً إلى رواية النبي اليهودي العائد من الأسر نحميا (سِفر نحميا ١ : ٢: ١٠- من النص العبري). وفي هذا السياق سوف لن ندخل في التفاصيل الصغيرة والثانوية؛ لأن الغرض من هذا الإيجاز البرهنة على أن وصف وتحديد المواضع، في البلاد والمدينة مثلما تدلل نصوص أنبياء اليهودية، لا ينطبق بأي شكل من الأشكال على وصف فلسطين الجغرافي؛ وأن تتبع خط البناء كما وصفه نحميا، سوف يوصلنا إلى السراة اليمنية لا إلى فلسطين.

لقد شرعت القبائل في إعادة البناء فور عودتها، وهذا ما سنراه بوضوح مذهل وبما لا يترك أدنى مجال للتشكيك، من خلال الأسماء التي سجلها نص التوراة.

في العام ٤٤٦ ق. م وبعد نحو سبع وثمانين عاماً من سقوط بابل في قبضة الفرس، أصدر الملك الفارسي إرتحشستا الأول، أمراً يُسمح بموجبه لليهود من القبائل العربية -البائدة- التي أسرها الآشوريون، بالعودة إلى مواطنهم الأصلية وبناء ما تهدم منها. وصل نحميا- نحميه إلى أورشليم ومكث فيها ثلاثة أيام قبل أن يُباشر بدعوة سكان المدينة؛ إلى الشروع الجدي والنشط في العمل على ترميم ما تهدم منها. وكنا تتبعنا فيما مضى من صفحات أسماء هذه القبائل. انطلق نحميا ليلاً من موضع يدعى شعر، فبلغ مكاناً يسمى عين. ثم وصل في أثناء تفقده للأسوار

مكاناً يدعى ها-تنين-التنين؛حيث رأى بنفسه الخراب الذي عم أسوار المدينة في موضع فروصيم-الفراضم، وشاهد ما تركته النيران هناك من أثرٍ مدمر. ثم اجتاز المكان متجهاً من (جبل شعر ووادي عين) إلى موضع ءل- بركت-سلوه-مياه سلوه قرب جن-جن، وإلى وادي ها-ملك - المالك، وإلى جنات-جنات، وأخيراً إلى تحتم و بهمه، قبل أن يجتاز الوادي من جبل شعر مرة أخرى في طريق عودته.لم يكن أحد من الكهنة يعلم بخطط نحميا؛ ويبدو أنه حرص على جعل الأمر أقل إثارة، بسبب تحفظات القوى الطامحة إلى لعب دور رئيسي في إعادة البناء. وأكثر القوى طموحاً الكهنة والقبائل اليمنية اليهودية، التي لم تتعرض للنفي وظلت في أرضها. ومع ذلك سرعان ما تسربت الأنباء عن عزم نحميا قيادة عمليات البناء. كانت إعادة البناء ترتبط-من المنظور السياسي- بالصراع على عرش داوود، فضلاً عن ارتباطها بحساسيات قبائلية، بعضها يتصل بمسألة الخوف من تمنع الفرس، وربما غضبهم من عودة المملكة اليهودية إلى واجهة الأحداث. وهذا بدوره كان يتلازم مع مخاوف تقليدية من تنامي دور الفرس في السراة اليمنية. هذا النفوذ -كما سنبرهن- بدأ اعتباراً من هذه اللحظة، ولسوف يستمر طويلاً. وفي الواقع؛ فإن الأساس التاريخي للنفوذ الفارسي في اليمن، والذي تجلى في انصع صوره في الصراع الروماني-الفارسي على اليمن منذ سقوط ميناء عدن في يد القوات الرومانية نحو العام ٥٠ ق. م؛ إنما يعود إلى هذه اللحظة بالذات وحيث ارتبط النفوذ الفارسي منذئذٍ بفكرة التحرير. وسوف نرى أن فكرة التحرير الفارسي لليمنيين، أي تحرير القبائل اليمنية اليهودية من الأسر البابلي، ذات وشائج ثقافية حميمة بالتحرير الفارسي لليمن من نفوذ الحبشة المسيحية، الوكيل القوي لروما في المنطقة نحو العام ٥٧٠ للميلاد. إن بعض أوجه المقاومة التي ظهرت إبان محاولة نحميا قيادة عمليات بناء أورشليم، تكمن في التنافس المحموم بين القبائل العائدة من النفي، وبين

تلك التي ظلت في أرضها، وهو تنافس تقليدي بين العائدين الطامحين إلى الزعامة، وبين القوى المحلية. كما أن بعض أوجهها الأخرى تتصل بالصراع بين الوثنيين والموحدين. سارعت قبيلة جشم اليمنية-العربية البائدة (والتوراة تقول: إن جشم قبيلة عربية وتسميها جشم العربية) مع أولى الأنباء عن شروع نحميا في عمليات إعادة البناء، إلى قيادة معارضة قوية انطلاقاً من إحساسها بأن هذه العمليات، سوف تؤدي إلى الصدام عاجلاً أم آجلاً مع الفرس، ومن ثم تكرار الأحداث المأسوية. كما وجد العمونيون سكان نجران في التصدي للمحاولة ومقاومتها، فرصة لمنع تكرار الاضطهادات التي تعرض لها هؤلاء في عهد داوود وأسلافه. أي: مقاومة عودة الاضطهاد الديني الذي مارسته اليهودية ضد الوثنية في نجران. ومع ذلك؛ وبالرغم من وجود كل هذه القوى المُتمنعة، قرر نحميا المضي قدماً بأعمال البناء والمباشرة بعملياته، التي سرعان ما انضم لها عدد من كهنة الجدول. بدأت أعمال البناء الأولى وحسب وصف نحميا نفسه، من موضع شعر وضئن-ضأن (غنم الذي كان موضعاً مقدساً) وصولاً إلى مجدل فإلى حنن-ءيل. ومن شعر- ها-دجيم إلى تنوريم وبركت-سلوه. ثم تواصلت الأعمال من مياه سلوه إلى جن و-ها-ملك حتى عير-دويد (منازل دويد) مروراً بموضع قبره-مقبرة فإلى بيت جبريم-بيت الجُبر، ومن بركت-ها-عشويت-بركة العشتين حتى نشق-أرض نشق فإلى فتح- فتح وبيت اليشب-ءلشب (الشبا). ومن بيت ها-ملك و ها-عليون إلى وادي حصر-حضر؛ وأخيراً إلى مطره- مطرة. هذه هي أسماء المواضع التي تفقدها نحميا قبل أن يشرع بمساعدة الكهنة، والقبائل والجماعات اليهودية- اليمنية، في بناء أسوار جديدة فيها أو ترميم المحترق منها. وسوف نعطي -تالياً- أسماء الجماعات المشاركة في البناء بعد أن نفرغ من وصف المكان؛ وذلك بغرض التحقق من وجوده ضمن الفضاء الجغرافي للحدث.

وصف اسوار اورشليم

رأينا من موجز القصة؛ أن نحميا تفقد مواضع أسوار المدينة المحترقة والمدمرة، والتي شرع في إصلاحها بالرغم من وجود قوى معارضة. ويتعين الآن استكمال التوصيف الوارد في نصه. ولكن، وقبل الشروع في هذا التحليل لابد من ملاحظة أن كلمة شعر العبرية، التي تؤدي معنى باب مثلما اجتهد المترجمون، وهذا اجتهاد صحيح؛ لا يقصد بها في سياق النص أبواب المدينة وحسب؛ بل يقصد بها كذلك اسم موضع بعينه هو جبل شعر الذي بدأت منه حكاية إعادة البناء. وكنا أشرنا مراراً إلى مخلاف الشعر. وهذا ما نراه بوضوح في جملة: (وءصئه-ب-شعر-ها-جيء- ليله: وخرجتُ في شعر المرتفع ليلاً). ولو كان المعنى المقصود ينصرف إلى باب؛ لما أضاف سارد النص كلمة هجيء، أي: المرتفع لأن لا أبواب للوديان كما نعلم. هذا يعني إن المقصود ليس باباً وحسب، وإنما وادي شعر نفسه، وهو كما رأينا مخلاف شهير من مخاليف اليمن. قبل أن تنطلق أعمال ترميم الأسوار من هذا المكان، اتجه النبي إلى (فني-عين- ها- تنين- وءل-شعر-ها-ءشفت) أي: إلى أمام عيان وتنين فإلى شعر والشفاه. وبالطبع فهذه أسماء أماكن يستحيل العثور عليها في القدس العربية. على هذا النحو شاهد نحميا الحطام الذي تركته الحرب في أسوار أورشليم هناك، والتي كانت تمتد إلى موضع فروصيم. واللافت للانتباه، أن المترجمين الذين لم يعثروا على مكافئ عربي لكلمة فروصيم، أعطوا مرة أخرى أعطوا كلمة - (باب الزبل)-. وفي الواقع لا يوجد (باب للزبل أو النفايات) في مدينة مقدسة مثل أورشليم، بل موضع يُدعى فروصيم- فراضم. وكنا أشرنا إليه في مكان آخر من هذا الكتاب. وهناك؛ شاهد نحميا أيضاً كيف أن النار التهمت أجزاء واسعة من الغابات: (وشعريه-ءكلت-ب-ءيش- والشَّعْرا أُكلت بالنيران). أي إن الأشجار الكثيفة في هذا المكان أكلتها

النيران وتركتها خراباً. وكنا رأينا أن كل مكان كثيف الأشجار ولا دخل ليد الإنسان فيه يُدعى عند اليمنيين القدماء شعر-وَشعرْاء.

ثم اجتاز نحميا موضع الشعر هذا متجهاً صوب وادي عيان، وصوب البركة ثم وادي الملك: (وءعبر-ءل-شعر-ها-عين-وءل-بركت-ها-ملك). وبالطبع لا يستطيع السائر في القدس العربية أن يمشي في هذه المواضع، لأنها أصلاً غير موجودة. في هذا السياق سنتوقف أمام الجملة الإشكالية التالية. يقول نحميا (وءين-مقوم-ل-بهمه-ل-عبر-تحتي). وقد أعطى المترجمون الجملة التالية (فلم يكن للدابة التي تحتي مكان تجوز عليه). بيد أن الجملة -حرفياً- لا تقول هذا المعنى وليس ثمة ما يبرر مثل هذا الوصف؛ إذ من غير المنطقي أن تكون الوديان خالية من موطئ قدم لدابة، وهي وديان فسيحة مترامية الأطراف؟ما يقصده النص هو التالي: (ليس من مسكنٍ، إلى بهمه حتى تجتاز التحت). وهذان الموضعان (بهمه والتحت) هما في المكان نفسه الذي وصفه نحميا كما سنرى تالياً. ليس ثمة دابة لم يجد راكبها موطئ قدم لها، بل هناك موضعان بالاسمين نفسيهما. رأينا، مما سبق، أن نحميا يصف مواضع كثيفة الأشجار (أي غابات محترقة) لم تدخل فيها يد الإنسان على امتداد الوديان؛ ولذا سيكون أمراً منطقياً ألا يشاهد -هناك- أي مساكن للقبائل، علماً أننا أشرنا إلى حقيقة أن مواضع شعر وشعراء ظلت أماكن لرعي القبائل البدوية حتى اليوم. بعد ذلك صعد نحميا في الوادي ليلاً، وكانت الأسوار أمام ناظريه محطمة، فمضى عائداً في شعر الوادي يدعو الكهنة وعموم اليهود والقبائل إلى إعادة بناء أسوار المدينة. وقال لهم:

(وءومر-ءلهم-ءتم-رئيم-ها-رعا-ءشر-ءنحنو-به-ءشر-يروشليم-ها-حربه-وشعريه-نصتو-ب-ءيش-لكو-ونبنه-ءت-ها-حومت يروشليم ولء-نهيه-عود- حرفه) .

ما يقوله هذا المقطع من النص هو التالي:

(فقلتُ لهم: أنتم رأيتم-الرعا-الذي نحن فيه. وأورشليم المخرّبة التي احترقت بالنيران، فلنقم ونبني أسوار أورشليم إلى نهيه وعود وحرف)

تعرض هذا المقطع إلى تشويه فظيع؛ حين كافأ المترجمون جملة (لء-نهيه-عود-حرفه) إلى (ولا نكون عاراً بعد اليوم). ومع أن مؤدى الجملة العبرية لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى العار -الذي تكرر في كلام نحميا من دون مبرر بفضل الترجمة الخاطئة- فإن المترجمين الذين يجهلون المواضع التي شهدت ولادة وموت أورشليم القديمة، لم يترددوا في إعطاء تأويل عشوائي، فقد تحولت كلمة ها-رعا إلى العار، مع أن كلمة رع العبرية وليس ها-رعا هي التي تؤدي معنى الإساءة أو الخزي. كما تحول وصف نحميا للمواضع التي يريد إصلاحها وترميمها- من أسوار المدينة- إلى جملة إنشائية عن العار، الذي سوف يلحق بها. ولسوف نرى- تالياً- ونحن نُعيد اكتشاف أورشليم في هذا الفصل المكرس لها، أن مواضع نُهيه وحرف والرعا وعود، هي من أهم المواضع التي ارتبطت تاريخياً ببيت بوس -أي: بأورشليم اليمنية. ما إن سمع سنبلط الحوروني-من وادي حوران -وطوبيا- من بني عمون- وجشم ها -عربي (جشم الأعرابي) حتى تعالت اعتراضاتهم على الفكرة، لا تخوفاً مما يمكن أن يجلبه ذلك من مخاطر، وإنما لأن نحميا استثنى هذه الجماعات من حق المشاركة أصلاً. إثر ذلك؛ بدأت عمليات إعادة البناء التي قادها كاهن الجدول بدأ من موضع شعر وصئن-ضأن (غنم) وهو من الأماكن المحرمة المقدسة؛ فأصلحوا المداخل حتى مجدل وها-مأه المقدسة، وكذلك عند مجدل حنن-ءل (الحنا). وتسابق الرجال إلى البناء فامتدت أعمال الترميم إلى طرف شعر- دجيم، حيث أُصلحت المداخل والأبواب والمخارج. ثم بلغت تخوم أورشليم القديمة عند

أسوار (ها- رحبة و المجدل) من جهة وادي تنوريم-نوريم. كما امتدت إلى مخارج جبل ألف- ءنف وفي ءمه و حوامه وعند شعر من جهة ها- شفوت (الشفاه). ثم من السور الذي في ركبت-الركب وسلوه -سلوه، وصولاً إلى جن-جن ووادي ها-ملك-الملك؛ فإلى عير-دويد (منازل دويد). وبالطبع ليس لهذا المكان علاقة بداوود الملك، لأن الاسم بالعبرية هو (دويد وليس دود). ثم تواصلت أعمال البناء حتى مرتفع قبره- دويد (مقبرة دويد) ومن ثم إلى البركة-بركة وها-عشيوت (العشة) فإلى بيت-ها-جبريم (بيت الجبر). ومن بيت ها-نشق (نشق) إلى ها-حره (وادي الحار) مروراً بموضع فتح وبيت-ءليشب (الشبا) حيث يقيم كاهن ها-جدول (الجدول). وبعد ذلك من فتح و بيت-ءليشب حتى بيت-ها- عليون قرب وادي حصر-حضر، وأخيراً بلغت الأسوار المرممّة بلد مطره-مطرة. هاكم قائمة بالمواضع التي ذكرناها في هذا الإيجاز:

قائمة بأسماء المواضع
التي بدأت منها أعمال ترميم أورشليم (أور سالم)

الاسم العبري	الضبط العربي
١ : شعر	شعر
٢ : ها- ءشفوت	الشفاه
٣: عين	عيان
٤ : تنين	تنين
٥ : ها-بركت	البركة
٦ : ها- رعا	الرعا
٧: قبره- دويد	قبر- دويد
٨: بهمه	بهمه

٩ : ها- ملك	الملك
١٠ : فرو صيم	الفراضم
١١ : التحت	تحتم
١٢ : ها- نشق	نشق
١٣ : فتح	فتح
١٤ : بيت- ءليشب	بيت الشبا
١٥ : ها- عليون	عليان
١٦ : مطره	مطره
١٧ : صأن	ضأن (أي: غنم)
١٨ : نهيه	نهيه
١٩ : عود	عود
٢٠ : حرفه	حرف
٢١ : المأه	الماءة
٢٢ : حنن ءل	الحننا
٢٣ : دجيم	الدج
٢٤ : الرحبة	الرحبة
٢٥ : ءمه	أمان
٢٦ : ها- حره	الحار
٢٧ : ءنف	أنف
٢٨ : تنوريم	نوريم
٢٩ : سلوه	سلوه
٣٠ : ركبت	ركب
٣١ : بيت جبريم	بيت الجُبر
٣٢ : مطره	مطره

هذه هي أورشليم التي عاد إليها المنفيون وباشروا أعمال البناء في أسوارها المهدمة؛ وهي من غير أدنى شك، مدينة لا صلة لها بوصف مدينة القدس الفلسطينية. إذ لا وجود فيها لأي مكان من الأمكنة الواردة في الوصف. وسوف تتجلى المفارقة الكبرى؛ حين ندقق في قائمة أسماء القبائل والجماعات التي شاركت في بناء المدينة، فهي قبائل عربية-يمنية دانت بدين اليهودية لا تزال بقاياها هناك في السراة اليمنية وليس في فلسطين. لقد وصف الهمداني سائر هذه المواضع بعضها قرب بعض، فتعالوا نتتبع الطريق إلى أورشليم التوراة، ونُعيد اكتشافها لنفرغ نهائياً من الخرافة القائلة: إن القدس هي أورشليم. في وصفه لشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مأرب، نعني مخلاف خولان- جولان التوراة أعظم أودية اليمن وأكثرها خصباً وشهرة، يحدد الهمداني سائر المواضع المذكورة في هذه القائمة، وبالصيغ ذاتها وحسب تسلسل وقوعها في السراة، بدءاً من بيت بوس. ومن أجل تقريب صورة أورشليم اليمنية-التوراتية، سنقوم بإعطاء وصف مكثف للأماكن.

قلنا: إنَّ التوراة تسمي أورشليم: بيت بوس؛ كما أن مخلاف اليهودية عُرف باسم أورشليم أيضاً. أي إن اسم أورشليم يُطلق على المملكة- المخلاف: يهوذه باعتباره دار سلام (كما يطلق على بيت بوس في آنٍ واحد). وحسب النص أعلاه؛ فإن نحميا تفقد الأسوار في المدينة ثم شرع في البناء على امتداد السرو؛ أي على امتداد السراة الجبلية. هاكم وصف الهمداني لبيت بوس اليمنية، وما جاورها من سائر المواضع الواردة في القائمة وفي سياق النص أعلاه (صفة: ١٥٣- ١٦٥- النص مُختصراً وانظر الخريطة الخاصة بأعمال البناء):

وتفضي -السيول- إلى موضع السد بين مأزمي مأرب ثم الحرجة وحزمة البشريين (حزمة البشريين تسمى اليوم: سلوه في وادي عبيدة وفيها

آثار عظام-المحقق). ثم الجوف، وهو منفهق من الأرض فيه أنف، ويفضي إليه أربعة أودية وما أقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس (..) ومطرة وفيها أودية كثيرة (..) فالرحبة إلى حدقان (..) ويلتقي بمياه الخارج التي هبطت من صنعاء ومخاليفها فتلتقي بالمناحي ثم يصبان بعمران من أرض الجوف. وهذا الجانب لبني نشق وبني عبد بن عليان. والوادي الثالث يظهر في زاويته وحوام والمناحي لبني علوي (..) فتلقاه سيول بلد بني حرب (...) وسيل الفقع والمصرع وعيان والمقبرة ويلقي هذه المياه إلى ناحية الواغرة الشبا.

إذا ما سرنا على خُطا نحميا والهمداني انطلاقاً من بيت بوس-أورشليم، وتفقدنا أسوار المدينة المحطمة في السراة الجبلية، ثم مضينا في الأودية المحيطة بها نطابق بين الأسماء في النص المقتطف من الهمداني، مع جزء من قائمة نحميا؛ فسنكون وجهاً لوجه ودفعة واحدة أمام أكثر من عشرة مواضع-مما ورد في القائمة-. ها هنا بيت بوس وهي أورشليم كما تقول التوراة، وها هنا موضع الرعا تماماً كما في قول نحميا- وسوف نعطي تفصيلات وافية عنه في مكانه المناسب -وإلى الجوار بركة سلوه- مياه سلوه. وهاكم مطره وأوديتها الكثيرة (انظر مطرة). وقبل أن نتجه نحو بيت نشق-نشق سنتجه نحو عيان -عيان في القائمة - ثم إلى بيت اليشب-الشبا. وها هنا المقبرة (قبره). وعدا هذا كله، هناك جبل ألف-ءنف التي توهمها المترجمون كلمة دالَّة على القياس (ألف ذراع) مع أن النص العبري لا يشير إلى ذراع أو ياردة أو أي وحدة قياس. وها هنا الرحبة -ها- رحبة والعشتان -عشتوت. هذا الفضاء الجغرافي المتكامل يتيح أمامنا فرصة التأمل عميقاً في مغزى القصة التوراتية عن إعادة بناء أورشليم، بوصفها فكرة تنبع في الأصل عن استطراد ثقافي لتقاليد بناء الأماكن الدينية أو المحرّمة.

وبالفعل؛ فإن أورشليم القديمة كما عرفها اليمنيون كانت مدينة الضعفاء من الناس، من الحرفيين والمتكسِّبين الذين لا يجيدون القتال، وهم يعيشون فيها كجماعة مسالمة. وحتى اليوم لا يزال اليمنيون يحتفظون بصورة مثيرة عن نفور البدو من دخول هذا النوع من المدن، فهم لا يفضلون العيش فيها لأنها (مدن ضعفاء الناس). وقد أطلق اليمنيون في وقتٍ ما على بعض المدن اسم (هجرة) وكأنها إشارة إلى أن سكانها من الغرباء. ويكفي أن ننعم النظر في وصف الأزرقي، الإخباري الشهير لبيت العبادة اليمني (القليس) في نجران، من أجل القيام بمقاربة مع أسلوب بناء أورشليم؛ وهو وصف شائق ونادر لمكان عبادة ديني يخص اليمنيين. إن أسلوب البناء يُذكرنا بالأسلوب الذي اتبعه نحميا في بناء الأسوار. وإذا ما عدنا إلى خولان شرق صنعاء متتبعين خُطا نحميا، على الطريق ذاتها من الوادي، متجهين إلى تنين؛ فسوف نكون مرة أخرى أمام المواضع ذاتها الواردة في نصه والتي عاد الهمداني لوصفها (صفة: ٢١٥-٢١٧):

الأودية أولها من شمالها: منازل آل الروية وبعد ذلك قرى كثيرة مثل: البركة (...) ويلاقيها سيل مغارب صنعاء من مخلاف مأذن والبوارق (..) وما يصب منها إلى مأرب، فهو ملاقٍ لمياه عنس وذمار وردمان وتنين (..) وبلد همدان فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة ونجد السراة في شمالي صنعاء (..) ومن شرقي الرحبة ويسكن هذه المواضع بلحارث ومن همدان ووادي مطره (..) وبمطرة أودية عظام فيها الزروع والأعناب(..) وإتوة لذبيان بن عليان(..) إلى مساقط الجوف (....) وساكن هذه المواضع ضاحية وضياف بن عليان، فعيان.

هذه هي البركة-البركة وهذه هي تنين-تنين التي سار إليها نحميا. وها هنا وادي مطره -مطرة ووادي عليان- عليون والرحبة-الرحبة. وإذا

ما مضينا في هذا الفضاء الجغرافي الرحب قصدَ التعرف على أثرٍ مُحتمل للجماعات والمواضع الواردة في نص نحميا، فسوف نكون، مرة أخرى، أمام الأسماء ذاتها. هاكم وصف الهمداني لحدود حاشد إلى ما وراء صنعاء (صفة: ٢٢٠- ٢٢٣):

> أول حدود حاشد وما وراءها إلى صنعاء البون والرحبة وقاع الجند (..)ومثل ذلك الغيل لبني عليان، الجنات، ظبرة لبني الخارف الخشب وقراه: تكثر وبناعة وذو بين وما بين ريدة إلى وورور للصيد من ولد عمرو بن جشم (..) وبأكانط منهم الميح وبيت الجالد وجرفة حاشدية- بوسانية وسنام الظاهر بلد وادعة بن عمرو بن مالك بن جشم (..) فما بين ذلك العُيب فبهمان (..) وحجور بينة وأخرف وهو بلد واسع؛ فهذا ظاهر بلد حاشد فأولها لاعة وهي داخلة نحو الجنوب، في غربي صنعاء (..) وتسمى عذر هذه عذر مطرة (..) وباري للفائش من الجبر وعيان.

ها هنا أقام بنو جشم العرب؛ الذين قادوا المعارضة القوية لبناء المدينة، بسبب ذعرهم من أن يؤدي ذلك إلى عودة الفرس للضغط عليهم وربما تكرار تجربة الغزو. وإلى جوار مضارب هؤلاء قرى تعدُّ بوسانية وحاشدية من حيث نسب سكانها. وهنا بنو مالك في وادي جنات (جن- ها- ملك) الذي سنتحدث عنه لاحقاً. وها هنا وادي بهمان- بهمه(بإلحاق النون الكلاعية في نطق أهل اليمن) والذي تصوره المترجمون (بهيمة أو دابة ركبها نحميا فلم يتمكن من اجتياز الطريق). بينما يصفه الهمداني وصفاً مُسهباً ضمن بلد حاشد، كوادٍ خصب فيه أنواع من العنب الجيد وإليه يُنسب العنب البهماني. وهذا الوادي هو بالضبط قرب الخارف كما في النص أعلاه. وفي هذا الفضاء الجغرافي نجدُ أودية مطرة وعيان-

عين وقبائل الجَبْر-جبريم (انظر النصين، وسنرى بطوناً من بني جابرة). ثم مخلاف الجند وهو قاع- تقوع في النص. إن التوصيف أعلاه لا يحتاج إلى الكثير من التفاصيل للاستدلال إلى أورشليم التوراتية-اليمنية، أوإلى أسوارها التي جرى ترميمها؛ إذ يمكن للسائر على خطا نحميا أن يتجه من خولان فحقل صَعْدَة وصولاً إلى نجران، ليشاهد جبل ووادي شعر وشعراء؛ بل وأن يشاهد الأشجار الكثيفة المحترقة هناك وقد توزعت فوق مساحات شاسعة. إليكم بقية المواضع كما وصفها الهمداني على الطريق من صعدة إلى نجران (صفة: ٢٢٥- ٢٢٨):

عرو للرعا فهذه بلد خولان على حدّ الاختصار (...) بلد نهد أراكه أسفل زبيد والعشتان. والذي يسكن هذه البلاد من قبائل نهد أكثر نهد بنو دويد (...) وموارد بلحارث البراق ماء بأعلى وادي نار وأول الأودية بين نجران والجوف قضيب(..) وبين قضيب واليتمه وادٍ من بلد دهمه فيه من مياه بلحارث فتح.

ها هنا بقية المواضع التي امتدت إليها الأسوار: مياه فتح ووادي نار- نوريم وها هنا بنو دويد ومنازلهم وهم من بني نهد؛ وفي التوراة دويد (وليس دود أي داوود كما توهم محققو الكتاب المقدس). لقد قام المترجمون بمكافأة دويد العبرية باسم داوود ظناً منهم أن كاتب النص، قد يكون أخطأ في رسم الاسم. ومع أن اسم داوود يُرسم في نصوص التوراة في صورة دود وليس دويد؛ فإن محققي الكتاب المقدس مضوا قدماً في المماثلة بين الاسمين وهذا خطأ فادح. وها هنا أيضاً جبل الرعا الشهير في خولان-الرعا في النص العبري. يقول النص: (وءومر-ء لهم-ءتم- رءيم-ها-رعه- ءشر-ءنحنو-به-ءشر يروشليم-ها-حربه-وشعريه-نصتو-ب-ءش) وهذه الجملة الطويلة، إذا ما قمنا بإعطاء ترجمة موازية

لها أكثر حَرفية وتقيداً بالنص، ستُفيد ما يلي: (فقلتُ لهم: أنتم رأيتم الرعا الذي نحن فيه والذي لأورشليم الخربة. لقد أكلت النارُ الشَّعْرَاء فيه). يقول الهمداني في وصف جبل الرعا ما يلي (صفة: ٢٣٨):

(ذوات النبع منها وخاصة من بلد خولان جبل الرعا)

وفي هذا المكان سوف تلاقينا سيول الركب-ركبه وهي تصب في العرض من نجران. إن ركبه العبرية في سياق النص لا تشير إلى (ركبّوا المصاريع والأقفال) كما في الترجمة السائدة؛ بل إلى اتجاه البناء الذي يجري أصلاً في الوديان. وحين نحث الخطا خلف نحميا والهمداني متجهين من صعدة، إلى بلد شاكر، فسوف نرى الغابات الكثيفة المحترقة -الشَّعْر والشعْراء وكنا تحدثنا في نص سابق عن مخلاف الشعر وبلد الركب -. هاكم وصف الهمداني للمكان (صفة: ١٦٠- ١٦٤):

والمقبرة ويلقى هذه المياه إلى ناحية الواغرة الشبا ويمدها سيل نعمان (..) والوادي الرابع فروعه من بلد يام القديمة وجبال نهم من بلد خولان (..) ويمدّها سيل الدحاض والركب.

ها هنا المقبرة وها هنا سلسلة جبال الشبا- ءليشب؛ التي امتدت إليها أعمال البناء والترميم. وهناك، غير بعيد عنها بلد الركب وبهمان-بهمه. أما نهيه فليست سوى وادي نُهيه الذي أعطى الهمداني اسمه، في صورة اسم لموضع يُدعى نهية الدغل قرب مأرب. وغير بعيد عنه يقع وادي نُهي وهو من أعظم أودية اليمن في مخلاف السحول، الذي يتصل بمخلاف العود-عود، وهما عند نحميا متصلان (نهيه وعود:نحما). وهذا أمر يستحيل ردّه إلى المصادفة اللغوية أو الجغرافية. يقول الهمداني (صفة: ١٩٨- ٢٠٠) ما يلي:

وبطن السحول وفروع زبيد ووادي النّهي (..) وبلد حاشد ما بين نعمان وبلد الكلاع وجبال الركب (..) ومخلاف العود والعود للعدويين.

على هذا النحو تتكشف أمامنا أورشليم القديمة المحترقة شيئاً فشيئاً؛ كما يتكشف أمامنا المعنى الحقيقي لقول نحميا: (فلنقُم ولنبنِ أورشليم من نُهيه إلى العود وحرف) لذلك؛ إذا ما سرنا من مخلاف مأرب متجهين إلى بلد الركب، الذي رأينا أن سيول جباله تبلغ تخوم نجران، فسوف نجد هناك جبل بني مالك و تحتم[1]-تحته وهو من الجبال المسنمة. قال فيه السليك بن السلكة (صفة: هامش المحقق: ٢٠٤):

بـحـمـد الإلـه وامـرئ هـو دلـنـي حويت النهاب من قضيبٍ وتحتما

وقال فيه لبيد:

وهـل يـشـتـاقُ مـثـلـك مـن ديـارٍ دوارسٍ بـيـن تـحـتـم فـالـخـلالِ

هذا هو جبل تحتم -تحته وهناك بهمه. ومن غير شك؛ فإن مقاصد النص تنصرفُ إلى توصيف المواضع التي تفقدها نحميا من مخلاف الشعر والركب وبهمه، ولا تنصرف إلى (البهيمة التي اركبها من تحتي). علماً أن النص العبري يخلو من أي إشارة أو كلمة تفيد بوجود معنى يخص مكاناً تعبر منه البهيمة. لقد أضاف المترجمون هذه الجملة لكي يستقيم لهم فهم معناها. في وصفه لمخلاف مأرب ولغرب صنعاء يقول الهمداني (صفة: ٢٠٣- ٢٠٤) ما يلي:

مخلاف مأرب: الجبل لبني مالك (..) وتحتم (..) وبلد الركب وهو بلد آل أبي النمر الركبيين.

(١) لاحظ كيف دخلت الميم كأداة تعريف على الاسم (تحت، أو تحته) فأصبح: تحتم.

على هذا النحو تتكشّف أمامنا أورشليم القديمة في جبال السراة اليمنية، بمواضعها التي تحمل أسماء لا وجود لها في جغرافية فلسطين قط؛ وبقبائلها العائدة من الأسر البابلي، والتي لا وجود لها في تاريخ فلسطين أيضاً. إنها أورشليم التوراة التي بنت أسوارها المهدمة القبائل العربية-اليمنية اليهودية؛ وهذه لا صلة لها بالقدس الفلسطينية. إليكم هذا التوصيف الموازي لأهم الأماكن في قلب السراة (صفة: ١٢٢-١٢٦) ولنلاحظ التجاور الصريح بين حرف -حرف وبنو نشق -نشق وعيان-عيان وسواها من الأماكن (انظر القائمة):

ونقيل السود (انظر نقيل السود وبيت بوس في نصوص الهمداني) وجبل حضَور (..) وظهار ابن بشير النشقي من همدان، ثم يتصل بها سراة المصانع (..) ومسور والظلمة و العر وجبل التخلى وعيان ثم يتصل بهذه السراة قُدم (بن قادم بن جُشم- المحقق) والحرف، وأوسطها هَمْل (هَمْل بن الخارف من فائش الجبر، وهو وادٍ موبوء-المحقق).

هذا هو جبل حرف قرب مخلاف عود ونُهيه-نُهى، وقرب ديار بني نشق- نشق وجبل حضور-حصور تماماً كما في توصيف نحميا. أما جبل يُكلى- ما يُعرف اليوم ببلاد سنحان وبلاد الروس-فهو موضع نُسب إلى يُكلى بن عريب من حمير ومياهه تصب في مأرب. تعني كلمة تكلت العبرية طرف، كما في جملة: وعد-تكلت-بيت-ءليشب. والترجمة الحرفية لها يجب أن تكون: (وحتى طرف بيت الشب) أي إن الأسوار - في هذه الحالة- تكون قد بلغت أطراف ما يعرف حتى اليوم بجبال الشبا-ءليشب. يقول الهمداني (١٥٢-١٥٣) ما يلي:

والجُبل المشرفة على سيوق من جانب ذمار وبلد عنس والدقرار

جبل-بني مالك -ويُكلى ومساقط بلد خولان وما تيامن من القحف وتفضي-السيول- إلى موضع السد بين مأزمي مأرب وترد سيول السويق إلى أسفل الجنة اليمنى لمن هبط مأرب، فتسقي الحرجة وحزمة البشريين (وحزمة البشريين تسمى سلوة في وادي عبيدة: المحقق) ثم الروضة إلى نُهية الدغل.

ها هنا جبل مالك وها هنا الجنة-جن (انظر جن-وها-ملك في النص السابق) وإلى الجوار بركة سلوه- سلوه وهي مياه في وادي عبيدة شملها بناء الأسوار. وفضلاً عن ذلك هنا نهيه-نهيه عند نحميا. وإذا ما سرنا قليلاً صوب الساحل فسوف نجد وادي الشفاه-ها-شفوت. اللافت للانتباه هنا، أن نحميا يشير في نصه إلى مشاركة بني يامن في البناء. إليكم وصف الهمداني (١٥٠-١٥٢):

وذات السمكر والشفاهي، ومن جُبلان جبل يامن (..) ثم ميزاب اليمن الشرقي وهو أعظم أودية المشرق وشعابه كثيرة والدقرار جبل بني مالك (انظر بقية الوصف في النص أعلاه).

وهذه هي ها -شفوت- الشفاه أو الشفاهي في المكان نفسه، حيث امتدت أسوار أورشليم القديمة بمشاركة سبط بن يامن كما يؤكد نحميا؛ وها هنا جبل بن يامن يقف شامخاً.

والآن وقد فرغنا جزئياً من إعطاء القارئ فكرة عامة، عن المواضع التي تفقدها نحميا، ثم خط سير الأسوار التي شرع في ترميمها بمساعدة القبائل، يتعين علينا -هنا- استكمال الوصف على أساس الربط بينه وبين القبائل المشاركة، لكي يتسنى تكوين فكرة أدق وأكثر عناية بالتفاصيل الحقيقية والضرورية.

الفصل الخامس

القبائل والجماعات المشاركة
في بناء أسوار أورشليم
(مقاربة بين نص الهمداني وعزرا)

تولى كاهن ها-جدول- الجدول، ويُدعى ءل-شب-الشبا (انظر ما كتبناه عن مجدول وهي الجدول) بنفسه ومعه طائفة من يهود اليمن، بناء سور أورشليم (أورسالم) من جهة جبل صئن-ضأن (بمعنى غنم). إن الترجمة السائدة عن هذا المقطع من التوراة تعطي المكافئ التالي لجملة (و-يقم-ء ليشب-ها- كهن-ها-جدول: وقام الياشب عظيم الكهنة). والصحيح (تولى الشبا كاهن الجدول) لأن كلمة ها-جدول هنا لا تعني كبير، عظيم، وإنما تشير إلى موطن الكاهن وهو مكان بعينه يدعى الجدول، ولذلك سمي بكاهن الجدول. أي كاهن هذه المنطقة المسماة الجدول. أما صئن- ضأن فقد تُرجمت إلى الغنم، بحيث أصبحت الجملة على النحو التالي: (وبنوا باب الغنم). ومع أن فلسطين لا تعرف باب الغنم هذا، وليس ثمة موضع في طول القدس وعرضها يُدعى غنم؛ فإن الهوس بلغ ذروته مع الحفريات الأثرية تحت مسجد قبة الصخرة في القدس، بحثاً عن بقايا أسوار وأبواب أورشليم، وخصوصاً باب الغنم المزعوم هذا.

ولذلك سعوا إلى المُطابقة بين اسم جبل أبو غنيم، البعيد عن القبة وبين غنم التوراتية هذه. في الواقع لا يوجد موضع أو باب قديم لأورشليم يُدعى باب الغنم؛ بل هناك جبل مقدس وشهير في السراة اليمنية هو جبل غنم بالفعل، وليس أبا غنيم. وهذا الجبل لا يزال يحمل الاسم المعرب غنم- من كلمة صئن العبرية-في المكان نفسه. ويبدو أن كلمة ضأن هذه، هي التي أغرت المِخيال الأوربي على الافتراض أن المقصود غنم بالفعل؛ ولكن علماء الآثار لم يعثروا على جبل بهذا الاسم، بينما نجده هناك وباسمه المعرب: غنم. شرع كاهن الجدول من موقعه في الجدول ببناء سور أورشليم التي تبدأ أسوارها فعلياً من جبل غنم (ضئن) حتى وادي (ها- مأه) المأه، التي يرسمها المترجمون في صورة المئه؛ بينما الضبط الصحيح لها هو: المأه وفي التثنية المأوان. وهي مياه على مقربة من جبل غنم بالفعل. وغير بعيد عن هذا الجبل هناك وادي الحنا- حنن-ءل. ما إن شرع الكاهن في إطلاق إشارات البناء الأولى، حتى سارعت إلى المشاركة في أعمال البناء قبائل عدّة تسجل التوراة أسماءها بدقة متناهية: قبيلة بنو ءمري وعلى رأسهم زكريا زعيمهم وكاهنهم. وهؤلاء ساهموا في بناء جزء من السور في مجدل-وها-مأه. ثم قبيلة بنو شنأه- شنوءة[1] التي تولت ترميم الجزء الممتد من جبل شعر، ومن -ها-دجيم الدجوج. وفي هذا الإطار كافأ المترجمون الاسم (دجيم) بـ (باب الحوت) مفترضين أن الأمر يتعلق بالكلمة العبرية دج بمعنى حوت، سمك[2] بينما المقصود موضع الدج

---

(١) هل يمكن لعاقل أن يهمل هذا الاسم: أزد شنوءة؟ هؤلاء قبيلة شهيرة من قبائل اليمن وهم بنو الأسد الذين ورد اسمهم في النقوش والسجلات التاريخية في صورة ملك لأسد: ملك الأزد -أزد شنوءة.

(٢) لاحظنا في الصفحات السابقة أن المترجمين ترجموا الكلمة نفسها (دجيم) وفي مكان آخر وسياق مختلف ولوظيفة مختلفة في صورة (باب السمك) الآن أصبح لدينا مكان ملفق جديد يدعى باب الحوت.

طِبقاً للرسم العبري، كما أن اسم هذه الجماعة في الضبط العربي الصحيح هو شنوءة وليس شنأه، وهؤلاء يعرفون في التاريخ اليمني والعربي القديم بأنهم من أزد شنوءة.

وبينما كانت أعمال الترميم مستمرة دخلت جماعات أخرى منهم بنو الفرص (الفارض) ومشلم بن بركيه- السلم بن برخيا ومعهم أفراد من التقوعيين-من مكان يدعى تقوع-وبنو بعته-بعثه (قارن مع اسم البعيث الشاعر) ليتخذ ترميم الأسوار عندئذٍ، مساراً جديداً في موضع يسميه النص التوراتي (صورم) في وادي عبدت-عبيدة. سنتوقف هنا قليلاً لإثارة مسألة تبدو شائكة في النص العبري؛ إذ وقف المترجمون حائرين أمام بعض الكلمات في النص الخاص بتوصيف أعمال الترميم ولذا قدموا ترجمة محيرة أكثر غموضاً من النص.يقول نحميا:٢: ١١: ٣: ٨ ما يلي:

وعله-يدم-ها-حزيقو-ها-تقوعيم-وءديريهم-لء-ها-بيئو-صورم-ب-عبدت-ءدنيهم. (وهنا الترجمة كما قدمها النص العربي من نحميا: ٢: ٢٠: ٣: ١٦: وبجانبهم رمَّ التقوعيون إلا أن أشرافهم لم يحنوا أعناقهم لخدمة أسيادهم.)

لا تبدو هذه الجملة مفهومة؛ وهي مُصاغة بلغة عربية فقيرة الدلالات. في الحقيقة لم يكن هناك أسياد وعبيد في عمليات البناء،خصوصاً وأننا نتحدث عن مدينة مقدسة، تنهض الجماعة الدينية، بعد خلافات مريرة بعبء إصلاح أسوارها المهدمة. لا يتطلب الأمر قط أن تحنى الأعناق ولا أن يُخدمَ الأسياد. كل ما في الأمر أن رجالاً من تقوع- قوع، شاركوا في أعمال الترميم من موضع يدعى صورم-صرم في وادي عبدت-عبيدة. والجملة لهذا السبب تقول ببساطة ما يلي:

وعلى أيديهم تمّ البناء. التقوعيون حوطوا الأساسات إلى صُرم في عبيدت.

إن كلمة ءدنيهم لا تعني السادة -من أدون العبرية- بل تعني أيضاً: الأساس والقاعدة. وعلى العموم لا تشير كلمة عبدت إلى خدمة، بل إلى اسم وادٍ شهير هو وادي عبيدة- عبدت، الذي تصب فيه مياه سلوه-انظر ما كتبناه عن سلوه. هاكم ما يقوله الهمداني عن وادي عبدة-عبدت ومياه سلوه قرب مأرب، وإلى جوار وادي نُهية-نهيه (صفة: ١٥٣):

ثم الحرجة ثم حزمة البشريين إلى نُهية الدغل في طرف صيهد (وحزمة البشريين هي التي تسمى سلوه في وادي عبيدة وفيها آثار عِظام: المحقق)

هذا هو وادي عبيدة-عبدت وفيه مياه سلوه؛ تماماً كما في نص نحميا وإلى الجوار وادي نُهيه-نهيه. والهمداني يرسم اسمها بالضبط كما في الرسم العبري، ويطلق عليها نهية الدغل. والدغل نبات بري كانت القبائل تقتات عليه أيام المجاعات. وعندما امتدت أعمال الترميم إلى وادي مَوْر عند مسيل صرايم-صورم، دخلت جماعة قبلية أخرى ساهمت في تحسين المداخل. وهؤلاء كانوا على التوالي: من بني فاسح الذين تلقوا مساعدة من ملطيه من بني جبعون، ومن أهل الصفاة-ها-مصفه، ومن بني حارقهيم[1]. والاسم الأخير (حارقيهم) مثير للحيرة بالنسبة إلى المترجمين،

(١) الحارق، والميم أداة التعريف النمقرضة هنا. أما الهاء الوسطية فهي حرف صوتي أسقطه تطور اللغة العربية مثل: يهريق الماء: يريق الماء. ومثل بهنسو التي يستخدمها الحضرميون سكان حضرموت بمعنى: ابنه. وهي لهجة معروفة عند القبائل العربية تعرف بلهجة السين ولهجة الهاء.

ولذا قدموا مكافئاً غريباً هو: الصاغة. وهكذا أصبح لدينا، فضلاً عن الأماكن الملفقة مثل بيت السمك، وبيت الحوت وبيت الزبل؛ وجماعات لا وجود لها مثل البوابين (شعرائيم) ها هنا جماعة أخرى جرى تلفيقها ولا وجود لها في التاريخ: (الصاغة). بينما الضبط الصحيح للاسم هو الحارق، والهاء في الاسم مشابهة للهاء في بعض الأسماء مثل: يهرعش في يرعش. أما الميم فهي أداة التعريف (أوالجمع الحميرية-اليمنية). وإلى جانب هؤلاء شارك رجال من بني حور، ومن بني خرومف-(١)مخاريف. كما ساعدهم بنو حشوب الذين رمموّا الأسوار حتى وادي تنوريم-نوريم. وإلى جوار هؤلاء كانت هناك جماعة قبلية أخرى يسميها النص التوراتي (بنو لوحش(٢)) الوحش. أما مداخل الوادي فتولتها قبيلة زنوح حيث امتدت الأعمال، عندئذٍ باتجاه منطقة الجوف اليمني عند جبل أنف-ألف، بمعونة من بني ركاب الذين يقيمون في منطقة الكرم. أما وادي عيان فقد بنت الأسوار فيه قبائل من الصفاه ها-مصفه، وهي التي رمَّمت السور عند مياه سلوه، وفي جن-الجنة، وفي جبل ها-ملك أي: في الجنة وفي وادي الجنات وفي جبل ملك أيضاً. من المؤكد أن فلسطين لا تعرف أي اسم من أسماء القبائل الواردة في هذا الخبر التاريخي عن بناء أسوار أورشليم وإصلاح أبوابها العتيقة المحطَّمة في السراة اليمنية؛ وليس ثمة ما يدل على وجود بقايا لغوية أو جغرافية في مدينة القدس العربية، تشير إلى مواطن هذه الجماعات والقبائل. ومع ذلك لا تزال القراءة الاستشراقية السائدة للتوراة، تفرض رؤيتها على التاريخ بإصرارها على أن هذا الحدث وقع في فلسطين. ومن أجل ذلك فسوف نعطي أسماء هذه

---

(١) لاحظ استعمال الميم في الاسم. لقد أصبحت ميماً وسطية ولكن وظيفتها ظلت كما هي: أداة تعريف: خرومف: مخارف، الخارف.

(٢) كما في النقوش اليمنية: ملك لأسد: ملك الأسد، مرله: أمره الله، وهبله: وهب الله، عبدله: عبد الله..

الجماعات والقبائل ومواطنها الحقيقية. هاكم قائمة بالأسماء كما وردت في النص العبري ومعها الضبط العربي.

قائمة بأسماء القبائل المشاركة
في بناء أسوار أورشليم

الاسم في العبرية	الضبط العربي
١ : ء مري	المر
٢ : شنئه	شنوءة
٣: حشوب	حُشُب
٤ : حور	حور
٥ : حارقهم	الحارق
٦ : خارومف	المخاريف
٧: لوحش	الوحش
٨: ركاب	ركب
٩ : زنوح	زانح

تحليل القائمة

عندما بدأت أعمال الترميم وإعادة البناء في أسوار أورشليم، ابتداء من جبل غنم إلى الغرب من صَعْدَة، سارعت بقية القبائل إلى المشاركة. ومن بين أهم هذه القبائل تلك التي يسميها نحميا : بنو-شنئه (بنو شُنئُة). فمنْ يكون هؤلاء؟ في الواقع ليس هؤلاء سوى القبيلة اليمنية الشهيرة شنوءة، وهم من قبائل الأزد القوية. والهمداني على طريقته في الاعتزاز بنسبه اليمني، ينقل قصيدة لشاعر غير معروف (صفة: ٣٢٦) يصف فيها أزد-شنوءة:

وبعدَ شنوءة الأبطال أضحتْ   بيوتهم تُرفع بالعمادِ

وأزد شنوءة من القبائل اليمنية الكبرى والقديمة التي أقامت في سرو مَذْحج؛ ويزعم النسابون أن اسمهم جاء من الشنأة، أي: البغضاء التي وقعت بينهم. قال الشاعر (صفة: ١٧٩):

ونحنُ قتلنا الأزد أزد شنوءة   فما شربتُ بعداً على لذَّةٍ خمرا

وهاكم وصف جبل غنم إلى الغرب من صَعْدَة (وإلى الجوار منه بنو زارح وهم عند الهمداني ومحققه: بنو رازح- بتقديم وتأخير حرف الراء، ولذا لن نشير إليهم هنا لان اسمهم لا يرد في قائمة البنائين هذه بل في قائمة أخرى). وجبل غنم هذا على مقربة من صرايم وعليان-عليون والخارف. يقول الهمداني (صفة: ١٢٨-١٣٢):

> فمنقل سفران، فبلد حرب- بن وادعة- وهم بنو صريم وبني عبد، وغورها أخرف وبلد حيران، وقبر عليان ووادي أمير، فغنم ومران وعرامى (ويقع في بلد بني عمر من رازح: المحقق) وبلد الركب فيلتقي هو ونخلة جنوبي زبيد (..) ويضمها سيل نعمان ثم تنحدر كلها في بلد الوحش.

ها هنا منازل القبائل ذاتها التي شاركت عند نحميا في أعمال البناء: بنو عبدت-عبد[١]، صورم-صرايم بنو لوحش-الوحش. فضلاً عن جبل غنم وبلد الركب الذي جاء منه بنو ركاب-ركب. وإلى الجوار سلسلة من الجبال والأودية التي سبق لنا تحديدها. في هذا السياق سنتوقف- مرة أخرى- أمام اسم القبيلة لوحش-الوحش التي شارك أبناؤها في أعمال البناء. هاكم وصف الهمداني وتحديده الدقيق لحدود بلد الوحش وسكانه من قبيلة الوحش (صفة: ١٩٩-٢٠٠):

---

(١) زيادة التاء لهجة يمنية: قريش: قريشت، فلس: فلست.

ووادي النُّهي (..) والوحش من بلد حاشد ما بين نعمان وبلد الكلاع (..) ومخلاف العود.

يعني هذا أنَّ القبائل اليمنية في السراة هي التي قامت بترميم وإعادة بناء الأسوار، في مكان تعرفه جيداً ويخصها في الصميم. وها هي السراة تحتفظ بأسماء هذه الجماعات، ببلداتها وقراها وأوديتها تماماً كما في وصف نحميا ومن دون أدنى تلاعب لغوي من جانبنا. إن فلسطين التاريخية لا تعرف العود أو موضعاً باسم الوحش قرب وادي النهي (أو استطراداً وفي المكان نفسه: وادي نهيه-نهيه). ولا تعرف موضعاً يدعى عود- العود. لكل ذلك ليس ثمة مصادفة في هذا التوافق المذهل بين قائمة نحميا ونص الهمداني.

أما المخاريف-خارومف- ولاحظ دخول الميم المنقرضة على الاسم- فإنهم يقيمون في المكان نفسه. يصف الهمداني هذه المواضع (١٣٢-١٣٦) على النحو التالي:

ووادي زبيد وهو بعيد المأتي وأول مسايله من ذي جُزب، ويضمها سيل نعمان ثم تنحدر كلها في بلد الوحش (..) ثم يتلوه وادي سهام ورأسه نقيل السود (وبيت بوس- المؤلف) من صنعاء على بعض يوم، فعيان فأدران حتى يلتقي بمَوْر الآتي من بلد خولان وبلد بني عبد البقر ويلقى سيل صرايم (..) ثم وادي خُلب وهو الذي يشرع على جانبيه ينهما أودية تشرع في قاع تهامة وتسقي المخاريف من بلد حكم إلى البحر.

هذا هو الفضاء الجغرافي المتكامل الذي جمع القبائل والوديان والجبال، تماماً كما في نص نحميا عن بناء أورشليم في السراة اليمنية.

وهذه التفاصيل توضح العلاقة بين وجود أسماء القبائل المشاركة في البناء، وبين المواطن والمواضع التي أقامت فيها وشملها الترميم؛ فسكان بلد لوحش- الوحش، مثلاً، الذين يُقيمون على مقربة من بيت بوس؛ يشاركون الجماعات الأخرى في المخاريف وفي وادي عيان-عين و صورم-صرايم، ومن يني عبد- عبدت سكان الوادي؛ في عملٍ يخصهم في الصميم لأنه يمسّ حياتهم. مثل هذه العلاقة يستحيل الحصول عليها في جغرافية فلسطين. فإذا ما وجدنا اسم موضع استحال علينا الحصول على اسم سكانه. يبقى أن نلاحظ أن ما يُدعى حارقهيم -يُعرفون عند الهمداني باسم بنو الحارق من قبيلة بلحارث. وهؤلاء سكان الحرقه- قارن بين الهاء الأخيرة في اسم الحرقه، وبين الهاء الوسطية في اسم حارقهم ولاحظ أن الميم انقلبت أداة تعريف: الحرقه- في مخلاف المعافر (صفة: ١١٧-١١٨):

فحيق بني مجيد فعر عدن ووادي الملح ويسكنه الأشعر ثم يتصل ببلد المعافر في هذه السراة، قرعد وحرقة (الحرقه في أعلى غربي المذيخرة في أيفوع: هامش المحقق: ١١٩)

لقد جاءت القبائل من معظم مخاليف السراة اليمنية؛ من عدن والكلاع وأبْيَنْ وصنعاء وسواها، لتشارك في بناء أسوار أورشليم اليمنية التي دمرها الآشوريون. (بقية القبائل المشاركة مثل حشوب-الحُشب في ضبط الهمداني وبني ءمري- بنو مر وعزره- عيزار سبق الكلام عنهم في هذا الكتاب). لسوف يكون بوسعنا ونحن نتتبع الأسوار سوراً سوراً وهي تُبنى هناك، أن نتعرف على المكان الحقيقي لما يُدعى الهيكل؛ وبذلك ستكتمل صورة المدينة وتتساقط الأوهام الاستشراقية. ها هنا جبل الهيكل في سراة اليمن وليس في فلسطين.

القبائل اليمنية في أنساب التوراة

يقول الهمداني (صفة: ١٦٦) ما يلي: (هؤلاء رجال نُسِبَتْ إليهم المواضع، وكذلك سُمِّيَ أكثر بلاد حِمْيَر وهمدان بأسماء متوطنيها). ما تقوله هذه العبارة الدقيقة يتضمن الكثير من الحلول؛ فنحن نتعامل مع أسماء مواضع في النص التوراتي ليست من نسج الخيال، بل هي لجماعات وقبائل وآباء قدامى تُركت هناك على مر الزمن. كل ما يتعين علينا هو ربط الأسماء بوجود ثقافي للبشر الذين عاشوا فيها؛ لأن الأمر يتعلق في النهاية، بمسألة تقديم برهان عن الهوية الحقيقية للتوراة، بوصفها كتاب أخبار وقصص ديني يخصّ جماعات وقبائل وعشائر يمنية-عربية بائدة، عاشت واندثرت في موطنها العربي القديم. هذا التمهيد الذي يمكن أن يتخذ من مسألة وجود عشائر يمنية، ورد ذكرها في أنساب التوراة، مُنطلقاً لتأكيد هوية الكتاب المقدس الحقيقية، سيوجِّه مسار البحث مرة أخرى صوب المهمة ذاتها: البرهنة على أن الطابع الحقيقي للسرد التوراتي ينتسبُ إلى تجربة جماعة يمنية زائلة تدعى بني إسرائيل. إليكم سلسلة من المقاربات الجديدة بين نصوص التوراة ونصوص الهمداني. يقول سفر العدد ٢٦: ٣٢: ٥١: ما يلي:

(بني-بن-يمن-ل-مشفحتم-ل-بالع-مشفحت-ها-بلعي-ل-ءسبيل-مشفحت-ها-ءسبيلي-ل-ءحيرم- مشفحت-ها-ءحريمي-ل-شبوبم-مشفحت-ها-شوبمي-لحوفم-مشفحت-ها-حوفيم-(....) ءرد-نعمن-مشفحت-ها-ءردي-ل-نعمن-مشفحت-ها-نعمني. (..) ءله-بني-دان-ل-مشفحتم-لشوحم-مشفحت-ها-شوحمه (..) بني-ءشير-لمشفحتم-ل-يمنه-مشفحت-ها-يمني)

ونحن نترجم هذا النص كالآتي:

(بنو يامن وعشائرهم: البلاع عشيرة البلاعيين، والإسبيل عشيرة الإسبيليين، والأحرم عشيرة الحرميين، والشويام عشيرة الشويانيين، والحوف عشيرة الحوفيين. والأرد عشيرة الأرديين، والنعمان عشيرة النعمانيين. وهؤلاء بنو دان: وعشائرهم: ليشحم عشيرة اليشحميين، وبني أشير وعشائرهم: اليمنة، وعشائرها اليَمنيين)

ليس في التاريخ الفلسطيني مثل هذه العشائر والبطون. وسكان فلسطين اليوم، مثلهم مَثل الفلسطينيين القدماء لم يسمعوا بها قط؛ بينما تعج كتب الأنساب اليمنية بتفاصيل مملّة عن هذه الأنساب. كما أن بقايا من هذه العشائر المنقرضة لا تزال تعيش في اليمن، بالأسماء ذاتها الواردة في هذا النص. إليكم هذا الاكتشاف (صفة: ١٥٢-١٨٠-٢٠٦-٢٤٨) ولنبدأ من (أسبيل وعشائرهم الأسبيليين) الذين أقاموا شرق وادي اليردن وليس شرق الأردن البلد العربي. في وصفه لوادي مور ميزاب اليمن الشرقي[١] يقول الهمداني ما يلي (١٥٢):

(ومن جانب ذمار وبلد عَنسْ جميعاً وهو مخلاف واسع: جبل أسبيل)

ثم يضيف (١٨٠):

(والجبل المعروف بأسبيل في وسط بلدهم إلا أن فيه نفراً منهم من بني غنم)

---

(١) وهو أعظم أودية شرق اليمن؛ والذي يُعرف في التوراة باسم شرقي (وادي يردن-يردن) أو شرقي مور، والممتد من جنوب مدينة رداع شرقاً فإلى الشمال الشرقي من ذمار.

وبنو عنم هؤلاء ورد ذكرهم في التوراة بالاسم نفسه عنم -بالعين المهملة-. يضيف الهمداني ما يلي (صفة: ٢٠٦):

(جبل أسبيل مُنقسم بنصفين، فنصف إلى مخلاف رداع ونصف إلى مخلاف عَنْس وشمالية إلى كومان. (المحقق: وإسبيل جبل منيف شاهق واسع الأطراف يبعد عن مدينة ذمار شرقاً بمسافة ثلاثة فراسخ)

هذا هو جبل إسبيل- ءسبيل[1] الذي ينتسب إليه الإسبيليون؛ وكما يُلاحظ من نص الهمداني فقد أقامت هذه العشيرة في مخلاف- مملكة يمنية قديمة، إلى الشرق من ميزاب تهامة الأعظم، أي إلى الشرق مما سوف يُعرف باسم يردن في التوراة وليس إلى الشرق من نهر الأردن المزعوم. وعلى الأرجح جاء اسم إشبيلية الذي أطلقه الفاتحون العرب على إسبانية من اسم هذا الجبل. في هذا السياق، سوف نتحقق من صحة أسماء العشائر الأخرى القاطنة في المكان نفسه؛ والتي اعتبرها سارد النص من بني يامن وإحدى هذه العشائر تحمل اسم يمنة. إن اسم الجماعة اليمنية الأولى في هذا النص هو بالع-بلع (حسب التهجئة العبرية وكذلك حسب الرسم العربي السائد). ونحن نرى أن الضبط الصحيح لها هو: بلاع. إليكم ما يقوله الهمداني عن عشيرة بلاع اليمنية (صفة: ٢٢٧):

(بلد زُبَيْد: بلاع، وادٍ فيه نخل - وهو غير بلاع في بلد خثعم أسفل الخنقة - إلى الورة، والأعدان، وهي مراعٍ لرُنية. ويسكن هذه البلاد من قبائل زُبَيْد الأغلوق وبنو مازن وبنو عُصم)

(١) على الأرجح نقل المحاربون اليمنيون أسماء أماكن كثيرة إلى شتى بقاع الأرض حسب زعم القصص والإخباريات اليمنية. ولكننا لا نملك ما يكفي من الدلائل لدعم هذا التصور.

ها هنا اسم الوادي الذي تنتسب إليه العشيرة (كما هو الحال مع سائر القبائل والعشائر التي تحمل اسم مواطنها وتُعرف بها) والنسبة إلى الوادي بلاع: البلاعيون وليس (البالعيون كما في النص العربي من التوراة). وكما هو واضح من نص الهمداني؛ فإن العشيرتين اليمنيتين تُقيمان على مقربة بعضهما من بعض، بين شرق ذمار وزبيد على مقربة من بني عُصم - انظر عُصم في سبط يهوذه-. أما الجماعة الثالثة في هذا النص فتدعى (ءحرم). وهذا الاسم يُعيدُ تذكيرنا باسم ملك صور الذي تحدثت عنه قصص التوراة (ءحرم) وقالت: إنه قدم لسليمان خشب الأرز لبناء بيت الرب ما يُدعى الهيكل. وهذا يعني أن الملك التوراتي عرِفَ باسم قبيلته الحرميين. من المؤكد أن اسم أحرم- أحرم؛ جرى تخيله على أنه ملك صور اللبنانية لمجرد وجود اسم صور؛ مع أننا نعلم أنه يُعد من الأسماء الشائعة والمعروفة في كتب الأنساب اليمنية، وهو بالفعل من سكان صور اليمنية القديمة التي دمرها حريق هائل، على ما تقول الإخباريات اليمنية الكلاسيكية. هاكم ما يقوله الهمداني عن عشيرة أحرم من قبائل الصدف الحرميين-ء حرميين، الذين أقاموا في أبْيَن (المحافظة الثالثة في جنوب اليمن) وعلى طول الساحل اليمني (صفة: ١٩٠):

> **(ثم أبْيَن أولها شوكان، قرية كبيرة لها أودية للأصبحيين، وقوم من بني مجيد يُدعَونَ الحرميين. هامش المحقق: ١٨١: وقوله يتحرمون: أي ينتسبون إلى أحرم من الصدف)**

تبعد أبْيَن نحو ثمانين كيلو متراً عن عدن، وطريقها ساحلي رحب من شرقي عدن، وإلى الغرب منها يقع مخلاف لحج -لحج اليوم هي المحافظة الثانية في الجنوب اليمني-. وإلى الشمال منها محافظة يافع- يافع في التوراة. ومن غير شك؛ فإن وجود عشيرة تُعرف باسم ء حرم،

وتقيم على الساحل وفي مدينة صور- كما سنبين في مادة صور- أمر يستحيل رده إلى مجرد مُصادفة لغوية. ها هنا العشيرة نفسها وبقاياها من بني مجيد أقوى قبائل الساحل اليمني. (انظر معركة مياه مجدو عندنا). وفي هذا الإطار؛ فإن العشيرة الأخرى التي يُسميها النص لحوف- الحوف، مثل لحماس-الحماس (انظر مادة الحماس عندنا واللام المفردة دون ألف مهموزة هي بقايا أداة التعريف العربية كما في النص التوراتي) فليست سوى عشيرة الحوف اليمنية، وهم يعرفون عند الهمداني باسم بني الحيف- الحيفيين. وهؤلاء أقاموا قرب نجران في بلد وادعة النجدية. إليكم تحديد الهمداني لمواطنهم في عصره (صفة: ٢٢٥-٢٢٦):

> **بلد وادعة النجدية: بقعة ووادي عرد ووادي نجران والذي تشاءم في هذه البلاد. وبنجران وخالط شاكر: الحناجر، ويعيش، وسابقة، وكعب، وحيف.**

أقام الحوفيون قرب نجران وعدهم النص التوراتي من بني-يامن. وبالطبع؛ لا تعرف فلسطين التاريخية عشيرة واحدة من هذه العشائر تنتسب، أو تقيمُ في أودية تحمل أسماء كهذه. أما العشيرة الأخرى أرد- الأرديين فهم عند الهمداني عشيرة يرد التي تنتسبُ إلىءرد-يرد بن مهلئيل، الذين أقاموا عند الوادي الكبير المعروف قديماً باسمهم وادي يرد. هاكم وصف الهمداني لمواضع عشيرة الأرديين-اليرديين في المكان نفسه الذي تسيل فيه مياه وادي النعمان، حيث أقامت عشيرة النعمانيين كما يسيل فيه وادي شبام حيث تقيم عشيرة الشباميين (صفة: ١٣٢-١٣٤):

> **ووادي زُبَيْد وهو بعيد المآتي وأول مسايله من ذي جُزب فيمدها سيل لحج ثم يضمها سيل نعمان (..) فيسقي جميع ما حف به إلى**

البحر(..) ثم يتلوه وادي سهام ووادي سردد ورأسه أهجر شبام أقيان (المحقق: وهو وادٍ عظيم فيه قرى ومزارع غنية) ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم، شِعابه ذُخار وشرِبُبْ فبلد بني حارثة وبني رفاعة وحماد ويرد، فبلد عذر وهنوم.

ها هنا العشائر التي عددها النص؛ تقيم في مواضع تحمل أسماء آلهتها، أو أسماء آباء انتسبت إليهم الجماعات القبائلية التالية وكما في النص التوراتي أعلاه: نعمان-نعمان، أرد- يرد، شبام-شبام. فهل هي مُصادفة أخرى أن العشائر التي يسجلها النص التوراتي، موجودة في المكان نفسه وبالأسماء ذاتها؟ وهاكم أسماء ما تبقى من العشائر (بنو دان: ومن بطونهم: ليشحم- ليشحم). يقول الهمداني في وصفه لسرو حِمْيَر (صفة: ١٧٢-١٧٤):

سرو حِمْيَر وأوديته وساكنه: العر، وثمر وحبة ويهر، فالعر لأذان من يافع (..) ووادي ضراعة. تصب هذه الأودية إلى أبْيَن. وادي تونه للأصنعة من الأيزون، والحبيل ليشحم.

هوذا وادي عشيرة ليشحم يصب في محافظة أبْيَن؛ بالصيغة ذاتها وتماماً كما في النص التوراتي: ليشحم وفي المكان نفسه؛ بل وبوصفه بطناً من أذان القبيلة وهم سكان سرو حِمْيَر. وها هنا تكثيف للمقاربة بين النصين:

مقاربة بين النصوص

سفر العدد:	الهمداني:
وهؤلاء بنو دان وعشائرهم	سرو حمير وساكنه،
ليشحم	أذان، والحبيل ليشحم

هذه المقاربة بين نصوص الهمداني ونصوص التوراة، تكشف، بمالا يقبل أدنى تأويل أو تحفظ عن الحقيقة التاريخية المُتلاعب بها. ها هنا قبائلنا القديمة البائدة وها هنا أوطانها، وليس ثمة ما يجمعها بفلسطين الخيالية.

حول قبيلة كلب في نصوص التوراة

لا تثيرُ أسماء الجماعات والقبائل والشعوب القديمة في التوراة، في الغالب، انتباه الباحثين والدارسين إلا عرَضياً؛ ربما بسبب هيمنة نمطٍ غير مألوف من الحجب والتكميم، للجزء الشفاف من المرويات التوراتية ذات الطابع الإخباري والخاص بطرائق وأشكال نطق الأسماء (التي تجعل منها أسماء غريبة يصعبُ أو يستحيل فهمها والاستدلال إليها وحسب) وكذلك بأسلوب القراءة الاستشراقية ذاته. وهو أسلوب يَنْبَني على استراتيجيات تنسيب كل التاريخ القديم في فلسطين إلى جماعة واحدة، مُتفردة تمكنت من مواجهة التحديات المُحيطة بها، لتنجح أخيراً في بناء إمبراطورية كبرى لا وجود لها في التاريخ الحقيقي. ومن بين هذه القبائل التي تم تكميم صورتها وحجبها، و أسرْلتِها-أي تحويلها إلى قبيلة إسرائيلية- هناك قبيلة كلب. إن أسفار التوراة تتضمن صوراً دقيقة عن أنساب هذه القبيلة ووصفاً دقيقاً كذلك لمنازلها؛ ففي سفِر يشوع-مثلاً- (النص العبري ١٥ : ٧: ٢٨ :- والعربي ١٥ : ٤ : ٢٠) تُحدد أرض إقامة قبيلة كلب في سلسلة جبال يهودة:

(ل-كلب- بن- يفنه- نتن-حلق- بتوك-بيت-يهوده-ءل-فني-يهوه-ل- يهوشع-ءت- قرية- ءربع -ءبي-ها-عناق-هيء-حبرون)
(وإلى كلب بن يَفنه أعطى خَلْق وسط بيت يهوده حسب ما أمر الرب يهوشع، وقرية أربع، فكانت لأبي عناق. وأربع هي حبرون)

ثم يضيف النص ما يأتي: (وأرض كلب تمتد إلى وادي دبر، الذي كان يُدعى قديماً قرية سفر). غير أن محققي، ثم مترجمي النص العبري فهموا كلمة حَلْق (بالحاء المهملة) بطريقة غير صحيحة وتصوروا أنها تعبير زائد ولا معنى له ولذلك قاموا بحذفها، من دون أن يفطنوا إلى أنها اسم موضع يدعى خَلْق -بالخاء المُعجمة- وأنه أساسي في تحديد منازل القبيلة تحديداً دقيقاً. على الضد من ذلك يعطي الهمداني مواضع ومنازل كلب بدقة أكثر، مما فعل محققو التوراة أنفسهم. ولنبدأ من خلق-حلق هذه.ففي وصفه للمنازل والمواضع الواردة في قصيدة الشاعر اليمني الرداعي (صفة: ٣٨٤) يقول الهمداني عن موضع خلق-المياه الواقعة قرب وادي تبالة ووادي نخلة-ما يلي:

(وخلق وذو غزال مناهل ومواضع مُقفرة)

هذا هو منهل مياه خلق مكان مُقفر وموحش على الطريق بين تبالة ووادي نخلة، وهذا الطريق يمكن الوصول إليه بالفعل، عبر بلد خولان حيث يقع جبل ووادي دبر، تماماً كما في النص التوراتي (صفة: ٢٣٨):

ذوات النبع منها -أي التي تشتهر بكثرة المياه- خاصة من بلد خولان: فوط وعرامي وغُرابق والدبر.

ولنتذكر -هنا- فوط التوراة: راجع أنساب سفر التكوين. وإذا ما سرنا من بلد خولان باتجاه وادي نخلة فسوف نصل إلى خلق- حلق أو العكس، فهي ضمن ما يُعرف بأرض بلد الكلاع. ولنلاحظ أن قبيلة كلب أقامت في مكانين مشهورين بكثرة المياه هما خلق ووادي الدبر. هذا التحديد يتوافق كل التوافق مع توصيف يشوع، الذي يضع وادي الدبر-دبر

ضمن سلسلة جبال عذر وهنوم- عذر وهنوم عند الهمداني. أما مواطن القبيلة في عصر الهمداني نحو العام ٢٨٠ للهجرة فهو في المكان نفسه: سرو حمْير بين محافظة يافع -يافع في التوراة و محافظة عدن- عدن في التوراة (انظر: صفة: ١٧٢-١٧٣):

> فالعرّ لأذان من يافع وثمر للذراحن من يافع وصدورلكلب من يافع.

ها هنا القبيلتان العربيتان اليمنيتان البائدتان: أذان- دان وكَلب- كلب تقيمان في سرو حِمْيَر. لابد من التمييز- هنا- ومنعاً للالتباس بين كَلَب ومنها الكَلابي بالفتح وبين كلْب ومنها الكَلْبي بالسكون، فهما قبيلتان تحملان الاسم نفسه ولكنهما تنتسبان إلى بطنين مختلفين. إننا لا نعرف في تاريخ فلسطين مثل هذه القبائل، كما لا نعرف مثل هذه المواضع في أرضها؛ والجملة القائلة (أقام سبط كلب وسط أرض يهوده) يمكن أن تُفهم على أكمل وجه حين نقرأ بإمعان توصيف الهمداني الذي يجعل منازل القبيلة وسط سرو حِمْيَر، بالفعل، وهنا لابد من إعادة التذكير بالمرويات العربية العتيقة عن قوم هود-يهوذه؛ الذين أقاموا في عدن وأبْيَن وحضرموت في السراة اليمنية الممتدة من شرقي صنعاء والمعروفة بسرو حمير.

الفصل السادس

حملة تجلات بلاسّر الثالث
على السراة اليمنية
وسقوط قَدَس

لا أحد يعرف بصورة دقيقة وصحيحة، مَنْ هو الملك رصين-رضين (رصين في الرسم الشائع) والذي تقول التوراة عنه: إنه ملك دمسق-دمشق؛ وأنه قُتل على أيدي الآشوريين في معركة غامضة لا يذكرها التاريخ المكتوب، بينما تحدثت عنها التوراة كحدث مفصلي؟ ولا أحد يعرف كذلك، طبيعة علاقته بما يُزعم أنه ملك مصري خائن أو متخاذل يُدعى سوء-سوءه؛ سوف يأسره الآشوريون تالياً في حملة أخرى من الحملات المبكرة، التي جرت فيها أول عملية أسر حقيقي لبني إسرائيل قبل عصر نبوخذ نصّر؟. ومع ذلك فقد تم وضع هذا الملك في التاريخ السوري على نحو اعتباطي، وجرى تلفيق معركة يُزعم أنها حدثت بين الآراميين والآشوريين على حدود سورية الجنوبية عام ٧٣٨ ق. م؟

والمثير للاهتمام أن كتاب التاريخ القديم في أوروبة - والعالم العربي استطراداً وخصوصاً أساتذة الجامعات- تمسكوا برواية التوراة هذه، مع

أن لا مصدر آشورياً يؤيدها؟ وهكذا صار طلاب الجامعات في أقسام التاريخ القديم وحتى الباحثين المجرّبين، يستخدمون خبر التوراة هذا بوصفه خبراً تاريخياً يخصّ التاريخ الآشوري. كل ما نعرفه عن الملك رصين-رضين مستمد بكل تأكيد، من المروية الاستشراقية عن هذا الحادث؛ إذ تقول: إنه كان معاصراً للملك سوء-سوءه، وأنه شارك في المعارك ضد الآشوريين وأمكن أسره وحبسه. الرواية السائدة تتحدث عن صراع آشوري-مصري على سورية وفلسطين؛ في إطار ما يُزعم أنها حملة عسكرية آشورية على فلسطين قادها تجلات فلاسر الثالث ٧٤٥- ٧٢٧ ق. م. وهي انتهت بسقوط أورشليم و السامرة. هذه الرواية تبدو تلفيقاً نموذجياً من ألفها إلى يائها، ولا أساس لها؛ بل يجب حذفها من التاريخ. وسوف نبرهن، في هذا القسم من الفصل، على أن مثل هذا الصراع لم يحدث في سورية، وأن دمشق لا تعرف ملكاً يُدعى رصين-رضين، وأن فلسطين لم تكن قط، مسرحاً لأول أسر بابلي قبل عصر نبوخذ نصر. بكلام ثانٍ: وقع الحدث التاريخي في السراة اليمنية وضد قبائل عربية بائدة تحالفت مع بني إسرائيل هناك وليس في فلسطين، وأن ما يزعم أنه حلف سوري-مصري ليس في حقيقته سوى حلف جماعات من القبائل، واجهت أطماع الآشوريين وتصدت لسياستهم الاضطهادية في السراة اليمنية وعلى الساحل وفي نجد اليمن. في هذا الإطار تكشف الحملة الحربية الآشورية المُبكرة، على بني إسرائيل في السراة اليمنية؛ والتي قادها تجلات فلاسر الثالث بنفسه وفرض فيها الجزية على القبائل هناك، بعد أن أعاد ضبط أوضاع أورشليم؛عن حقيقة مذهلة تمّ تغييبها عن قصد في القراءة الاستشراقية السائدة ومفادها: أن تجلات فلاسر-بلاسّر قام بإجلاء سكان السمرا - سمرا، ومن ثم قام بنقلهم بواسطة القوة الغاشمة إلى بابل، وأحل محلهم آخرين من سكان المدن البابلية مثل كوثى (الكوت في وسط العراق واليوم تسمى واسط باسمها الإسلامي) لا لأنه

كان يرغب في القيام بمثل هذا العمل لمجرد الانتقام والقسوة والبطش، وإنما لأن تطورات الصراع بين الملوك المتنافسين في مملكة-مخلاف بني إسرائيل إلى الشرق من صنعاء، ضد مملكة -مخلاف بني يهوذه على الساحل وفي نجد اليمن- في ما يعرف بسراة حمير-هي التي فرضت على الإمبراطورية خيار التدخل العسكري، لضمان توازن معقول بين القوى المتصارعة. سنقوم أولاً بعرض موجز لأخبار الحملة والصراعات السياسية والعسكرية كما وردت في الرواية التوراتية، والتي استخدمها الاستشراقيون الأوروبيون، وقاموا بواسطتها ومن خلالها، بتكريس الحدث كحدث يخص التاريخ اليهودي في فلسطين. هاكم خلاصة عن الحدث التاريخي (النص العبري: سِفر الملوك الثاني: ١٥: ١١: ٢٧): في العام ٧٤٧ ق. م صعد إلى عرش مخلاف-مملكة بني إسرائيل (ما يسمى في التراث الكتابي مملكة الجنوب) الملك فقحيه بن مناحم؛ بينما أصبح الملك عزْريَه ملكاً على يهوذه (مملكة اليهودية أو ما يعرف في التراث الكتابي مملكة الشمال). المملكتان- المخلافان اليهوديان، كانا في حالة شقاق وصراع ضارٍ له طابع ديني وسياسي وقبائلي. في هذا الوقت بلغ الشقاق الديني والسياسي ذروته بين المخلافين-المملكتين. ومع حلول العام ٧٣٧ ق. م زحف ملك إسرائيل نحو أراضي السمرا التي تتبع مملكة-مخلاف اليهودية، وأعلن عن نفسه ملكاً فيها. لكن أحد قواده هناك، ويُدعى بن رَمْليَه تآمر عليه وضربه في أرمون -أرمان وفي بيت ملك- وادي ملك، وفي ءريه- الراية، وفي رجوب-رجوب، وكان معه خمسون من فرسان بني جلعد، فقتله وأعلن عن نفسه ملكاً مكانه. في هذا الوقت أيضاً، ومع تصاعد الحروب بين المخلافين-المملكتين، سارع تجلات فلاسر الثالث إلى التحرك لوضع حد لهذه التنافسات. بعد وقت قصير من هذه الصراعات صعد ملك جديد إلى المسرح هو الملك (ءحاز) الذي أصبح ملكاً على مخلاف يهوذه نحو العام ٧٣٥ -٧١٦ ق.م، منتهجاً

خطاً دينياً وسياسياً مغايراً ومتناقضاً مع مخلاف-مملكة إسرائيل، ورافضاً الالتزام بالشرائع والسُّنن اليهودية الأولى (الداوودية-نسبة إلى الملك داوود) والتي ظل سكان مخلاف- مملكة إسرائيل يتمسكون بها.

ويبدو أن الشقاق المتفاقم وأساسه ديني بالطبع نظراً لوجود مخالفات دينية، يُزعم أن سكان يهوذه قاموا بها منتهكين بذلك قواعد الديانة الإسرائيلية؛ قد شجع بن رَمْليَه ملك بني إسرائيل الجديد المتآمر، على التحالف مع رصين-رضين ملك آرام، لمقاتلة الملك الشمالي المتمرد والمُخالف للشرائع (ءحاز).حاصر الملكان المتحالفان رصين-رضين وملك إسرائيل بن رَمْليَه، عدوهما المشترك الملك ءحاز ملك مخلاف - مملكة يهوذا (انظر ما كتبناه عن رصين هذا في مطلع الكتاب) ولكنهما لم يتمكنا من قهره. ولذا اغتنم ءحاز- الحاز ملك يهوذه الفرصة، وسارع إلى طلب النجدة من الآشوريين من أجل تحطيم هذا التحالف. ثم بادر إلى إرسال رسائل تحث العاهل الآشوري على التدخل قائلاً له: «أنه عبد مطيع وابن مخلص للإمبراطورية وأن من واجب العاهل الآشوري أن يهب لتخليصه من عدويه ملك آرام وملك بني إسرائيل». ولأجل هذا الغرض حمل موفدوه إلى بابل آنية الذهب والفضة والهدايا الثمينة.

بدت الاستعانة بالعدو القديم والتقليدي لليهود اليمنيين، حلاً وحيداً أمام ءحاز للتخلص من خصومه؛ أبناء جلدته وإخوته في الدين. بينما كان الآشوريون -في الواقع- يتحرقون شوقاً لرؤية هذه اللحظة من الشقاق والتنازع الدموي بين القبائل، وها قد جاء مَنْ يستجدي منهم تدخلاً عسكرياً كانوا، هم أنفسهم، بأمس الحاجة إليه. نظم الآشوريون حملة حربية كبرى قادها تجلات فلاسر-بلاسَر بنفسه زاحفاً على مملكة يهوذه. اجتاح تجلات فلاسر دمسق النجد[١] وهي كما قلنا من مدن نجد اليمن

(١) انظر ما كتبناه حول دمسق النجدية في الكتاب السابق.

القديم، وعرفها العرب بالاسم نفسه ولا علاقة لها بدمشق العاصمة السورية على الإطلاق، ثم قام الملك الآشوري بعمليات تهجير لسكانها شملت قير- انظر ما كتبناه عن قير وحرست-. بعد ذلك توالى سقوط المنازل القبلية الأخرى. بالطبع ليس من المنطقي الافتراض أنه أسقط دمشق العاصمة السورية وهجَّر سكانها إلى قر-حرست، لأن بلاد الشام كلها لا تعرف هذه الواقعة في تاريخها القديم المكتوب والموثق، كما أن مكاناً يدعى قر-حرست لا وجود له في بلاد الشام. مع سقوط المواضع أمام الزحف الآشوري بسرعة وواحدة تلو الأخرى، فقد تتالى سقوط مجموعة جديدة من مواطن القبائل، منها عيون-عيون، وإبل- إبل، وبيت معكه-عكه، وينوح-نوح وقدس-قَدَس، وحصور-حضور والجليل-الجليل، وكل أرض نفتل-الفتول. إثر ذلك تم إجلاء السكان من هذه المناطق إلى مناطق أخرى داخل السراة. كما قام العاهل الآشوري بأخذ بعض الأسرى إلى بابل. وهذا هو فعلياً أول أسر يحدث في تاريخ الصراع الآشوري ضد بني إسرائيل.

بعد مضي اثني عشر عاماً من حكم (ءحاز) صعد إلى العرش الآشوري شلمانصّر الخامس ٧٢٦-٧٢٢ ق. م خلفاً لتجلات فلاسر الثالث. في هذا الوقت سارع هوشع بن أيله[١] من مقاطعة السمرا، ليعلن عن نفسه ملكاً على مخلاف-مملكة إسرائيل. وفي مسعى إلى انتهاج سياسة جديدة تقوم على الطاعة الكاملة، أبدى الملك الجديد استعداده للتعاون مع الآشوريين. بيد أن الشكوك كانت تساور الآشوريين بحقيقة نوايا الملك الإسرائيلي الجديد، إذ تناهت إلى أسماعهم الأنباء أن هوشع بن ايلة هذا،كان يُحرّض -في السر- ملك قبائل المُضَريين على الساحل، والمعروف عند الجغرافيين الكلاسيكيين العرب باسم ساحل

(١) انظر ما كتبناه في الجزء الثاني حول أيله.

كنانة، على التمرد وعدم دفع الجزية. إن التوراة تسمي ملك المُضريين هذا (ملك- مصريم)[١] وتطلق عليه اسم ابن سوء-سوءة. ويبدو أن محققي التوراة ظنوا أن المقصود (ملك مصر) البلد العربي. ولما كان التاريخ المصري لا يعرف ملكاً يدعى سوء-سوءة، كما لا يعرف واقعة من هذا النوع يكون فيها لملك إسرائيلي صغير مثل هذا النفوذ عليه، وبحيث يصغي إلى نصيحته بعدم دفع الجزية للآشوريين؛ وإلى هذا كله فالتاريخ لا يعرف أي شيء عن واقعة دفع الجزية هذه، لأن المصريين لم يدفعوا أي جزية للآشوريين بهذه الصورة المخزية. ولذا فمن المنطقي أن نعيد النظر بالاسم. في الواقع كان هوشع بن إيله يحرض القبائل المُضَرِية على الامتناع عن تقديم الجزية. وبكل تأكيد لم يكن مؤهلاً ولا قادراً على تحريض المصريين.

على هذا النحو بدأت حملة شلمانصّر الجديدة على السراة اليمنية، والتي انتهت بأسر سوء- بن سوءة ملك المُضَريين، وأخذه مُصفداً بالسلاسل إلى بابل، كما حاصر أورشليم وقام بنقل سكانها في حملة تهجير داخلية منظمة، إلى وادي كبار ونهر جوزان ومدي. وهذه المواضع كما سنبين من أودية اليمن، وليست في العراق القديم[٢] كما زعمت القراءة الاستشراقية. هذه هي-باقتضاب شديد-الرواية التوراتية عن أول عمليات أسر، وتهجير تعرض لها بنو إسرائيل على يد الآشوريين. وإذا ما قمنا بمقاربتها مع ما ورد في السجلات الرسمية للآشوريين؛ فإن الحدث الأصلي سيبدو متطابقاً، بينما يصبح الاختلاف مع الفهم

---

(١) راجع ما كتبناه حول المضريين في الجزء الثاني.

(٢) هذه هي الحملة الأولى التي يجرى فيها تهجير منظم للقبائل من أوطانها الأصلية وإبعادها إلى مواطن جديدة داخل السراة اليمنية بغرض الحدّ من غاراتها على ثغور الإمبراطورية.

الاستشراقي فظيعاً وغير قابل للمعالجة، فليس ثمة ملك مصري أسير وليس ثمة ملك سوري-آرامي قتيل في هذه المعركة، التي لا يعرف عنها التاريخ أي شيء. فهل اختلق سارد النص هذه الرواية؟ إن ملك المُضَريين-من بني سواء- هذا، لا صلة له بما يُزعم أنه مصر. وإنما هو ملك قبيلة مضر (المُضَريين). أما الملك السوري المزعوم رصين[١]- رضين، فليس سوى ملك قبائل آرام اليمنية الذي كان ملكاً على دمسق القديمة - بالسين المهملة وتماماً كما في العبرية-. وهذا بالطبع لا علاقة له بآراميي سورية المتأخرين. إن فلسطين القديمة لا تعرف وادي العيون ولا وادي الملك ولا حضور قرب جبل قدس. فكيف جرى تخيل الأحداث هناك وعلى أي أساس تاريخي؟

الهمداني يصفُ مسرح الحدث

سنقوم بإعادة توصيف المدن التي سقطت في يد الآشوريين، حيث تم أول سبي بابلي (داخلي) وأول عمليات تهجير كبرى للسكان، الذين نُقل بعضهم إلى مواضع أخرى داخل السراة اليمنية. ولكن قبل ذلك سنتوقف عند مكانٍ تفجَّر فيه أكبر صراع بين المخلافين-المملكتين؛ وهو صراع تسبَّب عملياً في توفير كل أسباب التدخل الآشوري. لقد قُتل ملك إسرائيل على يد أحد قواده في السمرا، كما قلنا بعد مؤامرة ومعارك جرت في ها-ريه-الرّية، وفي رجوب- رجوب، وفي أرمون- أرمان، التي يترجمها مترجمو النص العبري إلى (برج الملك)؟ فهل تعرف

---

(١) رأينا من قائمة القبائل التي أسرها نبوخذ نصَّر أن أحد البطون القبيلية يدعى رصين. ومن غير المنطقي أن يشترك هذا البطن، الذي ينتسب إليه الملك في حروب ضد الآشوريين ثم يؤخذ أسيراً أو يقتل، وفي الآن ذاته يصبح ملكاً سورياً؟ انظر ما كتبناه في الجزء الثاني (قائمة الأسرى).

فلسطين مثل هذه المواضع: السمرا، رجوب، رَيه و أرمون وملك وبرج الملك؟ هاكم أولاً، وصف الهمداني للمواضع ومنها موضع ها- ريه- الرية (صفة: -٣٧٢):

(شتات وثلات ورِية مواضع في بلد وادعة من همدان)

هذه هي رية تماماً كما في السِّفر التوراتي؛ وقد حددها الهمداني قرب نجران. (وانظر ما كتبناه عن السمرا ورجوب في كتابنا هذا). أما وادي ملك وأرمون فليسا (برج الملك) كما في الترجمة السائدة، بل هما موضعان ميّز النص العبري بينهما في صورة أرمون وملك. وسنرى دلالة وقوع الأعمال الحربية في هذا المكان حين ندقق في خط الحملة العسكرية الآشورية، التي اتجهت أولاً صوب وادي العيون. كانت معركة وادي العيون-عيون واحدة من أهم معارك تجلات فلاسر الثالث، لأنها مكنته من الزحف نحو وادي حضُور. يقول النص العبري:

(ب-يومي-فقح-ملك-يسرئيل-بء-تجلت-فلسر-ملك-ءشور-ويقح-ءت-عيون-وءت- ءبل-بيت-معكه-وءت-ينوح-وءت-قدش-وءت-حصور-وءت-ها-جلعد-وءت-ها-جليله-كل-ءرص-نفتلي ويجلم-ء شوره)

(وفي أيام فاقح ملك إسرائيل عاد تجلات بلاسر ملك آشور، وأخذ-وادي-عيون، وابل، وبيت معكه، وينوح، وقدس وحضُور، وجلعد، والجليل، وكل أرض نفتلي ونفاهم إلى الشور)

المواضع أعلاه والتي سقطت في يد تجلات بلاسر- فلاسر الثالث، لا وجود لها في فلسطين، بل هي أراضٍ تمتد من السمرا وعلى أطرافها حتى اليمامة، حيث وادي ملك وابل والشور، وهو وادٍ من الوديان

الكبيرة. ولنلاحظ أن النص العبري يرسم الاسم في صورة ء شوره-الشور، وهذا رسم مختلف عن الرسم العبري لاسم آشور؛ بما يعني أن التوراة لا تقول مطلقاً إن العاهل الآشوري قام بنفي كل السكان إلى آشور، بل هي تقول: إنه نفاهم إلى الشور. والشور هذه صحراء يمر فيها واد بالاسم نفسه. كما أن التوراة تشير بذلك إلى مكانين مختلفين. هاكم وصف الهمداني لمنطقة اليمامة حيث وقع الحدث (صفة: ٢٥٢-٢٥٤):

> **ويُقابل العَرْمَة غار المغرة، ورحا إبل. ثم تصعد منها إلى اليمامة (..) ثم تقطع بطن قو ثم السمراء وهو أرض سهب-ووادي العيون(..) ومن أودية اليمامة - وادي-ملك.**

من المتعذر بالفعل العثور- داخل جغرافية فلسطين- على ما يناظر أو يماثل أسماء المواضع أعلاه، وبالصيغ ذاتها كما في النص العبري؛ بل وبالتجاور والتقارب ذاته؟ ها هنا الأماكن ذاتها والفضاء الجغرافي ذاته؟ وهذا أمر مثير للغاية وأبعد ما يكون عن مجرد مصادفة. ها هنا البلاد القديمة السمرا-السامرة في الرسم العربي، والتي تفجرّ بسبب النزاع حولها صراع مسلح أدَّى إلى تدخل الآشوريين، وها هنا وادي ملك ووادي عيون؛ بالضبط مثلما وردا في السِّفر التوراتي. وهاكم وصف الهمداني لموضع حاز-ءحاز، الذي جاء منه اسم الملك الإسرائيلي (لقبه) (صفة: ١٥٦-١٥٧) على مقربة من بيت بوس:

> **نقيل السود فبيت بوس وما بينهما من حقل صنعاء ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف حضُور وحاز وبيت قرن وبيت رفح**

ها هنا وادي حضُور الذي سقط في يد تجلات بلاسر، وها هنا أورشليم القديمة (أورسلم) وهي بيت بوس، وإلى جوارهما المحفد

اليمني الذي لايزال يحمل اسم ملك مخلاف يهوذه: حاز. يضيف الهمداني (صفة: ٢١٣) عن حاز ما يلي:

> **وحاز قرية عظيمة وبها آثار جاهلية وبيت رفح وبيت كرب من حد حضُور.**

وللتدليل على أن اسم هذا الملك أصبح اسماً لمكان بعينه يُدعى حاز-ءحاز؛ أو أنه كان -في الأصل- اسم موضع تسمّى به أو انتسب إليه الملك؛ سنضيف - هنا- تفصيلاً هاماً للغاية من سفر الملوك الثاني (النص العبري: ٢٣: ٣: ١٣) الذي يتحدث عن الإصلاح الديني الذي قام به الملك يوشيه: ٦٤٠-٦٠٩ ق. م في مخلاف-مملكة يهوذه إذ أزال هذا الملك بعض مظاهر العبادة الوثنية المتناقضة مع التوحيد، ومنها قيامه بتحطيم الأوثان في موضع يدعى ماوة (ماوة بعل). كما قام بتدمر بعضها في موضع يدعى ء حاز. الأمر الذي يؤكد أن الملك تلقّب بلقب (أحاز) نسبة إلى المكان. يقول النصّ ما يلي:

> **(وها- مزبحوت- ء شر- عل- هنن- عليوت ء حز)**
> **(والمذابح التي فوق - هنن - وفي معلاة أحاز)**

ولأن الكلمة العبرية هنن-هنان بدت غريبة وغير قابلة للترجمة، فقد قام المترجمون بإعطاء مكافئ عجائبي من نسج خيالهم: (هينان: سطح). بيد أن النص لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى سطح مكان، بل إلى مكانين أحدهما يسمى هنن- هنان والآخر أحاز- حاز. وبذلك تكون الجملة العبرية قد أشارت إلى امتداد الإصلاح الديني إلى أكثر من مكان، من أجل إزالة فوضى المظاهر الوثنية التي عمت مخلاف-مملكة يهوذه. وفي هذه الحالة يصبح ءحاز- حاز اسماً لمكان بعينه في العام ٦٠٩ ق.م،

أي عام الإصلاح الديني الذي قاده يوشيه، وبالطبع في السرو الحِمْيري نفسه حيث وجدناه. أما هنن-هينان التي حيَّرت قراء التوراة من الاستشراقيين، فليست سوى هينان التي وصفها الهمداني وحددها قرب حاز؛ تماماً كما في النص التوراتي. هاكم ما يقوله (صفة: ٢١٣-٢١٨-النص مختصراً):

(وحاز قرية عظيمة وبها آثار جاهلية -..- ثم الجوف الأعلى وبهذا الجوف من الأنهار تصب كلها بالخارد وفرع الجوف الأعلى العقل وهينان وجبل ورور ومشام)

هذه هي هنن-هينان على مقربة من حاز حيث جرى تحطيم أصنام الآلهة. وفي نص سفر الملوك الثاني (٣٢: ١٨ : ٧) أعطى المترجمون المكافئ التالي لجملة (كهني-ب-موت: كهنة المشارف). في الواقع لا تبدو هذه الجملة مفهومة؛ إذ ماذا تعني مشارف هنا؟ ما يتحدث عنه النص بالضبط هو المكان الذي جرى نقل السكان إليه من بابل في إطار حملة تجلات بلاسر الثالث، حيث أسكنهم في السمرا-سامره محل السكان الأصليين، وذلك في سياق سياسة هادفة إلى الحد من حرية القبائل في التحرك على امتداد ثغور الإمبراطورية المترامية الأطراف. وهو يقول ما يأتي: إن بعض السكان صاروا يتقربون في عباداتهم من الكهنة في ماوة، وهؤلاء من وثنيي السراة في ذمار، ومن ثم؛ فإنهم لم يعودوا يتقون الرب. ونحن نعلم من قصص التوراة، أن بني إسرائيل دخلوا في معارك للاستيلاء على ماوة هذه من أجل الاستيلاء عليها وتحطيم أصنامها (انظر ما كتبناه عن ماوة). لقد كان هناك خليط من السكان الوثنيين المُهجرين الذين جرى إسكانهم في السمرا، والسكان المتدينيين الأصليين في بلاد اتسمت، في الأساس بكونها بلاد اضطرابات مستمرة. ليس

صحيحاً، إذن، الاستنتاج الذي خرج به د. كمال صليبي في (التوراة جاءت من جزيرة العرب) حين افترض أن نفي القبائل- في هذه الحملة- عن ديارها، أي ما يُدعى الأسر البابلي أو الجلاء؛ تم كلياً داخل الجزيرة العربية. والصحيح أن التهجير المحلي الداخلي، تم في عصر تجلات بلاسر الثالث وليس في عصر نبوخذ نصَّر؛ كما أن السبي الأكبر الذي جرى فيه نقل أعداد كبيرة من رجال القبائل إلى بابل لم يحدث إلا في عصر نبوخذ نصّر. ما يتوجب قوله هنا: إن السراة اليمنية بنجدها وساحلها، هي التي شهدت ما نسميه هنا بنفي القبائل عن ديارها في صورتين: نقل أعداد منها إلى بابل -على نحو ما بيّنا في قائمة الأسرى- وكذلك في صورة إحلال سكان وثنيين من مناطق موالية للآشوريين وفي مواضع جرت السيطرة عليها، وذلك من أجل إضعاف النفوذ الديني لبني إسرائيل. ولذلك اتسم أسلوب تجلات بلاسر بكونه مزيجاً من استراتيجيتين: التهجير- النفي إلى بابل لأعداد محدودة من السكان أخذوا أسرى، والدفع بجماعات وثنية من القبائل المنافسة للإقامة في مواطن هؤلاء. وفي الآن ذاته إرسال مجموعات من سكان أطراف بابل (كوثى) للإقامة في السمرا. يقول النص العبري (١٧ : ١٦ : ٣١) واصفاً الجماعات الجديدة التي أقامت في السمرا وهي تتقرب من كهنة ماوة وتمارس طقوسها الوثنية:

> (وءنشي- كوت- عشو-ء ت- نرجال)
> (ورجال كوت صنعوا نرجال)

لقد صنع القادمون من كوت-كوثى[1] ومن بابل، أصناماً تمثل إلههم

---

(١) في الإخباريات العربية.

القومي الأكثر شهرة (نرجال[١]) مثلما صنعت القبائل الوثنية التي جيء بها من السراة اليمنية لتقيم مكان المنفيين، أصناماً لآلهتها المحلية تماشياً مع التطور الجديد في الأوضاع. ومن غير شك؛ فإن وجود هذا الإله وباسمه القديم، يدعم الفكرة الجوهرية في النص التوراتي: أي الإشارة إلى غرباء (جلبوا من خارج الجزيرة العربية واليمن) من أجل أن يحلوا محل السكان الأصليين المنفيين. إن فلسطين لا تعرف في تاريخها الديني القديم، مثل هذه العبادة الخاصة بسكان بابل. هاكم هذه المقاربة بين نص سِفر الملوك الثاني ونص الهمداني، الذي يدور حول مكان يُدعى توفيت-وفيت، جرى فيه إبطال حُرمة مكان وثني:

مقاربة

سفِر الملوك الثاني:	الهمداني
(وأبطل حُرمة توفيت[٢]	واسم هذا الجبل وفيت وهو منسوب إلى
الذي في وادي بن هنوم)	تُخلى الحميري(..) ومنها جبل هنوم.

بهذا المعنى يصبح إبْطال حرمة الأماكن التي تمَّ تقديسها (تحريمها) في السراة، مرتبطاً بقوة وأكثر فأكثر بانتشار عبادة وثنية متناقضة مع التوحيد الإسرائيلي القديم. إن السرديات الخاصة بتخريب أورشليم والتي تتحدث عنها التوراة في نصوص مختلفة، تكاد تقتصر على تصوير مشاهد تحطيم وتدمير بيت عبادة الرب ونهب آنيته المقدسة؛ وهذا ما يعطي تفسيراً مقبولاً للاستراتيجية التي اتبعها البابليون والآشوريون والمصريون

(١) من أكثر آلهة البابليين شهرة وله تماثيل كانت معروضة في المتحف العراقي.
(٢) انظر ما كتبناه حول التاء اللاصقة في آخر وأول الاسم (الجزء الثاني) وهي لهجة يمنية (قرشت،فلست) مثلها مثل لهجة السين اللاصقة (سثب: ثب، سطع: أطاع، سفى، وفى).

على حد سواء، والقائمة على قاعدة تحطيم الأساس الديني والأخلاقي للتمرد القبائلي في السراة اليمنية. لقد تعرضت قصة حملة نبوخذ نصَّر وما يُدعى السبي البابلي؛ والتي استخدمها المخيال الاستشراقي كمادة عضوية في نسج أسطورته عن السبي، إلى تشويه فظيع لا في الجانب الجغرافي منها وحسب، وإنما في الجوانب المتعلقة بفهم الأسباب الحقيقية للحملة كذلك.

الفصل السابع

مراسلات الآشوريين مع ملوك مخلاف اليهودية

(كتاب سنحاريب إلى حزقيا)

تكشفُ رسائل سنحاريب ٧٠٤-٦٨١ ق. م وسواه من ملوك بابل وآشور، إلى ملوك مخلاف-مملكة اليهودية في شمال السرو الحميري، ومنهم الملك حزقيا بن ء حاز-حاز عن الأهداف الحقيقية للحملات الآشورية وكذلك -وهذا هو الأمر الهام للغاية-عن الأماكن الحقيقية التي جرت فيها سائر الإجتياحات الحربية الآشورية والبابلية القديمة والحديثة، بما لا يترك أدنى مجال للشك بأنها جرت هناك لا في فلسطين. كان حزقيا إصلاحياً، واصل سياسة سلفه يوشيا-يوشيه[1]؛ التي مهدت السبيل أمام تثبيت أسس اليهودية في اليمن، والقضاء على الوثنية في الكثير من المناطق (بينما كان هوشع بن إيلة في هذا الوقت يحكم في مخلاف بني إسرائيل إلى الجنوب مكرساً الانشقاق الديني والسياسي بين المملكتين-المخلافين). ولذلك يقول عنه سِفر الملوك الثاني، أن أول شيء عمله كان

---

(١) انظر القسم القادم من هذا الفصل حول دور الملك يوشيا- يوشيه.

تدمير الأوثان والأصنام، كما قام بتحطيم تمثال الأفعى النحاسية التي صنعها موسى النبي لبني إسرائيل. خاض حزقيا سلسلة من المعارك ضد قبائل ها-فلشتيم الوثنية في عزه-عزان، وفي القابل من مجدل وعند المنازل من بصر-بصره. ويبدو أن انتصاراته على القبائل الوثنية في عهد شلمانصّر، شجعته على تحدي الإمبراطورية الآشورية؛ إذ قام بالزحف نحو السمرا للاستيلاء عليها. لكن شلمانصّر سارع إلى منعه وسدد إليه ضربة قاسية، عندما وجه نحوه حملة خاطفة انتهت بنفي القبائل العربية-اليمنية اليهودية من السمرا المحتلة؛ كما قام بنقل أعداد من الأسرى إلى مناطق داخل السراة، من جديد، ولكن من دون أن يتطور الغزو -هذه المرة- إلى اجتياح شامل لأورشليم؛ التي ظلت بمنأى عن الدمار خلال هذه الحملة الخاطفة. وبذلك اكتفى الآشوريون في هذه الحملة بإضعاف الملك حزقيا في هذه المناطق. مع صعود سنحاريب إلى عرش الإمبراطورية، جهز هذا حملة حربية نحو العام ٧٠١ ق. م استهدفت محاصرة مخلاف-مملكة يهوذه بعد تمرد قبلي محدود. إن الحوليات الآشورية تؤكد وقوع هذه الأحداث، بيد أن المعضلة التي واجهت القراءة الاستشراقية المِخيالية، تكمن في أن ما وردَ في الحوليات، يتوافق ويختلف في الآن ذاته مع ما سجلته التوراة، وخصوصاً في سفر الملوك الثاني. فمن جهة هناك تفاصيل دقيقة عن الحملة والرسائل المتبادلة، ولكن من جهة أخرى، هناك أسماء أماكن لا تشير البتة إلى فلسطين. وهنا سطعت حيرة القرّاء الاستشراقيين بوضوح بالغ؛ إذ كيف يمكن التوفيق بين ما ذكرته الحوليات الأشورية عن الحملات على القبائل، وبين وما سجلته التوراة عن "فلسطين مزعومة"، بالطبع على الضد مما يرغب الاستشراقيون في رؤيته، نعني رؤية السبي البابلي وقد تأكد وقوعه في فلسطين. ولذلك بدا الأمر مُحيراً ومثيراً للشك. في إطار هذه الحملة كتب حزقيا إلى سنحاريب الذي كان يعسكر في لكيز-لكيس على البحر، رسالة

يدعوه فيها إلى تجنيب أورشليم مخاطر الاجتياح العسكري. وعن هذا الأمر كتب سارد نص سِفر الملوك الثاني قائلاً: (سِفر الملوك الثاني، النص العبري: ١٨: ٨: ٢١):

(وب-أربع-عشره-ل-ملك-حزقيا-عله-سنحريب-ملك-ءشور-عل-كل-عير-هوده-ها-بصروت-ويتفشم-ويشلح-حزقيا-ملك-يهوده-ءل-ملك-ءشور-لكيسه-ل-ءمر: حطءتي- شوب-معلي-ءت-ءشر-تن-عله-ءشء-ويشم-ملك-ءشور-عل- حزقيان - ملك يهوده-شلشمئوت- ككر- كصف-وشلشيم- ككر-زهب)

(وفي السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا؛ صعدَ سنحاريب ملك آشور على كل منازل يهوذه. فأرسل حزقيا ملك يهوذه إلى ملك آشور في لكيز قائلاً: لقد أخطأتُ فانصرف عني، وأي شيء طلبتَ سأعطيك ففرض ملك آشور على حزقيا ملك يهوذه ثلاث مئة قنطار من الفضة وثلاثين قنطاراً من الذهب).

كانت الجزية باهظة، بحيث اضطر معها حزقيا إلى أن ينزع الذهب عن أبواب الهيكل. ومع ذلك أرسل سنحاريب قادته من معسكرهم في لكيز-لكيس على الساحل إلى أورشليم لاستلام الجزية. وقبيل بلوغهم المكان صاعدين في السراة، توقفوا عند مياه تُدعى كوبس-كبس (وفي النص العبري: ء شر- بمعلات- شدة- كوبس: التي في معلاة النجد كبُس). والمثير للاهتمام أن الترجمة العربية تعطي مكافئاً غريباً لهذه الجملة البسيطة: (التي في طريق حقل القصار). وفي الحقيقة لا يوجد حقل قصار في فلسطين أو الجزيرة العربية، علماً أننا لا نعرف معنى الجملة (حقل القصار). وعلى العكس هناك موضع حقيقي لا يزال يحمل الاسم نفسه كوبس-كُبس. والصواب أن المكان هو شده-نجد. والنجد هو

المرتفع من الأرض وليس حقلاً (في العبرية: شده). وفي هذا المكان هناك مياه شهيرة تدعى مياه كبس، بالفعل وقد أشار إليها الهمداني كما سنرى تالياً. ويبدو أن سنحاريب لم يكتفِ بفرض الجزية الثقيلة على حزقيا، بل رغب في إهانته أيضاً، ولذلك كلف رُسل حزقيا أن ينقلوا إلى ملكهم الرسالة الجوابية التالية:

قولوا لحزقيا لا نريد مجرد كلام. علامَ راهنت؟ أعلى مصر؟ أليست من القصب المرضوض، متى اتكأ عليها المراهن ثُقبتْ كفه، كذلك هو فرعون مصر، وذلك حال مَنْ راهنوا عليه. ولئن قلتم: كلا، على الرب إلهنا نتوكل، أليس هو الذي دمر حزقيا مذابحه في موة؟

كانت الرسالة تتضمن تلميحاً لا تعوزه الصراحة ولا التهديد المُبطن، إلى تضايق الآشوريين من الإصلاحات الدينية الواسعة التي قام بها حزقيا، لإعاقة انتشار الوثنية في السراة اليمنية؛ وهي تشكل دليلاً إضافياً على الطبيعة الدينية للحروب الآشورية ضد أورشليم، وعلى مقدار البرم والضيق اللذين كانت آشور تشعر بهما، مع تواتر الأنباء عن المُضايقات التي كان الوثنيون يتعرضون لها هناك. وهم كما رأينا، كانوا يعبدون آلهة بابلية مثل نرجال ومردوك- مردوخ. عكست رسالة العاهل الآشوري بدقة، غضب الإمبراطورية من الهجمات المدبرة، التي نُظمت ضد المعابد الوثنية في ماوة- وكنا رأينا أن أول شيء عمله الآشوريون هو إحلال سكان من بابل يعبدون الإله القومي البابلي نرجال في ماوة -. كما عكست بوضوح انزعاج الآشوريين، من الطريقة التي كان حزقيا يدير فيها العلاقة مصر. إذ بدلاً من توجيه العداء لها راح يمد الجسور معها، مراهناً على إمكانية خلق توازن بين القوتين العظميين في العالم القديم.ثم ختم العاهل الآشوري رسالته الغاضبة، بالقول:

لا تسمعوا كلام حزقيّا واعقدوا صلحاً معنا. لا تسمعوا له وهو يقول: إن الرب سوف يُنقذه من يدي. الأمم التي دمرها آبائي لم تُنقذها آلهتها. أين آلهة حمة و ءرفد و صفرئيم واليناع وعوا؟ هل أنقذت السمرا من يدي؟

وعندما استمع حزقيا إلى الرسالة الغاضبة استشاط غيظاً هو الآخر ومزق ثيابه (ذلك ما يذكرنا بالطقس المعروف في المرويات اليمنية عن قيام الملوك بتمزيق ثيابهم لا بفعل الغضب؛ بل تعبيراً عن ممارسة دينية. ويكفي التذكير بالملك اليمني مزيقيا الذي كان يمزق ٣٦٠ حلة في العام على ما يقول الرواة[1]) ثم أرسل حزقيا في طلب النبي أشعيا الذي هدأ من روعه. في هذه الأثناء كان سنحاريب يجتاح لبنه- لبنى مُنطلقاً من لكيس. ولم يلبث العاهل الآشوري إلا قليلاً حتى عاد وأرسل خطاباً جديداً، يتضمن التهديدات والتحذيرات ذاتها الموجهة إلى اليهود، بأكثر مما هي موجهة إلى حزقيا نفسه. قال فيه:

قولوا لحزقيا ملك يهوذه: لا يخدعنك إلهك. الأممُ التي دمرَ آبائي آلهتها، لم تنقذهم في جوزان و حيران ورصاف[2]وبني عدين[3] الذين في ثلا، وفي-جبال- السر؟ أين ملك حمة وملك ءرفد وملك صفرئيم واليناع وعوا.

---

(١) انظر كتابنا (إرم ذات العماد: البحث عن الجنة) الريس للنشر، بيروت ٢٠٠٠. يذكرنا هذا المشهد التوراتي بسلوك نمطي عند الملوك الأسطوريين في اليمن، الذين انفردوا عن سائر الملوك بممارسة طقس ديني مدهش، هو تمزيق الثياب في أثناء الحزن أو الغضب وتوزيعها على الرعايا كعلامة على الخطر المحدق. وأسطورة مزيقياء التي قمنا بتحليلها في هذا الكتاب تتماثل تماماً مع إشارة التوراة هذه.

(٢) انظر رصاف تالياً وقارن مع رصافة.

(٣) بنو عدين كانوا ضمن الأسرى في بابل.

المواضع والأماكن في حملة سنحاريب

لدينا -في هذه الرسائل المتبادلة- والتي تؤيدها السجلات الآشورية، طائفة من المواضع والأماكن التي اجتاحها الآشوريون؛ وليس بينها اسم واحد يمكن الافتراض أنه موجود في فلسطين. هنا قائمة بالأسماء التي لم يسبق لنا الكلام عليها في كتابنا هذا (أما المواضع التي تكرر ذكرها فلا حاجة للتوقف عندها، مثل: عوا- العويون):

الاسم في النص العبري	الضبط العربي
١: كبس	كُبس
٢: أرفد	الرفيد
٣: رصاف	رصاف
٤: هيناع	اليناع
٥: جوزن	جوز
٦: ثلا-ءسر	ثلا، السر
٧: صفرئيم	الأصفر

هذه هي المواضع التي ورد ذكرها في النصوص الخاصة بتبادل الرسائل، بين الملوك الآشوريين وملوك مخلاف يهوذه ولنبدأ تحقيقاتنا من اسم الموضع الأول: كُبس. إذا كانت أورشليم التوراة هي القدس العربية على ما يُزعم، ومن ثم فإن الحملة الحربية الآشورية دارت في مسرح فلسطيني؛ فإن الطريق إلى القدس -العربية- يجب في هذه الحالة أن تؤدي إلى موضع يدعى كُبس أو رصاف؟ ولكن هذا مستحيل لأن فلسطين لم تعرف في أي عصر، مكاناً أو موضع مياه يُدعى كبُس؛ بينما تعرف السراة اليمنية مثل هذا الموضع وبالصيغة ذاتها، بوصفه من منازل القبائل اليهودية العربية القديمة. وقديماً بكى أبو الذيال وهو شاعر

يهودي عرف باسم (أبو الذيال اليهودي) ديار قبيلته في كبس فقال (معجم البكري، طبعة بيروت: ص ٧، الجزء الرابع):

أَلَمْ تَرَ عَيْنَي مثل يومٍ رأيته   برَغْبلَ ما اخُضرّ الأراك وأثْمرا

وأيامُنا بالكبسِ قد كانَ طولها   قصيراً وأيام برعبلَ أقصرا

وقد افترض البكري أن هذا الموضع في تيماء من دون دليل، ثم أعطى صيغة أخرى من الاسم في صورة كبُيس؛ مفترضاً أنها قد تكون اسم موضع له صلة من نوع ما بالمكان الذي بكاه أبو الذيال، وهذا خطأ فادح من البكري، لأن الاسم الأخير موضع في البادية العراقية- السورية، بينما المقصود من كُبوس- كبُس في القصيدة مكان عند أطراف اليمن (انظر مادة: كبيس - المصدر نفسه وانظر موضع كبس عند الهمداني). ومع ذلك، ولما كنا نعلم أن ملوك بابل المتأخرين-نبونئيد مثلاً نحو العام ٥٣٩ق.م- قد اتخذوا من تيماء عاصمة شتوية من عواصم الإمبراطورية الآشورية؛ فإن وجود هذا المكان بوصفه من منازل القبائل اليهودية العربية، سيكون مقبولاً من الناحية التاريخية أيضاً. ولذا تتوافق رواية التوراة في سِفر الملوك الثاني عن وصول موفدي العاهل الآشوري إلى كبوس- كُبس، في طريقهم إلى سرو حمير مع ما ورد عند الهمداني (أورشليم اليمنية) مقبولة تماماً، لأن النص يقول أنهم وصلوا إلى شدة أي: النجد بمعنى المرتفع حيث توقفوا في هذا المكان. وستكون الرواية مقبولة أكثر حين نعلم أن هؤلاء كانوا يعسكرون في لكيس-لكيز على الساحل. وبينما لا تعرف فلسطين مثل هذه الجغرافية؛ فإن بلاد اليمن عرفتها هناك. أما المكان الثاني الذي جرت فيه أحداث الغزو الآشوري فهو ءرفد-الرفد؛ وهو من المواضع النجدية التي استهدفتها الحملات الآشورية. إن فلسطين لا تعرف نجداً فيه كبُس وءرفد، بينما يعرف نجد اليمن مثل هذه الأماكن. هاكم

ما يقوله الهمداني والشعر العربي القديم عن الرفد هذه. يكتبُ الهمداني قائلاً في وصفها ما يلي (صفة: ٢٣٠):

حمّة[١]، وكولة. ثم يلتقي بهذا المسيل أودية ديار عنز حتى تصب بعطان فجرش رأس بيشة (..) ومن النجد أوطانها الرفيد بلد حصون.

هذه هي ءرفد بلد الحصون في (شده-النجد اليمني) تماماً كما في النص العبري، وهي بلد قلاع جبلية على مقربة من حمة-حماه في الرسم السائد(وهو رسم مُضلل غرضه إيهام القارئ أنَّ الأحداث شملت سورية). ومع أن من المستحيل تخيل مثل هذه المساحة الهائلة كمسرح للسبي البابلي (إذ بين حماه السورية وفلسطين مسافة شاسعة ليس من اليسير على أي جيش مهما تخيلنا قوته أن يقوم فيها بعمليات حربية متصلة، وقد يتطلب الأمر كما هو واضح نشر الآلاف من الجنود، أي تشتيتهم عملياً والمغامرة بمصائرهم في بيئة قبائلية معادية) فإن من المنطقي والمعقول تخيّل المسرح اليمني قرب حمَّه-حماه نجدية يمنية أوقرب ءرفد نجدية أيضاً، حيث وضع الآشوريون هناك حداً لحكم ملكين صغيرين من ملوك القبائل. وبالطبع قبل أن يواصلوا زحفهم من جُرش إلى صنعاء. بهذا المعنى يصبح تذكير سنحاريب لحزقيا بمصير ملكي ءرفد وحمَّه،في حال عدم استجابته لشروط الإمبراطورية، استطراداً في حقيقة جغرافية أيضاً، وهي أن الموضعين متجاورين تماماً كما في النص التوراتي. وغير بعيد عنهما سنرى هناك رصف؛ وهي مكان آخر له صلة بما دعاه العرب تالياً الرصافة من مواطن قبيلة تميم. بل إن جوزان- جوز، ورصف-رصف وقرنتيم- القرنتان والقابل- القابل، هي مواطن قبائل متجاورة وعلى

---

(١) وتُسمى الأكمة السوداء حمومة: الهمداني.

الطريق من ساحل لكيز، ثم نجران وجُرش إلى صنعاء. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٨٣):

والقرنتان لبني تميم والرّصافة. انقضت أرض البحرين وسنذكر المواضع المشهورة بين اليمن ونجد والعروض (..) فأسرار نجران شوكان والجوز (..) وقابل يام، ولبينان. انقضى شق همدان.

هذا هو وادي جوزان-الجوز، وهناك غير بعيد عنه حمة-حمة، وءرفد- الرفيد، وإلى جوارهما القابل وهو قابل بلد يام و قرنتئيم- القرنتان. وها هنا رصف-رصف (البكري في معجمه أوردها في صورة: رصف بالضبط معجم: ط، بيروت: ٢: ٢٤٩) قال: (الرصاف بكسر أوله موضع ذكره أبو بكر). فهل ينطوي الأمر على محض مصادفة؟ في هذا الإطار، سنلاحظ أن رسائل سنحاريب كانت تُعيد التذكير بالمصائر التاريخية، لملوك سابقين وجماعات سابقة تمردت على الإمبراطورية، وهو سجل في رسائله أسماء أماكن قديمة اندثرت اليوم، ومنها موضع يُدعى ها-يناع اليناع. يقع وادي يناعه على مقربة من وادي ومنازل ذي بين، غير بعيد عن بيت بوس أي قرب أورشليم. هاكم وصف الهمداني وتحديده لوادي اليناع- يناعه (صفة: ١٥٦ - ١٥٩):

فبيت بوس فجبل عيان وجبل نُقم وحاز وبيت رفح والحيفة فمساك وبلد الصيد وبه أودية من ظاهرهمدان مثل: يناعة وذي بين.

هذا هو وادي ها-يناع-يناعه تماماً كما في رسالة سنحاريب إلى حزقيا. كان سنحاريب يعيد تذكير حزقيا بالمصير التاريخي لسكان موضعين على الطريق من خولان إلى جُرش؛ أحدهما يدعى حيرن-حيران الذي

يرسمه المترجمون بحذف الياء الوسطية (حرّان) وذلك بقصد إيهام القراء أن المقصود مدينة (حرُان على الحدود التركية) ومن ثم؛ الإيحاء بأن أحداث النص التوراتي تدور في بلاد الشام؟ أما الآخر فيدعى وادي أمير. وهذا اسم لا وجود له في فلسطين. بينما على العكس من ذلك يعطي الهمداني تحديداً دقيقاً للمكانين وبالرسم العربي الصحيح المُطابق للرسم العبري. هاكم وصف الهمداني (١٢٨-١٣٠):

فبلد الشاكريين فمنقل سفران وبلد حيران (..) والحجابات وأمير، فالقد. ثم يتلوها سراة جنب ثم الجبل الأسود من أرض جُرش.

ها هنا بلد حيران التي جعل الآشوريون من حالة سكانها المزرية، درساً قاسياً لكل القبائل المتمردة. وها هنا وادي أمير، تماماً كما في النص التوراتي. والآن: هل من المنطقي تخيُّل وقوع مثل هذا الأحداث في مساحات مبعثرة لا يجمعها جامع، وتمتد من القدس العربية إلى حماة السورية، ثم وبقفزة واحدة نحو (حران) في الأراضي التركية؟ يتبقى أن نتوقف -هنا- عند نموذج آخر من التحريف في الترجمة السائدة. ففي رسالة سنحاريب إلى حزقيا يُسجل اسم موضع تلا-ءسر، في صورة تلاسار، وهذا رسم أكثر غرائبية مما يحتمل نص قديم يسجل مصائر جماعات وملوك وأماكن معلومة. ولأن الاسم تركيب غريب في الأصل، فقد جاء الرسم أكثر غرائبية. بيد أن الاسم كما في النص العبري هو (تلا) و (ءسر) من دون فاصلة بينهما وهما موضعان. الموضع الأول، يدعى ثلا-بالثاء المثلثة- حصن شهير من حصون المرانيين من همدان إلى الغرب من صنعاء. والثاني، وادي السر في سلسلة جبال السر إلى الشرق من صنعاء. هاكم وصف الهمداني للمكانين (صفة: ٢١٠-٢١٤):

فأما أرض لعسان في بطن تهامة؛ فالجعدية ومربل وثلا حصن وقرية للمرانيين من همدان (المحقق: ثلا، قرية كبيرة مسوّرة على ربوة مربعة الشكل يسكنها أوزاع من حميريين وهمدانيين وحصنها المطل من الغرب يحتفظ بمناعته وشممه وفيه آثار حميرية) انقضى مغرب صنعاء ورجعنا إلى شرقيها، الأودية من شمالها: وادي السر، سر أبن الروية وفيه العيون والآبار وهو من عيون أودية اليمن وبه قرى كثيرة ومنازل.

وها هنا تلا-ثلا وها هنا ءسر-السر (وليس ثمة موضع يدعى تلا سر) وهما على مقربة من مكان هام للغاية من الناحية التاريخية يسمى مربل - الربل، إذ جرت على أرضه معركة ضارية في عصر الملك صدقيا، انتهت بنهب أورشليم وتدميرها كما سنرى تالياً. يتبقى الآن أن نتوقف أمام صفرثيم-الصفرا التي قام تجلات بلاسّر بإجلاء القبائل اليمنية-اليهودية إليها. يصف الهمداني وادي الصفرا هذا على مقربة من وادي الجنات في الفضاء الجغرافي ذاته لسائر الأماكن التي جرت فيها الأحداث. (صفة: ١٤٤- ١٤٥):

فيلتقي هذان الواديان (صبر وعبدان) وادي الجنات،ثم يلقى هذه الأودية من شرقيها وشمالها وادي حقب (..) وجبل أسحم ومن شرقيه مجازع الطريق من محجة عدن (..) وفور وهي قرية الأصبحيين ثم يخرج إلى بحر عدن. والوادي الثاني وادي أبيَن وهو مما يلي لحج ومأتيه من بنا (هامش المحقق: ووادي الصفرا ثم من الظاهرتين ويمده جميع جبال مدينة جبن ويظهر في أسافل يافع فيسقي ما حف به إلى البحر)

هذا هو وادي الصفرا-صفرئيم في المكان نفسه غير بعيد عن وادي جن-جنات. واستطراداً في التعرّف إلى مغزى العمليات الحربية في جنوب غرب الجزيرة العربية، لا بد من التأمل في الحقيقة التالية: إن عمليات النفي والطرد من الأرض، والتي قام بها الآشوريون في عصر تجلات بلاسّر الثالث؛ هدفت في المقام الأول إلى الحدّ من نفوذ القبائل وفي الآن ذاته تدمير قواعدها الدينية، والأهم من ذلك تكريس الطابع الوثني التام في مواجهة جماعات تحمل رسالة دينية مغرية وجذابة وتحررية. (هذه الأماكن كانت ذات طابع وثني، مثلما رأينا من سخط الإصلاحيين اليهود على سكان ماوة وتكسيرهم لأصنامها). المشهد التالي من حملة تجلات بلاسر، يوضح لنا وعلى أكمل وجه جانباً حيوياً من أهدافها. يقول النص العبري (١٦: ٢٠: ١٧: ١٥):

ويعله-ملك-ءشور-ب-كل-ها-ءرص-ويعله-سمرون-ويصر-عليه-شلش-شنيم- بشنت-ها-تشيعيت-ل-هوشع-لكد-ملك-ءشور-ءت-سمرون-ويجلو-ءت-يسرئيل- ءشوره-ويشب-ءوتم- ب- حلح-وب- حبور- نهر- جوزان-وعري-مدي.

ما يقوله هذا النص، الذي حرفته وشوهته الترجمة السائدة بشكل فظيع، هو التالي:

(عندما صعد ملك آشور في كل أرض بني إسرائيل، وصعد إلى السمرا ضارباً عليها الحصار لثلاث سنوات وفي السنة التاسعة لهوشع، استولى ملك أشور على سمرون ونفى إسرائيل إلى الشوره. ولذلك فقد أقاموا فيها وفي حلح، وفي حبور وفي وادي جوزان ومنازل مدي)

في هذا النص لدينا منازل قبائل تدعى بالعبرية عري-مدي[١]، وهو مكان تمت إضافته إلى قائمة المدن والقرى ومضارب القبائل التي جرى اجتياحها؛ إذ لم تذكرها نصوص هذه الحملة فيما ذكرتها نصوص أخرى. والمترجمون يرسمونها في صورة ميديا، في إيحاء ماكر بأن المكان المقصود هو ميديا الفارسية. وبالطبع فقد تخيّل محققو التوراة أن عمليات نقل الأسرى شملت توطينهم في ميديا. وهذا غير منطقي ومخالف للتاريخ وحقائقه لأن ميديا لم تكن تحت سلطة الآشوريين بحيث أنهم يرحِّلون إليها أسرى الغزو. كما أن كلمة (نهر) حلت محل كلمة (نحل - وادي) في تعريف جوزان. أما حلح فقد وردت من دون حرف الجر لحلح (حلح) بما يؤكد أن الرسم السابق كان خاطئاً. ومع ذلك قام المترجمون بتحويل حبور - بالحاء المهملة- إلى خابور، من أجل أن ينسجم السياق السردي؛ فإذا ما وضعوا (خابور) بدلاً من حبور؛ فإن اسم (ميديا) الفارسية سيكون، آنئذٍ، مقبولاً؟ وفي نصوص تالية؛ سنرى كيف أن ساردي النصوص التوراتية كانوا حائرين في رسم الاسم حلح هذا، فهم يرسمونه تارة في صورة صلح - بالصاد المهملة- وتارة في صورة حلح بالحاء المهملة. كل هذا يُحيلنا إلى اسم الموضع اليمني صلحلح- انظر ما كتبناه عن قبر راحيل-. والمثير للاهتمام -هنا- قول النص العبري إن الآشوريين قاموا بنفي بني إسرائيل إلى شوره؛ فلماذا رسم سارد النص

---

(١) تفنّن الكتاب الاستشراقيون في تخيّل ميديا الفارسية المزعومة هذه، وتبنى عدد كبير من كتاب التاريخ في أوروبة، واستناداً إلى قصص التوراة وتأويلاتها، مزاعم عن قيام الآشوريين بنفي المسبيين إلى بابل وميديا في بلاد فارس. وبالطبع فقد كانت هذه المزاعم مجرد خيالات وتصورات لا أهمية لها من الناحية التاريخية، لأن ميديا (بلاد الميديين) لم تكن في أي وقت تحت سلطة الآشوريين. إن نموذج ميديا التحريفي هذا يبيّن على أكمل وجه نوع ومقدار التزييف في الترجمة السائدة. كل ما في الأمر أن اسم ميناء (ميدي) اليمني ظهر في نص التوراة ضمن أخبار الحملة الآشورية.

اسم (آشور) في صورة (شوره) إذا ما كان يقصد آشور الإمبراطورية، علماً أن اسم آشور يُرسم تقليدياً في صورة آشور وليس شوره؟ هل تقصَّد سارد النص رسم الاسم على هذا النحو أم أن المترجمين كانوا ضحية الوهم والخلط؟ سنعيد الأمور إلى نصابها من أجل تقديم رواية تاريخية حقيقية عن السبي، الذي قام به تجلات بلاسر الثالث، حيث نفى القبائل عن أرضها وأسكنها في أماكن جديدة، ذات طابع وثني داخل السراة اليمنية حصراً؛ وبالطبع من أجل إضعاف النفوذ الديني التوحيدي للقبائل وعزل الجماعات الأكثر تأثيراً في أوساطها. هاكم وصف شوره التي زُعم أنها آشور. يقول الهمداني في وصف وادي شوره ما يلي (صفة: ٢٨٠-٢٨١):

من أوطان الجوف: سروم والعقل ونحاس ووادي الشوار. وهذه أودية تصب من قابل نهم الشمالي ومما بين نهم وبني عبد بالمراشي حلتان وأوطان المراشي، أتان، وطفحان

ها هنا وادي شوره[1]-الشور الصحراوي الذي جرى دفع القبائل المتمردة نحوه، بعدما كانت تقيم في السواحل والمرتفعات. إن إبعاد القبائل عن الساحل كان باستمرار هدفاً استراتيجياً من أهداف الآشوريين؛ بل وسائر الإمبراطوريات التي هاجمت الساحل اليمني وسواحل الجزيرة العربية. وهذا ما يجب أن يعيدنا إلى إثارة مسألة الظروف التي دفعت العرب، في طفولتهم البعيدة، إلى الانتقال من طورهم (كقبائل بحرية) تعيش عند أطول سواحل العالم، إلى قبائل متبدِّية تعيش في البوادي وفي الصحراء؟ لقد كانت موجات الغزو الخارجي

(١) انظر حول الهاء في آخر الكلمة ما كتبناه في الجزء الثاني عن العادات الصوتية عند القبائل العربية البائدة التي تزيد الهاء على آخر الكلمة (مثل: بيشه في بيش، وفي العبرية: بيصه - بيض).

تقصيها عن السواحل وتدفع بها نحو الصحراء (هذا يؤكد -برأينا- أن العرب في الأصل كانوا أمة بحرية قبل أن يصبحوا أمة بدوية بفعل موجات الغزو المتتابعة). ها هنا -في نص الهمداني أعلاه- المنازل التي تم تدميرها مثل نحاس- نحشت، وطفحان- طبحيم، وحلتان- مفردها حلت. بكلام آخر: قام الآشوريون بإبعاد القبائل عن أوطانها الأصلية في السمرا-السمره بعد محاصرتها لثلاث سنوات؛ إلى مناطق جديدة في الجوف اليمني. أما مدي التي تصورها المترجمون مدينة ميديا الفارسية، فليست سوى ميناء مدي؛ وهو من موانئ اليمن المعروفة قديماً. هاكم هذا الاكتشاف المثير (صفة: ١٣٥):

في وصف وادي مَوْر: ثم يتلوه واديا عبس ووادي حيران (وادي حيران مشهور، أعلاه حجور وأدانيه في بطن تهامة ويفيض إلى ميناء مدي: المحقق) وما اكتنف المسيل من بلد عُذر إلى معين، ثم وادي خُلب تشرع في قاع تهامة وتسقي المخاريف من بلد حكم إلى البحر

ها هنا ميناء مدي القديمة (وليس ميديا الفارسية) تماماً وبالرسم العبري ذاته مدي، وفي الفضاء الجغرافي ذاته أيضاً. يعني هذا أن عمليات الإجلاء والنفي من الأرض في عصر تجلات بلاسر الثالث، جرت داخل السراة اليمنية وفي مواضع بعينها لا تزال السراة تدلُّ على صيغها القديمة. إن هذا النموذج من الترجمة العربية السائدة، يؤكد- من جديد- حقيقة أن القراءة المِخْيالية للتوراة، هي التي كرست الصور النمطية عن فلسطين مزعومة جرى فيها السبي البابلي. والرواية الحقيقية للسبي البابلي في عصر نبو خذ نصر، والتي نعيد بناء أحداثها، وحدها التي سوف تخبرنا عن الأماكن والمواضع حيث جرى القتال ثم الاستسلام.

نهاية عهد الإصلاح وبداية الحروب المصرية- الآشورية

معركة هر- مجدو

انتهى عهد الإصلاح الديني في مخلاف-مملكة يهوذه مع موت الملك يوشيه ٦٤٠-٦٠٩ ق. م؛ إذ قُتل في أثناء تصديه لجيش الفرعون المصري نيخو: ٦٠٩- ٥٩٥ ق. م في ساحل بني مجيد-مجدو. وهذه المعركة تُعرف في الفكر الاستشراقي والفكر الألفي الأمريكي باسم معركة (هر-مجدو) حيث يُزعم أن هذه المعركة ستحدث، مرة أخرى من أجل التعجيل بظهور المخلص. كان المصريون قد استغلوا فترة التراجع الآشوري أمام الميديين في فارس الصاعدة في هذه الآونة، في شرق وشمال شرق بلاد ما بين النهرين، ومن ثم استغلوا انشغال وضعف الإمبراطورية؛ من أجل تنظيم هجوم مباغت على أورشليم السراة. كان الصراع الآشوري- المصري ينحصر في حدود السيطرة على سواحل البحر الأحمر، وإخضاع ممالك - مخاليف اليمن. ما إن تناهت أنباء الحملة المصرية وتقدم المصريين صوب الساحل، إلى أسماع الملك يوشيه حتى خرج على رأس رجاله لملاقاتهم عند ساحل بني مجيد-مجدو. وهناك نشبت معركة ضخمة وكبرى انتهت بمقتله على يد الملك المصري نيخو-نكو الثاني.إثر مصرع الملك المصلح، صعد ابنه الأكبر إلى العرش. ولكن المصريين سارعوا ثانية، مستغلين الاضطرابات التي استمرت تواجه الآشوريين، إلى تنظيم اجتياح جديد أسفر عن تخريب أورشليم، وأسر ملكها الشاب في معركة ربلة-الربل من أرض حمة. ولسوف يموت هذا غريباً في مصر فيما بعد، حين يتم نقله إلى هناك، بعد أن استبدله المصريون بشقيقه يوهيقم-واقم (الهاء مثل يهرعش في يرعش ويهريق في يريق لهجة يمنية) الذي بادر إلى إعطاء الجزية للمصريين. المثير للاهتمام

أن اسم والدة الشاب الأسير هذا وحسب التهجئة العبرية هو (زبيدة)[١] وهي في الأصل من سكان موطن قبلي يُدعى في التوراة رومة-رومه[٢] عند الجغرافيين العرب.في هذه الآونة كان نبوخذ نصر يصعد إلى عرش الإمبراطورية البابلية الجديدة. ويبدو أن يهوقيم-واقم[٣] هذا؛ أدرك بسرعة مغزى صعود نبوخذ نصّر، ولذا بادر على الفور إلى انتهاج سياسة تقارب مع الآشوريين. في العام ٥٩٧-٥٨٧ ق.م كان اثنان من ملوك مخلاف يهوذه قد تعاقبا على العرش، بينما سارت الأوضاع في السراة اليمنية والساحل لصالح الآشوريين، الذين عرفوا آنئذٍ، ملكاً حازماً وقوياً هو نبوخذ نصَّر؛ تردد المصريون كثيراً في مجابهته. أحد هذين الملكين اللذين صعدا إلى عرش مملكة يهوذه كان ابن يهوقيم-واقم الذي يُدعى يوياكن[٤]، وكان في الثامنة عشرة من عمره. وبالفعل لم يُحسن التصرف دينياً وسياسياً، وذلك ما أغضب بابل وحفَّزها على المبادرة إلى سحق الدويلة الانتهازية المتمردة. قاد نبوخذ نصّر الهجوم الأول بنفسه ووصل إلى أورشليم، حيث أشرف بنفسه على عمليات نفي القبائل. شملت عمليات النفي معظم المحاربين-الفرسان وعددهم نحو سبعة آلاف فارس. أما الملك الثاني فكان شقيق يهوقيم الذي سمى نفسه صدقيا، وقد نصبه

---

(١) لايزال اسم زبيدة شائعاً عند اليهود الشرقيين (والعراقيين بشكل خاص).

(٢) بعض أساطير ملوك اليمن في أثناء سيطرتهم على مكة تدور في نطاق هذا الاسم، وهو اسم بئر حفرها أحد ملوك اليمن الأسطوريين يسميه المؤرخون العرب القدماء (تبع). بعض الباحثين العرب ذهبوا بعيداً في خيالاتهم الاستشراقية حول اسم رومة.

(٣) واقم، اسم لايزال شائعاً في أسماء المواليد المسيحيين الشرقيين (واكيم).

(٤) نجده اليوم في صورة الاسم (يكن) والاسم كما هو واضح من تصاريف الفعل (كان). وورد في نقش يمني (كون/ ذت/ مثبتن/بيوم/ذفرع/ ثني/ ذخرف/ نشاكرب/ بن/ كرب/ خلل) (وكان تسطيره باليوم الثامن من الشهر الثاني من عام نشأ كرب بن كرب خليل).

الآشوريون بعد تدمير أورشليم؛ ظناً منهم أنه سيكون أكثر إخلاصاً من سابقيه. ولكن، لم يكد يمضي سوى وقت قليل حتى تمرد صدقيا على بابل، فزحف نبوخذ نصَّر مرة أخرى بنفسه ووقف على أبواب أورشليم. من جديد. وصلت جيوشه في البداية إلى جبل شعر، بينما كان الملك صدقيا وفرسانه يقومون بمناورة يائسة، ويتجهون فارين صوب وادي العرب-عربه؛ حيث لاحق الآشوريون فلولهم وأدركوهم في برية يريحو-يريح. وعندما أمكن إلقاء القبض على صدقيا، فقد اقتيد إلى (وادي ملك) أسيراً. وهناك فُقئت عيناه وأُرسل مُصفداً بالسلاسل إلى بابل. هذه بإيجاز شديد الخطوط العريضة للتنافس المصري-الآشوري على الساحل اليمني حيث جرت معركة هر- مجدو (معركة جبل بني مجيد).

نماذج من أخطاء الترجمة العربية في سفِر الملوك الثاني

سنعطي في هذا الجزء من الفصل الخاص بمراسلات ملوك اليهودية القديمة؛ في سراة حِميْر مع ملوك الإمبراطورية الآشورية، نماذج إضافية عن الأخطاء التي ارتكبها المترجمون، وشوهت مقاصد النصوص. في الإصحاح الأول من سِفر الملوك الثاني يُسجل محرر النص وحول معركة السمرا (السامرة) الجملة التالية:

(ويفل-ءحزيه-ب-عر-ها-شبكه-ب-عليوت-ءشر-ب-سمرون-ويحل-ويشلح- ملكيم -ويئمر- ءلهم-لكو-درشو-ب-بعل- زبوب-ءلهي- عقرون..)

والترجمة المُعطاة لهذا النص تقول ما يلي: (وسقطَ أحزيا من شباك عليته في السامرة ومرض فأرسل رُسلاً وقال لهم: آمضوا واستشيروا بعل زبوب إله عقرون). يقول المحققون تعليقاً على النص: إنه يتضمن تهكماً

من جانب الملك أحزيا على اسم الإله الوثني (عبر المُطابقة بين ذباب و زبوب). ومع ذلك وحتى في هذه الحدود من المطابقة الخيالية؛ سيبدو النص عسيراً على الفهم؟ إذ كيف يطلب المريض الذي سقط من الشباك، علاجاً من إله يتهكم على اسمه؟ بل كيف يطلب يهودي موحِّد علاجاً من إله وثني؟ في الواقع لم يسقط الملك أحزيا خلال معركة السمرا، من الشباك في عليته. ونحن بكل تأكيد لا نعلم أي شيء عن جلوس الملك عند حافة الشباك بحيث يسقط مريضاً. وهل يجلس الملوك، عادة أو في أثناء القتال في الوديان والجبال، عند حافات النوافذ والشبابيك بحيث يسقطون مرضى؟ المؤكد أن أحزيا لم يطلب استشارة زبوب وما حدث هو التالي: في أثناء المعركة هزم أحزيا في مكان يُدعى الشباك من أرض السمرا (وليس السامرة) ولذا أرسل يطلب مشورة الزعماء ومساعدتهم في وادي ذبوب. إليكم وصف الهمداني للمواضع انطلاقاً من بطن وادي السمرا (صفة: ٢٥٢-٢٥٧):

ثم تقطع قو ثم السمرا وهو أرض سُهب، ثم تأخذ في الدهناء (الصحراء). ومن عن يمين ذلك، وعلى ميسرة الشباك شباك العرمة والغرابات ثم تسير في السهباء (...) ثم ترد الخضرمة وهي أول اليمامة (...)- صفة ص: ٢٥٢..)

وكنا وصفنا بإسهاب طريق وادي السمراء الذي يؤدي- في هذا النص - إلى عقبة (أي: معليوت) تُدعى سميرا وإلى الشباك ثم الشبكة. وفي هذا المكان عند أول اليمامة، جرت ولسوف تجري تالياً الصدامات والمعارك بين القبائل العربية اليهودية والآشورية - وفي عصر تالٍ مع الرومان-. يعني هذا أن الملك أحزيا لم يسقط مريضاً، بل هو تعرض لهزيمة ماحقة على يد الآشوريين في عقبة سميرا- معليوت سمرون؛ وفي موقعة محددة

وفي مكان بعينه هو الشباك. وهذا من أعمال وادي السمرا. ها هنا في عقبة سميرا -معليوت سمرا تحديداً حيث جرت المعركة، وليس ثمة من (نافذة- شباك) سقط من عليته الملك اليمني اليهودي. أما وادي ذبوب- زبوب الذي طلب الملك المشورة من رجاله وفرسانه، بشأن خطة الحرب بعد الهزيمة؛ فهو وادي ذبوب (بعل[1] ذبوب: بمعنى مياه). هاكم وصف الهمداني لهذا الوادي (صفة: ٢٣٤):

فأول بلاد الحجر من يمانيها عبل وادٍ فيه الحبل ساكنه بنو مالك بن شهر، وذبوب وادٍ لبني الأسمر[2] من شهر.

ليس في الأمر تهكم من أي نوع على اسم الإله. ومن الواضح أن كلمة (سقط) أضيفت إلى النص من أجل تبرير فهم الجملة الغامضة. ولأن الجملة لا تقول قط: إنه (سقط من المرض) فمن غير المقبول أن يفترض المحققون والمترجمون، أنه لابد يكون سقط من مكان مرتفع فمرض. علماً أن كلمة (يفل) تؤدي في هذا السياق معنى: انهزم (ومنها الكلمة العامية في بلاد الشام: فل، ابتعدْ، اهربْ). المثير في هذا النص أن المترجمين لم ينتبهوا إلى الخطل والاعوجاج والتشويه في نصهم المترجم؛ إذ بعد بضع فقرات سيقول النص ما يأتي: إن الملك أرسل لرجل ما قائد (الخمسين) وذلك بعد سماعه أن هذا الرجل قادم صوبه؟ وبذلك نكون أمام قصة شديدة الغموض ولا معنى لها، فلماذا يحدث، فجأة قتال ضارٍ ينتهي بمرض الملك وسقوطه من النافذة، فيما الملك نفسه لا يطلب سوى استشارة الإله زبوب؟ ثم يرسل (قائد الخمسين) ومنْ

---

(١) وكنا أشرنا إلى أن المقصود من بعل، المياه بعامة فانظره في أشعار الشاعر اليمني كثير.

(٢) لاحظ الصلة بين اسم المكان (السمرا) واسم الجماعة (بني الأسمر).

هو قائد الخمسين هذا الذي أرسل إلى الرجل الغامض؟ وهكذا فالقصة بمجملها تغدو أكثر فأكثر غامضة وعسيرة على الفهم. سنقوم هنا ومرة أخرى بإعادة ترجمة النص الأصلي لتبيان نوع ونمط الأخطاء. يقول النص العبري: إن الرُّسل الذين أرسلهم الملك أحزيا -إلى وادي ذبوب من أجل طلب المشورة والمساعدة- عادوا إلى الملك وقالوا له: إن رجلاً ما منعهم من الوصول إلى زبوب؟ولذا أرسل أحزيا على الفور أحد قادته وفرسانه البارزين ويدعى(قائد الخمسين). وحين وصل هذا إلى المكان وجد الرجل الغامض جالساً هناك؟ إليكم ما ورد في (النص العبري: ٢٢: ٣٩: ١: ٤) و (١: ٥: ١٧):

ويشلح- ء ليو-شر-ها-حمشيم- و-حمشيو-ويعل-ءليو-وهنه-يشب-عل-رءش-ها-هر- ويدبر-ءليو-ءيش- ها-ءليهيم-ها- ملك-دبر- رده. وقد تُرجم هذا النص إلى: (فأرسل إليه قائد خمسين مع رجاله الخمسين؛ فصعد إليه فإذا هو جالس على رأس الجبل. فقال له: يا رجل الله إن الملك يقول: أنزل)

ومع أن الترجمة صحيحة بوجه العموم؛ فإن النص بطبيعته بقي غامضاً. فمن هو قائد الخمسين هذا، الذي وجد رجلاً فوق رأس الجبل وطلب منه أن ينزل؟ إن (حمشيم) في هذه الجملة لا تعني خمسين من رجاله؛ بل هي اسم مكان بعينه يدعى خمسين من أرض السمرا. أما الكلمة الثانية (حمشيو) فهي لا تعني خمسين من رجاله؛ بل تعني (المجهزين-المسلحين). ولذلك فالجملة تقول: إن الملك أحزيا أرسل إلى منطقة الخمسين بعضاً من المجهزين والمستعدين للقتال. والنص التوراتي - في هذا السياق- يسرد حكاية ذات طابع أسطوري من أجل تفسير وتبرير فشل الرجال في الوصول إلى الوادي. إن التقاليد السردية القديمة- كما تُبين

نصوص التوراة والإخباريات العربية الكلاسيكية -تجهد في تأويل أسماء مواضع وأماكن تحمل أسماء يصعب معرفة مصدرها، كما هو الحال - مثلاً- مع موضع (عزه) الذي سماه داوود تيمناً باسم الآلهة العربية العتيقة العزى (انظر ما كتبناه عن هذا الموضع). ولذلك ومن أجل تفسير اسم الخمسين هذا؛ فقد روت التوراة حكاية عن رجل إلهي ظهر لرجال الملك أحزيا فوق جبل خمسين، بُعيد هزيمته في موقعة الشباك. وهكذا؛ فإن الاسم يرتبط بأسطورة عن وادٍ بعينه يُدعى (الخمسين) تابع لبلاد السمرا. ويبدو أن للمسلمين والعرب القدماء أسطورتهم المماثلة التي ترتبط هي الأخرى بملك - خليفة - زُعم أنه هو الذي سمى هذا الوادي باسم وادي خمسين. يقع (وادي خمسين) في اليمامة بالضبط وعلى مقربة من الشباك. وتقول مروية إخبارية رواها مالك بن عبد الله بن أبي بكر (معجم البكري: ٣: ٣٢٣) ما يلي: إن رجلاً من الأنصار كان يُصلي عند حائط له في وادي القف، وهو من أودية اليمامة التي تصب في يثرب، وكان ذلك في موسم التمر والنخل قد ذُللت قطوفه بثمرها فنظر فأعجبه ما رأى من ثمرها فقال: لقد أصابني في مالي هذا فتنة، فجاء إلى عثمان بن عفان فسمَّى عثمان ذلك المال- المكان (الخمسون). إن وجود روايتين قديمتين عن موضع بعينه وفي المكان نفسه يدعى خمسون- خمسين (في اليمامة) أحداهما عربية قديمة، وأخرى عربية- يمنية أقدم؛ يؤكد أن وادي خمسين لا صلة له بفلسطين، وأن المعارك لم تجرِ قط، هناك. وكما يلاحظ؛ فإن كلّاً من الرواية التوراتية والعربية الإسلامية تجهدان - في السياق نفسه - من أجل تقديم تأويل مقبول للاسم على جري عادات القبائل؛ التي غالباً ما تروي الأساطير والخرافات من أجل تأويل الأسماء بصورة مقبولة ومقنعة. بهذا المعنى نحن أمام مروية أسطورية دخلت السرد التاريخي عن المجابهات الحربية ضد الآشوريين. وفي مروية (سفر الملوك الثاني ٩: ٢٢: ٣٧) عن مصرع الملك أحزيا سنجد نموذجاً آخر لسوء الفهم. يقول النص:

(وءحزيه- ملك- يهوذه- رءه- وينص- درك- بيت-ها- جن- ويردف-ءحريو- يهوء- ويثمر- جم- ءتو- هكهو- ءل- ها- مركبه- ب- معلوت-جور-ءشر- يبل-عم- وينص- مجدو- ويمت-شم)

ونظراً لوجود أسماء أماكن لا يعرف عنها المترجمون والمحققون أي شيء تقريباً؛ فقد قاموا بإعطاء ترجمة غريبة. إليكم ترجمة التوراة العربية (٩ : ٢٤: ١٠ : ٣):

(ولما رأى أحزيا ملك يهوذا هرب في طريق البستان فجرى ياهو في أثره وقال: ارموه، فرموه أيضاً في المركبة في عقبة جور التي عند يبلعام فهرب إلى مجدو[١] ومات هناك)

تترك هذه الترجمة عند عموم القراء، انطباعاً مفاده أن المعارك جرت في مكان خيالي، استخدم فيها المتحاربون مركبات[٢] من نوع ما؛ وبالطبع ليس ثمة من دليل أكيد، لا في هذا النص ولا سواه من النصوص التوراتية، يدعم فكرة من هذا النوع ومفادها: إن القبائل كانت تستخدم المركبات في حروبها داخل بيئة وعرة وقاسية، خصوصاً وأن التوصيف يشير إلى مناطق جبلية؟ في الواقع لم يهرب أحزيا في طريق البستان؛ فهذا طريق لا وجود له على وجه البسيطة، وإنما فرَّ من ميدان المعركة صوب (وادي الجنات) وذلك بعد أن ضُربت قواته في جبال مركبه-الركب (ولم

(١) لا يصف النص مجدو هذه ويكتفي بذكر الاسم. تماماً كما يفعل الهمداني حين يكتفي من الوصف بذكر بني مجيد من دون القول (ساحل بني مجيد).

(٢) هذا ما يعيد تذكيرنا بالقصص الأسطورية التي نشرها وأشاعها الخيال الاستشراقي عن مركبات سليمان الخرافية، فيما المقصود من مركبه (جبال الركب) علماً أننا بينّا أن التاريخ لا يعرف أي شيء عن وجود مركبات عند ملوك لا وجود لهم.

تضرب مركباته). ثم في عقبة جور قرب البلاع-يبلع-م، حيث تمكن من الهرب بالفعل إلى ساحل (مياه) بني مجد-مجدو ليموت هناك. ومع ذلك؛ فإن هذه الأسماء وبالصيغ التي أوردها المترجمون لا وجود لها في فلسطين على وجه الإطلاق. ما يقوله النص ببساطة هو التالي: إن الملك أحزيا كاد يُقتل في معركة على الطريق إلى وادي الجنات-جن في السراة، ولكنه تمكن من الإفلات واتجه صوب جبال الركب-مركبه (والميم أداة التعريف المنقرضة) ومن ثم اتجه إلى عقبة جور عند البلاع. وهذا الطريق وكما وصفته التوراة يؤدي بكل تأكيد إلى ساحل (مياه) بني مجيد - مجدو أقوى قبائل الساحل اليمني. هاكم وصف الهمداني لهذه المواضع (صفة: ١٩١-١٩٣):

وقرى أبْيَنْ كثيرة بين بني عامر من كندة وبين الأصابح من حِمْيَر فإلى السفال إلى البحر: الجوار يسكنها الأصبحيون والغبرا أقرب إلى عدن (..) ورجعنا إلى غربي محجة عدن: السحل أرض بني مجيد والعميرة وسكانها بنو مسيح من بني مجيد، بلد وهي واسعة إلى ما اتصل في الشمال ببلد الركب.

ها هنا عقبة جور- الجوار على الطريق بالفعل إلى ساحل بني مجيد، والمعروف في التوراة باسم مياه مجدو.وها هنا بلد الركب من الشمال. (وكنا وصفنا وادي الجنات قرب بلد الركب) يقول الهمداني ومحققه عن قرية الجوار الجبلية- الساحلية ما يلي (صفة ١٩١):

قال السلطان أحمد بن الفضل العبدلي في (هدية الزمن): بعد أن نقل كلام المؤلف: اعلم أن أغلب هذه القرى درست وقد اجتهدت أن أحقق مواقعها بالضبط وقد تحققت أن قرية الجوار على مسافة ساعة

تحت ملتقى الأودية في رأس وادي لحج. ذكر الهمداني عند ذكر الأودية ومآتي وادي لج قال: ثم يخرج الوادي في الجوار ثم ثرى والحبب في وسط الرعاع ثم يخرج الفائض إلى وادي عدن (..) فتبين أن الحَببْ فثرى فالجوار على عدْوَتي الوادي شمال الرعاع وهو على بعد ميل وربع شمال مدينة الحوطة.

وهذه هي جور-جوار التي فرَّ نحوها الملك بعد أن ضُرب في جبال الركب؛ واتجه من ثم نحو وادي جن-جنات. وهذا هو طريق السراة الذي سلكه أحزيا متجهاً صوب الساحل. لم يُضرب أحزيا في أثناء معركة هر- مجدو في مركبته بل ضُرب في جبال مركبة-الركب، ولم يهرب إلى مجدو الأسطورية؛ بل إلى ساحل بني مجيد ماراً بعقبة الجوار-جور في ساحل عدن. وبالطبع لم يكن هناك بستان كما لا يوجد طريق باسم طريق البستان وإنما سلسلة وديان منها وادي الجنات. أما يبلع م-يبلعم-البلاع وهذا هو الرسم الصحيح؛ فليست سوى وادي قبيلة بلاع الساحلية قرب زبيد (وانظر ما كتبناه عن وادي بلاع والبلاعيين في قوائم السبي البابلي). ثم تستمر الترجمة العربية على هذا المنوال في تقديم سيرة خاطئة ومشوهة عن أحزيا. يقول النص العبري (١٠ : ١ : ١٥) ما يلي: إن أنصار أحزيا تعرضوا بعد مقتله إلى مذبحة في موضع يدعى عقد:

(ويقم- ويبء- ويلك- شمرون- هوء- بيت- عقد- ها-رعيم-ب- درك - ويهوء- مصرء-ءت- ءحي-ءحزيه- ملك- يهوذه- ويثمر-مي-ءتم-ويثمرو- ءحي- ءحزيو- ءنحنو- ونرد- ل-شلمه- بت- ها-ملك- وبيت- ها- جبيره-ويثمر- تفشوم- حييم- ويتفشوم- حييم-ويشحطوم-ءل- بور- بيت- عقد)

تقول الترجمة العربية السائدة ما يلي: (١٠: ٤: ١٧):

(ثم قام ومضى ذاهباً إلى السامرة، فلما كان في الطريق عند بيت عيقد الرعاة صادف ياهو أخوة أحزيا ملك يهوذه فقال لهم: مَنْ أنتم؟ فقالوا: نحن إخوة أحزيا نزلنا نسلم على بني الملك وبني الملكة فقال اقبضوا عليهم أحياء فقبضوا عليهم أحياء عند صهريج بيت عقد)

حسب هذه الترجمة أصبح لبني يهوذه ملكة بعدما كان لهم ملك، مع أنه صُرَع للتو كما يقول لنا النص؟ كما أصبح للرعاة صهريج ماء - ولو كان للرعاة صهاريج مياه فلن يعودوا بعد الآن رعاة مرتحلين؟ - أما النازلون وهم إخوة الملك، فهم ذاهبون للسلام على بني الملك؟ لا أحد يعلم معنى هذا النص المشوش والمضطرب؟ فلماذا يذهب إخوة الملك للسلام على أبناء الملك في وقت كان فيه الملك نفسه يُقتل؛ ومَنْ تكون الملكة هذه التي سيذهب الرجال للسلام عليها؟ إننا لا نعلم بوجود ملكة لبني إسرائيل أو يهوذه في هذه الأحداث المصيرية. ينجم هذا التشويه في الأصل، عن ترجمة اعتباطية لبعض الأسماء والكلمات، وعن ضبط خاطئ لها أيضاً؛ فقد كان الرجال من إخوة حزيا بالمعنى القبائلي، ولم يكونوا إخوة مباشرين له وهم نزلوا إلى (بيت عقد) لحث القبائل على تقديم مساعدة حقيقية، ويبدو أنهم جاؤوا متأخرين فقد صُرع الملك للتو. كما أنهم كانوا يقصدون طلب المساعدة من بني مالك وليس الملك، ومن بني جبر-جبره وليس لزيارة الملكة. ولذا أمر ياهو خصم الملك بضرب أعناقهم في موضع (بور) وليس عند الصهريج. أما بنو عقد فلم يكونوا رعاة وليس ثمة ما يشير إلى أنهم رعاة، بل إن النص العبري الذي يخلو من الفواصل يقول (بيت- عقد- وها- رعيم) وهذه الكلمة لا تعني الرعاة وإنما هي اسم القبيلة التي ينتسبون إليها وهي قبيلة الرواع (جمع

رع- رعيم). هذه المواضع والأماكن الواردة في النص والمعروفة جيداً من قبل القدماء، تضع القصة بمجملها في السراة اليمنية لا في فلسطين. وتجعل من قراءتها أمراً ميسوراً ومفهوماً. وهاكم وصف الهمداني لها (صفة: ١٨٦)

في وصف الطريق إلى ردمان: المسْمق الأعلى والمسْمق الأسفل لبني مليك، وهم من حِمْيَر ونصرتهم ودعوتهم في ناجية- قبيلة- ولهم القعقاع، وعقد (عقد بلدة حية في الشمال الشرقي من السوادية وعقد أيضاً قرية كبيرة في أعلى جبل معود بمخلاف الشوافي[1] - المحقق).

هذه هي عقد في أعلى جبل معود في مخلاف الشوافي؛ وها هنا بنو مليك-ملك الذين قصدهم الزوار القادمون من السمرا لطلب المعونة.وإذا ما سرنا على خُطا الهمداني في هذه الوديان، قاصدين الرعاة-رعيم فسوف نبلغ منازلهم بسهولة، عندما نأخذ طريق أبْيَن جنوباً. هاكم وصف الهمداني (صفة: ١٩٠-١٩٢) مرة أخرى:

ثم بعد ذلك أبْين، أبْين لها شوكان قرية كبيرة لها أودية وهي للأصبحيين وقوم من بني مجيد، والرواع يسكنها بنو مجيد (..) لحج وسكانها: الجوار يسكنها الأصبحيون.

على هذا الطريق سارت الجماعة حين صادفها (ياهو) خصم الملك المهزوم أحزيا، عند مفترق السمرا قاصدة بني-ملك وعقد وقبائل الرواع-

---

(١) ها هنا مخلاف الشوافي الذي تخيّله صليبي في صورة (بحر السوافي) فيما الجملة في العبرية تشير إلى مياه الوادي الذي يسمى بحراً أو نهراً عند القبائل البائدة.

وليس الرعاة وبني جبر-جبره (جبريم وليس الملكة). بيد أن خصوم الملك كانوا بالمرصاد لمثل هذه التحركات، ولذا ألقوا القبض على إخوة أحزيا من أبناء القبائل التي ترتبط به برابطة نسب، وجلبوهم إلى منطقة (البور وليس الصهريج) حيث ضربت أعناقهم هناك (وانظر ما كتبناه عن بني جبر في قوائم أسرى الآشوريين). أما (بور) هذه والمترجمة إلى صهريج ماء؛ فليست سوى وادي البار في سراة خولان المتصلة بسراة عذر وهنوم. يقول الهمداني (صفة: ١٣٥):

ثم وادي خُلب وهو الذي يشرع على جانبيه الخصوف ومآتيه من الفقاعة والبار وفروعه من رأس خُلب بالقد من سراة خولان وبينهما أودية إلى البحر.

على هذا النحو يمكن فهم القصة بيسر وسلاسة؛ بل ومعرفة مسرحها الحقيقي. لقد قتل الملك أحزيا في ساحل بني مجيد-مجدو وصُرع أنصاره وإخوته القبليين -من أبناء القبائل- في وادي بار على الساحل أيضاً. هذه هي المعركة الأسطورية هر- مجدو.

الفصل الثامن

حروب نبوخذ نصّر في سراة اليهودية
(حول معركة ربله وأور الكسديم
أو الكلدانيين)

بالعودة إلى المعارك التي جرت في ربل-ربله؛ في عصر نبوخذ نصر حيث أُلقي القبض على صدقيا (انظر الفصل السابق) ومن ثم تسليمه للآشوريين بعد ملاحقة فلوله في وادي العرب وتدمير أورشليم؛ فقد ارتكب المترجمون سلسلة من الأخطاء الفادحة التي شوهت الرواية التوراتية تشويهاً فظيعاً. يقول النص العبري (٢٥: ١: : ١٤ سفر الملوك الثاني) ما يلي:

(وكل-ءنشي-ها- ملحمه-ها-ليله-درك- شعر- بين- ها- حمتيم-ءشر-عل-جن-ها-ملك-وكسديم-عل-ها-عير-صبيب-ويلك-درك-ها-عربه-ويردفو-حيل- كسديم-ءحو-ها- ملك)

تُرجم هذا النص بشكل اعتباطي على النحو التالي (انظر النص العربي: ٢٤: ١٩: ٢٥: ١٥ سفر الملوك الثاني):

(وكان جميع رجال الحرب ليلاً في طريق الباب الذي بين السورين، بالقرب من بستان الملك، بينما كان الكلدانيون يحيطون بالمدينة. وفي أثناء ذلك ذهب الملك في طريق العربة فجرى جيش الكلدانيين في أثره)

هذه الترجمة غير مقبولة ومرفوضة كلياً؛ لأنها تصور أحداثاً لم تقع وأماكن لا وجود لها، مثلاً: إن مسرح الأحداث لا يعرف مكاناً يدعى (بين السورين) ولا طريقاً يدعى (طريق الباب[١]). ولا وجود لهما في العالم القديم كله. كما أن الكلدانيين بقيادة نبوخذ نصر لم يشتبكوا قط، مع خصومهم في هذه المواضع؟ بل لم يكن هناك كلدانيون أصلاً في هذه المعركة. ما يقوله النص العبري هو التالي:

(كل رجال الحرب كانوا ليلاً في طريق -جبل- شعر، وفي طريق حمتيم الذي في أعلى -وادي- جن. وبينما كان الملكُ والكسديين في أعلى منازل وادي الضباب، فقد سلكوا طريق العرب ليلحق بهم جيش الكسيديين إخوة الملك)

عندما تفرق جيش صدقيا في الوديان والجبال إثر الهزيمة التي لحقت به على يد الآشوريين، وتبعثرت قواه وتمزقت تماماً، توزّع فرسانه في طريقين متباعدين؛ أحدهما هو طريق جبل شعر، و (بين[٢]) والآخر طريق حمتيم. ولأن محققي التوراة كانوا يعتمدون القياس، كما يبدو، في

(١) هذه المرة ترجمت (شعر، شعرئيم) إلى طريق الباب وبين السورين، في صفحات سابقة رأينا ترجمة أخرى للكلمات نفسها.

(٢) انظر ما كتبناه حول موضع (يبين) ولاحظ كيف أسقط النص العبري الياء الزائدة (مثل يعرم- عرم).

معرفة بعض الكلمات العبرية التي لا معنى لها، أو تلك التي لا مكافئ لغوياً مقبولاً لها فقد اجتهدوا في تقديم ترجمة غريبة لاسم (كسديم) التي تخيلوها على أنها تعني كلدانيين (مثلاً: لما كان نبوخذ نصر كلداني الأصل. فقد ترجموا كلمة كسديم إلى كلدانيين ظناً منهم أن هذا هو المقصود منها) علماً أن الرواية تصبح في هذه الحالة متناقضة؛ إذ كيف يكون هناك كلدانيون مع صدقيا، الذي هزم أمامهم وراحوا يطاردون فلوله؟ كما أن محققي التوراة لم يجدوا في العبرية مكافئاً مقبولاً لكلمتي (شعر وبين) ولذلك قاموا بترجمتهما في صورة (بين السورين). وبذلك تكون الطبعة العربية من التوراة قد لفقت مكانين لا وجود لهما على وجه الأرض. حين وقعت معركة ربله-ربل التي خسرها الملك صدقيا، وجرى إلقاء القبض عليه بسهولة تم اقتياده إلى معسكرات الجيش الآشوري (حيث أمر العاهل الآشوري نبوخذ نصّر، آنئذٍ بأن يُذبح ابنا صدقيا أمام ناظريه قبل أن يأمر بأن تُفقأ عيناه ويؤخذ أسيراً إلى بابل) كان صدقيا نفسه يأمل بمساندة أقوى من قبائل الكسديم (الكسديين). بيد أن هذا الأمل سرعان ماخاب وتلاشى. وحسب منطوق هذه الرواية، يبدو من الواضح أن قوات مملكة-مخلاف يهوذه وأحلافها من قبائل كسديم- الكُساد، قد ضاعت وتفرقت في الوديان والجبال في مكان قريب من وادي الضباب والعرب وفي غابات جبل شعر. وهذه كلها مواضع لا وجود لها في فلسطين على وجه الإطلاق. سنبدأ بتحديد أول سراة اليمن من محيط عدن الساحلي. يصف الهمداني الطريق من وادي الضباب وحميم باتجاه جبل شعر وصولاً إلى مفترقات وادي الجنات-جن على النحو التالي (١٣٦- ١٤٣: النص مكثفاً):

> جميع ما بين عدن ووادي نخلة من الأودية الكبار أولها، أتحم والثاني ووادي أديم من شرقيه جبال ذات السريح (ذي السريح من المعافر ثم في-جبل- قَدَس: المحقق) ووادي الضباب (........) وجبل

دمت وحميم[١]. ثم وادي زبيد فجبل صرر والشعر. (...) فإلى الفرحية فشرقي جبل سامع (..) و مما يُصالي وادي الجنات (وادي الجنات هذا في عزلة الأشعوب ولا يزال كما وصفه المؤلف: المحقق)

هذا الإيجاز الشديد للوصف الخاص بأهم الأودية والمواضع، بين زبيد وعدن غرضه إعطاء صورة بانورامية واضحة عن المسالك والطرق التي شهدت الحدث. لدينا-هنا- طريق من وادي الضباب يؤدي إلى جبل الشعر وليس إلى (ألباب أو السورين) كما في الترجمة العربية. وهذا الطريق يفضي بالسائر إلى وادي العرب- ها- عربه. ولدينا - في هذا النص- فضلاً عن ذلك، صورة دقيقة عن الطريق السالكة إلى وادي جن- جنات. وهو أمر يتوافق كلياً مع الرواية التوراتية ولا يتعلق بتطابقات لغوية. ولمزيد من الإضافة هاكم وصف الهمداني لوادي الضباب ومنازل قبائل الأشعر. (صفة: ١١٧-١٢٢):

فحيق بني مجيد، فعرّ عدن وهو جبل يحيط البحر به والضباب (والضباب أيضاً وادٍ في قدس من المعافر جنوبي هذا: المحقق) ووادي الملح ويسكنه الأشعر وفيما بينه وبين تبشاعة، قبيلة من الأشعر ثم يتصل في هذه السراة بلد الشراعب من حمير وريمه وقُرعد وموضان والخنن (وهذه أماكن كان يُطلق عليها في القديم: العدين - المحقق) ثم يتصل بها سراة بني سيف. وجبل بُرع و- ووادي- العرب وأرض لعسان.

هذا هو الطريق الذي سلكته فلول الملك صدقيا بين جبل الشعر ووادي الضباب، ثم وادي العرب فوادي خنن-خن- حيث جبل قدس إلى الجنوب-. ها هنا أرض لعسان التي سوف نعثر فيها على اسم مياه تدعى

(١) حمتيم: التاء الزائدة لهجة يمنية في حميم.

مربل-الربل؛ حيث ألقى الآشوريون القبض على صدقيا ملك مملكة-مخلاف يهوذه (اليهودية) المهزوم. يضيف الهمداني إلى وصف أرض لعسان ما يلي (صفة: ٢١٠):

ومناهل-مياه-لعسان: السنانية والعقل وذو الخناصر. فأما أرض لعسان في بطن تهامة فالجعدية ومربل[١].

هذه هي مياه ربله-ربل- التي شهدت واقعة أسر الملك صدقيا. وهاكم وصف منازل الكسيديين-كسديم الذين لحقوا بإخوتهم من أجل نجدتهم وتخليصهم من أيدي الآشوريين، وجرى تخيلهم في صورة (كلدانيين) عملوا ضمن جيش صدقيا. وعلى الرغم من أن مثل هذا الأمر خيالي إلى النهاية؛ إذ يستحيل تصور وجود كلدانيين في ميدان الحرب، يهبون فجأة ومن دون مبرر مقنع للدفاع عن ملك يطارده جنود الإمبراطورية ويمزقون فلوله في الوديان؛ فإن الاسم في العبرية لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى اسمهم، وإنما يشير إليهم في صورة (كسديم- كسديين). وإلى هذا كله، لا يتضمن الاسم (كسديم) حرف اللام اللازم لنطق اسمهم في صورة (كلدانيين). هذا فضلاً عن أن السين العبرية في (كسيديم) لا تنقلب لاماً، بافتراض صحة هذه المقاربة اللغوية بين الاسمين. يقول الهمداني (صفة: ١٥٩) واصفاً المسالك والطرق في هذه الوديان والجبال، ما يلي:

- ثم - يناعه وذي بين ويلقاها سيل الكساد (والكساد وطن من مرهبة الدعام عامرة بالسكن: المحقق).

(١) ربله: الهاء زائدة والأصل هو ربل (مثل بيش: بيشه) ولاحظ كيف دخلت الميم الحميرية على الاسم (مربل: الربل).

ها هنا يناعة-اليناع، التي سبق للآشوريين تدميرها بعد تمرد قبائلها، وها هنا الطريق المؤدية إلى وادي ذي بين-بين؛ التي تخيلها المحققون كلمة (بين) العبرية والعربية، فيما هي اسم مكان سلكته قوات الملك المهزوم. وها هنا منازل القبائل من الكُساد (الجمع العربي من كسديم) التي هبت لمساندة الملك صدقيا. لا وجود، إذن، لكلدانيين في هذه الوديان، ولا وجود لمكان يدعى (بين السورين) وإنما هناك موضع يدعى (بين) قرب جبل الشعر. كل هذا سوف يُحيلنا إلى مسألة أور الكسديم في مروية سفر التكوين، والتي تتحدث عن مجيء إبراهيم النبي منها؛ حيث جرى تخيلها على أنها (أور الكلدانيين) في العراق القديم. وفي الواقع، تثير مسألة تحقيق التوراة التي أشرف عليها علماء ومتخصصون مشهود لهم بالكفاءة، مشكلات عويصة أمام اليهود المتدينين؛ فإذا كانت كسديم تعني كلدانيين -مع أن هذا مستحيل من الناحية اللغوية الصرف- وهي في الآن ذاته اسم موطن النبي إبراهيم، فما الذي جاء بهم إلى هذا المكان؟ وما علاقة هؤلاء الكلدانيين وهم من سكان أقصى الجنوب العراقي المُفترض، بالآشوريين الشماليين المحاربين؟ ما تقوله الرواية التوراتية عن الهجوم الآشوري على أورشليم في عصر نبوخذ نصر، هو أن ملك مخلاف-مملكة يهوذه صدقيا، خاض معركة يائسة بقواته وقوات حلفائه من قبائل الكساد؛ وأنه هُزم هناك على ضفاف وادي العرب قبل أن يلقى القبض عليه في معركة مياه ربل. يعني هذا أن الرواية التوراتية كانت تتحدث عن فرار جيش الملك صدقيا، وتفرّقه في أماكن داخل السراة وليس في فلسطين، وأن القبائل القاطنة في الكُساد -كسديم كانت في عداد هذا الجيش وقد لحقت به، ولكن أمكن للآشوريين في النهاية، إيقاع الهزيمة بهم جميعاً بحيث تسنى لهم، إلقاء القبض على الملك والمجيء به إلى ربل، حيث فقئت عيناه ونقل منها أسيراً إلى بابل. أما جملة (ها-حمتيم- ءشر-عل-جن-ها-ملك-وكسديم) التي تُرجمت

ويا للغرابة إلى (السورين بالقرب من بستان الملك، بينما كان الكلدانيون إلخ...) فإنها مؤلفة من مقطعين قصيرين لهما طابع خبري صرف؛ الأول ويقول حرفياً: (والحمتيم التي في أعلى جن: ها-حمتيم-ءشر-عل- جن) بينما تستكمل الثانية الرواية على هذا النحو: (فمضى جيش الكسديين في طريق العرب ولحق به جيش الكسيديين من إخوة الملك). ليس ثمة بستان للملك المهزوم في هذا المكان، بل هناك وادي جنة؛ وهو ذاته موضع الجنة-جنات في أعلى حميم- انظر نص الهمداني-. تقع حمتيم[1]- حميم هذه قرب وادي الضباب؛ والهمداني يسجل اسمها في صورة حميم - بإسقاط التاء اللاصقة-، وهي عُزلة دب اليها الخراب اليوم فلا تكاد تُعرف، وقد نسبها القدماء من اليمنيين إلى (حميم بن سدد بن زرعة بن حمير) وورد اسمها في النقوش والمساند الحِمْيَرية في صورة ذات حميم، وهو إله يمني قديم. يقول الهمداني في وصف حميم قرب وادي الضباب وفي أعلى وادي جنة، كما في النص العبري (صفة: ١٩٤-١٩٧) ما يلي:

> وأما جبأ وأعمالها وهي كورة المعافر وطريقها في وادي الضباب، فهي في فجوة بين جبل صبر وجبل ذخر(..) ومخلاف السحول (..) بعدان وريمان وحميم.

ها هنا وادي ضباب-صبيب وها هنا (حميم) أي الساخن، الحار (ها-حمتيم) في مكان واحد لا صلة له بفلسطين. ولأجل إعطاء تفصيلات أخرى عن هذا الحادث التاريخي ومكان وقوعه فعلياً، فقد تطرقت الرواية التوراتية إلى الأحداث التي أعقبت أسر الملك صدقيا؛ إذ إن الآشوريين

---

(١) ورد اسم ذات حميم في نقش SH-13 (انظر: اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام - شرف الدين، مصدر مذكور). وكانت من معبودات عرب الشمال.

قاموا بقتل أعداد كبيرة من الفرسان (المقاتلين) في ربله من أرض حمت (-ويمتم- ب-ربله م-ءرص-حمت-ويجل-يهوده-م-عل-ءدمتو: وقتلوهم في ربله من أرض حمت، وأجلوهم من يهوذه ومن عُلى[1] وءدمت). وهذا يؤكد أن المقصود من حمتيم ليس حمة-حمت في أرض ربل- ربله؛ بل مكاناً آخر يرسم بطريقة مختلفة. كما قام الآشوريون بتعيين حاكم على مخلاف- مملكة يهوذه يأتمر بأمرهم هو الملك جدليا. وفي نطاق تسجيل هذا الحدث ارتكب المترجمون أخطاء أخرى كان من شأنها أن ضاعت تفاصيل هامة. لذا سنقوم بإعادة تركيب الرواية استناداً إلى قراءة مغايرة ولكن أمينة ومُطابقة في الآن ذاته للنص العبري. يقول النص (٢٥: ١: ١٤) في معرض تصويره لعملية اقتحام أورشليم من قبل الجيش الآشوري بعد أسر صدقيا، أن نبوخذ نصر أرسل أحد قواده إلى المدينة لتفقدها، لكن هذا قام بإحراق الهيكل (بيت العبادة) وهدم أسوار أورشليم ونهب ممتلكات البيت المقدس:

> (وءت- حومت- يروشليم- صبيب- نتصو- كل- حيل- كسديم- ء شر- رب- طفحيم- وءت- يتر- ها-عم- ها-نشئريم- ب- عير- وءت- ها- نفليم- ءشر- نفله- عل- ها- ملك- ببل- وءت- يتر- هھمون- ها- جله- نبوزر-ءدن-رب- طفحيم- ومدلت- ها-ءرص- ها- شئير- رب- طبحيم- لكرميم- ولنبيم وءت- عمدي- ها- نحشت- ءشر- بيت- يهوه-وءت-ها- مكنوت-وءت- يم- ها- نحشت-ءشر- ب-بيت- يهوه- شبرو- كسديم- و-يشئو- ءت- نحشت- ب-بله)

---

(١) علة قبيلة من العوالق من أوديتهم وادي الضباب. كما يعرف موضعهم باسم عُلى.

(وعند أسوار أورشليم والضباب، كُسرت كل قوة الكساديين، والذين هم رؤساء الطفحيين، ومعهم تساقط كثيرون ممّن فروا من الديار، والذين انهزموا. فقام ملك بابل بنفي جمع غفير، من بينهم نبو -ذر-أذان سيد الطفحيين، وبعض فقراء الأرض من موالي أكابر الطفحيين والكرميين والنبيين. كما نُهبت أعمدة النحاس التي في بيت يهوه وآلات البَحِر النحاسية التي في بيت يهوه. لقد كسروا الكساديين وحملوهم من- وادي- نحاس ومن باله)

المشكلة العويصة التي واجهت المحققين ثم المترجمين تكمن هنا :

لما كانوا قد افترضوا أن كسديم تعني كلدانيين-مع أن هذا مستحيل من الناحية اللغوية كما قلنا- ففي هذه الحالة يتعيّن عليهم ألا يتراجعوا عمّا كرسوه من فهم للكلمة، وأن يبرروا -مرة أخرى- فهمهم للنص الآنف، وأن يترجموا الكلمة نفسها وحيث وردت في النص إلى كلدانيين. فهل بوسعهم القول -هنا-: إنَّ المقصود من الكسديم جماعة أخرى لا علاقة لها بالكلدانيين؟ هوذا المأزق. ولذلك اضطروا إلى القول: إنَّ المقصود من جملة رب-طفحيم إنما هو: رئيس الحرس، أي رئيس الكلدانيين؛ بينما نجد في سفر التكوين - قصة يوسف- أن التوراة تسمي رئيس الحرس: ء شر- طبحيم - بالباء- وليس طفحيم - بالفاء-. فهل المقصود من الاسم في الحالتين هو رئيس حرس الكلدانيين؟ إذا سلمنا بهذا الاستنتاج ووافقنا على الترجمة؛ فعلينا أن نلاحظ أن ذلك يتضمن تناقضاً صارخاً داخل التاريخ والثقافة؟ فهل من المنطقي أن تكون الكلمة هي ذاتها في مصر وفي فلسطين وفي العراق القديم وبالمعنى نفسه، فيما نعلم باختلاف اللغة الآرامية- الكنعانية الفلسطينية عن الفرعونية المصرية وعن الأكدية العراقية؟ هذا مستحيل وغير قابل للتصديق، فما علاقة الفرعون المصري ورئيس حرسه في قصة يوسف بالكلدانيين في

العراق القديم؟ يعني هذا أن رب-طفحيم في النص أعلاه تشير إلى أمر آخر. على هذا النحو اختلطت الأمور وضاعت المقاصد الفعلية من النص. وهناك مثال آخر عن فوضى الترجمة: إن النص السائد ينسب كل هذه الأحداث إلى شخص خيالي يدعى (نبو-زر- دان) الذي يسميه مترجمو النص العبري رئيس الحرس. في الواقع لم يكن هناك رئيس للحرس في قصة نهب وتدمير أورشليم، ولا وجود لهذا الشخص في الأحداث الحربية الدامية؛ بل كان هناك سيد قبلي اسمه نبو- ذر- أذان[١]، وهو سيد الطفحيين-طفحيم وليس رئيس الحرس الكلداني. ولو كان صحيحاً أن طفحيم تعني رئيس الحرس الكلداني فما معنى نفيه من أورشليم؟ كما أن النص المترجم ينسب بعض الأحداث إلى جيش الكلدانيين(حيل-كسديم) وهذا غير منطقي؛ لأن هذا الجيش هو جيش الآشوريين. ولذا؛ فالمقصود جيش الكسديين الذين جاؤوا من موضع يدعى الكُساد (جمع كُسد). فضلاً عن ذلك؛ قام المترجمون بمكافأة جملة تتحدث عن نقل (نحشت-ب-بله) أي نقل النحاس إلى بابل. فيما نعلم أن النص يميز - كما واضح هو أعلاه - بين اسمين ويرسمهما بطريقتين مختلفتين (ببل بمعنى بابل) و(ب-بله بمعنى باله). كما أن نحشت-نحاس ترد أكثر من مرة وفي صيغ متماثلة من دون مبرر، فهل قصد سارد النص من كلمة (نحشت) مكاناً بعينه قرب ربله وفي الآن ذاته قصد بها النحاس الذي نهب؟ وإلى هذا وذاك؛ فإن طفحيم العبرية لا تعني رئيس الحرس، إذا ما التزمنا معاني القاموس؛ بل قد تعني رئيس السيَّافين - مثلاً- الذين يعتمد عليهم الملك. هذا الأمر يؤكد لنا حقيقة حدوث نمط من الارتجال والتسرّع في معرفة الدلالات الفعلية في أثناء تحقيق النصوص الأصلية.

---

(١) قارن مع اسم ذر في (أبو ذر) علماً أن نبو تعني (أبو) لأن النون بديل الألف ودان هي أذان، قبيلة أذان.

برأينا، يشيرالاسم وفي سياق النص وتطور الأحداث، إلى سيد قبلي كبير من سادة الطفحيين، الذين دفعوا ثمن الهزيمة بعد دخول الآشوريين أورشليم اليمنية حيث جرى نفيه (ولو كان رئيس الحرس أورئيس السيّافين الكلدانيين، فلماذا ينفى من أورشليم؟). هذا الخلط في الأسماء والدلالات والمواضع، ناجم عن خلط أعم وهذا ما سنبرهن عليه: ما تشير إليه الجملة العبرية هو وعلى وجه التحديد (سيد الطفحيين) وليس رئيس الحرس الكلداني؛ وهؤلاء جماعة قبائلية كانت تعيش في أوطان المراشي- مرشه في التوراة- في الجوف اليمني على مقربة من الكساد تماماً، حيث يلتقي مسيلا وادي الكساد وسروم العقل. كما أنها تشير إلى النحاس المنهوب من بيت الرب -هيكل يهوه- وإلى موضع بعينه يُدعى نحاس- نحشت في الآن ذاته. وهذا هو مغزى تكرار كلمة (نحشت مرة من دون أداة التعريف العبرية ومرة بأداة التعريف: ها-نحشت). هاكم أولاً وصف الهمداني لمنازل الكساديين وطفحيم- طفحان ونحاس في أوطان المراشي:

(ويلقاها سيل العقل والكساد: ص: ١٥٩)
(والعقل وأوطان المراشي وطفحان: ص: ٢٨١)

ها هنا الكساد-كسديم (جمع كسد- الكساد) وها هنا طفحان اسم التثنية (طفحيم من طفح). أي إن عمليات النفي من الأرض بعد سقوط أورشليم في الحملة الجديدة؛ شملت جمهوراً غفيراً من القبائل المهزومة. ومن بين هؤلاء رجال من بني طفحان- طفحيم على رأسهم سيدهم (كبيرهم) وبعض الأسياد والفقراء على حد سواء. أما جملة (يشئو-ءت-نحشت-ب-ربله) فلا تشير إلى نقل النحاس كما توهم المترجمون؛ إذ لو قصد سارد النص ذلك لكتب الكلمة في صورة (ها-نحشت) بأداة التعريف

(النحاس وليس نحاس). بل هي تشير إلى نقل الأسرى من القبائل من موضع يدعى نحاس ومن مكان آخر يسمى ربل-ربله بعد تنفيذ عمليات تدمير أورشليم. بهذا المعنى؛ فإن الجملة تقول: (وحملهم من نحاس ومن ربله). ونحاس هذه هي إلى الجوار تماماً من منازل بني طفحان-طفحيم وقرب الكساد في أوطان المراشي- مرشه التي اجتاحها الآشوريون. وهذا ما يُفسر لنا سبب وجود اسم مرشه في المراثي التوراتية كمكان تم تدميره. إليكم المواضع نفسها وبالتسلسل ذاته كما وردت في النص. يقول الهمداني (صفة: ٢٨٠-٢٨١):

أوطان نهم من الجوف: أوبن، وسروم والعقل (وفي النص السابق: العقل وكساد - المؤلف) ونحاس، ووادي الشوار ومما هو بين نهم وبين بني عبد بالمراشي والعقل وأوطان المراشي، أتان وطفحان.

يقول محقق كتاب الهمداني العلامة الأكوع: إنه ورغم البحث والتنقيب لم يتمكن من العثور على وادي نحاس هذا؛ مع أن الهمداني وصفه استناداً إلى بعض مشاهداته الشخصية، وإلى رواة القبائل والعلماء في عصره. كما لم يتمكن محقق الهمداني من معرفة موقع وادي الشوار - ءشوره في التوراة (انظر ما كتبناه في الفصول السابقة عن الشور). وكنا رأينا أن نص التوراة الخاص بحملة تجلات بلاسر الثالث يشير إلى وادي شوره الصحراوي؛ الذي جرى نفي ودفع القبائل المتمرّدة صوبه، ولا يشير إلى نقلهم إلى آشور. لقد توهم محققو التوراة، كما لاحظنا مما سبق من فصول، أن تجلات بلاسر الثالث نقل في حملته الحربية على أورشليم، المسبيين اليهود إلى آشور؛ بينما يقول النص: إنه نقلهم إلى ءشوره-الشور. وهذا رسم مختلف كل الاختلاف عن الرسم التقليدي في التوراة لاسم آشور. وها نحن نلاحظ الصلة الجغرافية المتكاملة بين سائر

الأماكن، التي وقعت فيها أحداث عمليات الغزو المتكرِّرة، من الشور إلى وادي نحاس. (انظر ما كتبناه عن بني عبد في نص الهمداني أعلاه وفي قائمتي الأسرى، وانظر الشوره في الفصول السابقة عن تجلات بلاسر). على هذا النحو تصبح مقاصد النص التوراتي أكثر وضوحاً، فالمعارك انتهت بسقوط مملكة- مخلاف يهوذه على يد نبوخذ نصَّر في هذه الحملة، وجرى الاقتصاص من القبائل الضالعة بالتمرد، كما تم نقل الأسرى من وادي نحاس الخصب إلى مكان مجدب يدعى الربل- ربله (من الوادي إلى عين مياه) حيث وقع هناك العقاب الفظيع بحق ملك يهوذه نفسه. وسوف نرى دلالة وجود وادي الشوار-الشور هنا، والذي خلط المترجمون بينه وبين آشور الإمبراطورية على النحو ذاته الذي خلطوا فيه بين، ببل- بمعنى بابل وبين-ب-بله بمعنى في بله- انظر باله عندنا في منازل الأسباط-. وستكون الصورة واضحة كل الوضوح بالنسبة إلى متلقي النص العربي، وهو يتابع تفاصيل عمليات النفي التي قام بها الآشوريون في هذه الحملة، وذلك حين يتوقف أمام جملة (ويمتم- ب-ربله- ب-ءرص- حمت- ويجل- يهوده-م- عل-ء دمتو) فهي تشير إلى ما يلي: (وقتلهم في ربل وأجلى اليهود من عُلى وأديمت) وهذه المواضع قرب وادي الضباب تماماً حيث دارت المعارك. ها هنا وصف الهمداني للأماكن (صفة: ١٣٧-١٣٨):

> والثاني من أودية السكاسك وادي أديم، من شرقيه، وجبال السريح (ذي السريح وهي من المعافر ثم من قدس: المحقق) ينتهي بين أرض بني مسيح وأرض بني مجيد. وفي أديم يكون سحَرَة السكاسك وأصحاب صدح الغيث وغير ذلك من فنون سحرهم وكهانتهم (..) والوادي الخامس رسيان مآتيه من الجند ومن حدود الكلاع ونُخلان والعُلى ووادي الضباب.

هذه هي عل -عُلى وها هنا واديا الضباب- صبب، وها هنا أديم-ءديمت حيث تنتشر فنون الكهانة والسحر (وفي نصوص التوراة عن هذه الحقبة هناك صور غنية عن فنون السحر والكهانة التي مارسها اليهود في هذا المكان- انظر مثلاً الصراع مع الملك منسه الذي كان يمارس السحر والطقوس الوثنية بنفسه عند جبل هنوم). هذا يعني أن نبوخذ نصر قام بإجلاء اليهود من وادي أديم والعُلى بعد تدمير أورشليم إلى مواضع مجدبة. كما أجلاهم من وادي نحاس ومن بله -باله. وكنا رأينا أنه قام بقتل بعضهم في ربل- مربل. والآن: يتكشف لنا بوضوح أن المقصود من كسديم ليس الكلدانيين بل قبائل الكساد وأحلافها في طفحان- طفحيم. وفي هذا السياق تمت ترجمة المقطع التالي الذي يتحدث عن مصاعب واجهت الملك الجديد جدليا الذي نصبه الغزاة:

(ويشبع-لهم-جدليه-ول-ءنشيهم-ويئمر-لهم-ءل-تيرءو-م-عبدي-ها- كسديم-شبو- ب- ءرص- وعبدو- ءت- ملك- ببل-ويطب-لكم)
(فحلفَ جلدليا لهم ولرجالهم وقال لهم: لا تخافوا من عبودية الكلدانيين واسكنوا هذه الأرض واخدموا ملك بابل فيكون لكم خير).

وهذه الترجمة صحيحة ومقبولة لولا أن جملة (ءل- تيرءو- م- عبدي- كسديم) لا تعني أبداً، ولا بأي حال من الأحوال ما ذهب إليه المترجمون، بل إن الجملة تقول: (وأقسم جدليه لهم ولرجالهم وكلمهم: ارتادوا الأرض من-وادي عبد والكساد، وابقوا، ولكن أطيعوا ملك بابل فذلك أفضل لكم). إن عبد-عبدي هنا لا تعني (عبودية) وليس ثمة في العبرية كلمة (عبدي) يمكن أن تؤدي معنى الخوف من العبودية. والصحيح أن سارد النص قصد الإشارة إلى محاولات الملك الجديد ثني بعض

البطون القبلية والعشائر الصغيرة الخائفة، عن الجلاء طوعاً من الأماكن التي أضحت تحت نفوذ الآشوريين المطلق. وكذلك الإشارة التشجيعية بأن يرتادوا المناطق التي كانوا يرتادونها في السابق مثل وادي عبد والكساد، ولكن شرط الولاء المطلق للإمبراطورية. هاكم هذا الدليل (صفة: ٢٨١):

وهذه أودية تصب من قابل نهم الشمالي ومما هو بين نهم وبين بني عبد وأوطان المراشي حلتان وسروم العقل (وفي نص سابق سروم العقل والكساد - انظر أعلاه) وطفحان (بنو عبد لا يُعرفون اليوم: المحقق).

كان جدليا-جدليه الملك الجديد الذي نصبه الآشوريون على مخلاف يهوذه بعد هذه الأحداث، يكابد من أجل إقناع بعض القبائل المذعورة بالبقاء في أرضها وقبول الأمر الواقع، وهو لا يريد أن يفتتح عهده بهجرة قبلية كبرى بدافع الخوف؛ ولذلك راح ينصح القبائل بألا تهاجر وتسيح في الأرض، وأن تستقر في الأرض وتتعلم طاعة الإمبراطورية الآشورية. وبذلك تتضح مقاصد النص العبري من ها-كسديم مرة أخرى؛ فهم ليسوا كلدانيين؛ وإنما جماعة من القبائل التي شاركت في المعارك ضد الآشوريين. إن كلمة (عبدو) في الجملة التالية من مقطع آخر داخل النص تقول شيئاً مختلفاً جديراً بالتوضيح: (شبو-ب-ءرص-و-عبدو-ءت-ملك ببل و-يطب-لكم) فهي، إذا ما صدقنا الترجمة السائدة وسلمنا بصحة ما ذهب إليه النص المترجم؛ لا تعني عبودية (لاحظ الفارق بين عبدي-عبدو) بل تعني: أطيعوا، بينما تعني (عبدي) في الجملة السابقة (عبد) وهذا اسم وادي القبيلة. (وانظر حول كرميم ونبيم- النبيين ما كتبناه في الفصول السابقة عن أرض نبي والكرم). في هذا السياق يقدم النص

العبري صورة دقيقة عن الكسديم كجماعة قبائلية، تحالفت ضد الغزو الآشوري وواجهته ودفعت الثمن؛ إذ يقول في فقرة تسرد الأحداث التي أعقبت اغتيال جدليا نفسه، بُعيد تنصيبه مباشرة من قبل الآشوريين ما يلي (٢٥ : ١٥ : ٢٧):

ويهيه-بحدش-ها-شبيعي-ءت-يشمعله-بن-نتنيه-بن-ءليشمع-مزرع-ها-ملوكه-وعشره-ءنشي-ءتو-ويكو-ءت-جدليهو-يمت-وءت-ها-يهوده- وءت-ها- كسديم ءشر- هيو- ءتو- ب-مصفه

وفي الشهر السابع جاء اسماعيل بن نتنيه[1] بن السمع من العائلة الملكية، وعشرة من رجاله، فضربوا جدليا واليهود والكساديين الذين كانوا معه في الصفاه فمات.

يشير هذا النص إلى مصرع رجال من ها-كسديم سوية مع بعض اليهود؛ الذين ظلوا على ولائهم للملك المعين من قبل الآشوريين ولم يغادروا الأرض، امتثالاً للنصيحة التي روج لها الملك القتيل بنفسه. وبذلك، تُطوى صفحة أخرى من الصراع على أورشليم ومعها تُطوى مسألة ها- كسديم (الكُساديين) الذين لن يظهروا، بعد الآن في نصوص التوراة، كقوة موالية لليهود. لقد كان هؤلاء من القبائل الحليفة ولم يكونوا كلدانيين كما توهم محققو النصوص.

(١) نتنيه : نتن- يهوه : وهب الله. وهذا اسم يمني صريح (وهبله في النقوش).

الفصل التاسع

بابليون ومصريون في أورشليم

مرثية حزقيال لمدينة صور اليمنية

في إطار الحروب المدمرة والمتبادلة، حدثت سلسلة من الصدامات بين الجيشين الآشوري والمصري (الإمبراطورية البابلية الحديثة مع نبوخذ نصر وآشور أوبالط: ٦٠٥ ق م) على امتداد الساحل اليمني وفي أورشليم اليمنية العتيقة. لقد صوَّرت التوراة جزء هاماً من هذه الحروب؛ بيد أن القراءة الاستشراقية تعمَّدت وضع التاريخ مرة أخرى في السلة الفلسطينية من دون وجه حق، لتصبح فلسطين وسورية مسرحاً لحروب لا يعرف التاريخ المكتوب عنها أي شيء. بعد سقوط مملكة-مخلاف يهوذه في يد المصريين إثر معركة هر-مجدو (ساحل وجبل بني مجيد) على البحر الأحمر ومن ثم إثر معركة كركميش (كر-كمس: تعني كلمة كر العبرية: مرج. أما كامس فهي موضع الكامس الذي أشرنا إليه في الكتابين السابقين: أي معركة مرج الكامس، انظر الخريطة) قرر الآشوريون بقيادة نبوخذ نصر ابن نبو بلاسر، القيام بتحضيرات واسعة لهجوم ساحق من أجل دحر القوات المصرية، وذلك بحلول عام ٦٠٥ ق. م. كان نبوخذ نصر- في هذه الآونة- قائداً عسكرياً شجاعاً ومرموقاً، يعمل تحت إمرة والده الملك نبو بلاسر، وعلى

الطرف الآخر كان الملك المصري نيخو الثاني يقود المعركة الدفاعية بنفسه. يروي سِفر إرميا صوراً مدهشة عن طبيعة هذه المعركة في إحدى مراثيه – النص مختصراً- (الإصحاح: ٤٦ النص العبري: ٤٥: ٤: ٤٦: ١٠):

(ء شر – هيه-دبر- يهوه- ء ل- يرميه-ها-نبيئه-عل-ها-جويم-ل-مصريم -عل-حيل- فرعه-نكو-ملك- مصريم-ءشر-هيه-عل- نهر-فرت-ب-كر-كميش-ءسر-هكه-نبوكدر-نصر- ملك- ببل-ب-شنة-ها- ربيعيت -ل- يهويقيم-بن- يئشيه- ملك- يهوده: عركو-مجنه-و-صنه-ونشو-ل- ملحمهءصرو-ها-سوسيم-وعله-ها-فرشيم-وها-تيصبو-ب-كوبعيم-ها-جيدو-ب-مصريم وهاشميعو- ب- مجدول-وها شميعو-ب-نوف- تهفنيش ءمرو- هاتيصبو-ها-كن لك-كي-ءكله- صبيبيك-مدوع- نصحف- ءبيريك- لء- عمد-كي- يهوه-هادفو-ها-ربه-كوشل-نم-نفل-ءيش-ءل-رعهو-ويئمرو- قومه-ونشبه-ءل-عمنو-وءل-ءرص-مولدتنه -م-فني-حرب)

(تلك هي كلمة الرب إلى إرميا النبي على الأمم:

على مصر، وعلى جيش الفرعون نخو- نكو

ملك مصر الذي كان على مسيل فراة

وفي مرج كامس

الذي ضربه نبوكدر نصر

ملك بابل

في السنة الرابعة من حكم يهوياقيم بن يوشيه ملك يهوذه):

أعدوا المجنَ والرماحَ للقتال

إِجمعوا الخيلَ واعتلوا سروجَها

ولتدوروا بخوذاتكم

جولوا في- ديار- المُضَريين

لتسمعكم مجدول

ولتسمعكم نوف وتهنفيش[١] قولوا واستعدوا واثبتوا.

حوطوهم

لأن السيف سيأكل ما حولكم

يتمايل جارفاً شبانكم

لن يقف الرب ليصدها عنكم

فالكثرة الضالة تُهزم

والرجال هم من يقاتلون الشر

فقوموا انهضوا وهبوا

لأجل شعبنا وأرض موالدنا

أمام السيوف.

في هذا النداء الحار الموجه من إرميا ؛ يرى الشاعر-النبي ببصيرة نفاذة، أكثر من كل سياسيي وكهنة أورشليم- بتعبير هاري ساكز[٢]- مخاطر الرهان على مصر لطرد النفوذ الآشوري من الساحل. كان إرميا وطوال حقبة التوتر والصراع مع الآشوريين، والتي تسبَّبت بها السياسة الطائشة للكهنة في بلاد اليهودية، يدعو من دون كلل إلى التعقل وإلى فحص عواقب هذا التمرد ومخاطره؛ بل وإلى انتهاج سياسة أكثر تبصراً بحقائق الأمور المتعلقة

---

(١) تفيش: الهاء لاصقة وهي لهجة يمنية كما بينا في أكثر من موضع (شمر يهرعش - شمر يرعش) ولاحظ كيف دخلت النون على الاسم:

(٢) عظمة بابل، مصدر مذكور.

بصعود الإمبراطورية الآشورية في عالم الشرق القديم، والاحتراس من تقديم تقديرات سيئة بشأن حقيقة المصاعب السياسية والعسكرية التي كانت تواجهها. في هذه القصيدة يصور النبي- الشاعر، ويحدد، المواضع التي نشب فيها القتال؛ داعياً القبائل إلى الاستبسال دفاعاً عن وجودهم، بعدما أصبحت الحرب بين الآشوريين والمصريين أمراً واقعاً ومُعلن الأهداف: الاستيلاء على الساحل بأكمله. إن مجدول ونوف وديار مُضَر؛ هي ديار وقبائل الساحل والنجد اليمني، وليست مدناً مصرية. غير أن المترجمين وقعوا -مرة أخرى- ضحية الأوهام الاستشراقية حين ترجموا اسم مصريم في كل المقاطع إلى مصر، من دون أن يفطنوا إلى أن الاسم نفسه يشير إلى مصر تارة، وتارة أخرى إلى المُضريين. وهذا ما سوف يكون مُربكاً للمعاني والدلالات داخل القصيدة بشكل مثير ومأسوي. من الواضح أن إرميا يريد من اسم مصريم في بعض المقاطع مُضَر- المُضريين القبيلة، التي تُرسم أيضاً في صورة مصريم: المُضَريين (اسم الجمع العبري واليمني من: مضَر) وذلك في قوله: (جولوا- أخبروا في المُضريين ومجدول) إذ من غير المنطقي أن يطلب الشاعر من القبائل أن تجول في مصر البلد العربي، بينما جيشها يدك أورشليم؟ ثم في إشارته إلى نوف. إن مجدول ونوف موضعان لا وجود لهما في مصر البلد العربي؛ بل هما من مواطن قبيلة مُضَر العربية. وهذا مغزى قول الشاعر: أخبروا المُضَرْيين في مجدول ونوف. يصف الهمداني موضع مجدول: الجدول (ولاحظ الميم اليمنية المنقرضة) على النحو التالي (صفة: ٢٧٤ وراجع ما كتبناه عن كاهن الجدول في الفصل الخاص ببناء أورشليم):

في وصف اليمامة: الهيصمية لقشير والجدول أعلى منها لبني قشير والفقي لآل حماد من تميم، ورمل الدبئيل وراء العارض عارض اليمامة والدبيل ما بين اليمامة ونجران.

حدثت أكبر وأعنف المواجهات بين المصريين والآشوريين في نجران إثر هذه الحملة، في مرج الكامس (كر- كمش). وهذا المكان تخيله محققو التوراة جرابلس اللبنانية-السورية، وذلك في سياق التلاعب بالوقائع التاريخية، علماً أن اسم جرابلس لا يتضمن من المنظور الفونيطيقي، أي عنصر من مادة كر-كميش. (وكنا تحدثنا عن نوف في شعر امرئ القيس- انظر الكتابين السابقين). ونعيد التأكيد- هنا - على أن المقصود من الاسم كر- كميس، إنما هو مرج الكامس بما أن (كر) العبرية تعني مرج. انتهت المعركة بمذبحة للطرفين، ولكن الذعر داخلَ قلوب جنود نيخو المصري فولوا هاربين من الميدان عائدين إلى مصر، وكان بوسع نبوخذ نصر مطاردة فلولهم حتى حدود بلادهم، لولا أن نبأ وفاة والده الملك جاء مُفاجئاً ليضع حداً للحرب. يتضح من هذا المثال النموذجي لنمط الأخطاء في التحقيق والترجمة، أن الصراع على سواحل البحر الأحمر واليمن كان في صلب وقائع التاريخ القديم؛ ولم تكن فلسطين حاضرة فيه بأي صورة من الصور، لأن بلاد الشام بأسرها كانت تلتزم الهدوء في هذا الوقت من التاريخ - ولا تستطيع المخاطرة بتحدي الآشوريين-، بينما كانت القبائل البدوية في نجد وسواحل اليمن بجبالها الوعرة، تتنقل بحرية أكبر وتتحرك تحت تأثير الدعاوى الدينية لكهنة أورشليم، لتصعيد الصراع والمراهنة على المنافسين المصريين. إن توصيف إرميا لفرعون مصر نيخو الثاني في هذه القصيدة بالغ الدلالة: (ثم قولوا لفرعون ملك مصر الزمان يصخبُ). كان إرميا تواقاً إلى سياسات متعقلة تجنب أورشليم الدمار المتتابع والمتوالي، بفعل هذه الرهانات الانتهازية، ولكن آماله سرعان ما انهارت مع تصاعد هيمنة الكهنة على مقدرات الأمور. وسنرى كيف انتهى نهاية محزنة حين جرى اعتقاله واتهامه بالعمالة للآشوريين. في العام ٥٧٠ ق. م نظم المصريون بقيادة الضابط المصري حوفرا- إبريز (٥٨٩-٥٧٠ ق. م) هجوماً جديداً على الساحل اليمني، حيث تمكنت القوات المصرية من السيطرة على وادي

صيد؛ وهو ما اضطر الحاميات الآشورية إلى إخلاء مواضعها والانسحاب من أورشليم- بيت بوس. وعندئذٍ هبَّت القبائل اليمنية المناوئة لبابل للاستيلاء على مقدرات الأمور فيها ونهبها. كان إرميا في قصائده أكثر تحفظاً من جميع الساسة ورجال الدين من القبائل، فلم يسارع إلى تأييد أي حرب بين الآشوريين والمصريين، ولم يُبدِ أي قدر من الانحياز أو الحماسة والتأييد لدعوات الحرب، التي كانت تسمع بقوة في أورشليم بفعل تشجيع الكهنة؛ بل على العكس من ذلك تنبأ بوقوع كوارث جديدة مع كل معركة بين الطرفين. ولكنه في المقابل، لم يتردد في توجيه الدعوات الحارة للقتال دفاعاً عن النفس ضد المصريين. وهذا ما حدث بالفعل، فقد سارع نبوخذ نصر، في أعقاب هذه الحملة مباشرة، إلى إرسال جيش قوي لمحاصرة أورشليم. وعلى امتداد ثمانية عشر شهراً كانت المدينة تنهار من الجوع والخراب، وفي النهاية فر المصريون تاركين المدينة المقدسة لقدرها المحتوم حيث الجوع والدمار. في هذا الوقت كان النبي حزقيال (وكان معاصراً لإرميا وعاش الأحداث) يكتب مرثيته الرائعة عن سقوط صور. ولكن، وكما حدث مع سائر القصائد والمراثي الأخرى، فقد جرى وضع المرثية ضمن التاريخ الفلسطيني بدلاً من اليمني، مع أن صور اللبنانية المزعومة لم تعرف مثل هذا الحصار المدمر؛ وليس ثمة دليل تاريخي أو أثري واحد يؤكد وقوع صور في يد المصريين أو الآشوريين عام ٥٧١ ق.م. لكل ذلك ومن أجل رسم صورة دقيقة عن مجرى هذه الحروب، سنقوم بإعادة ترجمة مرثية صور لحزقيال، التي شوَّهتها الترجمة العربية السائدة، ودمرت معاني كلماتها وأغراضها الشعرية[١]. سنعيد-هنا- وضع الأماكن

(١) بالطبع ليس من مهمتي ولا من واجبي- وليس باستطاعتي بالطبع- تقديم ترجمة شعرية كما يرغب محبو الشعر. تلك مهمة آخرين أكثر خبرة مني في هذا الميدان. ما هو مهم بالنسبة إلى هذا البحث، تبيان نمط الأخطاء في النصوص المترجمة والمحقَّقة، و الكشف عن الفضاء الجغرافي الصحيح للأماكن.

الواردة فيها في جغرافيتها الصحيحة. (ونظراً لطول النص فسوف نكتفي بأهم وأطول مقطع فيها):

النص العبري:

قصيدة حزقيال: ٢٧: ١٤: ١٥

صور-ءت- ءمرتي- ءني- كليلت- يفه

ب-لب- يميم- جبوليك- بنيك- كللو- يفيك

ب- روشيم- م- سنير- بنيو-لك- ءت-كل- لحتيم

ءرز-م-لبنون- لقحو-ل-عستوت-ترن- عليك- ء لونيم

م-بسن-عشو-مشوطيك

قرشك

بت-ءشريم

م- ءيه- كتيم

شش-ب-رقمه-م- مصريم

هيه-م- فرشك

ل- هيوت-لك-لنم

تكلت-وءرنمن-

م- ءيه-ء ليشه

هيه-م-كصف

يشبه-صيدون- وءرود

هيو شطيم- لك

حكميك-صور- هيو- بك

همه- تبليك

زقني- جبل- وحكميه

هيو-بك- محزيقي--بدقك

كل- ءنيوت-ها-يم-وملحيهم

هيو- بك- ل-عرب- ومعربك

فرص- ولود -وفوط

هيو- بحيلك-ءنيشي-م- ملحمتك

مجن-وكويع- تلو- بك

همه- كتنو- ها-درك- بني- ء راد- وحيلك- عل- حومتيك-
صبيب- وجمديم-ب-مجلونيك-هيو- شلطيهم- صبيب-
همه- كللو- يفيك- ترشيش-صحرتك- مرب- كل- هون-
ب- كصف - برزل- بديل- وعفره- نتنو- عزبونيك-
يوان-وتويل- ومشاك- همه- ركليك- ب-نفش- ء دم-
وكلي- نتنو- عزبونيك- وكلي-نحشت- نتنو- م-عربك-
م- بيت-توجرمه- صوصيم- وفرشيم- وفرديم- نتنو-
عزبونيك- بني-ددن- ركليك- ء ييم- رييم-صحرت- يدك-
قرنوت- شن- وهوبنيم -ها- شيبو-ء شكرك- ءرم-
صحرتك- مرب- م-عشيك-ب-جفك- ء رنمن- ورقمه-
وبوص- وءر مون- وكدكد- نتنو- ب- عزبونيك- يهوده-
وء رص- يسرئيل- همه- ركليك-ب- حطه- منيت- وفنج-
ودبش- وشمن- وصري- تننو- معربك- دمسق-صحرتك-
ب-رب-م-عشيك-مرب-كل-هون-ب-يين-حلبون-
وصمر--صحر-ودان-ويوان-م-ءوزال-ب-عزبونيك-نتنو-

برزل-عشون-قده-وقنه-ب-معربك-هيه- ددن-ل-كلتك-ب-بجدي-حفش-ل-ركبه-عرب-وكل-نشيئي-قدر-همه-صحري-يدك-ب-كريم-وءيليم-وعتوديم-بمصحريك-وكل-شبء ورعمه-همه-ركليك-ب-رءش-كل-بشم-وب-كل-ءبن-يقره-وزهب-نتنو-عزبونيك-حرن-وكنه-وعدن-ركلي-شبء-ءشور-كلمد-ركلتك-همه-ركليك-ب-مكلليم-ب-جلومي-تكلت-ورقمه- و-ب--جنزي-ب-روميم-ب-حبليم-حبشيم.

لقد تعرضت هذه المرثية الرائعة إلى تشويه متعمد ومقصود على نحو فاضح، وذلك حين قُرئت على أساس أن المواضع والجماعات الواردة فيها، هي في جزر اليونان وقبرص وفنيقيا؛ وفي بعض الحالات، جرى العبث في النص بتجاهل أسماء وكلمات، لا يوجد مكافئ لها في العبرية. ولذلك سنقوم بتقديم ترجمة، بأدق ما نستطيع، وبأكبر قدرٍ من الأمانة العلمية والأدبية، ومن دون أدنى تلاعب في الفحوى النهائية للقصيدة.

رثاء صور: حزقيال

(صورُ يا من تقولين:

تامة الجمال أنا

وسط البحرِ

أبناؤكِ صنعوا جمالك أشرعة

وفي رؤوس سنيرِ صنعوا الألواح

لك، والصواري صنعوها من أرزة لبنان

ومن شجر البُطم

صنعوا مجاديفك الصلبة في بُسيان

وألواحك صنع سن

يا ابنة السعد

ومن كتيم وأيا

من وَشْيَ المُضَريين

أشرعتكِ

وثياب نومك اللازورد والأرجوان يكون

من أيا و (الليث) والشَّبُ في صيدون

الفضة من أرا د وشطيم

حكماؤكِ يا صور كانوا عرافين

وشيوخ - جُبَل - وحكماؤها

هم فيكِ

مُصلحون مستقيمون

كل بحارة البحر

وملاحيه

فيك خليط

من، لود، وفوط و فَرْشان

هم قوتكِ ورجال حربك

بتروسهم وخوذهم يحرسون الطرق

بنو أراد هم جيشك. فوق أسوارك وحولها. والجَمْديم بتروسهم اللامعة يتنقلون كلهم زينة. من ترشيش تجارك، وكثرة من الأغنياء بالفضة وبالحديد والقصدير والأيائل يعطون

بالمُقايضة. ياون وتُبال ومساك هم تجارك؛ بالنفيس من الأدم وآنية المنجمين يبادلون بضائعك. طيبُكِ من بيت تُجرمه[١]، والخيل والبُسط والبغالُ تُبادلينها بمصنوعاتك. بنو ددن[٢] وتجار أييم الكثرُ يقايضونك. تجار قَرن وسن وما يجلبونه ليديكِ. إرم تجارك يبادلون كثيراً مما تملكين من مصنوعاتك، بالزمرد والأرجوان والمُطرزات وجرار الطين والتيوس والأباريق. يهوذه وأرض إسرائيل كلها تتاجر معك بحنطة منية وفنج. والدبس والسمن والبيلسَان يُعطى بكفالتكِ. دمسق وتجارها، يأخذون من مصنوعاتك في الزمرد والأرجوان والوشي والأباريق والسُّوَيق والتيوس؛ فيعطونها بالمُقايضة. وفرة وجودة في يبن وحلبون وسُمار وصحار. من دان وياوان ومن أوزال[٣] تجودين من قديمك. المصنوعات والحديد المقدود. القنا يكون في بضائعك من ددن و النواميس وأكسية البجاد من حفش وركبة.العرب وكل رجال قيدار هم تجارك يُقايضونكِ في كرم و ءيليم و

---

(١) تجرمة- تجرم: انظر ما كتبناه عن قبيلة جرم.

(٢) ددن: دادان: مملكة عربية قديمة قامت فيما يسمى اليوم (منطقة العلاء) شمال غربي الجزيرة العربية، وكان لها دور كبير في تجارة العالم القديم. ازدهرت دادان على ما ارتأى المستشرق الهولندي فان دين براندن نحو ٨٠٠ ق. م. (انظر كتابه عن ثمود). ومن بين أهم نقوشها المعروفة النقش الذي نقرأ فيه ما يلي (ثرن/بن/حضر/ وتقث/بايم/ قشم/بن/ شهر/ وعبد/ فخت/ددن/) براي. وقد فهم علماء الآثار أن الجدار الذي بناه قشم بن شهر وسجله في هذا النص، هو الجدار الخاص بأورشليم وأن نحميا صدّ جشم/ قشم هذا، وهو المعروف في التوراة بجشم العربي (انظر: اللغة العربية، شرف الدين حسين، مصدر مذكور، ص: ٥٥-٥٦).

(٣) الاسم القديم لصنعاء.

عتوديم. وتجار سبأ ورعمه هم يُقايضونك بمقدم كل عطر. وفي كل أوبن ينادون رائحين غادين: نعطي بالمُقايضة. حران وكنا وعدن يقايضون تجارك، سبأ والشور وكلمد، تجارك بجموعهم وببرانسهم السماوية الموشاة يعتمرونها).

صور هذه - كما وصفها حزقيال- والتي فيها أو حولها أو على مقربة منها، أماكن وقبائل مما يستحيل العثور عليه في صور اللبنانية، أو في صور أخرى، فلسطينية مُتخيَّلة اخترعتها القراءة المغلوطة للأسماء الواردة في هذا النص؛ هي بكل يقين مدينة أسطورية لا وجود لها حتى في أساطير الفينيقيين. مثل هذه المدينة على ساحل المتوسط لا وجود لها. إذ من أين لنا - مثلاً- أن نأتي بسبأ وعدن لتكونا مدينتين فلسطينيتين أو لبنانيتين؟ ومن أين لنا أن نأتي بالجمديم- الجمدان- الأشداء بتروسهم المزينة؟ بفضل هذا الوصف الجميل لزحام التجار في أسواقها العامرة، وبفضل الأسماء التي لا تزال تحتفظ بها أرض اليمن؛ سيبدو لزاماً علينا أن نعيد النظر في الفهم السائد لهذه المرثية. إن تاريخ فلسطين لا يعرف صور هذه، كما لا يعرف الشعوب المتاجرة معها. هاكم أولاً قائمة بأسماء الشعوب والأماكن:

قائمة بقبائل وشعوب مرثية صور

الاسم بالعبرية	الضبط العربي
١ : بسان	بُسيان
٢ : سن	سن
٣ : كتيم (أيا وكتيم)	كتم- وأيا
٤ : لبنان	لبنان
٥ : مصريم	مُضَريون
٦ : الليشه	الليث
٧ : صيدون	صيد
٨ : أراد	أرد
٩ : شطيم	الشطان
١٠ : جبل	جُبل
١١ : فرش	فرش
١٢ : لود	لود
١٣ : فوط	فوط
١٤ : جمديم	الجَمْدان
١٥ : تبال	تباله
١٦ : مساك	مساك
١٧ : ياون	أوان
١٨ : تُجرمه	جرم
١٩ : ءيم	الأيم
٢٠ : إرم	إرم

٢١ : أرض إسرائيل	إسرائيل
٢٢ : يهوذه	هوذه
٢٣ : منية	منية
٢٤ : فنج	فنج
٢٥ : دمسق	دمسق
٢٦ : حلبون	حلبا
٢٧ : سمر	سمر
٢٨ : صحر	صحار
٢٩ : أوزال	اوزال
٣٠ : دان	أذان
٣١ : ء يليم	ءيلين
٣٢ : سبأ	سبأ
٣٣ : عتوديم	العتود
٣٤ : رعمه	رعم
٣٥ : حران	حران
٣٦ : كن	كنا
٣٧ : عدن	عدن
٣٨ : ددن	دد
٣٩ : ءبن	أوين
٤٠ : ترشيس	ترشيش
٤١ : كرم	الكرم
٤٢ : ركبه	الركب
٤٣ : حفش	حفاش

إذا كنا نحتكم إلى التاريخ المكتوب؛ فإن حادثاً تاريخياً من هذا النوع (نعني سقوط مدينة صور اللبنانية بعد قتال رهيب بين المصريين والآشوريين) لم يقع بكل تأكيد. ولم يحدث-قط- أن استولى الآشوريون أو المصريون على الميناء بعد معركة ضارية بين الطرفين، في أي وقت من التاريخ المحدد من جانب علماء التوراة والذي سنعيد تحديده هنا. كما لم تقع مجابهة مصرية-آشورية فوق أرض لبنان. وإذا ما احتكمنا إلى الجغرافية؛ فإن صور اللبنانية هذه لا تعرف اسم موضع أو قبيلة مما في القائمة. ولكن؛ إذا ما قمنا بوضع القائمة في إطارها الصحيح وفي بيئتها الحقيقية، فسوف نعثر بكل تأكيد على أسماء الجماعات والممالك الصغيرة والقديمة (المخاليف) والمدن والقبائل؛ وهي تتاجر، بالفعل وكما تقول القصيدة مع صور اليمنية داخل جغرافية اليمن وشمال الجزيرة العربية. (بعض ما نسجله في هذه القائمة سبق ذكره فلا حاجة للتكرار). لقد تم التلاعب بأسماء شعوب وجماعات وقبائل بطريقة مُهينة للعلم والأمانة العلمية في التحقق والترجمة، وذلك من أجل مُطابقتها مع الرواية الغربية عن وجود صور إسرائيلية. ومن بين القبائل والشعوب التي تعرضت للتشويه والزج بها في التاريخ الإسرائيلي الجماعات التالية: سبأ، وبنو دان وددن وإرم وفوط وسواها. سنقوم -هنا- بإعادة توصيف مواضع وأوطان الشعوب القديمة في إطار توصيف صور اليمنية، أشهر مدن اليمن والتي دارت حولها أساطير العرب القدماء (انظر ما كتبناه عن صور في منازل الأسباط وانظر الخريطة). تقع صور حسب وصف الهمداني (صفة: ٢٠٣) في مخلاف-مملكة جيشان الذي اختفى وتلاشت قبائله -ما يُعرف اليوم بقعطبة-. وهذا المخلاف اشتهر بازدهار تجارته كما تدلل على ذلك الآثار المتبقية. يقول الهمداني ومحققه ما يلي:

ويُعد من مخلاف جيشان حجر وبدر وصور، وثريد وبلد بني حبيش والعود (هامش المحقق: ٢٠٢: اختفى اسم هذا المخلاف لاختفاء مدينته التي كانت زاخرة بالمعارف والتجارة).

وللتحقُّق من وجود صور اليمنية التي اشتهرت بالتجارة في اليمن القديم؛ فإن وجود سلسلة المواضع والشعوب الواردة في القائمة، سيكون أمراً حاسماً إلى جانب تأكيد محقق الهمداني بأن التجارة كانت مزدهرة هناك، وهذا ما يتوافق مع توصيف الشاعر لها. وسنبدأ من اسم جبل فوط -فوط الوارد في سفر التكوين. إن تاريخ فلسطين لا يعرف اسم هذا الجبل ولا الشعب القديم الذي أقام فيه، ويُرسم في اللغة العبرية في صورة فوط، بينما نجده -في تاريخ اليمن- بالاسم نفسه (جبل فوط) في مخلاف خولان القديم - جولان التوراة. وهذا الجبل كان يُعد من الجبال المعروفة بغزارة المياه فيه. هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٣٨):

ذوات النبع منها وخاصة من بلد خولان: فوط وعرامي والدبر وعرو وهنوم من بلاد همدان.

ها هنا شَعب فوط القديم الوارد ذكره في سفر التكوين كشعب قديم، وهو يشخص أمامنا في الفضاء الجغرافي نفسه لميناء صور الذي سقط في أيدي الآشوريين. وفي ظاهر بلد همدان كما يقول الهمداني عاش شعب صغير آخر تسميه التوراة وقصيدة حزقيال: جمديم- جُمدان، من صيغة التثنية أو الجمع في العبرية للاسم جمد-. إليكم وصف وتحديد وطن هذا الشعب الصغير في بلد همدان، على مقربة من صور و فوط تماماً كما في القصيدة (صفة: ٢٢٠-٢٢٢):

أول حدود حاشد رُحابة وما وراءها إلى صنعاء ثم البون. أما البون فقراه مساك (..) وما بين حدود رَيْدة إلى ورور من ولد عمرو بن جشم بن حاشد. وبأكانط الميح وبيت الجالد وجرفة حاشدية بوسانية (أي من بيت بوس). وسنام الظاهر بلد وادعة بن عمرو بن جشم بن حاشد وهو من جُمدان. (جُمدان: لا تزال تحتفظ باسمها في أرض بني صريم. المحقق).

هذه هي مساك-مساك رقم: ١٦-وها هنا جمديم-جُمدان في ظاهر همدان، وعلى مقربة من فوط وصور. إن جمديم-جُمدان التي لم يدرك المترجمون ادراكاً صحيحاً مغزى وجودها كاسم في سياق القصيدة، فقاموا برسمها- داخل النص- في صورة الجمادون؛ كانت مصدر إغراء شديد عند محققي التوراة من أجل تصوير المدينة كمدينة فينيقية مجهولة. هاكم ما كتبه محققو التوراة عن جمديم-جُمدان (انظر سفر حزقيال: ٢٦: ٢١ : ٢٧ : ١٢)

(الجمادون- جمديم- سكان مدينة فينيقية مجهولة)

على هذا النحو يصبح الجمديم شعب مدينة فينيقة مجهولة، لا لسبب منطقي؛ بل لأن الاسم مثير للخيال ولا معنى له في العبرية.

وهاكم هذه المقاربة بين نصوص التوراة والهمداني حول ابن حاشد:

سفر الملوك الثاني (٣: ٢٥: ٤: ١٣)	الهمداني (ص: ٢٢١)
و-لشلمه- شنيم-عشر- نصيبيم: بن- حاسد..إلخ	بن حاشد إلخ..
(ولسليمان اثنا عشر عاملاً: ابن حاشد إلخ..)	

جرى، في مناسبات مختلفة كما رأينا، إرغام الجغرافية على التطابق مع المخيالية الغربية التي قرأ بها المحققون النص التوراتي.بما أن صور التوراة هي مدينة صور اللبنانية، ففي هذه الحالة يجب أن يكون هناك شعب مجهول ومدينة مجهولة، كان بحارتها يمخرون عباب المتوسط من أجل توثيق الصلات التجارية، مع إسرائيل القديمة القاطنة في صور؟ في الواقع ليس ثمة جمادون مجهولون، بل هناك بنو جُمدان وهم بطن من حاشد (انظر المقاربة بين بن حاشد في قصص سليمان النبي وعند الهمداني أعلاه). والمثير للاهتمام أن جمديم العبرية لا يمكن رسمها في صورة (جمادون) وإنما في صورة جُمدان. تبدأ مرثية حزقيال بمقطع يتغنّى فيه بجمال المدينة العامرة المزدهرة؛ فهي تعيش وسط رعاية حنونة من سكانها والمتاجرين معها، وهم جميعاً يحرسونها ويقومون على خدمتها ورعاية جمالها والحرص عليه. لقد صنعوا أشرعتها من الكتان المُضَري المطرز والموشى بألوانه الجميلة؛ ونحن نعلم من تاريخ القبائل العربية القديمة أن مُضَر كانت تُدعى مُضَر الحمراء لشهرتها بالمنسوجات القرمزية المُوشاة، أو ما يُدعى القباب الحمراء. هذه القباب -الأشرعة والخيام- جزء من صناعة تقليدية ازدهرت على الساحل اليمني، قوامها الكتان المصبوغ. ولذا؛ فإن المقصود بـ (مصريم) عند حزقيال لا ينصرف إلى مصر البلد العربي، بل هي قبيلة مُضَر الشهيرة. أما جُمدان فهي التي قال فيها كثير (صفة: ٣٤٧ -واضعاً إياها قرب صحر - صحر رقم ٢٨):

أقامَ على جُمدانَ يوماً وليلة فجُمدانُ منه مائل مُتقاصرُ

وعرَّسَ بالسكران يومين وارتكى وجرّ كما جرّ المكيثُ المسافر

ومنه بصحر المحو زُرق غُمامةٌ له سَبلٌ وأقورٌ منه الغفائرُ

هذا هو جبل جُمدان-جمديم على مقربة من صحر، تماماً كما في قصيدة حزقيال. وإلى هذا كله؛ فقد صنع محبو صور صواريها من خشب أرزة من أرزات جبل لبنان، ومجاديف بحارتها من أشجار البُطم في بُسان-بشان؛ وهذه بالطبع جبال يستحيل أن تكون لها صلة جغرافية بمصر البلد العربي. (وكنا حددنا جبل لُبنان وبسان والسن والليث- ءليشه). يقع وادي وجبل بسان- بُسيان على مقربة بالفعل، من جبل لبُنان بالنسبة إلى السائر من وادي نخلة قاصداً وادي الرمة. وبُسيان هذا هو الذي قال فيه ذي الرمة (صفة: ٢٥٦-٢٥٧):

عَشتْ مِن مِنى جُنْحَ الظلامِ فأصبحت   ببُسيانَ أيديها مع الشرق تلمعُ

(ثم بطن نخلة، ثم تهبط السي ثم أسفل منه بُسيان. وأسفل من بُسيان النثراوات وهن هضاب ثلاث وعند منقطع الحرة زرود)

في هذا الإطار يقول محققو التوراة عن موضع كتيم-كتيم (رقم ٣) والتي فُهمت على أنها كتيم الإغريقية ما يلي:

(تدل كلمة كتيم هنا لا على سكان قُبرس وحدها؛ بل تدل على سكان سائر جزر وشواطئ البحر المتوسط أيضاً)

هذا التلفيق الجغرافي يُلائم مخيلة كولنيالية سقيمة بالشرق حقاً؛ إذ لايكفي أن تكون سائر المواضع في فلسطين، وإنما ينبغي العثور على صلات ووشائج لإسرائيل القديمة بسكان البحر الأبيض المتوسط؛ فهاهم تجار كتيم المجهولة يتقاطرون على مملكة داوود، لكي يُزيِّنوا صور التوراتية بالأشرعة والصواري الموشاة وحاملين لها بضائعهم. في الواقع لا توجد جزيرة فينيقة-إغريقية بهذا الاسم. إن كتيم التوراة المجهولة والتي

لايعرفها أحد، ليست سوى موضع كتم الذي عرفته قبائل العرب في طفولتها البعيدة بوصفه مسيل مياه في ديار ذبيان، وقد وصفه الهمداني (صفة: ٢٩٨) على النحو التالي:

وكتمان[1] ماء (..) المتثلم، وعوق والمخاضة والطمعاء في ديار ذبيان.

ليست كتيم جزيرة يونانية كانت تتاجر مع صور، وليست اسماً دالاً على كل الجماعات المتوسطية؛ بل مياه نزلت عندها القبائل وصارت من مواضعها. ها هنا موطن من مواطن ذبيان القبيلة العربية القديمة، يُدعى كتيم- الكتمانيون. والمثير للاهتمام أن الاسم يُسجل بالتلازم مع اسم مسيل مياه يدعى أيا. وسوف نتحدث عنه مطولاً فيما تبقى من منازل الأسباط. وإذا ما سلمنا جدلاً بأن كتيم هذه اسم دال على شعب يوناني؛ فأين سنجد أيا في اليونان؟ وهل يمكن العثور على مسيل مياه أيا على مقربة من مسيل مياه وادي كنا-كنا (رقم ٣٦)؟ ليس في جزر البحر الأبيض المتوسط ولا على ضفافه وسواحله، ولا في فلسطين كلها طولاً وعرضاً مثل هذه الوديان الثلاثة، فيما هي قرب بعضها في اليمن القديم. إليكم وصف الهمداني للمكانين (صفة: ٢٨٤):

وأيا، وملاحا ورهنة واقة يهريق في نعمان ثم إلى مذاب وحام الأعلى وكنا.

توضح جملة التوصيفات الفكرة التالية: إن المواضع الواردة في القصيدة ليست مجهولة، وفي الوقت عينه ليست لها أدنى صلة باليونان؛

---

(١) أصل الاسم (كتم) وفي النطق الكلاعي: كتمن. مثل صنعا: صنعن.

بل هي مواطن القبائل العربية-اليمنية. هل من المنطقي القول مثلاً: إن مملكة سبأ (رقم ٣٢) وعدن (رقم ٣٧) وأوزال (رقم ٢٩) ومنية (رقم ٢٣) وفنج (رقم ٢٤) وهي أسماء يمنية معلومة، كانت لها علاقات وصلات تجارية مع قبرص وجزر اليونان عبر صور اللبنانية؟ هذا أمر خارج كل منطق ولا يوجد دليل واحد على صحته، لأن سواحل البحر الأحمر تصبح -في هذه الحالة- غير ذات قيمة تجارية، ويجب من ثم أن نُسقطَ من التاريخ كل مبررات وأسباب ودوافع، الصراعات الدامية والحملات والحروب التي دارت من أجل السيطرة عليها؛ بما فيها الحملات اليونانية بقيادة الإسكندر المقدوني، ثم حملات قادته وورثته في العصر الإغريقي-الروماني؟ كل هذا يعني أن المقصود بالفعل، صور أخرى تغنى بها ورثاها شاعر قديم على سواحل البحر الأحمر، وهي بكل تأكيد صور التي يعرفها سكان مملكة سبأ ووادي عتود ومخلاف العود ووادي مذاب وأيا ومياه كتم إلخ. إن أوزال-أزال، مثلاً، والتي لا يمكن الافتراض بوجودها في اليونان أو قرب صور اللبنانية، هي الاسم التاريخي لصنعاء القديمة التي اشتهرت باسم بلاد المصانع، كما في حديث للرسول ﷺ -انظر أوزال في سفر التكوين- وهذا أمر مشهود ومعلوم. يقول الهمداني (صفة: ١٠٢):

مدينة صنعاء وهي أم اليمن، لأنها في الوسط منها ما بينها وبين عدن وكان اسمها في الجاهلية (أزال).

إذا كانت أحداث القصيدة تدور في فلسطين؛ وهي مكرَّسة لرثاء صور اللبنانية المُحترقة والمُستولى عليها من قبل الآشوريين؛ فما صلة عدن وأزال وسبأ؟ وهل نجد فَنَجْ في لبُنان (فنج رقم ٢٤ في القائمة أعلاه) أو موضعاً يُدعى (مَنْيَة) اشتهر بتجارة الحنطة؟ هاكم وصف الفَنَجْ اليمني على الساحل (صفة: ١٣٣-١٣٢):

وادي زبيد وأول مسايله من ذي جُزُب ويضمها سيل نعمان ويجمعها الفنج فيسقي جميع ماحف به إلى البحر (..) ثم يتلوه وادي سهام وأوله نقيل السود من صنعاء (أزال - المؤلف) ثم يتلوه وادي سُردد وبلد الصيد.

هوذا فَنَجْ حزقيال على البحر تماماً كما في القصيدة، وهناك غير بعيد عن مدينة أزال القديمة-صنعاء، وإلى الغرب منها صيد-صيدون ثم وادي النعمان. كان حزقيال يرثي صور اليمنية ويتغنّى بجمالها السليب، ويسجل أسماء الجماعات والشعوب القاطنة قربها أو المتاجرة معها، كما يصف الأماكن التي ارتبطت معها تجارياً، ولم يكن ليخطر له بالطبع، أن تؤدي تراكيب الأسماء -في قصيدته- إلى مثل هذا الالتباس (وكنا أشرنا إلى مَنْيَة في أكثر من مكان). أما سبأ القبيلة ثم المملكة تالياً أو المخلاف؛ فإن بطوناً منها كانت تقيم قرب صور بالفعل (صفة: ٢٠٢-٢٠٣):

ومن مخلاف رُعَين بنا وميتم وماوة وكان ملوك رُعَين من سبأ الصغرى ومخلاف جيشان: حجر وبدر وصور.

هل يمكن لعاقل أن يضع سبأ على سواحل المتوسط؟ الخيال وحده يسمح بمثل هذا التصنيف الجغرافي للمدن والشعوب القديمة. هذه هي صور التوراة.

صراع المُضَريين واليمنيين

قبل أن نعرض لأشكال الأغْرَقة -من الإغريق[١]- التي قام بها المخِيال الغربي لجميع، أو بعض المدن والجماعات في النص الآنف (قصيدة رثاء صور لحزقيال) سنشير وحسب، إلى حقيقة من حقائق الصراع الذي نشب بين اليمنيين الجنوبيين ومن بينهم قبائل بني إسرائيل، وبين خصومهم من العرب الشماليين؛ وبشكل أخص قبائل مُضَر وبطونها (المضريون- مصريم في التوراة). هذا الصراع الذي تُسهب التوراة في تفاصيله، يجب أن يُحيلنا إلى الصراع القديم والمستمر مع الإسلام، بين اليمنيين القحطانيين والمُضريين-القيسيين[٢]. وعلى درجة فهم هذا الصراع ودرجة المعرفة الخلاقة بظروفه التاريخية وبواعثه الثقافية، واستيعاب دلالاته حتى في أبعادها الأسطورية؛ سيتوقف وإلى حد كبير فهم نصوص التوراة ومعرفة التمايز الدقيق، بين الطريقة التي يرسم فيها اسم مُضَر القبيلة ومثيلتها في اسم مصر البلد العربي، فهما يرسمان في صورة واحدة: مصريم. ولكنهما يدلان على اسمين مختلفين في النهاية. وهو ما أدى ويؤدي إلى سلسلة من الالتباسات في المقاصد.ما من قارئ للتاريخ العربي إلا ويعرف الكثير عن الصراع بين القحطانيين اليمنيين الجنوبيين وخصومهم العدنانيين -المُضريين- الشماليين. ويكفي التذكير أن هناك أدباًكاملاً صور هذا الصراع أو التنازع، لا يزال يعرف بأدب المفاخرات الشعرية، وكان مزدهراً حتى الإسلام المبكر ثم ازدهر في البلاطين الأموي والعباسي. (سنعود إلى هذه المسألة بالتفصيل في الكتاب القادم) سنعرض -هنا- لبعض أشكال الأغْرَقَة التي قام بها المخيال الغربي،لطائفة من القبائل والشعوب اليمنية-التوراتية، في سياق إرغام

---

(١) انظر الكتاب الخامس (التوراة الإغريقية).

(٢) انظر كتابنا: شقيقات قريش - مصدر مذكور.

منطوق قصيدة حزقيال على التأقلم مع الوظيفة الاستشراقية المُناطة به. يكتب محققو التوراة في تعريف اسماء دان وددن وياوان ما يلي:

(ياوان: أي بلاد اليونان لا بل الغربيين عموماً. توجرمة: يُرجح أنها أرمينيا. تصويب في كلمة ويدان بدلاً من ودان. صيدون وأراد: هاتان المدينتان الواقعتان على الشاطئ الفينيقي تعترفان بقدر كثير أو قليل بسيادة صور الاقتصادية. جبل: هذه بيبلوس جبيل في أيامنا وهي مدينة فينيقية أيضاً: راجع ص: ١٨١٣ و ١٨١٤ من الهوامش في طبعة التوراة: مصدر مذكور).

هذا النموذج كافٍ بحد ذاته للبرهنة على الطبيعة الماكرة والمُخادعة للترجمة العربية. لقد أصبحت دان في صورة ودان، وجُبل في صورة بيبلوس أو جبيل اللبنانية، وتوجرمه- تُجرمه في صورة مدينة في أرمينيا. أما صيدون فتحولت بدورها من مدينة إسرائيلية إلى إغريقية. إن الشرح الآنف الذي نقتبسه من الطبعة العربية لا يستحق الكثير للرد عليه ودحضه بسهولة، لأنه مبني على تصورات هشة وتلفيقية. ليست هذه مدناً إغريقية؛ بل هي مواضع وشعوب وجماعات يمنية مندثرة، لا تزال بقاياها هناك. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٨٦-١٨٧) بصدد (جُبل) الواردة في القصيدة على مقربة من وادي قَرَن:

وصف ردمان: قَرَن سبعة أودية كبار منها المأذنة والعولة والحجلة أهلها أخلاط من مراد وحمير. طريق السرو والرباحة وجُبل يفترقُ منه أودية يسكنها رُهاء.

هذه هي جُبل في السرو ذاته الذي نجد فيه مدينة صور اليمنية؛ وهي ليست بكل يقين في البحر الأبيض المتوسط. وإلى الجوار منها وادي قَرَن

الكبير، الذي تمت مكافأته في النص العربي بجملة غريبة تقول (فكانت تسلمك قرون العاج). تخيل المترجمون (قرنوت) العبرية بضاعة من قرون العاج؛ مع أن النص العبري لا يتضمن أي معنى من هذا القبيل في جملة: (صحرت- يدك- قرنوت -شن- ويهو-بنيم) والجملة تفيد ما يلي (تجار قَرَن، وسن وما يجلبونه إلخ..). ولأن محققي ومترجمي التوراة لا يدركون أن وادي قرن وجبل سن، هما موضعان كانت لهما روابط تجارية بالفعل مع صور، بفضل القرابة الجغرافية التي تربط سائر الأماكن والمنازل القبلية المتجاورة، فقد وقعوا في الخلط والوهم. وكما هو واضح فليس ثمة إشارة بالعبرية لكلمة عاج، بينما تعطي كلمة شن العبرية معنى كل ما هو بارز شبيه بالسن وهو وصف يقصد به صخور الجبل عادة. إليكم وصف الهمداني لصور اليمنية قرب قَرن وأوديته الكثيرة العامرة (صفة: ٢٠٣-٢٠٤):

وصور وحضر وثريد وبلد بني حبيش (..) أما قَرَن فقد يُعد إلى مأرب وحريب وبيحان وقد يُعد إلى ردمان.

ليس ثمة قرون عاج ولا وجود لمدن فينيقية تتاجر معها صور. كل ما في الأمر أن حزقيال كان بصدد الإشارة إلى تجارة صور اليمن مع المخاليف المجاورة لها، ومنها سبأ ووادي قَرَن (لا حاجة هنا للتذكير بأن المقصود من يهوذه: سرو حمير). أما إرم التي سبقت الإشارة إليها في هذا الكتاب، فهي على مقربة بالفعل من أودية قَرَن. إليكم هذه المقاربة:

حزقيال:	الهمداني (١٥١):
تجار قرن (..) إرم	إرم (..) والكور
تجارك يبادلون (....)	جنوبي السرو (..) ويسقيه جبال قَرَن.

تُفصح هذه المُقارية، وبأقصى قدر من الوضوح عن المقاصد الفعلية، لا المُتخيَّلة في القصيدة. ومن غير شك؛ فإن بناء النصين -هنا- يكشف عن تقاليد السرد العربي القديم الذي يهتم، بصورة استثنائية وغير مألوفة في الآداب الأخرى، بوصف وتحديد المواضع والأماكن على نحو شديد الدقة والصرامة. في هذا الإطار سنتوقف عند عتوديم-العتود (الميم هنا أداة التعريف المنقرضة عند اليمنيين) وحلبون-حلب، ويَيْن (التي تحولت إلى خمر عند محققي الكتاب المقدس وهذا أمر غريب، لا لشيء إلا لأن يين العبرية يمكن أن تعني خمر، ولكنها تشير إلى اسم مكان اسمه يين[١]) الاسم عتوديم اسم وادي كبير يُدعى العتود وهو يقع قرب حلبا وفي الوزن العبري حلبون وزن صيدون. وبما أن العبرية لا تعرف الخاء المعجم فهي تستعيض عنه بالحاء المهمل- هاكم وصف الهمداني للمكانين (صفة: ١٣٥- ١٣٦):

ثم خُلبْ وهو الذي يشرع على جانبيه ومآتيه من البار، وفروعه من رأس خُلبْ من سراة خولان إلى البحر ثم بعد وادي خُلبْ وادي جازان ثم عتود.

ها هنا وادي خلبْ-حُلبْ (وفي البناء العبري: خُلبون مثل صيد: صيدون) وها هنا وادي العتود-عتوديم ومنه اسم النسبة: العتوديون على مقربة من البحر تماماً. ولأجل مزيد من الإيضاح بشأن الصلات والروابط الجغرافية والتجارية بين الأماكن القديمة الواردة في مرثية صور هذه، إليكم وصف الهمداني للساحل اليمني من تهامة (صفة: ٢٣٣-٢٣٤):

بلد بني مجيد وبلد فرسان على محجة عدن إلى زبيد، المندب والمخا ساحلا بني مجيد والفرسان ثم المهجم عاليتها إلى خولان

(١) انظر ما كتبناه عن يين في (قصة حب في أورشليم) مصدر مذكور.

وسافلتها لعك ووادي حرض و-ويلد- حيران ووادي خُلبْ -ثم - وادي عتود.ثم بلد حرام من كنانة والليث.

في هذا النص المكثف، لدينا المواضع التالية الواردة في قصيدة حزقيال: ها هنا مخت-المخا في قائمة الكرنك[1] على مقربة من مياه ساحل بني مجيد، حيث دارت المعركة الكبرى هر-مجدو، وها هنا بلد فرسان- فرَس ورجاله يملؤون المدينةوالساحل، حيث يعملون كأجراء في الميناء، سوية مع لود وفوط (انظر لود عندنا في منازل الأسباط وكذلك فوط في هذا الفصل). وإلى هذا كله نلاحظ في هذا النص وادي خُلبْ- خُلبون ووادي العتود-عتوديم، كما نلاحظ حران-حيران التي زُعم في القراءة الاستشراقية للتوراة أن المقصود بها حران الجزيرة الفراتية -ضمن الأراضي التركية اليوم-. هذه هي شعوب ومواضع الساحل الذي وصفه حزقيال. وبالطبع، ليس ثمة جماعات يونانية كما لا وجود فيه لمدن فينيقية. وإذا ما مضينا في الساحل قُدماً، فسوف نصل مضارب مُضَر الحمراء سيدة الساحل الطويل، والذي ورثته أكبر بطونها كنانة قبل هجرتها إلى شمال الجزيرة العربية (ومن كنانة هذه ولدت قريش). ها هنا أخيراً ساحل الليث-ء ليش-أو الليش في صيغة توراتية موازية. أما تُبال- تبال فليست بكل تأكيد مدينة يونانية، بل هي وادي تُباله إلى الشرق من نجد. قال طُرفة بن العبد (صفة: ٢٨٨):

رأى منظراً منها بوادي تُبالة   فكان عليه الزّادُ كالمُقْر أو أمرّ

أقامت على الزعراء يوماً وليلة   تُعاورها الأرواح بالسقي والمطر

يتبقى الآن التوقف عند الجماعة التي تسميها القصيدة: بيت تُجرمه. بكل تأكيد ليس ثمة بيت-قبيلة قديمة تحمل هذا الاسم سوى بيت قبيلة

(١) انظر ما سنكتبه لاحقاً حول قوائم الكرنك المصرية.

تجرم-جُرم القبيلة اليمنية الشهيرة (الجُرميون) وهذه واحدة من القبائل المعروفة جيداً في التاريخ العربي[1]. أما ودان-أودان فهم عند الهمداني بنو أود- أودان، بطن من مذْحج يقيمون في ردمان على مقربة من وادي قَرَن. هاكم ما يقوله (صفة: ١٨٦-١٨٧):

> **قَرَن سبعة أودية كبار، أهلها أخلاط من مُراد من حمير، رجع إلى صفات الميمنة: قصص لرُهاء ولبني زائدة من أود ذو الجثا لألوذ من أود، ولهم برم وشوكان فالرحبة إلى حصي وهي مدينة شمر تاران وهي اليوم للأوديين.**

هذه هي مساكن الأوديين-ودان في المكان نفسه لسائر المواضع الواردة في القصيدة؛ وهؤلاء ليسوا جماعات يونانية جاءت للتجارة مع صور؛ بل هم جماعات قبائلية من اليمن القديم مثْلهم مَثَل بني ددن-عند الهمداني بني دد، أقاموا في تهامة على مقربة من الساحل وقرب جلجل- جلجل عند يشوع. قال الراجز اليمني أحمد الرداعي مخاطباً ناقته (صفة: ٤٠٠):

ثم أصدري منه إلى هرجاب لبني ددٍ فجلجل الأحزاب

هؤلاء هم بنو دد- ددن بالنون الكلاعية[2]، الذين كانوا يتاجرون في

---

(١) في النقوش التي تركها المعينيون والثموديون واللحيانيون والسبئيون وسائر الجماعات القديمة الأخرى، يمكن التعرُّف على أشكال وطرق الكتابة الأولى عند القبائل. إن زيادة التاء في أول الاسم أو الكلمة، أو زيادة التاء في آخر الاسم مع هاء أخيرة، هو تقليد ثقافي معروف عند أهل الاختصاص. مثل (ودد/ نثلت/ مصلت: نثال أحب مصلية. نقش SH -139). أنّ التاء غالباً ما تلحق الاسم المؤنث بدلاً عن الهاء عند الشماليين والجنوبيين.

(٢) ذو كلعن. ذو الكلاع، ورد ذكره في نقوش اليمنيين. وذو من أدوات التذكير (ذ) بمعنى صاحب، إله. والمخلاف اليمني المعروف باسم مخلاف الكلاع جاء من اسم المعبود.

ميناء صور ومعها في السرو ذاته: سرو حمير. وإذا ما وضعنا سائر الأماكن والقبائل الواردة في قصيدة حزقيال في بيئتها الأصلية -اليمن القديم- فإن المرثية ستكون بحق مرثية صور اليمن، التي واجهت قدرها ببسالة حين اشتبك الآشوريون والمصريون، مراراً وتكراراً فوق صخورها وعلى أسوارها من أجل الاستيلاء عليها. يكفي التذكير هنا أن الرومان نفذوا نحو العام ٥٠ ق. م إنزالاً بحرياً ناجحاً واستولوا على ميناء عدن، وأن أمراء الطوائف في هذا الوقت حين تمزقت اليمن وتلاشت دولته المركزية ذهبوا لاستجداء عطف روما. يقول حزقيال عن ددن (دن لآنيتُكِ، ومن البجاد: حفش إلى ركبه)[١]. ولأن المترجمين لم يُحسنوا فهم كلمة بجاد في النص، كما لا يوجد لديهم مكافئ لكلمة حفش أو ركبه، فقد قاموا بإهمال بعضها وترجمة البعض الآخر بطريقة اعتباطية. والبجاد نوع من أكسية وأغطية البدو والأعراب تمتاز بخطوطها العريضة الزرقاء (وهذه حولها المخيال إلى تعبير رمزي عن نهري النيل والفرات حتى شاع هذا الوهم في الأوساط العربية إذ تُصور الأغطية التي يرتديها المصلون اليهود عند حائط المبكى بأنها ترمز في خطوطها الزرقاء إلى النهرين، فيما هي الأغطية البدوية ذاتها التي اشتهرت بها قبائل اليمن ومنها تميم). ولذلك؛ إذا ما تخيلنا على غرار ما فعل الاستشراقيون، أن صور اللبنانية كانت تشتري أغطية البدو المعروفة باسم البجاد من مملكة ددن اليونانية المزعومة، فإننا في هذه الحالة سنقلب التاريخ والثقافة رأساً على عقب، وتصبح اليونان في العام ٥٧١ق.م بلداً بدوياً يُصدّرُ للبنانيين الفينيقيين أكسية بدوية؟ بينما على العكس من ذلك، ستكون الإشارات الشعرية في مرثية حزقيال مقبولة ودقيقة، لأنها تعطينا فكرة موجزة عن تجارة قبيلة ددن

(١) في نقش دداني- لحياني وجد علماء الآثار هذا النص محفوراً على قبر (كيرال بن متاع إل ملك ددان: كهف كيرال بن متع ملك ددان).

البدوية المُقيمة في تهامة مع صور الساحلية، مثلها مثل سبأ وعدن وأزال-صنعاء. أما حفش- الرقم الأخير في قائمتنا -التي استعصت على المترجمين، فليست سوى جبل حفش في سراة المصانع من صنعاء. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٢٣-١٢٤):

> ثم يتصل بها سراة المصانع وأعلاها جبل حضُور وبيت أقرع والماعز وحفاش.

جبل حفش-حفاش هذا يعرف موضع سن، وهما اليوم قريتان متقابلتان أعلى نقيل العوله-العاله في التوراة، والقريتان تطلان على البون إلى الجنوب الغربي من صنعاء، ويعرفهما اليمنيون باسم السنّتان-تثنية سن. وإلى هذا كله؛ فإن جبل حفش يمكن الوصول اليه من طريق بيت مساك-مساك. وهنا وصف الهمداني للجبال والمواضع (صفة: ٢٢٠-٢٢٢):

> ثم البون و هو من أوسع قيعان نجد اليمن، ومساك، وما بين حدود رَيْدة إلى ورور للصيد من ولد عمرو بن جُشم بن حاشد[1] والسنتان - تثنية سن: المحقق- وهذه المواضع زاوية من تهامة داخلة بين جبال السراة لهمدان وحِمْيَر، فأما جبال حِمْيَر من جنوبي هذه الزاوية فريشان وجبل حُفاش.

من المؤكد أن صور اللبنانية أو حتى صور فلسطينية أخرى مُتخيَّلة، هما أبعد ما تكونان عن الحاجة إلى تجارة البجاد، الخاصة حصراً بالبدو والأعراب، وأبعد ما تكونان عن المتاجرة مع قبيلة ددن أو مع جبل حفش

(١) ورد اسم حاشد في نقش من نقوش المسند اليمنية في صورة: حشدم. الميم والنون تقوم أحياناً مقام الذال.

بهذا النوع من البضائع؛ بل إنَّ صور اللبنانية لا تعرف اسم حفش في جغرافيتها القديمة ولم يسمع به سكانها. أما ركبه فليست سوى جبال ركب اليمنية التي تقع صور قربها تماماً. هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٠٣-٢٠٤):

> **ويُعدّ من مخلاف جيشان صور (...) -ثم - مخلاف مأرب. ومأرب بحذاء صنعاء شرقاً، وأما قَرَن فقد يُعد إلى مأرب وقد يُعد إلى ردمان والمخاليف التي بين المعافر وصنعاء غرباً: بلد الركب وهو بلد آل أبي النمر الركبيين.**

هذه هي صور التوراة- اليمنية التي رثاها النبي اليمني حزقيال.

الفصل العاشر

الحملات المصرية على الجزيرة العربية واليمن في القوائم الفرعونية (قراءة جديدة لسفر الأخبار الثاني)

هناك ما يشبه الاتفاق بين علماء المصريات؛ على أن حملات سنوسرت الأول كانت موجهة صوب البحر الأحمر. كما يوجد شبه اتفاق، مماثل، على أن حملة الفرعون المصري تحوتمس الثالث بلغت بلاد البونت -وهي بلاد البون الأعلى والبون الأسفل في اليمن (كما برهنا: البونت -البون بإلحاق التاء اليمنية كما في النقوش والمساند الحميرية المكتشفة مثل قرشت في قريش، بون- بونت). في المقابل؛ ليس هناك أي شكل من اشكال الاتفاق المُحتمل على مكان ومسرح الحرب الحقيقي؛ إذ مع هيمنة الرواية الاستشراقية- التوراتية على التاريخ، جرت أكبر عملية تحريف عرفتها البشرية، تمّ بمُقتضاها وضع أسماء الأماكن الواردة في قوائم الغنائم والتي تُزين جدران معبد الكرنك المصرية، داخل التاريخ الفلسطيني بدلاً من مكانها الصحيح التاريخ اليمني، وفي مكان هو السراة اليمنية والبحر الأحمر. ومع أن العلماء فشلوا حتى اللحظة، في البرهنة على وجود اسم واحد من هذه الأسماء

في فلسطين، فقد تواصل تنسيب هذه الأماكن إلى التاريخ الفلسطيني دون وجه حق. بذلك تم اختراع فلسطين تورتية فيها أسماء لا وجود لها في جغرافية فلسطين التاريخية. ونظراً لطول القائمتين المعروفتين باسم قائمة نهاريا الشمالية وقائمة مجدو (انظر ما كتبناه عن معركة مجدو التي يقول المصريون إنهم خاضوها ضد الحاميات الآشورية هناك). هاكم نصاً مُختصراً لهما :

قائمة الكرنك/مجدو كما سجلها المصريون

قائمة الكرنك - مجدو	الضبط العربي
١ : قدش	قَدَس
٢ : مكت	مخت - المخا
٣ : خطي	خطي
٤ : عنسو	عنس
٥ : قصر	قصر
٦ : ء تر	وتر
٧ : ء بر	أبير
٨ : حمت	حمة
٩ : عقدو	عقد
١٠ : شمن	سمن
١١ : تبي	تبي
١٢ : ء م سن	أم السن
١٣ : قنو	قني
١٤ : عرن	عرنه

١٥ : ء تمم	الإتمة
١٦ : ء كسف	ء كسفه
١٧ : تعنك	تعناك
١٨ : عين	عيان
١٩ : عكأ	عك
٢٠ : خشب	خشب
٢١ : نجب	نجب
٢٢ : مءخس	الخائس
٢٣ : يفو	يفا
٢٤ : ء فقن	أفقين
٢٥ : سوك	سوق
٢٦ : كنط	أكانط
٢٧ : تي	تيه
٢٨ : هر	يهر
٢٩ : يسفر	سفر
٣٠ : كرر	كرار
٣١ : نعمن	نعمان
٣٢ : عني	غني
٣٣ : رحب	رحب
٣٤ : ءقر	وقر
٣٥ : قفت	قف
٣٦ : ريت	ربة

٣٧: عمق	عمق
٣٨: عنقن- عم	بنو-عنقه
٣٩: برقن	بارق
٤٠: ء فرت	ءفراة
٤١: ء ي	أيا
٤٢: صرب	سُربه
٤٣: ختم	خطم
٤٤: رمس	رمس
٤٥: روس	روس
٤٦: حصر	حضر
٤٧: ء تان	أتان
٤٨: صرر	صرر

تضم القوائم الأصلية التي أعددنا عنها قائمتنا هذه؛ أكثر من مئتين وعشرين اسماً. ونظراً لوجود معظمها في النصوص التوراتية التي سبق الإشارة إلى بعضها، في ما سلف من أجزاء وفصول هذا الكتاب، فسوف نكتفي بالإشارة إلى بعضها الآخر، وحيث تطلب الأمر ذلك. من نافل القول التأكيد على أن نقاشاً طويلاً ثار بين أهل الاختصاص، تركز أساساً حول طريقة قراءة الأسماء، وما إذا كانت هناك أخطاء وقعت سهواً في أثناء نسخ القوائم؛ ساهمت في غرائبيتها وفي استحالة العثور عليها في فلسطين. في الواقع لم يحدث مثل هذا الخطأ الافتراضي في النسخ، ولكن حدث خطأ حقيقي وواقعي من نوع آخر مصدره الالتباس في القراءة، التي زعمت وجود الأسماء في الجغرافية الفلسطينية. وهنا تكمن

المشكلة الكبرى في هاتين القائمتين: وجود معضلةغير قابلة للحل تسببت بها القراءة الاستشراقية مع استحالة العثور على أسماء المواضع التي استهدفتها الحملات المصرية، أو معرفة ما إذا كانت في فلسطين وبلاد الشام أم في مكان آخر؟ إذا ما قمنا بإعادة بناء الرواية التاريخية عن الحملات الحربية المصرية على بني إسرائيل في السراة اليمنية وساحل اليمن؛ فإن القوائم ستظهر آنئذٍ، بكل دقتها كسجل موثوق به وغير قابل للتلاعب، أو أن تحدث فيه أخطاء افتراضية في أثناء النسخ. إن سِفر أخبار الأيام الثاني، مثلاً يروي فصولاً من أخبار هذه الحملات، ومنها حملة الملك المصري شيشق- شيشانق الأول ٩٣٣ ق.م على رحب عم - رحبعم بن سليمان الملك، حيث ترك هناك ما يُدعى أنه نقش (معركة مجدو). وإذا ما صدقنا هذه المزاعم؛ فإن الحملة تكون قد وقعت في ساحل مجيد- مجدو وليس في فلسطين، التي لا تعرف مثل هذا الاسم. كما يروي السفر (النص العربي لتسهيل عودة القراء: الإصحاح ٢٨: ١٤: ٢٧) قصة هجوم تجلات بلاسر الثالث في العام ٧٣٤ ق. م على بني إسرائيل عندما كان (ء حاز) ملكاً. بينما كان الآشوريون والمصريون يواصلون الصراع طوال مئتي عام -في هذه الحقبة الطويلة والنموذجية- في المكان نفسه: الساحل الطويل للبحر الأحمر. وهذا ما يؤكد لنا حقيقة أن فلسطين المُتخيَّلة ليست سوى تلفيق استشراقي تم الزج به في التاريخ المكتوب. وقبل البحث عن الأسماء الواردة في القوائم المصرية، سنقوم برسم إطار تاريخي لهذه الحروب والحملات. وسنأخذ حملة شيشانق الأول كنموذج دراسي؛ بهدف البرهنة على أن القوائم المصرية في الكرنك هي سجل أمين وحقيقي، بأسماء المواضع اليمنية التي اجتاحها المصريون. هاكم رواية مُقتضبة عن الحملة كما وردت في سِفر الأخبار الثاني (دبري - ها- يميم ١٠: ٥: ١٨: والنص العربي: ١٠: ١٢: ١١: ١٤). عندما توفي سليمان الملك صعد ابنه رحب-عم: رحبعم إلى

العرش وكان شاباً صغيراً قليل الخبرة. مثَّلَ صعود رحب-عم إيذاناً ببداية الانشقاق الديني والسياسي الداخلي (الأهلي وبين اليهود أنفسهم) في مخلاف-مملكة بني إسرائيل، والذي سوف ينتهي بقيام مخلافين-مملكتين: يهوذه في السرو الحميري الممتد من عدن حتى تخوم نجران (ما يُدعى بمملكة الشمال في القراءة الاستشراقية) ومخلاف-مملكة بني إسرائيل إلى الشرق من صنعاء (ما يُدعى بمملكة الجنوب عند التوراتيين) وعاصمته الدينية بيت بوس-وهي أورشليم حسب قول التوراة، حيث توجد قرية شعثاء حتى اليوم تدعى أورسلم. (وهذا ما يعيد تذكيرنا بانقسام اليمن إلى دولتين شمالية وجنوبية خلال القرن الماضي). يتجلى السبب الجوهري في هذا الانقسام، الذي سوف يتكرس مع الوقت ويصبح حقيقة سياسية؛ في ظهور معارضة قوية من قبائل الشرق القاطنة في سرو حمير، للسياسة التي انتهجها الملك سليمان واتسمت بالقسوة والمظالم الاجتماعية (ولنتذكر أن التوراة تشير باستمرار إلى هؤلاء وتطلق عليهم الاسم نفسه: سكان الشرق وهذا ما يقول به الهمداني). أدرك الملك الشاب رحب-عم المصاعب التي تواجه مسألة توليه العرش في مملكة موحدة (دولة مركزية لليمن القديم) تضم قبائل بني إسرائيل كلها؛ فقد كان هناك خصوم جدد يُطالبون بتغيير شامل في النظام السياسي والروحي. ومن بين أشد هؤلاء كان يربعم بن نبط، الذي فر إلى مصر في عهد سليمان الملك الأب، حيث منحه المصريون الأمان هناك، وكان على علاقة وثيقة معهم. ولكن؛ وفي اللحظة التي أُعلن فيها عن موت سليمان، سارع الملك الشاب إلى دعوة خصم والده للعودة والمشاركة في ترتيبات اختيار الملك الجديد وتسيير شؤون المملكة. وبالفعل سارع يربعم بن نبط[1] إلى

---

(١) لاحظ العلاقة بين اسم القبيلة نبط في هذا الاسم وبين اسم الأنباط المهاجرين من اليمن إلى بلاد الشام والعراق.

العودة واتجه إلى مكان الاجتماع في شكيم حيث التقت قبائل بني إسرائيل كلها. بيد أن هذه المحاولة سرعان ما أخفقت وانهار الاجتماع، إذ تفاقمت الخلافات بين ممثلي القبائل. لم يمض وقت طويل على عودته من مصر، حتى أعلن يربعم انشقاقه على أسرة سليمان، وأقام بمعونة مباشرة من قبائل بني المشرق مملكة مناوئة لحكم أسرة سليمان؛ ضمّت الكثير من العشائر والبطون من قبيلة يهوذا، كبرى أسباط بني إسرائيل. ولسوف تعرف هذه المملكة-المخلاف باسم يهوذا؛ بينما ظلت البطون والقبائل الأخرى في بني إسرائيل تتبع البيت السليماني وتخضع لحكم رحب-عم. وبذلك تبدأ حقبة جديدة وطويلة تفترق فيها القبائل دينياً وسياسياً. وسوف تُثار وتُوجه الاتهامات بممارسات دينية منافية للتوحيد، مثل التقرب إلى النيران في جبل هنوم، وهذا ما نراه بوضوح في الكثير من المراثي والقصص التوراتية. أقام رحب-عم بن سليمان بعد اختياره ملكاً على بني إسرائيل، في أورشليم (بيت بوس) وباشر بإقامة الحصون في بيت لحم- بيت لخم مسقط رأس جده داوود، وفي عيطم، وتقوع- قوع، وصور-صور، وسوكه-سوق، وعد لام-عد لام، ومرسه-مرشه، وزيف-زوف، وءدورتيم -الدور وعذيقه- عذاق، وأيالون-أيلة، وجت-جث، ولكيس-لكيز، وحبرون-حبر. وفي العام الخامس من حكمه، كانت العلاقات مع مصر قد تدهورت بسرعة غير متوقعة، انتهت إلى قيام شيشانق الأول٩٥٠- ٩٢٩ ق. م بتجهيز حملة كبرى لاخضاع الملك الشاب رحب-عم (رحبعم) الذي لم يبدِ أي قدر من المقاومة، فسقطت أورشليم ونُهبت على يد القوات المصرية. أما خصمه يربعم بن نبط ملك- مخلاف يهوذه المتمرد، فقد أصبح اعتباراً من هذا الوقت، عرضة لمؤامرات داخلية قاد بعضها بصورة مباشرة خصم جديد يُدعى أبه- أبي.

اين حدثت معركة رفح؟

من قوائم الكرنك المصرية إلى وصف الهمداني

يعطي هذا الإيجاز التاريخي فكرة شديدة العمومية، ولكنها ضرورية للغاية لفهم واستيعاب طبيعة الحملات العسكرية المصرية، على الساحل اليمني والنجد لإخضاع القبائل المتمردة؛ وهي الحملات التي سجلتها ما يعرف عند علماء الآثار بقوائم معبد الكرنك. لقد تم وضع هذه الأحداث بصورة اعتباطية، ومن دون دليل واحد ضمن التاريخ الفلسطيني، على الرغم من انعدام أي برهان أثري أو لغوي أو جغرافي. وكنا رأينا من تحليل قوائم يشوع وصموئيل أن الأسماء الواردة في هذا النص (انظر أسماء المواضع التي أقام فيها رحب-عم) هي مواضع يمنية لايزال بعضها موجوداً بالصيغ ذاتها؛ بينما على الضد من ذلك، لا يوجد اسم واحد منها في جغرافية فلسطين. إن تتبع خط سير هذه الحملات سيكون ممُكناً، من خلال تتبع المواضع الواردة في قوائم الكرنك. ولنبدأ من وادي عمق-عمق (انظر القائمة). يقول الهمداني في وصف وادي عمق الذي سقط في يد القوات المصرية (عصر تحوتمس الثالث وشيشانق الأول) ما يلي (صفة: ١٧٣):

> **في وصف سرو حِمْيَر: من هذه المواضع قُرى ومساكن كثيرة أرض حلالهم وأحلافهم: من الأودية الضباب ووادي حضر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء، ووادي شكع، ووادي عمق تصب هذه الأودية إلى أبْيَن.**

بكل تأكيد لا وجود في فلسطين لواد يدعى عمق، يقود السائر فيه إلى وادي حضر (عمق وحضر في القائمة) فهل سار شيشانق الأول في مكان مجهول؟ ها هنا وادي عمق في سرو حِمْيَر على الطريق بين صنعاء وعدن.

يعني هذا أن الحملة المصرية تواصلت في المكان نفسه، الذي أصبح مسرحاً للصدام مع الآشوريين. إن السجلات الآشورية[١] تروي جوانب هامة من صدامات الآشوريين والمصريين، كما تروي أخباراً عن حملات الآشوريين على قبائل مُضَر. بيد أن القراءة الغربية قرأت الاسم في الحالتين في صورة مصر، بحيث وقع خلط مأسوي بين الصدامات الآشورية مع فراعنة مصر على الساحل، وبين حملات الآشوريين على قبائل مُضَر- وذلك ما أشرنا إليه مراراً-. فعلياً تم رسم جغرافية خيالية إضافية، وذلك حين جرى وضع الأحداث برمتها في فلسطين. ولم يسلم من هذا التخيّل حتى أفضل العلماء. إن عالماً مرموقاً مثل ساكز لا يتوانى عن استخدام نصوص سفر الملوك الثاني، مثلاً، كمادة تاريخية في المُطابقة مع التاريخ المُدون، ولذا نراه يتحدث من دون احتراس أو تدقيق، عن معارك رفح التي سجلتها الوثائق الآشورية باعتبارها (رفح فلسطين) على الحدود الصحراوية مع مصر؟ بل يتحدث عنها باعتبارها معارك ضد المصريين؟ ومع أن النص الآشوري يتحدث بوضوح عن معارك في موضعي (قو) و (حمة) -انظرهما في نصوص الهمداني السابقة- وهما موضعان لا وجود لهما شمال فلسطين ولم تقع فيهما معارك بين الدولتين العظميين في العالم القديم؛ فإن التلفيق سوف يستمر ليبلغ ذروته مع ساكز، حين يقول ما يلي: إن الجنرال المصري سو[٢]، هُزم أمام سرجون الثاني[٣]، وذلك استناداً إلى رواية أشعيا الشعرية وإلى سفر الملوك الثاني وليس إلى السجلات الآشورية أو النقوش، التي تنكر أي

---

(١) انظر مثلاً: هاري ساكز- مثلاً -: عظمة بابل: ط، العربية: ١٤٤.

(٢) في التلفيق الاستشراقي يصبح ملك مضر جنرالاً مصرياً؟

(٣) ذكر الثموديون في نقوشهم التي يعرفها علماء الآثار جيداً، وفي نقش عثر عليه في خرائب ثمود (أن سرجون الثاني أخضع ثمود لحكمه) انظر: جواد علي ١/٢٢٣.

معرفة لها بهذا الحادث وتصمت عنه. وهذا أمر مثير بالفعل؛ إذ من غير المنطقي أن تتجاهل السجلات الآشورية حدثاً ضخماً من هذا النوع لو أنه وقع حقيقة؟ بينما برهنا على أن الجنرال المزعوم (سو) لم يكن ملكاً مصرياً ولا جنرالاً، بل ملك قبيلة مُضَر التي هُزمت في الحملة الآشورية التأديبية (انظر ما كتبناه عن سوء ملك قبيلة مُضَر) كما هزمت على أيدي المصريين في هذه الحملة. هاكم ما يقوله ساكز، كنموذج عن القراءة التلفيقية (ساكز: مصدر مذكور: ١٤٤):

وتورطت غزة بإسناد جبان من الجنرال المصري الذي يُسميه العهد القديم باسم سو؛ ولكن عند الاشتباك في رفح، هرب الجنرال المصري (استناداً إلى الأخبار الآشورية بشكلٍ مُخزٍ تاركاً ملك غزة لأمرٍ محتوم).

في الواقع لم يكن هناك أبداً جنرال أو ملك مصري، هُزم في معركة رفح التي سجلتها الوثائق الآشورية؛ والواقعة تروى في السجلات العراقية القديمة، على أساس وجود حلف من القبائل المتمردة ضد الإمبراطورية الآشورية تمّ تحطيمه في رفح (انظر الخريطة التي أعددناها عن هذه المعركة). وبالطبع لم تكن هناك أدنى إشارة إلى فلسطين؟ وبالفعل فقد كان هناك حلف من قبائل بدوية لصدّ الآشوريين، شاركت فيه قبائل مُضَر بقيادة ملكها سو[1]؛ الذي سوف يقع هو نفسه- تالياً - في أسر القوات الآشورية، في حين لم تكن هناك غزة متورطة في الهجوم. فكيف حدث هذا الالتباس والخلط؟ في الواقع كان الصدام المصري المزعوم مجرد قراءة خاطئة للأسماء في السجلات الآشورية وفي قائمتي الكرنك.

---

(١) انظر مراثي إرميا وأشعيا ولاحظ كيف أن إرميا حث القبائل على طلب النجدة من المضريين، الذين دخلوا المعركة وهزموا وأسر ملكهم.

وبالنسبة إلى السجلات الآشورية؛ فمن المؤكد أن اللوحات البطولية العملاقة التي تركها الآشوريون تدحض فكرة وجود حدث تاريخي، من طراز أسر جنرال أو ملك مصري يدعى سو؛ لأنها ببساطة لوحات تصور قبائل بدوية مهزومة وقع فرسانها في الأسر. إن الأزياء التي يرتديها الأسرى كافية بحد ذاتها - كما تبيّن اللوحات- للبرهنة على حقيقة المعركة ومسرحها، فهي ملابس جماعات بدوية. أما بالنسبة إلى قائمة الكرنك المصرية فهي على المنوال ذاته. هناك أسماء مدن وقرى وجبال ووديان لا وجود لها في فلسطين؛ وقد أمكن لمصر من خلال الحملات الحربية أن تفرض سيطرتها عليه. وفي الحالتين (السجلات الآشورية وقائمة غنائم الكرنك) كان هناك شيء مشترك: وجود قبائل بدوية ألحقت بها الهزيمة على أيدي المصريين والآشوريين في فترات وحقب مختلفة. إن التشابه في بعض الأسماء وصمت الآشوريين والمصريين عن ذكر المكان الحقيقي الذي دارت فيه الأحداث - والاكتفاء بذكر أسماء المدن والجماعات- قد يكونان السبب المباشر في حدوث هذا الخلط؛ مثلاً: كانت هناك مدينة تدعى عزه، ولكن الآشوريين والمصريين لا يحددون المقصود بها. وكانت هناك رفح بالفعل، ولكن المصريين والآشوريين - أيضاً - يتجاهلون تحديد المقصود منها. والأمر ذاته بالنسبة إلى الآشوريين حين يتحدثون عن إلحاق الهزيمة بملك مصريم. أسفرت القراءة الاستشراقية للتوراة؛ والتي تلازمت طوال القرن الماضي مع أعمال وجهود علماء الآثار، عن تكريس قراءة مغلوطة جملة وتفصيلاً للتاريخ القديم في المنطقة، الأمر الذي خلق فوضى لا حدود لها. في هذا الإطار، واستناداً إلى التوراة قرئت عزه في صورة غزة، ورفح اليمنية في صورة رفح الفلسطينية، كما قرئ اسم مصريم في كل الحالات ومن دون تمييز أو تدقيق في صورة مصر. ولذلك ومن أجل إعادة تركيب التاريخ القديم بعيداً عن التوراة، فسوف نعيد قراءة وضبط الأسماء في قائمة

الكرنك المصرية، استناداً إلى شهادة جغرافية حاسمة يقدمها الهمداني، عن كل ما ورد من أسماء بما فيها رفح، وهذا ما سوف يساعدنا في فهم حقيقة المعركة التي هزم فيها جنرال مصري مزعوم يدعى سو (١٥٦-١٥٩- النص مُختصراً):

مأقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس وجبل نُقم وما بينهما حقل صنعاء إلى خطم الغراب، وبيت رفح فالرحبة إلى خطم الغراب وقاعة والبون، وأكانط والخشب.

إذا ما أمعنّا النظر في هذا الوصف، فسوف نجد الأسماء الواردة في قائمتي نهاريا ومجدو؛ من دون أدنى تحريف وبالتسلسل نفسه. والنص أعلاه يرسم فضاء جغرافية متكاملاً، فها هنا دارت رُحى المعارك في خطم-ختم، والرحبة-رحب، وكنط-أكانط، والخشب-الخشب. وها هنا بيت بوس (وهي أورشليم) التي نهبها المصريون. وها هنا أيضاً بلاد البون-البونت (وهما بونان أحدهما البون الأعلى وهو بلاد واسعة تماماً كما في تعبير السجلات المصرية: بلاد بونت). وإلى هذا كله: لدينا رفح اليمنية التي اشتبك فيها الآشوريون مع قبائل مُضَر، بقيادة ملكها من بني سواءة والتي اندفعت من الساحل لصدّ المصريين ولنجدة بني إسرائيل (على الرغم من خلافاتهم العنيفة وصراعاتهم المريرة). وهاكم تعريف الهمداني للمقصود بالجنرال المزعوم سو - سوءه (صفة: ١٣٠-١٣١):

ثم سراة جنب (..) ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر نجدها خثعم وغورهم بارق، وبنو الخالد نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأزد ثم سراة الخال لشكر، وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية.

هـذه هـي سراة جنب-جنب وإلى جوارها جبل بارق- برقن[1] وهاهنا بنو سواءة- سو؛ وهم خليط من القبائل في عصر الهمداني ولكن روابطهم لا تزال مع ذلك عامرية (مضرية). كانت معارك رفح وقو وحمه وقراقر عام ٧٢١ ق. م بين سرجون الثاني وقبائل المُضَريين؛ تدور في المكان نفسه ولا علاقة لفلسطين بها، كما لا علاقة لمصر البلد العربي لا من قريب ولا بعيد بالأحداث. هذا الخلط المأسوي ناجم عن تهجئة مغلوطة للأسماء وعن افتراضات مبنية أساساً على النصوص التوراتية، وليس على نتائج البحث الأثري التي لم تُبين، قط، وجود مثل هذه المعارك في فلسطين. إن رفح اليمنية التي دار فيها القتال، ثم امتد إلى قو، وقرقر، وحمة-التي تخيلها الغربيون حماه السورية-هي ذاتها رفح القريبة تماماً من بيت بوس- أورشليم؛ بينما لا توجد رفح فلسطينية قرب القدس إذا ما سلمنا - جدلاً- أن القدس هي أورشليم؟ بالضد من ذلك كله، هناك جبل قَدش-قدَس إلى الجنوب من تعز على مقربة بالفعل، من رفح هذه تماماً كما في القائمة.

المثير للاهتمام أن المصريين والآشوريين لم يسجلوا في المدوّنات المتروكة، قط، أي شيء عن هزائم وحروب دامية وقعت بينهم من هذا النوع؛ بينما تسجل قوائم الكرنك أسماء المواضع التي بلغتها القوات المصرية، في عمق النجد اليمني وعلى الساحل من أجل إخضاع القبائل ذاتها، وهذا ما تتحدث عنه أيضاً السجلات الآشورية؟ بهذا المعنى يتوجب فعلياً إعادة النظر بما يُدعى الحروب الآشورية- المصرية في فلسطين خلال حقبة شيشانق الأول؛ والتي كُتبت روايتها السائدة اليوم بناء

---

(١) سجل المصريون هذا الموضع طبقاً للنطق اليمني القديم - النون الكلاعية- برقن. وهذه وثيقة تاريخية دامغة يقدمها المصريون القدماء لنا عن طريقة النطق القديمة.

على قصص التوراة. ومن ثم، يجب أن تحذف من التاريخ الفلسطيني؛ أحداث بأكملها نُسبت خطأ إليه منها حملة شيشانق الأول. بكل تأكيد وقعت صدامات دامية وحروب ضارية وشرسة بين الآشوريين والمصريين؛ ولكن ليس من المؤكد أن هذه الحروب- التي تذكرها التوراة وتسجلها في أسفار مختلفة- قد وقعت حقاً في فلسطين؛ وفي المقابل تتعيّن رؤية مسرح آخر ومن منظور جديد وحقيقي يتلاءم مع منطق التاريخ. استندت القراءة الاستشراقية للأحداث بصورة مؤسفة ومضادة للعلم، لا إلى التاريخ كما ترك في باطن الأرض؛ بل إلى قصص التوراة وحدها لدعم وجهة نظر خاصة، وغير موضوعية عن مسرح افتراضي في فلسطين لمجرد وجود اسم رفح. و لذلك، ومن أجل فهم أعمق لهذه الحملات يتعيّن - اليوم - قراءة قوائم الكرنك من منطلق مغاير، بوصفها سجلاً بالغنائم والمكاسب العسكرية التي نجحت في الحصول عليها، حملات مصرية متتابعة قادها تحوتمس الثالث وشيشانق الأول، واستهدفت إخضاع قبائل النجد والساحل اليمني، تماماً كما فعل الآشوريون مع القبائل المتمردة على سلطانهم. سنأخذ المواضع التالية: نعمان-نعمن رقم ٣١،وافقن-ء فقين رقم ٢٤ وعيان- عين ١٨، وكنط -كانط رقم ٢٦ والخشب - الخشب رقم ٢٠ حسب تسلسلنا؛ وهي أسماء مواضع لا وجود لها في فلسطين قط، وقد اعتبرتها القوائم المصرية من بين غنائم الحرب حيث اجتاحها الجيش المصري هاكم ما يقوله الهمداني عنها (صفة: ١٥٩-١٦٣):

في وصف الجوف اليمني: أودية من ظاهر بلد همدان مثل يناعة وذي بين[1]، وأكانط والخشب، والميح وبلد ذبْيان فيمر بالقحف

(١) انظر ما كتبناه عن (بين) في الفصول السابقة.

ويلتقي بمياه الخارد التي هبطت من صنعاء ومخاليفها ثم يصبان في الجوف (....) وبركان وعيان ويمدهما سيل نعمان (..) ثم وادي نجران وفروعه من ثلاثة مواضع (...) ولقي سيل غربي صَعْدَة ونعمان وأفقين.

استناداً إلى هذا التوصيف؛ فإن الجيش المصري يكون قد اجتاح كامل منطقة الجوف اليمني وليس فلسطين؛ ومن ثم فقد تمكن من دحر القبائل هناك واستولى على مواضع هامة، من بينها أكانط وهي ما يُسمى اليوم كانط؛ تماماً كما في القوائم المصرية، واليمنيون المعاصرون يعرفون هذا النطق جيداً كانط؛ كما استولى على منطقة الخشب (الذي يتبع بلد أرحب وهو وطن وقبيل مشهور وقديم في اليمن) قبل أن يواصل زحفه من صعدة باتجاه نجران إلى الغرب، ليستولي على وادي عيان حيث القرى العامرة من أرض سفيان، وليدخل منازل القبائل في وادي نعمان في الجوف الأعلى، وأخيراً ليستولي على أفقين المجاور له. إن كانط- هذه، موطن قبائل من بكيل وحاشد- حاسد في التوراة من قرى البون- البونت، التي يقول المصريون في سجلاتهم: إنهم اجتاحوه ووضعوا يدهم عليه. هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٢١):

فهذه قُرى البون: الخشب وأكانط قرية كبيرة بها خليط من بكيل وحاشد، وبأكانط منهم الميح وبيت الجالد.

كما اجتاح الجيش المصري كامل منطقة ذمار-مخلاف ذمار القريب من صنعاء، والمخاليف المجاورة في الجوف اليمني والتي تقيم فيها بطون من حِمْيَر. وأهم موضع في هذا المخلاف هو عنس- عنسو الذي تُقيم فيه قبائل من مِذْحج، كما تقع فيه حمه -حماه المزعومة (وهذه صوَّرتها القراءة الغربية للتوراة على أنها حماه السورية) وكذلك سُربه - صرب. إليكم وصف

المواضع التالية في القائمة (عنسو: ١، حمه: ٨، صرب- سُربه: ٤٢، كرار: كرر رقم ٣٠) وهي -كما يُلاحظ - في الفضاء الجغرافي نفسه حراز وهوزن وكرار. ها هنا المواضع ذاتها التي اجتاحها الجيش المصري في اليمن القديم، لتأديب القبائل المتمردة تماماً كما في قوائم الكرنك (وقد أضفنا هنا: موضع حدا، التي تسجلها القوائم ولم نسجلها في قائمتنا لأننا تحدثنا عنها في الكتاب وكذلك عشار: (صفة: ٢٠٦-٢٠٩):

مخلاف ذمار: ذمار قرية كبيرة جامعة بها زروع وآبار قريبة يُنال ماؤها باليد ويسكنها بطون من حِمْيَر وهو مخلاف نفيس كثير الخير عتيق الخيل كثير الأعناب والمآثر. وجبل إسبيل مُنقسم بنصفين نصف إلى مخلاف عنس، وما بين إسبيل وذمار أكمة سوداء تُسمى حمة. (...) والأودية التي بها مطاحن الماء فهي سُربه ويسكن هذه المواضع بطون من حمير (..) مخلاف ألهان ومُقري: وهو مخلاف واسع. ومما يُصالي ألهان ريمه الصغرى وحدّا وعشار (..) مخلاف عشترت التي سبق الكلام عنها أيضاً).

يعني هذا أن المصريين قاموا بمهاجمة ما يُعرف بمملكة بني إسرائيل إلى الشرق من صنعاء وليس فلسطين؛ التي لم يسمع سكانها القدماء بمخلاف عنسو-عنس ولم يشاهدوا حمه-حماه، كما لا يعرفون سُربه-صرب؛ وبكل تأكيد هم لا يعرفون بلد حدا -حده ولا عشار-عشتروت. وأخيراً: لا وجود لوادٍ في طول فلسطين وعرضها يُدعى كرار- كرر - رقم ٣٠، بينما نراه في المكان نفسه لسلسلة المخاليف المتجاورة التي اجتاحها الجيش المصري. في هذا الإطار، وإذا ما وضعنا قدش (قَدَس رقم: ١) ضمن جغرافية القوائم الموصوفة؛ فإن القوات المصرية تكون قد توجهت بسهولة صوب جنوب تعز بنحو ٨٠ كيلو متراً لتستولي على جبل

قدش- قَدَس؛ بينما يستحيل الوصول إلى قدس الفلسطينية من عنسو، وحمه، وصرب لأنها ببساطة أماكن لا وجود لها هناك. هل هي محض مُصادفة إذن، أن تكون المواضع الواردة في قوائم الكرنك، قرب بعضها البعض عند الهمداني؛ بينما يستحيل العثور عليها في فلسطين؟ في سياق هذه الحملة العنيفة، تقدمت القوات المصرية صوب ردمان لتضرب قبائل الرمسيين في رمس- رمس رقم ٤٤، وعقدو (عقد رقم ٩. والرمسيون بطون من حِمْيَر يُقيمون في ما يُعرف عند اليمنيين بالمُسمق الأعلى وأغلبهم من قبائل البدو الرحل). إن أحداً لا يعرف رمس وعقدو في فلسطين متجاورتين. بيد أن الهمداني يعرض علينا صوراً جغرافية شائقة ودقيقة عن كثافة سكانية عالية، حيث تحتشد القبائل في هذا المكان. إليكم ما يقوله (صفة: ١٨٦):

رجع إلى ردمان: نوعة لجُران وهم من حِمْيَر وهم في ناجية، المسمْق الأعلى والمسمْق الأسفل لبني مليك حَرْيَة للرمسيين (بنو رمس) وهم في ناجية ونصرتهم ودعوتهم في جمل، وعقد لبني عبد من حِمْيَر (..) أودية كلها لبني مر وفيهم أخلاط من بني غيلان وبنو غيلان من نُهيك ونُهيك من جنب.

لدينا - في هذا النص- أسماء المواضع والجماعات ذاتها التي استهدفتها الحملة المصرية في ردمان، حيث جرى ضرب بني إسرائيل ونهب منازلهم وتخريب معابدهم: ها هنا رمس وهم بنو رمس (انظر هامش المحقق ص: ١٦٦) وإلى جوارها بلدة عقد - عقدو[1]، وأخيراً:

(١) الواو في آخر الاسم لهجة يمنية. وفي نقوش المسند: هتفت/ مراهو (نذرَ لسيده أو أميره). كما تلحق السين بالواو والهاء في لهجة أخرى، مثل: بهنسو: (بن، ابنه كما عند سكان حضرموت). وانظر ما كتبناه عن تحنفيس - تهنفيش - =

ها هنا بطون جنب- جنب. إنه لمن المستحيل حقاً، العثور في فلسطين على ما يُماثل أسماء هذه القبائل الواردة في قوائم الكرنك. وفي هذا السياق سنتوقف عند الاسم المثير روس-روس(١) والذي يستحيل العثور على ما يُماثل مبناه في فلسطين؛ بينما نجده في اليمن القديم كاسم لبلاد شهيرة ومعروفة منذ القدم باسم بلاد الروس، إلى الجنوب من صنعاء. هاكم وصف الهمداني ومحققه (صفة: ٢١٦):

في وصف مخلاف خولان وذي جُرَة: وادي قروى ووادي مقولة (وادي قروى من أودية خولان الشهيرة. وبقية الأودية عدادها من سنحان وبلد الروس التي هي من ذي جُرَة) وأودية عنَس فقد يختلط بينها بُوسان. ومن ذي جُرَة إلى حريب عَنَس فإلى ثلاثة مواضع؛ فالذي يصب إلى خارد الجوف منها السر ويلاقيها سيل مغارب صنعاء.

ذو جُرَة هذا؛ هو ما يُسمى بلاد سنحان أو بلاد الروس، وقد نُسِبَ إلى ذي جُرت بن يكلى بن حمير. وعلماء الآثار يعرفون هذا المكان جيداً، إذ عثروا فيه على نقوش بالخط المسند وردَ فيها اسم القبيلة اليمنية- التوراتية ذي جُرت- انظر جُرة في منازل الأسباط عندنا- ومعظم أراضي ذي جُرت وعنس- عنسو تقع إلى الجنوب من صنعاء. يعني هذا أن القوات المصرية الزاحفة جنوب صنعاء، تمكنت من الاستيلاء على عنَس وبلاد الروس في وقت واحد حسب رواية قوائم الكرنك. وبالطبع لم تحدث هذه الواقعة في فلسطين، ولم يكن هناك هجوم استهدف عنسو

= بإضافة الهاء والسين على الاسم تفيش. ومثل مراسو: رئيسه، ونفسيهو: نفسها. وحول الواو لوحدها لاحظ عنسو، وعقدو.

(١) الكثير من المواليد اليهود اليوم يحملون هذا الاسم التوراتي من دون أن يعلموا أنه اسم عربي.

وعقدو وروس فيها؟ وإذا ما تابعنا المواضع التي سقطت في هذه الحملات المصرية، فسوف نرى أن المصريين تمكنوا من الاستيلاء على سلسلة جديدة من الأماكن المجاورة أو القريبة، في أثناء هجومهم على بلاد الروس وعنس منها موضع هر- يهر عند الهمداني (هر في العبرية جبل ويهر اسم مكان بزيادة الياء مثل يعرم - عرم). ويبدو أن علماء الآثار من التيار التوراتي سعوا إلى التأكيد على أن المقصود هو موضع في فلسطين يُدعى هر. وبالطبع في السياق ذاته للمُطابقات العشوائية؛ أي معزولاً عن أية أسماء أخرى. بيد أن هر - يهر هذا يقع في المكان نفسه الذي كان فيه المصريون يتقدمون داخل سرو حِمْيَر، وهم اتجهوا صوبه في طريقهم للاستيلاء على واديي عمق وحضر. هاكم وصف الهمداني للمواضع (حَضر رقم ٤٦، عمق رقم ٣٧، هر رقم ٢٨) ضمن سرو حِمْيَر (صفة: ١٧٢-١٧٣):

> **سرو حِمْيَر وأوديته وساكنه: العر-عر، يهر-هر، وتيم لبني شُعيب ووادي حَضر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء ووادي عمق. تصبُّ هذه الأودية إلى أبْيَن.**

بسقوط هذه السلسلة من المواضع والأماكن في أيدي القوات المصرية، يكون طريق الساحل قد بات مفتوحاً من أجل التقدم عبر تهامة بسرعة للاستيلاء عليه. وهذا ما يمكن رؤيته من سقوط موضع يدعى تي- تيه على مشارف تهامة. لقد توهم بعض الاستشراقيين- وحتى بعض الكتاب العرب ممن جاراهم في الوهم- أن المقصود به (طيئ) القبيلة، لمجرد وجود تماثل في مبنى الاسمين. في الواقع تقدم الجيش المصري نحو الساحل، وبالطبع ليس ثمة مضارب لقبيلة طيئ هناك؛ بل يوجد موضع يدعى بالفعل تي- تيه وتماماً كما رسمت اسمه قوائم الكرنك.

يصف الهمداني الطريق من جُرش في نجد العليا إلى تهامة فالساحل، على النحو التالي (صفة: ٢٣٠-٢٣٣):

رأس تية هي عقبة من أشراف تهامة، وهي أبها وبها قبر ذي القرنين. وهذه أودية عسير؛ ومن النجدي أوطانها الرّفيْد ثم يصلاها عُنقة ويسكنها بنو عبد الله بن عامر من عنز (..) والذي يُصالي جنب من ديار عنز الرُّفيْد والغوص وعُنقه (وادي عُنقه لايزال معروفاً) وتمنية يسكنها بنو مالك، ذو الينيم ويسكنه بنو ضرار فأتانة والمغوث وتُسمى هذه أرض طود، وراس العقبة لبني النعمان ثم إلى عفرانين ثم بلد نهد من جُرش إلى كتنة. (..) ثم بلد بني مجيد وبلد الفرسان وهي على محجة عدن من زبيد ثم ديار الأشعريين، والمخا ثم سهام وهي عكية ومن بواديها واقر. (..) ثم بلد حرام من كنانة وهو وادي أتمة ووادي رحمة وأسفل عرنة.

لدينا في هذا النص سائر المواضع التي وردت في قوائم الكرنك وحسب تسلسلها: ها هنا رأس تيه -تي، التي بدأ المصريون الزحف منها صوب الساحل، حيث سقطت مدن وقرى وادي شعب بني عُنقة-عنقن[1]-عم: قبل أن يتقدموا بمحاذاة سراة جنب نحو أتانة: أتان رقم ٤٧، والمخا: مخت رقم: ٢ والتي توهمها بعض الباحثين أنها مكة (مكا) بينما هي مخت بالتاء اليمنية المعروفة، ونحو صرر رقم ٤٨ وهم بنو ضرر ثم اقر: وقر رقم ٣٤، ووادي اتمة: ءتمم، رقم ١٥، وعرن رقم ١ (عرنه) وعكا[2] (عك رقم: ١٩) وعنقن عم: عنقه: رقم ٣٨. وأخيراً

(١) يبدو أن المصريين سجلوا أسماء المواضع التي اجتاحوها طبقاً لطريقة نطقها عند اليمنيين: عنق- عنقن.

(٢) في نقش سبئي ورد اسم عك على هذا النحو: بعل/ حبشت/ وعكم (على قبيلة حبيش وعك).

ساحل بني مجيد الذي وقعت فيه المعركة (الشهيرة في التوراة). معركة مجدو عام ٦٠٨ ق.م) بين الملك المصري نيخو الثاني وبني إسرائيل، والتي انتهت بإخضاعهم للإرادة المصرية. (انظر سفر الملوك الثاني الإصحاح: ٢٣). يتبقى أن نتذكر أن نقش رمسيس الثالث يتحدث عن فرست: فرسان -انظر فرسان أعلاه وراجع ما كتبناه عن فلشتيم-. ذلك يؤكد وصول المصريين إلى موضع فرست-فرس الساحلي (التاء هنا هي التاء اليمنية مثل: قرشت في قريش كما تُدلّل على هذا النقوش اليمنية وطريقة نطق الأسماء). ومن الواضح أن سقوط هذه المواضع وحسب تسلسلها في تهامة والساحل؛ يعطي فكرة عن حجم المعارك التي جرت هناك، كما يعطي فكرة عن القبائل التي تم إخضاعها للنفوذ المصري. هذه هي أهم المواضع التي سقطت في أيدي المصريين في حملاتهم الحربية المتعاقبة في ساحل البحر الأحمر واليمن. وهذه الأسماء لا وجود لها في فلسطين؛ بينما نستطيع رؤيتها هناك على الساحل اليمني وفي البوادي العربية من تهامة؛ كما وصفها الهمداني في كتابه العظيم صفة جزيرة العرب.

الفصل الحادي عشر

من أسطورة عبور الأردن
إلى السبيّ البابلي
(أسباط غربي النهر)

لعبت أسطورة عبور الأردن في المِخْيال الديني اليهودي-المسيحي، دوراً مركزياً في أثناء الحملة البريطانية للاستيلاء على فلسطين مطلع القرن الماضي؛ بالقدر ذاته الذي لعبته وتلعبه اليوم أسطورة معركة هر-مجدّو في الفكر الألفي الأمريكي، وذلك بقصد تبرير شن الحروب من أجل التعجيل في ظهور المسيح المنتظر. مع بزوغ العصر الاستعماري بدا واضحاً أن فلسطين كانت تشكل هدفاً أيديولوجياً وروحياً، لطائفة جديدة من المفكرين والأدباء والروائيين وعلماء الآثار الكولنياليين في بريطانية وفرنسة وعموماً في الغرب الأوروبي، وجدت في انخراطها العضوي في مشروع الاستيلاء على فلسطين، وفي الحملات العسكرية في هذا الاتجاه، تجسيداً للروح الخلاصية المسيحية- اليهودية. في هذا الإطار تكشف معركة نابليون في عكا في العام ١٧٩٩ عن تلازم حقيقي، بين تصاعد النشاط الفكري المسيحي- اليهودي للبرهنة على أن فلسطين هي أرض الميعاد؛ وبين المشروع الاستعماري الذي نادت به أوروبة. على

هذا النحو تبدت الحروب المسماة بالحروب الصليبية، وعلى أكمل وجه وبعد مضي قرون على زوال ذكرياتها المريرة، أو لنقل خفوتها وتراجع أثرها المباشر (نحو تسع حملات متتابعة وهي حروب تعرف عند المؤرخين العرب باسمها الصحيح حروب الفرنجة- انظر ابن الأثير) وكأنها لم تكن سوى المقطع الافتتاحي في سمفونية طويلة؛ سوف تظل تصدح بصخب في الشرق التعيس. في وقت لاحق وبعد انقشاع غبار معركة عكا، وتحديداً في العام ١٨٠٤ تشكلت في بريطانية أول هيئة أثرية، قوامها من الأثرياء الإنجليز حصراً، باسم رابطة فلسطين تركز نشاطها، كلياً في العناية بآثار فلسطين بوصفها آثاراً إسرائيلية. وفي موازاة فكرة عبور الإسرائيليين القدماء لما يُدعى نهر الأردن؛ استناداً إلى قصص التوراة، كانت فكرة وجود معركة حاسمة وكبرى في التاريخ اليهودي، تُدعى معركة مجدو، تشق طريقها في الفكر المسيحي- اليهودي، وتقوم في الأصل، على الإيمان بأسطورة جديدة ومعاصرة تمّ تبنيها على نطاق واسع ومفادها، أن معركة مجدو سوف تندلع من جديد، وستؤدي إلى هبوط أورشليم جديدة من السماء (انظر ما كتبناه في الفصول السابقة). وبدءاً من العقد الأخير من القرن التاسع عشر توطدت فكرة الألفية في العقيدة البروتستانتية. لقد بينّا في هذا الكتاب بعض الجوانب المتعلقة بهذه المعركة المزعومة، كما بينا بعض الجوانب الخاصة بأسطورة عبور الأردن. ومن أجل وضع هذه المواد الأسطورية في إطار تحليلي أشمل، فقد أفردنا هذا الجزء من الكتاب لتوضيح الطبيعة المُخادعة والمُضللة، التي تنطوي عليها الصور الاستشراقية عن عبور الأردن.

هناك صيغة أخرى غامضة ومثيرة للحيرة- في عبرية التوراة - عن الأردن المزعوم، تفادت القراءة الأوربية إنعام الفكر فيها؛ أو هي تحايلت عليها وقامت بحجبها كلياً عن أنظارنا، وذلك من أجل طمس معالم مسألة

الأردن برمتها ومنع إثارتها للنقاش، نعني صيغة (نهر الأردم- وليس الأردن) التي تشير إليها بعض النصوص وفهمت على أن المقصود بها الأردن البلد العربي.

إليكم ما يقوله النص التوراتي (يشوع: النصّ العربي: ٢: ٢٢: ٣: ١٠، و: ٣: ١١: ٤: ٩: والنصّ العبري: ٣: ٧: ٤: ٦:): إن بني إسرائيل اجتازوا النهر وهم يحملون تابوت العهد وقد:

(يعمدو- ها- يميم- ها- يرديم -م- لمعلة- قمو- ند-ءحد- ها- رحق- مئد- ب- ءدم - ها- عير- ء شر-مصد- صرتن- وها- يرديم- عل-يم-ها- عربه-يم- ها- ملح- تمو- نكرتو-)

(أوقفتهم مياه الأردِم- ها-يرديم- من المعلاة. فقاموا ومضوا إلى مسافة بعيدة للغاية في ءدم - أدوم - والمنازل التي عند مُنْقَطَع ضرتان والأردم. وصعد الماء نحو العرب -ها- عربه- ويام الملح.ثم انقطع الماء تماماً).

ما يقوله هذا النصّ واضح كل الوضوح: صادفت الجماعة المُهاجرة حاملة تابوت العهد، في طريق رحلتها من مكان ما، مياه غزيرة لوادٍ يدعى (وادي الأردم) فلم تتمكن من اجتيازه. ولذا ابتعدت نحو جبل يدعى (أدِم) بمسافة بعيدة عند منقطع مياه الوادي نفسه؛ الذي تطلق عليه اسم (الأردم) وليس الأردن، حيث تندفع المياه آنئذٍ، باتجاه وادي العرب وجبل يام الملح. وفي هذا الممر الضيق مضت الجماعة المهاجرة في طريقها.

إن فلسطين التاريخية لا تعرف قط، لا وادي الأردم ولا جبل أدِم ولا وادي العرب ولا جبل يام الملح. ومع ذلك، تجاهلت القراءة الاستشراقية هذه الحقائق، وواصلت تدعيم فكرة عبور الأردن المزعوم

كحقيقة تاريخية قابلة للتكرار. وفي هذا السياق تحايلت الترجمة العربية على النص؛ فبدلاً من رسم اسم الأردم في جملة (يعمدو-ها-يميم-ها-يرديم- م- معلة) كما هو واستناداً إلى حروف الهجاء الأصلية التي رسم بها؛ قام المترجمون بمكافأة الاسم بالجملة التالية:

(ووقف الماء المُنحدرُ من عالية النهر كتلة واحدة). وهذه ترجمة غير مقبولة بكل المقاييس، لأن المقصود فيها ليس كتلة ماء، وإنما مياه واد بعينه يدعى فعلاً وادي الأردم. ثم عبر بنو إسرائيل، كما تقول الرواية، موضعاً غزير المياه من أضيق ممر في المنطقة، عند مُنْقَطع المياه القادمة من جبل أدِم حيث تندفع إلى واد قريب يدعى وادي ها-عربه (العرب). وبكل يقين فإن سارد النصّ العبري لم يكن يقصد نهر الأردن العربي؛ إذ لو أراد تسجيل واقعة العبور هذه لتوجب عليه أن يقول: (ب- نهر- ها-يردن) كما هي العادة وليس (يرديم). وفضلاً عن ذلك؛ فإن مياه وادي الأردن العربي لا تنقطع عند موضع يدعى جبل أدِم، ولا تذهب إلى وادي عربه قرب ضرتان. لابد أن سارد النص كان يشير إلى موضع آخر ليس له وجود في فلسطين. إليكم ما يقوله الهمداني في وصف وضبط اسم وادي الأردم هذا (صفة: ٣٠٥):

> **من عدن، لحج، بلد الأصابح، ثم الصُّهيب، وبها سبأ صُهيب قبيلة من سبأ، ثم الحبيل، ثم أسفل -جبل-الأردم وهو وادي الأجعود ثم صور ثم ثريد.**

هذا هو وادي الأردم على مقربة من صور -صور التوراتية - ومن ثريد- سريد في التوراة. وإذا ما قررت الجماعة المرتحلة الابتعاد عن المياه المتدفقة من هذا الوادي؛ فإن عليها أن تتجه بالفعل، نحو مخلاف السحول حيث جبل أدِم وليس إلى أي مكان آخر، فهناك سوف ترى

الجماعة مسيل المياه نفسها، وهي تندفع نحو وادي العرب ونحو جبل يام الملح. (انظر ما كتبناه عن كل هذه المواضع في الكتاب).

هذا التمهيد ضروري من أجل فهم أفضل للموضوعات التي تثيرها مسألة مدن الأسباط (غرب وشرق اليردن- وليس الأردن). يفردُ نص يشوع لبقية الأسباط الإسرائيلية (جد، منسه، يوسف، رءوبين) التي أقامت في ما يُدعى بغرب اليردن فصلاً خاصاً، من أجل وصف وتحديد منازلهم. ولذلك اعتنت القراءة الأوربية بترسيخ الفكرة التالية في أذهان مُتلقي النص التوراتي: إن المقصود من: ها - يردن في التوراة إنما هو نهر الأردن - البلد العربي، ومن ثم فالمقصود من غرب اليردن إنما هو غرب النهر. وهذه مُطابقة ماكرة ومُحتَرفة الغرض منها تضليل القراء؛ لأن الاسم في العبرية لا يمكن أن يُكتب في صورة الأردن بل اليردن حرفياً (انظر الصيغة الأخرى: الأرديم- الأردم). وبرغم أن التوراة لا تشير البتة إلى كونه نهراً، وليس ثمة دليل لغوي أو ثقافي أو جغرافي يدعم هذا التصور؛ فإن فكرة وجود أسباط إسرائيلية عتيقة حصلت من موسى النبي، على حق تملك غربي الأردن كله، أي الضفة الغربية من فلسطين، قد ٱستخدمَت بدهاء في استراتيجيات الاستيلاء عليها، كما هو الحال مع الجولان السوري -خولان التوراة (انظر ما كتبناه عن الجولان السوري المزعوم وهو مخلاف خولان والعبرية تستبدل الخاء المعجمة بالجيم المصرية: كولان) الذي تم إخضاعه لتخْييلٍ استراتيجي من طبيعة استعمارية خالصة. وأفضل ما تمكنُ ملاحظتهُ في هذا الصدد هو أن وجود جماعات إسرائيلية حصلت في عصر موسى، على منازل إلى الغرب من الأردن المزعوم، أو على امتداده في الضفة الغربية من فلسطين؛ إنما كان تزييفاً استشراقياً نموذجياً، تم توظيفه بصورةٍ حضرية، للكشف عن الجذور التاريخية والعتيقة (المقدسة) للحق الديني المزعوم، أي إن هذا الحق مقدس لأنه

مرتبط بالنبي موسى. والمثير للاهتمام في صيغة الاسم ها-يردن أنه لا يؤدي، ولا بأي حالٍ من الأحوال، إلى الكشف عن المواضع والأسماء المذكورة في النصوص، إذْ لا يعرف غربي نهر الأردن أيا من أسماء الأسباط، فليس ثمة يوسف ولا كَلَب ولا منسه ولا جد- جاد. هنا منازل الأسباط كما وردت في التوراة وكما صورها الشعر الجاهلي والهمداني (انظر الخريطة).

منازل الأسباط الكبيرة غربي الأردن

١ : سبط رءوبين- راؤبين

يقول يشوع (النص العبري: ١٢: ٢٢: ١٣: ١٦) و (النص العربي: ١٣: ٨: ٢٣) مايلي:

ويتن-مشه-ل- مطه- بني-رءوبن- ل- مشفحتم ويهي- لهم-ها- جبول- م- عروعر- ءشر-عل- شفت- نحل-ءرنون-وها- عير- ءشر -بتوك- ها- نحل- وكل- ها- ميسر- عل- ميدبء-.
(وأَقْطَعَ موسى لسبط راؤبين ولعشائرهم. فكانت لهم وأنت مقبل من عروعر، التي على شفا وادي أرنن؛ والمنازل التي في وسط الوادي إلى كل- وادي- الميسر وأعلى - وادي-مِذاب)

يتحدث هذا النص عن سلسلة من الوديان (ها-نحليم) وعن الأغوار التي تشكل بمجموعها فضاء جغرافياً شديد الخصوصية.ومن غير المنطقي بالطبع، التفكير بوجود نهر يفصل بين هذه الوديان، لأن الأنهار لا تفصل بين الوديان والجبال في فلسطين؟ كما أن نهر الأردن لا يفصل بين وديان تحمل الأسماء الواردة في النص أعلاه. هذا إذا سلمنا أن المقصود من

ها- يردن نهر الأردن البلد العربي. إننا لا نعرف هذه الجغرافية. كما لا نظن أن أحداً من الجغرافيين اليونانيين القدماء شاهد هذه السلسلة من الوديان والجبال، أو سمع بها أو قرأ أي شيء يخصها وبحيث أيقن أن هذه الجبال هي بالفعل جبال يفصل بينها نهر الأردن؟ وبطبيعة الحال فإن فلسطين القديمة لا تعرف مثل هذا النهر العظيم، الذي يشق طريقه وسط الجبال والوديان طولاً وعرضاً. ونظراً لاستطرادات النص الطويلة فسوف نكتفي بالمقاطع التي تُذكر فيها أسماء المواضع. هنا قائمة يشوع بمنازل أسباط ما يُعرف بغربي الأردن:

الضبط العبري	الضبط العربي
١ : حشبون	الحشب
٢ : ديبون	ديبان
٣ : قديموت	قُدم
٤ : ميفعه	ميفعة
٥ : قريتيم	القري
٦ : شبمه	شبما
٧ : صارت سحر	صارات - السحر
٨ : بيت فعور	فعرى
٩ : عوي	أوي
١٠ : بيت يشموت	يشمات
١١ : حور	حور
١٢ : ربع	ربع
١٣ : ارنون	أرن
١٤ : ميسر	مسر

١٥ : ميدبء	مذاب
١٦ : عروعر	عرُعر
١٧ : بيت بعل- مُعن	بعال معين
١٨ : موة-بعل	ماوة- بعل
١٩ : ءسدوت الفسجة	السد (الفسخة)
٢٠ : ضور	ضور
٢١ : يهصه	يهص

استناداً إلى رواية الشعر العربي القديم وإلى الهمداني؛ فإن حشبون (حسب البناء العبري القديم للأسماء وبلاد الحواشب حسب الرسم العربي) تقع بكل تأكيد في منطقة يافع. وهذا التحديد يتفق عليه الهمداني والتوراة والشعر العربي القديم؛ وهي إلى الغرب من عدن في السرو المعروف باسم سرو حِمْيَر .

أما ديبون- جبل ذَيْبن فيقع في بلد همدان إلى الشمال من صنعاء، بينما إلى الغرب من همدان يقع بلد قُدم- قدموت.

ولنبدأ من وادي ميفعة. إن النص التوراتي لا يعطي أي توصيف لهذا الموضع، ولا يشير إليه بوصفه جبلاً أو وادياً أوعين ماء؛ بل يكتفي بذكر اسمه. ولكن- وحسب التسلسل المُعطى- فإنه يقع على مقربة من شبمة - شبمة وقرب جبل ديبون غير بعيد عن وادي ميدبء-مذب. وبالطبع لا وجود لميفعة فلسطينية قرب هذه المواضع إلى الغرب من نهر الأردن؟ كما أن البحث الأثري وعمليات التنقيب المحموم في طول فلسطين وعرضها، لم تُسفر عن دليل على وجود مكان يدعى ميفعة. ولكن؛ لما كانت ميفعة التوراتية تقع إلى الغرب من وادي ها- يردن، وليس إلى الغرب من الأردن، فإننا نستطيع الوصول إليها بسهولة لنجدها هناك

وبالاسم القديم نفسه ميفعة؟ إننا- بإعادة اكتشاف الهمداني- وتقديمه من جديد إلى جمهور واسع من القراء؛ نقوم، عملياً وعبر قراءة عربية للتوراة، بوصفها كتاباً إخبارياً تركته لنا قبائل اليمن اليهودية لا أكثر ولا أقل؛ بنسف كل أساس محتمل للادعاء القائل: إن فلسطين هي أرض الميعاد اليهودي. إذا كانت ميفعة مدينة فلسطينية فلماذا لا نجدها هناك؟ بل لماذا لا نعثر على أثرٍ لغوي أو جغرافي يوصلنا إليها وإلى سبط رءوبين؟ ها هنا شهادة الهمداني الذي يؤكد حرفياً في (الإكليل: ١: ٤١٤) ما يأتي: ميفعة في حقل صنعاء.

ميفعة هذه لا تُعرف اليوم؛ إذ اندثرت وضاعت ولم يتبق منها سوى الأطلال. ثم ظهرت بعد اندثارها نحواً من أربعة مواضع على التوالي، بعضها قرب بعض وتحمل الاسم نفسه تماماً؛ فهناك ميفعة في مخلاف حضُور- حصور إلى الغرب من صنعاء، وأخرى في مخلاف مُقْري إلى الشمال الغربي من ذمار، وميفعة ثالثة في حضرموت، وأخيراً ميفعة إلى الشرق من ذمار. لكن البكري (معجم: ١٢٨٥) يحدد ميفعة في بلد همدان، وهو كما رأينا مما سبق وطن قديم واسم قبيلة يمنية، ينتسب إليها صاحب كتاب صفة جزيرة العرب، ما بين نجد إلى السراة شمالي صنعاء فتهامة وما بينها وبين صعدة وخولان. إذا ما قمنا بمُطابقة توصيف الهمداني والبكري مع وصف يشوع؛ فإننا سوف نتعرف على ميفعة التوراتية:

> **(وها-عير- ءشر-بتوك-نحل-وكل-ها-ميسر-عل- ميدبء)**
> **(والمنازل التي وسط الوادي، وكل- وادي-الميسر وأعلى- وادي- ميدبء)**

لنتوقف هنا قليلاً: لقد أخفق المترجمون في فهم الجملة الآنفة فهماً صحيحاً، وذلك عندما ترجموا الاسم (ميسر) إلى (نجد) أي مكان مرتفع.

في الواقع نجمت عن هذا الفهم غير الدقيق للجملة مشكلتان، الأولى: أن الكلمة التي تؤدي معنى نجد في العبرية هي سده (والسدة حتى اليوم في العامية العراقية مثلاً تعني المكان العالي أي إنها ليست مؤنث سدّ، بل هي بالضبط سده العبرية- العربية القديمة). أما اسم وادي الميسر فهو لا يُعرف، إذ لا توجد كلمة بالعبرية تعطي أي معنى مقبول. ويبدو أن المترجمين خلطوا بين هذا الاسم ميشر-ميسر وبين كلمة (ميشور) بمعنى: السهل (ميسور العربية) ولذلك قاموا بترجمة الكلمة غير المفهومة بالنسبة إليهم إلى (نجد). والثانية: أن النجد لا تعني فقط المكان المرتفع، وإنما كذلك موضعاً أو مكاناً بعينه. والنجد في وصف العرب يطلق عامة على ما يعرف بنجد (المملكة العربية السعودية) وهو طويل عريض فيه وادي الرمة، كما يقول الأصمعي اللغوي العربي الشهير. وإذا ما قبلنا ترجمة كلمة ميسر على أنها نجد ففي هذه الحال يجب التفكير ملياً بمدى منطقية القول: إن قبيلة واحدة يمكن أن تقطن منفردة في مكان تضاهي مساحته مساحة دولة بحجم تونس؟ بل إن نمط الاستيطان القبائلي القديم في اليمن لا يعرف مثل هذا التفرد في (كل -ها-ميسر) بمعنى: (كل النجد-بحسب النص السائد). ولذا فإن ضبط الاسم (ميسر) ضبطاً عربياً صحيحاً في صورة مسر، سوف يوضح المكان المقصود ويزيل اللبس تماماً، فالقبيلة حصلت على منازلها من النبي في كل الوادي وليس في (كل المرتفعات: كل النجد) وثمة فارق هائل بين القصدين. هاكم شهادة الهمداني المُتناظرة مع توصيف يشوع (صفة: ١٢٢-١٢٣):

> ثم يتصل بها سراة ألهان، فظاهره ضوران ومِذاب (..) ومُقْري (...) وجبل حضُور ومسار ثم يتصل بها سراة المصانع وأعلاها حضُور.

هذه هي جبال صنعاء -سراة المصانع التي تجمع أعلى مِذاب، بكل

وادي مسر (ب- كل - ها- ميسر) وإلى جوارهما (ضور) بالضاد العربية المعجمة وحسب النطق الكلاعي القديم: ضوران. لقد توهم التوراتيون أن اسم الموضع ينصرف إلى صور اللبنانية، مع أنهم يعلمون جيداً افتقاد العبرية لحرف الضاد العربي وهي تستبدله بالصاد المهملة: (مثل ءر ص- أرض). وكنا رأينا أن الهمداني يضع ميفعة في حقل صنعاء (الإكليل: ١: ٤١٤). يقول النص في جملة تالية: (حشبون- وكل- عريه- ء شر - ب- ميشر-وديبن) وترجمتها (-بلاد - حشبون وكل منازلها التي في مسار ودَيبنْ).يستخدم النص التوراتي هنا، صيغة (ديبن) بدلاً من البناء العبري التقليدي (ديبون) بما يقرب هذا الرسم من شكله العربي ذَيْبن.كما أنه يشير إلى منازل الحشبونيين- الحواشب في الوادي والجبل. وبكل يقين فليس ثمة من جبل أو وادٍ إلى الغرب من نهر الأردن، أقامت فيه قبيلة تدعى الحشبونيين. وفضلاً عن ذلك؛ فإن الهمداني في وصفه لسرو مَذْحِج يعطي (انظر صفة: ١٨٨) تصوراً دقيقاً لوادي شبمه ويضبطه في صورة يشبم؛ بما يُعيد تذكيرنا بالرسم التوراتي للأسماء، مثل يعرم وهو بناء يمني تقليدي ومعروف:

> جَردان وادِ عظيم فيه قرى كثيرة، يشبم وادِ عظيم للإيزون من حِمْيَر. وحجر بن وهب.

قال زهير بن أبي سُلمى واصفاً وادي يشبم -شبمه:

شَجّ السُّقاةُ على ناجودها شبما   من ماء لينة لا طرقاً ولا رَنَقا

مازلتُ أرمقهم حتى إذا هبطت   أيدي الركاب بهم من راكسٍ فَلَقا

نعلم الآن من يشوع والهمداني والشعر الجاهلي على حد سواء، أن سبط راؤبين أقام في هذا المكان على مقربة من منطقة تدعى حجر (بني

وهب). المثير للاهتمام بصدد هذا الاسم أن اليمنيين المعاصرين يُسقطون اسم وهب، حين ينطقون اسم الموضع ويكتفون بالاسم الأول حجر. وهذا بشهادة محقق الكتاب العلامة الأكوع. في هذا السياق يضع الهمداني ضور التوراتية -ضوران قرب وادي مسار تماماً وإلى جوارهما يهصه- يهص في المكان نفسه نعني مخلاف مُقْري، وهو مخلاف واسع ضاعت معالمه اليوم وصار جزء من مدينة ذمار. هاكم شهادة الهمداني عن هذه المواضع (صفة: ٢٠٨-٢٠٩):

مخلاف ألهان ومُقْري: ومن هذا الصقع في حيز-وادي- سهام من غربي ذمار: ضوران ومذاب (.....) ومسار (ثم مخلاف حراز) وشظ الحجل والأحص وهو منهل الظهار.

ضوران- ضور هذه، من حصون اليمن التي تشتهر بغزارة المياه، وتقع إلى جوار سلسلة من المواضع الواردة في النص التوراتي. لقد توهم المترجمون أن المقصود من صور حسب الرسم العبري في هذا النص، إنما هو مدينة صور اللبنانية حصراً وهذا غير منطقي وغير معقول؛ إذ لا تقع صور اللبنانية في جغرافية تتضمن أسماء غريبة، مثل وادي مذاب فيما يمكن لنا رؤية ضور(بالضاد المعجمة) في المكان نفسه، الذي وصفه يشوع قرب وادي مذاب بالفعل، وقرب مكان آخر بعينه يدعى الأحص. وهو مكان يسميه الشعر العربي القديم يهص. فهل هي مجرد مصادفة لغوية أو جغرافية أن نجد وصفاً متطابقاً لأماكن تشتهر بغزارة المياه في فضاء جغرافي واحد؟

والآن إلى الموضع التالي (صارت شحر). في الطبعة العربية من التوراة يُرسم الاسم بالشين (صارت-شحر) والصحيح أنها بالسين (صارت- سحر). والسحر واد قديم مندثر من أودية اليمن التي سجلها

الهمداني في صفة اليمن الجغرافية. تشير كلمة صارت[1]- صارة حسب الضبط العربي إلى كل مرتفع جبلي؛ ويبدو أن القدماء من العرب كانوا يألفون رسماً للاسم، قد يبدو غريباً بالنسبة إلينا نحن المعاصرين، فهم يرسمونها بالتاء المفتوحة صارت تماماً كما في العبرية. قال زهير بن أبي سلمى:

لِمَنْ طَلل كالوحي عافٍ منازلهُ عفا الرّسُ منه فالرسيس فعاقلهُ

فرقد فصارتٍ فأكناف مَنْعجٍ فشرقي سلمى حوضهُ فأجاولهُ

يقول الهمداني (صفة: ٢١٥) واصفاً مخلاف خولان وأوديته:

ويتصل بمخلاف خولان مخلاف آل ذي جُرة (..) والأودية أولها من شمالها وادي السر وفيه بعد ذلك قرى كثيرة مثل - قرى- الأسحريين- من سحر- ومن الجبال المعروفة: ذباب (..) وصُرَع وسامك والفلكة وأذْير (..) ووادي التناعم وفيه أودية منها سحر.

طِبْقاً لملاحظات محقق الكتاب العلامة الأكوع؛ فإن وادي سحر هذا يقع ضمن سلسلة من الوديان والمرتفعات، حيث تنتشر قرى الأسحريين المنسوبين إليه، وقد عُرِفَ الوادي -ذات يوم- عند القبائل العربية باسم ذي سحر على جري عادات اليمنيين في نطق الأسماء. بيد أن لهذه التسمية دلالة خاصة في هذا النص وسواه من نصوص الهمداني، فهي تُطلق على المكان الذي يمتاز بمعالم مُحددة وبارزة. وفي حالة هذا الوادي؛ فإن كثرة المرتفعات فيه هي الميزة الأهم. وبذا

---

(١) وفي القرآن ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ رسمت (نعمت) بالتاء المفتوحة، ومثل ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ في القرآن الكريم أيضاً، ومثل رحمت في رحمة في النقوش التي تركها اليمنيون بخط المسند.

يتبين أن المقصود بـ صارت-سحر من منازل سبط رءوبين، إنما هو مرتفعات وادي سحر. إن سراة خولان هذه حيث يقع الوادي، هي المكان الوحيد الذي يعرف اسم موضع يدعى عد-بوه وحسب النطق اليمني القديم: بوهن بإضافة النون الكلاعية. فهل يفسر لنا ذلك المعنى الحقيقي لقول يشوع: إن منازل القبيلة الإسرائيلية تقع عند تخوم منطقة حجر بن - بوهن- رءوبين؟ المثير للاهتمام في هذا الإطار، أن يشوع يقول في وصف منازل سبط رؤبين ما يلي (وقارن بين اسم أذير في هذا النص مع أذير عند يشوع في الفصل الخاص بحملات أسرحدون وسنحاريب):

(وتصعد إلى جبول بن- بوهن - رؤبين)

بكل تأكيد ليس ثمة مكان في جغرافية نهر الأردن يحمل مثل هذا الاسم، بينما تعرفه جغرافية مملكة -مخلاف خولان في صيغة (حجور عد بوه- بوهن). والمكان هو بالفعل إلى الغرب من وادي يرد-يردن. هذا ما يؤيد فهمنا لمعنى الكلمة العبرية المُلتبسة جبول والتي نرى أنها تعني حجور، مرتفعات، أو قابل ولا تعني حدود كما في الترجمة السائدة. إليكم ما يقوله يشوع حرفياً -النص مختصراً-: (١٥: ٧: ٢٨):

وتصعد إلى بيت حجلة وتمر من شمال بيت العربه وتصعد إلى حجور بوهن بن رؤبين (..) وهنوم إلى كتاف إلى يبوس من جنب وهي يروشليم.

وكنا رأينا أن منازل هذا السبط تقع قرب وادي هنوم. والآن لنقارن نص يشوع أعلاه بنص الهمداني التالي: (صفة: ١٢٧-١٣٠):

ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهنوم (...) فمنقل سفران (..) ثم يتصل بها سراة خولان (..) فالهلة وعد بوه.(..) ثم يتلوها سراة جنب وبلد العرعر.

ها هنا مياه غزيرة تدعى بوه- بوهن قرب وادي هنوم تماماً كما في نص يشوع. وإذا ما سار المرء في هذه السراة فسوف يدخل سراة جنب وبلد العرُعر-عروعر (انظر القائمة) والتي تطلّ على وادي أرنون- أرن، بالضبط كما جاء في وصف يشوع. وأخيراً يستطيع المسافر عبر هذه السراة، أن يمر في منقل سفران- سفر الذي أقام فيه سبط كلب (انظر ما كتبناه عن كلب في بداية هذا الفصل، ولاحظ النون القديمة التي دخلت على الاسم سفر)؟ لسوف تكشف مراجعة دقيقة للنص الطويل الذي يصف فيه الهمداني هذه المواضع، عن تطابق مذهل وتام بينه وبين نص يشوع؛ فهو يعطينا الأسماء ذاتها، مثلاً وادي العرب ويبوس (وهذه هي أورشليم القديمة). وبالطبع يجب ألّا ينخدع القارئ بالصور النمطيّة التي رسخها المخيال الاستشراقي عن يروشليم التوراة، لأن القبائل العربية في طفولتها البعيدة كانت تُسمي كل مكان مُحبب لديها بـ- مدينة السلام-. وهذا هو النطق العربي للكلمة العبرية يرو- سلم (أورشليم) حتى أن العباسيين عندما بنوا بغداد أسموها مدينة السلام على جري هذا التقليد.كما أن التوراة نفسها تسمي مواضع عدة بهذا الاسم. إذا كنا حددنا بفضل الهمداني منازل رءوبين في مخلاف خولان؛ فهذا يعني أن بوسعنا العثور على ما تبقى منها هناك وبالصيغ ذاتها. هاكم ما يقوله الهمداني عن وادي ريع (انظر القائمة وصفة: ٢٢٤):

وأما ظاهر خولان فهو أسل وفيه زروع (..) وأودية صعدة دماج وعكوان (..) ويمدهما من المغرب وادي ربيع.

هذا هو وادي ربع-ربيع حسب ضبط الهمداني، في المكان نفسه الذي وصفه يشوع. ولما كنا رأينا من نص التوراة، أن منازل السبط قرب وادي الحجلة - انظر النص الآنف عن حجر بوهن- فهذا يعني أن بقية المنازل ستكون هناك؟ يقول الهمداني (صفة: ١٨٦ -١٨٨) في وصف أودية مخلاف ردمان إلى الشرق من مدينة ذمار، ما يلي:

> **البُضع أودية منها: حوران ورُواف وقاينة (..) وسبعة أودية كبار منها الحِجلة. رجع- رجعنا- إلى صفات الميمنة: طريق السرو بنو أرض وهم من عُلة، وذو الذويب وادٍ كبير ليافع (..) يشبم وادٍ عظيم للإيزون من حمير وحجر بن وهب.**

ها هنا منطقة حجر بن وهب وها هنا الوادي العظيم الذي ذكره يشوع باسم يشبمه-يشبم، وهو يقع بالضبط قرب وادي حجلة. فهل نجد مثل هذا التطابق في فلسطين؟ والآن إلى (وادي حور) الوارد ذكره في القائمة. يقع وادي حور التوراتي-حورن مثلما رأينا في نص يشوع، على مقربة من وادي حجلة. وبمراجعة بسيطة للنص التوراتي سنجد أن هذا الوصف يتوافق تماماً، مع توصيف الهمداني للمكان نفسه ولجغرافية الأرض التي أقام فيها السبط الإسرائيلي. ها هنا يشبم -شبمه وحور وهي وادي حوران. فضلاً عن عُلة وبنو أرْض-بنو ءرص في التوراة ووادي رُواف- روفئيم. أما فيما يتصل باسم حشبون الوارد في القائمة؛ فإن النص العبري (يشوع: ١٣: ١٧: ١٤: ٤:) يعطي التوراة الجملة التالية:

> (وحشبون-وكل -عريه-ء شر- ب-ميشر- ديبن-وب-موة- بعل)
> (وحشبون وكل منازلها التي في ميسر وديبن وفي موة بعل)

تُرجمت هذه الجملة البسيطة في النسخة العربية من التوراة، بطريقة شاذة وغرائبية جعلت من فهم النص برمته مستحيلاً؛ إذ رُسِمَ الاسم (موة) في صورة (بموت) بعد دمج حرف الجر (ب) مع الاسم. ولذلك ظل فهم الجملة عصياً على كل مُقاربة ممكنة، وأثار حيرة وارتباك الباحثين عن أرض الميعاد في فلسطين؛ إذ ماذا تعني كلمة (بموت) هنا؟ في الواقع ليس ثمة مكان يدعى باموت أو (بموت بعل) بل هناك جملة تقول (ب- بموة- بعل) وترجمتها الصحيحة (في موة بعل). وهذه الجملة تشير إلى مكان بعينه يدعى موة - أو ماوة وهي مياه عرفت قديماً باسم ماوة - بالمد -. وكما نعلم من الشعر والروايات الإخبارية الكلاسيكية عند العرب؛ فإن القبائل تُسمي كل مسيل مياه غزيرة بعل. لقد أراد سارد النص تحديد منازل القبيلة، أو السبط قرب مكان بعينه نزلت فيه وهو مياه موة- ماوة، لا أكثر ولا أقل. تُعد ماوة عند الهمداني من مياه أودية الجوف اليمني، وهي من القرى العامرة على مقربة من قعطبة حيث بلاد الحواشب - حشبون تماماً كما عند يشوع (صفة: ١٩٥-٢٠٠ النص مختصراً):

> **والحواشب من حِمْيَر ورأسهم والقائم بأمرهم عبد الجبار الحوشبي(..) وجبال شرعب ومجمعها وادي نخلة والوحش من بلد حاشد وهذه البلاد من السراة والعلو ومنكث وماوة.**

ها هنا الحواشب - حشبون وها هنا ماوة - موة وهي بعل بمعنى مياه غزيرة. وماوة هذه حتى عصر الهمداني-من مخلاف رُعين الذي زال عن الوجود وتلاشت قبائله- كانت مسيل مياه يختلط بأودية الجوف التي تبلغ نجران فتصبح من أوديته (صفة: ٢٢٨):

> **وأول الأودية بين نجران والجوف قضيب وفيه مياه بلحارث: الأغبر والجموم وماوة.**

هذا هو المعنى الحقيقي لعبارة التوراة بـ- موة- بعل أي: أن منازل سبط رءوبين كانت قرب هذه المياه، مثلما كانت قرب الحشبونيين- الحواشب وفي جبل ديبن- ذَيْبان. وفي نص الهمداني؛ فإن ماوة صارت من مياه بلحارث القبيلة العربية الشهيرة التي سوف تقود المسيحية الأولى في نجران، ويصبح سيّدها كعب أحد أكبر كهنتها، ومن شهداء المسيحية في محارق ذي نواس الملك اليمني اليهودي. (راجع عندنا حول واقعة الأخدود). قال البُحتري (معجم: ١١٧٨):

وتَرَكنَ ماوة وهي مأوى للصدى   مصفوعة بصدى الرياح العُصَفِ

تلك مياه ماوة -موة حيث منازل الحواشب- الحشبونيِين. وفي النص التوراتي: (حشبون وكل المنازل في نجد ديبون) وها هنا جبل ذيْبان - ديبن في نجد همدان. يقع جبل ذيْبان في بلد همدان إلى الغرب من وادي يرد-يردن (إلى الغرب من صنعاء) وليس إلى الغرب من وادي الأردن البلد العربي، على مقربة من حرمة-حرمة في التوراة وفج المولدة-فج المولدة في التوراة، وهما معاً من منازل سبط يهوده-هود في المرويات التاريخية العربية. وهاكم تحديد الهمداني الدقيق للعلاقة بين بعض المواضع الواردة في القائمة (٢١٧-٢١٨):

> **أما بلد همدان؛ فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة بين نجد والسراة (..) وجبل ذيْبان وجبال نهم الدنيا إلى أضحَر يام إلى هيلان (..) وقد تشترك في شرقي وادي محصم وأسفله لصُبارة مع جبل ذَيْبان فالضرك فطالعين فمِذاب.**

في هذا الوصف المُسهب؛ والذي قمنا بضغطه ليتناسب مع الحاجة العملية للتعريف بالمواضع تعريفاً صحيحاً، يتضح أن جبل ديبون- ذَيْبون

وفقاً للبناء العبري يتصل مع وادي مِذاب-مدبء تماماً كما عند يشوع. هنا مُقاربة أخرى بين النصين القديمين:

مقاربة

الهمداني: ٢١٧-٢١٨	يشوع: ١٣: ١٨: ٢٣
أسفله صُبارة مع جبل ذَيْبان	كل النجد عند مدبء والمنازل التي
فَمِذاب.	في نجد ديبون.

إذا ما قمنا بمُطابقة الأسماء والتوصيفات والتحديدات الجغرافية في نصي يشوع والهمداني، بعضها مع بعض؛ فإن فكرة عبور الأسباط الإسرائيلية نهر الأردن-البلد العربي، ووجود منازل إلى الغرب منه أقامت فيها في عصر موسى، ستبدو- إلى النهاية- فكرة غير منطقية وتلفيقاً استشراقياً نموذجياً؛ لأن من المستحيل العثور على موضع واحد مما ورد في نص يشوع. وفي هذا الإطار، يمكن النظر بجدية أكبر إلى مغزى تلفيق مأدبا الأردنية والزج بها في نصوص التوراة. إن الرسم الشائع في الطبعات العربية من التوراة لاسم مأدبا، هو نتاج مُطابقة أخرى زائفة بين هذا الاسم- في رسمه العبري مدبء - واسم الوادي اليمني مِذاب؛ إذ تخيّلت القراءة الأوربية أن مدينة مأدبا إلى الغرب من نهر الأردن، هي ذاتها مدبء التوراة. لماذا؟ لما كانت القراءة الأوربية تخيّلت أصلاً، أن بني إسرائيل عبروا نهر الأردن، فمن الطبيعي أن تكون مدبء- في هذه الحالة- هي مدينة مأدبا الأردنية على مقربة من البحر الميت في منطقة الغور. في الواقع ليس ثمة أثر، مهما كان تافهاً، يمكن أن يشير إلى بقية المواضع الواردة في وصف يشوع؛ فليس هناك - مثلاً- حشبونيين أو جبل يدعى ديبون، كما لا وجود لوادي حجلة أو يهص أو يشبم- شبمه. فضلاً عن سائر الأماكن التي تحدثنا عنها.

إن اسم بيت فعرى - مثلاً- هو نموذج آخر في التلفيق، إذ يُرسم في صورة بيت فغور، مثله مثل بيت يشموت الذي يجب أن يُرسم في صورة يَشْمُت. وبالطبع لا تعرف فلسطين الحقيقية مثل هذه الأسماء؛ بينما يمكن عند إعادة ضبطها ضبطاً عربياً صحيحاً، أن نعثر عليها سوية مع عرعر- انظر عرعر في القائمة-:

> بيت فُعْرَى وصُفوح الفَسْجَة وبيت يَشْمُتْ وكل منازل النجد وكل مملكة شيحون.
> (يشوع: ١٣ : ٨: ٢٣: راجع النص العربي)

قال كثير (معجم: ١٠٢٦):

وأتْبَعتُها عيني حتى رأيتها ألمت بُفْعرى والقِنان تزورها

وقد حدَّدها الهمداني على النحو التالي (صفة: ٢٩٨):

> بيلح وترميم من مواضع عزة كُثير. شابَة نجدية - ثم - كتانه وُفعْرى.

في سِفر يشوع يتم وضع يشموت-يشمت على مقربة من فعور-فعرى، بوصفها من منازل النجد أي المرتفعات. ولكننا لا نعرف أية مرتفعات في فلسطين، يمكن لنا أن نعثر فيها على وادي حجلة ووادي مذاب وجبل ديبون وأرنون وفعرى؟ فهل ارتكب كاتب النص العبري خطأً جغرافياً، في أثناء وصف المنازل التي أقام فيها السبط الإسرائيلي، أم أن ثمة خطأً في قراءة الأسماء من جانب محققي التوراة؟ وبينما لا نستطيع البرهنة على وجود هذه المواضع في فلسطين؛ فإننا في المقابل نستطيع وبسهولة العثور عليها في الفضاء الجغرافي لنجد اليمن عند خروجنا من همدان. قال عَلقَمة بن عَبْدة -الفحل - (معجم: ١١٧٩):

وقلتُ لها يوماً بوادي مُبايضٍ أرى كلَّ عانٍ غيرَ عانيكِ يُعتَقُ

وذكرتُها بعدما قد نسيتُها ديار علاها وابل مُتبعّق

بأكنافِ شماتٍ كأن رسومها قضيم صناعٍ في أديمٍ مُنَمّق

ها هنا وادي شمُات-يشموت في نجد اليمن، بين جَرش وصَعْدَة بالنسبة إلى السائر نحو وادي مُبايض في نجد العليا، حيث بدت المنازل بالنسبة إلى الشاعر مثل رسوم ضاعت ملامحها وتناثرت، ولكن مع أدلة كافية على مهارة الصانع الذي نقشها فوق أديم الأرض. أما وادي ءوي-أوي (انظر النص والقائمة) وضبطه الصحيح حسب التهجئة العبرية: ءُي؛ والذي لا تعرفه أرض فلسطين، كما أن التوراتيين بحثوا عنه في الضفة الغربية دون جدوى، فليس سوى وادي أيًا. وهذا الوادي من الأودية القادمة من أوطان بلحارث في الجوف اليمني، والتي تصب في الخارد ما بين اليمن ونجد. قال الطفيل الحارثي (ياقوت: ١: ٣٤١):

فَرُحتُ رواحاً من أيا عشية إلى أنْ طرقتُ الحيّ في رأس تُخْثُمِ

وادي أي-ءُي هذا، يقع - ويا للمُصادفة- على مقربة من مصبّ وادي مدبء- مذاب تماماً كما في نص يشوع. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٨٤):

وأيا وملاحا والعُينية ورَهنة واقة يهريق- يريق- قبل نعمان ثم إلى مِذاب وأذير.

إننا لا نعرف وادياً يُدعى مذبء أو مذاب، تلتقي مياهه إلى الغرب من نهر الأردن - البلد العربي- بوادي ءي، أو أوي أو أيا؟ بل نعرف وادي مذاب وأيا إلى الغرب من وادي يرد اليمني (إلى الغرب من صنعاء

والذي ينطق في صورة يردن) وعلى مقربة من جبل أذير. إنه لأمر مدهش حقاً أن يحدث مثل هذا التطابق بين نصي يشوع والهمداني حتى في أدق التفاصيل، مدعوماً بشهادة الشعر العربي القديم (وقارن بين الاسمين وانظر كذلك جبل أذير في قصيدة أشعيا السابقة).

في سياق سلسلة المُطابقات الماكرة بين ها- يردن ومدبء، وتخيلهما على أنهما نهر الأردن ومأدبا الأردنية، جرى تخييل موازٍ لموضع بيت-بعل-معون؛ حدث بمقتضاه اعتبار المكان المقصود مدينة معان الأردنية؟ مع أن نص يشوع يضع معان الملفقة هذه قرب ميفعة؟ بل وقرب قديموت وهما اسمان لا تعرفهما معان الأردنية ولا الضفة الغربية. يقول نص يشوع ما يلي: (بيت- بعل-معون- معن تقع إلى الغرب من وادي يردن). فهل تعرف اليمن مثل هذا التحديد الجغرافي للمكان؟ لنلاحظ - هنا- أن الاسم المركب يشير إلى مكان غزير المياه، فهو يوصف بأنه بعل؛ وهذا اسم إله المطر والماء عند العرب القدماء. هاكم وصف الهمداني لبلد قُدُم- قدموت ومياه معين- معون إلى الغرب من وادي قبيلة يرد (ها- يردن. صفة: ١٣٤-١٣٥) في السراة اليمنية:

ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم. ومساقي مَوْر تأخذُ غربي همدان فبلد صُحار فبلد بني حارثة، وحماد ويَرد. ويمد حجور، فعيان، فنمل، وشرس، فبلد عذر وهنوم، وما أخذَ من بلد قُدُم بن قادم (..) فيه أراب ثم حرض وهو وسط من الأودية (..) إلى معين[1].

(١) تعتبر معين من المدن العظيمة في اليمن القديم. ولا تزال بقايا معابدها شاهداً حياً على ازدهار عبادات دينية كثيرة. ويستفاد من مجموعة نقوش تركها المعينيون ان نحواً من ٢٢ ملكاً، تحدروا من خمس أسر، حكموا معين في منطقة الجوف. خاضت معين حروباً طاحنة مع مملكة سبأ انتهت بعضها باستسلام معين. أول من كتب بخط المسند - على ما يرى علماء الآثار - هم المعينيون في القرن الثاني عشر ق. م.

إذا قمنا بتفكيك وحدات هذا النص الجغرافي الصارم والدقيق في استطراداته، إلى وحدات أصغر فأصغر قصدَ إعادة تركيبها من جديد، فسوف نحصل على النتائج التالية : مياه معين في الجوف اليمني هي المكان المثالي لتجمع مياه سلسلة من الوديان العظيمة. ها هنا قدموت التوراتية وهي- قُدُم اليمنية على مقربة منها المنازل التي أقام فيها سبط يهوذه- (هود) مثل عذر وهنوم وشرس. وها هنا إلى الغرب وادي قبيلة يرد بن مهلئيل (يردن). وهناك في أسفل الجوف معون التوراتية- معين اليمنية. يعني هذا أن يشوع والهمداني وشعراء الجاهلية، إنما كانوا يصفون لنا المكان نفسه الذي دونت التوراة اسمه في قصصها عن منازل القبائل. قال عمرو بن معد يكرب- كرب الزبيدي :

يُنادي براقشَ أومُعينٍ اسْمعَ واتلأبَ بنا مليعُ

ما تبقى من منازل سبط رءوبين وكما وردت في قائمة يشوع؛ موضعان أحدهما هو قرتئيم- القريتان والآخر (ءسدوت- الفسجة). ولابد من ملاحظة ضرورية هنا بصدد هذا الاسم : إن المترجمين يعطون مكافئاً غريباً للاسم في صورة سفوح -الفسجة. ومن الواضح أنهم لم يفهموا جيداً معنى الاسم أو دلالاته. وبكل تأكيد ليس ثمة سفوح تُدعى الفسجة لا في فلسطين ولا في أي مكان في هذا العالم. ما يجب قوله في هذا الصدد أننا لا نعرف كلمة -في اللغة العبرية- تتضمن مثل هذا الجذر الغريب. ولكن الاسم كما ضبطه الهمداني هو السُّد -السدوت، حسب البناء العبري للأسماء، والتاء الملحقة من عادات نطق أهل اليمن (مثل قرشت في قريش) وهذا مشهور ومعروف في النقوش. أما الفسجة فهي برأينا الفسخة؛ بما أن العبرية تفتقد إلى حرف الخاء المُعجمة. وهذا ما سنقوم بتوضيحه : في حديثنا عن وادي سحر الذي يضعه الهمداني في مخلاف خولان وذي جُرة (انظر مادة سحر عندنا في القائمة والنص) رأينا كيف أن الأودية في هذا المخلاف، تمر بمأرب في طريقها إلى الجوف حيث جبال صُرع ويام وعُذر. وفي هذا

المكان يقع موضع يعرفه اليمنيون القدماء باسم: مأزمي السد- السدوت، والمأزم بلغة العرب القدماء: المضيق بين هضبتين. إن كلمة فسخة تعني، كما في العربية اليوم (فشخة) أي المسافة الضيقة بين مكانين. وهذا هو المعنى نفسه في كلمة مأزم. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٥٣-١٥٤):

> ومخلاف ذي جُرة ويكلى وهران بسواد ذمار ومساقط بلد خولان (..) يكوّن هذه السيول وادي أذنة وتفضي إلى مأزمي السد (..) ويميل من خلف السد منه إلى رُحابة. ثم من بعد مأرب أودية لطاف إلى الجوف، مشاربها من شُرفات ذي جُرَة ومن شرقي خولان العالية ويكون على هذه الأودية بنو بلحارث، ثم أودية الرضراض مشاربها من جبال السر: صُرَع ومساقط عُذر مَطِرَة وبلد يام ثم الجوف.

هذا هو السد (ءسدوت) بمأزَميْه، أي بين فرْجَتيه. وهنا يكمن المعنى الحقيقي للكلمة العبرية الفشجة-الفسخة. إن كلمة فسق- فشج- العبرية وتنطق حتى اليوم في كلام أهل اليمن في صورة جيم مصرية تعني: فرج بين رجليه، فتحَ، أو باعدَ بينهما، تماماً كما نقول في عاميتنا فشخة. يعني هذا أن يشوع لم يأتِ على ذكر موضع يُدعى سفوح الفسجة؛ فهذا مكان لا وجود له على الأرض؛ بل تحدث عن (فسخة ءسدوت). علماً أن المترجمين قاموا بترجمة (ء سدوت)[1] إلى سفوح، بينما لا تؤدي الكلمة في العبرية مثل هذا المعنى. ولذلك قمنا بضبط الاسم كما ورد عند يشوع (ء شدوت- ها- فشجه) أي (مأزمي- فتحتي السد) والمقصود به سدّ مأرب. أما قريتثيم- القريتان أو القرى (الياء والميم أداة تثنية وجمع في العبرية) فهي المكان نفسه المعروف عند الهمداني بالقريتين أسفل اليمامة

---

(١) رسم الدال في صورة تاء رسم مألوف في النقوش اليمنية مثل كدت في كندة، كما في النقش المعروف بـ SH42.

على مقربة من ديار هوذه- هوذة بن علي السحيمي الحنفي آخر الملوك الجاهليين -(قارن مع اسم يهوذه صفة: ٢٥٢-٢٥٣):

> **وديار هَوْذه بن علي السحيمي وهي أول اليمامة (...) وعن يسار ذلك العين التي يخرج منها السيح الكبير، ثم أسفل من ذلك القُرى من اليمامة: الضبيعة، والملحاء (..) والقنع مفضى القاع.**

إذا تأملنا هذا النص جيداً فسوف نلاحظ ما يلي: إن صاحب صفة جزيرة العرب يضع القُرى على مقربة من السيح- سيحون تماماً كما عند يشوع؛ فهل ثمة مُصادفة أخرى جمعت بين يشوع والهمداني؟ أم إنهما كانا يصفان أوطان القبائل العربية البائدة في المكان نفسه؟

٢ : سبط جد (جاد)

تكشف مقاربة مُتحَسبة وعميقة، لأسماء المواضع والأماكن التي أقام فيها سبط جد-جاد، عن حقيقة هامة: إن هذه المواضع كانت في منطقة الجوف اليمني وليس في أي مكان آخر؛ وهذا أمر في غاية الأهمية، لأنه يشير إلى نمط من الإقامة، يرتبط ببدايات انزياح القبائل البدوية العاربة عن العالم اللاعضوي (الصحراء) واتجاهها نحو الاستقرار في أوطان جديدة. يقول النص العبري (١٣ : ١٧ : ١٤ : ٤ : يشوع) ما يلي:

> **(ويتن- مسه- ل-مطه- ل- بني- جد- ل- مشفحتم- ويهي- لهم- ها- جبول- يعزر- وكل- ها- عريه- ها- جلعد-وحصي- ء رص- بني- عمون- عد- عروعر - ءشر- عل- فني- ربه- وم- حشبون-عد- رمة- ها- مصفه- وبطونيم- وم- محنئيم- عد-ها- جبول- ل- دبر- وب- عمق- بيت- هرم- وبيت-نمره- وصكت- وصفن- ويتر- م-**

ملكوت- سيحون- ملك- حشبون- ها- يردن- وجبول- عد- قصه- يم- كنروت- عبر- ها- يردن).

(واَقْطَعَ موسى سبط بني جد-جاد؛ لهم ولعشائرهم من بني جد- جاد، فكانت لهم القبَل من يعزر وجميع منازل جلعد. ونصف ما مع أرض بني عمون، حتى يعزر التي مقابل ربَّه، ومن حشبون إلى رمة الصفا، فالبطنات، ومن محنئيم عند قابل لدبر. وفي الجوف بيت هرم وبيت نمره وسكوت وصفون، ويتر. ومن السيح الكبير، ومُلكْ حشبون اليردن، والقابل حتى أقصى كنروت، ويام عبر اليردن)

لا يشير هذا النص إلى فلسطين قط. وليس هناك مكان أو موضع أو جبل، يمكن تخيل وجوده في الضفة الغربية من نهر الأردن (الذي يُزعم أن الأسباط عبرته، أو أنهم أخذوا اسمهم بنو عابر- العبرانيون منه بعدما عبروا النهر) يمكن أن يتطابق حتى ولو كان ذلك شكلياً، مع أي اسم من هذه الاسماء الواردة في هذا المقطع. لقد توخينا في ضبط أسماء المواضع في هذا النص، وإلى أقصى حد ممكن، تطابقها التام مع الرسم العبري من دون تحريف أو تلاعب لغوي. كما توخينا إنشاء النص بلغة هي الأقرب إلى ثقافة الجماعات القديمة، التي كانت تحصل على الأرض كإقْطاعٍ ديني. وهذا هو برأينا مغزى العبارة التقليدية في نصوص التوراة: (ويتن- مسه- ل- مطه): واَقْطَعَ موسى لسبط (..) وليس (أعطى). وثمة دلالة أعمق في كلمة أقطع مما هو عليه الحال في كلمة أعطى. وفي تاريخ الإسلام شواهد كثيرة عن إقطاع النبي ﷺ لرجال القبائل: الأرض والمياه والجبال، بوصف ذلك تقليداً راسباً من تقاليد المِلكية الخاصة، في عالم الانتقال من البداوة الأولى إلى الاستقرار وظهور المواطن القبائلية، أو ما يُعرف بالبلاد أو الأوطان- مثلما يُقال: بلاد طيء وبلاد تميم.. إلخ. بكلامٍ ثانٍ فإن كلمة أقطع لا تدلُّ على العطاء بمقدار ما تشير إلى الحصول والامتلاك. والقائمة أدناه هي خلاصة النص:

الاسم بالعبرية	الضبط العربي
١ : يعزر	عزُر
٢ : جلعد	جلعد
٣ : ربَّه	ربَّة
٤ : عَرُعَرْ	عرُعر
٥ : رمة المصفاه	رامة الصفا
٦ : بطنونيم	البطنات
٧ : محنثيم	الحنات
٨ : لدبُر	الدبر
٩ : وفي عمق: بيت - هرم - بيت نمرة - صفون - سكوت	 هرم نمرة صفون سكة
١٠ : يام	يام
١١ : كنروت.	كُنر

تتردد في هذا النص من جديد، أسماء منازل وأماكن سبق لنا الإشارة إليها. ويبدو أن سارد النص، وفي إطار تقاليد التوصيف الجغرافي القديم، كان حريصاً على إيضاح وتحديد الطرق والمسالك، التي يمكن أن تؤدي إلى منازل سبط جد- جاد. ولذا قام بوصفها في سياق تحديد اتجاهات الطرق، التي تؤدي إلى منازل جماعات أخرى، سبق له أن أشار إليها مثل حشبون- الحواشب. وهذا أمر مفهوم تماماً بالنسبة إلى ساردٍ بدوي الثقافة. وحتى اليوم، فإن البدوي إذا ما سألته عن مضارب قبيلته، يقوم

تلقائياً بالعمل ذاته: وصف الطريق إليها عبر منازل جماعات أخرى. الأمر الهام- في هذا النص - إشارته إلى وجود منازل السبط في مكان يدعى عمق، حيث توجد سلسلة من المنازل هناك مثل بيت نمره، وبيت هارم حتى صفون وسكوت.

ما الصلة بين كلمة الجوف اليمنية- العربية القديمة وكلمة عمق العبرية- العربية؟ وما القرابات اللغوية التي تجمعها مع كلمة وادي العربية؟ تعني كلمة جوف: الوادي العميق كثير المياه؛ وفي لسان العرب - مادة جوف - : الجوف من الأرض أوسع من الشُّعْب تسيل فيه التلاع والأودية وله جرفه، وربما كان أوسع من الوادي. وعن ابن الأعرابي: الجوف: الوادي. قال امرؤ القيس في معلقته الشهيرة: (الديوان، وشرح الأنباري: ٨٠):

وَوادٍ كَجَوفِ العيرِ قَفرٍ قطعتُهُ   به الذئبُ يَعوي كالخليعِ المُعيَّلِ

بهذا المعنى؛ فإن المواضع التي يصفها يشوع في عمق (- ب- عمق) إنما عنى به لا اسم مكانٍ بعينه يُدعى عمق؛ بل الوادي العميق الذي تسيل فيه أودية كثيرة أي: الجوف. وهما كما يُلاحظ كلمتان تتضمنان الدلالة ذاتها. وهذا هو برأينا المدلول المباشر للكلمة العبرية في هذا النص: (وفي عمق -الجوف- بيت هرم، وبيت نمره). عُد وادي عمق عند الهمداني من أودية الجوف اليمني؛ بينما لا يوجد في فلسطين موضع يُدعى عمق. وهذا الوادي يصب مياهه سوية مع وادي مذاب- مدبء ووادي النيل في المكان نفسه، حيث توجد بيت هرم-هرن وبيت نمره - نمره تماماً كما في وصف يشوع. إن بيت الشاعر اليمني امرئ القيس، الذي يشبه ببلاغة نادرة، الوادي العميق كما لو كان مثل جوف العير، يلمح إلى الأغوار الخاوية من منازل القبائل، وهو بذلك يقوم بمُماهاة الوادي بالجوف (جوف العير). يقول الهمداني (صفة: ١٥٤-١٥٩ - النص مُختصراً):

الجوف: وهو مُنفهق من الأرض بين جبل نهم الشمالي الذي فيه أنف اللوذ وأوبن الجنوبي (..) وهو وادٍ يصب مع دبره إلى الحقلين وما أقبلَ من نقيل السّود وبيت بوس (..) فيكوّن هذه المياه إلى ورور وهران من أرض الجوف.

ثم يضيف (صفة: ٢٨٠-٢٨٢) ما يلي:

نذكر ما بالجوف من الآثار والعمور ونذكر ما هي من أوطان الجوف: بيت نمران (..) ثم معين وقد ذكرنا سوائله الكبار وهي مذاب ومن الصغار: أوبن وعرعرين (..) والنيل[١].

في هذين النصين النموذجيين يحدد الهمداني على أكمل وجه، منازل- أوطان القبائل في الجوف ومنها: بيت هرم- هران (النون والميم تتبادلان الوظيفة) وبيت نمره - نمران (بإضافة النون الكلاعية). وهنا لابد من الانتباه إلى استعمال الهمداني ويشوع للمفردة ذاتها (بيت) في وصف منازل نمره. وها هنا أيضاً عرعرن-عرعر (بإضافة النون). إن مقاربة النصين من منظور التماثل في طرائق الوصف وأشكال السرد والنطق ستكون مفيدة للغاية؛ فالهمداني يستعمل جملة (وفي الجوف بيت نمران) بينما يستعمل يشوع جملة (وب-عمق- بيت-نمره) وهما معاً يشيران إلى عرعر وهرم- هرن، بوصفهما من أوطان الجوف. وبذلك يتضح أن المقصود من كلمة عمق الإشارة إلى الجوف اليمني وليس إلى وادي عمق. قال أمية بن أبي عائذ الهُذلي (ياقوت: ٥ : ٣٥٢):

---

(١) ليس هذا، بكل تأكيد، النيل المصري. والخيال الاستشراقي هو الذي توهم أن المقصود من الاسم النهر المصري العظيم الذي تبلغه أرض إسرائيل.

فَضُها أظلم فالنطوف فصائفٌ   فالنمرُ فالبرقات فالأنحاصِ

أنحاصُ مُسرعة التي جازت إلى   هضب الصفا المُتزحلفِ الدَّلاصِ

وها هنا هضبات الصفا-رمة- ها- مصفه. إن كلمة رمة العبرية تعني بالضبط هضبة، وهذا هو برأينا المقصود من الاسم المركب. يُستخدم تعبير مصفه في العبرية غالباً، في معرض الإشارة إلى مواضع عدة تجمعها مزايا مشتركة؛ ومنها هذا الموضع وهو مكان على مقربة من البطنات في الجوف. وقديماً سمت القبائل العربية الأولى، وكذلك شعراء الجاهلية، كل حجارة سوداء بركانية ومُنطفئة مُلتصقة بالأرض: حجارة صفا. بينما سمت الحجارة البركانية الساخنة أو الملتهبة حرَّة. أما الحجارة الأكثر سخونة والتهاباً فسميت لابة، ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية lava. والاسم مصفه- صفا (الميم أداة تعريف يمنية منقرضة) توصيف للمواضع الصخرية ذات الطبيعة البركانية، كما هو الحال مع الصفا والمروة وهما من شعائر الحج. ومن غير شك؛ يدلل وجود موضع يدعى رمة-ها- مصفه (هضبات الصفا) وبما لا يقبل الكثير من النقاش، على أن البيئة التي تصفها التوراة لا صلة لها ببيئة فلسطين فهي ليست بيئة جبال بركانية، ينجم عنها تلقائياً، ظهور أماكن صخرية من هذا النوع. ولأن مصفه التوراتية التي يكثر الكلام عليها في نصوص التوراة كاسم لمكان بعينه، ضمن قائمة منازل سبط جد- جاد؛ فإننا نعود إليها في سياق مُعالجة لغوية لأداة التعريف اليمنية المُنقرضة (الميم الحمْيَرية[١]) و تدخل على الأسماء والأفعال مثل: كمس- مكمس، سفر- مسفر. والأصل البعيد لهذه الميم (في العبرية التي قد تختلط بالميم الأصلية كأداة جمع أو تثنية) مصدرهُ لهجات أهل اليمن الذين ترعرع النص التوراتي والديانة اليهودية القديمة

---

(١) وتسمى (إم الحميرية) التي يتكلم بها الناس في صعدة وبلاد أرحب وسواها.

في أكنافهم. لقد ظهرت اليهودية في اليمن لا في كندا أو أسترالية. وهذا يعني أن أداة التعريف العربية الراهنة تطورت أصلاً، عن شكلين رئيسيين أحدهما الميم الحِمْيَرية، وثانيهما اللام دون همزة مثل لدبُر في الدبر، ولحماس في الحماس. وحتى اليوم ينطق سكان المناطق البدوية العربية اللام هذه دون الهمزة أو دون ألف مهموزة (مثل: لِبل في الإبل، لجبل، في الجبل). كما يمكننا العثور عليها في لهجات شمال إفريقية العربية قاطبة (لخُضر في أخضر كما عند الجزائريين). تروي مراجع اللغة العربية والمرويات الخاصة بلهجات عرب اليمن القدماء، وأشكال نطقهم للكلمات ما يلي: ظل الحِمْيَريون يستخدمون حتى وقتٍ قريب من الإسلام، الميم القديمة كأداة تعريف ملازمة للأسماء والأفعال؛ ففي بلد سفيان أرحب[1]- مثلاً - لا يزال السكان ينطقون بالميم القديمة على الرغم من فصاحة لسانهم، وهذا ما يشير إلى قوة العادات الصوتية (فهم يقولون في الرجل ءمرجل - في الرجل و قيّد بعيراك - في قيد بعيريك، ورأيتُ أخواك في رأيتُ أخويك). ويشترك مع قبائل سفيان أرحب في إبدال الميم من اللام في الرجل والبعير (ءمبعير- أمصفا -ءمصفه، أمصبار - الصبر) قبائل الأشعر وهم الأشيريون في التوراة من سبط ء شير وعك من أهل تهامة، وهم في التوراة عك. وهنا واحدة من المرويات الشائعة في التاريخ وكتب اللغة:

> **قال رجل من أهل اليمن للرسول ﷺ: هل من أمبر أمصيام في أمسفر؟ فقال ﷺ محاكياً لهجة البدوي اليمني: ليس من أمبر أمصيام في أمسفر (ليس من البرّ الصيام في السفر)**

لهذه الميم المُنقرضة التي استعملت كأداة تعريف - ذات يوم بعيد-

---

(١) كما يُلاحظ الهمداني (صفة: ٢٥٠).

مثلها مثل الألف الساكنة دون همزة، ومثل النون الأخيرة وحتى الياء السابقة على الأسماء والأفعال مثل يعرم-عرم؛ صلة حقيقية بالميم العبرية التي تدخل على الأسماء مثل مكمس، مصفه. قال ابن الأعرابي:

ولقد نظرتَ فردَّ نظرتك الهوى بحزيز رامة والحمولُ عوادي

وبالطبع؛ فإن ابن الأعرابي يصف موضع رامة-رمة الجبلي بصخوره الصلدة، كموضع اجتازته الإبل بحمولاتها الثقيلة. وهذه صورة نموذجية للمكان متماثلة مع صورته في وصف يشوع عن رمة-ها-مصفه. إننا لا نعرف مكاناً في فلسطين، يمكن لقافلة من الإبل أن تمرَّ عند أطراف صخوره السوداء البركانية. ولأن يشوع يضع هضبات الصفا هذه على مقربة من البطنات- بطونيم، وعلى مقربة من يتر- وتر ويام-يام كما هو مُبين في النص أعلاه؛ فإن هذه المواضع يجب أن تكون في هذه الحالة، في اليمن لا في فلسطين. هاكم وصف الهمداني (صفة: ١٦٢-١٦٣):

ومن بلد يام القديمة، ملح وبرّان ويأتي قابل نهم الشمالي بأودية لطاف مثل أوبن ثم يشرع على الفرُط وهو جانب الغائط وبه يفترق الطريق إلى الجوف ومأرب من وادي خبّ، ثم وادي نجران وفروعه من خولان والحناجر من وادعة فأما الشعبة فإنها من شمالي وتران ثم يخرج في لهوة رحبان والبطنات.

ها هنا البطنات- بطونيم بين الجوف ويام القديمة، تصبّ فيه مياه وادي نجران. وإحدى شِعاب وادي نجران تأتي من شمال وادي وتر-يتر. والعرب يعرفون وتر هذا بالمفرد كما في الشعر العربي القديم، مثلما يعرفونه وفقاً للنطق اليمني بإلحاق النون وترن -بالقصر- ووتران

(بالمد. انظر ما كتبناه عن وادي وتر في هذا الكتاب) قال عبيد بن الأبرص[١]:

عن الوتر حتى أحرزَ الوترُ أهله وأنتَ تبكي إثرهُ مُتهالكا
فلا أنتَ بالأوتارِ أدركتَ أهلها ولم تَكُ إذ لم تُنصرّ مُتماسكا

في هذا السياق تمّت مكافأة الاسمين يام وكنروت بـ (بحر الكنارات) وجرى تخيله كموضع في فلسطين. ولما كانت فلسطين لا تعرف في جغرافيتها مثل هذا البحر؛ فهذا يعني أنها لشدَّة غموضها وسحرها كانت تعرف بحراً إلى الغرب من الأردن، ولكنه اختفى ولم يعد له من أثر سوى اسمه التوراتي؟ بيد أن (يام) التي تُتَرجم إلى (بحر) أينما وجدت في التوراة هي مصدر هذا الالتباس؛ إذ لا يوجد إلى الغرب من نهر الأردن بحر أو موضع يُدعى يام، فضلاً عن استحالة العثور على موضع كنروت هناك. على العكس من ذلك، يمكننا العثور على يام إلى الغرب من اليرد-ن اليمني، وفي أقصى بلاد يام هذه توجد كنروت بالفعل. إن بلاد يام القديمة التي يتحدث عنها الهمداني في نصوصه، هي بلاد ساحلية على مقربة من نجران، ويمكن تمييزها عن يام الجبل المُتاخم لهمدان. ومن المنظور الجغرافي؛ فإن بلاد يام تقع بالفعل، إلى الغرب من وادي يرد-يردن، وليس إلى الغرب من نهر الأردن البلد العربي. بقي أن نعيد التأكيد على أن هذا الوادي هو أحد فروع وادي مَوْر، التي تسيل مياهها حتى نجران مخترقة سلسلة من المواضع والأودية، ومُختلطة بمياه سيل كتاف-كتاف في التوراة. وهذا ما يتوافق كلياً مع وصف يشوع. هنا توصيف الهمداني لبلاد يام (صفة: ١٦٢-١٦٣):

---

(١) عَبيدُ بن الأبرص بن جشم بن عامر، أحد بني دودان بن أسد بن خُزيمة (السيوطي في شرح شواهد المغنى: ١٦١، الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: ٤/ ١٥١).

أملحْ وأداني ضَدَخْ من بلد شاكر. ولقيها بالفقارة سيل كتاف، يصب بأسفل الحربا من وادي نحرد، وبلد سابقة من وادعة (..) ودلعان وسروم من بني جُماعة (..) ويتقدم في شوكان من أعلى وادي نجران فيسقيه وغيره من بلاد وادعة وبلد يام.

طِبْقاً لهذا التوصيف الحاذق والدقيق، تبدو يام في أقصى الفضاء الجغرافي (عد- قصه- يم) وإلى الغرب من بلد وادعة وجُماعة و يرد-ن (انظر مادة يرد في هذا الكتاب) حيث سلسلة من منازل الأسباط مثل كتاف ونحرد، ودلعان وشوكان. وفي وصفٍ موازٍ سبق لنا استخدامه، يوضح الهمداني جغرافية بلد يام المُتاخمة لهمدان: (صفة: ٢٦٦: وليام وطن بنجران نصف ما مع همدان منها ثم بلدهم). هذا التحديد الدقيق لتخوم بلد يام مثير للغاية، فهو يفسر عبارة يشوع (حصي- ء رص- بني- عمون) (ونصف ما مع أرض بني عمون). ولنلاحظ التماثل في وصف الهمداني ويشوع عبر هذه المُقاربة:

مقاربة سردية

يشوع:	الهمداني:
ونصف ما مع أرض	ونصف ما مع همدان منها
بني عمون	بلدهم

تبدو كلمة حصي في النص العبري مُحيرة، فهي قد تعني وسط (مثل: وسط أرض بني عمون) كما يمكنها أن تعني نصف (نصف ما مع بني عمون) أو تعني حصة (حصة سبط). وفي كل الحالات؛ فإن فهماً أفضل لها سيكون ممكناً باستخدام لغة الهمداني، كما هو مُبين في المثال أعلاه. ومع ذلك سنرى أن استخدام سارد النص للكلمة-هنا تحديداً- يشير إلى

أن (حصي) اسم لوادٍ من أودية الساحل قرب منازل بني عمون، ولا يقصد به أياً من المعاني السابقة. وكنا أشرنا إلى هذا الموضع إلى جوار هران-هرم تماماً (صفة: ١٥٠-١٥٢):

جُرز اليمن الشرقي وهي بمنزلة تهامة في الغربي(..) وبيحان ويسقيها بلد ردمان وحصي (..) ثم ميزاب اليمن الشرقي وهوأعظم أودية المشرق كما مَوْر (...) ومخلاف ذي جُرة ويكلى وجهران وهران بسواد ذمار.

تُعد (حصي) من المواضع الأثرية في الساحل اليمني، ولم يبق- اليوم- من معالمها شيء غير الهياكل والمساند (النقوش). وقد عثر علماء الآثار فيها على تماثيل وكتابات تشير إلى معبد قديم. وحصي إلى هذا كله، كانت تعد عاصمة السرو الحقيقية ولكنها اختفت. وعلى أنقاضها نشأت مدينة جديدة هي البيضاء. ولذلك، يمكن فهم الجملة العبرية (حصي-ءر ص- بني عمون) بهذين المعنيين أي (نصف، وسط بني عمون) أو (حصي أرض بني عمون).

أما كنروت، فمن المؤكد أننا سنبحث عنها في هذا الفضاء الجغرافي وليس في مكان آخر، ذلك أن يشوع يضعها على مقربة من يام. وفي أقصى بلاد يام، بالفعل، وجدت كنروت ذات يوم، وسجل الشعر العربي القديم اسمها كموضعٍ زائل. قال نُصَيْب (ياقوت: ٤: ٥٤٥):

فلاشك عندي أن الحيَّ أدنى مُقبلهم   كنـايـر أو رُغـمـان بيـض الـدوائـرِ

ها هنا كنارات-كناير التي يقول الشاعر عنها أنها قرب رُغمان؛ فيما يصفها الهمداني بدقة أكبر بأنها (رملة في أسفل نجران وقرب منازل بني شاكر- يساكر تُدعى رملة الرُّغام: صفة: ٢٥٤-٢٦٦).

إن المشكلات التي تُثيرها الترجمة السائدة تتعدى، أحياناً نطاق استراتيجيات التلفيق؛ والأمر لا يتوقف بطبيعة الحال عند حدود اختراع بحر يُدعى بحر كناروت- كنروت، بل يتجاوزه إلى إعطاء توصيفات لمواضع لا وجود لها في النص العبري. من ذلك مثلاً، ما يُدعى في نص يشوع المترجم إلى العربية (أرض الدبر) وهي المكافئ العربي لجملة (عد-ها- جبول- لدبر) والترجمة الصحيحة للجملة هي (عند قابل الدبر). والقابل كما في نصوص الهمداني، توصيف لاتجاه المرتفعات. وكنا رأينا أن جبل الدبر هذا، من أهم مرتفعات خولان التي اشتهرت بغزارة المياه. إن شهرة المكان هي التي تجعل منه معلماً بارزاً في الوصف الجغرافي وفي تحديد الاتجاهات. قال أَرْطَأة بن سُهية (معجم: ٥٤٠- ٥٤١):

تَسَفن الجناب مُنكباتٍ ذُرا دَبْرٍ يُعاولنَ النذيرا

يتطابق هذا الوصف الجميل لمرتفعات لدُبر-الدبر الشامخة التي تستقبلها الإبل في مسيرها، حيث مساكن بني غَطفان من خولان- كما يُخبرنا الشاعر-مع توصيف يشوع والهمداني على حد سواء، فهما يشيران إلى القابل-ها-جبول كنقطة مركزية في تحديد الاتجاه. قال أبو ذؤيَبْ الهُذلي:

كأنَّ ابنة السهميّ يوم لقيتها موشحة بالطرفين هميجُ

بأسفل ذات الدبر أُفردَ جَحشها فقد ولهت يومين فهي خلوجُ

يتبقى من سلسلة مواضع هذه القائمة (محننيم وجلعد). تعني كلمة محننيم: مُخيمات (لاحظ الميم المنقرضة التي تحولت إلى أداة تعريف) والجذر الثلاثي الأصلي للاسم هو حنو، الذي يقابله بالعربية الجذر نفسه حنو بمعنى: أقام، نزل، خيمَ، عسكرَ.وهناك سلسلة من المواضع المعروفة عند العرب القدماء، ذكرت بعضها التوراة مثل حنو- قرقر، وهو

موضع المعركة الشهيرة في التوراة (انظر الخريطة) والتي وقعت بين الآشوريين والمصريين. تسجل التوراة (صموئيل الثاني: ١٧ : ٢٢: ١٨ : ٧: من النص العربي، ١٧: ١٢ : ٢٥: من النص العبري) اسم هذا المكان ارتباطاً بحروب داوود:

(ودود- بء- محنئيم- وء بشالم-عبر- ءت- ها- يردن) (وعاد داوود إلى المُخيمات، وعبر أبشالم اليردن)

وكنا تركنا معالجة هذا الاسم- في الفصل الخاص بحروب داوود في الكتاب السابق- نظراً لوجوده في منازل جد- جاد؛ مؤثرين وضعه في مكانه الصحيح ضمن قائمة منازل القبائل. لنلاحظ أن للاسم صلة بالكلمة العربية والعبرية القديمة يحنو، حنو التي تؤدي المعنى نفسه: خيموا، أقاموا، عسكروا، نزلوا. كما أن له صلة باسم الحنة أو الحنات في صيغة الجمع، والميم العبرية هي أداة التثنية والجمع، بينما الميم الأولية هي الميم اليمنية التي استعملها اليمنيون القدماء كأداة تعريف: الحنات. ولأن مترجمي النص لم يجدوا مكافئاً مقبولاً، مع أنهم استعملوا الجذر نفسه في الكلام عن معسكر داوود؛ فقد تركوا الاسم دون بديل أو مكافئ دلالي. وفي كتاب كمال صليبي (التوراة جاءت - مصدر مذكور) تمت مكافأة الاسم بالكلمة العربية معسكر، وهي كلمة معاصرة لا تنتمي إلى النسيج القديم للنص؛ خصوصاً بالنسبة إلى جماعات بدوية متحاربة لا تعرف، في سياق الوصف، سوى كلمة الحنو بمعنى النزول في المكان والإقامة فيه، ونصب الخيام كما في اسم موضع حنو قراقر، وهو مكان عربي شهير في الأخباريات الكلاسيكية (انظر معركة قرقر في التوراة). إن نصوص التوراة تستعمل، فضلاً عن كلمة محنئيم تعبير (ب- ها- محنه) لا في معرض الإشارة إلى معسكر؛ بل في سياق الإشارة إلى وادي الحنا.

ويبدو أن الشعر الجاهلي استخدم كلمة المخيم في معرض الإشارة إلى مكان بعينه، وهذا ما يُبرهن عليه بيت للمُعترض بن حَنْواء الظفري (من شعراء بني سُليم ولاحظ الكلمة نفسها في اسم الشاعر: حنواء - معجم: ١١٩٨):

فإما تقتلوا نفراً فإنّا فجعناكم بأصحابِ القدومِ
تركنا الضُّبعَ سارية إليكم تنوبُ اللحمَ في سَربِ المَخِيْمِ

ولذا نجد أنفسنا ملزمين برؤية كل هذه المعاني والدلالات في الكلمة العبرية، تفادياً لأي خلل في تحديد المقصود منها. ولكن، وبالنسبة إلى وادي الحنا -وهو حسب وصف يشوع على مقربة من ربة عمون - فإن تحديده يتطلب الربط بينه وبين نجران، وهذا ما سنراه بالفعل حين ندقق في أسماء المواضع التي سار فيها الهمداني في السرو، حيث شاهد هناك جبل ووادي الحنا. يقول النص التوراتي:

(وكل منازل جلعد ونصف ما مع أرض بني عمون) أو: (وكل منازل جلعد، وحصي، وأرض بني عمون)

حسب هذا الوصف لمنازل جلعد، وهم قبائل قديمة ينتسب لها بطل أسطوري في المرويات التوراتية يُدعى يفتح الجلعدي- فتح الجلعدي؛ فإنها على مقربة من بني عمون النجرانيين أصحاب بيت العبادة (ربة). ولاشك أن فلسطين القديمة لا تعرف جلعديين يسكنون في عمان الأردنية، التي يزعم يهود أوربة وأمريكة أنها عمون التوراة، بينما يعرفها الشعر العربي جيداً وبالاسم نفسه جلعد في الجوف اليمني. قال جرير (ياقوت: ٢ : ١٧٩):

أُحِلّ إذا شئتُ الإيادَ وحَزْنَهُ إنْ شئتَ أجزاع العقيقِ وجلعدا

أجزاع جلعد هذه كما يصفها جرير، مواضع صخرية في الطريق إلى وادي العقيق وفرعه اليمني. وهي ليست في فلسطين كما توهمت القراءة الاستشراقية، إذ لا وجود لمكان بهذا الاسم لا في شرق النهر ولا في غربه. ها هنا جلعد الجبل موطن قبائل عربية بائدة. في هذا الإطار سنرى اسم وادي الحنا. يصف الهمداني موضعاً يدعى محنه- باستخدام الميم كأداة تعريف- وهو يريد الحنا، واضعاً إياه في الساحل إلى الغرب من عدن وعلى النحو التالي (صفة: ١٩٣):

> رجعنا إلى غربي محجّة عدن: السحل أرض بني مجيد، الشقاق وموزع ووادي الحنا وساكنها بنو مسيح من بني مجيد.

من هذا التسلسل في منازل سبط جد[1]-جاد، يتأكد لنا أنه أقام في الفضاء الجغرافي للجوف اليمني وليس في فلسطين.

٣ : سبط يهوذه (المنازل القديمة)

تختلف هذه القائمة من المنازل التي أقْطَعها موسى النبي لسبط يهوذه (قوم هود في المرويات والأخبار العربية الكلاسيكية) في غربي ها- يرد (إلى الغرب من صنعاء حيث يوجد واد يدعى يرد) عن تلك التي أقْطَعها يشوع في الجانب الشرقي من المدينة التي تسميها التوراة، مثلما يسميها اليمنيون،

---

(١) في نقش دادان قرأ علماء الآثار الجملة التالية (كهف كبرال بن متع ال ملك ددن وثر ونعم به نار جد) وقد اختلف العلماء في المعنى المقصود بـ (جد) في هذا النص واقترح بيستون أن يكون(نار جد) إله الحظ. ونظراً للحاجة إلى استطرادات كثيرة فسوف نكتفي هنا بالقول: إن جد، ومنها جدة اسم المكان، والجادة أي الطريق، تشير كلها إلى القدم والماضي البعيد، ومنه الجد والد الأب (أي القديم). وسنرى تالياً المعنى الحقيقي لكلمة (جد) هذه في موضعها المناسب وصلتها باسم السبط.

باسمها العتيق: أوزال- أوزال (أي صنعاء. انظر مثلاً: سفر التكوين). وهذا دليل إضافي على أن المقصود من وصف يشوع أرض اليمن لا فلسطين، لأن فلسطين لم تعرف باسم قديم مثل أوزال. ومن وصف المنازل والطرق والمسالك المؤدية إليها يتضح ما يلي: إن المقصود بتعبير غرب وشرق اليردن، إنما هو غرب وشرق وادي مور (والذي عرف قديماً وفي أنساب اليمنيين باسم يردن وهذا اسم القبيلة يرد بن مهلئيل- يرد بن مهلئيل كذلك في التوراة) وليس نهر الأردن البلد العربي. كما عرف الوادي- ذات يوم - باسم وادي مَوْر، وميزاب تهامة، وهو بالفعل كالميزاب يشق تهامة اليمن طولاً على امتداد السراة؛ وكان معروفاً - كما يبدو - باسم الأب الأعلى يرد بن مهلئيل بن سام بن نوح (الذي تسجله نصوص سفر التكوين بالتهجئة ذاتها يرد بن مهلئيل) حيث أقامت على ضفافه. وهذا أمر مفهوم تماماً؛ فالمكان الواحد يمكن أن يُعرف بغلبة اسم شائع بأكثر مما يُعرف باسمه الأصلي. في هذه الحالة؛ فإن السامرة- المدعى أنها الضفة الغربية من نهر الأردن المزعوم- ستبدو مجرد تلفيق جغرافي وتاريخي لا أكثر، لأن المملكة الإسرائيلية القديمة كانت في شرق وغرب صنعاء لا شرق وغرب نهر الأردن البلد العربي، كما يؤكد ذلك أكبر حاخامات اليهود في اليمن. (انظر ما كتبناه في الجزء الأول من فلسطين المتخيلة نقلاً عن الرحالة السوري مؤيد نزيه العظم الذي زار صنعاء عام ١٩١٦ والتقى كبير حاخامات اليهود في اليمن؛ حيث أخبره بالمعتقد الراسخ عند اليهود العرب - يوم ذاك - والقائل أن مملكة إسرائيل عاشت في شرق وغرب صنعاء).

لقد انشطرت هذه المملكة- المخلاف وانشقت إلى مملكتين- مخلافين، مملكة إسرائيل ومملكة يهوده أو اليهودية؛ ومن ثم؛ فإن هذه المملكة لم تنشق أو تنقسم في فلسطين؛ بل في السراة اليمنية حيث نشأت هناك بالفعل، دويلة اليهودية- ما يُعرف عند الإخباريين العرب بقوم هود- في السراة والساحل (كما عُرفت باسم مملكة إيلياء). وهذه توهمها

التوراتيون مدينة العقبة الأردنية، بينما هي مملكة صغيرة تدعى إيله- إيلون التوراة، والتي وصفها القرآن بأنها حاضرة البحر. في وقتٍ ما، من العام ١٦٦ ق. م. عاودت مملكة اليهودية القديمة الظهور على المسرح التاريخي مع صعود أسرة هوذه الكابي (الذي يُعرف في التوراة باسم يهوذه المكابي) في المكان نفسه؛ ولكن هذه المرة لتخوض معاركها ضد الحملات الرومانية- البيزنطية، الطامحة بدورها إلى السيطرة على ساحل البحر الأحمر وإخضاعه انطلاقاً من مصر. والآن: لما كنا نتحدث عن نص يخص منازل هذه القبيلة وينتسب إلى عصر أسطوري هو عصر موسى، حيث تسجل التوراة نزول الهوديين من أبناء سبط هوده- يهوذه في الجزء الغربي من وادي اليردن؛ فسوف نحدد المكان القديم لمنازلهم استناداً إلى مقاربات جديدة بين نصي الهمداني ويشوع. هاكم النص العبري (١٤: ٥: ١٥: ٦ -والنص العربي الإصحاح: ١٥):

(ويهيه- ها- جبول- ل- مطه- بني- يهوده- ل- مشفحتم- ها- جبول- ء دم - مدبر - صن- جنبه- م- قصه-تيمن- ويهيه- لهم- جبول-نجب-م-قصه- يم- ملح- م-ها- لشن-ها- فنه-جنبه-ويصء- ءل-م-جنب-ل- معلة-عقربيم-وعبر-صنه-وعله-م- جنب-ل-قدش- برنع-وعبر- حصرون- ويعله-ءدرا)

وكان القابل لسبط يهوذه ولعشائرهم، قابل أدِيم: من بادية ضين، جنبه، ومن أقصاه تيمن، وهي لهم قابل نجب، من أقصى يام الملح ومن لسن، مواجه الجنوب، وتخرج إلى جنب وإلى المعلاة وعقربيم، فتجتاز صنه، وتصعد من جنب إلى قدش، وبرنع، وعُبر وحضَر فتصعد أدره- أدري[1])

---

(١) اسم أدري شائع في المواليد اليهودية الأوروبية اليوم.

تمت مكافأة هذه الأسماء في النسخة العربية من التوراة، على نحوٍ مثير للغاية وإلى الدرجة التي أصبح فيها النص مزدحماً بأسماء غريبة، يستحيل العثور عليها في أي مكان في العالم. ولذلك قمنا بإعادة ضبطها وتحديدها طِبقاً لما وردَ في وصف الهمداني والشعر الجاهلي. إن لمما يُفاقم من درجة غرائبية الأسماء، أن بعض الباحثين العرب مثل د. كمال صليبي، انساقوا وراء لعبة لغوية سقيمة لا طائل منها. وسوف نعطي المثال التالي دليلاً قاطعاً: تصور كمال صليبي، وتلاميذه على خُطاه، أن كلمة لشن العبرية في النص الآنف، إنماُ قصِدَ بها لسان؛ ولذا راحوا يبحثون عن لسانٍ جغرافي في تضاريس عسير، يؤكد لهما وجود الموضع هناك. وبطبيعة الحال؛ فإن المنطقة لا تخلو من تجاويف وصخور وألسن، بيد أن أياً منها لم يكن ليشير بدقة كافية إلى الموضع كما وصفه يشوع. كل ما في الأمر أن (لشن) العبرية هذه ليست وصفاً للسان جغرافي؛ بل هي موضع بعينه يُدعى (لسن) بالفعل، وليس مجرد تضاريس في المنطقة. ها هنا موضع لشن - لسن كما وصفه يشوع والهمداني (٢٢٨-٢٢٩):

> **وأول الأودية بين نجران والجوف: قضيب من مياه بلحارث وماوة، واليتمة وأعلاه فيه من مياه بلحارث فتح عد ثم (..) شطيف وهو أسفل أوبن، وبأسفل الجوف بئر تُسمى لببّه واللسان: أحساء بأسفل - وادي- حمض.**

هذا المثال يقول الحقيقة التالية: كانت منازل سبط يهوذه في الفضاء الجغرافي لمنطقة أسفل الجوف ونجران، وهذا يعني أنها في المكان نفسه الذي وجدنا فيه كل أسماء المواضع التي هاجمها الآشوريون؛ من سنحاريب وأسرحدون حتى نبوخذ نصر مروراً بتجلات بلاسر وشلمانصَّر. وسوف نجدها في مسرح المعارك التي خاضها يهوذه الكابي- المكابي؛

وهي معارك فهم التوراتيون منها استناداً إلى فهم استشراقي ملتبس لنصوص التوراة، أنها دارت بين مملكة يهوذه-مملكة اليهودية في فلسطين، وخصومهم الرومان[1] الذين كانوا يسيطرون على مصر وفلسطين التاريخية بالفعل. أما المثال الثاني الذي نودُّ لفت الانتباه إليه، نظراً لأهميته، فهو يتعلق بالقدس التوراتية المزعومة. لقد تخيل التوراتيون أن اسم (جبل قدش وجبل برنِع) هما اسم واحد لمكان يُدعى (قدش برنيع) بقراءة الحركة الإعرابية- الكسرة- كحرف، وذلك ناجم عن خطأ في قراءة الجملة، لأن النص العبري يخلو من الفواصل الدقيقة بين الكلمات. ولذا حدث تخييل مثير للموضعين، جرى في سياقه وعلى نحو محموم، البحث دون جدوى عن مكان مقدس في فلسطين يُدعى (قادش برنيع). كل ما في الأمر - مرة أخرى- أن يشوع أراد في نصه جبل قَدَس- بالفتح - وجبل برنع. وجبل برِنع هذا يضبطه الهمداني في صورة برع - بإسقاط النون الوسطية الزائدة- في السراة التي تفضي إلى الجنوب من تعز حيث جبل قَدَس. وهنا المقاربة بين النصين:

نص يشوع:
ءدم- م- دبر (..) م- جنب ل- قدش- برنع -وعبر-حصرون-ويعله -ء درا
(أديم من البرية (..) من جَنَب إلى قدس، وبرنع، عُبر و حضر، وأدرا)

نص الهمداني ١٣٣-١٣٧:
(نقيل السود من صنعاء ويهريق في جانبه الأيمن جنوبي حضُور (..) وجبل برع
(..) فبلد بني حارثة وبرد، فأدرا-ن. وجنب، ووادي أديم وجبال ذات السريح-
ذي السريح ثم قدس- المحقق)

(١) انظر حول هذه الحروب الكتاب القادم (الجزء الرابع).

ما يقوله هذا النص واضح بما فيه الكفاية: فالسائر على خُطا يشوع والهمداني، في سراة المصانع من صنعاء وليس في فلسطين، يمكنه أن يصل إلى وادي أديم- أدم ويتجه نحو جبل قَدَس المبارك[١]- بالفتح- وهو قدس المعافر إلى الجنوب من تعز، عبر جبل برع- برنع[٢] صاعداً إلى جبل ء درا-أدران مروراً بسراة جنب- جنب. هذا التوصيف الدقيق لا يترك أدنى مجال للتشكيك، بوجود منازل قبيلة سبط يهوده- هود في السراة اليمنية، وليس في فلسطين المُتَخيلة. ها هنا كل المواضع التي يسجلها يشوع وبالأسماء ذاتها دون تلاعب. وهاكم هذه المقاربة التي تكشف عن التماثل حتى في بناء النص:

يشوع:	الهمداني: ١٨٦
-وعله- م- جنب (وتصعد من جَنَبْ)	(رجع من جنب)

توهم المترجمون أن كلمة جنب في نصوص يشوع، هي ذاتها كلمة (جنبه) العبرية بمعنى جنوب، ولم يلتفتوا إلى أن سارد النص يستخدم الكلمتين معاً (جنبه) و(جنب) على التوالي في سياقين ومعنيين مختلفين. ومن غير المعقول بالطبع، ألا يكون سارد النص متأكداً من وجود المعنيين المختلفين في الكلمتين، وهذا ما يفسر لنا سبب استخدامه لهما. وظف سارد النص الكلمة الأولى (جنبه) في معرض إشارته إلى عين ماء

(١) حتى اليوم يطلق اليمنيون لفظة (المبارك) مشفوعة باسم جبل قدس. وهذا أمر مثير يؤكد طبيعة القداسة المستمرة في الراسب الثقافي .

(٢) وجود النون الوسطية الزائدة يتصل بتقاليد غير مستقرة تخص استخدام أداة التعريف القديمة (النون). لقد كان القدماء من اليمنيين، حائرين في طريقة استخدام أداة التعريف التي نلاحظ أشكال تطورها، من الميم الحميرية والألف والنون الهمزة والهاء وصولاً إلى الألف واللام العربية الراهنة.

تُدعى (جنبا- جنبه) بينما أراد من الثانية (جنب- جنب) وبما يشير إلى صعود سراة جبلية (وعله- جنب) نحو جبل قَدَس في السراة. وهذا هو الجبل المبارك بالنسبة إلى اليمنيين القدماء في جنوب تعز-قَدَس في سلسلة جبال السّريح. ولذلك استخدم سارد النص تعبير (وعله- م-جنب) بمعنى و (صعد من جنب). وهذا ما نجده عند الهمداني أيضاً، فهو يشير إلى أن السائر نحو جبل قَدَس وجبل برع- برنع، سوف يصعد سراة جنب ثم جبل أدران- أدرا. هذه الملاحظات الأولية ضرورية للغاية، من أجل رسم تصور صحيح عن مقاصد النص التوراتي، وفهمها فهماً منسجماً مع الغرض الأصلي لها وتحريرها من الفهم الاستشراقي، الذي صرفَ الأنظار عن الحقيقة التاريخية فيها والقائلة: إن التوراة هي سجل القبائل اليمنية التي اعتنقت ذات يوم بعيد، من تاريخ العرب الجنوبيين، ديانة إسرائيلية. وهذه ديانة عربية عتيقة من ديانات العرب البدائية سابقة على ظهور اليهودية، ومن ثم لا صلة للتوراة بفلسطين. كما لا وجود لدليل واحد عن هذه الصلة المزعومة. هنا قائمة يشوع وضبطه لأسماء المنازل التي أقام فيها سبط يهوده - قوم هود كما وردت في التوراة وفي نص الهمداني:

الاسم بالعبرية	الضبط العربي
١ : أدم	أديم
٢ : النجب	نجب
٣: برية صين	برية ضين
٤ : تيمن	تيمن
٥ : بحر الملح	يام الملح
٦ : عقبة العقارب	معلاة العقارب -عقربيم في العبرية والعربية

٧: قادش	قَدَس
٨: برنع	برع
٩: حصرون	حضَر
١٠: ءدرا	أدران
١١: وادي مُصر	وادي مَسور
١٢: عصمون	عُصمان
١٣: بيت حجلة	حجلة
١٤: بيت-ها-عربه	وادي العرب
١٥: حجور	حجور
١٦: بوهن	بوه
١٧: دبره	دبره
١٨: وادي عكور	وادي عكور
١٩: عين رجله	عين رجله
٢٠: عين شمس	عين شمس
٢١: وادي ابن هنوم	وادي ابن هنوم
٢٢: بيت يبوس	بيت يبوس
٢٣: لشن	لسان
٢٤: جبل سعير	جبل سعير
٢٥: عقرون	عقر
٢٦: سكيرون	سكيران
٢٧: صنه	صن

من وادي أديم إلى قدس اليمن[1]

وقع مترجمو النص العبري في سلسلة من الأخطاء المُدمّرة للنص؛ فهم لم يتمكنوا مثلاً، من تمييز الكثير من إشاراته ودلالاته المُتضمَنة في أسماء المواضع المتجاورة. كما لم يفطنوا إلى المعنى الذي ينطوي عليه وجود كلمة (عبر) في جملة واحدة مرتين: (وعبر- صن- وعله-م- جنب- وعبر- حصرون)؟ فهل أراد سارد النص الإشارة إلى أن أرض هذا السبط تمر بموضع يدعى صن، ثم تمر ثانية بموضع يدعى حصرون؟ أم أن الكلمة ذاتها تمّ استخدامها وتوظيفها لأداء معنيين مختلفين؟ سوف تكشف قراءة دقيقة للنص، عن سوء الفهم الذي وقع فيه المترجمون؛ فسارد النص أراد من (عبر) في المرة الثانية معنى آخر غير معنى المرور، وذلك حين كرر الكلمة في الجملة القصيرة ذاتها. وهذا يعني أنه أراد الإشارة إلى (وادي عُبر) الذي يمكن الوصول إليه بالفعل، من وادي حَصَر-حصرون. وهذا ما سوف نُبيّنه تالياً. كما وقعوا في الخطأ نفسه الذي قادهم إلى تخيّل موضع النقب، حين نرجموا كلمة (نجب) العبرية إلى (نقب) وهذا وهم وقع فيه كمال صليبي أيضاً (التوراة جاءت- مصدر مذكور والذي رسمها في صورة ها- نجف بالنطق الاستشراقي الذي يحول الباء العربية- العبرية إلى فاء).وإذا ما صدقنا مزاعم القراءة الأوروبية عن منازل سبط يهوذه في فلسطين؛ ففي هذه الحالة سيكون علينا التسليم بصحة الوصف الوارد في النص؟ ولكن؛ ماذا سيحدث لو أننا صدقنا أن المقصود من (نجب العبرية إنما هو النقب الفلسطيني علماً أنه منطقة صحراوية)؟ ببساطة ستكون الجغرافية الموصوفة ضرباً من العبث. هل يمكن لعاقل - مثلاً - أن يتخيل وجود قبيلة واحدة مهما كان عدد أفرادها، يمكن أن تقيم في كامل المنطقة الشاسعة داخل النقب (في

---

(١) انظر الكتاب السابق (أورشليم ليست القدس).

صحراء فلسطين وصولاً إلى مدينة القدس)؟ وفي الآن ذاته تُقيم في (وادي مصر) كما يؤكد نص يشوع؟ هذا أمر يخلو من كل منطق. لقد نجمت هذه الأخطاء الفظيعة عن سوء فهم للنص وعن تلاعب مريع بأسماء المواضع فيه، أو رسمها بطريقة غرائبية. إننا، والحال هذه في مواجهة جغرافية يستحيل تصديقها؟ لا ريب أن اسم (وادي مصر) في هذا النص لا يمكن أن يكون المقصود به وادي (بلاد مصر) المعروفة أي وادي النيل، ففي هذه الحالة يجب علينا أن نتخيل عدد أفراد القبيلة اليهودية، وقد بلغ بضعة ملايين يقيمون فوق مساحة جغرافية بحجم إمبراطورية تمتد من فلسطين إلى مصر. بكل يقين أراد سارد النص مكاناً آخر يدعى مصريم (وادي المَضرْيين) أي من ساحل مضْر (الذي سوف يدعى تالياً ساحل كنانة أكبر بطون مضر). وفي نصوص التوراة يقع وادي دبرة-دبره على مقربة من الساحل، وغير بعيد عنه وادي حضر- حصرون وجبل يام- يام الذي تخيله المترجمون بحراً، نظراً لأن كلمة يم - يام العبرية تعني بحر. وإذا ما اتجه السائر نحو همدان سالكاً الطرق الجبلية والوديان، فسوف يصل إلى وادي عقرون وهو (وادي عقار) عند الهمداني، وإلى جبل عُصمان- عصمون، وأخيراً إلى جبل أدران- ء درا وإلى حجور- حجور ثم سراة جنب جنب. فهل هي مُصادفة جغرافية أو لغوية أن يؤدي ساحل المضريين إلى الأماكن ذاتها، وبالتتابع، ومن دون تغيير في أشكال رسم الأسماء؟ ها هنا شهادة الهمداني (صفة: ٢١٥-٢١٧):

على مقربة من ساحل مضْر (وادي مصر- نحل- مصريم) ثمة وادٍ في مخلاف خولان يُدعى - حسب رسمه العربي- وادي مسور. يقول الهمداني:

> **وادي مسور فمن أدناه ثربان ومن أقصاه الحجلة (....) ووادي سيان ووادي دبره (........) فأما جمهور مياه هذا المخلاف فإلى ثلاثة مواضع إلى مأرب وإلى الجوف وإلى تهامة، فالذي يصب إلى الجوف**

سيان وحضُور. وأما ما يصب إلى سهام منها ثم إلى تهامة إلى البحر، فوادي خدار. أما بلد همدان فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة من نجد والسراة. ووادي شرع إلى جبال نهم إلى جبل يام إلى الجوف

ثم يستطرد في الوصف فيقول (صفة: ٢٢١-٢٤٢):

عقار (للأبناء - المحقق) يُقال له وادي عقار وهو من البون - الأعلى- أرهق وقهال[1]، وأصل قُهال حِمْيَري (.) وعُصمان (.) وهذه المواضع زاوية من تهامة داخلة بين جبال السراة لهمدان وحِمْيَر (..) بلد حجور (..) وأدران وحجة ونمل وقيلاب وشرس وهي لمن بحافتي جبل مسور.

في هذين النصين لدينا مايلي: وادي حجلة تماماً كما في وصف يشوع (بيت- حجله انظر قائمة المنازل في الجزء الأول من الكتاب) ووادي دبره- دبره وجبل يام- يام. وفضلاً عن هذا كله لدينا: وادي عقار- عقرون، حيث يُقيم القهلتيون من حِمْيَر (انظر قهلت في التوراة) وجبل عُصمان-عصمون ثم حجور- حجور، وأخيراً جبل أدران- ءدرا. هذه السلسلة من الوديان والجبال حيث أقامت الجماعة القديمة المُسماة يهوذه، لا وجود لها في فلسطين؛ بل هي موجودة في السراة اليمنية؛ وهي لا تؤدي إلى بقية المواضع المذكورة في نص يشوع، بينما يمكن للسائر في هذه السلسلة الجبلية أن يبلغ جميع المنازل المذكورة في القائمة. وهاكم توصيف الهمداني للموضع الأول في القائمة: وادي أديم-أدم (صفة: ١٣٦-١٣٧) الذي يجاور جبل قَدَس- قدش وسراة جنب-جنب،

---

(١) قارن مع قهلت التوراتية التي لم يعثر التوراتيون على أي دليل على وجودها في فلسطين.

تماماً كما في نص يشوع (بينما لا يوجد في فلسطين جبل يُدعى قدس قرب أدم وسراة جنب):

ثم وادي بيض، ومآتيه من سراة جنب (..) وجميع ما بين عدن ووادي نخلة من أرض شرعب التي تنتهي إلى البحر. والثاني من أودية السكاسك، وادي أديم وجبال ذات السّريح (المحقق: هي الجبال التي تُسمى اليوم ذات الصريح وهي من المعافر ثم في قدس- وربما أن قَدساً كان تابعاً لآل أبي المُغلس فلم يذكره المؤلف مع انه كبير ومشهور).

هذا هو وادي أديم الذي يمكن الوصول منه بسهوله إلى جبل قَدَس (وجبل برع كما رأينا في النصوص السابقة). كما يمكن الوصول إليه أيضاً عبر سراة جنب حسب وصف يشوع، وهذا هو الوصف ذاته عند الهمداني الذي يقول: إن الوصول إلى وادي أديم ممكن عبر جبل قدس لأنه يؤدي إليه، كما يمكن الوصول إليه عبر سراة جنب وجبل برع-برنع. وسوف نعود تالياً إلى وادي بيض وهو في التوراة: بيت بيصه.

من برية صين إلى تيمن

يُرسمُ اسم صن- صن في صورة صين؛ وهذا رسمُ مُضلل لأنه يؤدي إلى اختلاق موضع لا وجود له في فلسطين. بينما يجب أن يرسم في صورة ضن (بالضاد المعجمة)[1] يقول النص العبري ما يلي في وصف منازل السبط:

---

(١) تفتقد بعض لهجات اليمن القديمة لحرف الضاد. فالأبجدية الثمودية مثلاً وهي نفس الأبجدية العربية القديمة، تفتقد إلى حرف الضاد.

(- مدبر- صن- جنبه-م-قصه-تيمن- ويهيه-لهم-جبول-نجب)

وهذه الجملة تُترجم تقليدياً إلى: (من برية صين إلى النقب جهة تيمان).

مشكلة هذه الترجمة تكمن في تحريفيتها؛ وهي بالفعل نص تحريفي بامتياز، بسبب تلاعبها بالمقاصد المباشرة والواضحة واضطرارها إلى إضافة كلمات من خارج النص؛ كما تكمن في عدم استيعابها لمعنى جبول-نجب؛ بل واضطرارها إلى تقديم موضع على آخر في تسلسل النص، فهي وضعت النقب المزعوم قبل تيمن. وهذا ما لا ينسجم مع ترجمة أمينة لنصٍّ سردي بسيط، يتوجب فيه إبداء أكبر حرصٍ ممكن على التراتب الدقيق في الأسماء، فضلاً عن انعدام الضبط الصحيح لها. ما يقوله هذا النص ببساطة هو التالي:

(من برية ضين، جنبا، ومن أقصاها تيمن وهي لهم قابل النجب)

وهذه مواضع معروفة أراد سارد النص من تسجيلها، التدليل على وجود طرق ومسالك تؤدي إلى منازل السبط من جهات عدة. إن (جنبه-جنبا وعين رجل-رجله) مياه وعيون ماء على مقربة من جُرش اليمنية- وليس جرش الأردن-. هاكم وصف الهمداني لهذه المواضع قرب بعضها كما في نص يشوع (صفة: ٢٣٥-٢٣٦):

من جُرش إلى صَعْدَة: تخرج من جُرَش قصدَ صَعْدَة على بلد جنب (..) ثم سراة جنب، وأسلع والسرين. ديار ربيعة ذو حُسم وأبان وقرارعمق (..) والشيطان، ماء الحنو من قضة (..) والأبواء ورجلة ورِمْ، وجنباء.

هذه هي المياه ذاتها التي عددها نص يشوع بحسب تسلسلها، من سراة جنب (م-جنب) وعين رجله-رجله وجنبه- جنبا (وشيطيم: الشيطان- بكسر الشين مفرد شيط انظرها في التوراة). أما تيمن في أقصاها فهي التي يضبطها الهمداني في صورة اسم القبيلة العربية البائدة تيم، بينما يضبطها الشعر الجاهلي في صورة موضع تيمن- بالحاق النون الكلاعية. قال الشاعر الحكم الحَضري (حضَر محارب، ياقوت: ٢: ٧٩):

أباكِ والعينُ يَذْري دمعها الجزعُ ... بنعفِ تيمن مُصطاف ومرتبعُ

وقال وعلة الحُرمي واصفاً تيمن:

نجوتُ نجاء ليس فيه وتيرة ... كأني عقاب تيمن كاسرُ

بينما قال فيها ربيعة بن جعفر بن كلاب في يوم الفجار:

وأبلغْ إنْ عَرَضتَ بني كلابٍ ... وعامرَ والخُطوبُ لها دواني

بأن الوافدَ الرِّحال أمسى ... مُقيماً عند تيمن ذي ضلالِ

وقال في هجاء عامر بعد معاركها مع كلاب:

وأصبحتْ بتيمن أجسادهم ... يُشبهها من رآها الهشيما

تقع تيمن هذه والتي أخذت اسمها من اسم قبيلة تيم اليمنية، في مخلاف حراز وهوزن إلى الغرب من صنعاء، على مقربة من وادي حار ووادي العُبر. وهنا نص الهمداني (صفة: ٢٠٩-٢١٠):

> مخلاف حراز وهوزن: وهو سبعة أسباع: فمنها التيم، وعجب، والعُبر والعرقين ووادي حار (.....) ومناهل لعسان.

ها هنا وادي العُبر وتيم- تيمن. (وفي نص يشوع: ويعله-عدره: وعُبر). والآن إلى اسم برية (صن). لقد أثار اسم صن- صين اهتمام

وحيرة وفضول الباحثين؛ ولكنهم لم يعثروا على ما يُساعد في الوصول إلى موضع في فلسطين المحتلة يُدعى صن-صين. فهل تعرف جغرافية اليمن الأسماء الواردة في النص الآنف؟ نحن نعلم أن العبرية تستعيض عن الضاد العربية المُعجمة بالصاد المهملة، مثل ءرص-أرض، وكما في الكثير من الأسماء الأخرى. ولذلك، فما يُدعى برية صين التوراتية، ليس سوى برية جبل ضين، وهو من الجبال المشهورة عند اليمنيين. هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٣٩):

> الجبال المتأكمة الطول المُنخرطة الرؤوس: قصران، ووتران، وشرفات جُرة وضين.

يقع جبل ضين في تهامة على مقربة من الشريط الساحلي المعروف بساحل عثر، وبالطبع فالسائر من تهامة والساحل عبر السراة سوف يجتاز المواضع المذكورة في نصيّ يشوع والهمداني. أما (صنه) التي توهمها المترجمون صين، من دون أن يُبرروا لنا سبب استخدامها من جانب سارد النص العبري، ولا سبب رسمها في صورة صنه- إذا ما كان يقصد بها المكان نفسه صين؛ فهي موضع يدعى(صن) التي عرفها اليمنيون كشِعْبِ من الشعاب الوعرة في تهامة (وتُرسم بإلحاق النون الكلاعية في صورة صنن كما هي عادات النطق القديمة المعروفة بالنون الكلاعية، مثل: تيم -تيمن... إلخ). والهمداني يصف هذه الشّعاب المُخيفة على النحو التالي (صفة: ٣٧٨):

> صِنان: شِعْب بالقرب من بنات حرب، ويُسمى لحي الجمل. والربضات موضع بين جبال، به رضائم عِظام، كالآطام الكبار وقد سرتها غير مرة ليلاً فما آنستُ بها ذاعرة. وقد يقولون: إن سفراء اليمن

(أي: المسافرين من أهل اليمن) كانوا إذا باتوا بها خرج في الليل مَنْ يطرح جمر النار ويدعو ببعض مَنْ يعرف من السفراء، فيخبرهُ عن أهله، وعن أشياء يعرفها ويُنكرُ صوته.

في هذا الفضاء الجغرافي الموحش لموضع صنن- صنه، لا وجود لموضع صحراوي يُدعى النقب، بل هناك النجب كما في الرسم العبري، وهي أرض سبق لنا الكلام عليها. وبكل تأكيد يمكن للسائر في هذه الأرض متوجهاً إلى الجنوب من مدينة تعز، بنحو ثمانين كيلومتراً أن يصل إلى قَدَس الجبل؛ بينما يستحيل عليه الوصول من النقب الصحراوية في فلسطين إلى القدس العربية مباشرة. ولأننا تحدثنا عن معظم المواضع الواردة في هذا النص (انظر ما كتبناه عن هنوم ودبرة وبقية الأسماء في القائمة) فسوف يقتصر الكلام على المواضع التي لم نتحدث عنها.

خرافة (يام- ملح) أو البحر الميت

إذا كان الاستشراق التوراتي يمثل، على امتداد الفترات التي شهدت نشاطاً كتابياً مُكثفاً، استطراداً في تلفيق فلسطين توراتية؛ فإنه وفي سياق هذا النشاط، نهض بمشاريع وأفكار مركزية جديدة تقوم، فيما تقوم، على إنشاء صورة للبحر الميت زُعِمَ أنها وردت في التوراة، من أجل البرهنة على صحة فرضيات هذا الادعاء، وذلك عبر قراءة اسم الموضع يم-ملح في صورة: البحر الميت. فهل ثمة ما يؤيد هذا الخداع؟

في الحقيقة تعني كلمة يم العبرية (بحر). وحسب وصف يشوع - التالي- فإن أرض يهوذه كانت تمتد من:

أدم مُقبلاً من برية صن ومن أقصاها تيمن وجنبه - جنبا- وهي لهم. قابل نجب من أقصى يام الملح ومن اللسان مواجه الجنوب،

وتخرج إلى جنب وإلى المعلاة وعقربيم فتجتاز صنه وتصعد من جنب إلى قدس وبرنع و عُبر وحضَر فتصعد ءدرا.

هذا التوصيف يستحيل مُطابقته مع جغرافية الضفة الغربية أو فلسطين التاريخية؛ فلا وجود لجبل يدعى أدم أو أدوم أو أديم، كما لا وجود لبرية صين أو تيمن -في أقصاها-. وبالطبع لا وجود لسائر الأسماء الأخرى. وحتى مع افتراض أن المقصود بالاسم يم- ملح (البحر الميت) وهذا غير معقول بكل تأكيد؛ فإن البحر الميت لايعرف موضعاً جبلياً بالقرب منه يُدعى معلاة - عقربيم؟ ولنلاحظ أن النص العربي السائد يُترجم يم- ملح إلى بحر الملح؛ ويعلق المحققون على الترجمة بالقول المقصود (هنا البحر الميت لكثرة أملاحه)؟ ولكننا نلاحظ من نصوص أخرى، كيف أن المترجمين ترجموا جملة يم- زوف إلى بحر القصب؟ وإذا ما صدقنا مثل هذه الترجمة ففي هذه الحالة يجب أن تكون أرض فلسطين الخيالية مليئة بالبحار؟ كل ما في الأمر: أن يم العبرية هذه ليست سوى يام وهي بلد قديم كما أن يام اسم لأشهر الجبال في اليمن. وبذا تتضح إمكانية إنشاء تمييز دقيق بين يام البلاد ويام الجبل. ضد فكرة تلفيق البحر الميت استخدم أحد الكتاب[1] المتعيشين على كمال صليبي فصلاً كاملاً (٩٠-٢٠٧) لمناقشة مشكلة يام- ملح- (يمه- ملح) لأجل البرهنة على أنها ليست البحر الميت. وفي إطار هذا السجال استخدم الكاتب تصورات ياقوت الحموي وتأويلاته لاسم الموضع يم، كما اعتمد، كلياً، تأويلات كمال صليبي (التوراة جاءت من جزيرة العرب) ليخلص إلى النتيجة التالية: إن يم-ملح اسم يشير إلى غربي الملحة، أي إلى موضع يُدعى ملحة ذكرته التوراة بالفعل. بيد أن هذا المكان لا صلة له بالبحر الميت؛ وثمة فارق كبير بين ما قصدته التوراة وبين التأويل اللغوي الذي

---

(١) زياد منى: جغرافية الجذور - الريس للنشر ١٩٩٤

خلص إليه هذا الاستنتاج؟ بخلاف هذا الرأي، فإن الوثيقة التي سوف نستخدمها لحسم الجدال-وهي مزيج من توصيفات الهمداني والشعر الجاهلي والروايات الإخبارية الكلاسيكية-تبيّن حقيقة أن التوراة لم تُشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى ما يُزعم أنه البحر الميت؛ وأنها لم تقصد غربي الملحة المزعومة بكل تأكيد. إليكم بعض هذه الأدلة:

أ- يضع الهمداني جبل يام على مقربة من جبل الملح. وهذان مكانان معلومان متطابقان كل التطابق مع مقاصد التوراة من جملة يم- ملح. وسوف نلاحظ أن شهرة جبل الملح هذا عند العرب القدماء قاطبة، نظراً لخصوبة وديانه وغزارة مياهه العذبة؛ والتي فتنت عقول وأفئدة الشعراء؛ إنما هي من القوة بحيث طغت على شهرة جبل يام. التنسيب التوراتي لجبل يام وإلحاقه بجبل الملح، في اسم بدا للمترجمين اسماً مركباً بسبب عدم وجود الفواصل في النص، هو تقليد ثقافي عربي قديم؛ فالعرب يُميزون موضعاً عن آخر لتفادي الخلط، إذا ما كان هناك تشابه في الأسماء بتنسيبه إلى مكان آخر. مثلاً: لأجل تمييز يام البلاد عن يام الجبل، تم اللجوء لتنسيب أحدهما إلى موضع قريب منه. هاكم قائمة الهمداني عن أشهر جبال العرب واليمن (صفة: ٢٣٨):

> **وضُرَع وجبل حجة، وموتك، وجبل ذُخار، وحضُور، ضين مودع، شطب، هيلان، جبل ملح، جبل يام.**

في هذه القائمة هناك جبل ضين - صين التوراتي؛ وهو من أشهر جبال اليمن في تهامة، وإلى جانبه هناك جبال شهيرة أخرى مثل موتك - موتك في مرثية داوود، وجبل ملح (- هر- ها-ملح) و إلى جواره جبل يام- يم. تماماً كما في نصوص يشوع والتوراة. يقع جبل ملح في مأرب. ولذلك يمكن للسائر من مأرب عبر جبال السر، أن يصل إلى بلد

يام.كما يمكنه بالطبع، أن يبلغ في الآن ذاته جبل يام، فهو الجبل الذي ظل شامخاً في هذه البلاد بعد أن زالت قبائلها أو هاجرت. ونحن هنا نشير إلى قبيلة حاشد-حشد في التوراة التي لم تعد تقيم هناك. بيد أن الجبل ظل هناك شامخاً كشاهد وحيد على الذكريات. ولذلك، ومن أجل التمييز بين البلاد والجبل، ولمنع الخلط بينهما فقد استخدم سارد النص التوراتي التقنية القديمة في الوصف الجغرافي: تنسيب أحدهما إلى مكان مشهور. هاكم وصف الهمداني للجبلين والبلاد (صفة: ٣٢٠، ٢٠٤، ١٥٤، ١٦٢):

جبل الملح في بلاد مأرب ولا نظير له، وهو ملح ذو جوهرية وصفاء كالبلور.

وهذه المواضع مساقطها من الجبل في جنوبي مأرب، ومساقطه في شماله إلى نهج الجوف والعواهل وصرواح فإلى جبل الملح.

ثم من بعد مأرب أودية لطاف إلى الجوف ومشاربها من جبال السر، صُرع وسامك وبلد يام.

وادي المنبج: وفروعه من بلد يام القديمة وبلد مرهبة، (وادي) ملح، وبران، ومسورة من بلد خولان.

يوضح المُقتطف الأخير - في سياق المقتطفات- وعلى أكمل وجه، مقاصد يشوع الحقيقية من الاسم التوراتي يم- ملح. ها هنا فرع من وادي المنبج يمر ببلاد يام فُيسمى وادي ملح ولذلك؛ فإن السائر من يام سوف يعبر فرعاً من فروع وادي المنبج يُدعى - بالفعل- وتماماً كما في التوراة: (يم- ملح) وهو غير جبل الملح في مأرب وإنْ كان ضمن جغرافيته. بهذا المعنى سجل يشوع في وصفه لمنازل سبط يهوذه اسمي يام وملح على التوالي، قاصداً من ذلك الإشارة إلى الوادي. ومما يؤكد

دقة هذا الوصف أن الهمداني ويشوع يعطيان اسم جبل يدعى صُرع-صرعه في المكان نفسه بوصفه من منازل يهوذه. وهذا توافق يستحيل حدوثه بفضل المصادفة الجغرافية. إن ما يُفسر لنا السبب الحقيقي لرسم الاسم في العبرية، من دون أداة التعريف وفي صورة (يم-ملح) إنما هو وجود مكانين معلومين قرب بعضيهما. ومن أجل التمييز بين الوادي المسمى ملح وبين الجبل الذي يحمل الاسم نفسه؛ والأخير هو اسم الجبل في مأرب، فقد روت المصادر التاريخية الإسلامية (وكذلك البكري مثلاً: ١١٧٠، والهمداني: ٢٠٤) الرواية التالية: كان الأبيض بن حمّال السبئي (وهو قِيل من أقيال اليمن- ملوكها) وفَدَ على الرسول ﷺ في جماعة من أهل مأرب؛ فأقْطَعهُ جبل الملح الذي بمأرب. فقام رجل من المسلمين في المجلس وقال: أتدري يا رسول الله ما أقْطَعْته؟ إنما أقْطَعْتَهُ الماء العدّ. (أي الغزير الذي لا ينقطع) فأعاده الرسول ﷺ. قال أبو عبيدة: إنما أقْطَعَهُ رسول الله ﷺ وهو يرى أنها أرض موات. فلما تبيّن له أنه ماء عدّ، وهو الذي له مادة لا تنقطع مثل الآبار والعيون؛ أرجعه لأن سُنَّة رسول الله ﷺ في الكلأ والنار والماء: أن الناس جميعاً شُركاء. هذا هو جبل الملح في مأرب-ها-ملح في التوراة، وهو مكان آخر لا صلة له بما دعته يام-ملح. كما لا علاقة له بالبحر الميت المزعوم. لقد طبقت شُهرة هذا الجبل الآفاق قديماً، حتى قال فيه الأعشى قصيدته المعروفة في مديح ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء الذي استولى على نجران:

واقفاً يُجبى له خَرْجهُ   كل ما بين عُمان وملح

وقال فيه جرير:

تُهدي السلام لأهل الغَوْر من ملح   بالطلح طلحاً وبالأعطان أعطانا

إن توصيف الهمداني لجبل يام- يام المتصل بمأرب عبر سلسلة جبال السر، إلى الغرب من وادي يرد وعلى مقربة من جبل صُرع - صرعه؛ يقدم صورة جغرافية متكاملة ودقيقة لا تترك مجالاً للشك بمقاصد نص يشوع، فهو لا يريد الإشارة إلى مكان مزعوم يدعى بحر الملح، كما لا يريد الإشارة إلى البحر الميت كما زعمت القراءة الاستشراقية، وبالطبع لا يقصد غربي الملحة؛ بل الإشارة وعلى وجه التحديد إلى رافد الوادي المار ببلد يام والذي يُدعى ملح. وهكذا؛ فإن السائر من برية صين- ضين من تهامة، ماراً بموضع (صنه) سوف يمرّ بكل تأكيد ناحية مكان يدعى معلاة، وموضع آخر يدعى عقربيم إلى الجنوب من تعز، حيث جبل قَدَس بالضبط كما قصد يشوع من النص الآنف.

ب- أما غربي ملحة التي تخيلها أحد الكتاب[1]، على أنها يمه- ملح فهي مكان آخر لا صلة له بتوصيف منازل سبط يهوذه. في الواقع، ورد اسم ملحة في سفر صموئيل، وهي عند الهمداني من أودية المعافر المُتصلة بوادي نخلة (انظر ملحة تالياً).

ج- إن الكلمة العبرية معلة - معلاة هي الكلمة المناسبة والملائمة تماماً لوصف الموضع؛ والقادرة على أداء المعنى الذي يتضمنه وصف يشوع للحيز الجغرافي بأكمله؛ بينما تبدو كلمة (عقبة) في النص العربي أقل تعبيراً عن المقاصد. ومن غير شك؛ فإن العارض الجبلي الذي وصفه يشوع على الطريق نحو قَدَس، لا وجود له في جغرافية فلسطين التاريخية، فليس ثمة موضع جبلي على الطريق إلى القدس العربية، يمكن أن يحمل المرء على اجتيازه صعوداً عبر وادي حصرون. الأمر الذي يؤكد مرة أخرى، على أن النص مُصمم لتوصيف جغرافية أخرى لا صلة لها بفلسطين. إليكم ما يقوله يشوع عن العارض الجبلي (معلاة عقربيم):

---

(١) انظر الهامش السابق.

(وتخرج إلى جنب، وإلى المعلاة وعقربيم- العقارب- فتجتاز صنه، وتصعد من-سراة- جنب إلى قدس وبرنع، وعُبر وحصرون - حضَرون، فتصعد أدرا)

هذا الوصف الواضح للطريق المؤدي إلى جبل قَدَش- قَدَس لا يشبه، ولا يتماثل أو يُقارب حتى في حدوده الدنيا، الطريق إلى القدس العربية في فلسطين. وإذا ما سار المرء على خُطا يشوع خارجاً نحو سراة جنب هذه، قاصداً معله-معلاة وعقربيم - العقارب؛ فإن عليه بالفعل، أن يجتاز أولاً وقبل كل شيء، جبل صنان ليكون بوسعه صعود سراة جنب. وعندئذٍ سوف يتجه صوب جنوب تعز قاصداً الجبل المُبارك قدس- وليس القدس العربية. ثم ليجتاز، في طريق السراة، وادي عُبر- العُبر ووادي حصر- حضَر من سراة حِمْيَر، وأخيراً ليصعد جبل ءدرا- أدران.في هذا الفضاء الجغرافي الجبلي تقع عقربيم، في الجنوب الشرقي من مخلاف رداع وثات. وطريق هذا المخلاف يؤدي بالفعل، إلى مدينة تعز جنوباً حيث جبل المعافر الشهير والمبارك: جبل قَدَس. كما يؤدي إلى طريق عدن- صنعاء ووادي حضَر. ويبدو أن ناسخ مخطوطة الهمداني رسم الاسم في صورة (عقارم) وليس عقارب، ربما عن أصل قديم؛ وذلك ما حير محقق الكتاب الذي راح يسأل سكان المنطقة عن عقارم هذه. وحين فتش بنفسه عن الموضع سمع من السكان هناك: إنهم لا يعرفون عقارم؛ بل عقارب- بالباء- إلى الغرب من صنعاء أي عقربيم (جمع عقرب- تماماً كما سجلها يشوع). يقول الهمداني (صفة: ١٨٢-١٨٣) في وصف المواضع التي شاهدها في مخلاف رداع وثات المُتاخم لمخلاف جيشان ما يلي:

عقارب (عقارم)، ومداوح لأهل رداع، ولسْن وشعبان والغول وهو لبني زوف (..) ومرس لبني ظفر، ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد.

ويضيف (صفة: ٢٠٣-٢٠٤) ما يلي:

> **ويُعد من مخلاف جيشان: حجر، وبدر، وصور، وحضَر(..) وثريد، وجانب بلد العدويين من حب والعود. (ثم) مخلاف رداع وثات القريتان، وأذنة[١] (ثم) مخلاف مأرب.**

ها هنا وادي حضَر- حضَرون وها هنا عقارب-عقربيم (اسم الجمع العبري من عقرب). وفي هذا الفضاء الجغرافي يمكن العثور على سلسلة من المواضع الواردة في نصوص التوراة (مثل مرس: مرشه، هليل: نهليل، صيد: صيده، صور: صور، ثريد: سريد، العود، عود، قريتثيم: القريتان، أذنة: إزنت، زوف: زوف) فإلى ماذا يشير هذا التطابق التام في الوصف الجغرافي وفي الأسماء؟ بكل تأكيد لا يدل الوصف إلى قدس فلسطين؛ بل إلى قدس اليمن التوراتية.

ثلاثة مواضع تحمل اسم القدس[٢] (عند يشوع والهمداني)

هل القدس في التوراة - حقاً - هي أورشليم؟ نحن - هنا - نتحدث ونتساءل حصراً عن أورشليم القديمة التي سجلت التوراة اسمها، ولا نتحدث أو نتساءل عن أورشليم العصر الروماني المتأخر، والتي

---

(١) ورد ذكر وادي (أذنة) في نقوس المسند اليمنية.. ففي نقش يعرف بـSH18 ورد ما يلي (حمدم/ بذت/ ستوفيت/ أذنت/ وأعضدهي.- بحمد المقة- إله اليمنيين- لما جاد به من سقي وادي أذنة. المثير أن التوراة ترسم الاسم بنفس الطريقة (إزنت) والزاي بديل لذال المعجمة التي لا تعرفها العبرية.

(٢) كان ينبغي أن يكون هذا الفصل جزءاً من الكتاب السابق (القدس ليست أورشليم) ولكن تقنيات البحث وظهور الاسم في منازل سبط يهوذا، أملى علينا خيار وضعه في هذا الكتاب.

ظهرت كمدينة فلسطينية مع هجرة القبائل اليمنية- العربية (المُعتنقة للديانة اليهودية) نحو ٢٠٠ ق.م. لقد انتقل اسم أورشليم القديمة، سوية مع أسماء لا حصر لها، من الجزيرة العربية واليمن و خلال فترات مختلفة، كان فيها العالم القديم يشهد هجرات مُتتابعة صوب بلاد الشام والعراق ومصر؛ وقد يكون الإسلام، من منظور التدافع صوب أراضٍ جديدة للاستقرار، يمثل آخر وأكبر هذه الهجرات. ولذا يُصبح السؤال ضرورياً ومُلحّاً: فهل القدس الموصوفة في التوراة حصراً، هي ذاتها أورشليم كما قيل لنا؟ إن المعركة الدائرة اليوم، ومنذ أكثر من مئة عام حول قدس التوراة، لم تخضع بعد إلى مقاربات قانونية أو تاريخية دقيقة؛ لأن الذخيرة المُستخدمة في الصراع من جانب الغرب الأوروبي، مصنوعة من مادة واحدة هي: الادعاء القائل أن التوراة ذكرت اسم القدس بوصفها أورشليم اليهودية في فلسطين؟ لكن المُطابقة الماكرة التي قام برصفها تراث كتابي استشراقي ضخم من الترويج الدعائي، وعلى امتداد عقود وأجيال؛ بين اسم قَدَش- قَدَس وأورشليم، لا تقوم على سند مقبول في التوراة نفسها. يطرح اسم قَدَش- قَدَس العديد من الأسئلة المُحرجة بالنسبة إلى علماء التوراة. مصدر الحرج يكمن هنا: عن أي قدس بالضبط تتحدث التوراة؟ هل تتحدث عن قدس المسماة (قدش- برنيع) والتي يمكن الوصول إليها حسب وصف يشوع النبي - عبر وادي حصرون، وجبل ء دره، وجبل صين، وصنه، وسراة جنب؟

أم هي قدش في الجليل حيث البرية الموحشة؟

أم عن قدش القريبة من جبل ها- رمه؟ وعن أي أورشليم بالضبط تتحدث التوراة؟ هل تتحدث عن أورشليم التي هي يبوس كما تقول نصوص يشوع؟ أم عن أورشليم التي هي القدس؟

في هذا الإطار، سيبدو البحث عن شكل من الانسجام والتوافق في

التوصيف الجغرافي، بين المواضع المؤدية إلى القدس وأورشليم في آن واحد ضرباً من العبث والخيال. وهاكم الأدلة: تقترن قدش التوراة بمواضع عدة لا وجود لها في فلسطين، كما هو واضح من النص السابق. كما تقترن بوادي الجليل. بينما تقترن أورشليم بمواضع أخرى لا وجود لها قرب قَدَس- قَدَش. وعلى العكس من ذلك تتلازم أورشليم هذه، مع وجود سلسلة من المواضع يستحيل العثور عليها في فلسطين مثلاً: ١٥: ٧: ٢٨: من سِفر يشوع:

ءبن- هنوم- ءل- كتف- ها- يبوس- م-جنب- هيء- يروشليم
(أوبن، وهنوم، فإلى كتاف، ويبوس من جنب وهي أورشليم)

هذا التأكيد القاطع والواضح، يقول لنا ما يلي: إن يبوس هي أورشليم. وهذا تحديد يصعب العبث بمضمونه الجغرافي كما لا يمكن التلاعب بالأسماء الواردة فيه. على المرء لكي يصل أورشليم التوراة أن يسير من ءبن- أوبن، فإلى سراة هنوم- هنوم مروراً بوادي كتاف حيث يبلغ يبوس التي هي أورشليم. هذا يعني أن القدس مكان لا علاقة له بأورشليم. أما الوصول إلى قَدَش- قَدَس التوراتية فيتطلب سلوك طريق مختلف كل الاختلاف، فهي كما يقول سِفر تثنية الاشتراع ١: ١٨: ٣٨:

(عد- قدش- برنع- ءمر-ءلكم- بءتم- عد- هر - ها-ءمري)
(وعند قدس وبرنع قلتُ لكم: ها قد وصلتم حتى جبل الأموريين)

هذه القدس التي وصلتها الجماعة المُهاجرة، جبل مبارك يقع على وجه التحديد قرب جبل يدعى جبل العموريين، وعلى مقربة من جبل يدعى جبل بُرع (برنع). وهي، إلى هذا كله تسمى قَدَش ولا تسمى

(القدس بألف ولام التعريف أي ليست ها- قدش). كما أنها لا تدعى أورشليم؟ ماذا يعني ذلك؟ ببساطة يعني هذا أن المقصود من قَدَس، مختلف كل الاختلاف عن المقصود من أورشليم وأن المكانين، معاً، لا صلة لهما بالقدس الفلسطينية؛ التي لا تعرف قط أي اسم من هذه الأسماء كما أنها ليست جبلاً ولا قرب جبال بهذه الأسماء. وكنا رأينا من النص السابق ليشوع أن قدش (وبرنع) يمكن الوصول إليها عبر برية صين وجبل ءدرا، وهما موضعان لا وجود لهما في فلسطين؛ بينما نجدهما في خريطة اليمن وبالصيغ ذاتها ضين، وءدران؟ إن نظرة فاحصة لصورة أورشليم التوراتية في قصيدة (نشيد الإنشاد - مثلاً) والتي تعني دار السلام؛ سوف تكشف عن الحقيقة التالية: إن القصيدة تتغنى بالمكان بوصفه دار سلام -على غرار ما يفعل الشعر الجاهلي- وفي إطار تطلع قديم كان هو المحرك الحقيقي لوجدان كل الجماعات البدوية، من أجل بلوغ مرحلة الاستقرار والإقامة في ديار آمنة بعد طول ترحال. ويبدو أن هذا التقليد الثقافي استمر حتى الإسلام، حين سمّى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد دار السلام. وفي إطار هذه التقاليد تعرفت الجماعات البدوية في هجراتها، إلى فكرة تقديس مكان بعينه (تحريمه) بحيث لا يجوز انتهاكه، بقتل البشر أو صيد الحيوانات أو عضد الأشجار، كما هو الحال مع الحرم المكي -مثلاً- حيث حرّم الجاهليون ثم الإسلام كل شكل من أشكال الانتهاك في محيط الحرم، كالصيد أو القتل أو عضد الأشجار. بهذا المعنى؛ فإن الأماكن الثلاثة الموصوفة في التوراة وهي جبل قدس، وقدس الجليل، وقدس- برنع، هي أماكن بعينها جرى تقديسها وتحريمها في الإطار الثقافي والروحي ذاته. وعلى غرار ما فعلت التوراة، تغنى الشعراء الجاهليون بجبل قُدس (وقَدَس). قال أبو ذؤيب الهُذلي:

فإنك حقاً أيَّ نظرةَ عاشقٍ نظرتَ وقُدس دونها ووقيرُ

جبل قُدس هذا الذي تغنى به الهُذلي، ليس هو نفسه جبل قَدَس المعافر المبارك (قَدَس بالفتح) إلى الجنوب من تعز؛ بل هو جبل قُدس (بالضمّ) القريب من وادي الرمة. والمثير أن جبل قُدس الذي يتغنى به الهذلي في هذا البيت من قصيدة مشهورة ليس جبلاً منفرداً؛ بل هما جبلان أحدهما أبيض ويُكنى العَرَج والآخر أنف أحمر شامخ، وكلاهما قُدس. هذه الجبال الثلاثة التي تحمل اسم قدس، تتطابق من حيث الوصف وبنية الاسم مع المواضع الثلاثة التي تحددها التوراة. فهل المسألة مسألة مصادفة أخرى؟ أم إنها هي ذاتها المواضع الثلاثة التي سجلتها التوراة؟ هذا ما يُفسر لنا مغزى التطابق المثير والمدهش بين وصف الهمداني ويشوع؛ فهما قدما وصفاً وتحديداً جغرافياً دقيقاً لثلاثة أماكن تحمل اسم قدس. وحتى اليوم يقدّس اليمنيون جبل قَدَس في تعز ويصفونه بالجبل المبارك. من المؤكد في ضوء الوصف، الذي تقدمه نصوص التوراة لهذه الجبال أو المواضع الثلاثة، أن الكلام عن جبل بعينه يدعى قدش في الجليل- مثلاً- إنما قصد به موضعاً في واد من أودية نجد الموحشة - اليوم- قرب وادي الرمة، وهو يشير إلى الجبل نفسه في قصيدة الهذلي: أي إلى جبلي قُدس. فيما يشير وصف يشوع لجبل قدس- منفرداً ومن دون ربطه باسم الجليل أو برنع (وهو من منازل سبط يهوذه) إلى الجبل المبارك قَدَس في منطقة المعافر، والذي وصفه الهمداني وحدَّده إلى الجنوب من محافظة تعز. ولا يزال جبل قَدَس هناك شامخاً. لكل ذلك؛ فإنّ قدس التي عنتها التوراة ليست أورشليم أبداً. ولا يوجد رابط حقيقي بين الاسمين في نصوص التوراة. ومن غير شك؛ فإن مقاصد النصّ من تأكيده على أن أورشليم هي بيت يبوس- وليس القدس- إنما يشير إلى مكان مقدس تمّ تحريمه في السراة اليمنية ويدعى بيت يبوس بالفعل. ها هنا مقاربة بين نصي يشوع والهمداني عن (يبوس التي هي أورشليم):

يشوع:
(أوبن وهنوم، فإلى كتاف، ويبوس
من جنب وهي أورشليم.)

الهمداني:
من بعد مأرب إلى الجوف مساقط بلد عُذر- وهنوم -
(١٥٤-١٥٦) الجوف مُنفهَق من الأرض فيه أوبن
وما أقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس.
(١٦٢-١٦٤): أودية لطاف مثل أوبن، ولقيها سيل كتاف
وبلد جنب.

إلى ماذا تشير هذه المقاربة بين نصوص الهمداني ويشوع؟

إن المكان نفسه والطرق والمسالك المؤدية إليه، يتماثل كل التماثل ويتطابق كل التطابق؛ فها هنا بيت بوس ووادي كتاف وسراة جنب ووادي أوبن وجبل هنوم؟ بما يعني أن أورشليم القديمة والزائلة ليست- ولم تكن- في فلسطين، بل هي أورشليم اليمنية التي عُرفت ذات يوم، بأنها بيت بوس. ترى: لماذا لا نجد مثل هذه الأسماء قرب القدس العربية إذا ما كانت هي أورشليم؟ هاكم ما يقوله النص العبري (يشوع: ١٥: ٧: ٢٨):

(ويعله-ها- جبول- دبره- م- عمق- عكور-وصفونه- فنه- ءل- جلجل-ءشر-ل-معله-ءدميم-ءشر-م-جنب-ل-نحل-وعبر-ها-جبول- ءل-مي-عين-شمش-ويهيه-تصء-ءت-ءل-عين-رجل-وعله-ها- جبول-ءبن-هنوم-ءل كتف-ها- يبوسي-م- جنب)

(ويصعد القابل: دبره، ومن عمق: عكُر، وشمالاً، قبالة الجلجل

الذي عند معلاة أديميم، ومن جنب، إلى الوادي، فتعبر القابل إلى مياه عين شمس، وهي تخرج إلى عين رجل. ويصعد القابل: أوبن، وهنوم، فإلى كتاف، واليبوسيين من جنب)

يحدد هذا التوصيف معالم الطريق على نحو أكثر تفصيلاً: فنحن نصعد من وادي دبره إلى الشمال حيث نشاهد: وادي عكر- عكار، قبالة جلجل - انظر جلجل عندنا-. ثم معلاة أدميم (الياء والميم أداة الجمع: الأدمات مفرد أدمة) التي يمكن الوصول إليها من سراة جنب. وبذلك نتمكن من العبور نحو مياه عين شمس، ونخرج بعد ذلك نحو عين رجل. ثم تصعد المرتفعات (القابل) من وادي أوبن وسراة هنوم لتلتقي سيل وادي كتاف؛ ثم تهبط باتجاه منازل اليبوسيين من سراة جنب. هل لهذه الخريطة نصيب من الوجود في فلسطين؟ رأينا مما سبق، أن أورشليم هي موضع يبوسي؛ وهؤلاء يُنسبون في كتب الأنساب اليمنية إلى الملك الأسطوري (من أقيال اليمن- ملوكها) ذي بوس بن شراحيل بن بريل صاحب الحصن المنيع، الذي يحمل اسم بيت بوس. وهذا الحصن المنيع (انظر الخريطة) يقع إلى الجنوب الغربي من صنعاء بمسافة ساعتين، وهو بالفعل، على الطريق من وادي دبره كما يقول يشوع. هاكم شهادة الهمداني (١٥٦):

ما أقبل من عدّ ورِد، وهو وادٍ يصب مع سامك، ودبره إلى الحقلين والسهلين ونواحي بُقلان، وما أقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس.

ها هنا دبره وهناك بيت بوس بالتراتب ذاته كما في نص يشوع. وإذا ما مضينا قُدماً في السراة مُتتبّعين وصف الهمداني، فسوف نقع على الأسماء ذاتها في نص يشوع (صفة: ١٥٩-١٦٤):

وإتوة والخشب (قاع شمس من الخشب - المحقق: ١٥٨) (..) ويلتقي بمياه الخارد التي هبطت من صنعاء ومخاليفها فتلتقي بالمناحي ثم تصبان بعمران من أرض الجوف. والوادي الثاني ويصب في موسط الجوف والأدمة، والوادي الثالث يظهر في زاويته التي ما بين شماله ومغربه وفروعه من بلد خولان، وأكتاف - كتاف ومساقط حبل سُفيان وقبلة الأدمة ويمدها سيل نعمان - ثم- الوادي الرابع وادي المنبج وفروعه من بلد يام. ويأتي قابل نهم الشمالي بأودية لطاف مثل أوبن (..) ولقيها بالفقارة سيل كتاف، وبلد سنحان وجنب.

ها هنا الجوف -عمق كما في نص يشوع، وها هنا قاع شمس الذي يشتهر بعيون الماء، ثم الأدمة-مفرد ءدميم، ثم وادي كتاف وسيوله المارة ببلد جنب وبقية المواضع وبالأسماء نفسها. ولعل مُقاربة حاذقة بين نصي يشوع والهمداني سوف تكشف عن التماثل في بناء النص؛ فهما يستخدمان الكلمات ذاتها تقريباً: (قابل نهم، والقابل، كما يستخدمان كلمات مثل يخرج، يأتي، يلاقي، وذلك في معرض توصيف الوديان والجبال. ولنلاحظ أن وصف الهمداني في هذا النص، يشير إلى فروع الوادي الثالث التي تظهر في بلد خولان). وخولان هذه - كولان (الجيم المصرية كما ينطقها اليمنيون حتى اليوم) تتصل بسراة هنوم، وهي التي يلوح في أعلاها جبل عُصمان - عصمون (انظر عصمون في القائمة) وأخيراً (صفة: ١٢٧-١٢٨):

يتصل بهذه السراة سراة عذر وهنوم فالحفر من أعلى عُصمان ثم يتصل بها سراة خولان.

يتبقى الموضع الأخير في هذه القائمة وهو سكيرون. في الواقع لا تعرف فلسطين التاريخية وادياً أو جبلاً باسم سكيرون أو شكيرون أو

سكير؛ بينما يمكن الوصول إلى وادي سكيرون هذا إذا انحدرنا من جبل بُرع-برنع في التوراة؛ قاصدين الطريق الجنوبي من محافظة أبْيَن. وهذا ما يقوله الهمداني والشعر الجاهلي (صفة: ١٨٩):

> إذا انحدرتَ من بُرع فهناك وادي برع ثم ذو سكير ثم بعد ذلك أبْيَن.

وهذا ما ينسجم كل الانسجام مع وصف يشوع لوادي سكير- سكيرون. قال كثير (معجم: ٧٤٣):

وعرَّس بالسكران يومين وارْتكى يجر كما جرّ المكيثُ المسافرُ

وقال الأخطل (معجم: ٧٤٢):

فرابية السكران قفر فما بها لهم شبح إلا الآء وحرملُ

وانظر بيت الشعر الذي يضبط الاسم في صورة سكيران (مادة دجيم عندنا). كل هذه المواضع متجاورة هي دليلنا على بُطلان المُطابقات التي جعلت من القدس الفلسطينية، في العصر الروماني المتأخر، شيئاً مماثلاً لأورشليم. لم تكن القدس تدعى أورشليم أبداً.

الفصل الثاني عشر

تلفيق الوحدة بين موءب العربية و(إسرائيل)

كان السبيلُ لاستجلاء التاريخ القديم للعرب يبدأ باستمرار، حتى عند المستشرقين الكلاسيكيين؛ من التفتيش في ثرواتهم وكنوزهم الشعرية ومَلكاتهم الثقافية. هذه الكنوز التي ساعدتهم في الانفراد بأدبٍ إخباري قلما كان هناك نظير له. وكان الشعر القديم باطّراد -في مساهمات المستشرقين- مفتاحاً سحرياً لفهم تاريخ العرب وإعادة بناء أحداثه. حتى أن الرعيل الأول من المستشرقين وفي طليعتهم نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠) أظهر استعداداً غير مسبوق، لاستخدام هذا العنصر كأداة في إعادة بناء الروايات التاريخية، أو التعديل على منطوق بعضها وتصحيح مسارات وتسلسل أحداث بعضها الآخر، ربما بأكثر مما فعل العرب أنفسهم. واعتماداً على روايات شعرية ومقاطع مُبعثرة من قصائد ضائعة وردت، هنا أو هناك، أمكن تحديد تواريخ حقيقية لمعارك جرت في مملكة الحيرة العراقية القديمة في العراق أو ضد جيرانها الغساسنة (مثلاً: أمراء غسان لنولدكه الذي بيّن فيه بفضل الشعر نوع المشكلات التاريخية). كما أن شامبليون نفسه، مُعتمداً بصورة ما كما يُقال، على الهمداني وحجر رشيد

الشهير الذي تم العثور عليه في ناحية رشيد بمصر؛ نجح لا في تفكيك الأبجدية المصرية القديمة وحسب (الحروف الهيروغليفية) وإنما كذلك، في تقديم مقاربات جديدة من أجل قراءة تاريخ مصر القديم، وعلى نحو مُغاير تماماً لكل ما كان سائداً ومُسلَّماً به. بكلامٍ آخر؛ إن الشعر العربي القديم[١] والروايات الإخبارية الكلاسيكية، كانا الأداة الحقيقية في استجلاء التاريخ القديم للعرب. ولأن العربي، كما تخيله المستشرقون الكتابيون (من الكتاب/ العهد القديم) شديد الحساسية بشكل مُفرط حيال هويته الخاصة، وشديد الاعتزاز كذلك بالتاريخ الرمزي لقبيلته (حيث يتحول الماضي يصوره البطولية الآسرة إلى مكوّنٍ أصيل وعضوي حتى في الهويات المعاصرة للعرب) فقد عملت الدراسات الكتابية وفي إطار الاستشراق، على استلهام عنصرٍ ضاغطٍ في هذا التاريخ الرمزي المُحبب. هذا العنصرُ الضاغطُ والخفيّ، كان ممُاهاة إسرائيل العتيقة التي عرفها العرب كقبيلة صغيرة من قبائلهم البائدة؛ بإسرائيل الراهنة المعاصرة. كما لو أن هذه الدورة الهائلة من الزمن لا تزال تندفع مُتدحرجة، إلى أمام وقُدُماً، في الاتجاه نفسه دون أن تحيد عن الهدف. وآنئذٍ، غاصَ العربُ في وعيٍ ثقافي مُشوّه لهذا التاريخ الذي يخصهم مباشرة دون غيرهم، وصدقوا الأسطورة الزائفة التي تم تصديرها - بعد إعادة إنتاجها- مع الحملات الكبرى في الشرق، والقائلة: إن بني إسرائيل، الذين جاء القرآن على ذكرهم وحفظَ التراث العربي أقاصيصهم الدينية، وإسرائيل الراهنة هما الشيء نفسه. وكان ذلك ذروة الخداع والتضليل. بهذا المعنى؛

---

(١) وقد لاحظ أهمية الشعر العربي القديم فقهاء وعلماء لغة أفذاذ، مثل عمرو بن العلاء، الذي يحفظ له المؤرخون القدامى قوله (ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير (انظر مثلاً: الخصائص لابن جني ط/ مصر ١٩١٣).

فإن التوراة لم تكن وحدها التي قُرئتْ استشراقياً؛ بل وجزء كبير من الموروث الثقافي العربي القديم[١].

سوف ندرس- في هذا الإطار- نموذجاً آخر من التلفيق هو مرثية أشعيا. إن الاسم (أشعيا- يشعيه) ليس اسماً مجهولاً في التاريخ الثقافي القديم لليمنيين. وعلى العكس من ذلك ثمة دلائل على أنه يرسم في صورة (يشيع) وهو رسم ورد في النقوش، ومعناه التقريبي (الناصر من شوع - وفي العربية المشايعة: المناصرة في لهجة حراز وهوازن[٢]) كما ذكر الهمداني اسم جبل يحمل الاسم يشيع وشيعان (بزيادة النون الكلاعية).

نواح أشعيا على موءب: ١٤ : ١٩ : ١٥ : ١ :
(القصيدة: ١٥)
مَثلُ موءب:

ثَقلتْ مآب
إذْ عارةٌ[٣] في الليل تسلبها

(١) ارتأى ابن الكلبي (الأصنام/ ط- القاهرة ١٩٦٥ ص: ١٢) أن العرب (لم تحفظ من أشعارها إلا ما كان قبل الإسلام). أما قبل الإسلام فقد ضاع عملياً لأنه - برأينا- كتب بلهجات القبائل. إن جزءاً من عملنا في هذا الكتاب يتجه - على الضد من بعض المعتقدات الأدبية- صوب ما يسمى الشعر العبري في التوراة، بقصد إعادة بناء صوره ومعالجته والنظر إليه بوصفه (شعراً جاهلياً ضائعاً) ومن نافلة القول أننا ننظر إلى العبرية على أنها لهجة يمنية منقرضة. ولدينا أدلة كثيرة على ذلك. هذا العمل مكرّس لنقد القراءة الاستشراقية السائدة، سواء للموروث الشعري العربي أم للتوراة نفسها.

(٢) يروى للأعشى الهمداني بيت من الشعر في هذا المعنى: (نشوع عوناً).

(٣) ديبون: انظر ما كتبناه عن جبل ذيبان (ديبن) وفي هذا المقطع من القصيدة سنقدم مزيداً من الإيضاحات حول أهمية هذا المكان.

وإذْ قيرُ[1] في الليل تنهبها

وإذْ الديار في ديبون تهجرها

فهلّا بكت حتى الموت

على نبو[2]

وعلى مدبءِ[3]، مآب تعالى نياحها

وبكل رأس أجرد

وبكل ذقن هرم

نُشرت خزياً أحزمة مسوحها

وفي رحبوت[4] كلها

نزلت تولول، ونواحها

يستنجد حشبون والعالة[5]

وفي يهص[6] يُسمعُ ضجيجها

لأجل هذا وذاك

رواد مآب ارتعدوا فارتاعت نفوسها

---

(١) قير: زعمت القراءة الاستشراقية أن قير - حرست كانت عاصمة الإرميين في بلاد الشام. وهذا تلفيق تاريخي وجغرافي لا أصل له.

(٢) نبو: هو الموضع نفسه الذي عرفه الشعر العربي القديم باسم النبي. وهو كثيب رملي مشهور.

(٣) مدبء: تخيّلت القراءة الاستشراقية ميدبء في صورة مأدبا الأردنية فيما هي اسم وادي مذاب (مدب).

(٤) رحبوت: غالباً ما تترجم رحبوت والرحبة إلى باحة، ساحة، سوق. في حين أنها اسم مكان.

(٥) حشبون والعالة: حشبون كما قلنا هم قبيلة الحواشب (أو حشب) عند الهمداني. والعالة اسم مكان

(٦) يهص: هو الأحص مياه شهيرة عند العرب.

وعلى مآب تصدّع قلبي
في رِحَة[(١)]
وعند صيعر[(٢)]
وعجلة و شليشت[(٣)] يوم صعودها
وفي اللوحيت[(٤)] حين ارتفاع نواحها
وفي طريق حورنيم[(٥)]، يوم صراخها
تطلب النُّصرة
فتضيع حشرجاتها.
فيا مياه نمريم[(٦)] التي جفت
ويا عشبها الأخضر المتيبس كله، ياعشبها
ما من ماضغٍ كلاءها
على- وادي- كن ويثرى[(٧)] كان ارتقاؤها
وفي العشه[(٨)] يوماً لملمت نفوسها
وبوادي الغرابات[(٩)] أصعدت أحزانها
والقيفه[(١٠)] التي عند قابل موءب كان استنجادها

---

(١) رحة: وعند الهمداني الراحة.
(٢) صيعر: اسم قبيلة يمنية.
(٣) عجلة وشليشت: موضعان سيأتي الكلام عليهما.
(٤) اللوحيت: اسم مكان يدعى اللحي والتاء في آخر الاسم لهجة يمنية.
(٥) حورنيم: انظر ما كتبناه في الفصل الخاص بنقد ترجمة سفر الملوك الثاني.
(٦) مياه نمريم: مياه النمارات- جمع نمار التي تغنى بها الأعشى.
(٧) كن ووادي يثرى: واديان سيأتي الكلام عليهما.
(٨) العشة: انظر ما كتبناه في الفصول السابقة.
(٩) وادي الغرابات: وادي العرابات في الشعر القديم.
(١٠) القيفة: اسم مكان.

وعند ءنليم[١] ناحت

وفي بئر ءليم[٢] تعالى بكاؤها

ومياه ديمون[٣] دماً كان امتلاؤها

وعلى ديمون

فلولٌ مآب خلفت مآزرها

وفي أديم[٤]، شيء من ضجيجها.

يبدو موضوع القصيدة مماثلاً بشكل جلي، لمواضيع شعر الرثاء العربي القديم. والقاسم المشترك بينها وبين ما يماثلها من قصائد، هو المزج التقليدي بين شعر الحماسة والمراثي والوقوف على الأطلال. تصوّر القصيدة هزائم قبائل مآب- المآبيين، الذين سبق وأن هزمهم داوود في معركة وادي حبل- انظر حروب داوود عندنا-. وهي لذلك تهتم بإبراز أسماء المواضع التي شهدت القتال، بينهم وبين خصومهم من القبائل القاطنة على الساحل، وكنا أشرنا إلى صراع الساحل والنجد (المرتفعات) وهو صراع مرير يدور في الأصل، على قاعدة واحدة تقريباً، هي محاولة الاقتراب من الساحل الذي تسيطر عليه قبائل قوية. وهذا تماماً ما يفعله الشعر الجاهلي في القصائد المعروفة عن أيام العرب. ها هنا قائمة بالمواضع التي وردت في قصيدة أشعيا الطويلة عن هزائم المآبيين. ومن شأن هذه القائمة، أن تمهد السبيل أمامنا لمعرفة المعنى الحقيقي لما يُدعى في الدراسات الكتابية (الوحدة مع موءب). أي الأرض التي تمكنت إسرائيل القديمة من ضمها- بالقوة- إلى إمبراطوريتها المُتخيّلة :

---

(١) ءنليم : اسم بئر.

(٢) ءليم : اسم بئر كذلك.

(٣) ديمون : انظر قصائد امرؤ القيس التي يرثي فيها دمون في حضرموت.

(٤) أديم : انظر ما كتبناه في منازل يهوذه وسواها من منازل الأسباط.

الاسم العبري	الضبط العربي
١: عار	عاره
٢: قير	وقير
٣: نبو	نبي
٤: رحه	راحة
٥: مياه نمريم	مياه النمرات
٥: قيفه	قيفه
٦: صعر	صيعر
٧٢: عجلة	عجل
٨: شليشت	سليسة
٩: حورنيم	حورانيان
١٠: رحبوت	رحبة
١١: اللوحيت	اللحيت
١٢: العشه	العش
١٣: كن	كنا
١٤: يترى	يثرى
١٥: ءنليم	ء نلين
١٦: ديمون	دمون
١٧: أدمه	أديم
١٨: عربات	غربات
١٩: ء ليم	بئر ءليم

من بين أكثر الأسماء التوراتية عُرْضَةً للتلفيق والتلاعب في السرديات الاستشراقية، عن صراعات بني إسرائيل في فلسطين المزعومة،

وانتصاراتهم الخيالية على ما يسمى-في التراث الكتابي-قبائل غربي الأردن؛ يحتل اسم موءب- مآب مكان الصدارة بامتياز. ففي السرد التلفيقي المُركب للكثير من أحداث قصص التوراة، تمّ تخييل المآبيين- المؤابيين كجماعة خضعت لسيطرة، ثم حكم بني إسرائيل بعد سقوط عاصمتهم قر- حرست؛ على يد الملك داوود إثر هزيمتهم في معركة وادي حبل. ومع أن الفضاء الجغرافي لبلاد الشام القديمة لم يعرف، في أي وقت أو عصر من العصور التي جرى تدوين أهم الأحداث فيها، وذلك استناداً إلى النقوش والألواح واللقي الأثرية؛ اسم واد يُدعى وادي حبل أو عاصمة تُدعى قر-حرست، كما لا يعرف بالطبع مكاناً يسمى صلع أو سلع أو شبمه أو حشبون أو عوله، وهي أسماء ورد بعضها في قصيدة أشعيا هذه، وفي قصيدة أخرى- كما سنرى تالياً-؛ فإن القراءة الاستشراقية وجدت في اسم مآب،قرب مدينة الكرك الأردنية،دليلاً على صحة فرضياتها عن فلسطين. هذه المُطابقة، يمكن لها أن تندرج بسهولة في سياق سلسلة من المُطابقات الماكرة، التي تميزت بها القراءة الراهنة للتوراة؛ وهي سارت قُدماً على طريق تجاهل سائر الأسماء الأخرى. إليكم هذه المُقاربة بين النص العربي السائد والنص العبري الأصلي (النصان مُختصران):

مقاربة بين النصين (العربي والعبري)

مشء- موءب-	قول على مُوآب
كي- ب-ليل	
شدد-عر-موءب- ندمه	ودمّرت عار موآب ليلاً فسكتت
كي-ب-ليل-شدد-قير-موءب-ندمه	ودمرت قير مُوآب ليلاً فسكتت
عله- ها-بيت- دبن	ديبون أيضاً صعدت إلى البيت

ها-بموت- ل- بكي- عل- نبو	إلى المشارف للبكاء
وعل- مدبء	موآب يولول على نبو وميدابا
موءب- ييليل-ب- مي- دمون	مياه ديمون امتلأت دماً)
ملء- دم)	

هذا النص الشعري عسير على الفهم حقاً؛ وهو بامتياز نتاج مُخيلة استشراقية مسحورة ومفتونة بالغموض. إنه غموض على صورة ومثال الشرق كما رأت إليه الدراسات الكتابية الغربية: ها هنا (عار مُوآب وقد دُمرت). فماذا يعني هذا؟ إننا لا نستطيع فهم هذه الجملة في اللغة العربية، كما لا نستطيع فهم البيت التالي (ديبون تصعد إلى المشارف) و (إلى البيت تبكي) في آنٍ واحد؟ وبالطبع فسوف نقدم ترجمة مختلفة لهذا المقطع من القصيدة في أثناء تحليل المادة، وفي سياقها ليتسنى للقارئ الاطلاع بصورة أفضل على نوع العبث الاستشراقي. إن ملاحظات مترجمي النصوص والقصائد الخاصة بأشعيا، تعترف بهذا الغموض ولا تنكره، ولذا تشدِّد على وجود مشكلات حقيقية تعترض استيعاب الدلالات والمقاصد. ومع ذلك؛ فإن محققي النص سارعوا إلى تقديم التفسير التالي:

(شمل الاجتياح -الإسرائيلي-كل أرض مُوآب من قير (الكرك-الأردنية) إلى حشبون والعالة في شمال نبو وميدبا)

على هذا النحو يتم تلفيق الجغرافية وإكراه الشعر القديم على البوح بحقائق لا وجود لها؛ لتصبح قير (قير وحرست وهما موضعان يعرفان باسم قير- قر و حرس) هي نفسها مدينة الكرك الأردنية اليوم. وإلى الشمال منها تغدو مدينة (نبو) قرب مأدبا مدينة إسرائيلية؛ وليكون بالوسع

عندئذٍ، تخيل إسرائيل القديمة وهي تتمدد بكل سهولة في أراضي جيرانها المهزومين الخائفين، الذين سوف يُسارعون إلى مشارف بيوتهم باكين. في الواقع لا تعرف الكرك الأردنية مثل هذه الأسماء، والحدث الذي تولت القصيدة تسجيله لم يقع هناك؛ بل ليس ثمة من اجتياح أصلاً في هذه المنطقة قام به الإسرائيليون في عصر أشعيا (وبالطبع يُراد من ذلك الإيحاء للقراء المتديّنين اليهود أن الضفة الغربية من نهر الأردن لم تسقط في يد الإسرائيليين المعاصرين عام ١٩٦٧ وحسب وإنما سقطت أيضاً في الماضي البعيد والأسطوري في عصر أشعيا وأصبحت إسرائيلية). في هذا الإطار يُفسر المحققون جملة (ب- دمون- ملء- دم) على النحو التالي:

(قد تكون دمون قراءة دارجة ل - ديبون - اختارها النبي لأنها توحي بفكرة الدم: دم - ديمون)

هذا التلاعبُ اللغوي المُتحَذلِق والمُتَفقّه، ينمّ عن جهل فاضح بقواعد العربية وبتقاليد الشعر القديم، وكذلك بجغرافية المنطقة الموصوفة في القصيدة. ليس ثمة جناس في بناء القصيدة يمكن التعبير عنه بمطابقة ديمون مع كلمة دم، كما لا توجد إحالات رمزية؛ بل هناك مكان بعينه يدعى ديمون امتلأ بالدم إثر معارك ضارية وشرسة خاضتها القبائل. ومن ثم فليس ثمة (قراءة دارجة لديبون) تجعل من كلمة دم العربية وصفاً (ديمون)؟ إن ديمون ومدبء-مذاب وديبون- ذيبن وحشبون- حُشُب، ليست مجرد كلمات لا معنى لها ويمكن التلاعب بترجمتها؛ بل هي أماكن حقيقية في فضاء جغرافي واحد. كما أن عار-عارة التي أغارت على قبيلة مُوآب، ليست مجرد تعبير احتقاري تسجله القصيدة؛ وإنما مكان بعينه كان من منازل ساحل زُبيد، واليوم لا تزال بقية من بني مجيد تُقيم في هذا المكان. هذا ما يُعيد تذكيرنا بما يُدعى معركة مياه مجدو (هر- مجدو) وهم

كما قلنا بنو مجيد سكان الساحل؛ إذ لا يوجد في فلسطين كلها أثر واحد يدل على وجود جماعة تدعى مجدو، كان لها جبل أو ساحل عرف باسمها (بني مجدو، ساحل مجدو، ميم-مجدو أو جبل بني مجدو، هر-مجدو) بينما نجد هذه الجماعة في الساحل اليمني، بوصفها من أقوى الجماعات القبلية. وعلى مقربة من عار-عارة هذه؛ تُقيم قبائل الحواشب-حشبون في جبل يدعى اليوم جبل صبر. إن تاريخ الجماعات والقبائل القديمة حافل بمثل هذه الوقائع الحربية الدامية، وحافل كذلك بمثل هذه الأحداث المُتفجرة أيضاً. ما من جماعة إلا وذاقت طعم الهزيمة وتحرّقت إلى الثأر. وما من قبيلة إلا وسجلت معاركها - أيامها - باسم جبل أو وادٍ من الوديان. ولذلك نشأ ما يُمكن اعتباره أدب معارك عُرف عند العرب باسم (أيام العرب) وهي أيام خلدتها القصائد والمراثي وأشعار الهجاء. ومن غير شك؛ فإن الكثير من هذه القصائد هي استطراد في استذكار الحروب، وليست- بالضرورة- تصويراً مُباشراً لها.بمعنى آخر: هذه القصائد قد تكون تسجيلاً لذكريات القبيلة عن معاركها، وليست تسجيلاً لحدث وقع في عصر الشاعر. هذا التقليد الفروسي الذي يُعبرُ عنه الشعر، مُصمم لإظهار طاقة القبيلة وقدرتها على مقاومة الفناء. إن شاعراً مثل جرير، مثلاً- وخصوصاً في أشعاره الهجائية المُقذعة والمُتبادلة مع خصمه وصديقه الفرزدق-لا يتردد في تذكير منافسه وخصمه بالهزائم التي تعرضت لها قبيلته في الماضي البعيد؛ حتى ليبدو للقارئ ومتلقي القصيدة في العصر الأموي، أن الحدث وقع للتو لا في الماضي البعيد. ومع أن مثل هذا النوع من المعارك كان قد انحسرَ إلى حد بعيد، في الإسلام المبكر، فإن جرير مثله مثل سائر الشعراء، كان يواصل تقليداً شعرياً فروسياً تتضمن القصائد فيه، صوراً لمعارك بطولية قد لا تكون وقعت أصلاً، والحال هذه؛ فإن أشعيا سارَ على درب هذه التقاليد حين كتب قصيدته. هاكم بعض هذه المقاربات الشعرية الخاصة بذكر المعارك حول وادي مدبء- مذاب:

عبد الله بن حبل (من شعراء الجاهلية: الإكليل: ١: ٧١)	اشعيا (مقطع من القصيدة)
ألا ابْلغ بني سُليمِ	وعلى مِدبء كانت مُوآب
وعامرَ والقبائل من كلابِ	تولولُ
مُغلغلة فكيف وجدتموها	
غداة السفح من كتفي مِذابِ	

من الواضح أن القبائل اليمنية- القحطانية في الجنوب، والعربية العدنانية في الشمال، التي اشتبكت بعضها مع بعضٍ في وادي مدبء- مذب (من سُليم وعامر وكلاب - كلب التوراة) تكرر حدثاً سبق له أن وقع في المكان نفسه، حيث دارت وتواصلت رحى معارك ضروس، كانت عار-عارة عند ساحل زُبيد طرفاً فيها. ويبدو أن هذه المعارك امتدت إلى دمون- ديمون في حضرموت.

امرؤ القيس (الديوان)	اشعيا (القصيدة)
كأني لم ألهو يوماً بدمون مرة	مياه ديمون امتلأت دماً
ولم أشهدِ الغارات يوماً بعندلِ	وعلى ديمون خلفت فلول
	مُوآب مآزرها.

ما تقوله هذه المقاربات الشعرية هو التالي: ليس ثمة اجتياح قام به الإسرائيليون، نجم عنه قيام وحدة اندماجية بين بني إسرائيل وقبائل مُوآب-مآب العربية كما تزعم القراءة الاستشراقية للتوراة وكما يزعم شرح محققي النص ومترجميه؛ وتاريخ الجماعات القديمة لا يعرف هذا النمط من الدمج القسري. ولذلك فإن هذه الصور الاستشراقية التي تبزغ

عن ترجمة ملفقة، ستظل إلى النهاية نتاج مِخْيال غربي لا يعرف أي شيء عن المواضع والأماكن الوارد ذكرها في التوراة. ولكن تاريخ الجماعات القديمة، في المُقابل، يعرف أشكالاً لا حصر لها من الانصهارات المتتالية التي حدثت لقبائل ضعيفة؛ وجدت نفسها وهي تندمج في قبائل أقوى، بفضل القرابات الأسرية أو ربما بفعل التحالف أو بفضل عوامل مصلحية مباشرة. كما يعرف هذا التاريخ توحداً لقبائل تجمعها القوة المُتكافئة والقرابات الثقافية على حد سواء. بهذا المعنى لن يكون (ما يُدعى في القراءة الغربية السائدة بالوحدة بين مُآب وإسرائيل) أكثر من إيحاء عنصري مقيت بإمكانية قبول دمج مماثل، يمكن تكراره بالوسائل ذاتها أي بواسطة القوة. ولو سلَّمنا جدلاً أن ما تتحدث عنه القصيدة هو حدث من التاريخ الفلسطيني؛ ففي هذه الحالة يتعيَّن التثبُّت من وجود مواضع مثل عار-عارة وحشبون- الحُشُب ودمون- ديمون وسواها هناك. وهذا ما لا دليل عليه. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٣٦-١٣٧):

> **جميع ما بين عدن ووادي نخلة من أرض شرعب من الأودية الكبار التي تنتهي إلى البحر من تلقاء المغرب أولها من أودية السكاسك يردُ العارة والثاني من أودية السكاسك وادي أديم ينتهي بين أرض بني مسيح وأرض بني مجيد.**

ويقول الهمداني في وصف عارة هذه (صفة: ٩٢) ما يلي:

> **ثم ينعطف البحر- الأحمر- على اليمن مغرباً وشمالاً من عدن، فيمر بساحل لحج وأبْيَن وكثيب يرامس وهو رباط وسواحل بني مجيد من المندب فساحل العميرة، فالعارة فإلى ساحل زبيد.**

ها هنا عارة وها هنا وادي أديم- أدمة قرب الساحل، حيث وقعت المعارك مع بني مُوآب- مآب. وها هنا مياه بني مجيد -مجدو. أما دمون التي امتلأت مياهها دماً، فهي دمون ذاتها التي عناها امرؤ القيس- انظر دمون عندنا-. ما تقوله مرثية أشعيا بسيط للغاية: إن قبائل بني مآب هُزمت في هذه المعارك، حتى أنها طلبت النجدة في موضع يدعى رحه، وأنها هبطت - في أثناء فرارها من ميدان المعارك- باتجاه الرحبة نائحة تولول؛ فتسلقت وادي يترى، عندما كان العشب يابساً ومياه نمريم- النمرات تجف. وجميع هذه المواضع لا وجود لها في فلسطين، بينما يمكن لنا أن نعثر على راحه، مثلاً، في بلاد الحواشب - حشبون قرب لحج، تماماً كما في مرثية أشعيا. وغير بعيد عن راحة هذه سنجد وادي ثرى ووادي الرحبة في المكان نفسه الذي شهد المعارك. هذه القرى والوديان والجبال جميعاً هي إلى الغرب من محجة عدن، حيث أرض بني مجيد- مجدو. إليكم وصف الهمداني للمواضع (صفة: ١٩٢-١٩٣):

> **ثرى وجنيب يسكنها الواقديون، الرحبة يسكنها الواقديون. الراحة (هامش المحقق: والراحه أيضاً من بلاد الحواشب وهي مربوطة بأعلاها إلى لحج ويسكنها آل يحيى) رجعنا إلى غربي عدن: السحل أرض بني مجيد ووادي الحنا والعميرة وساكنها بنو مسيح من بني مجيد والعاره- انظر العاره في ما سبق من وصف-المؤلف).**

يقول محقق الكتاب ما يلي (صفة - هامش ١٤٥): ثرى والجنيب كلها خرائب لا تُعرف كما ذكر ذلك الشيخ أحمد العبدلي في كتابه (تحفة الزمن). يُفهم من وصف الهمداني لوادي ثرى الذي كان- ذات يوم بعيد- عامراً بمنازل القبائل، أن مياهه تلتقي بمياه سلسلة من أودية جبال

السكاسك القادمة من زبيد، مارة ببلاد الحواشب حيث موضع راحة قبل أن تخرج من لحج باتجاه عدن (صفة: ١٤١-١٤٥):

ثم وادي زبيد، وما بين بلد بني مجيد وأبْيَن من الأودية المُنتهية ذات الجنوب إلى حيز عدن (.....) فيلتقي مياه هذا الوادي في وسط خدير والنُّبيرة وهي قرية عبد الجبار الحوشبي في صدر- جبل صبر، فيلتقي هذا الواديان وادي الجنات (...) تلتقي هذه الأودية في رأس لحج ثم يخرج هذا الوادي عند ثرى والجنيب وهما للواقديين. ثم من لحج إلى بحر عدن.

كما يُفهم من قصيدة أشعيا، أن بني مُوآب- مآب اضطروا إلى الانزياح عن وديانهم وجبالهم، بعد هذه المعارك الطاحنة واتجهوا صوب مياه نمريم- النمرات، التي كانت آنئذٍ شحيحة، حتى أنها لم تكن لتوفر لهم أدنى مُتطلبات الإقامة؛ فالعشب كان يجف والكلأ لا تكاد تُطيقه البهائم. وأن المعارك دفعت بهم إلى الهجرة صوب عربيم- عربات- اسم الجمع المؤنث السالم من عربة. وفي الواقع ليس هناك موضع في فلسطين يُدعى مياه نمريم أو عربيم؛ بينما توجد نمرات- اسم الجمع من نمر، كما توجد غرابات بالغين المُعجمة التي لا تعرفها العبرية. واسم الجمع العبري من غربه: غرابات. تقع مياه نمريم- نمرات في اليمامة، وهي مياه لطالما تغنى بها شعراء الجاهلية. قال حزازة العامري (صفة: ٣٣٤) في قصيدة طويلة يصف فيها أرض اليمن واليمامة والعروض من الحجاز:

فالنمارات فاللوى من أثالٍ فالعقيقان عليا فالجواءُ

فكثبان الدبيل فالحمرةُ العليا فقهر الوحاف والقوفاءُ

أما غرابات فهي -بالضبط- على الطريق من مياه نمريم لمن قصد اليمامة. يقول الهمداني واصفاً النمارات وغرابات (نمريم وعربيم): هذه المياه تقع قبالة مياه العرمة في أول اليمامة (صفة: ٢٥١-٢٥٢):

ويُقابل العرمة، غار المَغْرة وغار الطين، ويُقال لهما رحا إبل - انظر ءبل في منازل الأسباط -ورحا غنم وقد ذكر الأعشى أكثر هذه المواضع. فقال:

قالوا نمار فبطن الخالِ جادَهُما فـالـعـسـجـديـة فـالإبـلاءُ فـالـرجـلُ

ثم تقطع بطن قوّ ثم السمراء وهو أرض سهب في الدهناء ومن عن يمين ذلك على ميسرة الشباك شِباك العرمة والغرابات ثم تقطع العرمة. وتسير في السهباء وترد الخضرمة ودارعجل[1]- وديار هَوذة- وهي أول اليمامة وعن يمين ذلك وادٍ يُقال له الدام

هذه هي المواضع التي انزاح نحوها المُوآبيون، في إثر القتال الشرس الذي دار على الساحل. وكما يُلاحظ، فإن الموضعين هما من مياه البادية الشحيحة، تماماً كما في توصيفات القصيدة. وفي هذا المكان تقع ديار عجل- عجلة، التي طلب المُوآبيون منها المساعدة. ودار عجل هذه هي بالفعل، على مقربة من الموضع نفسه الذي تسمية القصيدة شليشلت - سليسلت. يقول الهمداني (صفة: ٢٦٤):

---

(١) لاحظ العلاقة بين اسم المكان دار عجل (عجلت - بإضافة التاء الأخيرة على جري عادات وتقاليد الكتابة اليمنية القديمة) وبين وجود منازل هوذه (يهوذه - بحذف الياء اللاصقة مثل يعرم في عرم، يكرب في كرب).

ومن أخذ الثفن (انظر- تفن عندنا) من الفلج إلى اليمامة أخذ أسافل الأودية. ومن الأودية التي تدفع في الخرج ذو أرال وماوان وقلاب وبين المجازة وبين الخرج رميلة يُقال لها سُليسلة عرضها ميل.

هذه هي سليسلت-سليسلة التوراتية، التي طلب المُوآبيون من قبائلها البدوية مساعدة عاجلة في أثناء المعارك. وبالعودة إلى مطالع القصيدة سنرى ما يلي: عندما نشبت المعارك على الساحل، وتم طرد المُوآبيين من بعض المواضع، وخصوصاً في إثر الهزيمة المدمرة بوادي مدبء-مذاب، اتجه هؤلاء لطلب المساعدة من القبائل الحليفة في موضعين مجاورين، يسمى أحدهما قيفه - قيفة والآخر يسمى حورنيم؛ لكن أحداً لم يتجاوب مع هذا الطلب كما يبدو من سياق النص الشعري. ولذا جرت عملية انزياح قسرية من الساحل باتجاه البادية. إن القصيدة من حيث محتواها التاريخي أو المثيولوجي، تُساهم في تفكيك لغز كان عصياً على الحل حتى الآن: لماذا ترسم التوراة صورة للمؤابيين بوصفهم من سكان الساحل، بينما نجد أن منازلهم حتى في عصر الهمداني تقع في البادية؟ بل إن القصيدة تفسر لنا سبباً مهماً من أسباب هجرة المُوآبيين نحو بلاد الشام، وفي وقت مبكر- على ما يبدو من الوقائع المعروفة -؟ إن سائر هذه المواضع لا وجود لها في فلسطين؛ بينما يحددها الهمداني في الفضاء الجغرافي نفسه لمسرح المعارك. هاكم ما يقوله عنها (صفة: ١٥٢):

ومن جانب ذمار وبلد عنْس وهو مخلاف واسع: جبال بني وابش من مُراد وبلد قائفة (المحقق: وهي اليوم تُسمى قيفه وهي قبيلة عزيزة منيعة والغالب عليها البداوة وتقع من ناحية رداع شرقاً وشمالاً وهي بطن من مراد)

هذه هي ها-قيفه التوراتية التي ناشدها المُوابيون المساعدة، وهي من القبائل البدوية المرهوبة الجانب وتُقيم- تماماً كما في مرثية أشعيا-على مقربة من وادي ميدبء -مذاب ويهص- الأحص، حيث تقول القصيدة: إن نداء المُوآبيّن وصراخهم كان يُسمع هناك، كما نجد وادي مِذاب نفسه في الطريق إلى حورنيم. تقول المقاطع التالية من القصيدة - دون ترتيب- ما يلي:

(على مدبء تولول مُوآب)

(وحينما في طريق حورنيم طلبوا النجدة)

(وحينما استنجدوا القيفة التي عند قابل مُوآب)

(وفي ياهص سُمِعَ ضجيج)

هاكم وصف الهمداني لمواضع القصيدة (٢٠٨-٢١٠):

ومن هذا الصقع في حيز-وادي-سهام وكثير مما ذكرنا من غربي ذمار: ضوران ومِذاب وبها: الصبليّون من حِمْيَر- ثم -مخلاف حراز وهوزن. فمن وادي حار، العقيل والحبيل والأحص والحورانيان.

على هذا النحو تتحدد معالم القصيدة: ها هنا تلقى المُؤابيون أكبر هزيمة لهم، على ضفاف وادي مدبء- مِذاب بعد أن خذلتهم القبائل الحليفة؛ فجرى طردهم من الوادي ولم تنجدهم الجماعات المُقيمة في يهص- ءهص وفي حورنيم- الحورانيان (الياء والميم العبرية أداة التثنية والجمع). يعني هذا أن المعارك امتدت من ساحل زبيد إلى غربي ذمار على ضفاف وادي مِذاب نفسه، وليس في غربي الأردن أو في منطقة الكرك المزعومة. كما تقول القصيدة في مقاطع أخرى ما يأتي:

(تسلقوا كن ويثرى
وفي العشه جمعوا أنفسهم
وصعدوا وادي الغربات بأحزانهم)

ليس في فلسطين التاريخية أي وادٍ باسم العشه أو كن،كما لا تعرف بقية المواضع الواردة في القصيدة؛ بينما نجد الواديين باسميهما في المكان نفسه الذي دارت فيه المعارك.من الواضح أن المعارك امتدت نحو صعدة ليأخذ المهزومون طريقهم، بالفعل، صوب البادية متجهين - كما رأينا- إلى وادي الغرابات، في أكبر عملية انزياح جماعية. لقد تم طردهم من الساحل والدفع بهم نحو البادية وليتحولوا - مع الوقت - إلى قبيلة متبدّية. هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٢٤-٢٢٥):

> **وأودية صَعْدَة دماج والغيل ويسلك في البطنات في أسفل العشه. والغيل والعشه لبني سعد بن سعد (..) وكنا لبني سعد.**

ولأجل بناء صورة جغرافية متكاملة عن هذا الحدث، فسوف نعود إلى المقطع السادس عشر من القصيدة (انظر القصيدة في مادة صلع عندنا). يقول أشعيا (١: ١٧ ؛ ٤: ١٦) ما يأتي:

(: ل-ءسيس-
قر- حرست-
عل-كن -ءبكه
-ب-بكي- يعزر- جفن- شبمه
ء ريوك-
دمعتي- حشبون

وعل-عوله-)

(لأسيس

ولقير، وحرس

أبكي

وفي البكاء بعض مما يسعفُ كروم شِبام

فتطول ياحشبون ويا عوله دمعتي)

في هذا المقطع الصغير نجد اسم وقير- قر، يتكرر بالتلازم مع حرس- حرست ووادي شبمه-شبمه ووادي عوله-عوله و أسيس- أسيس. غير أن الترجمة السائدة تقدم جملة غير مفهومة للمقطع الآنف: (أقراص زبيب في حراست) مقابل الجملة العبرية: (ل- ء سيس -قير- حرست). ليس ثمة أقراص زبيب؛ بل هناك مكان بعينه يدعى أسيس، وهو موضع وردَ في شعر امرؤ القيس. كما يوجد موضع آخر يسمى (وقير - قر) ورد ذكره في الشعر الجاهلي في قصيدة عن جبل قدس. وها هنا مقاربة شعرية أخرى:

أشعيا:	امرؤ القيس (الديوان: ٨٧)
لأسيس	(ولو وافقتهن على أسيسٍ
أبكي	وحاقة إذْ ورَدْنَ بنا ورودا)
وفي البكاء بعض مما يسعف كروم شبام)	

وسبق لنا تحديد موضع حرس- حرست هذا، وبيّنا كيف أن محققي التوراة توهموا وأخطؤوا في تهجئة الاسم فظنوه عاصمة الكرك الأردنية؛ مع أن التاريخ المكتوب لا يعرف مثل هذه العاصمة ولم يسمع بها. كما سبق لنا تحديد مخلاف- مملكة شبام، وهو من أعظم أودية

حضرموت إلى الشمال من سرو مَذْحِج، حيث أقامت قبائل الحُشُب- أو الحواشب بالضبط كما في القصيدة. هاكم إعادة مختصرة للمقاربة الجغرافية بين أسماء المواضع في مرثية أشعيا والأماكن في اليمن القديم. يقول الهمداني (١٦٦- ١٦٨):

> **الصيعر قبيلة من الصدَف-المحقق: الصيعر وهم في الغالب بدو رحل- وعندل وخودون وهدون ودمون مدن للصدَف بحضرموت، وساكن دمون بنو الحارث الملك بن عمرو بن حجر آكل المُرار. ثم منوب وادٍ فيه قرى ونخل وزرع ثم يفيض منوب بين شبام والقارة، وساكن شِبام بنو فهد من حِمْيَر.**

ها هنا دمون التي امتلأت مياهها بالدماء المسفوحة على ضفاف الوادي، وها هنا قبائل صيعر-صعر التي تجاهلت نداء الاستغاثة، ولم تقدم المساعدة للمؤابيين. وهناك، غير بعيد عن هؤلاء، نشاهد وادي شبام الذي تعرض للهجوم - حيث يرثي الشاعر كرومه- وكلها في المكان نفسه الذي روت القصيدة عنه أحداثاً دامية ومنسية. كل ما تبقى من مواضع في هذه القصيدة حسب ضبطنا لها؛ استناداً إلى الرسم العبري وإلى ضبط الهمداني، المواضع التالية: لوحُيت- اللوحيت وءنليم ء نلين وءليم - الليم. تقول القصيدة ما يلي:

عندما صعدت اللوحيت ارتفع فيها النواح

وحينما في طريق حورنيم طلبت النجدة

صراخها كان حشرجات

(ناحت عند ءنليم

وفي بئر ءليم ولولت)

تُميز القصيدة بين موضعين أحدهما هو بئر ءليم- أو (ءلين بإبدال الميم نوناً كما في نطق بعض القبائل) والآخر يدعى ءنليم - الليم، بنون لاصقة إضافية-. ونحن على غرار هذا التميز، نقيمُ حدوداً فاصلة وموازية بين الاسمين لئلا يختلطا. إن ما يُدعى ءنليم- الليم بمعاملة النون اللاصقة كبقايا أداة تعريف منقرضة تسقطها العربية عادة (مثل: نهلل في هلل أو تحولها إلى ألف مهموزة مثل ءنف في: ألف[1]) ليس سوى الموضع نفسه الذي يسميه الهمداني والشعر القديم اللهيم بهاء صوتية (مثل: يهريق الماء في: يريق الماء وهذا مألوف في كلام أهل اليمن). وموضع اللهيم هذا من أودية القبيلة العربية البائدة بني مُرة في تهامة الحجاز (صفة: ٢٩٦). قال النابغة (معجم البكري، ط: بيروت: ٤: ٤٧):

ظَلِلنا ببرقاءِ اللهيم تَلفنا   قبول تكاد من طلاتها تُمسي

لنلاحظ استعمال النابغة لكلمة قبول في الإشارة إلى المرتفعات الجبلية (قارن مع جبول العبرية ومع موضع كبول في التوراة). هذا يعني أن الموضع المجهول الواردة في مرثية أشعيا النبي، هو بَرْقة من برقات المنطقة الممتدة من تهامة تدعى اللهيم. أما بئر-ءليم (بئر- ءلين) في قراءة موازية وصحيحة للاسم تعامل الميم العبرية نوناً؛ فهو الموضع ذاته الذي يُسميه الشعر العربي القديم مياه لين، وهو من مياه تهامة في سلسلة الجبال المُتصلة بجبلي قدس كما يقول البكري (معجم، ط: بيروت: ٢: ٢١٦- ٢١٧) وقد ذكره عُبيد بن الأبرص في شعره:

تغيّرتِ الديارُ بذي الدفينِ   فأودية اللوى فرمال لينِ

يعني هذا أن إحدى المعارك الضارية ضد المُوآبيين، جرت في تهامة عند مياه ليم- لين. هذا ما يُفسر لنا معنى قول أشعيا: إن المُوآبيين فروا

(١) انظر ما كتبناه عن جبل ءنف- ألف، ونهلل- هليل.

نحو ها- لوحيت؛ إذ ليس ثمة من موضع يحمل هذا الاسم سوى الموضع المعروف باسم اللحي-لحيت في شِعاب تهامة، وهو موضع تعرفه القبائل العربية البائدة جيداً باسم لحي. يقول الهمداني (صفة: ٣٧٨):

صنان شِعب بالقرب من بنات حرب، ويُسمى لحي الجمل. والربضات موضع بين جبال به رضائم كالآطام الكبار وهي من صخر مرتضم بعضه على بعض.

ما تقوله مرثية أشعيا هذه التي تخيلها محققو التوراة نشيد انتصار إسرائيلي آخر، أمكن من خلاله دمج جماعات بدوية وإلحاقها قسراً بإسرائيل قديمة، قوية ومرهوبة الجانب؛ ليس سوى أسطورة من نسج الخيال. لكل هذا نعيد- هنا - رواية الوقائع التي سجلتها المرثية على النحو التالي: قامت القبائل القاطنة على الساحل اليمني في عارة، بهجومٍ مُباغت على جيرانهم بني مآب فجرى كسرهم وإلحاق الهزيمة بهم، في يوم مشهود من أيام القبائل. ويبدو أن قبائل عارة ألحقت ببني مؤاب الخزي في معركة أخرى، عندما تمكنت من طردهم من جبل ديبون- ذيبون، بحيث إنهم فروا منه في النهاية، ولم يتمكنوا من الرد على الهزائم القاسية. كما أن القبائل القاطنة في قير ألحقت الهزيمة ببني مؤب-مآب في معركة أخرى لا تقل ضراوة. إن أشعيا وعلى غرار ما يفعل شعراء الجاهلية، يُعيد تذكير المآبيين بهاتين الواقعتين في إطار سردٍ شبه تاريخي للخصومات المحتدمة مع هؤلاء. وعند ضفتي وادي مدب- مِذاب بلغت المأساة ذروتها، حين تلاقت القبائل من جديد في معركة أخرى ضارية أسفرت عن هزيمة جديدة للمآبيين أزاحتهم عن الوادي. وفي وقتٍ تالٍ، نشبت معركة أشدّ عنفاً في دمون، هُزِمَ فيها المآبيون أيضاً. وأشعيا يشير إلى دليل هزيمة هؤلاء بقوله: إن مياه دمون في ذلك اليوم امتلأت دماً.

دمون هذه، التي يصورها النبي- الشاعر على أنها مسرح معركة كبرى عنيفة وقاسية للغاية؛ هي ذاتها دمون امرئ القيس الذي يصورها، كذلك، على أنها مسرح للغارات الحربية القاسية التي شارك فيها (انظر قصيدة امرئ القيس الكندي بن حجر آكل المُرار). وبالطبع؛ فإن أحداً ممن له إلمام بسيط بتاريخ العرب القديم، لا يمكنه المُصادقة على الرواية الأوروبية عن الحادث. كما لايسعه قبول التأويلات والقائلة: إن دمون قد تكون قراءة دارجة لديبون أو أنها جناس: دم- دمون كما ارتأى محققو التوراة، لسبب بسيط للغاية هو أن دمون موطن من مواطن شاعر العرب القديم امرئ القيس، وهو أقام فيها عندما كان أميراً من أمراء كندة، يلهو ويلعب ويقاتل، وحيث وصله فيها على ما يقال نبأ مصرع والده الملك على يد بني أسد. كما أن أحداً لا يمكنه تصديق المزاعم القائلة: إن القصيدة تتحدث عن اجتياح إسرائيلي شامل لمدينة الكرك الأردنية؟ ولا يوجد دليل أثري أو ثقافي أو تاريخي واحد عن مثل هذا الحدث المزعوم؛ ولا وجود – من ثم- لأي إشارة في نصوص التوراة ذاتها عن مثل هذا الحدث. بهذا المعنى؛ فإن ما يُدعى الوحدة الاندماجية بين المُوابيين – المآبيين وبني إسرائيل، في إثر اجتياح الكرك وسقوط عاصمتها الخيالية قير- حرست؛ إنما هو تصور لا أساس له في التاريخ. إنه – باختصار شديد- تصور خاطئ مبني على فرضيات مغلوطة وعلى قراءة مُضللة لقصيدة قديمة، تنتسب إلى الشعر العربي العتيق المكتوب بإحدى لهجات العرب المنقرضة، والتي كان المسلمون يسمونها السريانية، ويعنون بها العبرية (وهم لا يقولون عبرية لأنهم لا يعرفون مثل هذه اللهجة- انظر الأزرقي في أخبار مكة، مثلاً). هذا هو المضمون الحقيقي لقصيدة أشعيا التي تستلهم تقليداً راسباً ومستمراً باستمرار مجتمعات القبائل: إبراز قوة وعنف الخصومات القبائلية وقسوة الحروب الدائرة بينها، وفي السياق: المباهاة دون حدود بضراوة القتال البطولي

وبسالة المحاربين، الذين يلحقون الخزي بالقبائل الأخرى. إن الإلحاح على فكرة الوحدة الاندماجية مع المُوابيين - في تأويل محققي التوراة- واختلاق حادث سقوط عاصمتهم الكرك، لا هدف له سوى تكريس فكرة استيلاء إسرائيل المعاصرة على غربي الأردن، وجعل فكرة الدمج القسري للسكان العرب في كيان إسرائيلي جديد، مقبولة وذات أساس تاريخي وديني. ومع أن أشعيا لا يشير البتة، إلى بني إسرائيل في هذه القصيدة ويكتفي بسرد وقائع المعارك بين القبائل؛ فإن المِخيال الغربي رَصَفَ الاجتياح المزعوم داخل منظومة تصورات ذات طبيعة عمومية بكل تأكيد، عن دور ما لبني إسرائيل في أحداث القصيدة، ومن دون أن تكون هناك إشارة واحدة على صحة هذا التصّور. والمثير أن أسماء كل المواضع وأسماء كل القبائل- مما ورد في المرثية- لا وجود له في فلسطين أو غربي نهر الأردن أو في الكرك الأردنية. لقد اندحر المُآبيون وانزاحوا عن الساحل اليمني في إثر هذه السلسلة الطاحنة من المعارك، ليستقروا في النهاية، إلى الجنوب من جبال الشراة، ولم يتبق من وجودهم القديم شيء يُذكر بعد ذلك. في شرحه لشعر حاتم الطائي قال المرزباني (هامش البكري: ١١٦٩): إن مآب في قصيدته هي مما يلي إيله- انظر ما كتبناه عن إيله -. قال:

سقى الله الناس سحاً وديمة   جنوب الشراة من مآب إلى زُغرِ

وقال البُعيث (معجم: ١١٦٩) واصفاً مآب القديمة، على جري عادة الشعراء في تذكر المنازل الزائلة:

حديثُ أنزافٍ تشعب لُبّه   كميت سبتها من مآب الذوارعُ

تقع جبال الشراة في قصيدة حاتم الطائي ضمن ما يعرف بسلسلة جبال يثرب، وضمن الفضاء الجغرافي لوادي القرى. ولهذا قال المرزباني

إنها مما يلي جبل إيله على ساحل البحر الأحمر. يتبقى في الختام أمر جدير بالتذكير: إن قصيدة أشعيا تروي هزيمة المُوابيين- المآبيين في مكان يدعى نبو- نبي ولا وجود في طول فلسطين وعرضها، ولا قرب الكرك الأردنية بالطبع، لمكان بهذا الاسم. فيما على العكس عرفت قبائل العرب وادياً شهيراً في نجد دارت فيه معاركهم، هو وادي نبي. وادي (نبو) هذا؛ الذي أخذ اسمه من دلالة الارتفاع (من الكلمة العربية- الأكدية: نبا، بمعنى ارتفع، تسامى) يُصّور في الشعر العربي القديم كمكان مرتفع بالفعل. قال القطامي (معجم: ١٢٩٦):

لـمـا وردْنَ نـبـيّـاً واسـتـتـب بـنـا مُسحنْفر كخطوط السيح مُنسَحِلُ

هذه الصورة الشعرية المُتكلفة والمُتحذلقة تصف مع ذلك بدقة كافية، موضعاً مرتفعاً تجري المياه بين جنباته تاركة بعض الأثر، الذي يماثل ما يُخلفه المرء عادة، حين يجرجر خلفه شيئاً مطروحاً على أرض رملية هو مجرد خطوط، وذلك ما تتركه السيول عادة. وهذا التوصيف يتوافق في منطوقه الواضح، مع توصيف الجغرافيين العرب لهذا الوادي فهو كثيب رملي مرتفع، تجري بين جنباته مياه عذبة قادمة من وديان مجاورة. قال أوس بن حجر (معجم: ١١٠٩):

لأصـبـحَ رَتْـمـاً دَقـاقَ الـحـصـى مـكـان الـنـبـي مـن الـكـاثـبِ

إن الكرك التي تخيل التوراتيون سقوطها في يد إسرائيل القديمة لا تعرف موضعاً بهذا الاسم. فكيف استدلَّ هؤلاء في روايتهم لأحداث القصيدة إلى أن مسرح المعارك كان في فلسطين؟ لقد تلاعب المخيال الأوروبي بأحداث التاريخ القديم وعبثَ به بطريقة مأسوية يكاد يكون من المتعذر تصحيحها بسهولة.

الفصل الثالث عشر

مقاربات شعرية للمواضع من قصائد زكريا النبي إلى الشعر العربي القديم

سوف نكرّس هذا القسم من الفصل لمعاينة بعض الحقائق، عن الطريقة التي جرى فيها اختلاق وتلفيق الأماكن الفلسطينية في التوراة؛ استطراداً في الكشف عن الأثر الذي يمكن أن يُخلفهُ مثل هذا التلفيق، في إنشاء وتأسيس الصورة المخيالية لفلسطين المعاصرة، بكل ما لازمها من بحث عبثي محموم عن مواضع يهودية مقدسة؛ لم يكن لها وجود أصلاً في فلسطين في أي وقت سابق على كتابة التوراة. وفي سبيل هذا الهدف فقد آثرنا تقديم معالجات جديدة لسلسلة من المواضع، وردت في مراثي أنبياء التوراة وفي مواعظهم.

جبل نصفه

في قصائد مختلفة، يهجو أشعيا هجاء مُرّاً مدينة بابل؛ بسبب الحروب التي قادتها ضد مملكة اليهودية، مستذكراً الحملات العسكرية

المدمّرة. ويسجل السفر (أشعيا، النص العبري: ١١: ١٥: ١٣: ١٣: ٨ -٢ النص العربي لتسهيل عودة القراء إليه: ١٣: ١: ١٣) وفي إطار تقاليد هذا الهجاء الشعري، اسم جبل يدعى نسفه- نصفه على النحو التالي: (عل- هر- نسفه). وقد ترجمت الجملة في النسخة العربية من الكتاب المقدس إلى (على جبل أقرع). وفي حدود علمنا لا توجد كلمة نسفه في العبرية تؤدي معنى أقرع، بينما توجد كلمات مثل (نشف بمعنى نفخ زفر، ظلام).كما لا يوجد - في حدود علمنا أيضاً- جبل في فلسطين يُدعى أقرع؟ ولذلك يبدو مثيراً للاستغراب حقاً أن محققي التوراة يعطون دون تردد، وعلى نحو اعتباطي في الغالب، تأويلاً للكلمات التي تصادفهم داخل النصوص لا يقوم على أساس دلالي مقبول. بيد أن سياق القصيدة والأجواء التي ترسمها؛ بل وموضوعها الهجائي الذي يتنبأ بهزيمة بابل، تشير كلها إلى جبل يُدعى نسفه- نصفه. إليكم هذه المُقاربة:

اشعيا (انظر النص اعلاه)	ذي الرمة: الديوان و صفة جزيرة العرب: ٢٤٥
على جبل نسفه	أقولُ وشَعْر والعرائس بيننا
احملوا الراية	وسُمر الذرى من هضب ناصفة الحُمر
	ابن مقبل (صفة: ٢٥٣)
	كأن به بين الطراة ورهوة
	وناصفة السوبان غاباً مُسعرا

هل هي محض مُصادفة أن الشعراء القدامى عرفوا جبلاً قرب جبل شعر اليمني يُدعى جبل ناصفة-نسفه؟ -علماً أن القبائل العربية في طفولتها اللغوية كانت تنطق السين صاداً أو العكس، مثل: بُصاق: بُساق - وهذا ما يدلل عليه الشعر القديم.

ملكوم

في هجاء إرميا النبي لبني عمون (النص العبري: ٤٨: ٤٦: ٤٩: ١٠-النص العربي ٤٨: ٣٦: ٤٩: ١) يقول عن وادي ملكوم ما يلي (مدوع -يرش- ملكوم - ءت- جد) وهذه الجملة تُترجم عادة إلى: (فما بال ملكوم يرثُ جاد؟). هاكم هذه المقاربة بين الشاعر- النبي إرميا وكثير[1] الشاعر اليمني.

إرميا:	كثير
لمَ يرث ملكوم جاداً؟	سقى الله أمواهاً عرفتُ مكانها
	جُراباً وَملكوما وبذر والغمْرا

الرفيد

في هجاء سنحاريب، كتب أشعيا النبي قصيدة لاذعة وغاضبة، تشير إلى معارك مرج الكامس (كر-كميس) بين القبائل اليمنية وجيش الإمبراطورية والتي سبق الكلام عنها. يقول (النص العبري: ١٠: ٤ ١- النص العربي: ١٠: ١: ١٢) في مقطع من هذه الهجائية القديمة ما يلي (هلء-ب- كر-كميش-كلنو-ءم-لء-ب- ءرفيد- حمت؟). وهذه الجملة يجب أن تترجم إلى (أليس في مُرج كمس شقائق نعمان أم ليس في الرفيد وحمت؟). بدلاً من هذا الاحتمال قدم لنا النص العربي ترجمة شاذة وغرائبية، بالفعل،على الرغم من بساطة البيت الشعري وسهولة تراكيبه وصوره. ولأن ما يهمنا هو التدقيق في أسماء الأماكن، فسوف نكتفي بهذه الإشارة. هاكم مقاربة شعرية بين أشعيا وجابر التغلبي (انظر ياقوت مادة

(١) الديوان: ٥٠٣- تحقيق د. إحسان عباس.

كامس: ١٠٠٨٧ عن رواية الثعالبي[1]:

اشعياء	جابر
أليسَ في مَرج كامس	ولقد أرانا ياسُمَي بحائل
شقائق نعمان، أم ليس في الرفيد وحمَتِ[2]؟	نرعى القري فكامساً فالأصفرا

يقول الهمداني عن رفيد- الرفيد ما يلي (صفة: ٢٣٠-٢٣١):

(ومن النجد أوطانها: الرفيد بلد حصون وزروع. والذي يُصالي جنب من ديار عنز الرفيد والعين عين الرفيد).

أرض حَذْرَق وَمذَر

عاش زكريا بن برخيا وكتبَ واحدة من أهم مراثيه الشعرية عن صور، في عصر الملك الفارسي داريوش. وهو يبدو- من أشعاره- عارفاً بشكل جيد بحادث تاريخي آخر هو سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م. لكن قصيدته عن صور تنبني على تقاليد استعادية لمشاهد الدمار، واستذكاراً منتظماً لمظاهر ازدهارها. هاكم هذه المقاربة بين زكريا وشاعر حجازي من عصر الهمداني يُدعى العجلاني، فهما وصفا الأماكن ذاتها ومن بينها مكان يدعى حذرق- حذرك. (النص العبري مختصراً: ٨: ١٣: ٩: ٥ وصفة جزيرة العرب: ٣٣٧):

---

(١) لا أعرف مَنْ عنى - ياقوت- بالضبط حين نسب البيت: هل هو لجابر بن حُريش أم التغلبي؟

(٢) أعطينا - فيما سلف من فصول هذا الكتاب- أشعاراً عن الموضعين «رفيد وحمت (الرفيد وحمّة).

زكريا	العجلاني
كلمة الرب:	
في أرض حدرك	رب إياك نحن ندعو ونرجو
صور بنَت لها حصناً وكنزت الفضة.	ولنا أنتَ ذا الجلال الرجاءُ
	فالفقيان من خُذارق فالفر
	ش فتلك جدة القوراءُ

في هذين الدعائين الشعريين الدينيين القديمين لدينا ما يلي: إن حدرك-خُذرق في قصيدة العجلاني، موضع ساحلي يقع على مقربة من الفرش- فرشت في النقوش المصرية (انظر اسم فرش في قصيدة حزقيال عن صور). وفي قصيدة زكريا تقع حدرك على الساحل أيضاً على مقربة من صور. (وكنا أشرنا إلى افتقاد العبرية لحرفي الذال المعجمة والخاء المعجمة وهي تستبدلهما بالدال المهملة والكاف: حذرق-حدرك). كما أن مطالع القصيدتين متماثلة بما يشير إلى تقاليد أدبية وشعرية قديمة ومستمرة، مثل الاستهلال باسم الرب. لقد اكتفينا من القصيدتين بهذه الأبيات للدلالة على نمط التماثل، والتطابق في أشكال البناء الشعري وفي رسم أسماء المواضع؛ علماً أنهما تحفلان بالكثير من التطابقات التي لا يتسع لها المجال هنا.وفي هذا الإطار؛ لابد من ملاحظة أن قصيدة زكريا بن بُرخيا تشير إلى مواضع يمنية حصراً لا وجود لما يماثلها في فلسطين، مثلاً: يقول زكريا (وهيه-ك- ءلف- ب- يهوده) وقد تُرجم هذا البيت الشعري في الطبعة العربية من التوراة إلى: (ويكون كزعيم في يهوذه). إن هذه الترجمة غير مقبولة لأنها لا تُراعي حقيقة أن ءلف- ألف العبرية هي إشارة إلى موضع بعينه يُدعى ألف يتبع مخلاف-مملكة يهوذه في السراة- راجع ماكتبناه في منازل الأسباط عن هذا المكان -. ولذلك؛ فإن البيت الشعري

هو: (ويُصبح مثل ألف في يهوده).وألف هذا جبل شامخ من جبال حِمْيَر وهو يُرسم في صورة أنف.

تقول قصيدة زكريا:

(وهيه- ك- ء لف- ب- يهوده -وعقرون - ك- يبوسي)

(ويصير مثل ألف في يهوده وعقرون مثل يبوس)

وهاكم وصف الهمداني للعلاقة بين المكانين (صفة: ١٥٤- ١٥٦):

ثم الجوف وهو منفهق من الأرض فيه أنف اللوذ (المحقق: وفي جبل أنف، المنفذ الطبيعي للجوف اللوحة التاريخية المزبورة بالقلم المُسند والتي تشير إلى اتفاقية بين دولتي سبأ ومعين) وما أقبل من أشراف نقيل السود فبيت بوس.

تُفصح هذه المقاربة عن الحقيقة التالية: إن الشاعر عَنى موضعين في السراة اليمنية هما جبل ألف الشامخ في سلسلة جبال يهوذا، وبيت بوس (وهي أورشليم). إليكم مقاربة أخرى:

زكريا: (النص مكثفاً: وصور- وصيدون - (..)

ويشب- م- مزر- ب- ء سدود -وهيه- ك-ء لف-

-ب- يهوده- وعقرون- ك- يبوسه)

(وصور وصيدون

ويُقيم في مدر

وفي ء سدود

ويصير مثل ألف في يهوده

وعقرون مثل بوس)

لدينا في هذه القصيدة المواضع التالية: صور وصيد-صيدون ومذر-مزر، وءسدود-ءسدود وبيت بوس و عقر- عقرون و ألف-ءنف في سلسلة جبال يهوده. هاكم وصف الهمداني لها (صفة: ١٥٣-١٥٩: النص مكثفاً):

ذمار ومساقط بلد خولان وتفضي إلى موضع (السد) ومن خلف (السد) إلى أسفل الرحبة لمن هبط من مأرب ثم من بعد مأرب إلى الجوف وهو منفهق من الأرض فيه أنف، فبيت بوس ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف مأذن من حضُور فمساك وبلد صيد وبه أودية من ظاهر همدان وما يسقط من مدر.

هذا يعني أن النبي - الشاعر المسمّى زكريه- زكريا كان يصف المكان نفسه، ذمار القديمة التي كانت تُعرف باسم سدد- شدد بن زرعة بن سبأ، حيث الجبال والوديان والبلدات والقرى. والمثير للاهتمام أن المترجمين الذين يجهلون موضع مذر- مزر، وربما لم يكن بوسعهم تخيله كموضع بعينه؛ أعطوا مكافئاً غريباً للاسم لا يمكن إدراجه إلا في إطار الكره الغريزي للفلسطينيين،من خلال حشر اسمهم في كل حدث أو واقعة قصدَ تلطيخ سمعتهم. هاكم ترجمة المقطع كما وردت في الطبعة العربية من التوراة:

ويسكن النغلُ في ءشدود

واستأصل زهو الفلسطينيين

في الواقع لا يقول النص العبري أي شيء من هذا الهراء؛ بل يقول: (ويشب- م- مزر-ءسدود وها- كرتي- جثون- فلشتيم). والترجمة الدقيقة والأمينة لهذه الجملة هي: (ويمضي من مذر والسدود، الكرثيون

والجئون[1] والفَلستيين). ومن غير شك؛ فإن استخدام كلمة النغل- أي الفاسد، في وصف الكرتيين والفلسطينيين لا أصل له في النص التوراتي؛ لسبب بسيط هو أن مزر- مذر لاتعطي معنى الفاسد، كما أن ها-كرتي لا تعني استأصلَ بل تعني الكرثيين - بالثاء المثلثة، وهم أمة قديمة تنتسب إلى هنوم-هنوم في التوراة، فضلاً عن أن فلشتيم لا تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى الفلسطينيين. وإلى هذا كله فإن الجئون لا تعني (زهو، مجد، عبقرية) مثلما توهم المترجمون، وإنما تعني القبيلة جأوة من باهلة، واسمهم جاء في وصف الأمم والجماعات الأخرى. كان الشاعر وفي سياق المُباهاة بعظمة صور اليمنية، يصف المواضع والجماعات التي كانت تُقيم على امتداد السراة فالجوف. إن مزر- مذر ليست نغل-فاسد؛ بل هي جبل مذر الذي صار يُنطق في عصر الهمداني في صورة مدر (بالدال المهملة) وهي أكثر ديار همدان قصوراً على حد تعبير العلامة الأكوع محقق الكتاب:

مدر أكثر ديار همدان قصوراً. قال أبو علكم المراني من قصيدته المشهورة:

وفي ريئام وفي النجدين من مدر على المنار وجفّ الشيد إيوانا

وإذا ما قُمنا بمقاربة للقصيدتين، فسوف نحصل على تماثل مدهش في البناء الشعري:

زكريا:	المراني:
من مذر والسدود	وفي النجدين من مدر

(١) الجئون - جأوة بإلحاق النون الكلاعية، وهم قوم من باهلة لهم موضع معروف هو مأسل.

وبالعودة إلى المقطع الخاص بجبل حدرك-حذرق؛ فسوف يكون ممكناً معرفة مقاصد الشاعر: ليس ثمة من أرض أو موضع يُدعى حدرك قرب صور اللبنانية. ولكن هناك جبل حذرق على الطريق الساحلي من جدة باتجاه اليمن. يتبقى- في هذا الإطار-التوقف قليلاً عند النسَب التوراتي للنبي الشاعر فهو: زكريا بن برخيا بن عدو. إن انتساب الشاعر القديم إلى قبيلة أو وادٍ أو موضع بعينه فيُعرف به، ربما يشتهر به حتى ليضيع اسمه الحقيقي، هو أمر مألوف في تجربة الشعر الجاهلي؛ فالشاعر الجاهلي ينتسب عادة، إلى موضع أو قبيلة ويصبح ابنها المباشر (بن طي، بن ربيعة، بن باهلة). هاكم هذه المقاربة حول اسم عدو - الجد أو القبيلة - الذي ينتسب إليه الشاعر: زكريا بن برخيا بن عدو:

في وصف سرو محج: خودان وادٍ بالسرو ذو وثن وادٍ أيضاً نعمان وعدو إلى رأس الكور وفيه حصن يُعرف بالقمر من حِمْيَر (عدو: موضع عامر بالسكان- المحقق).
(صفة: ١٧٧)

وادي عدو هذا الذي يُقيم فيه الحِمْيَريون وأعطى اسمه للشاعر، ليس في فلسطين بكل تأكيد، ولا توجد من ثم- في قصائد هذا الشاعر - إشارة واحدة عن مكان أو قبيلة أو حدث له صلة بفلسطين، أو إشارة مهما كانت عابرة يمكن الاستدلال منها إلى أنه كان مُقيماً في القدس الفلسطينية.

تلفيق لغة الحرب في سفر زكريا

في المقطع التالي والمكمل، من قصيدة زكريا (٩: ٦: ١٧- النص العبري) نموذج آخر للتلفيق، يوضح إلى أبعد حد الكيفية التي جرى فيها،

لا التلاعب بأسماء المواضع وحسب؛ وإنما التلاعب في الدلالات والإشارات الشعرية كذلك، بحيث ينقلبُ موضوع القصيدة رأساً على عقب. يقول زكريا :

(جيلي- مئد- بت- صيون- ها- ريعي-بت- يروشلم
هنه- ملكك-يبوء- لك-صديق- ونوشع-هوء
عنه- وركب-عل- حمور- وعل- عير- بن- ءتنوت
وها-كرتي-ركب-م- ءفرئيم-
وصوص- م-يروشلم
ونكرته-قشت-ملحمه-ودبر-شلوم-ل-جويم
وم- شلو-م-يم-عد-يم-وم-نهر-
عد-ءفصي- ءرص (.........)
وءدني- يهوه-ب-سوفر-يتقع-وهلك-ب- صعروت
تيمن)

ما يقوله هذا المقطع هو التالي:

(ابتهجي ولتزيدي يا ابنة صيون
وافرحي يا ابنة أروشلم
ها هنا يعود إليك
مَلكُكِ الصدّيق النصير
الزاهد راكباً على حماره
صاعداً المنازلَ من بني أتان
والكرئيين والركب ومن أفرئيم
على الخيل من أورشليم يصعدون

شأفة الحرب يستأصلون

وبالسلام بين الأمم سيتكلمون

من شلو

ومن البحر حتى يام

ومن نهار حتى أرض أفصي

الربُّ السيد في صوفر تجلى

والحزن عن تيمن ولى

تعرض موضوع القصيدة البسيط والإنساني إلى التلاعب؛ بحيث بدا الشاعر كما لو كان يتحدث بلغة الحرب وذلك حين جرى تخيل كلمة (م-شلو) في صورة (موشل) بدمج حرف الجر (م) مع اسم (شلو- اسم مكان) بمعنى سلطان أو حكم؛ بحيث صار المقطع على النحو التالي: (سلطانه من البحر إلى النهر). وهذا بالطبع في سياق الإيحاء بأن سلطة يهوه على الأرض ستمتد من النهر إلى البحر. وفي السياق ذاته جرت مكافأة جملة (وعل- حمور-وعل-عير-بن- أتنوت) إلى راكباً على حمار وعلى جحش ابن أتان، وهذا غير معقول، لأن الراكب لا يستطيع أن يفعل ذلك في الآن نفسه، كما أن (عل- عير- بن أتنوت) لا تعني ولا تشير إلى (فوق بن أتان أو جحش)؛ بل تعني إن المسيح المنتظر سيأتي (ويصعد صوب منازل بني أتان) وهم جماعة يمنية تحمل هذا الاسم. وهؤلاء مثلهم مثل بني أفرئيم والكرتيين ينتظرون المسيح (المنتظر) وسوف يخرجون لاستقباله ويلقون عليه السلام، حيث سيضعون حداً للحرب فيما بينهم، وبذلك ينتهي عهد طويل من العداوات والصراع والحروب المستفحلة بين القبائل. ليس ثمة سلطان من النهر إلى البحر، ولم يكن الرب فوق حمار وفوق جحش بن أتان في الوقت نفسه؟ والنبي الشاعر لا يقول- كما افترض المحققون-(أستأصلُ المركبة من أفرئيم)

لأن لا معنى لمثل هذه الجملة، وليس ثمة مركبة يمكن استئصالها من مكان يدعى أفرائيم؛ بل يقول (الكرتيون والركب ومن افرئيم سوف يصعدون) في إشارة إلى السلام مع هذه الجماعة المناهضة لبني اسرائيل، والتي تقيم في سلسلة جبال الركب وساق الفروين-فرئيم (جمع فرء) بينما ستأتي القبائل الأخرى بوفودها من أورشليم وشلو ونهار وبلاد يام، لوضع حد للحرب وإبرام اتفاقية سلام نهائي[1]. وهذا هو معنى قول الشاعر (أبطالك نقشوا النقوش التي تحرم قتل الناس) في إشارة إلى اللوحة التاريخية التي لا تزال موجودة في منطقة الجوف اليمني. وهي معاهدة بين القبائل بالسلام وتحريم القتال. وتاريخ الصراعات بين القبائل و الممالك- المخاليف اليمنية القديمة زاخر بما لا يُحصى من هذه المعاهدات، التي سرعان ما تنهار مع أول حادث عرضي، بينما لا يوجد مثل التاريخ التصالحي بين القبائل في فلسطين ولا وجود لمثل هذه المعاهدات.كما لا توجد نقوش تدلل على حدوث مثل هذا التطور في العلاقات بين السكان. هاكم وصفاً مكثفاً من الهمداني لمنازل بني أتان في الجوف اليمني (صفة: ٢٨٠-٢٨٣):

> **وإذ نذكر معين في هذا الموضع فإنا نذكر ما بالجوف من آثار. صفة الجوف: عمران وهو لنشق بيت نمران والخربة البيضا لبني دالان ووادِيا بني الأجدع والصلل وأتان. (..) ثم الغائط والحضَن بنجران (..) فأسرار نجران وقابل (يام).**

---

(١) لا تزال اللوحة التاريخية العظيمة على صخور جبل أنف (ءنف في التوراة) شاهداً على اتفاقية السلام بين قبائل مملكة معين - معين في التوراة و قبائل مملكة سبأ - سبأ في التوراة وهي منقوشة بخط المسند. إن قصيدة زكريا التي يشير فيها إلى نقوش الأبطال على الصخور هي شهادة تاريخية إضافية عن الدور الذي لعبه الشعراء- الأنبياء في اليمن القديم.

ولنتذكر - هنا- المعاهدات التي أبرمتها دويلة معين مع دويلة سبأ بعد سلسلة معارك وحروب مدمرة؛ حيث تركت القبائل نصوصاً منقوشة بالقلم الحميري (المسند) فوق صخور جبل أنف- ألف في الجوف، وهذا الجبل لا يزال في سرو لحمير ينتصب شامخاً. إن النص يحدد على أكمل وجه منازل بني أتان على مقربة من بلاد يام تماماً كما في قصيدة زكريا. (وكنا تحدثنا عن الكرثيين- بني كراث بن هنوم وعن إفرئيم والشل وتيمن وصافر). أما جملة م- نهر؛ فإنها لا تشير إلى (نهر الفرات) المزعوم كما ارتأى المحققون؛ بل إلى مكان بعينه يدعى نهار -وليس نهر، وهو من الأودية الموحشة عند أطراف الحجاز في عصر الهمداني (انظر: صفة جزيرة العرب: ٢٩٢). ما يقوله محققو التوراة عن هذه القصيدة هو التالي وهذا دليل على فهم مغلوط وشاذ:

(ستضمُّ أرض الميعاد بالإضافة إلى أرض إسرائيل المدن الآرامية والفينيقية والفلسطينية - هامش ص: ٢٠١٨ من الطبعة العربية)؟

وهذه جملة ترقى إلى مصاف النبوءة الدينية، التي يطلقها من لا يقيمون للموضوعية والنزاهة أدنى اعتبار. ومن ثم فهي ليست تحقيقاً علمياً نزيهاً للنص القديم؛ لأن من غير المقبول إعطاء تصور من هذا النوع عن مسألة شديدة الدقة والحساسية-من المنظور المهني والعلمي للعمل- وعلى هذا النحو من الإطلاق التعميم. وعن جملة (سلطانه من النهر إلى البحر) يقول المحققون ما يأتي:

(أي من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر ومن الفرات إلى أقصى الجنوب)؟

وبذلك تكون إسرائيل الموعودة أكبر إمبراطورية في التاريخ البشري. ها هنا يتجلى لا الرب وحده فوق جبل صوفر؛ بل شبح دولة كبرى هي مزيج من أوهام استشراقية وروح استعمارية. تُرى مَنْ عساه يُصدق أن نبياً - شاعراً صغيراً- مجهولاً لا يعرف عنه حتى أحبار اليهود العرب القدامى أنفسهم؛ أي شيء حقيقي وموثوق به يخصُّ حياته ومآثره؛ إنما كان يحلم بكامل السيادة على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، فيما أوصاله ترتجف من وقع سيوف القبائل؟ وفي وقت كانت فيه صور تسقط تحت الاحتلال الآشوري؟ هذا التلفيق الذي يقلب إشارات ومعاني قصيدة إنسانية وبسيطة لشاعر - نبي يمني الأصل من بني إسرائيل هو نموذج آخر عن نمط التلاعب في التاريخ والدين والشعر[1].

---

(١) وانظر نسب أفصى الوارد في القصيدة، عند الهمداني (الإكليل) وهو أب أعلى لقبائل يمنية.

خلاصة

استرداد فلسطين من أسر المِخيالية

في ختام هذا الجزء من الكتاب لا بد من خلاصة عامة وبضع ملاحظات:

١ - إن التوراة كتاب إخباري ديني يتضمن لا التشريعات الدينية اليهودية-وهي ديانة عربية قديمة من ديانات العرب الجنوبيين (اليمنين) في طفولتهم البعيدة-وحسب؛ بل يتضمن كذلك قصص وأخبار الأولين من القبائل والجماعات وأشعارها وقصصها وحكاياتها وأساطيرها، تماماً كما الحال مع الكتب السماوية الأخرى، ومنها القرآن الكريم الذي ينطوي على تشريعات دينية وعلى أخبار وقصص (وصفها بأنها أحسن القصص) وكذلك على مرويات قديمة تعرفها قبائل العرب.

٢ - وهذا الكتاب (التوراة) لا يتضمن بكل تأكيد أي شيء يخصّ فلسطين؛ وأن ما يُزعم عن وجود وصف لفلسطين كأرضٍ للميعاد اليهودي؛ ليس سوى ترويج لأكاذيب وخدع استشراقية تنتمي إلى العصر الاستعماري ومن نتاجه. لا وجود لاسم الفلسطينيين وفلسطين، ولا صلة للتوراة بأي جغرافية سوى جغرافية اليمن القديم التي ولدت فيها اليهودية. لقد ولدت اليهودية كدين عربي في أرض العرب (اليمن) ولم تولد في أسترالية أو

المكسيك. ومن المنطقي أن تتضمن أشعاراً وقصصاً وأساطير عربية قديمة، راح الكهنة يقصونها على البشر (لأنها من أحسن القصص) بمعناها الوعظي والإرشادي.

٣ - ومن غير شك أيضاً فإن وجود كل هذا العدد من الأماكن التوراتية، التي تمت مقاربتها بموضوعية مهنية، ومن دون أي تلاعب مع الشعر العربي القديم ووصف جغرافية اليمن، لا يمكن أن يكون نتاج مصادفة لغوية أو جغرافية. وقد بينّا- دون أدنى تلاعب لغوي على أصل الأسماء- قوة هذا التماثل؛ ومن ثم فالمسرح الحقيقي لقصص التوراة وبيئتها الحقيقية إنما هو بلاد اليمن القديمة.

٤ - لقد آن الأوان لأن تعتذر أوروبة عن النتائج المأسوية التي أسفر عنها (خيالها الاستعماري) المُفرط، وعن نزعة مستشرقيها وعنجهيتهم وربما وعنصريتهم السقيمة؛ والتي أدّت إلى (تهويد) التاريخ الفلسطيني وإلى وقوع مأساة شعب وأمة جرى الاستيلاء على أرضها وتاريخها بالقوة الغاشمة. بيد أن ذلك لن يكون ممكناً ولا كافياً، من دون خطوة جريئة من علماء التوراة في العالم، بإعلان صريح لا لبس فيه عن بُطلان القراءة الاستعمارية للتوراة، والإقرار بالخطأ الفادح في هذه القراءة والاعتراف بحقيقة أن الانتساب إلى دين بعينه، لا يبرر الحق في أي مُطالبة غير مشروعة بأراضي شعوبٍ أخرى، وبالإقرار بوجود حاجة إلى ترجمة جديدة تزيل كل صلة وهمية بين التوراة وفلسطين. إن لمن غير المنطقي تخيّل وجود حق ديني في أرض العرب؛ بالنسبة إلى مسلم فلبيني مثلاً، قد يخرج على العالم، يوماً ما، -ليزعم انتسابه إلى قريش، وأنه من سلالتها فيدعى الحق بالمطالبة بمكة، لمجرد كونه دان بدين العرب فأصبح مسلماً؟ إن كونه مسلماً لا يعطيه الحق في ادعاء الانتساب إلى قريش. والأمر ذاته ينطبق على حالة اليهود في العالم كله؛ فهؤلاء دانوا باليهودية

وهي دين عربي - مثله مثل المسيحية والإسلام- ولكنهم ليسوا، بكل تأكيد، من سلالة قبيلة بني إسرائيل اليمنية المنقرضة والبائدة.

٥ - إن استرداد فلسطين وتحريرها من أسر المخيالية التوراتية وإعادتها إلى سكانها وأصحابها الأصليين، لن يكون أمراً خاصاً بالعرب والمسلمين وحدهم؛ بل يتوجب تحويله إلى قضية تخص اليهود أنفسهم. لأن من غير المعقول أن يستمروا في العيش ألف عام أخرى، قابعين داخل أسطورة من نسج خيال استعماري سقيم عن أرض ميعاد إسرائيلي في فلسطين. هذه الأسطورة التي كلفت البشرية دماء وأرواح ما لا يحصى من البشر، آن لها أن تعود إلى مكانها الصحيح في نطاق الثقافة القديمة والتاريخ القديم كذلك. ولسوف يصبح اليهود - إذا ما استمروا بقبول هذه الأسطورة- ضحايا مأساة لا نهاية منطقية لها؛ نُسجت خيوطها من وهم قراءة مغلوطة للتوراة جعلت منهم - هم أيضاً- في عداد الضحايا.

٦ - لقد ولدت التوراة -وفي الأصل شريعة موسى - ككتاب ديني عربي ينتمي إلى الطفولة الدينية واللغوية للعرب اليمنيين. وبالطبع لم يكن موسى بريطانياً ولا كندياً ولا أميراً دانماركياً؛ بل كان شخصية يمنية-عربية لا أحد يعلم مبلغ الصدق فيما وصلنا من القصص الكثيرة حولها. كما أن تلميذه يشوع، الذي وهب الأسباط أرض استقرارهم، لم يكن أمريكياً ولا سويدياً، بل كان عربياً يمنياً كذلك. وحتى اليوم لا يزال اسمه في أنساب اليمنيين وأساطيرهم عن الآباء الأوائل - ويمكن العودة إلى أسماء آلهة العرب من أجل التحقق من وجود اسم يشوع كإله يمني قديم-. ولهذا؛ فإن التوراة لا تروي أي شيء عن فلسطين أو الفلسطينيين- الأشرار- ولا عن- حق يهودي - في أرض ميعاد مزعومة. إن كل هذا الهراء الذي يملأ أدمغة الملايين من البشر، في أوروبة وأمريكة اليوم كما بالأمس، هو نتاج مخيالية استعمارية تراءت لها أراض الشعوب

المضطهدة كغنائم حرب، والتاريخات والثقافات الخاصة بها كأسلاب؛ قابلة لتنُسبَ من دون روية أو تعقل إلى آخرين منتصرين بقوة البطش. إن القصص والمرويات التي تخص ما يُدعى بميثاق الرب وعهده مع إبراهيم، لا صلة لها بما يزعم أنه حق في أراضي الشعوب الأخرى؛ بل بتقاليد ثقافية قديمة لجماعات بدوية هائمة كانت تفتش عن مواطن استقرار في الصحراء العربية. ولذا يتوجب رؤيتها في إطار القصص والمرويات الخاصة بالقبائل البدوية- العربية القديمة الباحثة عن الاستقرار والإقامة في الأرض، والطامعة أو الحالمة بمواطن وببلاد تخصها وفي إطار العقائد الدينية القديمة كذلك.

٧- لأجل ذلك كله، ومن أجل وضع حدّ للمأساة المروعة، لابد للعقلاء في هذا العالم من أن يُنعموا العقل في مغزى التماثل، في توصيف الهمداني ويشوع وصموئيل وحزقيال وإرميا وصفنيا، وسواهم من أنبياء اليهودية الكبار والصغار؛ للأرض ذاتها التي يُزعم أنها أرض فلسطين القديمة، فهو تماثل يؤكد الحقيقة البسيطة والوحيدة التي يتوجب قبولها: إن هؤلاء جميعاً كانوا يصفون المكان نفسه الذي ولدت فيه تجربة قبيلة بني إسرائيل العربية- اليمنية البائدة، نعني تجربتها التاريخية في سراة اليمن، بنجدها وساحلها وليس فلسطين.

لم تكن هناك أرض ميعاد يهودي في فلسطين. ولم يحدث السبي البابلي على أرضها، ولم يوجد قط، ملك مصري أسره الآشوريون، والقبائل العائدة من السبي البابلي عادت إلى موطنها في سراة اليمن لا إلى فلسطين. هذا ما تقوله نصوص التوراة بكل وضوح، كما تقوله قصائد أنبياء اليهودية اليمنية العتيقة. وهذا ما يتوصل إليه الكتاب من نتائج. لقد كانت الحقيقة حيال الشرق والعرب والمسلمين مُمَزقة على الدوام في العقل الأوروبي-الأمريكي؛ لكنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى التاريخ

الحقيقي. فبين الحقيقة والخيال سوف يشخص التحدي أمام كل مَنْ ترتعش كرامته للنزاهة.

الجزء الرابع

تلفيق مملكة يهوذا والسامرا

مدخل

الفصل الأول: الأسباط في سرو حمير (سبط نفتلي)

الفصل الثاني: (سبط دان)

الفصل الثالث: وصف مملكة يهوذا

الفصل الرابع: خراب الهيكل الأول في سراة اليمن

الفصل الخامس: خراب الهيكل الثاني

مدخل

أين تقع مملكة يهوذا التي تحدثت عنها التوراة؟ وأين تقع السامرا؟ وهل حقاً أشارت التوراة إلى وجود مملكة إسرائيلية قديمة في فلسطين تدعى (مملكة يهوذا)؟ وأن ثمة أرضاً إلى الجوار منها تدعى السامرا، عرفتهما أرض فلسطين التاريخية بالتلازم مع نشوء (مملكة إسرائيل)؟هل حدث خطأ مأسوي في قراءة نصوص التوراة نجم عنه خلط، بين الجغرافيات والتواريخ القديمة والأخبار والروايات والأشعار والقصص والأساطير، بحيث أدَّى ذلك كله إلى اعتبار فلسطين، ومن دون دليل واحد، أرض الميعاد اليهودي؟

مايريد هذا الكتاب[1] إثارته هو التالي: إن التوراة لا تشير البتة إلى أن ما يدعى أرض (يهوذا) هي جزء من فلسطين؛ وعلى العكس من ذلك ليس ثمة، على وجه الإطلاق، أي تعبير أو كلمة أو إشارة داخل النصوص التوراتية، يمكن أن تفيد أو يفهم منها وجود أي نوع من التطابق، بين وصف التوراة لمملكة يهوذا وبين فلسطين التاريخية. وأكثر من هذا؛ فإن الكتاب سوف يدلِّل بشكل قاطع، على أن ما ورد في التوراة من وصف لما يدعى مملكة يهوذا، إنما قصد به حصراً وصف ما يعرف عند اليمنيين بـ (مخلاف) يهوذا، وأن هذا المخلاف- المملكة القبائلية؛

---

(١) الجزء الرابع من فلسطين المتخيَّلة، وهو مكرَّس بالكامل، تقريباً، لمعاينة نمط جديد من الأخطاء في القراءة الاستشراقية للتوراة.

عُرفت في الإخباريات وكتب الأدب قصص أهل اليمن القدماء، نسبة إلى شعب يمني قديم هو شعب هود أو (قوم هود). ومن ثم؛ فإن هذا المخلاف هو مكان معلوم في السراة اليمنية (سراة حمير) وليس في فلسطين. لقد بيَّنت بما فيه الكفاية في الكتاب السابق (حملات سنحاريب على بني إسرائيل في نجران) أين يقع مخلاف اليهودية هذا (أو مخلاف-مملكة يهودا) كما قدمت وصفاً مسهباً لجباله ووديانه ومنازله، فضلاً عن استعراض المراسلات التي جرت بين ملوكه والآشوريين. كل ما تبقى يتصل باستكمال هذا الوصف من خلال استعراض طفولة شعب أو قوم (أو سبط يهودا) هذا، داخل السراة اليمنية وذلك استناداً إلى وصف التوراة لمضاربهم ومنازلهم، قبل نشوء الملكية-المخلاف. وهذا أمر شديد الأهمية لجهة التطابق التام، بين أسماء الأماكن ووصفها الجغرافي في المخلاف- المملكة، وما يقابلها من أسماء ووصف للأماكن التي حصل عليها هذا السبط قبل ظهور أو نشوء الملكية. إن هذا التطابق المذهل هو الذي يدحض أسطورة وجود مملكة يهوذا شمال فلسطين أو (غرب نهر الأردن) والصحيح أنها كانت غرب نهر الأردم اليمني، وتماماً كما جاء في وصف التوراة. علماً أن اسم حمير يرد في قصص سفر التكوين في صورة (حمر- حمور). كما أن أسماء القبائل اليمنية الكبيرة مثل حاشد وردت أيضاً في قصص سليمان التوراتية وفي الصورة ذاتها (حاشد). وإلى هذا كله؛ فإن كل ما ورد في قصص التوراة من أسماء أماكن ومدن، أقام فيها أسباط بني إسرائيل، إنما هي أسماء أماكن ومدن يمنية في السراة نفسها وبالتسلسل نفسه الذي تعطيه قصص الكتاب المقدس. هذا الكتاب أخيراً هو استكمال للجهود التي بدأتها في كتبي السابقة. كما أن المنهج المستخدم فيها هو ذاته: مطابقة وصف الهمداني مع وصف التوراة والشعر الجاهلي.

والمؤلف، أخيراً، وهو يقدم هذا الجزء، يرغب في إضافة الملاحظة التالية: على القارئ العودة إلى الكتاب السابق (حملة سنحاريب) من أجل امتلاك صورة دقيقة، عن ظروف انقسام المملكة الإسرائيلية في جنوب الجزيرة العربية إلى مملكتين (شرق وغرب وادي اليردن) في اليمن القديم، وذلك من أجل امتلاك صورة أدقّ عن مملكة-مخلاف اليهودية (مخلاف قوم هود) إذ سيجد كل ما يلزمه من معطيات تاريخية وأسطورية وأسماء تدلل على نظرية الكتاب.

ومن غير شك؛ فإن أجزاء الكتاب يمكن أن تقرأ منفردة، أو بشكل متصل، من أجل هذا الغرض وحده.

المؤلف

الفصل الأول

الأسباط الإسرائيلية في سرو حمير
سبط نفتلي

يشوع: ١٩:١٢: ٣٦
(النص العبري: ١٩: ٣٧:٢٠: ٣)

بالنسبة إلى قارئ غير متخصص اطلع مصادفة وربما بدافع الفضول وحسب، على الكتاب المقدس لليهودية (التوراة) في نسخته العربية؛ فإن السؤال البدهي الذي سوف يوجهه لنفسه هو التالي: هل حقاً أقام سكان يهود في فلسطين قبل ثلاثة آلاف عام كما هو شائع؟ وإذا كان هؤلاء أقاموا في فلسطين القديمة حقاً، فهل وصفت التوراة منازلهم ومضاربهم و (مدنهم)؟ وهل يمكن للمرء أن يجد تماثلاً، من أي نوع كان، بين أسماء هذه الأماكن كما وردت في التوراة، وبين أسماء أماكن قديمة وجدت ذات يوم في فلسطين؟ وإذا كان هذا متعذراً وانعدمت كل إمكانية للحصول على مثل هذه المقاربة؛ فكيف إذن، تمَّ اعتبار ما ورد في التوراة من أسماء؛ إنما قصد به أرض فلسطين القديمة؟ مثل هذه الأسئلة يمكن أن تواجه القارئ العربي للنص التوراتي (المترجم إلى اللغة العربية). ولكنها سوف تدور حتماً حول سؤال محوري آخر: أين نشأت مملكة إسرائيل قبل

انقسامها إلى مملكتين متنافستين (إسرائيل ويهوذا)؟ سوف يتولى هذا الفصل تحليل النصوص التوراتية (العبرية) الخاصة بوصف مملكة يهوذا، التي يُزعم أنها نشأت في الضفة الغربية من نهر الأردن؛ وذلك قصد البرهنة على أن ثمة خطأً مريعاً في القراءة الاستشراقية، نجم عنه تضليل وخداع لا حدود لهما.

تقول نصوص سفر يشوع: إن الأسباط الإسرائيلية طلبت أن تحصل على مضارب ومنازل لتقيم فيها، وإن يشوع النبي وهبها (أقْطعَها) أرضاً واسعة. وطِبْقاً لما ورد في النص (سِفر يشوع النص العبري: :١٨: ١٩) فقد حصل نفتلي- نفتله وهو السبط الإسرائيلي السادس من حيث تسلسله- على منازل ومضارب لسكناه على النحو التالي:

(ل- بني -نفتلي - يصء - هاجبول-هاششي - ل- بني - نفتلي- مشفحتم-: ويهي-جبولم-حلف-م-ءيلون-ب- صعننم-وءدمه -ها- نقب -ويبن-ءيل-عد-لقم-ويهي- تصءتيو- ها- يردن وشب-ها- جبول-يمه-ءزنوت -تبر-ويصء -م- شم- حققه -وفجع -ب - زبولن -م -نجب -و-ء شير-فجع - م -يمه -وب - يهوده -ها -يردن مزرح -ها شمش - وعري - م- بصر- ها صديم -صر-وحمة ورقه-وب- كنرة-وءدمه -وهارمه وحصور -وقدش- وءدرع وعين- حصور ويرءون-ومجدلءيل-حرم -وبيت-عنة - وبيت -شمش)

يفيد هذا النص، إذا ما قمنا بترجمته ترجمة أمينة ودقيقة، بما يلي:

(وإلى سبط نفتلي خرج سهمها (نصيبها). فلبني نفتلي وعشائرهم ما أقبلَ من - وادي- حلف، ومن إيلون في صَعْنَنيْم، وأديم النقب ويبْن ءيل و-جبل- لقم، وكانت تحاذي اليردن، ثم تخرج قبالة -

وادي- أذنة، و تبار غرباً، ثم تخرج لهم من - جبل- شُم حقوق فتمضي في - أرض- زبولن جنوباً، فإلى - مواطن-سبط- أشير من الغرب. أما في -سرو- يهوذه اليردن شرقاً فمنازل حصينة منها: صديم وصير وحمة ورقة وكنرة وأَدِمْ وريمه وحَضُور وقَدَس وأذرع وعين حَضَر ويرءون ومجدل ءيل وحرم وبيت عنة وبيت شمس.)

وهنا القائمة كما سجلتها الطبعة العربية مع ضبطنا لها:

الاسم في الطبعة العربية	الاسم في العبرية	ضبطه
١ : حالف	حلف	حلف
٢ : البلوطة (إيلون)	إيلون	إيله
٣ : لقوم	لقم	لقم
٤ : إ زنوت- تبر	ءزنوت -تبر	إذْنَة وتبار
٥ : صديم	صديم	صديان
٦ : صير	صير	صير
٧ :حمت	حمت	حمّة
٨ : رقت	رقة	رقة
٩ : كنارت	كنارة	كنارة
١٠ : أدامة	ءدمت	أدِمْ
١١ : الرامة	الريمت	ريمه
١٢ : حاصور	حصور	حَضُور
١٣ : قادش	قدش	قَدَس
١٤ : أ ذرعي	أدرعه	أذْرُع
١٥ : عين حاصور	عين حصر	عين حَضر

١٦ : مجدل -ءيل	مجدل ءيل	مجدل- إيل
١٧ : حوريم	حورم	حَرَم
١٨ : بيت عناة	بيت عنة	بيت عنة
١٩ : بيت شمس	بيت شمس	قرى شمس
٢٠ : صَعْنَنيم		صَعْنَنيم
٢١ : أدامي النقب		أذيم النقب
٢٢ : يَبْنئيل		يَبنْ ءيل
٢٣ : حقوق		حقوق

قبل الشروع في إعادة تحديد هذه الأماكن والمواضع، وبالأسماء ذاتها التي ضبطها الهمداني والشعر الجاهلي، وفي إطار وصف مُسْهَب لجغرافية اليمن القديم والجزيرة العربية؛ سوف نتوقف عند نماذج من سوء الفهم في الترجمة العربية للتوراة لنكشف عن نمط الاخْتِلاق والتلفيق. إن النص الآنف يتضمنُ الجملة التالية في النص العربي:

(وتخرج منها إلى حقوق وتصل إلى زبولون جنوباً)

وهذه الجملة (في العبرية: م- شم - حققه) فُهِمَتْ على أساس أن هنالك موضعاً أو مكاناً بعينه يُدعى (حقوق)، أقام فيه السبط الإسرائيلي المعروف باسم سبط نفتله- نفتلي. وكما سوف يتضح، فهذا فهم خاطئ كلية لمقاصد الجملة العبرية الأصلية؛ فليس ثمة موضع بهذا الاسم في فلسطين، ولا في اليمن ولا في أي مكان آخر في العالم. والصحيح أن الجملة تشير إلى ما يلي: إن أرض هذا السبط تمتد حتى حقوق سبط زبولون؛ أي إلى ما يُعَدُّ من منازل ومياه سبط زبولون. وهذه الكلمة العربية

القديمة (حقوق) هي ذاتها الكلمة ذات المحتوى القانوني، البدائي، والتي استخدمتها القبائل العربية في تعريف وتحديد، كل ما يقع مُتَجاوراً ومُتَداخلاً من الأراضي؛ ولكنه يُعَدُّ - في الآن ذاته- من حقوق هذه الجماعة لا تلك. وفي المصادر الإخبارية العربية الكلاسيكية، يمكن للباحث أن يجد العبارة ذاتها في صيغة مماثلة. تقول العرب - مثلاً- :

(جبل النسار وجبل الأنسْر هما من حقوق قبيلة غني)

في هذا السياق؛ يلاحظ البكري (معجم: ٨٧٣ و٨٧٤) وكذلك الأصفهاني في تاريخه، وعند حديثهما عن حقوق القبائل في الأرض وتداخل الأوطان والمضارب ما يلي:

(وفي ناحية تضاد، دار لغني- أي لقبيلة غني- التي فيها حقوق بني جأوة[١] بن معن الباهلي وحقوق غني؛ فاختلطوا هناك.)

كما يُلاحظان - البكري والأصفهاني- (معجم: ٣٦٥) ما يلي:

(والتقت حقوق قيس وتميم في هضبات صغار قريب من جَبْلَةَ - جبلة اليمن-)

ثمة أمثلة كثيرة عن استخدام الكلمة نفسها، يصعب إيرادها كلها في هذا المقطع من الكتاب؛ ولكن من المؤكد أن هذه المُقْتَطفات من نصيّ البكري والأصفهاني، بكل طاقتهما السردية المُخْتَزنة، تشير إلى أن القبائل

---

(١) انظر ما كتبناه في الجزء الثالث عن بني جأوة من سكان موضع (جت) وهم في التوراة الجتون (سكان موضع جأوة).

القديمة الرَّغوية في طفولتها البعيدة، استخدمت الكلمة نفسها في العبرية (حققه) في نطاق التعريف بالحدود القبلية. وبالطبع؛ فإن القبائل لم تكن تعرف مصطلح الحدود بالمعنى العصري السائد اليوم، بل هي تعرف اصطلاحاً عُرْفياً آخر هو اصطلاح (الحقوق) الذي يوظف من أجل تعريف وتحديد مواطن الجماعات والقبائل. هذا الاصطلاح هو جزء من نظام قانوني ينْتَسبُ إلى ثقافة الحق الاجتماعي والأعراف والتقاليد. ولذلك نجده في التوراة كما في القاموس اللغوي للقبائل العربية، وقد وظف لأغراض التعريف بالطابع القانوني للنزاعات، حيث تتلاقى الأراضي والمرتفعات والهضاب والمراعي ومصادر المياه، عند نقطة تفجّر تستدعي تعريفاً مقبولاً بالدوافع وتبريراً للتحالفات كذلك.

يعني هذا أن كلمة حققه- العبرية، ليست اسماً لموضع أو مكان مقدس في فلسطين، تهفو اليه قلوب المؤمنين.لقد اخْتلَق المخْيال الأوربي موضعاً آخر في فلسطين مُخْترَعة وخيالية أصلاً، تبزغ من نص التوراة هذا؛ ولا وجود له إلّا في إطار الهوس الاستشراقي بفلسطين الحروب الصليبية. أي فلسطين التي تم (اختراعها) في عصر الهوس الديني الأوروبي بالشرق. في هذا السياق، فَهِمَ المترجمون الجملة العبرية (ويبن-ءيل- عد- لقوم) على أنها تعني و(من موضع) يبنئيل إلى (موضع) لقوم - لقم، وهذا غير دقيق، لأن كلمة (عد) هنا لا تعني (إلى) أو عند؛ بل هي ذاتها الكلمة اليمنية-العربية القديمة (عد) بمعنى الماء الغزيرة التي لا تنقطع. والجملة على أساس هذا التوضيح، يجب أن تقرأ كجملة وصفية: (ويبْن ءيل ماء عد) أي إن هذا المكان هو موضع مياه غزيرة على مقربة من جبل يدعى لقوم- لقم. مثل هذه الالتباسات تنجم أحياناً عن انعدام الفواصل في الجملة العبرية، حتى ليظن القارئ أن الأسماء هي أسماء مركبة؛ بينما هي - كما نلاحظ من نص الهمداني- أسماء تخضع

لتسلسل تقليدي لا يتضمن الفواصل. إن اسم جبل لقوم- لقم الوارد في النص التوراتي، هو ذاته عند الهمداني جبل نُقُم. وكنا أشرنا إلى وظيفة النون في كتابات الثموديين والحميريين والقبائل العربية العاربة، التي وظفتها في وقت ما، من تطور أدوات التعريف، كأداة تعريف أو كبديل عن حرف (اللام) كما أشرنا إلى أن النون واللام تتبادلان الوظيفة في العبرية، مثلما هو الحال مع اسم جبل أنف- ألف. يقع جبل نُقُم- لقم على مقربة من وادي دبرة وبيت بوس. كما يُعدّ جبل نُقُم أحد جبلين شهيرين من جبال صنعاء. وهنا وصف الهمداني له (صفة: ١٥٦):.

وما أقبل من عد ورد، وهو وادٍ يصب مع سامك ودبرة (....) وما أقبل من نقيل السود فبيت بوس فجبل نُقُمُ وما بينهما من حقل صنعاء. ويلقى هذه الأودية سيل حضُور.

هوذا الماء العدّ (عد ورد[1]) أي الغزير القادم من وادي ورد - قارن مع يرد العربية والعبرية. ها هنا جبل نُقُم - لقُم تماماً كما وصفه يشوع، على مقربة من حضُور وبيت بوس. لقد عاد الهمداني بعد مئات السنين ليستكمل توصيف يشوع النبي اليمني (وسنرى تالياً أن يشوع كان من آلهة همدان). أما الاسم الآخر ءزنوت-تبور (تسلسله الرابع في القائمة) فإن الضبط الصحيح له هو: أذْنة[2]، بما أن العبرية لا تعرف حرف الذال المعجمة وتستبدله بحرف الزاي أو الدال غير المعجمة (ءزنت) أذن -ءزن. وهذا ما سوف نقوم بتوضيحه تالياً. وفضلاً عن ذلك سنقوم بفصل الاسمين مجدل ءيل وحرم كما نفصل أذنة عن تابور- تبار، لأن

---

(١) ومن اسم هذا الوادي عد ورد جاء الاسم أدوارد، الذي كثر استخدامه أيام حروب الفرنجة في الشرق.

(٢) انظر ما كتبناه في الجزء الثالث عن وادي أذنة الوارد في النقوش اليمنية.

دمجهما في بنية اسم واحد هو فهم خاطئ للنص. وهنا المواضع كما وردت في صفة جزيرة العرب والشعر الجاهلي .

في وادي حَلَف

في النص المترجم يُرسم الاسم في صورة حالف؛ بينما يُرسم في النص العبري في صورة حلف. إن مثل هذا الاختلاف الطفيف في ضبط أسماء المواضع أمرٌ مألوف في التوراة المترجمة. ومن وجهة نظر هذا الكتاب؛ فإن ذلك يوضح بجلاء الطبيعة المُخادعة للقراءة الاستشراقية التي تجهل جهلاً فاضحاً جغرافية فلسطين؛ إذْ لا وجود لوادي يدعى وادي حالف في فلسطين مهما فتش علماء الآثار، بينما يمكن لنا أن نرى وادي حلف العربي في اليمن، وبالضبط قرب جميع المواضع التي سجلها يشوع. قال دُرَيْد بن الصّمة مستخدماً صيغة اسم التصغير حليف:

فَجِزعُ الحليف إلى واسطٍ   فذلك مَبْدي وذا مُحْضَرُ

وقال الشَّماخ:

ودَّعتَ علساً لاقى مَناسِما   لذي الحليف وداعَ المُبْغضِ القالي

لا تُدلِّلُ صيغة الحليف -بالتصغير- وذي الحليف هنا، على وجود تصحيف في الاسم، أو وقوع تبدُّل بنيوي نجم عنه ظهور تركيب جديد للحروف الأصلية؛ بل هي تُدلل على الطبيعة الدينامية للتقاليد الشعرية القديمة، التي تتيح مقداراً مُذهلاً من الحرية في البناء الشعري لتحقيق الأغراض والمقاصد الأدبية المباشرة. إن ظهور مثل هذه الصيغ في البناء الشعري، يتناغم مع مقاصد النص في تعظيم المكان، أو الحط من قيمته أو حتى في إطار وصفه، كما رآه الشعراء بعد قرون عدّة من وصف التوراة له، وقد تضاءلت كمية المياه الجارية بين صخوره وبحيث صار وادياً

شحيح المياه (حليف). وفي إطار هذه الحرية وحدها، يتم تعظيم أو الحطّ من قيمة هذا الموضع أو ذاك. والحال هذه؛ فإن صيغة الحليف وذي الحليف في القصيدتين، تتضمن هذا التحبُّب والتوقير للوادي العظيم. إن حلف التوراتي هو نفسه عند الهمداني: حَلَف (صفة: ١٦٢، ٢١٨، ٢٨٢) الوادي الخصب الذي تصب مياهه في بلد يشكر-شاكر، حتى يبلغ فج المولدة (فج المولدة عند يشوع). يقول الهمداني في وصفه للوادي الرابع من سراة اليمن وفروع وادي المنْبج ما يلي:

أودية من بلد شاكر: من برط وهو لدُهْمَة ومن بلد وائلة وبلد أمير أودية منها: حَلَف وقضيب والذي بين الجوف ونجران من الأعراض الكبار والنخيل وبه يفترق الطريق إلى الجوف ومأرب من وادي خب. وهو العقيق ثم قضيب ثم حلف. وكل هذه الأعراض من بلد شاكر.

هوذا وادي حلف يمر من بين منازل يشكر ووائلة مندفعاً باتجاه نجران. وبالطبع لا يوجد في جغرافية فلسطين أي موضع يُدعى حلف أو حالف، كما أن الوديان المعروفة فيها لا تتضمن مثل هذا الاسم. ويبدو أن ياقوت (مواد ٣٨٦٩، ٣٨٧١) أخطأ في فهم المقصود من الاسم، الوارد في الشعر الجاهلي طِبْقاً للضبط القديم حلف، فقال عنه: (حلف عين ماء في نجد) بينما وصفه الهمداني بدقة كوادٍ من أودية الجوف اليمني، وهذا ما تؤكده القصائد التي تشير إليه باعتباره مكاناً وعراً كما في قول أبي وجْرَة:

فذي حلفٍ[1] فالروضُ روضَ فلاحةٍ فـأجْزاعَـهُ مـن كـل عيـصٍ وغيْـظلِ

---

(١) انظر: كتابنا: قصة حب في أورشليم، دمشق، دار الفرقد ٢٠٠٥ وفيه تفصيلات وافية عن هذا الوادي، الذي ورد ذكره في نشيد الإنشاد المنسوب خطأ إلى سليمان الملك.

ولأن سِفر يشوع يتحدث عن دخول أراضي سبط نفتلي -نفتله في حصة يهوذه- هَوْذه؛ فإن الاستدلال إلى ذلك سوف يحسم المسألة ويدعم مقاصد النص. هنا وصف الهمداني (صفة: ٢١٨) الذي يُحدد بدقة متناهية كيف أن وادي حلف يمر بين منازل سبط يهوذه -هَوْذَه في موضع يدعى(فج المولدة: انظر فج المولدة في منازل السبط الأكبر يهوذه)

وتمر بالمناحي وفرع الجوف الأعلى، العقل ووزْور وقرية في أسفل محصم. وما بين فرعه من العقل: فج المولدة، فالضرك، فطالعين، فمذاب، فقصران وكتاف وحلف.

فضلاً عن فج المولدة، ها هنا مذاب (مدبء عند يشوع) وكتاف (كتاف عند يشوع) وهي من منازل الأسباط التي تمر بها أراضي نفتلي. فهل تعرف فلسطين التاريخية مثل هذه الوديان؟ وهل ثمة مصادفة جغرافية أو لغوية جمعت هذه الوديان في فضاء جغرافي واحد، يتطابق فيه نصا يشوع والهمداني؟ إن فلسطين الحقيقية لا تعرف حلف هذا ولا فج المولدة ولا مذاب ولا كتاف.

بُلْطة

الاسم في العبرية هو: ءيلون (ها- جبول- م- حلف- م- ءيلون). وقد تمت مكافأة ءيلون العبرية بالكلمة العربية: بُلْوطَة، لتصبح الجملة على النحو التالي: (ما أقبلَ من حَلَف من بُلْوطة). والترجمة الصحيحة هي على النحو التالي: (وما أقبل من وادي حلف ومن أيلون) ويبدو، من بعض المرويات والأشعار القديمة، أن القبائل العربية تعرف هذا المكافئ للكلمة العبرية، وهي استخدمته من دون الاضطرار إلى استعمال كلمة (ءيلون) المندثرة. قال امرؤ القيس:

نزلتُ على عمرو بن درماء بُلطة فيا خَير ما جارٍ ويا حُسنَ ما مَحَلْ

يقول ياقوت (مواد: ٢١١٢، ٢١٣٤) نقلاً عن البكري: بُلْطَة موضع في جبال طي. وقال الأصمعي: هضبة بعينها، وقال السكري: بُلْطَة عين ماء ونخل ووادٍ من (أرض قبيلة) طَلح بن درْماء. وقال الشاعر الطائي سلام بن درماء:

إذا ما غضبتُ أو تقلَّدت منصلي فلأياً لكم في بطن بُلْطَة مشربُ

هذا هو وادي بُلْطَة الخصب الذي تغنى به الشعراء، وفيه منازل عامرة ونخيل في بلاد طي قرب نجران. ولنلاحظ وصف يشوع لمنازل سبط نفتلي، فهي تمتد: من حلف فالبلُّوطة ثم تتجه نحو وادي ءزنت (أذنة) ومنها إلى أرض زبالة- زبولون. ها هنا مقاربة بين نصي يشوع والهمداني (صفة: ١٦٠-١٦١):

(والوادي الثالث وفروعه من بلد خولان (ما يُعرف بخولان صَعْدَة) وكتاف ومساقط الفتُول والوادي الرابع: وفروعه من بلد يام القديمة ممّا يُصالي بلد خولان، أودية من بلد شاكر منها حلف).

هذا النص الذي قمنا بتكثيفه يبرزُ بوضوح المساحة الجغرافية التي وصفها يشوع: ها هنا صَعدة أو خولان القديمة حيث أرض الفتول- نفتلي (نفتله: والنون أداة التعريف اليمنية المنقرضة) وها هنا وادي حلف وهومن روافد الوادي الرابع في الجوف اليمني يصب في نجران - بلد يشكر (شاكر). والفُتُول في نص الهمداني بضمّ الفاء والتاء، اسم لموضع إلى الشرق من جبل المراشي. وكنا لاحظنا من استعراض منازل سبط بن يامن، أن الجماعة أعطت اسمها للجبل (جبل بن يامن) أوهي عُرفت نسبة إليه. كما لاحظنا أن سبط سمعون (سمع) أخذ اسمه من جبل سُمْع، وكذلك

فعل بقية الأسباط. وفي هذا الفضاءالجغرافي الممتد من خولان صَعْدَة حتى نجران، أقام سبط نفتلي منازله وبعضها إلى الشرق من منازل يهوذه بالفعل، وهذا ما سنراه عند الحديث عن وادي مذاب-مدبء وكتاف-كتاف، وسواهما من المواضع التي سجلها يشوع على أنها من منازل سبط يهوذه. يروي أبو عبد الله نفطويه[1] المروية التالية عن وادي بُلْطَة:

> **قدمت امرأة من الأعراب إلى مصر فمرضت فأتاها النساء بالكعك والرُّمان وأنواع العلاجات فأنشأت:**

لأهلُ بُلْطَة إذْ حلوا أجارعها أشهى لعيني من أبوابِ سودانِ

جاؤوا بكعكٍ ورُمَّانٍ ليُشفيني ياويحَ نفسي من كعكٍ ورمَّانِ

إن صور الحنين البدوي هذه، كافية بذاتها لفهم مقاصد الوصف: فمنازل السبط اليمني تمتد من حلف-حيث تصب مياهه في نجران ووادي بُلْطَة-إلى خولان صَعْدَة. يتبقى أن نلاحظ أن إيلون-إيله هذه تتردد بكثرة في نصوص التوراة، وهي تعني في العبرية بلوطة، ولكنها عرفت كذلك باسمها القديم إيله. وهذا ما سنقوم بشرحه مطولاً عند الحديث عن إيلون وأيلون وهما موضعان يحملان الاسم نفسه باختلاف رسم الألف المهموزة.

في وادي اذنة

الرسم العبري لاسم الوادي هو ءزنة (ءزنت بحرف الزاي لأن العبرية لا تعرف حرف الذال العربي وبتاء مفتوحة على جري عادة الكتابة اليمنية القديمة) غير أن المحققين أضافوا إلى الاسم دون قصد اسم موضع مجاور يدعى تبر؛ وفي الطبعة العربية من التوراة يُرسم الاسمان في

(١) توفي ٩٣٥ ميلادية - ٣٢٣ هجرية.

صورة: أزنت تبور. إن الضبط العربي الصحيح يتطلب مكافأة ءزن العبرية بكلمة أذن العربية؛ وهذا هو اسم الوادي اليمني الذي سجلته نقوش المسند الحِمْيَرِية في صورة إذنت، تماماً كما في العبرية. ويمكن لكل من يريد مراجعة النقوش اليمنية، أن يعثر بسهولة على اسم الوادي في صيغته العبرية هذه (إذنت). يصبُّ وادي أذْنَة كما رسم اسمه الهمداني وقام بتوصيفه في منطقة الجوف، وفي المكان نفسه الذي يصب فيه وادي حلف. واستناداً إلى وصف الهمداني (١٥٢-١٥٣) فإن مساقط مياه وادي أذنة هي إلى الجنوب من مدينة مأرب اليمنية. إننا لا نعرف وادي ءزنوت أوءزنت أو أذنة في فلسطين؛ بينما نعلم من النقوش الحِمْيرية أن اليمنيين القدماء أقاموا في هذا الوادي. كما نعلم من الهمداني أن الوادي لايزال يحمل الاسم ذاته. يقول الهمداني في وصف مساقط مياه هذا الوادي وخط رحلته في الجوف:

> ومن جانب ذمار وبلد عنَس (....) ورمك وموضح، يكوّن هذه السيول وادي أذنة وتفضي إلى موضع السّدّ، بين مأزَميْ مأرب ويميل من خلف السّد.

يتضح من هذا الوصف أن وادي أذنة يمرُّ في مخلاف رَداع وثات، المتاخم لمخلاف مأرب وذمار حيث تقع حمّة كما سنرى (حمت-رقم ٧). كما أن رحبة (رحبة رقم ١٢ في سبطء شير) تقع أسفل وادي أذنة هذا؛ وهي في نص يشوع إلى الغرب. وهنا مقاربة أخرى بين نصي يشوع والهمداني: يقول يشوع: إن منازل سبط نفتلي تتجه غرباً صوب منازل أشير، وشرقاً صوب منازل يهوذا. وهذا بالضبط ما يقوله الهمداني في وصفه لجبل لبؤة (لبؤة في منازل يهوذه رقم: ٢٥ انظرها تالياً) وجبل الملح (الملح ٦٦ -انظره في القائمة نفسها). إن قراءة متمعّنة في نص الهمداني

التالي، ستوضح على أكمل وجه المقاصد الوصفية في النص الآخر (أي نص يشوع). عندما يقول يشوع: «إن رحبة هي إلى الغرب من منازل سبط أشير، وإن جبل لبوءة وجبل الملح يقعان إلى الشرق منها وهما معاً من منازل يهوذه» فإن وصفاً كهذا لن يكون له نظير إلا في وصف الهمداني. إليكم ما يقوله (صفة: ٢٠٤-٢٠٦):

ومن أذنة ما سفل من رحبة ورحابة وكان بها نخل عظيم. وهذه المواضع مساقطها من الجبل في جنوبي مأرب ومساقطه في شمالها إلى نهج الجوف (...) وإلى جبل الملح (.....) مخلاف ذمار: ذمار قرية كبيرة جامعة بها زروع وآبار (...) ورأس مخاليفها بلد عنس (....) وجبل لبؤة (....) وأسْي ما بين إسبيل وذمار أكمة سوداء تُسمى حمة بها جرف يُسمى حمام سليمان.

هذا هو وادي أذنة (ءزنت) وتلك منازل أشير في رحبة، وهناك إلى الشرق منازل يهوذه في جبل لبؤة وجبل الملح، وغير بعيد عن أذنة هناك حمّة (حمت). وإذا ما عدنا إلى قائمة يشوع لمنازل سبط زبولون؛ فإننا سنجد الاسم نفسه منسوباً إلى موضع آخر يدعى كثلة تبر، وذلك ما يُفسر قول يشوع: وتخرج إلى (حقوق) زبولون جنوباً. ومن غير شك؛ فإن اسمي ءزنة-وتبر (تبار) قُصِدَ بهما وادي أذنة الذي يمر في موضع تبار (تبر) بحيث تُعرف المياه الجارية في هذا المكان نسبة إليه، كما هي العادة عند القدماء الذين ينسبون الوديان بحسب المواضع التي تمر بها المياه.

قال الراجز اليمني أحمد الرداعي (أرجوزة الحج: صفة ٣٦٦):

حذارِ مَلْوي ممر مُخْصدِ طوتْ تباراً بعد وادي المطردِ

يقول الهمداني ما يلي (صفة: ٣٦٧): تبار ووادي المطرد موضعان من أسلْ إلى الجنوب من صَعْدَة بنحو ساعتين (انظر ملاحظة المحقق: صفة: ١٦٠) ويضيف:

واسَلْ (...) وكتاف وجدرة ومساقط المراشي والفُتُول. (...) فمذاب.

هل هي مصادفة لغوية وحسب؛ أن يتفق نصا يشوع والهمداني على وضع تبار في أرض الفُتُول- نفتلي (نفتليه)؟ حيث مذاب- مدبء وكتاف- كتاف وجدرة (جدرة في منازل يهوذه) وأخيراً، وادي أذنة-ءزنت؟ من الصعب تخيل مثل هذه المُصافات اللغوية مع وجود وصفٍ متماثل للأماكن في النصين. وإذا ما قمنا بتفكيك العلاقة المُلتبسة بين الموضعين - داخل النص العربي من التوراة وبسبب الترجمة بالطبع- فسوف يبدو وادي أذنة، آنئذٍ، وكما وصفه كل من الهمداني ويشوع على مقربة من صَعْدَة، أي في الفضاء الجغرافي لوادي تبار. ومن غير شك؛ فقد أخذ هذا السبط اسمه من اسم الموضع الذي أقام فيه (أرض الفتول- أرض نفتله[1]) تماماً كما هو الحال مع سبط بن يامن وسمعون ويسكر والأسباط الأخرى.

---

(١) النون في أول الاسم أداة تعريف منقرضة (نفتله- الفتله). وليس ثمة قبيلة أو بقايا قبيلة قديمة تحمل هذا الاسم سوى عشائر آل فتله، الذين يقيمون اليوم على ضفاف الفرات الأوسط العراقي. وهم قبيلة عربية من أصول يمنية قحطانية كما يقولون عن أنفسهم. ومما يدعم ذلك أن جيرانهم يدعون- في التوراة- باسم بني ركاب. وهؤلاء من العشائر التي تعرف بهذا الاسم اليوم في محافظات الجنوب العراقي، وهم يقولون عن أنفسهم أيضاً: إنهم وصلوا من اليمن خلال هجرة قديمة قادتهم إلى العراق ولا يعرفون عنها أي شيء اليوم.

عند سفوح جبل ا دِمْ

يقع جبل أدِمْ-ء دمه كما وصفه الهمداني وضبط اسمه (صفة: ١٩٧) في مخلاف السحول الممتد من مدينة إب جنوباً باتجاه ساحل عدن. وحسب وصف يشوع؛ فإن جبل أدِمْ هذا قرب وادي عُنّة (بيت عنة رقم: ١٨) حيث توجد منازل يهوذه-هَوْذه، أي في الفضاء الجغرافي نفسه. يقول الهمداني ما يلي:

> والمساكن من هذا المخلاف-السحول-جبل بَعدان وجبل أدِمْ وسلية وأرياب (..) وظُبا ودُمتْ وحميم في غربي قلامه.

ها هنا جبل أدِمْ وغير بعيد عنه جبل دُمتْ (دُمت عند يشوع من منازل يهوذه) إلى الغرب من وادي قلامه (قلامون عند يشوع) وهو من المساكن القبلية تماماً كما عند يشوع. قال زهير بن أبي سُلْمى:

مازلتُ أرمقهم حتى إذا هبطتْ أيدي الركاب منهم في راكسٍ فَلَقا

دانيةٌ لشروري أو قفا أدم يسعى الحُداة في آثارهم حَزقا

ولنلاحظ أن الشعر الجاهلي ضبط اسم أدِمْ في الصورة ذاتها لضبط الهمداني؛ كما أن وصف زهير لقفا الجبل (ظاهره) ينسجم مع وصف الهمداني، الذي يضعه في ظاهر مخلاف السحول على مقربة من وادي عُنّة- بيت عنة، وذلك ما يقوله النص التالي (صفة: ١٩٦-١٩٨):

> مخلاف السحول: وساكنه آل شرعب وبطون من الكلاع وهي بطون من حمير. منه السحول (...) وعُنة وجبأ (...) وجبل أدِمْ (....) وخلقه (....) وريمه (....) ودُمتْ.

في هذا النص نلاحظ وجود جبل خلقه (خلقه في سبط أشير رقم ١) بما يتوافق مع وصف يشوع لمنازل أشير، التي تلتقي مع منازل سبط نفتلي. كمانلاحظ وجود وادي ريمه (رمه رقم ١١ في قائمة نفتلي). وبوسعنا كذلك رؤية وادي عُنة غير بعيد عن جبل أدِمْ، فضلاً عن (دُمثْ) التي يسجلها يشوع ضمن منازل يهوذه. يضيف الهمداني (صفة: ١٩٩) ما يلي:

وهذه البلاد من السراة، فرأسها ببعدَان (....) وأدِمْ (.......) وأسافلها جبال نخلة وأشراف حيس من وادي الملح وجبال الركب.

لاشك أن وجود جبل أدم في السراة ذاتها وعلى مقربة من وادي عُنّة، كما في وصف زهير بن أبي سُلْمى، يدعم فكرة وجود جغرافية مُكمَّمة ومُتلاعَب بها في التوراة الاستشراقية؛ إذْ لا توجد في فلسطين التاريخية مثل هذه المواضع مهما بحث علماء الآثار. إن البكري (معجم: ١١٦٢) يقف حائراً أمام جبل أدِمْ، فهو لا يعرف بالضبط مقاصد الشعراء من الاسم ويتساءل: لا أدري إنْ كان زهير أرادَ أدم هذا أم غيره؟ مثل هذا التساؤل المشروع يمكن فهمه، في إطار حَيْرَة واضطراب الجغرافيين المسلمين أمام أسماء المواضع القديمة؛ حيث تتشابه وتتماثل الصيغ وأشكال الرسم والبناء. ومع ذلك؛ فإن تَمَعُّناً مُتَطلباً في التوصيفات الشعرية، من شأنه أن يدل الحائر إلى المكان المقصود. تُرى، هل هي مُصادفة أخرى أن ترد أسماء هذه الجبال والوديان وبالتتابع: أدِمه- أدِمْ قرب وادي عُنّة ووادي حلف وفي أرض الفُتُول في نصي يشوع والهمداني؟ إليكم المزيد من التوضيحات:

وادي عُنة وشرق اليردن

الرسم العبري للاسم هو: بيت-عنة. وفي النسخة المُترجمة من التوراة يُرسم الاسم بالمد: بيت عناة. ولذلك تتوجب العودة إلى الرسم الأصلي باعتباره الشكل الصحيح أيضاً لنطق الاسم: عُنّة. إننا لا نعرف وادياً بهذه الصيغة في فلسطين؛ كما لا نعرفه بالمدّ: عناة، فيما هو مكان معلوم في جغرافية اليمن القديم. واستفاض الهمداني في وصفه بقوله (وفي وادي عُنّة يصب نحواً من خمسين وادياً تلتقي فتسقي جميع ما حف به البحر: صفة: ١٣٢-١٣٣). وادي عُنّة هذا، الذي تندفع مياهه الغزيرة إلى مساحة واسعة من الأراضي لتصب في البحر أخيراً، حيث تختلط مياهه بفروع وديان أخرى، كان من المنازل القبلية القديمة والشهيرة شهرة المخلاف نفسه: مخلاف عُنّة. وكما راينا من حملة نبوخذ نصر على بني إسرائيل؛ فقد بلغت موضعاً يدعى عُنّة. وهذا هو هذا المخلاف المقصود في الحالتين. (انظر الفصل الخاص بالحملة ووصف الهمداني الدقيق للمواضع). يقول الهمداني في وصف أودية السراة المُنتهية في البحر عبر تهامة (صفة: ١٣٢) ما يلي:

> **وادي زُبَيْد وهو بعيد المآتي وأول مسايله من ذي جُزُبْ وأشراف الشرفة وشَرْعَة الغربية ويريم فسحمر (.) ثم يلتقي بها أودية عُنّة ويجمعها الفَنَج وحجر(..) فيسقي جميع ما حف به البحر.**

هذه هي أودية بيت عُنّة-مخلاف عُنّة بفروعها ومنازلها، كما وصفها الهمداني عند الساحل. إن النص أعلاه، يتضمن وصفاً لمنازل قبائلية سجلها يشوع على أنها منازل سبط يهوذه، مثل موضع أراب إلى الشرق من وادي الأردن. بينما يُخبرنا نص الهمداني أن أراب إلى الشرق من وادي يردن اليمني؟ وهنا النص الذي يصف فيه صاحب صفة جزيرة

العرب (ص ١٣٤) موضع أراب ووادي يردن مباشرة بعد أودية عُنّة وتماماً كما في سِفر يشوع:

ثم يتلوه وادي مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ثم يتلوه في العظم وبُعد المآتي زُبَيْد (.....) فأول شِعابه ذُخار وسمع (.....) فبلد صُحار، وبني رفاعة وحمّاد ويرد (.......) وشرس (....) فبلد عُذر وهَنْوم وبلد حجور ومساقط وادعة وبلد الجواشة (.....) ومن أيمنه ساقين وتضراع فيه أراب.

إذا ما قمنا بتفكيك النص الآنف، فسوف نعثر على وادي اليردن في صورته اليمنية الأصلية: وادي يرد - يردن (بإلحاق النون الكلاعية كما في كلام اليمنيين الحميريين) تجري مياهه إلى الشرق باتجاه زُبَيْد حيث سلسلة من منازل يهوذه، التي سجلها يشوع في نصه مثل: سمع-سمع، شرس-سرس، عذر-عدر، هنوم-هنوم، الجواشه-الجوشن، أراب-أراب. إنه لأمر مُدهش حقاً أن يتطابق وصف يشوع والهمداني، مرة أخرى، في النقطة الأكثر قداسة وحساسية في المُخيلة الاستشراقية: الصورة السحرية والغامضة لوادي الأردن؛ حيث عاشت أجيال من اليهود في قلب فكرة مُخادعة ومُضلِلة؛ لأن وادي الأردن لا يعرف أي اسم من هذه الأسماء على وجه الإطلاق. إن مُطابقة غير مُتكلّفة بين النصين، يمكنها أن تُسفر عن نتائج مُدهشة ليس فيها أدنى تلاعب لغوي. وكنا أشرنا في مطلع هذا الفصل إلى إن مترجمي النص العبري فهموا خطأ جملة (ويصء- م-شم-حققه- وفجع- ب- زبولون) عندما ترجموا (حققه) إلى اسم موضع يُدعى حقوق، كما ترجموا جملة (م-شم) إلى (من ثم) بينما المقصود بها (وتخرج من شُم حقوق فتمضي في زبولون). وهو الخطأ نفسه الذي ارتُكِبَ في نصّ سابق. ولأن شُم هذه -كما في نص يشوع- قرب حصور

(حَضُور- رقم ١٢) وريمه (ها-رمه) ووادي عُنة ووادي يردن؛ فإن وجودها في نص الهمداني وبالتسلسل ذاته ومن دون أدنى تلاعب في الأسماء، يصبح برهاناً قاطعاً على أن الهمداني كان يصف الجغرافية نفسها في نص يشوع: شرق وادي يردن اليمن وليس شرق الأردن. وإليكم ما يقوله الهمداني (١٣٢-١٣٤):

> **ثم يلتقي بها أودية عُنة (...) وحجر قمران ومساقي وادي العرب ومساقط جبلان ريمه فمساقط حضُور من شُم (....) وبلد صيد (....) ثم يتلوه وادي مُور (......) وسمع فبلد صُحار وبني رفاعة وحماد ويرد.**

ولنلاحظ استعمال الهمداني لجملة (مساقط حضور من شُم) تماماً كما عند يشوع؟ ها هنا كل المواضع التي أوردها يشوع في نصه الآنف: ريمه، وشُم، وحَضُور ووادي يردن- يرد ووادي عُنَّة. ينسبُ الهمداني إلى شاعر يمني يُدعى عائذ بن عبدالله بن مالك بن نصر -من الأزد- قوله في وصف القبائل اليمنية وتركها لأوطانها في صيدا ووادي عُنّة (صفة: ٣٢٨):

لقد رُذتُ صيدا والسحولين بعدهُ وعُنّة السيَّال بين الذنائبِ

إن وادي عُنَّة هذا (بيت عناة -بالمدّ: الإلهة اليمنية القديمة- الكنعانية والإكدية كذلك) من الأودية العظيمة التي لعبت دوراً محورياً في تاريخ اليمن، فهي مواطن قبائلية قادت تمرداً على الإمبراطورية الآشورية، كما بينّا في الفصل الخاص بحملة نبوخذ نصر على القبائل العربية، في ما يُعرف بالسبي البابلي لبني إسرائيل. وفي الأمثال اليمنية كما يُلاحظ العلّامة الأكوع، يُضرب المثل بأودية عُنّة هذه وخصب أراضيها: يامهدي الموز لعُنَّة وعُنَّة قتوب (أي: مزدهرة بإنتاجه).

في شرقي وادي الأردن التوراتي

يقول سِفر يشوع ما يلي:

(وفي يهوذه اليردن شرقاً منازل حصينة صدّيم وصير وحمّة ورقة وعين حضر ويرءون ومجدل ءيل، حَرَمْ وبيت عُنَّة)

إن المكافئ العربي لاسم المفرد العبري (صدي-والجمع والتثنية: صدّيم) هو: صديان. بيد أن الترجمة العربية للتوراة تركت الاسم كما سُجل في الأصل العبري: صدّيم ربما بسبب الوهم بأن منازل يهوذه في شرقي الأردن العربي، عرفت -ذات يوم بعيد- موضعاً يحمل مثل هذا الاسم. وفي الواقع؛ ليس ثمة إلى الشرق من الأردن العربي أي موضع أو أثر لغوي أو جغرافي أو تاريخي، يشير إلى وجود الأسماء الآنفة. إننا لا نعرف وادي يرءون ولا عين ولا حصور-عين وحَضر، كما لا توجد عناة أو عُنّة في هذه الجغرافية، فضلاً عن انعدام أي أثرٍ لموضع يُدعى صُدّيم أو صُدّيان في شرق الأردن. على الضد من ذلك، حفظ لنا الشعر العربي اسم هذا الموضع في الجغرافية نفسها التي وَصَفها يشوع في نصه. قال ابن مقبل:

وَصَبَّحْنَ من ماء الوحيدين نُقرة بميزان رَغْمٍ إذْ بدا صُدَّيانِ

صُدّيان هذا في قصيدة ابن مُقبل، موطن قبلي وسلسلة من مواضع المياه مفردها صدي. إن اسم الإله العربي القديم في اليمن وأرض بني كنانة- أرض كنعان هو الصدي (وفي صيغة أخرى موازية: صُدّاء) وكان إله العطش عند الثموديين. وقد تسمت إحدى الجماعات اليمنية؛ في إطار تقاليد الانتساب ذاتها للآباء والجدود القدماء والآلهة، باسم هذا الإله-

الأب الأعلى عُرفت باسم بني صدّاء[1]. وهذا أمر شائع ومألوف لأن الجماعات القديمة تنتسبُ إلى آباء هم آلهتها، وفي الآن ذاته يُعطى الاسم للموضع أو المنزل القبلي. ولذلك واستناداً إلى وصف يشوع؛ فإن منازل صدّيم (تثنية أو جمع صدي) هي إلى الجنوب من منازل سبط زبولن وإلى الغرب من منازل أشير. إننا لا نعرف مثل هذا الوصف في فلسطين أو جغرافية شرق الأردن البلد العربي، ولكننا نعرف مثل هذا الوصف وبالأسماء ذاتها في جغرافية شرق وادي يرد اليمني. إليكم وصف الهمداني المُثير (صفة: ١٨٦-١٨٧) للطرق المؤدية إلى سرو حِمْيَر (مدينة يافع وما جاورها):

> البضع أودية منها: حوران ورُاف وقاينه (....)
> والحجلة (....) صفات الميمنة: طريق السرو (...) ذو الذؤيب ليافع (..) ذو القلع ليافع وقصص لرهاء (...)فالرحبة (...) ثم مرخة وهي لبني صُدّاء وحُزا لبني صُدّاء لبني شداد منهم.

هذه هي منازل قبيلة بني صُدّاء، وها هنا منازل سبط زبولون على يمين السائر نحو يافع (انظر يافع رقم ٦) تماماً كما عند يشوع، الذي يحدِّدها إلى الجنوب من زبولون (أرض زبالة). وها هنا منازل سبط أشير في آخر سرو حمير حيث الرحبة (رحبة رقم ١٢ في سبط أشير). وإليكم تسلسل هذه المنازل حسب الأسباط التي وصفها يشوع ونص الهمداني أعلاه:

---

(١) يشير الاسم إلى عبادة إله يمني قديم يعرفه علماء الآثار كما عرفه الإخباريون العرب القدماء ودارت حوله أساطير كثيرة.

نص يشوع		نص الهمداني	
١: روًا ف	لزبولون	١: رواف	من أرض زبالة
٢: قاينه	لأشير	٢: قاينة	لقبيلة الأشعر
٣: يافع	لزبولون	٣: يافع	من أرض زبالة
٤: رحبة	لأشير	٤: رحبة	لقبيلة الأشعر

هل ينطوي هذا التماثل على أي نوع من المصادفة الخادعة؟ أم أن الهمداني كان يُعيد توصيف المكان نفسه في نص يشوع؟ لا شك أن وجود جماعة قبلية تقيم وسط منازل لقبيلة أشعر-أشير، وقبيلة زُباله-زبولون؛ يُدعى بطن من بطونها باسم صُدًّاء (وفي صيغة الجمع العبري: صدّيم) أمرٌ يصعب ردّه إلى المصادفة. ولنلاحظ أن الهمداني يصف بني شدّاد بأنهم بطن من صُدّاء.

جبل صير

قال أُهبان بن لعط (من شعراء هذيل، معجم: ١٣٩-١٤٠):

فـمـا حُـبُّ غـانـيـة عـنـانـي   ولـكـن رجـال رايـة يـوم صـيـرِ

حسب وصف يشوع؛ فإن صير تقع وسط منازل يهوذه شرق اليردن. وفي التراث الكتابي اعتبرت صير هذه شرقي الأردن. ولكن من دون أن يكون هناك دليل واحد على وجودها هناك. إننا لا نعرف مكاناً أو وادياً أو قرية في شرقي الأردن يحمل اسم صير؛ بينما نستطيع رؤية جبل صير إلى الشرق من وادي قبيلة يرد- يردن بالفعل، وفي وسط منازل يسجلها يشوع في نصه على أنها منازل يهوذه. يقول الهمداني (صفة: ١٣٤-١٤٠) -هنا نص مُكثف -:

ثم يتلوه وادي مور؛ وهو ميزاب تهامة الأعظم ثم يتلوه في العظم وبُعد المآتي زبيد، ومساقي مور تأخذُ غربي همدان وبعض غربي خولان وبعض حمير (...) وسمع، فبلد بني حارثة وحماد (.....) فأدران وشرس حتى يلتقي بمور الآتي من خولان وشمالي همدان، فبلد عذر وهنوم وبلد الجواشة ويلقى سيل الحفر وما أخذ من بلد قُدم بن قادم (....) فيه أراب.

في هذا المقطع المكثّف من النص الطويل، يصف الهمداني الأودية القادمة من وادي مؤر أعظم أودية تهامة؛ والذي يصب في وادي قبيلة يرد شرقاً فيعرف باسم وادي اليردن (من يرد) حيث يستمر في جريانه، ماراً بسلسلة من المواضع التي سجلها يشوع بوصفها من منازل بني يهوذه وهي حسب التسلسل: جبل سُمْع- سمع، وادي أذْران- ءدره ثم وادي شرس- سرس وجبل عذر- عدر وسراة قُدم- قدمه وجبل أراب -أراب، ثم جبل عنم -عنمه، فسراة هنوم-هنوم وجبل الرما - رمه. كل هذه المواضع في قائمة يشوع لمنازل بني يهوذه وبنفس التسلسل يسجلها الهمداني في نصّه الآنف. وإذا ما تتبعنا وصف الهمداني في هذا المقطع، وسرنا على خطاه بحثاً عن جبل صير وسط منازل يهوذه؛ فسوف نعثر عليه بسهولة. هاكم وصف الهمداني استطراداً في المقطع السابق:

(....) فغربي جبل الرما من جبال السكاسك، ووادي أديم بلد الركب (...) شمير وأرض بني مجيد (...) وساكنه خلطاء من عك والركب ومجيد وكنانه[1] ثم وادي نخلة وجبل الصّيرة. كل هذا جنوب

(١) لاشيء يضاهي هذا الوصف لمساكن القبائل التي يختلط بعضها ببعض، سوى وصف التوراة التي تروي قصصها عن هذا الاختلاط بين الجماعات (انظر النصوص التوراتية التي تروي قصص الصراع مع الكنعانيين وعك في ساحل مجدو، وقارن مع كنانة وعك وبني مجيد على التوالي.

وادي نخلة ومن شماليها جبل دُمتْ (....) ثم يلقاه وادي الملح ومآتي الملح من (..) وجبل الصيّرة (...) فجبال معبر فذّبّاس ثم يلتقي هو ونخلة بالقنا.

ها هو جبل الصّيرة -صير إلى الجنوب من وادي نخلة؛ وإلى الشمال منه مجموعة أخرى من منازل يهوذه، جبل دُمت-دومة ووادي الملح-الملح والقنا-قنه وشمير-شمير والركب-ركبة، فضلاًعن وجود منازل لبني مجيد وكنانة وعك. إن أحداً لا يعرف جبلاً في فلسطين يُدعى صير أو صيرة وسط مواضع بهذه الأسماء؛ كما أن أحداً من القدماء لم يذكر لنا شيئاً عن معارك طاحنة دارت، ذات يوم، بين القبائل على سفوح هذا الجبل، عُرفت بيوم صير. تعني كلمة صير العبرية: ضيق؛ وفي العربية: كل شق ضيق هو صير، سواء أكان في باب أم في جبل. أي كل ما يُشكل صَدْعاً أرضياً أو صخرياً، وفي العبرية أيضاً؛ فإن أحد معاني صير ينصرف إلى صخرة. وفي الحديث الشريف: «منْ نَظرَ في صير بابٍ وفُقئتْ عينهُ فهي هَدر»[1]. مثل هذا التوافق اللغوي بين معاني الكلمة في العربية والعبرية مثير للاهتمام- وسوف نرى دلالة ذلك مع موضع النقب-.

وفي هذا النطاق من تماثل الأسماء والصفات والمعاني في القائمة اليشوعية، لابد من التوقف عند الملاحظات التالية:

أ : إن النون في أول الاسم (نفتل) هي من بقايا أداة التعريف المنقرضة في اللهجة اليمنية، كما في عدنن في العدن ورحمنن في الرحمن وعربن في العرب. وموضع الفُتُول معروف عند القبائل العربية اليمنية؛ بينما لا نعثر على أي دليل جغرافي أو أثري أو لغوي لاسم السبط الإسرائيلي في فلسطين.

---

(١) انظر لسان العرب: (صير).

٢: إن هذا السبط أقام في سرو حِمْيَر ومَذْحج وذلك استناداً إلى وصف يشوع المُتطابَق مع وصف الهمداني، وفي إطار المقاربات السابقة التي قمنا بها؛ أي إنه فعلياً وكما تقول التوراة: على مقربة من سبط زبولون الذي أقام في يافع.

٣: إن مياه الأودية في سرو حمير وسرو مَذْحج، حيث أقام السبطان الإسرائيليان، تصب في البحر الأحمر. وهذا أمر هام للغاية لأن نص يشوع يؤكد على هذه الحقيقة بقوله: إن مياه الأودية الموجودة في مكان إقامة السبطين كانت تصب في البحر. ولما كانت خريطة فلسطين التاريخية لا تعرف مكاناً كهذا؛ فإن لمن العبث بالفعل، مُطابقة جغرافية فلسطين مع وصف يشوع مثلما فعلت القراءة الاستشراقية. ولأجل مزيدٍ من الفهم المُعمق لمغزى هذا التطابق بين نصي يشوع والهمداني؛ فسوف نتوقف عند ما تسميه التوراة: يهوذه اليردن. وهو الاسم الذي حرّفته القراءة المخيالية الأوربية إلى: يهوذه الأردن، وذلك في سياق الحملة لتبرير الاستيلاء على الأرض والسيطرة على السرد التاريخي.

حول (مملكة يهوذه) القديمة شرقي اليردن اليمني

من بين مُتطلبات السجال ضد القراءة الأوربية للتوراة بما هي قراءة استشراقية مِخْيالية؛ تحتل مسألة البرهنة على أن شرقي الأردن (البلد العربي) لم يعرف قط، أية مواضع أو أماكن تحمل أسماء مماثلة لما في قائمة يشوع، موقعاً مركزياً وحاسماً. فما المقصود بيهوذه اليردن في نصوص يشوع؟ هنا نص صغير من بين نصوص عدة سنقدمها بالتتابع وبالتسلسل نفسه للمواضع، حيث يتكامل وصف يشوع وتصوره لما يدعى (يهوذه اليردن):

(في يهوذه اليردن شرقاً منازل حصينة: صدّيم وصير وحمّة ورقة وكنرة وأدِمْ وريمه وحضُور وقدس وأذرُع وعين وحضر ويرْؤن ومجدل ءيل وحرم وبيت عُنَّة وبيت شمس.)

لقد سبق لنا تحديد بعض هذه المواضع في سراة اليمن؛ بينما فشلت القراءة الاستشراقية في إعطاء أي دليل على وجودها شرقي الأردن البلد العربي. إننا لا نعرف، مثلاً، مكاناً يُدعى قدس قرب ريمه-رمه، كما لا نعرف القدس قرب حصور. ولكننا نعرف جبل قَدَس إلى الجنوب من محافظة تعز، في سلسلة جبال السريح وعلى مقربة من وادي حضور.

وادي يَرْءون

لا تعرف فلسطين التاريخية موضعاً أو وادياً يُدعى يرءون (وفي الطبعة العربية من التوراة: يرؤون بواوين واحدة منهما مهموزة) كما لا تعرف حضُور أو حَضَر أو حاصور. إن التل الفلسطيني قرب القدس العربية والذي يُدعى حاصور بعيد- في الواقع- عن المكان الذي يصفه يشوع، وليس ثمة إلى جواره أي موضع مما ذكر في نصه. ولذلك تصبح المطابقة التي قام بها المخيال الأوروبي باطلة حتى في الحدود اللغوية. وفضلاً عن ذلك؛ فإن بلاد عسير التي فتشها كمال صليبي، لا تعرف الوصف الآنف. وبذلك أيضاً، تصبح نظريته غير مقبولة لأن نص يشوع يربط بين هذه المواضع، وبين وجود أرض نفتل- نفتلي التي لا وجود لها في فلسطين أو بلاد عسير. لقد سار الهمداني بنفسه هذه المرة، وبعد مئات السنين، على خطا النبي اليمني يشوع (قارن مع يسوع. وسنرى تالياً نسبه في شجرة أنساب يمنيين وفي النقوش الحِمْيرية) ليُعيد توصيف سراة اليمن كما وصفها النبي من قبل وليسجل الأسماء نفسها وبالتسلسل نفسه، ولكن

من دون أن يعلم أي شيء عن هذا النوع المثير من التطابق ومن دون أي تلميح إلى أي ادعاء ديني للقبائل اليمنية، التي عاشت وانقرضت في المكان نفسه. مثل هذا الادعاء لا يصدر إلا عن مُخيلة استشراقية وجدت في التطابق الشكلي الزائف للأسماء، مصدراً من مصادر الهيمنة على سرد الرواية التاريخية، ومن أجل تلفيق تاريخ إسرائيلي في فلسطين قديمة يلعب الفلسطينيون، فوق مسرحها الجاهز، دور غزاة متسللين من جزيرة كريت اليونانية؛ بينما يُصبح المُستوطنون الجدد أحفاداً لبُناة إمبراطورية إسرائيلية، ضمَّت إلى جانب فلسطين كلاً من الأردن وسورية ولبنان وشواطئ الفرات العراقي. والآن: حسب وصف يشوع؛ فإن (وادي يَرْؤن) هو إلى الشرق من وادي اليردن وعلى مقربة من صدّيم (جمع صدي) وحمّة (المُدعى في القراءة الاستشراقية أنها حماة السورية). ولكن؛ إذا ما تقبلنا استنتاجات هذه القراءة فسوف تمتد أرض هذا السبط، في عصر يشوع، على مساحة تجعل منها إمبراطورية كبرى؟ يقول يشوع في نصه (إن هذا السبط أقام وسط بني يهوذه وهم السبط الأكبر) إليكم هذين النصين المختصرين من وصف الهمداني لوادي يَرْءُن في الجغرافية نفسها التي وصفها يشوع (صفة: ١٧٣-١٧٧):

مقاربة ١	مقاربة ٢
فالعر لأدان من يافع، وثمر للذراحن من يافع وحبة للأبقور من يافع (..) ووادي حَضَر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء (...) عمق (...) ووادي ضُرعه تصب هذه الأودية إلى أبْيَنْ. (صفة: ١٧٣)	ذو عُرف لصُدّاء (...) يُرى: وادٍ كبير لبني شكل. (صفة: ١٧٧)

في هذين المقطعين النموذجيين من كتاب الهمداني؛ وصفٌ مُكثَّف لمنازل سبط نفتلي وسط منازل يهوذه-التي سبق تعدادها-ها هنا وادي يُرى- يرءون (حسب البناء العبري للأسماء) وهو لبني شكل (ء شكلون في التوراة أو ء شقلون) قرب صدّيم (بنو الصُّدي أو صُدّاء). وها هنا وادي حَضَر-حصر. إن سائر المنازل الواردة في المقاربة الأولى، هي من المواضع المعروفة في سرو حِمْيَر، بينما تقع المنازل المذكورة في المقطع الثاني ضمن سرو مَذْحج، وهما مُتصلان كما رأينا. وإذا ما اعتبرنا وصف يشوع-الهمداني بمثابة خريطة يمسك بها السائر في السرو، قاصداً منازل القبائل في سراة اليمن؛ فإن هذا يعني ما يلي وببساطة: إذا ما سار المرء في سرو مَذْحج إلى الغرب من عدن، مُتجهاً صوب مدينة ذمار- اليوم- فسوف يجد نفسه أمام المواضع المذكورة بحسب التسلسل وبالأسماء نفسها. وسيكون بوسعه أن ينتقل بسهولة من منازل صديم الحصينة عبر وادي حضر، إلى وادي يُرى- يرءون ثم إلى حمَّة (وليس إلى حماة السورية) إذْ من المستحيل الوصول إلى حماة السورية عبر نهر الأردن. إن حمَّة هذه تقع على الطريق إلى ذمار قرب منازل يهوذه، وتحديداً في جبل لبوءة (انظر لبوءة عند يشوع في قائمة يهوذه). يقول الهمداني (صفة: ٢٠٦):

مخلاف ذمار: ذمار قرية كبيرة جامعة بها زروع وآبار (...) وجبل لبؤة (بن عنس) وجبل إسبيل منقسم بنصفين، فنصف لردَاع (...) وأسي ما بين إسبيل وذمار أكمة سوداء تُدعى حمَّة بها جرف يُسمى جرف سُليمان.

إن الوصف الآنف واضح بما فيه الكفاية؛ فالسائر في هذه المسالك الجبلية مُتتبعاً خطا يشوع والهمداني، ينتقل عبر وادي حضر ووادي يُرى وقرى صُديّ إلى جرف حمَّة. بينما يكون من المستحيل عليه الوصول إلى

حماة السورية، عبر وادٍ لا وجود له يُدعى يرءون في شرق الأردن. كما لا توجد حمت - حسب رسم الطبعة العربية من التوراة-في فلسطين و بلاد الشام كلها. ولكن؛ إذا ما أكمل السائر طريقه مُتتبعاً وصف يشوع والهمداني إلى الغرب من ذمار؛ فإنه سوف يصل إلى حضُور- حصور وإلى (شُم) تماماً كما في نص يشوع، كما يبلغ ريمه- رمه (رقم ١١) ويصل الأحص (يهص في قائمة منازل رأوبين) وحدّا (حده-رقم ١٢ في سبط يسكر). وهنا وصف الهمداني لغربي ذمار (٢٠٨-٢١٠):

> **وريمه الصغرى وحدّا من هذا الصقع في حيز (وادي) سهام (.....) والأحص (....) مخلاف حضُور (وهو حضُور بن مالك من ولد شُعيب النبي) فسافلة حضُور: يناع وشُم.**

هذا هو مخلاف حضُور-حصور في الفضاء الجغرافي نفسه لغربي ذمار؛ غير بعيد عن ريمه- رمه الصغرى، وقرب شُم-شم. ومن حضُور يمكن للسائر أن يتجه حتى يبلغ جبل قَدَس-قدش؛ بل وأن يسير نحو قرى شمس-بيت شمس ويبْن ءيل - يبنئيل (اليَبْيَن) حسب وصف يشوع.

من النقب إلى قدس

ليس بمقدور أحد الزعم أن بوسعه الوصول إلى النقب الصحراوية في فلسطين، مباشرة عبر مدينة القدس فهذا يشبه القول: إن المرء، يمكن أن يصل دير الزور في شرق سورية عبر درعا في الجنوب. ومع ذلك فقد تركت القراءة الاستشراقية للتوراة، انطباعاً قوياً في المِخْيال اليهودي مفاده أن موضع (ءدم -ها- نقب) هو النقب، وأن قدش هي القدس. وبذلك يكون على السائر أن ينتقل من تل حاصور الفلسطيني قرب القدس العربية - اليوم - إلى النقب مباشرة، وهذا مستحيل في الواقع. ولأن

حصور التوراتية ليست سوى اسم مخلاف حَضُور اليمني (العبرية كما قلنا لا تعرف حرف الضاد العربي وتستعيض عنه بحرف الصاد مثل: ءرص: أرض) والذي يؤدي بالفعل، إلى جبل قدس القديم والمبارك في جنوب تعز في سلسلة جبال السّريح؛ فإن المرء يستطيع بلوغ وادي (ءدم وهو نقب) أي: أن يبلغ موضع أدم وهو ممر بين جبلين (وكل ممر جبلي عند العرب القدماء هو نقب). يقول نص يشوع ما يلي:

> **من حلف، من ءيلون في صعننيم وأديم النقب ويبن ءيل**

وبالطبع لا يوجد في فلسطين وادي حلف يمر في النقب الصحراوي، قرب يبنءيل وقَدَس وبيت شمس وحصور؟ بيد أن الهمداني يعطي الوصف نفسه الذي يعطيه يشوع، كما يعرض القائمة نفسها بالمواضع والأسماء؛ فوادي أديم-ءدم، مثلاً يمر إلى الشرق من قدس في جبال السريح (والتي ينطق اليمنيون اليوم اسمها بالصاد: الصريح وهي إلى الجنوب من مدينة تعز) وبذلك يكون جبل قدس إلى الشرق من وادي يرد-يردن. إليكم وصف الهمداني لأودية سراة اليمن؛ وملاحظات محقق الكتاب العلامة الأكوع على النص (صفة: ١٣٤-١٣٧)

> **ثم يتلوه وادي مؤر وهو ميزاب تهامة الأعظم (...) فبلد صُحار فبلد بني حارثة ويرد(...) وشرس (..) فبلد عذر وهنوم (...) فغربي جبل الرما من جبال السكاسك والثاني وادي أديم مآتيه من يماني ذُبحان وجبال السَّريح من غربيه والوادي الثالث مآتيه من جبال المطالع. [يقول العلامة الأكوع: جبل المطلع من قدس-صفة: هامش:١٣٧]..)**

يقول محقق الكتاب في ملاحظاته على نص الهمداني أعلاه: وادي أديم مشهور ومعروف يقع جنوب ذُبحان. وذي السريح وهي الجبال التي

تُسمى اليوم ذات الصريح وهي من المعافر ثم في قدس. (وسوف نعود إلى قدس بالتفصيل في مكانها المناسب). ها هنا وادي أديم-ءدم قرب جبال قدس وسلسلة من المنازل، التي سجلها يشوع على أنها ليهوذه اليردن، مثل عذر وهنوم وشرس والرما. وها هنا يرد(ن) القبيلة العربية-اليمنية. وإذا ما سرنا بين الوديان، حسب توصيف يشوع والهمداني فسوف نبلغ وادي حلف:

> **والوادي الثالث: يظهر في زاويته التي مابين شماله ومغربه من بلد خولان (.....) ومساقط برط والمراشي والفتول (....) فمذاب والرابع وادي المنبج: وفروعه من بلد يام القديمة (....) وأوبن (....) وغيره ثم يشرع إلى ديار بلحارث أودية من بلد شاكر منها: حلف.**

هذه هي الوديان التي يتوجب علينا سلوك طرقها الوعرة حتى نبلغ قدس، وأرض سبط نفتلي-الفتُول شرقي اليردن، حيث وادي أديم-ءدم النقب وحلف. إن نص يشوع يخبرنا بأن بيت شمس على مقربة من حضور-حصور ويبنْ ءيل (يبنئيل) وهما موضعان ضمن بلد يناعة. وهذا ما يقوله الهمداني أيضاً (صفة: ١٥٧ - ١٥٩):

> **ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف حضُور ويعموم وبيت نعامه وبيت رفح (.......) فرحابة فالرحبة إلى (..) خلقة وضباعين والحيفة (....) وبلد صيد من ظاهر همدان مثل يناعة وذي بين.**

يعلق العلامة الأكوع على هذا النص، مضيفاً إليه مشاهداته الميدانية في المنطقة التي سار فيها، بحثاً عن كل موضع ذكره الهمداني، فيقول:

وبناعة بلد عامر في قاع شمس من (بلد) الخشب. وذي بِيْن بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المُثناة من تحت آخره نون: بلدة مُقتصِدَة وكانت هجرة عظيمة.

أريد أن أتوقف هنا عند كلمة (هجرة) التي لا يستعملها إلا أهل اليمن. إن كلمة هجرة هنا تشير إلى مكان بعينه يجري اعتباره مكاناً محرّماً، لا يقطن فيه إلا الضعفاء من السكان (حرفيون، صنّاع، باعة) وهؤلاء يعتبرون من السكان غير المقاتلين. ومن بين تقاليد اليمن القديم الثقافية، أن هؤلاء لا يجوز مقاتلتهم أو مهاجمتهم في أماكن إقامتهم هذه (أي هجراتهم) وهم يعيشون في أمان. كما أن سكان الجبال من المقاتلين يعتبرون سكان الهجرات أقل شأناً منهم؛ بل هم يأنفون من فكرة الإقامة معهم. وهذه عينها هي الفكرة الواردة في التوراة (عير-ها-مقلط) بمعنى (الأماكن التي تمنح المُطارد أو الذي طلبت القبائل دمه حق اللجوء والإقامة بأمان في الهجرة). وهذا ما ينطبق على فكرة المدينة الآمنة (أورشليم) التي نجد عدداً كبيراً منها في اليمن القديم باسم أورسلم أي مدينة السلم. ها هنا سلسلة أخرى من منازل يهوذه حسب قائمة يشوع: مثل بيت نعامة -بيت نعمه وضباعين- صبوعين قرب قرى شمس - قرى شمس، ويبْنءيل (اليَبْيَن) حيث سيل مياه مخلاف حضُور- حصور، وذي بين، وهذا الموقع يسمى البين (يبن ءيل). ولنلاحظ كيف دخلت أداة التعريف القديمة (ءيل-ءل، المتأخرة) على الاسم لتصبح جزءاً من تركيبه في صورة ألف لام. وبذلك يكون نص الهمداني مُتطابقاً مع نص يشوع على صعيد الوصف والأسماء، وعلى نحو لا يسمح بافتراض حدوث مصادفة لغوية. قال عبد الله بن دَهْثم النهدي (معجم: ٤٠) واصفاً وادي أديم النقب اليمنية:

لأخْرجنّ صُريْماً من مساكنها   والمُرتين وهمّام بن سيّار

لم أدرِ ما يمنٌ وأرض ذي يمنٍ   حتى نزلتُ أديْماً أفسحَ الدارِ

في هذا الإطار يتوجب فهم كلمة ها- نقب باعتبارها صفة للاسم ءدم، أي: وادي أديم الذي هو نقب، بمعنى الطريق أو الممر الجبلي الضيق. ولو كان القصدُ من الاسم مكاناً بعينه يُدعى النقب، لتوجب على كاتب نص يشوع أن يسجله في صورة (النقب) من دون إضافة التركيب أديم (ءدم). وفي الواقع؛ فإن اسم النقب هذا يتكرر في نصوص التوراة على نحوٍ يستحيل معه تقبّل الصورة المِخْيالية التي رُسمت له؛ إذْ من غير المنطقي أن تكون كل الصيغ التي سُجل فيها الاسم، هي صيغة واحدة لاسم واحد. والصحيح أن كلمة النقب استخدمت، في نص يشوع، للدلالة على سلسلة من المواضع هي ممرات جبلية، وهذا ما سوف نوضحه بالتفصيل في مكانه المناسب. وسوف نتوقف عند دلالة استعمال محرر النص التوراتي لصيغتي: ها- نجب، وها- نقب بمعنى واحد (النقب) كما تزعم القراءة المخيالية الأوروبية.

إلى مجدل اليمنية

في نص الهمداني السابق لاحظنا ما يلي: أن بلد يناعة حيث توجد قرى شمس-قاع شمس (وينْ ءيل- ينْتيل-الذي يُدعى اليوم البين) إنما يقع في ظاهر بلد همدان أي في مرتفعات اليمن. يعني هذا، أن سبط نفتلي أقام في المرتفعات التي تتصل بالسراة. وهذا ما يؤكدهُ بيت شعر قديم.

قال أبو ذؤيْب الهُذلي:

إذا نزلتَ سراة بني عَديٍّ   فسلْهُم كيف ما صَعّتْهُم حبيبُ

يقولون وجدنا خيرَ طَرْفٍ   برقية لا يُهد ولا يخيبُ

في سراة بني عدي -هذه- عدي تئيم في التوراة، دارت رحى معارك قبلية طاحنة عند موضع رقية- رقة عند يشوع بين العدويين وهذيل. والتوراة تسجل اسم بني عدي في صورة عديتئيم اسم الجمع العبري للمفرد: عدي (عدويون). وهؤلاء يُعرفون في التاريخ العربي بأنهم من ملوك اليمن، وديارهم في العرض مما يُدعى عرض بني عدي؛ وهو وادٍ عظيم يضم نحواً من ثلاث مئة وادٍ حسب وصف الهمداني (صفة: ٢٥٤):

ثم تخرج مُصعداً[١] في العرض، فأول وادٍ من العرض-وهو وادٍ يجمع ثلاث مئة وادٍ ثم تخرج إلى قرية بني عدي: النقب ثم أباض.

ولنلاحظ هنا استخدامات الهمداني لكلمة (تخرج) في نصوصه السردية، والتي تماثل استخدامات يشوع بما هي الكلمة المُلائمة للتوصيف الجغرافي بالنسبة إلى السائر، وكذلك كلمة (مُصعداً) التي يمكن مكافأتها بالعبرية (يعله- عل وسواها من الصيغ). فضلاً عن هذا التماثل المدهش في اللغة السردية، ثمة الاسم نقب، الذي يسجله الهمداني في وصف المنازل التي أقام فيها بنو عدي وهي قرب أباض وقرب قرُيات (قرىً). وكنا رأينا من نص سابق للهمداني أنّ بلاد تميم القبيلة العربية البدوية، تتصل بقرى عدي ويشكر (يسكر) - صفة: ٢٥٤-:

بلاد تميم فيها النخيل والقرى والزروع والبئار ثم ترجع في بطن العرض عرض بني عدي فأولها القري قرى بني يشكر.

---

(١) الجملة التي يستخدمها الهمداني في الوصف هي (وتخرج مصعداً) بينما تستخدم التوراة جملة مماثلة (ويصء- عل) أي (وتخرج مصعداً). وهذا أمر مثير حقاً.

إن الهمداني في وصفه لهذا الفضاء الجغرافي الرحب؛ يضبط اسم رقية- رقة عند يشوع في صورة الروقية، بينما رأينا من بيت الشعر الآنف أن القدامى ضبطوا الاسم في صورته الأصلية: رقية. يقول الهمداني (صفة: ٢٦٤) واصفاً الأودية التي تندفع من الفلج إلى اليمامة:

ومن قبلة الفلج فرع وادي أكمة وبه بنو عبدالله بن جعدة، فأول جزع منها الروقية (........) ثم بطانة العارض (......) ماءان مُتدانيان يُقال لهما أوان والحيانية (....) وفي العمايات مياه منها الشكول.

وادي رُقية-رقة هذا، يقع أيضاً على مقربة من مسيل مياه أوْن-ءون الذي سجله يشوع في قوائم منازل الأسباط كما رأينا؛ وعلى مقربة كذلك من مسيل مياه وادي الشكول-ءشكول في التوراة كما سنرى تالياً. إننا لا نعرف مثل هذه الوديان في فلسطين أو عسير (التي افترض كمال صليبي في كتابه أنها مسرح قصص التوراة). وها نحن نعرفها في جغرافية اليمن. لقد اختلف الرواة في بيت شعر أبي ذؤيب هذا، إذْ رواهُ أبو علي القالي[1]: رَقْية. وهذه شهادة قاطعة من رجل اشتهرَ بروايته الحسَنة للشعر. وعلى العكس من هذه القراءة الحصيفة لاسم الموضع، روى السكري البيت نفسه في صورة: رَنية، أمّا النُّجيْرَمي فرواه: زْقبَة -بالزاي والقاف-. ولا يوجد في أرض العرب موضع بهذا الاسم في الجغرافية التي يرسمها البيت لسراة بني عدي، إلّا أنْ يكون تصحيفاً لرقية حتى تصحّ روايته على هذا الوجه. ثم جاء ثعلب اللغويّ الشهير، فروى البيت على نحو آخر: رَقبَة - بالراء المُهملة والقاف والباء المُعجمة بواحدة- فيما فضّل البكري رواية البيت استناداً إلى أبي علي القالي. وهذه الرواية هي الرواية الأكثر دقة للبيت. تعني كلمة رقة، ومنها اسم الموضع الشهير في الجزيرة الفراتية

(١) الأمالي والبكري كذلك، معجم: ٦٧٧

(محافظة الرقة السورية): كل أرضٍ ليّنة التراب- حسب الأصمعي- والأصل فيها كل أرض تسيل فيها مياه الأودية فتجعل ترابها رقيقاً (وانظر ياقوت: ٣: ٦٧). أنشد الأصمعي:

كأنّها بين الرِّقاقِ والخَمْرِ إذا تبارينَ شآبيبُ مطر

هذه هي رقة التوراتية قرب أباض وأون وقريات (قُرىً) وهي منازل سجلها يشوع في نصه وفي المكان نفسه. يتبقى أمامنا تحديد المواضع التالية: ءدرع ومجدل ءيل، وحرم، ولقوم وصعننيم. وهذا كل ما تبقى من منازل سبط نفتلي حسب قائمة يشوع. وكنا في نص سابق، أشرنا إلى موضع ءزرع - بالزاي- وهو: أذرع الموضع المعروف في الشعر العربي القديم. بيد أن صيغة الاسم هنا تشير إلى استخدام محررالنص لحرف الدال بديلاً للذال المُعجمة التي لا تعرفها العبرية (ءدرعه وفي العبرية: ء. د. ر. ع. ي). هذا الاختلاف الطفيف في رسم اسمي المنزلين القبليين مرّة في صورة ءزرع- بالزاي- ومرة أخرى في صورة-ءدرع -بالدال المهملة، يُدلل على الحقيقة التالية: إن القبائل العربية القديمة عرفت في الواقع موضع أذْرع منسوباً إلى أكباد (أذرع أكباد) وقد ورد في أشعار العرب. وأكباد هذه جبال صغيرة تتصل بوادي لية عند جريانه إلى اليمامة، وهي على مقربة من أون وأباض. يقول الهمداني واصفاً أكباد في النص الآنف، والذي نكرره هنا تعميماً للفائدة (صفة: ٢٦٣-٢٦٤) ما يلي:

> وكبد (المحقق: تُدعى أكباد وهي معروفة) قارة سوداء مشرفة (أي عالية) يقال لها كبد (...) ومن قبلة الفلج فرع وادي أكمة (...) فأول جزع منها الروقية (........) ثم في بطانة العارض من عن يمينه ماءان متدانيان يقال لهما أوان والحيانية (......) وفي العمايات مياه منها الشكول.

قال ابن مقبل (معجم، طبعة بيروت ١٩٩٨، ١ :١٢٢):

أمست بأذرع أكبادٍ فَحُمَّ لها ركبٌ بليَّة أو ركبٌ بسايونا

كما عرفوا أذرع الموضع من دون نسبته إلى هذه الجبال. قال ابن مقبل (معجم: ١٣١):

وأوْقَدْنَ ناراً للرّعاءِ بأذرعٍ سيالاً وشيحاً غير ذات دُخانِ

هذا التمييز ضروري للغاية لفهم مقاصد النص التوراتي؛ فهو يشير إلى الموضع أذرع -ءزرع (بطن وادي أكباد) مرة، ولكن ليعود مرة أخرى إلى وصف الجبال الصغيرة المرتبطة بوادي ليّة فيسميها أذرع (قارن مع ليئة زوجة يعقوب في التوراة). إن بطن الوادي هذا هو بالفعل، إلى الشرق من وادي يرد وقرب سلسلة من منازل يهوذه. ها هنا وصف الهمداني لوادي ليّة- ١٣٤، ١٣٥ (وانظر مادة سيؤون عندنا حيث شرحنا صلة ءذرع بوادي ليَّة):

ثم وادي مؤر وهو ميزاب تهامة الأعظم ثم يتلوه في العظم وبُعد المآتي زبيد. ومساقي مؤر تأخذُ غربي همدان (.......) وسمع (.....) ويرد ويمد من حجور (..) وما أخذ من بلد قُدم (....) أراب (........) وما اكتنف- طريق-المحجَّة إلى حرض من بلد عذر، ثم وادي الملحة ثم وادي لية.

يتضح من هذا الوصف أن ءدرع التوراتية هي بالفعل قرب رقية-رقة، وقرب سائر المنازل التي ورد ذكرها في نصيّ يشوع والهمداني. وبالطبع ما من أحد لا يعرف في فلسطين التاريخية موضعاً يُدعى أزْرع أو أذْرع مهما فتش هناك. والحال نفسه ينطبق على مجدل؛ فهي وبحسب وصف يشوع، على مقربة من وادي أزنت- أذْنة. إن مجدل الفلسطينية التي

صورها المخيال الغربي على أنها هي ذاتها الواردة في نص يشوع، في صورة (مجدل ءيل: المجدل، بتأخير أداة التعريف العربية القديمة إل[1]) لا وجود لها؛ وليس ثمة دليل واحد على أن مجدل الفلسطينية تقع قرب وادي أزنت؛ بينما نملك الدليل على أن مجدل اليمنية قرب وادي أذْنة. تقترن المجدل في القراءة المِخْيالية للتوراة عادة، بمجدل الفلسطينية وذلك في إطار عمل مُنظم لحجب وتكميم الجغرافية الحقيقية، أساسه التغاضي عن وجود الموضع في فضاء جغرافي متكامل يضمُّ جميع المواضع التي يسجلها النص. ولأن أحداً لم يلتفت إلى مجدل القديمة التي سجلها يشوع في نصه، على أنها قرب وادي أذنة اليمني (قبل أن تحمل القبائل اليمنية اسمها في أثناء الهجرة الكبرى إلى بلاد الشآم ولتعيد تسجيله ضمن جغرافية فلسطين) فإن مجدل المخْيالية ستبدو، في سياق هذا التغاضي، كما لو كانت موضعاً معزولاً عن المواضع الأخرى التي ذكرها نص يشوع. إن مجدل ءيل (المجدل) تُذكر في الجملة التالية: (مجدل- ءيل - حرم -وبيت -عنة- وبيت-شمس). إننا لانعرف مثل هذه المجدل في فلسطين، فليس ثمة حرم ولا بيت عنة ولا بيت شمس كما لا وجود لوادي أزنت- أذْنة؟

قال عباس بن مرداس (ياقوت: ٥:٦٢، ٦٨، وابن هشام في السيرة: ٤:١٠٥):

---

(١) يرتئي بعض الباحثين العرب من أهل الاختصاص في لهجات عرب الجنوب أن (ال) لا وجود لها عند الشماليين (أهل الحجاز وسواهم) ولكن نقوش المسند تؤكد أن الجنوبيين اليمنيين عرفوها. والأصل في (ال) العربية يعود إلى الأنباط الذين قاموا بتطويرها كأداة تعريف. تالياً وفي أثناء تطور أشكال توظيف (ال) هذه ظهر حرف الهاء في لهجات اليمن بما فيها ما يعرف اليوم بالعبرية، وتم استعمالها كأداة تعريف عند عرب الجنوب فقالوا وكتبوا (هرضو في الرضا، هاوس في أوس).

عَفا مجدل من أهله فمتالع فمطلا أريكٍ قد خلا فالمصانعُ[(١)]

تقع مجدل اليمنية قرب أريك-ءرك عند يشوع في قائمة منازل سبط بن يامن وهي من المصانع الاسم القديم لصنعاء، وبالطبع لا وجود لمكان في فلسطين يُدعى المصانع، بينما نعرف أن اليمن هي بلد المصانع عند العرب القدماء. قالت سَوْدَة بنت عُمَير - من شاعرات هذيل-:

نُعاورُ في أهل أراك وتارة نُعاورُ أضراماً بأكناف مجدلِ

ها هنا -مرة أخرى- مجدل قرب أريك.

ويقول أبو صخر الهُذليّ:

وأقبل مُر إلى مجدلٍ سياق المُقيّدِ يمشي رَسيفا

وكنا رأينا - في مادة مثال - أن وادي مجدل ومرتفعاته هي بالقرب تماماً من وادي مثال- مثال حسب وصف يشوع والهمداني (صفة: ٢٩٨):

(فمجدل، فدهان، فمثال، من مواضع الوحش).

في وصف أبي صخر الهُذليّ الرائع، تُرسمُ صورة مثيرة لمياه وادي مر الشهير- قرب الظهران اليوم- وهي تنساب إلى مجدل عبر موضع مقيد - مقده (من منازل يهوذه عند يشوع) كما لو كانت وهي تجتاز الرمال بصعوبة، مثل الراسف في أغلاله. والشاعر يتلاعب - في هذه الصورة الشعرية- بالتطابق اللغوي بين اسم الموضع مقيَّد وكلمة مُقيد بمعنى الراسف في أغلاله، كناية عن تعثر المياه في جريانها بين الرمال والصخور. هذه هي مجدل اليمن التي سجل يشوع اسمها قرب منازل يهوذه اليردن. وليس ثمة في شرق الأردن البلد العربي، موضع يُدعى

(١) المصانع: سراة المصانع وفي وصف قديم لليمن يقال: (بلاد المصانع).

مجدل يمكن أن ينطبق عليه وصف يشوع. إن جملة: (مجدل-ءيل-حرم) في النص العبري قُرئت خطأ كموضع واحد؛ وفي الواقع هناك موضعان أحدهما هو مجدل-ءيل (المجدل - بتأخير أداة التعريف ءل والتي سوف تتطور تالياً مع العربية إلى ألف لام) والثاني حرم-حرم. وموضع حرم هذا على مقربة من وادي أذنة-ءزنت عند يشوع، وفي النقوش الحميرية - اليمنية ءزنت كذلك. يصف الهمداني موضع حرم (صفة: ١٨٣) على النحو التالي:

حرَم قلعة في وادٍ عظيم. وأدمه (....) وعفار (....) وهم من زوف، ذات القوة وَسَلم (.....) ودون هذه المواضع أودية. رجع إلى الميسرة:- أي شمال سرو مذحج-: ثم الأودية بعد إلى وادي أذنة (.....) رجع إلى الطريق الوسطى إلى ردمان: المفتح وقتر لبني عروة وهم من جُمل بن كنانة .

إذا ما قمنا بمطابقة نص يشوع عن وادي ءزنت- أذنة وحرم مع نص الهمداني؛ فإن الجغرافية الموصوفة سوف تتطابق تطابقاً تلقائياً وتاماً ومن دون أي تدخل منّا نحن المتلقين. وبذلك يتأكد وجود سبط نفتلي في سرو مذحج، حيث اصطدم ببني كنانة- كنأن (أو كنعان كما تقول مراثي أنبياء التوراة انظر قصيدة دبورة وبارق). هنا حرم في الوادي العظيم، وهناك وادي أذنة- ءزنت وإلى الشمال تقيم بطون من كنانه وفضلاً عن ذلك نشاهد وادي يفتح ءيل (المفتح) ومرس- مرسه وسلم-شلم (انظر وادي شلم في منازل يهوذه) كما نشاهد بطوناً من زوف- زيف في التوراة. هذه هي منازل نفتلي- نفتله وما تبقى منها فسوف نعود إليه في قوائم أخرى.

الفصل الثاني

سبط دان

(يشوع: ١٩: ٣٧:٢٠:٣)

أقام سبط دان- ذان وفقاً لنص يشوع (النص العبري: ٤١ : ٤ : ١٩) في مملكة يهوذا (مخلاف يهوذه) وكانت له المنازل التالية في السرو:

(ل- مطه- دن- ل- مشفحتم- ويصء-ها-جبول-ها-شبيع-ويهي- جبول- نحلتم- صرعه- وءشت ءل- وعير-شمش-وشعلبين-وءيلون- ويتلت- وءيلون-وتمنه - وعقرون- وء لتقون- وجبتن-وبعلة- ويهد- وبني-برق- وجت-رمون-ومي-ها-يرقون-وها- رقون-عم-ها-جبول- يفو).

(ولسبط بني دان ولعشائرهم يخرج سهمهم السابع، مرتفعاتهم وأغوارهم: صُرعَة وءشتءل، وقرى شمس، وثعلبين وإيله ويثلث وأيْلَة، وتمنِة وعقرون والتقي، وجبثان، وبعل، ويهِذه، وبني برق، وجت رمّون، ومياه اليرقون وإلى قبالة يفا).

طِبْقاً لهذه القائمة فإن المنازل التالية، كانت من منازل سبط دان- أدان، وبعضها كما يُلاحظ، يُكرر أسماء مواضع وردت ضمن قوائم

الأسباط الأخرى. وهذا أمر مفهوم في إطار التداخل النمطي في استيطان القبائل والجماعات القديمة. هنا القائمة كما وردت في النص المترجم وإلى جوارها الأسماء التي قمنا بضبطها، ضبطاً عربياً صحيحاً يُخلصها من الرطانة الاستشراقية.

قائمة منازل (مضارب) سبط دان/ أذان

١ : صُرْعَة	صُرعة
٢ : إشتاءول	إشت ءُل (الشتا)
٣ : مدن الشمس	قرى شمس
٤ : شعلبين	ثعلبين
٥ : إيلون	إيْله
٦ : يتلة	يثلث
٧ : عقرون	عَقر
٨ : التقيه	التُّقي
٩ : جبتون	خبتون
١٠ : يهود	يَهُده
١١ : بعله	بعل
١٢ : بني برق	بني بارق
١٣ : جت- رمون	جت ورُمان
١٤ : مياه اليّرقون	مياه الورقون
١٥ : يافا	يفا
١٦ : أيالون	أيْلَه
١٧ : تمنة	تمنِة
١٨ : الرّقون	الرّقي

هل لدينا ما يكفي من الشواهد الشعرية مدعومة بوصف جغرافي دقيق؛ للتدليل على أن هذه الأسماء هي بالفعل، لمواضع وأماكن كانت من منازل القبائل، وعلى وجه التحديد من منازل قبيلة دان؟ وأن القبيلة سجلت هذه الأسماء في أشعارها؟. إن استراتيجيات هذا الكتاب تراعي، وإلى أقصى حد ممكن، مسألة إعادة ضبط الأسماء ضبطاً عربياً متوافقاً مع الرسم العبري، من دون اللجوء إلى اللعبة اللغوية عبر قلب الحروف أو التلاعب بتراكيب الأسماء. ولذلك؛ فإن التبدلات الفونيطيقية التي يُتَوَقع أن تكون حدثت في وقت ما؛ لا ينبغي أن تكون هي القاعدة في دراسة أسماء المواضع. وحري بنا، التفتيش عن الصيغ الأصلية لهاداخل الخزان الثقافي الهائل للعرب: الشعر الجاهلي والمرويات والأساطير. إن شهادة الهمداني الحاسمة والمُثيرة والتي نُعيد -اليوم- اكتشافها، ووضعها بين أيدي الباحثين والدارسين وجموع القراء المنخرطين في السجال حول حقيقة فلسطين التي يزعم أن التوراة ذكرتها بالاسم، واستردادها أرضاً وشعباً وثقافة وتاريخاً؛ تُعيدُ بناء الرواية الجغرافية عن أرض التوراة بطريقة لا لبس فيها. لا لشيء إلا لأن إعادة البناء هذه، إنما تجري استناداً إلى مقاربات جغرافية خالصة بين النصوص القديمة، ومن دون أي تدخل تعسفي من جانبنا. بل إن هذه الرواية تُعيد وصف منازل الأسباط التوراتية بوصفها منازل جماعات عربية بذْاتية قديمة وزائلة، حفظَ العربُ بفضل عبقرية لسانهم (أي عبقرية الرواية الشفاهية) أنسابها وأشكال نُطقها الصحيحة؛ على نحو يُسمحُ فيه اليوم، باستعادتها من الخزان الثقافي كأرشيف تاريخي متكامل؛ كلفائف ولقى أثرية لن يعثر عليها علماء الآثار أبداً، تحت الأرض. وفي هذا النطاق، لابد من رفض الدمج الاستشراقي بين بني إسرائيل القبيلة اليمنية وإسرائيل الراهنة، الكولنيالية؛ والعودة إلى الثقافة العربية-الإسلامية التي نظرت بإطراد إلى بني إسرائيل هؤلاء كجماعة عربية بائدة؛ مَثَلُها مَثَل قبائل عاد وثمود ووبار وعبيل والعماليق

وجُرْهُم. وأن هذه الجماعة لا صلة لها لا من قريب ولا من بعيد بما يُدعى اليوم إسرائيل. هنا منازل سبط دان- أذان كما وصفها يشوع والهمداني في سراة حِمْير وَمْذحِج. وقبيلة دان- أذان اليمنية هذه، انقرضت وتلاشت ولم يتبق من شاهد على إقامتها في السراة سوى يعض الجبال والوديان وينابيع الماء التي لا تزال تذكّر العالم بهم. ونحن نعلم من الهمداني أنها أقامت في جبل العرّ، وهو جبل شاهق منيف لايزال حتى عصر الهمداني، يُعرف باسم القبيلة اليمنية ءذان - دان.

ضُرْعَة

تصف قائمة يشوع منازل سبط دان بأنها تمتد من صُرْعَة - ضُرْعَة حتى يفو- يافا في الترجمة الاستشراقية. وحسب الرسم العبري فالاسم ضُرعه يظهر في صورة صرعة (بالصاد المهملة). بينما نرى أن المكافئ العربي هو: ضُرْعَة؛ بما أن العبرية لا تعرف حرف الضاد العربي وتستبدله بالصاد (ءرص- أرض). للوهلة الأولى يبدو لقارئ نص يشوع أن اسم الموضع صُرعة، يتكرَّر في سبط يهوذه (انظر منازل السبط التالي) مثلما يتكرر اسم ءيلون في القائمة- أعلاه. بيد أن ذلك مجرد انطباع خاطئ ينجم في الأصل، عن جهل بالجغرافية الموصوفة؛ ويفاقم من درجة فظاعته انعدام القدرة عند مترجمي النص، على التمييز بين صرعة التي أقام فيها سبط دان، وبين صرعه التي أقام فيها يهوذه-هَوْذه، وهما موضعان لا صلة لأحدهما بالآخر. إن أحداً لا يعرف هذين الموضعين في فلسطين، وليس ثمة أثر لغوي أو جغرافي لأي صيغة مهما كانت بسيطة، يمكن أن يؤدي التعامل معها إلى امتلاك بعض الحقيقة عن وجود الموضعين في فلسطين. ومع ذلك امتلكت القراءة الاستشراقية الحقيقة المطلقة ولكن الزائفةعن وجود صرعه في فلسطين. رأينا مما سبق من وصف الهمداني أن قبيلة

أدان اليمنية-دان عند يشوع، أقامت في مكان يُدعى العرّ من منطقة يافع وهو جبل منيف؛ بينما نعلم من قائمة يشوع أن هذا السبط أقام في وادي صُرعة أيضاً، بوصف الوادي هو غَوْر القبيلة (نحلتم[١]) وليس ميراثها، كما في الترجمة الاستشراقية. وهذا ما يقوله الهمداني بالضبط (صفة: ١٧٢-١٧٣):

العر لأدان -من يافع- (......) صدور لكلب[٢] من يافع، وفي كل موضع من هذه المواضع قُرى كثيرة. أرض حلالهم وأحلافهم من بني جَعْدة. ومن الأودية: الضبَاب ووادي حضر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء، ووادي شرعة والحنكة والجعدية ووادي ثوبة ووادي المقطن والمعتنق ووادي شكع وأخلة (....) ووادي عُمق (.....) ووادي ضُرْعَة.

هذا هو وادي ضُرْعَة- صرعة تماماً كما وصفه يشوع بأنه غَوْر قبيلة دان- أدان، في تأكيد صريح على أنهم سكان مرتفعات وأغوار. وبذلك يتضح أن قبيلة أدان أقامت قرب قبيلة زبولون في سرو حِمْيَر. والمثير في وصف الهمداني قوله: وهي أرض حلالهم وأحلافهم في إشارة إلى جماعات قبلية مجاورة، من بينها كلب- سبط كلب عند يشوع وهم في التوراة سبط صغير من أسباط بني إسرائيل أقام وسط منازل بني يهوذه، في المملكة التي سوف تعرف تالياً بمملكة يهوذا. إننا لا نعرف في فلسطين موطناً قبلياً قديماً لقبيلة تُدعى دان، كما لا نعرف قبيلة كلب هناك فيما يقول لنا يشوع والهمداني على حد سواء، أنهما أقامتا في مكان

---

(١) من بين الأخطاء الفظيعة في ترجمة التوراة إعطاء المكافئ التالي لكلمة نحلتم (ميراثهم) بينما الصحيح هو (غورهم) لأن القبائل أقامت في مرتفعات وأغوار(وديان) وكل قبيلة لها جبلها وغوره (واديه).

(٢) انظر كلب في التوراة وعندنا.

مرتفع اسمه العر-عر، وفي غَوْر يُدعى ضُرعة وفي مكان معلوم لايزال قائماً حتى اليوم هو يافع (مركز محافظة أبيْن اليوم في جنوب اليمن). والعر هو أعلى جبل في يافع حيث وادي حَضَر- حصر، وعمق- عمق، غير بعيد عن ما يُدعى اليوم بمنطقة الضالع في الجنوب اليمني على الطريق بين عدن وصنعاء.

شعلبين

ويُفهم كذلك من نص يشوع المُطابِق لنص الهمداني، أن قبيلة أدان-دان نزلت في أغوار منطقة يافع ومرتفعاتها، على امتداد تهامة اليمن في سرو حمير ومذحج؛ وأنها أقامت في وقت ما من هجرتها، في موضع يُدعى شعلبين. إننا لا نعرف مثل هذا الاسم أو الوصف الجغرافي في فلسطين التاريخية، إذْ لا وجود لاسم شعلبين بأي صورة من الصور، كما لا تُعرف دان هذه في أي صيغة محتملة من الصيغ؛ بينما تقول لنا الروايات التاريخية العربية الكلاسيكية: إن القبائل اليمنية في هجرتها الكبرى بقيادة ملكها الأسطوري مزيقياء، نزلت في تهامة اليمن عند موضع بعينه يُدعى ثعالب أو ثعلبين أو ثعالبات (كما في قصيدة جاهلية). إن الاسم في العبرية شعلبين هو الجمع العربي من ثعلب: ثعالب؛ ولكن مُتَرجمي النص العبري أبقوا على صيغة الجمع العبرية (شعلبين- شعلبيم). وبذلك تمّ، وفي إطار الغرائبية- السحرية في المخيال الأوربي، إضافة مسحة رقيقة من التزييف، كافية لجعل إمكانية العثور على اسم الموضع مستحيلة؛ لا في فلسطين وحدها وإنما في العالم كله. إن إعادة ضبط الاسم، هي المهمة الأولى الحاسمة والكبرى التي تواجه كل باحث عن الحقيقة، وسيكون أمراً مُلحاً -في إطار هذا البحث- رسم الفضاء الجغرافي لمنازل هذا السبط استناداً إلى وصف يشوع نفسه ومن دون

تلاعب في تراكيب الأسماء. لقد حفظ لنا الشعر الجاهلي اسم هذا المكان ضمن جغرافية تهامة اليمن، وهي سلسلة من الأغوار الخصبة. وبالصورة ذاتها (ثعالب) باعتباره موضع إقامة القبائل اليمنية المهاجرة. إن بقايا مُعلقة عُبيد بن الأبرص الشهيرة، التي لم يستذْكرها رواة الشعر الجاهلي، إلّا بصعوبة بالغة لقِدمها وضياعها تقول لنا، بوضوح أن ثعالب كانت موطناً من مواطن القبائل اليمنية البائدة قال:

أقْفرَ من أهلهِ ملحوبُ فالقُطَبيَّاتُ فالذُّنوبُ

فراكسٌ فثعلبيات فذات فِرقَدَين فالقَليبُ

فَعْرِدَة فقفا عبر[1] ليس بها منهم عريبُ[2]

وسوف نرى تالياً موضع عرْدَة هذا في أسفار التوراة في الصورة ذاتها عردة. إن قِدم المكان وضياعه، ساهما إلى حد بعيد، في ظهور أشكال رسم للاسم تبدو، من الناحية الشكلية، متفاوتة بعض الشيء وخصوصاً في أشعار العرب. ففي أرجوزة الحج - التي نشرها الهمداني في ذيل صفة جزيرة العرب-للشاعر اليمني أحمد الرَّداعي (صفة: ٣٥٤) يرسم الشاعر اسم المكان نفسه في صورة ثعلاب- شعلاب:

فالأجْرَعَيْن فحمى أكراب فالضمانين إلى الشجاب

فأخْرُماً منها إلى الثعلاب مواطئاً مُكلئة الجناب

وكنا رأينا من وصف الهمداني لوادي ضُرْعَة، تأكيده على أن الوادي يقع على طريق المحجة من عدن إلى صنعاء، ونعلم -الآن- من الشاعر

(١) عردة: انظر موضع عردة في التوراة (قصص سفر التكوين) ووادي عبر وادٍ يرد ذكره في التوراة كذلك في مواضع متفرقة.

(٢) عريب: انظر ما سنكتبه عن صخرة عريب في قصص التوراة.

الرَّداعي أن بوسعنا أن ننتقل-معه-من ءحرم إلى ثعلاب، بعد أن نمر على موضع أكراب، وبالفعل؛ فإن ءحرم وأكراب عند الهمداني، هما على مقربة من بعضهما تماماً كما تقع ءحرم وءكزب[1]عند يشوع قرب بعضهما وقرب وادي صيد. يقول الهمداني (صفة: ١٧٩-١٨٣) ما يلي:

> الطرق التي تختلط بين السروين - سرو حمير ومذحج- وأبْيَنْ وردمان وردَاع وذمار: (.........) عقارب (...) لأهل ردَاع (...) والأكراب لبني منبه (....) حرم قلعة في وادٍعظيم، وأدمة وعفار لصنابح وهم من زوف (...) سلم (....) ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد.

إذا ما قمنا بمطابقة التوصيفات الشعرية الكلاسيكية، مع توصيفات الهمداني ويشوع للأماكن ذاتها؛ فإنّ السائر من ء حرم وءكراب وسلم (وادي شلم) حيث تختلط طرق سرو حِمْيَر وسرو مَذْحج، يصل إلى ثعالب- شعلبين كما يصل إلى تِمِنة - تمنة- رقم: ١٧. قال جعفر بن كلاب (ياقوت: ١ : ٩١):

صَبَحْناهم غداةُ ثعالبات مُلَمْلَمَة لها لُجب زُبونا

وقال عمرو بن شاس الأسدي:

أتعرفُ منزلاً من آل ليلى أبى بالثعلبية أنْ يَريما

ثعالب هذه التي بكاها الشعر الجاهلي، لا نعرفها في فلسطين مهما فتشنا هناك؛ كما لن نعثر عليها في عسير. وبصرف النظر عن

---

(١) العبرية تعرف قلب الراء إلى زاي وهو أمر شائع في لهجات القبائل: ءكرب: ءكزب مثل: بازق بمعنى بارق؟- انظر ءكزب في سبط أشير الرقم: ٢٠. والأكراب: ءكرب هي موطن الإخباري اليهودي اليمني الشهير وهب بن منبه صاحب (التيجان في ملوك حمير).

الاختلافات الطفيفة في رسم الاسم عند الشعراء الجاهليين؛ فإن لمن المهم رؤية التطابق في وصفها داخل القصائد، فهي منزل قبلي قديم من المنازل التهامية. إن قصيدة عُبَيْد بن الأبرص (المُعلَّقة الضائعة) تضع المكان قرب راكس، وهو موضع حديث نسبياً (فراكس فثعلبيّات) وهذا توصيف دقيق للمكان ينسجم مع وصف يشوع، الذي يضع تِمنة ضمن قائمة منازل سبط دان، بينما يضع الهمداني تمنية هذه قرب راكس، وهما من أحواز جُرَش. يقول الهمداني (صفة: ٢٣١):

والذي يُصالي جنب من عنز فالرّفيْد والعُوصْ وأداي وعَنْقة والراكس والعين عين الرّفَيْد، وتمنِة. وتمنِة يسكنها بنو مالك.

هذه هي تمِنة- تمنِة في وصف الهمداني لأوطان بلحارث في الجوف اليمني قرب راكس؛ تماماً كما صورتها مُعلقة عُبيد بن الأبرص في الفضاء الجغرافي لتهامة اليمن ونجدها، والمُمتد من همدان وصعدة حتى جُرَش ونجران. ومن الواضح أن ثعالب التي وضعها عُبيد بن الأبرص قرب راكس، هي في هذا الحيز الجغرافي وليست في فلسطين. إن الجغرافيين القدماء والشعراء على غرار يشوع، وضعوا ثعالب على مقربة من تمِنة، وضمن أوطان بلحارث- القبيلة العربية- في الجوف اليمني، ولم يضعوها قط في فلسطين. وهذا ينسجم كل الانسجام مع المرويات التاريخية عن هذين الموضعين. ولكن؛ وبصدد ثعالب-شعلبين التوراتية، لا بد من فحص المرويات الكلاسيكية عن أصل الاسم ورؤية صلته بالهجرات اليمنية. لاشك أن نص يشوع عن إقامة الأسباط في هذه المنازل، هو نص يدور أساساً حول هجرة قبلية قادت الجماعات المهاجرة، إلى مكان يدعى ثعالب-شعلبين، حيث استقرت هناك في أوطان تاريخية. وهذه المروية التي يتضمنها النص، هي ذاتها المروية اليمنية. تقول الرواية

العربية المتواترة -بصرف النظر عن الطابع المثيولوجي فيها- أن القبائل اليمنية شرعت في هجرة كبرى إثر انهيار سد مأرب (وهذا حادث تاريخي[١] وقع كما يبدو أكثر من مرة ولاشك فيه،جعلت منه سائر المرويات والأشعار موضوعاً محورياً في قصص الهجرات القبلية؛ فما من قصة عن هجرات القبائل القديمة إلّا ورُبطت به باعتباره حادثاً جماعياً هلعياً) بعد أن باعت القبائل أملاكها من الأرض إتجهت للبحث عن مكان إقامة بديل؛ وكان الملك اليمني الأسطوري عمرو بن عامر المُلقب (مزيقياء) على رأس جيش من المهاجرين الذين وصلوا تهامة، حيث قام ابنه ثعلبة بأول هجوم -انطلاقاً من هذا المكان- للاستيلاء على مكة. ويبدو أن الحملة مُنيت بالفشل، ولكن المكان الذي انطلقت منه ظل يحمل اسمه ثعلبة. هذه الرواية الشائعة في كتب القدماء (انظر مثلاً رواية البكري، معجم: ١٣، ٣١٧، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٥٢، ٦٩٣، ٨٠٦، ١٠٣٤، ٣٤١، ٦٢٧) غرضها المباشر تأويل اسم الموضع ثعالب أو ثعلاب أو ثعلبيات ومن أين جاء؟ وهذا أمر شائع أيضاً في الروايات القديمة. ها هنا المكان نفسه الذي سجله يشوع ضمن منازل سبط دان.

تمِنة

لاشك أن وجود تمِنة-تمنة قرب ثعالب، كما عند يشوع والهمداني وفي الشعر الجاهلي؛ أمر يصعب تجاهله على صعيد تقرير الحقيقة الجغرافية، لأنه لا يتصل بمجرد وجود تماثل لغوي؛ بل بوجود مكان حقيقي وصلته القبائل اليمنية في هجرتها نحو تهامة اليمن. قال كثير:

---

(١) تتحدث نقوش المسند باضطراد عن إصلاحات جرت على السّد. كما أن الأساطير الكثيرة وتداخل المرويات بعضها ببعض عن حادث انهيار السَّد، تجعل من المحتمل وقوعه أكثر من مرة.

كـأنَّ دمـوع الـعـيـن لـمـا تـخـلـلـتْ   مـخـارم بـيـضـاً مـن تـمـنٍ جِـمـالُـهـا

تـمـن هـذه، هـي تـمـنِة - مـن أحـواز جُـرَش- كـمـا رأيـنـا مـن وصـف الـهـمـداني الآنف، والتأنيث والتذكير في الشعر العربي القديم ظاهرة مشهودة ومألوفة. إننا لا نعرف مكاناً يُدعى تمنِة في فلسطين بكاه الشعراء كمنزل قبلي زائل؟ بينما نعلم من شعر كثير، وفي إطار ثقافة البكاء العربية القديمة في الشعر، أن المنزل القبلي كان لا يزال موجوداً هناك حين مرت الجِمال على أطلاله.

التُّقيّ

يُرسم الاسم في اللغة العبرية في صورة ءلتقيه-ءلتقي. وحسب الضبط العربي الذي يُعطيه الشعر القديم؛ فإنَّ الاسم هو التّقيَ؛ بينما يرسمه مترجمو التوراة إلى العربية في صورة: التُّقيّه. وهذا رسم غير مقبول لأنه لا يأخذ بنظر الاعتبار أن الهاء الأخيرة في العبرية وعند رسمها في العربية، هي في الأصل البعيد حركة إعرابية تتصل بأسلوب النطق والعادات الصوتية، ونحن نجدها في أسماء لا حصر لها في نصوص التوراة، كما نجدها في النصوص العربية القديمة. ومع ذلك؛ فإن الموضع حتى في رسمه الاستشراقي هذا لا وجود له في فلسطين، وليس ثمة أي أثر لغوي أوجغرافي يشير إلى وجود مكان يُدعى ء لتقيه في فلسطين التاريخية؟ قال الحسين بن مُطير (ياقوت: مادة رقم: ٢٥٥٥):

أقول لنفسي حين أشرفتُ راجعاً   ونفسي قد كان الهوى يَسْتَطير

ألا حـبـذا دار الـسـلام[١] وحـبـذا   أجـارع وعـسـاء الـتّـقـيّ فـدورهـا[٢]

---

(١) دار السلام هذه هي النطق العربي لأورشليم (أورسالم) على الطريق من التّقي.

(٢) دورها: تعني (دور) المنسوبة إلى التقي وليس بمعنى بيوتها. وهذا دمج ماكر يعرفه الشعر العربي القديم.

تقع التُّقيّ-ءلتقيه قرب دور -دور في سِفر صموئيل وقد وصلها داوود في أثناء هروبه من شاول- انظر الفصل الخاص بفرار داوود-. كما أنها على مقربة من مكان يُدعى عند الشاعر دار السلام. وسوف نتحدث تالياً عن سلسلة من المواضع التي سماها العرب القدماء (سلام) وصلة هذا التقليد بما يُدعى في التوراة يروشليم. لقد ظن بعض نقاد الشعر القدامى ممن افتقدوا إمكانات المعرفة الكافية بالمواضع في الشعر العربي، أن كلمة (دورها) قُصدَ بها (ديار) أو منازل التّقيّ، ولم يفطنوا إلى وجود موضع دور، وهو موضع قريب من جبال الزيت-زيتيم في صموئيل. قال كثير (معجم: ٣١٧):

ومرت على التقوى بُهنّ كأنها سفائن بحرٍ طابَ فيها مسيرها

أو الدوم من وادي غران تروَّحتْ له الريحُ قَضْراً شمألٌ دبورها

إن الفضاء الجغرافي الذي ترسمه قصيدة كثير لوادي غران حيث موضع التقوى-ءلتقيه هو ذاته في قصيدة ابن مُطير؛ فهذه هي أوطان بلحارث في جوف همدان. يقول الهمداني (صفة: ٢٨٣-٢٨٥) ما يلي:

ومن أوطان بلحارث: (....) صاغر وحضن بلي (....) وأما سوائل جوف همدان فقد ذكرنا أعراضها الكبار والصغار مثل (....) أيا (....) يهريق في-وادي- نعمان ثم إلى مذاب (...) ديار بلي: أمج وغران واديان يأخذان من حرة بني سليم وينتهيان في البحر.

هذا هو وادي غران الذي ذكره الشاعر بأنه مسيل مياه يلتقي بمسيل مياه التّقيّ-ءلتقيه وقد خوّضت فيه الإبل وهي تشق طريقها.

الرّقون

الاسم في العبرية -بدون تصويت-: ها- رقن (الرقون في البناء العبري للأسماء) وهذا البناء كما رأينا من الأبنية المعروفة في اللغات السامية القديمة له نظير ومكافئ عربي هو زيادة الألف والنون (عدن - عدنان- قحط - قحطان). إن جميع الأسماء العبرية التي بُنيت بزيادة الواو والنون مثل: صيدون، عقرون، حشبون، ء يلون، يجب أن تُعاد إلى جذرها الثلاثي: صيد، عقر، حشب، ءيل. يقول العَلّامة محمد بن علي الأكوع - محقق الكتاب-: إن اليمنيين القدماء كانوا يضيفون إلى الأسماء في كلامهم- حرف النون؛ وهوما يُعرف بلغة الكلاع نسبة إلى المخلاف الحميري الكلاع، ولايزال اليمنيون -حتى اليوم- يعرفون هذه اللغة وأساسها زيادة النون في آخر الأسماء مثل: صنعاء- صنعن صنعان. وفي جنوب العراق لا يزال أبناء العشائر، حتى الذين حصلوا على تعليم جيد ينطقون الكلمة الإنجليزية (راديو) في صورة (راديون) بحكم العادات الصوتية القديمة ويقولون في (أقول: أقولن وفي أظن: أظنن). هذه القاعدة تنطبق على الأسماء العبرية الواردة في نصوص التوراة كما على الأسماء الإرمية والعربية الحديثة التي تزيد الألف والنون؛ ذلك ما يدعونا إلى النظر في إمكانية إعادة الأسماء العبرية إلى الجذر الثلاثي الأصلي. إن اسم الموضع ها- رقون هو: الرقيّ بحسب ضبط الشعراء. قالت ليلى الأخْيلية:

فآنستُ خيلاً بالرُّقيّ مُغيْرَةً سوابقها مثل القطا المُتواترِ

تعني كلمة رقون العبرية: رقيق thin (انظر منازل نفتلي). وهذا المعنى يُطابق المعنى العربي للكلمة الذي يشير إلى الأرض الرقيقة، مثله مثل موضع ها- رقة في نص يشوع (صير، وحمت، ورقة) كما أنَّ له صلة

بمادة: رقيّ بمعنى الارتقاء والسير في أرضٍ ليِّنة، رطبة - جراء وجود مسايل المياه من الأودية-. وسوف يتسنى لنا رؤية هذا المعنى في مواضع أخرى في التوراة لها صلة بالمعنى الحقيقي لكلمة هود، ومنها (يهود) لا بمعنى الأرض المُنخفضة بإطلاق وإنما أرض الغور الرطبة التي تكثر فيها المياه. وهذا هو برأينا الأصل الحقيقي لكلمة (يهود ويهودية) ارتباطاً بالماء (وكما نعلم فقد أصبح الماء أساس العقيدة المسيحية: التعميد وفي الإسلام هو أصل كل شيء حي). يضبط البكري وياقوت اسم الرقي (الرُّقيّ) بضمٍّ أوله وفتح ثانيه وتشديد الياء أخت الواو. وهذا هو الضبط الدقيق والقديم بزيادة الواو كحركة إعرابية وتحويلها إلى حرف من أصل الاسم. قال ابن مُقبل واضعاً الرُّقيّ هذه قرب راكس تماماً (وعلى مقربة من ثعالب السابقة) أي في المكان نفسه الذي وصفه يشوع والهمداني وهو منطقة الجوف اليمني؛ والجوف كما قلنا مراراً سلسلة من الأغوار والوديان والأراضي المُنخفضة الرطبة والرقيقة، بحكم وجود مياه غزيرة تسيل فيها:

حتى إذا بلغت راكس ولها بصحراء الرُّقيّ توالى

وقال أوس بن حجر (معجم: ٦٦٨):

وما خِفتُ أن تبلى نصيحة بيننا بهضب القليبِ فالرُّقيّ فَعَيْهمِ

لاشك أن وجود راكس قرب الرُّقيّ (صحراء الرُّقيّ) كما عند ابن مقبل؛ وهما معاً إلى جوار ثعالب- شعلبين، يدعم ويوطد فكرة وجود منازل سبط دان- أدان في الفضاء الجغرافي لتهامة اليمن ونجدها، وهي تمتد من جبال ومرتفعات يافع حتى جُرَش - انظر الخرائط-. يقول سفر يشوع عن الرقون: إنها تقع قبالة يفو - وهي في الترجمة الاستشراقية: يافا-:

(وبني بارق، وجت رمون، ومياه اليرقون والرقون قبالة يافا-يفو)

إننا لا نعرف مكاناً يُدعى الرقون قبالة ساحل يافا الفلسطيني؛ ولم يترك لنا القدماء من جغرافيي اليونان، أية إشارة إلى مثل هذا المكان. كما أنَّ جميع أعمال البحث الأثري في فلسطين لم تتوصل إلى وجود دليل واحد، يدعم تصور القراءة الاستشراقية عنه. لكننا على الضدّ من ذلك- نستطيع رؤية الرقون هذه، قبالة يافا اليمنية يُفا. وإليكم وصف الهمداني لمنطقة همدان في الجوف اليمني حيث الرقون وراكس وءلتقيه (التقي) والرُّقيّ-من ديار بني عقيل - (صفة: ٢٦٨):

وبالبون من أرض همدان وأسفل الجوف الدهناء (......) ومن أملاح مياه العقيق المنهلة (.....) والحفيرة ومياه مُنيم إلّا الجرعاء وماء يفاء وبرك أون فقبة آرام.

في هذا النص الواضح عن طبيعة أرض همدان وأسفل الجوف اليمني؛ لدينا سلسلة من مسايل المياه أهمها مياه يُفاء وهي تقع - بالفعل- قبالة الرقون في المكان نفسه من الجوف؛ والأهم من ذلك أنها بالقرب من مياه أون- أون عند يشوع. فهل هي صدفةٌ مَحْض أن الرقون التوراتية قبالة يافا؛ بينما الرُّقيّ اليمنية قبالة مياه يُفا؟ بل وأن تكون المنطقة كلها منطقة مياه وبحيث تحمل المواضع - بسبب ذلك- أسماء دالة على الرطوبة ورقّة الأرض؟. إن التوراة لا تقول قط، في كل أسفارها أن يافا- يفو مدينة ساحلية (باستثناء إشارة في سفر يونان يقول فيها سارد النص أنه انتقل من يافا إلى ترشيش، ولكنه لا يقول أنها مدينة ساحلية). فكيف استنتجت القراءة الاستشراقية أن المقصود ب- يفو- في سِفر يشوع إنما هو يافا فلسطين؟ لا ريب أن قراءة نزيهة ستقول لنا: إن نص يشوع -

أعلاه- واضح كل الوضوح: يفو قرب اليرقون والرقون وبني برق. وهذه أسماء لا وجود لها في فلسطين. وهذا ما سنراه حين نحلل اسم بني برق.

بني برق

حسب الرسم العبري؛ فإن الاسم هو: بني برق -بني بارق. وهذا اسم جماعة قبليّة واسم جبل لا وجود لهما في فلسطين. إن أحداً من القدماء لم يترك لنا نقشاً أو بيت شعر أو مروية أو خبراً تاريخياً، يشير إلى وجود هذا الاسم في بلاد الشآم أو فلسطين التاريخية. لكننا نملك الكثير من الأدلة على وجود الاسم في صورتين: كاسم جماعة قبلية وكاسم موضع في أوطان بلحارث في الجوف اليمني. وإليكم وصف الهمداني لمنازل بني برق-بني بارق وموضعهم برق مدعوماً بأشعار الجاهليين (صفة: ١٣٠) بوصفهم من سكان الأغوار في جُرَش:

> **ثم الجبل الأسود إلى الشقْرار وسعْيا من أرض جُرَش وغور هذه البلاد هي أعلى زنيْف وضنكان والبُرَك (....) ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر نجْدُها خثْعَم وغورهم بارق.(....)ثم سراة الخال لشكر.**

يُسجّل الهمداني في هذا النص أسماء سلسلة من المواضع الهامة؛ التي سجلها يشوع كما سجلتها نصوص التوراة الأخرى مثل: الحجر- حجر بوهن، وبارق -بارق- انظر نشيد دبورة وبارق، وشكر- يسكر. هذا التوافق ما كان له أن يحدث ولا بأي صورة من الصور؛ من دون وجود جغرافية واحدة وصفها يشوع ثم عاد الهمداني إلى وصفها. يقول الهمداني (الإكليل: ٢: ٣٦٠) عن بني بارق ما يلي: هم بنو بُرق من قبائل الأزد، سُمّي الجبل باسمهم: برق؛ لأنهم اتبعوا البرق[١].

---

(١) (وكذلك انظر: الاشتقاق لابن دُريد: ٤٨٠).

لنلاحظ - هنا- أن الهمداني يضبط الاسم في صورة: بني برق -بني برق عند يشوع، ويعطي اسم جبلهم: برق. وهذا ما يتوافق تماماً مع الضبط في الشعر العربي القديم. قال أرطأة بن سُهيَّة:

حَنَّت إلى برقٍ فقلتُ لها بعض الحنين فإنَّ وجدكِ شائقي

هو ذا جبل برق الذي حنّت اليه روح الشاعر المُلتاعة والمفجوعة بالخراب والحطام، حيث المنازل القبلية في الجبل تتناثر ويطويها النسيان. وهذا هو الحنين عينهُ الذي دعا امرئ القيس إلى اسْتِذكار الجبل ومنازله في سرو حمير (الديوان):

تبصّر خليلي هل ترى ضوء بارقٍ يُضيء الدُّجى بالليل عن سرو حِمْيَرا

إن قراءة ما يُدعى في التوراة: نشيد دبورة وبارق (راجع في هذا الجزء ما كتبناه عن سفر القضاة ونشيد دبورة وبارق) في سياق التراث الشعري العربي، سوف تكشف عن البُعد الحقيقي للمراثي التوراتية، بوصفها اسْتطراداً أدبياً في ثقافة قديمة ومستمرة أساسها البكاء على المنازل، وتسجيلاً متواتراً لأسماء المواضع التي نزالت فيها الجماعات العربية الأولى بما فيها الجماعات اليمنية القديمة (بنو بارق، بنو إسرائيل)[1]. هاهو جبل بارق وها هنا الأناشيد-القصائد التي بكى فيها الشعراء عند سفوحه، المنازل والديار المهدمة. إننا لانعرف برق فلسطين، لا كجماعة قبلية ولا كجبل؛ بينما نعرفهما في تهامة اليمن. في وصفه لأرض السراة يضع الهمداني (صفة: ٢٣٣) بارق الجبل والقبيلة على مقربة من حلْي -حَلْي في سبط أشير، ووادي بيشه- بيش في يشوع ووادي حَضَر-حصر عند يشوع، وقرب جبل ووادي عبال- عبال في التوراة:

---

(١) انظر ما سنكتبه عن ثقافة البكاء على المنازل في فصل قادم.

ثم يتلو معدن البَرام ومُطار صاعداً إلى اليمن سراة بني علي وفَهَمْ (....) والحجر إلى جُرَش حلي وأيْد وحَضَر ووراءه قرى لبني ربيعة من أ قْصى الحجر (....) بيشه من بلد خَثْعَمْ وأكلب وغُورَيْها بلد بارق فأول بلاد الحجرعن يمانيْها عَبِلْ وادٍ فيه الحبل.

يستكمل الهمداني في هذا النص الرائع وصف منازل بني برق- بني برق، التي لم يسجلها نص يشوع، وتحديدها بدقة كما لم يفعل أي جغرافي حصيف من قبل، فالسائر بين الجبال والوديان في السراة صعوداً من جُرش، وهذه هي تهامة، سيمر بوادي حَضَر وحلي قبل أن يشق طريقه نحو وادي بيشه- بيش التوراتية؛ ثم يهبط في غَور بني برق قبل أن يتجه إلى الجنوب- من الجبل - هابطاً من جديد في وادي حبل -وادي حبل في حروب داوود، ووادي عبل-عبل في يشوع. من الصعب بالفعل، إنْ لم يكن أمراً مُتَعذراً إلى النهاية، تخَيل مُصادفة نادرة كهذه تحدثُ فيها مُطابقة حقيقية ومُدهشة بين نصَّي يشوع والهمداني من جهة، وبين الشعر الجاهلي من جهة أخرى. إن مُصادفة لغوية أو جغرافية من هذا النوع لا يمكنها أن تحدث أيضاً بافتراض إمكانية حدوثها؛ على مستوى التوصيف المُتماثل والمتوافق حتى في أدق التفاصيل. فهل يمكن مثلاً، تَخيُّل وجود جبل بارق اسماً لجماعة قبلية في المكان نفسه؟ وإلى جوار سائر المواضع الواردة في سِفر يشوع؟

تروي الإخباريات العربية والمرويات اليمنية العتيقة - كذلك- ما يلي: إن جبل بارق هو الجبل الذي نزل فيه الملك اليمني الأسطوري عمرو بن عامر مزيقياء، عندما قاد الجماعة اليمنية المهاجرة إلى تهامة اليمن، حيث أقام في السراة أيام السيل العَرِمْ. واستناداً إلى مرويات ابن عبد ربّه (وانظر ياقوت: ١ : ٣٨٠) فإن بارق جبل ومياه في سراة اليمن، فَمَنْ نزل فيه أيام السيل العَرِمْ كان بارقياً- وهذا ما يجب أن يحيلنا إلى المقاصد الحقيقية

في القصيدة التي تدعى: نشيد دبورة وبارق-. إن المغزى الجوهري في هذه القصيدة الجاهلية، التي قرأها المِخْيال الأوربي كنشيد انتصار؛ يكمن هنا: إنها أول وأقدم وثيقة أدبية نملكها عن رحلة القبائل المهاجرة نحو تهامة اليمن، وقد صوَّرت على نحوٍ يتسم بأكبر قدر من التكثيف، الأماكن والمواضع والجماعات في هذا الفضاء الجغرافي. ومن غير شك؛ فإن إشارات الإخباريين العرب إلى حادث السيل العَرِمْ، تحتفظ بأهمية خاصة في هذا النطاق لتأويل اسم الموضع بارق، من خلال ربطه بحادث تاريخي هَلَعيّ. إن سلوك ساردي النصوص القديمة إجمالاً، يكاد يكون متماثلاً في نطاق استخدام وسائل وأساليب التأويل هذه، فما من طريقة لحفظ الواقعة واسم الجماعة وتاريخها أفضل وأكثر دينامية، من ربط الواقعة بحادث هَلَعيّ عاشته الجماعات كلها باستغراق وجداني تام. والحال هذه فقد كان انهيار سد مأرب وتفجّر السيول العارمة، هو هذا الحادث الهلعي الذي لا يوازيه من حيث طابعه التراجيدي أي حادث آخر. بهذا المعنى، أرَّخَت الجماعات القديمة كل ما يتصل بتاريخ هجراتها وحروبها وتحالفاتها، ارتباطاً بهذا الحدث أي انهيار سد مأرب. ومن هذه التحالفات تحالف بارق الذي نشأ في سراة اليمن إبان الهجرة الكبرى[1]، وهذا هو مغزى عبارة: كل مَنْ نزل السراة أيام السيل العَرِمْ في جبل بارق كان بارقياً[2].

إن القصيدة المنسوبة إلى دبورة في سِفر القضاة، والتي تحمل اسم نشيد دبورة وبارق، ليست قصيدة شاعر يُدعى بارق اشترك مع نبية إسرائيلية تُدعى دبورة في إنشاء القصيدة، كما تخيَّل المستشرقون الأوروبيون؛ بل هي هذا النشيد البدوي الذي أنشدته الجماعات المهاجرة

---

(١) مثله مثل تحالف غسان وتنوخ في التاريخ العربي القديم.

(٢) أو كل مَنْ نزل مياه غسان صار غسانياً أو كل منْ نزل مياه تنوخ صار تنوخياً.

من وادي دبرة إلى جبل بارق (دبرة عند يشوع). لقد اختلق الرواة القدماء من اسم دبرة الوادي، اسم الكاهنة (دبُرة) في سياق التقاليد نفسها: استنباط الشخصيات داخل المروية الأدبية من اسم المكان الذي يدور فيه الحدث. وعلى غرار تقاليد أدبية قديمة، فقد نُسِبَت القصيدة لبطل أسطوري هو الكاهنة- النبيّة. وبدورها وفي إطار إعادة إنتاج الأساطير التوراتية، اختلقت القراءة الاستشراقية تاريخاً وشخصيات تاريخية إسرائيلية لا وجود لها من بينها شخصية (دبُرة) التي لا يعرفون عنها أيَّ شيء؛ وذلك استناداً إلى تأويل اعتباطي لنصوص التوراة. ولعل روايات الأنساب العربية القديمة، واليمنية بشكل خاص، أكثر من يعطي أسماء مواضع معلومة، في صورة آباء وأبطال يلعبون أدواراً عجائبية. فهل علينا تصديق هذا التصوير الأدبي للتاريخ؟ أو أن نتخيل هذه الأسماء كجزء من تاريخ حقيقي؟ أم أن علينا النظر إليها من زاوية صلتها الوثيقة بطرق وأساليب التأويل التقليدية، التي تفسّر أسماء المواضع وأسرار ظهورها من خلال ربطها (أدبياً) بآباء قدامى وبأبطال، قد لا يكونون وجدوا قط.

إذا كان علينا أن نصدق القراءة الاستشراقية القائلة إن دبورة كانت قاضية في بني إسرائيل؛ فإنَّ علينا -في هذه الحالة- أن نقبل بحقيقة أن (القضاة) كانوا في اليمن لا في فلسطين، ولايزال لقب (القاضي) من أشهر ألقاب اليمنيين، وهو لقب يتصل بعقائد دينية كانت سائدة. كما أن علينا أن نتساءل: ومنْ هو بارق؟ ولماذا صمتت القراءة الاستشراقية أمام اسمه وتجاهلته؟ وإذا كانت دبورة قاضية في بني إسرائيل؛ فهل نصدق كتب الأنساب العربية التي تقول: إن هنوم هو أب أعلى، بينما نعرفه اسماً لجبل عند يشوع والهمداني؟ ومع ذلك كله: فلا وجود لدبورة وبارق في فلسطين مهما فتشنا في التاريخ وفي الخرائط. قال الحَكَم الحُضَري (معجم: ٨٢٩):

يـاصـاحـبـيَّ ألـم تَـشـيـمـا بـارقـاً نُضِحَ الصُّراد به فَهَضبُ المنحرِ

وقال الأخطل (معجم: ط، بيروت: ٢: ٨):

فـأضـحـى راسـهُ بـصـعـيـدِ عـك وسـائـرُ جـسـمـهِ بـجـبـا بـراقِ

وجبا هذه - عند الأخطل - هي النطق العربي الحجازي[1] لاسم جبأ -جبع السلسلة الجبلية في مخلاف المعافر.

مياه اليرقون

لنلاحظ -هنا- التشابه بين أسماء المواضع السابقة: ء لتقون، الرقون، اليرقون. إن ضبط هذه الأسماء ضبطاً عربياً صحيحاً سوف يساهم، وإلى حدّ بعيد، في تبديد الأوهام الاستشراقية حول مغزى وجودها في نص يشوع. وهنا النّص - حسب ضبطنا له-:

(وشَغْلبَيْن وإيْلَه ويَثْلُتْ وأيْله وتَمْنِة وعَقَر والتقيّ وَجْبتون وبَعلْ وَيهُدْه وبني برق وجثّ رمُّون ومياه اليُرقون والرُّقون قبالة يُفا)

إن خريطة فلسطين القديمة لا تعرف مثل هذه الأسماء. وليس ثمة روايات تاريخية أو قصائد ضمَّنَها القدماء أيَّ إشارة مهما كانت عرضية، عن وجود هذه المواضع في فلسطين أو بلاد الشآم. ولنلاحظ أن يشوع - في هذا النص- يقدم سرداً بأسماء الأماكن ولا يقوم بوصفها وتحديد الاتجاهات المؤدية اليها؛ بل يكتفي بتعدادها ربما باستثناء موضع واحد

(١) الحجازيون يسقطون الهمزة من الكلام وفي القراءة والكتابة كذلك مثل(فاس بدلاً من فأس، فواد أم موسى، بدلاً من فؤاد أم موسى) أما التميميون البدو فهم يحققون الهمزة في كلامهم.

هو الرقون قبالة يفو-يُفا. أما الموضع الذي نحن بصدده -هنا- فإن يشوع يصفه على النحو التالي (مياه اليرقون) وبذلك نكون أمام مكان غزير المياه في الفضاء الجغرافي المرسوم. لقد عرف الشعراء العرب القدامى موضعاً قرب ثعلاب يُدعى الورقان -بتحويل الياء أخت الواو في الاسم اليرقون إلى الورقن؛ وبالتالي فهو إلى جوار كل المواضع الواردة في نصّ يشوع؟ وإليكم تصوُّر الجغرافيين العرب المسلمين عن مكان غزير المياه في تهامة دُعي الورقن-الورقان (معجم- طبعة بيروت: ٤ : ٢٠٧):

ورقان: وهو من جبال تهامة. ومَنْ صَدَرَ مُصْعِداً من مكة، فأول جبل يلقاه وَرِقان وهو كأعظم ما يكون من الجبال (...) فيه أوشال وعيون عذْبة وفيه أنواع الشجر.

ها هنا المياه الغزيرة يرقن (ورقن)

قال ابن مقبل (ط: بيروت٤ : ٢٠٧):

رآها فُؤادي أُمُّ خِشْفِ خلالها بُقور الوراقَين السراءُ المصنّفُ

وفي حديث صحيح عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الجبال أُحد والأشعر وورقان».

وَرِقان هذا، الذي امتدحهَ ﷺ لخصبه ولغزارة مياهه العذبة؛ لهو بالفعل، من أعظم جبال تهامة. قال عرّام بن الأصبغ: ورقان جبل عظيم أسود كأعظم ما يكون من الجبال ينقاد إلى المُتَعشى والرويثة. (وانظر: البكري ط: مصر: ١٢٨٤، ١٣٧٧، ١٠٥٢). وقديماً نسبت العرب إلى رزاح[١] الأخ غير الشقيق لقُصي جد الرسول ﷺ قوله:

وجاوزنَ بالركنِ من وَرِقان وجاوزنَ بالعرجِ حلولا

(١) قارن مع اسم زارح التوراتي.

جبتون

لا أحد في فلسطين يعرف اسم موضع يُرسم في صورة (جبتون) بالتاء المثنّاة من فوق، أو (جبثون) بالثاء المثلّثة. وليس ثمة مكان هناك لا في صيغة (جبتن) أو (جبتان). ولأن العبرية لاتعرف حرف الخاء المعجمة، فهي ترسم أسماء المواضع التي تحمل هذا الحرف باستخدام الجيم البديلة مثل خولان: كولان وخبت: جبت. أو باستخدام الحاء المهملة: لخم: لحم. ولذلك فلابد أن اسم هذا الموضع وفي الحيز الجغرافي الذي وصفه يشوع، هو خبتون وليس جبتون. تقع خبتون[1] إلى الغرب من صَعْدَة. وكانت حتى عصر الهمداني من منازل بني مالك. هاكم وصف الهمداني للمكان (صفة: ١٦٣-١٦٤):

> **الخبت لبني مالك فالأخباب فنسرين فصعدة ويلقاهما سيل عكوان، فيُضمّ إلى العشة فسيل جدرة، ولقيها سيل كتاف ودلعان، فيسقيه بين نجران وتثليث.**

ثم يضيف (صفة: ٢٢٤ -) في وصفه لمخلاف صَعْدة ما يلي:

> **أما حقل صَعْدَة فإنه مختزل من بلد همدان، وأما ظاهر خولان فهو أسل وفيه قرى وزروع، وأفقين وجبل أبذر (..) ووادي عكوان ويمدهما من المغرب وادي ربيع ونسرين (..) والخبت (..) ويسنم لبني رُعافة وقيوان وبني يعنق وعفارة.**

قال الأخنس التغلبي (صفة: ٣٢٤):

(١) البناء العبري للأسماء من كلمة خبت: خبتون، مثل صيد: صيدون: صور: صورون.

وكلب لها خبت[١] فرملة عالجٍ   إلى الحرَّة الرجلاء حيث تحاربُ

ولنلاحظ هنا أن جبت- خبتون هي على مقربة من تثليث كما في النص الأول من الهمداني. ولهذا الأمر على وجه التحديد أهمية خاصة لأن جبتون التوراة تقع قرب يتلت- يثلث؟

يتلت

يُرسم اسم هذا الموضع باللغة العبرية في صورة (يتلت). ولكن الطبعة العربية من التوراة تعطي الرسم التالي للاسم (يتلة). ولا وجود لمثل هذا الاسم لا في فلسطين ولا في أي مكان آخر؛ ولكن إذا ما قمنا بإعادة ضبطه ضبطاً عربياً صحيحاً في صورة (يثلث) بالثاء المُثلثة التي لا تعرفها العبرية وتستعيضُ عنها عادة بالتاء العربية المُثناة من فوق؛ فإن الموضع سيكون في المكان نفسه الذي وجدنا فيه خبت-خبتون. قال امرؤ القيس (الديوان):

قَعَدتُ له وصَحْبَتي بين ضارجٍ   وبين تلاع يثلث فالعريضِ

قصيدة امرئ القيس هذه، تعطي ضبطاً صحيحاً للاسم الاستشراقي (يتلة) في صورة يثلث، وهي سلسلة صغيرة من المرتفعات أسفل زبيد، وكانت موطن الشاعر اليمني الشهير عمرو بن معد يكرب. إن اسم العريض في القصيدة، قُصِدَ به عرض نجران وهذا ما يتوافق، كلياً، مع وصف الهمداني للفضاء الجغرافي لبلد نهد وأسفل زبيد حيث مواضع

(١) حسب تنسيب الشاعر فإن قبيلة كلب - كلب في التوراة أقامت في هذا المكان (خبت) بينما يقول يشوع: إنَّ سبط دان أقام هنا. وكنا رأينا من وصف الهمداني أن سبط دان وكلب أقاما معاً في بعض الأماكن من يافع. انظر الفصول السابقة من هذا الكتاب.

كتنة، وقصصن وأراك، وهي مواضع وردت في نصوص يشوع أيضاً. يقول الهمداني (صفة: ٢٢٧-٢٢٨) ما يلي واصفاً يثلث:

بلد نهد: (وادي) طريب ومَصابهُ من ذوات القصص وكتنة وأراك وادٍ فيه أراك (....) أسفل زبيد وتثليث وكان لعمرو بن معد يكرب وجاش (...) وغَرْب (...) بالعرض من نجران.

ها هنا يثلث كما ضبطه الشعر الجاهلي، وفي صيغة أخرى شائعة تثلث أو تثليث، وهي صيغ أجمع الجغرافيون المسلمون على أنها دالة على المكان نفسه الوارد في شعر امرئ القيس وعمرو بن معد يكرب. وهذا الموضع كما يتضح من وصف الهمداني لأحواز نجران؛ يقع قرب سلسلة من المواضع الواردة عند يشوع وفي نصوص التوراة؛ مثل غرب وهوعند صموئيل[1] (غرب-ءل) وجاس-جاسان[2] فضلاً عن أراك- ارك لبني بن يامن وقصص- قصِص عند يشوع. قال طرفة بن العبد (معجم: ٢٣٣):

بتثليث أو نجران أو حيث تلتقي من النجد في قيعان جاش[3] مسايلهُ

إننا لا نعرف يتلة أو يثلث في فلسطين على مقربة من جبتون، كما لا نعرفهما قرب أيٍّ من منازل الأسباط التي سجلها يشوع في نصوصه. بينما نعثر على يثلث أسفل زبيد، غير بعيد عن نجران في النجد الممتدِّ بينهما وبين جاش- جاس.

(١) في سفر صموئيل يرسم الاسم في صورة غرب‌ءيل (الغرب).

(٢) من منازل سبط يوسف في قوائم يشوع.

(٣) جاس بالسين أو جاش بالشين: المكان نفسه. واليمنيون القدماء كانوا يبادلون الحرفين في نطقهم (شمش في شمس كما عند بعض القبائل العربية في شمال إفريقية اليوم).

عقرون

قلنا فيما سبق من صفحات: إن البناء العبري للأسماء: صيدون، حفرون، زبولون، حرمون، يُكافأ في البناء العربي إما بإعادة الأسماء إلى الجذر الثلاثي الأصلي (صيد، حفر، زبل، حرم) أو بإعطاء بناء موازٍ أساسه زيادة الألف والنون (صيدان، حفران). ويبدو أن الوظيفة الأصلية للنون السامية في اللغات واللهجات العربية الأولى، تطورت في اتجاه واحد هو تحولها إلى أداة التعريف الحالية في العربية (الصيد، الحفر، العقر إلخ..). إن سِفر يشوع يضع عقر-عقرون وبحسب تعداد الأسماء في النص السابق، قرب مواضع تدعى على التوالي: تمنة وءلتقون وجبتون، أي في الفضاء الجغرافي نفسه لجميع الأماكن السابقة. إننا لا نعرف وادياً أو جبلاً في فلسطين يُدعى عقرون قرب تمنة وإلى جوار ءلتقون- التقون وغير بعيد عن جبتون؟ مثل هذه الأسماء لا وجود لها في خريطة فلسطين، ولكننا نعرف مع ذلك، موضعاً يدعى عقر- عقرون قرب سائر المواضع السابقة. قال امرؤ القيس:

وقـال الـحـيُّ أيـن دَفـنْـتـمـوهُ ... فـقـيـلَ لـه بـسـفـح الـعَـقْـر دارُ

فـسـرتُ إلـيـه مـن بـلـدٍ قـصـيٍّ ... فـجـدّ الأمـرُ وامـتـنـعَ الـقـرارُ

وادي عقر هذا، يصب إلى الغرب من جبل الشرف في عالية نجد؛ وهو إلى جوار سلسلة من المنازل التي سجلها يشوع وأسفار التوراة الأخرى، كمنازل للأسباط أو كمواضع دارت فيها معارك بني إسرائيل. ولا وجود لأي موضع في عسير أو فلسطين يحمل الاسم نفسه. وهنا وصف الهمداني (صفة: ٢٩٣):

في نجد العليا وفي السفلى. قال طرفة: من النجد في قيعان جاش

مسايله (...) العقر بالعالية (...) غَمْرة وأعراف غَمْرَة ولبُنى (....) وصارة (...) ورُمان وحقيل (...) وحرَس ماء لغني.

ها هنا وادي عقرون-العقر من وديان النجد، في الفضاء الجغرافي للمواضع السابقة حيث تمتد قيعان جاش حتى أسفل زبيد. وها هنا سلسلة من منازل الأسباط كما سجلها يشوع: لبنه- لبُنى وصارة - صارة (انظرها تالياً) ورُمون- رُمان، فضلاً عن حقيل -حقيله وحَرَس- حَرَسه في سفِر صموئيل. قال الضبابي (نسبة إلى وادي الضباب اليمني: ياقوت: ٤: ١٥٠):

قلتُ لها بالرملِ وهي تضْبَعُ   رملَ عقار والعيون هُجَّعُ

بالسلعِ ذات الحلقات الأربع   ألمعاذٍ أنت أم للأقرعِ؟

كل هذه المواضع في النجد. والتوراة تسجلها بدقة بأسمائها الواردة في الشعر العربي القديم. ومن غير شك؛ فإن جغرافية وادي عقرون-عقر كما وصفت هنا، غير مُتطابقة مع الجغرافية الافتراضية لفلسطين المتخيَّلة، التي استنبطتها القراءة الاستشراقية مما ورد في التوراة؛ فليس ثمة مياه حرس ولا رمُون كما لا توجد صارة ولا لبنه.

بَعْل

إذا ما عدنا إلى مادة يثلث السابقة، فسوف نلاحظ ما يلي: أن وادي طريب يسيل من منطقة كتنة، ويتجه نحو أسفل زبيد (حيث موضع يثلث وغرب وجاس). وفي هذا الفضاء الجغرافي تقع بعلة التوراتية كما وصفها يشوع في قائمته ضمن سلسلة المواضع السابقة. إننا لا نعرف بعلة في فلسطين قرب جبتون وعقرون ويتلت وسواها من المنازل القبلية؛ بينما نعرف بعل قرب هذه المواضع في الفضاء الجغرافي نفسه لنجد

اليمن؟ إن الرسم العبري للاسم بعلة يُكافأ في الرسم العربي بالاسم بعل، وهو الموضع المقصود تماماً. قال كثير (معجم: ٢٦٠، ٣٩ ٤، ٤٨١، ١١٨٦):

أيام أهلونا جميعاً جيرة بكتانة ففراقد فبُعالِ

ها هنا بعل التي كانت موطن الشاعر كثير أسفل وادي كتنة من بلد نهد، على تخوم زبيد غير بعيد عن جاس وغرب و عقرون ويثلث وسائر المواضع السابقة، التي عددها الهمداني ويشوع على حد سواء. وقال كثير (ياقوت: ١ :٥٣٦، الهمداني: ٤٧٠، البكري: ٢٦٠):

عرفتُ الدار كالحُللِ البوالي بفيف الخانعان إلى بَعَالِ

احتار البكري في ضبط بُعال - بالضم أم بالفتح - وهل هما موضعان أم موضع واحد؟ إن العودة إلى قصيدة كثير هذه، سوف تضع حداً لهذه الحيرة؛ لأن الشاعر أراد مكاناً بعينه أصبح خاوياً بعدما كان منزلاً قبلياً مزدهراً. قال

أربعْ فحيِّ معارفَ الأطلالِ بالجزع من حُرض فهُنَّ بوالي

فشراجَ ريمةَ قد تقادم عهدُها بالسفحِ بين أثيثٍ فثُعالِ

لما وَقفْتُ بها والقلُوصَ تبادت حببُ الدموعِ كأنهُنَّ عَزالي

وذكرتُ عزَّةَ إذْ تُصاقبُ دارُها برُحيبٍ فأرايْنَ فنُخالِ

أيام أهلونا جميعاً جيرةٌ بكُتانة ففُراقدٍ فبُعالِ

وسائر هذه المواضع هي من وادي حُرض اليمني ومن كتنة -كتانة، التي تُعد من بلد همدان. ولنلاحظ اسم وادي ريمه-رمه عند يشوع -من منازل نفتلي (رقم ١١) أما رحيب في القصيدة فهو من أودية سراة اليمن

المنحدرة صوب سراة عنز فالحجر. إن أحداً لا يعرف مسيل مياه يُدعى بعلة- بعلت في فلسطين إلى جوار، أو على الطريق إلى المواضع الواردة في سِفر يشوع؛ بينما يمكن للسائر بين أودية تهامة اليمن ونجدها، أن يصل إلى مسيل مياه بعل، وأن يتجه منها نحو موضع يَهُده التوراتي.

يَهُده

الرسم العبري للاسم هو (يهد) من دون حرف الواو؛ ومع ذلك قام مترجمو النص العبري برسمه في صورة (يهود) بإلحاق الحركة الإعرابية كحرف من أصل الاسم (الواو تحت الهاء في العبرية الحديثة). وهذا رسم غير مقبول، لأنه يفترض قراءة لا سند لها. إن بناء الاسم بياء لاصقة في أوله مثل يعفر، يشجب، يعرب، يكرب، يعرم، هو بناء يمني الأصل غالباً ما يُنطق بفتح أوله وتسكين آخره: يَعرمْ، يَكربْ، كما أن الياء اللاصقة قابلة للإسقاط بسهولة. إن اسم الشاعر اليمني الشهير عمرو بن معد يكرب يكتب في المصادر العربية واليمنية القديمة أيضاً في صورة (عمرو بن معدي كرب- بحذف الياء من يكرب وإلحاقها بمعد- معدي) كما أن التوراة ترسم اسم ملكي- صادق في سفر التكوين في صورة (ملكيصادق بدمج الياء اللاصقة الأخيرة من ملكي بصادق[1]) تماماً كما هو الحال مع بقية الأسماء مثل: يعرم-عرم. ليست (هُده) التوراتية هذه سوى (هدون)[2]. قال الهمداني (صفة: ١٦٧ - ١٧٠):

(١) لا تكاد توجد - سوى في العبرية ولهجات اليمن-أي كتابة تدمج فيها الياء الأخيرة بأول الاسم التالي: ملكيصادق في ملك- صادق. ملكيكرب في ملك- يكرب.

(٢) قال أبو حاتم السجستاني (ت: نحو٨٦٩م. عالم ولغويّ درس في البصرة على يد الأصمعي والأنصاري والمثنى، له كتاب الأضداد - معجم: ١٣٤٨):
سألتُ أهل (هُدَّة) من ثقيف: لِمَ سُمّيَتْ (هُدَّة)؟ فقالوا: إن المطر ليصيبهم بعد هدأة من الليل.

=

وعندل وخودون وهَذُون ودمون مدن للصدف (قبائل الصدف) بحضرموت. (المحقق: وهذه المدن لا تزال عامرة بالأهل والسكان وخودون مدينة عظيمة على جبل منيف) (........) ثم ينحدر المنحدر إلى ثوية قرية بسفلى حضرموت في وادٍ ذي نخيل ويفيض ثوية إلى بلد مهرة وحيث قبر هود النبي وقبره في الكثيب الأحمر ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي ذي الأحقاف

لقد وصفت التوراة والقبائل العربية في أشعارها، كل أرض صخرية بكلمة (صفا، صفاة) وكل أرض بركانية بكلمة (حمة، وَحرّة ولابة) وكل

= تعطي هذه المَرْوية اللغوية - بجوابها المُتَحَذْلِق- على جري عادة القدماء من العرب في تأويل أسماء قراهم ومساكنهم؛ فكرة هامة عن العلاقات المتناسقة والمتناظرة بين المطر وبين الأرض المُنْخَفِضة (راجع ما كتبناه عن الأسماء السابقة: ءلتقون، يرقون، رقة). لقد اكتشف سكان هُدَّه-يَهُدَّه من قبائل ثقيف في الطائف، أن ثمة رابطة لغوية من نوع ما بين اسم موضعهم وبين رقة تراب الأرض ورطوبته، وهي أرض غَوْر ووديان ومسايل مياه، ولكنهم- بالطبع- ينسبونه إلى الأمطار الغزيرة (والهَوْد في اللغة: ما انخفض من الأرض). بيد أن تفسير السجستاني هذا لقي صدوداً من البكري، ولذا عقَّب على روايته بالقول: هذا النسب لا يشبه ذاك إلا أنْ نتوهم الهمزة في هدأة محوَّلة ياء فيُنسبُ إليها. وهذا صحيح من منظور لغوي صرف لأن اسم المكان لا يتضمن همزة بحيث تصحُّ نسبة (هدأة - من الليل-) إليه. وفي الواقع، ثمة وشائج لغوية قوية بين اسم الموضع وبين كونه منخفضاً من أغوار تهامة، من جهة، وبين الكلمة العبرية (يهد) والعربية (هُدَّة) من جهة أخرى؛ فهي جميعاً تؤدي إلى الدلالة ذاتها: الأرض المُنْخَفِضة (وفي اللغة: التهوّد: الإبطاء في السير والمرور في أرضٍ منخفضة وليِّنة - انظر مادة هيد وهود في اللسان: ٤٤٠). بهذا المعنى تكون دلالة هدأة قد انصرفت إلى الإبطاء كما قول ثقيف (إن المطر ليصيبهم في هدأة من الليل). قالت ليلى الأخيلية:

تخلى من أبي حربٍ فولى ... بهيدة قابضٌ قبل القتال

أرض رقيقة التراب بكلمة (رقة) وكل أرض مُنخفظة بكلمة (مهاد) و(هيدة- هودة بتحويل الياء واواً كما هو شائع في كلام العرب وأشعارها). يتبقى أن نلاحظ - هنا- أن اسم السبط التوراتي يهوذه له صلة حميمة بمادة هود، الذي تصوره المرويات الإخبارية الكلاسيكية نبياً ظهر في قبائل اليمن. والاسم نفسه هَوْذَه من الأسماء الشهيرة عند العرب الجنوبيين؛ وهو اسم لواحد أشهر ملوك العرب قبل الإسلام هوذه بن علي الحنفي السحيمي، وقد دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم؛ وذلك عندما كان هوذه يسيطر على كامل منطقة اليمامة، وكان أول من وضع - من العرب- تاجاً على رأسه. وسنرى (عند تحليل سفر المكابيين أن المعارك مع الرومان دارت في اليمامة وليس في فلسطين وضد يهوذه-هوذه). إن رسم الاسم عند العرب القدماء في صورة هوذه- بالذال المُعجمة- يقربه من الرسم العبري يهوذه بحذف الياء اللاصقة في أول الاسم .suffix ومن الهام للغاية الإشارة هنا إلى أن علماء التوراة لا يستطيعون إرشاد أحد من أتباع اليهودية إلى اسم موضع في فلسطين يُدعى (يهود، يهد، هودة، هيدة كما في قصيدة ليلى الأخيلية) ولا حتى لأثر لغوي دال على وجوده؛ بينما يمكن لنا رؤية الموضع الذي عاشت فيه قبائل العرب قديماً، ورؤية الآثار اللغوية الدالة عليه كاسم لمخلاف (مملكة) تدعى مملكة يهوذا (مملكة هوذه).

إيْلهَ وايْله

باستثناء موضع (ءشت ءُل-إشتءول) في هذه القائمة، والذي سنعود إليه لاحقاً وفي مكان آخر من الكتاب نظراً لتكرار وروده في النصوص التوراتية؛ فإن كل ما تبقى من منازل هذا السبط هو (ءيلون) و(ءيالون) وهما اسمان يُحيلان قارئ النص التوراتي إلى اسم ورد في منازل سبط

نفتلي ويكافئه المترجمون بكلمة (البلوطة). إن تكرار مثل هذه الأسماء في قوائم يشوع، هو الذي أثار الحيرة والفوضى في أشكال رسمها؛ فهل نحن أمام موضع واحد أم ثلاثة مواضع يحمل كل منها الاسم نفسه؟ أم أننا حيال موضعين حقيقيين يحملان اسم ءيلون وءيالون- بالمدّ؟ لقد آثرنا ترك هذين الاسمين لمعالجتهما في هذا الحيز من الفصل لأسباب تقنية، تتصل بالرغبة في عرض مقاربة جديدة بين نصوص يشوع والهمداني؛ ومن أجل إزالة الالتباس الناجم عن القراءة الاستشراقية. وهي قراءة فاقمت من غرائبية أسماء المواضع في فلسطين المُتَخَيّلة. إن فلسطين الحقيقية لا تعرف قط، موضعاً يحمل مثل هذا الاسم، وليس ثمة أثر لغوي أو جغرافي أوثقافي دال عليه. لكن، وعلى الضد من ذلك، نستطيع الوصول إلى هذين الموضعين إذا ما تتبّعنا وصف يشوع والهمداني لتهامة اليمن، أي في المكان نفسه الذي وجدت فيه سائر المنازل السابقة. إليكم الملاحظات التالية:

طِبْقاً للقاعدة اللغوية المُسْتَنبَطة من فهم القدماء لوظائف الحروف اللاحقة واللاصقة في الأسماء اليمنية (مثل الياء المُثناة من تحت في أول الاسم: يعرم، يعرب، يكرب وهي: عرم وعرب وكرب ومثل يهوذه- هوذه) بوصفها طريقة نطق تدخل في نطاق العادات الصوتية القديمة، وكذلك مثل النون التي يسميها اليمنيون (لهجة النون الكلاعية في صعدة وسواها من المخاليف) والتي تلحق بأواخرالأسماء؛ فإن اسم الموضع الأول هو إيله- بهمزة من تحت- أما اسم الموضع الثاني فهو أيله - بهمزة من فوق- والفرق واضح بينهما. هذا التمييز بين الاسمين ينسجم كل الانسجام مع الرسم العبري لهما. ولأجل توضيح ذلك هنا بيت من قصيدة لحسان بن ثابت (معجم: ٢١٦، ٢١٧):

ملكاً من جبل الثلج إلى جانبي إيلة من عبد وحُرّ

بينما يقول كثيِّر:

رأيتُ وأصحابي بأيْلة مُوْهناً وقد غار نجم الفرقد المُتَصوِّبِ

فلماذا اختلف شعراء الإسلام المبكر ثم الأموي وقبلهما الجاهلي في رسم الهمزة؟ تماماً كما اختلف الرسم العبري في رسم الاسم بالقصر والمدّ (ءيلون وءيالون)؟ هل نعدُّ هذا التفاوت الطفيف جوهرياً من حيث دلالته؟ وهل يتضمن إشارة قوية على معرفة مبكرة ومباشرة بمكانين حقيقيين؟ لقد عرف الشعراء العرب- في واقع الأمر- جبلاً بعينه من جبال تهامة يُدعى أيْلَة هو شعبة من جبل رضوى، في سلسلة جبال ينبع على البحر الأحمر؛ وفيه عيون ماء عذْبَة كما يقول الهمداني (صفة: ٢٩٨):

> ومُجالخ وادٍ من أودية تهامة الحجاز الرسيسان، ضاس، جبل إلى جنب رضوى وأيلة جبل.

هذا هو الجبل أيله-ءيلون الذي عناه كثير في قصيدته، ضمن سلسلة جبال ينبع .

أما إيله- ءيالون في قصيدة حسان فهو اسم المدينة القديمة والمندثرة التي ارتبطت بأسطورة إيله بنت مدين-مدين في التوراة عاصمة ساحل البحر الأحمر، على مقربة من حلي، وقد ذكرها القرآن لشهرتها في سورة الأعراف كمدينة يهودية[1]. وهذه بالضبط هي التي عناها حسان في

---

(١) قال تعالى ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٣] هذه الإشارة القرآنية التي لم يفلح المفسّرون المسلمون القدماء والمعاصرين كذلك في تقديم مقاربة تاريخية دقيقة لها (أو لغوية أو فقهية صحيحة) هي تأكيد على أن العرب قبل الإسلام تعرّفوا إلى بقايا مملكة مزدهرة كان سكانها يدينون بدين اليهودية على ساحل البحر الأحمر، وأن هذه المملكة هي التي أرسل النبي، إلى بقايا سلالتها الحاكمة في اليمامة يدعوهم إلى الإسلام.

قصيدته. وإيله المدينة هذه لا علاقة لها باسم خليج العقبة أيله كما يتوهم الاستشراقيون؛ بل هي المدينة الدارسة التي ظهرت ذات يوم في سواحل البحر الأحمر، ثم نقلت القبائل اسمها إبان الهجرة الكبرى صوب بلاد الشام وظلت مرتبطة بأساطيرهم عن مدين القديمة وقوم مدين ونبيّهم شُعيب. إننا لا نعرف من التاريخ الغابر اسم مدينة يهودية، كانت عاصمة (حاضرة البحر) في فلسطين. لكننا نعلم من تمييزات الشعراء والمرويات القبلية والقرآن أن حاضرة من حواضر البحر الأحمر ظهرت، بالفعل ذات يوم على الساحل، ارتباطاً بمروية أسطورية عن إيْله بنت مدين (في ساحل تهامة الحجاز غير بعيد عن جبل أيْله). وإذا كانت ءيلون تعني في العبرية بلوطة، وهو ما فهمه المترجمون من جملة (من حلف من ءيلون - انظر سبط نفتلي) فإن المقصود بهذا الموضع في قائمة نفتلي السابقة (وليس في قائمة سبط يهوذا) إنما هو جبل أيله حيث وادي حلف. وبالطبع ليس ثمة وادي حلف قرب العقبة في الأردن، كما لا يوجد جبل يُدعى أيله هناك. الفارق بين الاسمين أن أحدهما يشير إلى مدينة قديمة زائلة وآخر إلى جبل. هذه هي منازل سبط دان-ءذان القبيلة اليمنية البائدة التي أقامت في مخلاف - مملكة اليهودية. لقد عادت هذه المملكة إلى الظهور مع العصر الروماني المتأخر مع صعود سلالة جديدة في منطقة اليمامة، كان آخر ملوكها عشية الإسلام يدعى هوذه بن علي الحنفي السحيمي.

الفصل الثالث

وصف مخلاف - مملكة يهوذا اليمنية

إذا كان ما قدمناه - فيما سبق من صفحات -ملائماً لرسم صورة جغرافية عن مملكة يهوذا (حيث أقام السبط الإسرائيلي الأكبر يهوذا) فمن الضروري استكمال هذا الوصف بتسجيل قائمة، دقيقة وبضبط عربي صحيح، للأماكن والمواضع التي أقام فيها، ليتسنى التأكد فعلياً، من مثل هذا الاستنتاج.

تتضمن قائمة يشوع عدداً كبيراً من أسماء المواضع التي أقطعها للسبط الأكبر في بني إسرائيل. وبوجه العموم لا يوجد موضع واحد منها في فلسطين، على الرغم من المزاعم القائلة أن الضفة الغربية وقطاع غزّة، هما (يهوذا والسامرة) في التوراة. هنا القائمة كما وردت في النص العبري وما يقابلها في الترجمة العربية المُعتمدة، وإلى جوارها قائمتنا كما تم ضبطها اعتماداً على الشعر الجاهلي ووصف الهمداني.

قائمة يهوذا

الاسم (ط: لعربية)	الاسم في النص العبري	ضبط الاسم
١ : عيدر	١ : عدر	١ : عذِر
٢ : ياجور	٢ : جور	٢ : جُرَه
٣: قينة	٣: قينة	٣: قاينة
٤ : ديمونه	٤ : ديمونه	٤ : ديمون
٥: عرعده	٥ : عرعده	٥: عرّعدً
٦: قادش	٦: قدش	٦ : قدس
٧: حاصور بتِنان	٧: حصور يتنن	٧: حضُور تنين
٨: زيف	٨: زيف	٨: زوف
٩: طالم	٩: طلم	٩: ظلم
١٠ : بعلوت	١٠ : بعلوت	١٠ : بعلة
١١: حاصور-حدّته	١١ : حصور-حدته	١١ : حضُور-حدّا
١٢: قريوت حصرون	١٢ : قريوت حصرون	١٢ : قَروى -حَضُور
١٣: شماع	١٣ : سمع (صمع)	١٣ : صمع
١٤ : مولادة	١٤ : مولدة	١٤: مولدة
١٥ : حصرجدّة	١٥ : حصر جدة	١٥ : حَضَر جدً
١٦ : حشمون	١٦ : حشمن	١٦ : حُشم
١٧ : حصر شوعال	١٧ : حصر شعل	١٧ : حضر شُعل
١٨: بئر سبع	١٨ : بئر شبع	١٨ : بئر شباع
١٩: شعرائيم	١٩ : شعرءيم	١٩ : شَعْراء
٢٠ : عيِّم	٢٠ : عييم	٢٠ : عيِّم

٢١: عاصم	٢١: عصم	٢١: عاصم
٢٢:التولد	٢٢: ءلتولد	٢٢: مولد
٢٣:كسيل	٢٣: كصيل	٢٣: كثِل
٢٤: حرمة	٢٤: حرمه	٢٤: حرمة
٢٥: لباؤوت	٢٥: لبوءة	٢٥: لبوءة
٢٦: عين جنيم	٢٦: عين جنيم	٢٦: عين الجِّن
٢٧:عزيقه	٢٧: عزيقه	٢٧: عذيقه
٢٨: جديروتائيم	٢٨: جدروتئيم	٢٨: الجديرات
٢٩: شلحيم	٢٩: شلحيم	٢٩: سلحين
٣٠: حداشه	٣٠: حدشه	٣٠: حدث
٣١: مجدل جاد	٣١: مجدل جد	٣١: مجدل جد
٣٢: دلعان	٣٢: دلعان	٣٢: دلعان
٣٣: لحماس	٣٣: لحماس	٣٣: الحماس
٣٤: نعمة	٣٤: نعمة	٣٤: نعامة
٣٥: مقيدة	٣٥: مقيدة	٣٥: مقيد
٣٦: لبنة	٣٦: لبنه	٣٦: لبُن
٣٧: عاتر	٣٧: عاتر	٣٧: عاثر
٣٨: عاشان	٣٨: عشان	٣٨: عشان
٣٩: قعيله	٣٩: قعيله	٣٩: قعله
٤٠: بصقه	٤٠: بصقه	٤٠: بُصاق
٤١: أشدود	٤١: ء سدود	٤١: سَدد
٤٢: عزة	٤٢: عزه	٤٢: عزه

٤٣: شامير	٤٣: شمير	٤٣: شمير
٤٤: سوكه	٤٤: سوك	٤٤: سوق
٤٥: دنَّة	٤٥: دنه	٤٥: دنا
٤٦: عناب	٤٦: عناب	٤٦: عناب
٤٧: جوشن	٤٧: جوشن	٤٧: جوشن
٤٨: حولون	٤٨: حولون	٤٨: خولان
٤٩: أراب	٤٩: ء راب	٤٩: أراب
٥٠: دومة	٥٠: دمة	٥٠: دمُت
٥١: أشعان	٥١: ء شعن	٥١: أشعان
٥٢: ينوم	٥٢: ينم	٥٢: ينيم
٥٣: أفيقه	٥٣: ء فقه	٥٣: أفق
٥٤: حمطه	٥٤: حمطه	٥٤: حماطه
٥٥: صيعر	٥٥: صيعر	٥٥: صيعر
٥٦: كرمل	٥٦: كرمل	٥٦: كرمل
٥٧: تمنة	٥٧: تمنة	٥٧: تمنية
٥٨: بيت صور	٥٨: بيت صور	٥٨: بيت صور
٥٩: حلحول	٥٩: حلحل	٥٩: حلحُل
٦٠: معرات	٦٠: معرة	٦٠: مَعرُة
٦١: بيت عنون	٦١: بيت عنن	٦١: بيت عِنان
٦٢: أفراته	٦٢: ء فرته	٦٢: ء فراة
٦٣: عيطم	٦٣: عطم	٦٣: عُطم
٦٤: جدور	٦٤: جدور	٦٤: جُدُر

٦٥: سكاكه	٦٥: سككه	٦٥: سكك
٦٦: مدينة الملح	٦٦: عير- ها- ملح	٦٦: الملح
٦٧: عين جدي	٦٧:عين جد	٦٧: عين جد
٦٨: التقون	٦٨: ء لتقون	٦٨: التّقون
٦٩: كبون	٦٩: كبون	٦٩: كبون
٧٠: صُرعه	٧٠: صرعه	٧٠: صُرَع
٧١: حصر جده	٧١: حصر جد	٧١: حضَر جد
٧٢: عدلام	٧٢: عدلم	٧٢: عد لام
٧٣: بيت فالط	٧٣: بيت فلط	٧٣: بيت فرط

هذه - بصورة إجمالية - معظم المواضع والمنازل التي أقام فيها السبط الأكبر في بني إسرائيل، يهوذه- أو هود ومنه اسم هَوْذه، وسجلها يشوع في قائمته. وباستثناء عدد قليل للغاية جرى استبعاده نظراً لتكرار تسجيله في القوائم الأخرى، ولا حاجة فعلية له -هنا-؛ فإن القائمة تبدو كاملة تقريباً، كما أن تحليلها سوف يشير إلى مواضع لم نُدَوِّنها لأسباب تقتية، وذلك لترابطها الوثيق بمواضع سيجري الكلام عنها بإسهاب، ولأننا آثرنا، كذلك،إعادة وصف الأماكن في إطار وصف الفضاء الجغرافي الذي وُضِعَتْ فيه داخل نصوص الهمداني ويشوع. وفي هذا تعميم للفائدة وتوطيد لإمكانية رسم تصوُّرٍ متكامل للمملكة التوراتية. إنه لأمر هام للغاية بالفعل، أنْ يُرى ذلك الترابط الوثيق بين المواضع والمنازل التي أقام فيها يهوذه -هَوْذه من جهة وبين منازل الأسباط الأخرى التي جرى الكلام عليها (وسوف تجري تالياً لكل ما تبقى منها) إذْ سيكون ممكناً وإلى حد بعيد، تصوُّر سراة اليمن بما هي هذا الفضاء الجغرافي، وليس أي مكان آخر سواه، حيث أقامت القبائل العربية -

اليمنية في طفولتها البعيدة، يوم كان بنو إسرائيل ينتسبون إليها. وهذه القبائل ثبت النسّابون العرب القدماء أنسابها في سجلات موثوقة[١].

إن سراة اليمن بما تتضمنه من منازل قبلية، هي مكان لا شبه جغرافياً بينه وبين فلسطين؛ وهذا أمر يمكن التأكد منه بإعادة قراءة وصف يشوع، ومُطابقته مع وصف الهمداني بعيداً عن التماثلات اللغوية في مباني الأسماء. ولذلك ستبدو هذه السراة مكاناً مختلفاً لا صلة له بفلسطين؛ يكتسب أهميته الجغرافية من كونه ممُتلكاً لطاقة تاريخية مُخْتَزَنة، قادرة على قول الحقيقة كاملة عن فلسطين وصورتها التوراتية الزائفة. إن قارئ الهمداني يمكنه أن يجد ويمتلك بنفسه؛ إمكانات التصادم والسجال ضد القراءة الاستشراقية للتوراة لا عبر المقاربات اللغوية بين الأسماء، بل عبر مقاربة نص الهمداني مع نص يشوع في إطار تفهّم أعمق للتاريخ المُختَزن والمسكوت عنه. وبوسع قارئ الهمداني- كذلك-لا رؤية أسماء المواضع ذاتها وحسب؛ وإنما أيضاً رؤيتها كمنازل قبائلية متجاورة ومتدانية ومُتقاربة. و-أخيراً-حاضرة في فضاء جغرافي واحد يستحيل العثور عليه في فلسطين. التوراة من وجهة نظرنا هي كتاب إخباري-ديني عربي قديم؛ تركته الجماعات البائدة من العرب العاربة في اليمن، شأنه شأن الصحف الأولى ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ وجاء القرآن على ذكرها ككتب سماوية عرفتها القبائل العربية قديماً. وهذا الكتاب يتضمن لا السطح الديني-التشريعي، وإنما كذلك الأشعار القديمة والقصص والمرويات والحكايات البدوية، وأخبار الحروب والأمثال والتوصيفات الجغرافية. ولعل كتاباً

---

(١) أياً كان رأي المعاصرين في قيمة هذه الأنساب، فإنها من منظور أعمّ ذات أهمية كبيرة وخاصة، لأنها مدوّنات بدائية قابلة للتحليل بطريقة علمية. إن الطابع المثيولوجي لهذه الأنساب لا يقلل من قيمتها، وعلى العكس ربما يضاعف من قيمتها التاريخية بما هي سجل لأسماء يستحيل العثور عليها في النقوش أو ما تبقى من الخرائب.

دينياً مقدساً، من هذا الطراز وبفضل طبيعته السردية المحلية بكل شحناتها البدوية، وبفضل طاقته الرمزية أيضاً على مستوى القص؛ يصعب أو يستحيل اختزاله في صورة نص ديني عن نبوءة أو وعد بأرض الميعاد. إن هذا الغرض ليبدو، إلى النهاية، أبعد ما يكون عن الحقيقة وهو استخلاص استشراقي توصلت إليه مخيّلة سقيمة. ويتعين اليوم -في ضوء إعادة اكتشاف الهمداني- أن يُقال علناً: إن التوراة اليمنية التي بين أيدينا، هي الكتاب الديني المقدس للقبائل العربية البائدة، والذي روت فيه، في عصر مبكر من عصور التوحيد، تاريخ هجراتها ومنازلها ومعاركها وأخبارها في سراة اليمن، وأن لا صلة لفلسطين بهذا الكتاب لا من قريب ولا من بعيد. لقد كانت فلسطين وشعبها ضحية هوس الاستشراق الاستعماري؛ لأن ما يُدعى فلشتيم- كما برهنا وسوف نبرهن - ليس اسماً دالاً على فلسطين أو الفلسطينيين. وسوف تتأكد لنا في سياق القراءة العربية التي نقوم بها للنص التوراتي ذاته، أن الرواية التاريخية السائدة عن السبي البابلي في فلسطين المزعومة، إنما كانت، بالفعل، هي الحدث الهلعي الأكبر في حياة القبائل العربية في سراة اليمن، وأن بني إسرائيل لم يكونوا سوى قبيلة من بين قبائل عربية يمنية كثيرة تعرضت للسبيّ في نجران.

ملاحظات تمهيدية حول نص يشوع

يثير النص في لغته الأصلية، جملة من المشكلات التي لم يفلح النص المترجم في تخطيها أو معالجتها؛ بل لعله فاقم من درجة تعقيدها بحيث برزت إلى السطح، جُملٌ غرائبية التركيب؛ مُلغزةٌ وعسيرة على الفهم، وذلك بسبب الجهل الفاضح للمعاني الحقيقية ولدلالاتها ولأسماء الأماكن أيضاً. إن بعضاًمن الكلمات الواردة في نص يشوع ووصفه، والتي يستخدمها كأسماء لأماكن ومواضع بعينها؛ فُهمت خطأً بأنها تدل على

وصف للمكان، فيما هي اسم المكان نفسه، بينما تعذَّرَ فهم معاني كلمات أخرى يسجلها السِّفر كصفات للأماكن؛ مثلاً: (عر-عدة). لقد فهمت القراءة الاستشراقية هذا الاسم كاسم مكان بعينه يُدعى عر عدة في فلسطين. ولأن فلسطين الحقيقية لا تعرف قط، مكاناً يحمل مثل هذا الاسم؛ بل إن جغرافية العالم القديم بأسره لا تعرفه فقد ارتبطت فلسطين المخيالية منذئذٍ، بأسماء يستحيل العثور عليها. ولأن فلسطين المُلفَّقة هذه، ارتبطت بسلسلة من المواضع الخيالية والسحرية وذات الإيقاعات الغامضة، فقد راح المخيال الاستشراقي الاستعماري (الذي انفرد بعرض سردية يهودية أوروبية للتاريخ الفلسطيني) ينشئ -على هواه- تصوراً مُنمقاً عن جغرافية فلسطين القديمة، سرعان ما وجدت طريقها إلى الخرائط التي توزعها الكنائس البروتستانتية ضمن الكتاب المقُدس، حيث تظهر مدن إسرائيلية من صنع الخيال (انظر الخريطتان: فلسطين كما تخيلها الغربيون وفلسطين الأخرى). أما الحقيقة المسكوت عنها فهي تقول ما يلي: ليس ثمة مكان توراتي يُدعيعرعدة؛ بل هناك جبل منيف بعينه يُدعى (عر) فيه عيون ماء عذبة، كان اليمنيون وما يزالون يسمونها (عد) بمعنى الغزيرة الجارية التي لا تنضب. وكنا أشرنا في هذا الكتاب إلى رواية إقْطاع الرسول ﷺ جبل الملح بأكمله للقيل (الملك) اليمني الأبيض بن حمال السبئي[١]. وسوف نعود -مراراً- إلى اسم هذا المكان وما يماثله في التوراة وعند الهمداني. فضلاًعن ذلك؛ أخفق مترجمو النَّص في فهم معاني الكلمة العبرية (ها- هر) وقام بمكافاتها، وحيث وردت ومن دون الانتباه إلى السياق، بالكلمة العربية: الجبل. ولئن كانت هذه الترجمة صحيحة من حيث المبدأ؛ إلّا أنها ليست دقيقة مادامت دالاً وحيداً على الجبل؛ فيما هي كما سنبيّن، تعني السرو، أو السراة، أي السلسلة من

(١) حيث اعترض المسلمون وقالوا للرسول ﷺ: لقد أقْطَعته الماء العدّ.

المرتفعات الجبلية. وفي هذا الإطار يكشف النَّص المترجم عن نمط المشكلات التي تعترض سبيل القراءة الاستشراقية، في تعاملها المخيالي والمباشر مع النص التوراتي، وهذا ما نودُّ إيضاحه - هنا- ببعض الملاحظات المُركَّزة:

١ : فهم المترجمون الجملة التالية في هذا المقطع من سفِر يشوع والخاص بمنازل سبط يهوذه على النحو التالي:

وب- سفله- ءشت ءول- صرعه-

وء سنه

(وفي السهل: إشتاءول وصرعه وإشنه)

وهذه ترجمة غير مقبولة؛ لأنها لا تعطي المكافئ العربي الصحيح لجملة (ب-سفله) العبرية؛ كما لا تقوم بضبط أسماء المواضع ضبطاً دقيقاً. وفي الواقع؛ فإن الجملة لا تعني (في السهل) بل تعني بالضبط (في السفل) وهذا اسم المكان الذي يقع فيه جبل صُرع-صُرعه ووادي أُسن-ءشنت والشت-ءشت ءول، فضلاً عن سلسلة من المنازل التوراتية الأخرى الواردة في قائمة يشوع. إليكم وصف الهمداني للفضاء الجغرافي المرسوم في التوراة بمواضعه ووديانه وجباله (٢١٥-٢١٨):

ومن الجبال المعروفة صُرع (..) ووادي دبرة (....) ووادي يكلى وعرقب (...) ما بين ذي جُرَة (..) ويحادها من ناحية القحف الحدا (..) فأما جمهور هذه المياه فإلى ثلاثة مواضع إلى مأرب بعض وإلى الجوف بعض وإلى تهامة (.....) وأما ما يصب إلى سهام منها إلى تهامة إلى البحر (..) فوادي عدّ ورَد (....) وبلد وابش وتنين وعذيقه. بلد همدان: فأول شق بكيل، الصمع (...) وحرمه. ثم الجوف الأعلى وبه من القرى: شُوَابه وهران. والسفل والمناحي على شط الخارد (..) وفجّ المولدة.

في هذا النص الرائع الذي قمنا بتكثيفه، نجد السفل كاسم لمكان بعينه وليس (سهلاً من السهول) وهذا أمر هام للغاية. وفي الواقع؛ فإن السفل هو ما كان يُدعى- ذات يوم-عند الجغرافيين (باليحصبان) وهما واديان يسمى أحدهما يحصب السفل، فيما يسمى الثاني يحصب العلو، إلى الشرق من صنعاء وضمن مخلاف جُرة وخولان. إن جبل صُرع- صرعه يطلّ بالفعل، على السفل أي على الوادي، تماماً كما وصف يشوع جغرافيته منطقة الجوف. كما نجد سلسلة من المنازل المسجَّلة في نص يشوع: جُرَة- جور التوراتية التي ضُبط اسمها بصورة خاطئة، والحدا-حده، كما نجد وادي عد ورد- والذي يعني اسمه المياه الغزيرة الواردة - ثم عذيقه- عزيقه (بالزاي البديلة عن الذال والتي لا وجود لها في العبرية) والمولدة-المولدة. هذا النص الذي نقتطفه من الهمداني، يتضمن طائفة أخرى من المنازل آثرنا الاكتفاء منها بهذا النموذج التوضيحي؛ لنبيِّن نمط المشكلات التي تثيرها القراءة الاستشراقية، إذ لا توجد في فلسطين مثل هذه الجغرافية التي تضمُّ سلسلة المنازل كما وصفها يشوع. وإذا ما عدنا إلى الوراء -قليلاً- مع نص الهمداني، لإنعام الفكر مليّاً في الوصف المُسهب والدقيق للمكان؛ وهو منطقة الجوف الأعلى الممتدّة من مأرب إلى نجران، فسوف نعثر على عدر التوراتية -رقم ١ في القائمة- وهي في ضبطنا (عِذر بالذال المُعجمة مع الكسرة تحت حرف العين، صفة: ١٥٤):

> **ثم من بعد مأرب أودية لطاف إلى الجوف مشاربها من شُرفات ذي جُرَة (......) ثم صُرع، وسامك، ومساقط بلد عذر.**

ومن غير شك، فسيبدو أمراً مستحيلاً الحصول على دليل واحد عن وجود صُرعه قرب جُرة وعذر في فلسطين التاريخية. كما سيبدو هذا التماثل بين نصَّي يشوع والهمداني، خارج نطاق أي نوع من المصادفات

الجغرافية. وبذلك يتضح أن ترجمة المقطع الآنف من نص يشوع، لن تكون مفهومة إلا إذا وضعت في سياق وصف الهمداني للمكان، وسوف نعود إلى المزيد من التفصيلات عندما نتجدث عن هذه المواضع.

٢ : قلنا : إنّ النص المُتَرجم لم يُميز بين (ها- هر) بمعنى الجبل وبين (ب-هر) بمعنى (في السراة أو في السرو) كما لم يميز كلمة (عرّ) بما هي اسم مكان، عن كلمة (عده) بما هي نعت أو صفة، وقام بمعاملتهما كاسم مركب، علماً أن لهجات اليمن القديمة عرفت الصفة والموصوف، على النحو ذاته الذي يظهر في هذه الجملة من النصّ العبري؛ ولذلك فنحن مع نص الهمداني الآنف، نستطيع امتلاك إمكانية مثل هذا التمييز الضروري. ولنلاحظ وجود موضع في الفضاء الجغرافي نفسه يُدعى عد ورد كاسم لوادٍ من أودية الجوف، وسوف نرى تالياً اسم (عر). يقول يشوع ما يلي عن جبل شمير :

وب- هر- شمير، ويتر وسوكه
(وفي الترجمة السائدة ما يلي: وفي الجبل: شمير ويتير وسوكه)

هذه الجملة البسيطة لا تكاد تكون مفهومة: إذ كيف يكون الجبل في الجبل (وفي الجبل جبل شمير)؟ يحدد النص التوراتي اسم شمير كجبل، وكذلك يتير وسوكه-سكا، فكيف يكون جبل شمير في الجبل؟ إننا لا نستطيع قول مثل هذه الجملة في العربية؛ والأصح قولها على النحو التالي: وفي السرو شمير، أو وفي السراة جبل شمير. وهذا ما سوف نراه في وصف الهمداني للسراة (صفة: ١٣١-١٤٧) وأوديتها وجبالها، فبعد وصف مُسهب للسراة يقول الهمداني (صفة: ١٤٧):

الصَّلو الجامع (لجبال السكاسك) من ظهر (وادي) أديم (....) ثم من بعد ذلك سامع (...) جبال الرُّكب (و) شمير.

هذا المُقتطف المُكثف من النص - بلغته القديمة- يبدو أكثر وضوحاً من العربية المُستخدمة في ترجمة النص العبري؛ فها هنا السراة وسلسلة جبالها ووديانها، وها هنا جبل شمير على مقربة من جبل سامع- سامع عند يشوع وقرب وادي أديم-أدِم عند يشوع. ولذلك يجب أن تقرأ الجملة بإحلال كلمة السرو محل كلمة الجبل، لتبدو اللوحة الجغرافية المرسومة صحيحة. وبالطبع مع إعادة ضبط الاسمين: سوكه-سكا، ويتر- وتر.

٣: الأمر الهام الآخر الذي يتوجب التوقف عنده طويلاً هو الاجتهاد الخاطئ في ترجمة كلمة (نحلة- نحلت) بمعنى ميراث، والتي تغلب على سائر نصوص التوراة -مثلاً- (وكان ميراثهم) أو (فكانت حدود ميراثهم). من الواضح أن المترجمين خلطوا بين معنيين لكلمة (نحلت بالمفرد ونحلتم في الجمع). يشير المعنى الأول إلى الوادي Vally، مجرى، نهر، مسيل مياه؛ بينما يشير الثاني إلى ميراث Inheitance ولما كان النص التوراتي لا يتحدث -في الواقع- عن مواريث من الأرض، بل عن حصول الأسباط على أماكن إقامة؛ فإن هذا يجب أن يحيلنا إلى التقاليد العربية مع الإسلام المبكر، عندما جاءت قبائل اليمن تطلب الدخول في الإسلام، وفي الآن ذاته، تطلب من النبي ﷺ أن يُقْطِعها الأرض،كما حدث مع الأبيض بن حمّال السبئي الذي طلب منه أن يهبه جبل الملح، وكما حدث مع تميم الداري الذي طلب من النبيّ ﷺ أن يهبه قريته من بيت لحم[1]. ولذلك؛ فإنَّ كلمة (نحل) في نص يشوع تنصرف إلى معنى (وادي، غور، مسيل مياه) والغَوْر هو الإمتداد الطبيعي

(١) انظر ما سنكتبه عن بيت لحم. والرواية التي يوردها البكري وسواه، تفيد بأن تميم الداري طلب من النبي ﷺ أن يعيد إليه قريته بيت لحم (بيت لخم) التي أعاد اللخميون بناءها في بلاد الشام، ثم أصبحت من أملاك البيزنطيين. ومع انتصار الإسلام الوشيك جاء الداري يطالب بقرية قبيلته بيت لحم.

للوادي. يعني هذا أن يشوع لم يكن يُقدم مواريث الأرض للأسباط؛ بل كان يُقّطعها الجبال والوديان (والأغوار أي: نحلتم). ولذلك تفيد الجملة التي تتضمن كلمة نحلتم معنى أغوارهم وليس مواريثهم. كما يتوجب قراءة الجملة العبرية (ويهي- نحلتم) في صورة (وكان غورهم) كما عند الهمداني في صفة جزيرة العرب وعلى النحو التالي:

وكان غورهم: بئر شباع وسمع، أو: وكان غورهم سرد أو: فكانت أرض غورهم: صُرعه.

وبكل تأكيد، فقد أقامت القبائل العربية القديمة في اليمن في الأغوار، وعرفت في ثقافتها الاستيطانية، دلالة هذه الكلمة على وجه التحديد؛ وهو ما يعرض علينا -ومن جديد- صوراً متنوعة وغنية عن نمط الاستيطان ونُظم الزراعة والري الذي اشتهر به اليمنيون؛ وحتى اليوم لا تزال البقايا الأثرية للسدود الحميرية موجودة في الوديان والأغوار، شاهداً حياً على دينامية أشكال الاستيطان القبلية. إليكم الدليل على مقاصد الوصف التوراتي. يقول الهمداني (صفة: ١٣٠) في وصف منازل بني بارق -بني بارق عند يشوع

ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر نجدها خثعم وغورهم بارق.

ويقول في وصف منازل بني عامر (١٣١):

ثم سراة زهران من الأزد: دوس وغامد والحرّ. نجدهم بنو سُواءة بن عامر وغورهم لهب. ثم سراة بني شبابة وعدوان وغورهم الليث ومركوب.

وفي وصف منازل بني الخالد (١٣٠):

وبنو الخالد خثعم وغورهم قبائل من الأزد (أو): ثم الجبل الأسود إلى الشقرار وسعيا من أرض جُرَش. وغَوْر هذه البلاد هي أعلى زنيف.

توضح هذه الأمثلة أن كلمة ميراث، التي قدمتها القراءة الاستشراقية هي تصعيد لغوي- شعري للمُخيّلة الاستعمارية؛ بحيث تظهر الأرض المُستولى عليها بالقوة في فلسطين، كما لو كانت في الأصل البعيد، أرض ميراث ديني قديم لبني إسرائيل؛ وها قد جاء أحفادهم الغربيون لاسترداده من أيدي القبيلة الفلسطينية المتسلِّلة من جزيرة كريت اليونانية، فيما الحقيقة التاريخية والجغرافية تقول: ليس ثمة ميراث في وصف يشوع؛ بل هناك أغوار أقامت فيها القبائل والأسباط. وحتى في هذه الحدود من المزاعم؛ فإن وصف يشوع يستحيل مُطابقته مع الجغرافية الفلسطينية لسبب بسيط للغاية، أننا لا نعثر على أي أثر جغرافي أو لغوي لهذه المنازل في فلسطين، بينما نجدها كلها -هناك- في سراة اليمن. في ختام هذه الملاحظات لا بد من لفت الأنظار إلى الخطأ الذي ارتكبه المترجمون في رسم اسم الموضع (حصور- بتِنان رقم ٧) والرسم الصحيح هو (حضُور-وفي تنين) وهذا ما سوف نتوقف عنده في مكانه المناسب. وهنا المنازل التي أقام فيها أكبر أسباط بني إسرائيل يهوذه، حيث نشأت، تالياً، مملكة يهوذا (ما بين عدن وحضرموت):

في سلسلة جبال عِذر

يلاحظ محقِّق الكتاب العلّامة محمد بن علي الأكوع؛ أن أهل اليمن ينطقون اسم الموضع في صورة عِذر- بكسر العين-. وهذه ملاحظة شديدة الأهمية لأن طريقة نطق الاسم قديماً، تبرهن على وجود أساس حقيقي

لرسمه في العبرية في صورة عيدر. إن أهمية هذا الموضع تكمن في فرادة الاسم، وهو اسم قبيلة ووطن في سراة اليمن، إذْ لا وجود في فلسطين على وجه الإطلاق، لأي مكان أو قبيلة أو جبل يُدعى عِذر أو عيدر. ومن غير شك؛ فإن وجود الاسم في رأس القائمة يُدلل على كونه اسم وطن قبلي تبدأ منه منازل السبط. لقد أهملت القراءة الاستشراقية اسم هذا الموضع إهمالاً مُتعمداً، ولم تجرّب إمكانية الاقتراب منه أو التجرؤ على تحديده كما فعلت مع المواضع الأخرى. يفضح هذا الإهمال المتعمد، المنهج العشوائي المُستخدم في القراءة الغربية للتوراة، إذْ لا يجوز علمياً، انتقاء أسماء بعينها وإهمال أخرى ثم الزعم دون أساس موضوعي، أن الجغرافية الموصوفة في سِفر يشوع هي جغرافية فلسطين. لكننا وعلى الضد من هذا المنهج الاستشراقي، سنقوم بتحديد المواضع في هذه القائمة استناداً إلى وجودها في فضاء جغرافي واحد يؤيده الشعر الجاهلي. ولنلاحظ - قبل ذلك ما يلي-: إن يشوع يسجل في قائمة أخرى لمنازل سبط يهوذه اسم سلسلة جبال هنوم. وهذا يعني أن القبيلة اليمنية التي تنتسب إلى بني إسرائيل أقامت في سراة عذر وهنوم. إليكم وصف الهمداني (صفة: ١٢٧):

> **سراة عذر وهنوم، وظاهر بلد الجواشة من الفائس- (الفائش: المحقق) فائش بكيل، فبلد الشاكريين من أهل الدرب، ونوده، والحفر من أعلى عصمان فمنقل سفران (....) ثم يتصل بها سراة خولان.**

ثم يضيف (صفة: ١٣٤) ما يلي:

> **فبلد عذر وهنوم (....) وبلد الجواشة (....) ويلقاه سيل الحفر (..) من أيمنه ساقين وتضراع فيه أراب.**

في هذين المُقتَطفَيْن من النص الطويل في وصف سراة عذر وهنوم - عذر وهنوم عند يشوع لدينا المنازل التالية: الجواشة- جوشن رقم: ٤٧ وفي الشعر العربي القديم يُرسم الاسم في صورة (جوشن) تماماً كما في العبرية، وأراب -أراب والحفر-حفرون وعصمان-عُصم رقم ٢١ فضلاً عن منازل الشاكريين- اليسكريين، وقرية سفران- بنون لاحقة -سفر، وهذا اسم قديم لوادي دبرة كما يقول يشوع. كما نلاحظ وجود اسم القبيلة التي تنسبها التوراة إلى بطون عيصو ءليفاز[١]- ءليفاس وهي عند الهمداني الفائس- الفائز في صيغة موازية. والفائس بطون من قبيلة بكيل تقيم في هذا المكان الذي نشاهد فيه أسماء منازل يهوذه. وسوف يتكرر في هذا الكتاب الحديث عن سراة عذر وهنوم، نظراً لارتباط الكثير من منازل الأسباط بها. ولكن لنلاحظ المعنى الذي ينطوي عليه وجود اسم الفائس في هذا المكان؛ فهو يحيلنا إلى اسم ءليفاز التوراتي- بنطق السين زاياً- وهما معا اسمان أُطلقا - ويا للمُصادفة- على جماعة قبلية لم يُعثر لها على أثر في فلسطين؛ بينما نعلم من الهمداني أنها من بطون قبيلة بكيل اليمنية الكبرى، التي كفَّت عن الوجود أو تبلورت في إطار تجمع آخر هو بكيل. قال حسّان بن ثابت:

عفَتْ ذات الأصابع فالجواءُ ... إلى عذراء منزلها خُلاءُ

ديار بني الحسحاس قفرٌ ... تَعفّيها الروامس والسماءُ

. يلاحظ محقق كتاب صفة جزيرة العرب العلّامة الأكوع؛ أن أهل اليمن ينطقون اسم عذر في صورة عِذر-بكسر العين- بما يقرب رسمه من الرسم العبري؛ ولكنهم يقومون مع ذلك، بنطق الاسم في صورة عُذر بالضمّ

---

(١) الزاي والسين والصاد عند سائر قبائل العرب القديمة تتبادل الوظيفة: بساق: بصاق، بزاق. ولاحظ كيف دخلت الهمزة في الرسم العربي.

(هامش صفة: ١٢٧): عُذر بضمّ العين المُهملة. والعامة تكسرها. إننا لا نعرف موضعاً بهذا الاسم لا في فلسطين التاريخية ولا في بلاد عسير التي فتش فيها كمال صليبي عن أرض التوراة؛ كما لا نعرف طريقة لنطقه مماثلة للنطق العبري ولنطق العامة في اليمن: عيدر. فإلى ماذا يشير ذلك؟ من غير أدنى شك، يكشف أسلوب نطق اسم الموضع لا عن وجوده القديم في الجغرافية اليمنية وحسب، وإنَّما كذلك عن استمرارية مذهلة في طريقة نطقه، حتى أن العامة لا تزال تغلِّبُ الكسر على الضمّ، بالرغم من تخطئة علماء اللغة لهم، كما يكشف عن ثقافة راسبة اختزنت على مر الوقت في الذاكرة الجمعية، شكلاً مُحدداً لم يكن بالإمكان تخطِّيه، حتى مع حدوث تبدلات فونوطيقية عالية في مباني الأسماء التي سجلها يشوع في نصِّه. وبذا يكون الاسم قد حافظ على وجوده وشكل نطقه في المكان نفسه. وها هنا بقية المواضع كما وصفها يشوع في القائمة -أعلاه- وعاد الهمداني إلى وصفها وهي جزء من نص طويل سوف نعود إليه مراراً (١٣٤):

ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم (..) تأخذ غربي همدان (...) فأول شعابه ذُخار وسُمع (...) وشرس فبلد عذر وهنوم ويلقى سيل الحفر وما أخذ من بلد قُدم (..) ومن أيمنه ساقين وتضراع وفيه أراب.

فهل يتعلق الأمر بمصادفة لغوية جمعت هذه المواضع قرب بعضها متجاورة، تماماً كما في نص يشوع والهمداني؟

جبل صُرَع

قلنا: إنَّ سِفر يشوع يعطي اسم موضع يدعى صرعه مرتين وفي مكانين مُختلفين. وقد أبقى المترجمون على الرسم كما هو في العبرية صرعه،

بوصفه اسماً لمكانين أو موضعين في فلسطين الخيالية (انظر قائمة سبط دان: الرقم: ١) و (يهوذه: رقم: ٧٠). هذا التكرار الذي لم يتفهمه جيداً المخيال الاستشراقي ليس ناجماً عن السهو؛ بل هو في صلب تحديد موضعين أحدهما ضُرْعَة الوادي العظيم (وهذا أقام فيه سبط دان: ضرعه بالضاد المُعجمة) والآخر جبل صُرَع - بالصاد المهملة - في سراة عذر. وهذا ما نجده بالضبط في وصف الهمداني (١٥٤):

ثم من بعد مأرب أودية لطاف إلى الجوف مشاربها من شُرفات ذي جُرَة ومن شرقيّ مخلاف خولان العالية ثم أودية الرضراض وحُرَيْب نَهْم مشاربها من جبال السر: صُرَع ومساقط بلد عِذر.

إذا ما أنعمنا التفكير في هذا الوصف الدقيق وقمنا بمقاربته مع توصيف يشوع القائل: «إن جبل صرعه يقع في الفضاء الجغرافي لموضع عذر» فسوف يكون بوسعنا رؤية سائر المنازل الواردة في القائمة: ها هنا جبل صُرَع ووادي جُرَة وجبل عِذر في الحيز الجغرافي نفسه لسلسلة جبال السر. وكنا رأينا من المُقتطفات السابقة بقية المنازل الواردة في القائمة (انظر عذر أعلاه). لقد عرف العرب القدماء جبل صُرَع هذا عندما تغنى به الشعراء الجاهليون والإسلاميون، بوصفه جبلاً عربياً من جبال اليمن في مرتفعات السر، التي تبدأ منها محجة صنعاء إلى البصرة-جنوبي العراق-؛ وهذا طريق تجاري وحربي قديم (تدلل عليه حروب البابليين والآشوريين ضد نجران وصنعاء) وقد ربط، من المنظور التاريخي بلاد اليمن بالعراق بأوثق الروابط. وفي عصر الحملات الآشورية ضد القبائل المتمردة على الإمبراطورية العراقية القديمة في الجزيرة العربية واليمن؛ وقع ما يعرف في المصادر التاريخية والتوراة بالسبي البابلي. هذا الطريق (المحجّة إلى العراق) هو الذي قاد الآشوريين من قبل كما قاد يشوع والهمداني نحو

جبل صُرع. (انظر الجزء الثالث من الكتاب والخاص بالسبي البابلي). يقول الهمداني ما يلي (صفة: ٢١٥) في صف الطريق محدداً موقع صُرَع على الخريطة:

> ومن الجبال المعروفة: ذباب-بفتح الذال-وصُرَع وسامك والفلكة وأذيْر والسر مبتدأ المحجَّة من صنعاء. ووادي سعوان وهو وادٍ يكاد يَسْنُتْ سنين متوالية، ثم إذا أقبل أتى بثمر كثير وذكره قدماء حِمْيَر (...) ووادي عاشر (..) ومن أقصاه الحجلة.

ومن غير شك؛ فإن وجود صُرَع قرب جبل أذير-ءدر عند يشوع (من منازل أسباط غربي اليردن) وعند مساقط بلد عِذر وحُرَيْب- حريب في قصص سِفر التكوين المرتبطة بموسى، ثم قرب وادي حجلة (حجلة رقم: ١١ في سبط بن يامن) في الطرف الأقصى من الطريق إلى الغرب؛ يدعم ويوطد فكرة وجود منازل متجاورة للأسباط في هذه الوديان وليس في فلسطين، التي لا تعرف أي اسم منها. مثلما يُعزز الفكرة المُسْتَخْلصَة عن هذا النط الاستيطاني (الذي لا يشبه نمط الاستيطان المتخيَّل في الدراسات الآثارية والاستشراقية عن فلسطين التوراة). يستمد هذا النمط مقوماته التقليدية من وجود أشكال حميمة من التجاور على أساس وحدة سكنية إيكولوجية أعم، لا يلعب فيها الانتساب المباشر إلى القبيلة الواحدة أي دور تقريباً، وهذا ما يتناقض كلية مع الصورة الاستعمارية التي اسْتَنبَطتها القراءة الاستشراقية عن أشكال الاستيطان القديمة. لقد تجسَّدت هذه الصورة وانعكست، في إنشاء مستوطنات مُغلقة وعدوانية فاقم من عدوانيتها، الشعور الحاد بالعُزلة عن (آخرين) ينتسبون إلى (أسباط) هي بدورها أسباط مُتخيَّلة، تتراقص أطياف صراعاتها وتناحراتها في ماضٍ هو الآخر، من صنع الخيال الغربي. إننا لانعرف جبل صُرع في

فلسطين قرب عذر، ولكن شعراء العرب القدامى عرفوا الجبل في سراة اليمن. قال ابن مقبل[١] وهو يتحدث عن القاع (قاع اليهود اليمنيين في صنعاء - انظر ما كتبناه عن رحلة الرحّالة السوري مؤيد نزيه العظم في الجزء الأول من الكتاب):

قالت سُليمى ببطن القاع من سُرَعٍ[٢] لا خير في العيش بعد الشيب والكبرِ

بطن سُرَع-بطن صُرَع هذا، والذي (يَسْنتُ سنيناً متوالية فتجف مياهه الغزيرة ثم تتفجر بعد الموات فينتشر الخصب) يبدو في هيئة نموذجية في رمزيتها ومن حيث مماثلتها لصورة البطل الأسطوري تموز أو أيزيروس (وحتى لصورة يوسف الذي يخرج حياً من الموت في البئر) فهو يموت ثم ينبعث حياً من أعماق الأرض. إنه الموضع نفسه الذي وصفه الهمداني والوادي نفسه أيضاً، في وصف يشوع. ولنلاحظ ما يلي: إن يشوع يصف الوادي بكلمة (ءسنة). في حين أن ابن مقبل (على جري عادات العرب الصوتية) يميل إلى استخدام حرف السين الخفيفة بديلاً من الصاد في نطق اسم الجبل، وهذا أمر مألوف عند القبائل وأجازه القدماء في الرواية الشعرية. (قارن مع حرف السامك العبري: حرف بين السين والصاد، وقارن مع اسم الجبل المجاور لصرع: جبل سامك في نص الهمداني أعلاه). إننا نستخلص من هاتين الملاحظتين بعض الأفكار الهامة والضرورية منها، أن للاسم (ءسنة) صلة بجفاف مياه الوادي أو ركودها وانقطاعها. ويمكننا أن نقارب بين الكلمتين العربيتين (آسن، ويسنت).

---

(١) تميم ابن أبي مقبل من بني عامر بن صعصعة، شاعر مُخضرم - انظر طبقات ابن سلام، ومعجم البكري: ٧٣٥.

(٢) كما في قول شعراء الجاهلية في جبل بُصاق: بُساق وهذا مشهود في العربية وفي لهجات القبائل حتى اليوم (وفي العامية في معظم البلدان العربية اليوم: بساق وبزاق في بصاق).

كما نستخلص فكرة أخرى عن الطريقة التي نطق فيها قدماء العرب اسم الجبل ذاته صُرِع، وقديماً نسبت المصادر الإخبارية الإسلامية إلى مُتمِّم بن نويرة، قوله في عتاب مرير للخليفة عمر بن الخطاب، بعد مصرع شقيقه مالك بن نويره على يد خالد بن الوليد(١):

سأستعدي على الفاروق رَبّاً   له عُمَد الحجيج إلى بُساقِ

والشاعر أراد بُصاق-بصقه وهو جبل آخر ورد ذكره عند يشوع فخفف الصاد الثقيلة إلى سين (وانظر ياقوت: ٥: ٣١، ٣٩٠، ٥١٠). والآن: إذا كان وادي (ءسنة-ءسنت) قرب جبل صرعه عند يشوع؛ فإن وادي أُسن (الذي ذكره النابغة الجعدي) في شعره يقع في المكان نفسه على الطريق إلى وادي حنانات. قال النابغة الجعدي (معجم: ١١٤٠):

لِمَنْ الدارُ كأنْضاء الخلل   عَهدُها من حقب العيش الأزل

بمغاميدَ فأعلى أسَنْ   فحناناتٍ فأوْقٍ فالجبل

في الواقع احتار الجغرافيون المسلمون في أسْن هذا حتى ظنوا أنه جبل من جبال نجران؛ لكن الرابط الوثيق الذي يجمع بين شطر القصيدة وعجزها (حقب العيش الأزل) حيث يصف الشاعر منازل قبيلته جعدة، وبين الوادي أُسن، هو الذي يبدد وهم تخيُّله كجبل من جبال نجران. وذلك لأن قبيلة جعدة أقامت قديماً في جبل دُباس-دباشت وفي وادي ضُرعه-صرعه وفي جبل سامع-سامع، كما أقامت في جبل شمير-شمير. وهذا ما تؤكده أشعار النابغة الجعديّ. قال ابن مقبل واصفاً وادي أُسُن في المكان نفسه (القاع - قاع اليهود):

زارتكَ دَهْماء وهْناً بعدما هجعتْ   عنك العيون ببطن القاع من أُسُن

(١) كما نُسبَ البيت إلى شاعر آخر.

إن الرابطة اللغوية التي تجمع الوادي ءسنت (برسم التاء مفتوحة كما في نقوش المسند الحميرية) قابلة لأن تُضاهى برابطة موازية يلعب فيها التوصيف الجغرافي دوراً حاسماً؛ فالصورة التي يرسمها الهمداني للوادي مُستخدماً الكلمة العربية (يسْنت) تشير إلى وادٍ يتعرض إلى جفاف متواصل قبل أن تعاود المياه تدفقها من جديد. وفي هذا الإطار ثمة صلة حميمة بين كلمة أُسن وكلمة آسن بمعنى راكد.

عن ديمونه التوراتية

قال امرؤ القيس (الديوان):

كأنّي لم ألهو يوماً بدمُّون مرةً   ولم أشهدِ الغارات يوماً بعندلِ

يُرسم اسم ديمون في العبرية في صورة ديمونه[1] والضبط العربي الصحيح: دمون وذلك استناداً إلى الشعر الجاهلي وكتاب الهمداني. إن أحداً لا يعرف مكاناً، جبلاً كان أم وادياً، يُدعى دمون أو ديمونه في فلسطين التاريخية أو بلاد عسير. ولاوجود- بالطبع- لمرتفع أو مياه جارية في بلاد الشآم يحمل هذا الاسم، أو يتضمن أي صيغة منه. إن المكان الوحيد الذي عُرف بكونه من منازل القبائل العربية القديمة، ويُدعى ديمون كما في الرسم العبري، هو الموضع الوارد في شعر امرئ القيس. أما الاسم ديمونه[2] فهو اسم أُطلق حديثاً على مكان في فلسطين المغتصبة، ولكنه ليس دَالاً على مكان أو موضع وجد -ذات يوم- في فلسطين القديمة. وبخلاف هذا؛ فإننا نعثر في جغرافية اليمن كما وصفها الشعر الجاهلي والهمداني، على المكان نفسه مرتبطاً ببني المُرار-بني مرر

(١) مثل بيشه في بيش كما عند الهمداني.

(٢) واليوم يطلق على المفاعل النووي الإسرائيلي اسم (مفاعل ديمونه).

عند يشوع[١] وفي نصوص التوراة. إن وجود الموضع والقبيلة القاطنة فيه سوف يحسم كل نقاش. هاكم توصيفات الهمداني (صفة: ١٦٧-١٦٨) والتي يحدد فيها اسم المكان كما رسمته نصوص التوراة ارتباطاً باسم القبيلة (بني المُرار):

وَعنْدل وَخوْدن وهدون ودُمون: مدن (للصدف قبيلة من قبائل اليمن) بحضرموت. ثم الهجران وهما مدينتان في رأس جبل حصين (....) ودُمون (.....) وساكن دمُون بنو الحارث الملك بن عمرو بن حجر آكل المُرار (......)وبلد كندة مرتفع كأنه سراة وتصب أوديته في حضرموت (........) ثم حورة (..) والقارة.

إن تلازم ظهور اسم دمونه-دمون في التوراة، مع اسم بني مرر- بني المرار لا يمكن مُضاهاته إلا بالنص الآنف للهمداني: هنا دُمون وهنا القبيلة التي أقامت فيها. ولنلاحظ أن امرأ القيس وهو حفيد ملك يدعى آكل المُرار كما في شجرة أنسابه، كان يُقيم في المكان نفسه، وقد تغنّى في شعره بهذا الموضع بوصفه مرتعاً من مراتع لهوه وصباه وساحة من ساحات معاركه. كما أن المكان نفسه ارتبط عند رواة الأخبار القدماء بمصرع والده الملك حجر إثر تمرد قبلي قادته قبائل أسد- أزد. إن أحداً لا يعرف، في فلسطين التاريخية، جبلاً أو مدينة قديمة تحمل اسم ديمونه، كان آل المُرار سكانها وملوكها؟ بينما نستطيع رؤية المكان والقبيلة في سراة حِمْيَر إلى الجنوب؛ وفي الفضاء الجغرافي ليافع-يافع عند يشوع (انظر سبط زبولن رقم: ٦) وقرب وادي ضُرعة- صُرعه (انظر: سبط دان، رقم: ١) ووادي حَضَر-حصر (انظره في سبط أشير) وسواها

(١) ما يدعم هذا التحليل أن امرأ القيس يدعى امرأ القيس بن حجر آكل المرار وهو من بني مرار ملوك كندة.

من المنازل القبلية. مثل هذا التوافق في النصوص التوراتية والعربية والشعر الجاهلي والمرويات القديمة، لا يمكن أن يصدر عرضياً عن تلاقٍ لغوي محض ولا عن مجرد مُصادفة جغرافية جمعت اسم القبيلة مع اسم المكان؛ بل عن إنشاء وصفي مُنمَّق أسهم فيه يشوع ومن بعده الشعر العربي القديم ثم جاء الهمداني ليضيف إليه وصفاً ميدانياً. قال امرؤ القيس في وصف دُمون في قصيدة ضائعة وصلتنا بقاياها[١]:

تـــطـــاول الـــلـــيـــلُ دُمـــون

دُمـــون إنّـــا مـــعـــشـــرٌ يـــمـــانـــون

وإنّـــا لأهـــلـــك مُـــحـــبـــون

تُخفي هذه المقاطع التي نجت من التلف والضياع والنسيان (من قصيدة طويلة ضائعة) بناء شعرياً، لم يكد يتوقف عنده دارسو الشعر الجاهلي؛ إذْ هي تتضمن شكلاً لا يعتمده الشعر العمودي التقليدي. ولشدّ ما تبدو المُفارقة مُحزنة في النقاش الدائر حول الشعر الحديث في الثقافة العربية المعاصرة، وذلك حين يعتقد عشاق الموجة الحديثة أن قصائدهم الحداثوية تنتسب إلى تراث الغرب الشعري، فيما البضاعة رُدَّت إلينا في الواقع، لأن الشكل الحديث للقصيدة عربي الأصل والجذور. ويبدو من سلسلة -من الشواهد الشعرية- أن العرب القدماء كانوا يكتبون أشعارهم، قبل اكتشاف الشكل العمودي، بأسلوب هو الأقرب إلى الشكل الحديث اليوم. ولكن، إذا ما وضعنا الشكل الآنف في سياق أشعار التوراة، إرميا وأشعيا - مثلاً؛ فإن هذا البناء الشعري

---

(١) يستحق هذا الشكل الشعري القديم وقفة تأمل من نقاد الشعر العربي من أجل إيجاد مقاربة تاريخية بين شكل القصيدة الجاهلية (الحقيقي، الأول، الطفولي) في التوراة وبين شكل قصيدة امرئ القيس هذه.

سيبدو استطراداً في شكل منسي للقصيدة العربية الكلاسيكية، أي سيبدو استطراداً في الطفولة البعيدة للشعر العمودي. بقي أن نتذكر أن شاول مؤسس الملكية في إسرائيل التوراتية يُدعى: شاول بن قيس وهو من سبط بن يامن. في هذا الإطار يشير الهمداني إلى ما يلي: إن دُمون هي من مدن قبيلة الصدف؛ وهؤلاء من البدو الرُّحل الذين أقاموا في منزل شهير من منازل اليمن يُدعى صيعر-صيعر (في قائمة منازل يهوذه رقم ٥٥). تكمن أهمية هذه الإشارة هنا: أن صيعر اليوم تُدعى رِيَدْة صيعر، وهي من أعمال مخلاف ذي السفال، وهذا ما يتوافق كل التوافق مع نص يشوع. وكنا رأينا قوله (النص العبري: وب- سفل- صرعه) والتي تُرجمت إلى (وفي السهل صرعه) بينما انصبَّ اعتراضنا على أن المقصود بجملة (ب- سفل) إنما هو (في السفل). يعني هذا أن دُمون هي -وتماماً- كما وصفها يشوع، تقع في الفضاء الجغرافي نفسه لأن حضرموت - لمن يعرف جغرافية اليمن- هي الجزء الأصغر في مكونات هذه الجغرافية، والذي يتصل اتصالاً وثيقاً بسرو حِمْيَر حيث يقع جبل العر (عر- أو عرعده) ويافع ووادي عُمق ووادي ضُرعه. وما بين حضرموت ومحافظة بيحان - اليوم- يقع جبل الملح (عير- ها- ملح رقم ٦٦). ومن غير شك؛ فإن وجود كل هذه المواضع التوراتية وبالأسماء ذاتها، دون أدنى تدخل منا، يؤكد على الحقيقة التالية: إن تلفيق فلسطين التوراتية لاسند له لا في الأدلة اللغوية الاستشراقية، ولا في الوصف الجغرافي المتخيّل لفلسطين، إذْ ليس ثمة دمونه ولا صيعر ولا يافع، كما لا وجود لمئات من الأسماء الأخرى الواردة في التوراة والتي سنقوم بوضعها بين أيدي القراء.

عُرعده

قبل تحديد هذا الموضع في سرو حِمْيَر المُتصل بحضرموت- حضرموت في أنساب سِفر التكوين (التوراة) حيث دُمون، لابد من تسجيل بعض الملاحظات الضرورية لإزالة سوء الفهم السائد في أوساط بعض الباحثين العرب(١) حول المعنى الذي ينطوي عليه هذا التركيب المألوف في اللغة العربية القديمة؛ ولكن غير المألوف في عربيةِ اليوم. فُهِمَ الاسم عر-عده على أساس وجود احتمال قوي بتعرضه لتصحيف أو تشويه محدودين، أدى إلى تغيّرٍ في بعض الحروف وشكل رسمها، ونجم عن ذلك في نهاية المطاف؛ انقلاب الاسم من عرعره إلى عرعده. وكان هذا هو اقتراح أحد الكتاب استناداً إلى بعض علماء التوراة(٢)؛ ولذلك وحسب زعم هذا الكاتب، يتوجب قراءة الاسم في صورة عرعره بدعوى تشابه حرفي الدال والراء في العبرية. من الناحية الشكلية هناك بالفعل، مثل هذا الاحتمال؛ لأن حرف الدال متماثل في الرسم مع حرف الراء وقد يصعب التمييز بينهما. بيد أن الاقتراح -من الناحية العملية- لا يقدم مساهمة بنّاءة وجذرية أو ذات قيمة علمية في حل معضلة الاسم، الذي لا وجود له في فلسطين أو بلاد عسير. أما كمال صليبي؛ فإنه آثر إهمال الاسم كلياً ولم يجد دليلاً واحداً يقوده إلى بلاد عسير، مع أن كلمة (عد) كثيرة التواتر في نصوص التوراة (عد لام- مثلاً). يتألف الاسم عُرعد؛ وهذا هو الرسم الصحيح بإسقاط الهاء الأخيرة الصوتية والزائدة، مثل بيشه في بيش- من كلمتين: عر وعد. وكنا رأينا من امثلة سابقة، أن القبائل العربية استخدمت الكلمة في وصف المياه الغزيرة الجارية وغير

---

(١) انظر مثلاً (منى: جغرافية الجذور: الريس للنشر: ١٩٩٤) حيث يتوهم الكاتب أن عر/ عده مكان في عسير.

(٢) المصدر أعلاه.

المُنقطعة؛ بينما تعني (عر): الشق من الجبل المنيف، المرتفع كثير الشِّعاب، والكلمة -هنا- موظفة لغرض التوصيف. ولكنها في الآن ذاته، تُطلق كاسم على مكان في يافع غير بعيد عن دُمون هو جبل العر.

وبذا يكون المقصود من التركيب اللغوي: العر غزير المياه. وهذا هو المعنى الحقيقي للكلمة العبرية. إليكم وصف الهمداني لجبل العر في سرو حِمْيَر (صفة: ١٧٢):

> **سرو حِمْيَر وأوديته وساكنه: العُر وثمر (......) فالعرّ لأذان من يافع، وثمر للذراحن من يافع (....) ومن الأودية: الضّباب ووادي حضر الذي فيه محجّة عدن إلى صنعاء (..) ووادي عُمق (...) ووادي ضُرعة، تصب هذه الأودية إلى أبْيَن.**

ها هنا وقربَ جبل العُر سلسلة من المنازل التي أقام فيها الأسباط مثل: يافع[١]، ووادي حضر، ووادي ضُرعة، فضلاً عن عُمق. وإذا ما تتبعنا وصف الهمداني للسراة المُمتَدة حتى عدن؛ فإننا سنجد موضعاً آخر يحمل اسم عُر هو: عُر عدن. وفي هذا الامتداد الجغرافي لجبل العُر في محافظة عدن وضمن سراة عذر ذاتها (صفة: ١٢٥) سنجد سلسلة من المياه الغزيرة القادمة من أودية شرس -سرس عند يشوع وظلمه- طلم عند يشوع- العبرية لا تعرف حرف الظاء وتستعيض عنه بالطاء[٢] - كما نجدُ وادي أذرَنْ- ء دره. لكل ذلك سمّى يشوع المكان عُر عده قاصداً به على

---

(١) ورد اسم يافع كاسم لأسرة حاكمة (أسرة يفع) كما أشير إليهم (كقبيلة) في نقوش المسند وقد حكموا في مملكة معين وبرسم اسمهم - كما في التوراة - (يفع).

(٢) كما أشرنا من قبل فبعض القبائل البائدة مثل ثمود ولحيان وسواهما لم تكن تعرف حرف الظاء.

وجه التحديد جبل العُر هذا المُحاط بمياه (عد) أي غزيرة، وهو كما رأينا يمتد من عدن حتى يافع (في المحافظة الثالثة من جنوب اليمن):

والحتر ومَشْور والظلمه والعُر وجبل التخلي وقيلاب ونمل وشرس وأرض أدرن وحجة وعيان والمُعيل.

في هذا النص الدقيق والمُكثف يعطينا الهمداني أسماء سلسلة أخرى،من المواضع الواردة في نص يشوع مثل وادي عين-عيان وظلمه-طلم (رقم ٩) وشرس- سرس، وكلها عند يشوع تقع في فضاء جغرافي واحد قرب عرعده. ولأن جبل العُر هذا يقع عند يشوع في سراة عِذر (وعند الهمداني هي سراة عِذر-وهَنْوم) فهذا يعني أنه قرب سلسلة من المواضع تحمل كلمة (عد) بمعنى المياه الغزيرة. مثل هذا التوافق المثير لا يمكن أن يُفهم إلّا في إطار وجود جغرافية واحدة وصفها يشوع والهمداني على حد سواء. إليكم وصف الهمداني للفضاء الجغرافي لجبل العُر حيث المياه العدّ (صفة: ١٢٨-١٢٩):

ثم يتصل بها سراة خولان ويُسمى القد؛ فأولها من ظاهرها بلد أبلدر لبني عوير (.....) فالهلة وعدبوه[١] (...) فالعُر.

ها هنا الجبل العُر (أي الشق العالي المنيف) وتلك هي مياه وادي عد، آخر دعي عد بوه (تُنطق كلمة بوه في صورة بوهن بحسب طريقة نطق

---

(١) راجع حجر بن بوهن في سبط بن يامن، ولاحظ كيف أن النص العبري يعرف النون الكلاعية في آخر الاسم: بوه- بوهن (وعند اليمنيين صنعا - صنعن). وهذا دليل لا شك فيه على أن فلسطين لا علاقة قط باسم أي مكان من الأمكنة الواردة في التوراة.

سكان مخلاف الكلاع، الذين يضيفون إلى كلامهم حرف النون). إن المغزى الحقيقي لتركيبة الاسم عرعده يكمن هنا : لأجل تمييز المقصود من جبل العُر المُمتد في سرو حِمْيَر بين عدن ويافع، وصولاً إلى تخوم حضرموت وهو سلسلة من الجبال البركانية، عُرفت في الماضي البعيد بهذا الاسم (ثم صار يُطلق عليها اسم جبل شمسان و جبل التعكر) فقد نُسِبَتْ إلى وادي عد بوه (وهذا هو ما يدعى في التوراة بوهن). قال الحميري (أخباره في الأغاني):

لي منزلان بِلحْج منزلٌ وسط منها ولي بالعُر من عدنِ

هذا هو (عر) المقصود في التوراة، وقد امتد من عدن حتى حضرموت. أما مياه (عد) التي تُستخدم صفةً لسلسلة جبال العُر المُحاطة بالأودية الغزيرة؛ فهي كما قلنا فيما سبق من صفحات: كل مياه جارية عند العرب القدماء. وقد روت المصادر التاريخية الإسلامية (انظر معجم البكري - تسهيلاً للقارئ غير المُطلع: ١٧٠) أن الرسول ﷺ أقْطعَ الأبيض بن حمَّال السبئي وهو من أقيال اليمن (ملوكها) في أثناء دخول القبائل اليمنية في الإسلام؛ جبل الملح في مأرب (وهذا الموضع عند يشوع يدعى: عير - ها- ملح). قال الحربي:

إن رجلاً من المسلمين قام في المجلس وقال للرسول ﷺ: أتدري يارسول الله ما أقطعْتَه؟ إنمّا أقْطَعتَهُ الماء العدّ. فأعاده الأبيض بن حمال ودخل-أي الموضع- في أملاك المسلمين. قال أبوعُبيدة معمر بن المُثنى: إنما أقْطعه رسول الله ﷺ جبل الملح وهو يرى أنه أرض موات؛ فلما تبيَّنَ له أنه ماء عدّ- وهو الذي له مادة لا تنقطع مثل الآبار والعيون-أرجعه لأن سُنَّة الله ورسوله ﷺ: في الكلأ والنار والماء أن الناس جميعاً شركاء.

هذه هي دلالات الكلمة العبرية- اليمنية القديمة عدّ، والتي نعثر عليها في سلسلة من المواضع والأماكن داخل النصوص التوراتية وفي كتاب الهمداني مثل: عدبوه-بوهن وعدّ ورد - صفة جزيرة العرب- وعدّ لام وعرعده عند يشوع. هذا التماثل المدهش والمثير لايمكن أن يصدر عن توافق لغوي عرضي في النصوص، وإذا كان لمثل هذا الأمر أن يحدث فلماذا لا يحدث في جغرافية فلسطين؟ قال الوليد بن عقبة بن أبي مَعْيط:

ياليتني كُنتُ في العُرّين من عدن   يوم البُصيْرَة أو صنعاء أو الجَنَدِ

إن لصيغة العُرّين الواردة في قصيدة بن أبي مَعيط، قيمة جغرافية حقيقية فهي تشير إلى موضعين يمتد إليهما العُرّ بدءاً من عدن. قال الأخطل:

حَلَّت صُبَيْرَة أمواه العداد وقد   كانت تحلّ وأدنى دارها ثُكدُ

أمواه (مياه) العداد - صيغة الجمع من عد- هذه، لايمكن أن تكون شيئاً آخر غير مياه الوديان الغزيرة في المكان نفسه وقد وصفها الشاعر،ربما من دون أن يكون شاهدها بالضرورة، ولكنه جرياً على تقاليد قديمة راسبة قام باسترداد صورتها الأثيرة كما لو كانت مكاناً حياً وأزلياً. قال العجاج الراجز: (للعدّ إذْ خلّفها ماء الطّرقِ).

جبل حضُور ووادي تنين

الرسم العبري للاسم هو حصور ب- يتنن، وفي الترجمة العربية للتوراة حصور بتنان. لكن الضبط العربي الصحيح للجملة (وفي حضُور وفي تنين) نظراً لوجود حرف الجر العبري الذي توهّمه المترجمون حرفاً من أصل الاسم. وهذان موضعان يُدعى أحدهما حضُور والثاني تنين-يتنن- بإسقاط الياء اللاصقة مثل يعرم ويكرب ويعرب. إن قائمة يشوع لمنازل

الأسباط تضمُّ سلسلة من الأسماء التي تحمل اسم حصور- حضور، حصر- حضر؛ ويتعيّن على الدارس تمييزها بدقة بحسب تسلسل وقوعها. في الواقع لاتعرف فلسطين التاريخية مكاناً يحمل مثل هذا الاسم المركّب، وليس ثمة موضع يُدعى حصور أو حضُور يقترن بوجود موضع آخر يُدعى تبنا-مفردتبن-، كما في الترجمة العربية ولا وجود بكل يقين لموضع يُدعى حصور- يتنن حسب الرسم العبري. بيد أننا نعرف وادي حضُور العظيم أشهر أودية اليمن، ونعرف بكل يقين أيضاً موضع تنين في الجوف اليمني. هاكم وصف الهمداني لوادي حضُور الذي تمر سيوله في تنين وعذيقة- عزيقة تماماً كما وصفه يشوع (الهمداني: صفة: ٢١٦-٢١٧):

> **ووادي قروى ووادي سيان ووادي دبرة (..) ويحادها من ناحية القحف، الحدا (..) ومن أودية ذي جُرَة إلى حريب وإلى الجوف ويلاقيها سيل مغرب صنعاء من مخلاف مأذن وحضُور (..) وما يصب منها إلى مأرب وبلد بني وابش وتنين وعذيقة.**

ها هنا تنين-يتنن كما في نص يشوع تماماً، تصب فيها مياه مخلاف حضُور، ولذا نُسبت إلى المكان الذي تسكب فيه أي حضُور الذي تمر سيوله في تنين. وسوف نتوقف مُطولاً عند حضُور هذا والمواضع التي يمر فيها فَتُنْسَبُ مياهه إليها.

جبل شوك وجبل شمير ووادي وتر

يُرسم اسم شوكه الجبل والوادي في العبرية في صورة سوكه- شوكه والضبط العربي الصحيح هو شوك- بإسقاط الهاء الأخيرة بما هي حركة إعرابية في الأصل-. إن الجملة التي يُسجل فيها الاسم في العبرية تقول ما يلي:

وب-هر- شمير-ويتر-وسوكه
الترجمة السائدة: وفي الجبل: شمير ويتر وسوكه

ولأنَّ الأسماء هنا أسماء جبال؛ فإنه لمن غير المنطقي قول مثل هذه الجملة في اللغة العربية: وفي الجبل جبل شمير؟ ولذلك يتعين ضبط الجملة على النحو التالي: (وفي السرو جبل شمير ويتر وشوك) أي بمكافأة كلمة هر (العبرية) بكلمة سرو العربية، التي تعني سلسلة جبال وبذلك يستقيم فهم الجمل (ب- هر- شمير: في السرو جبل شمير، وليس في الجبل جبل شمير). مثل هذا التوضيح ضروري لأجل بناء تصوُّر جغرافي ولغوي صحيح عن المُعطى الجوهري للوصف في النص؛ أي وصف الحيِّز الذي أقام فيه أكبر الأسباط الإسرائيلية، فهو أقام في السرو حيث سلسلة الجبال ومنها جبل شمير ويتر وشوك. في وصفه لبلد الركب-ركبوت وأرض شرعب حيث تلتقي الوديان في مخلاف المعافر وأرض بني مجيد-مجدو لتصب مياهها في البحر، يسجل الهمداني اسم جبل شمير-شمير في السرو (وهو أكثر من ثلاثة جبال متلاصقة) تماماً كما حدده يشوع (صفة: ١٣٩-١٤١):

وأرض شرعب ومن بلد الركب جبال شمير (....) ومآتي الشقاق من جوار المعافر في وطن حيس وبين أرض بني مجيد حتى تخالط البحر (...) ثم وادي نخلة (...) وجبل الصَّيرة وكل هذه جنوب وادي نخلة ومن شماليها جبل دُمت وحميم، وعذاق (..) فجبال معبر، فدبَّاس (...) ثم وادي زبيد وما بين بني مجيد وأبْيَنْ من الأودية المُنتهية ذات الجنوب إلى حيز عدن.

هذا هو الحيز الجغرافي الذي أقام فيه سبط يهوذه، وفيه سائر الأسماء التي سجلها يشوع ضمن النَّص: ها هنا جبال شمير- شمير، في

سلسلة جبال الركب (أي في السرو-سراة حمير) وها هنا جبل دُمت- دمة (رقم ٥١) فضلاً عن جبل الصّيرة-صير من منازل نفتلي (رقم ٦). وهي جميعاً في الفضاء الجغرافي ذاته لحيز عدن إلى الجنوب من وادي نخلة، وإلى الشمال منه أيضاً أي على مقربة من جبل العر ووادي عدّ. ولنلاحظ هنا أمراً هاماً للغاية: إن الهمداني على غرار يشوع، يجعل من هذه المواضع وحسب تسلسلها في القائمة، امتداداً جغرافياً واحداً يوصل السائر إلى جبل قدس- قدش؟ وهذا أمر يستحيل حدوثه في نطاق المصادفة اللغوية، فليس ثمة من جبلٍ يدعى قدس في فلسطين قرب سلسلة صغيرة من الجبال تدعى شمير، أو على مقربة من جبل يدعى دُمت أو قرب جبل دُبّاس- دباشت. مثل هذه القدس لا نعرفها في فلسطين قط، وليس لها وجود في أي بقعة جغرافية موازية؛ بل لن نتمكن من رؤيتها مهما سعينا وراء ذلك، بينما نستطيع الوصول إلى جبل قدس (قدش) إذا ما سرنا خلف يشوع والهمداني واجتزنا السراة، متجهين صوب تعز جنوباً بنحو ثمانين كيلومتراً قاصدين سلسلة جبال ذات السريح[1]. في هذه السلسلة الجبلية سنرى قدس المعافر اليمنية، وهو جبل مبارك إلى الجنوب من تعز.

إن جبل قدس هذا الذي تخيّلته القراءة الاستشراقية على أنه مدينة القدس في فلسطين، لا يحمل من عناصر التماثل معها سوى التطابق الشكلي في الاسم، أما وصف المكان كما في نص يشوع فإنه يتناقض كلية مع منطوق النصوص التوراتية، لأن قدس التوراة وإنْ كانت تقع قرب وادي وجبل حضور (بينما تقع القدس الفلسطينية قرب تل صغير يدعى حاصور) فإنها ليست قرب جبال شمير بكل تأكيد؟ إن الالتزام بتحديدات

(١) وتدعى اليوم جبال الصَّريح - بالصاد. ولاحظ تحوُّل السين إلى صاد في نطق أهل اليمن.

القراءة الاستشراقية للمواضع المُتَخيَّلة في فلسطين، يقود إلى الفوضى إذا ما جرى التقيُّد بها على أنها تحديدات جغرافية صارمة للأماكن في فلسطين الحقيقية؛ فيما على الضد من ذلك، تقودنا تحديدات يشوع والهمداني والشعر الجاهلي إلى الأماكن نفسها في أرض اليمن دون عناء أو تكلف. وسوف نرى تالياً قدساً أخرى، توراتية قرب وادي الرمه، ذكرها يشوع والهمداني والشعر الجاهلي؟ وإذا ما تتبَّعنا وصف الهمداني الآنف (صفة: ١٤٧) فسوف نشاهد جبال شمير ضمن سلسلة جبلية (السرو) تماماً كما وصفها يشوع. هاكم وصف الهمداني:

> **جبال السَّكاسك وجبل السودان من ظهر أديم جبال الإشعوب: الصّلو الجامع لهم بعد ذلك سامع، جبل صَبْر للحواشب وجبال الركب، ذُخار وشمير ودُبَّاس.**

هذه هي جبال شمير في السلسلة الجبلية (في العبرية: ب-هر) وهي ليست جبلاً داخل جبل كما يقول النص المُترجم. والآن: هل يمكننا حقاً، الوصول إلى جبل شوك الذي يقع في آخر هذه السلسلة الجبلية من جهة بلد وادعة النجدية ونجران؟ إن أحداً لايمكنه الوصول في فلسطين التاريخية إلى جبل شوك أو سكا إذا ما اجتاز جبال شمير لسبب بسيط للغاية، هو أن هذه الجبال لا وجود لها في الخريطة الفلسطينية؟ ومع ذلك، وبافتراض قبولنا للتحديدات العشوائية في القراءة الاستشراقية للأماكن، وبافتراض صحة هذه التحديدات كذلك؛ فإن عبور هذه السلسلة الجبلية في فلسطين، لن يقودنا إلى جبل شوك أو سكا، لأن هذا الجبل لا وجود له هو الآخر. على الضد من ذلك، نستطيع بلوغ جبل شوك هذا، إذا ما تتبَّعنا خطا يشوع والهمداني في السلسلة الجبلية ذاتها، ثم عبرنا بلد الحواشب صوب بلد وادعة المُتاخم لعذر وهنْوم وظليمه

(عذر وهنوم وظلم عند يشوع). إليكم وصف الهمداني للمكان (صفة: ٢٢٣-٢٢٥):

بلد وادعة مما يُصالي[1] عذر وهنوم والظليمه (...) وأدران وشرس. مخلاف صَعدة. أما حقل صَعْدَة فإنه مُختزل من بلد همدان (...) وأودية صَعْدة دمّاج وعليه أعناب (......) بلد وادعة النجدية بقعة (..) ووادي عرد وأعلى وادي نجران فإلى جبل شوك.

هذا هو الفضاء الجغرافي الذي يجمع شمير وعذر وهنوم وءدره - أدرن وشرس وظلمه- ظلم وشوك بعضها إلى بعض، وعلى نحو يستحيل العثور على ما يماثله في الخريطة الفلسطينية القديمة. وشوك هذا الذي تجري مياهه في المكان نفسه يُعرف باسم وادي شوكان أيضاً، إذ يمرُّ بموضع دلعان-دلعان (رقم: ٣٢) وكتاف- كتاف (في سبط بن يامن رقم ٣٣) وءنحرت - نحرد (في سبط يسكر رقم ٩). إن الهمداني لا يُقيم أدنى تمييز بين شوك وشوكان ويُعاملهما على أنهما جبل ووادٍ في أعلى نجران ذاتها (صفة: ١٦٣ -١٦٤):

فنسرين فصَعْدَة، حتى يضام سيل دمّاج (....) فسيل جدرة (...) ولقيها بالفقارة سيل كتاف بأسفل الحربا من وادي نحرد وبلد سابقة من وادعة (....) ويسنم ودلعان، فيجتمع كل هذه المياه بين جبلين (ما يُسمى اليوم بالمضيق- المحقق) ويتقدم في شوكان من أعلى وادي نجران (......) وغيره من بلاد وادعة وبلد يام وزبيد.

في هذا النَّص يعطي الهمداني تحديداً دقيقاً لطائفة من المنازل القبلية

(١) يُجاور، يقترب، يُحاذي.

القديمة الواردة في نص يشوع، مثل دلعان- دلعان ويسنم-سنم وسواها؛ وهو أمر لا يمكن الحصول على ما يماثله في تحديدات القراءة الاستشراقية للسرو حيث جبال شمير وقدس وجبل شوك. وبذا يتضح تماماً أن مقاصد الجملة التوراتية (وفي السرو شمير ويتير وشوك) إنما هو: الإشارة إلى وجود هذه الجبال والوديان، في فضاء جغرافي واحد ومتكامل يعرف سلسلة من المرتفعات، وليس جبلاً واحداً. أما جبل يتير حسب الرسم الذي تعرضه علينا الترجمة السائدة فليس سوى وادي وتر. (والعرب تحوّل الياء واواً). إننا لا نعرف وادي شوك قرب يتر- وتر في فلسطين، كما لا وجود لفضاء جغرافي واحد يجمعهما في السرو، مع جبال شمير (حسب توصيفات يشوع في التوراة) ولكننا نعرف هذه الأمكنة متجاورة تماماً، وفي السرو نفسه الذي يصفه الهمداني (صفة: ٢١٨):

> ثم الجوف الأعلى (..) والسفل (..) وفجّ المولدة، فالوتران فالحجر فبلد شاكر وجدرة وكتاف وحلف.

ها هنا وادي وتر-وتران (في التثنية) في الفضاء الجغرافي نفسه لفج المولد وكتاف وحلف تماماً كما في نصّ يشوع. قال عُبيد بن الأبرص (البحر الطويل- الديوان):

عن الوتر حتى أحرزَ الوتر أهلهُ   وأنتَ تبكي إثره مُتهالكا

وذكره الأعشى في قصيدة شهيرة (صفة: ٢٥١):

قالوا نُمارٌ فبطن الخال جادهُما   فالعسجديّة فالإبلاء فالرّجُلُ

فالسفحُ يجري فخنزيرٌ فبرقتهُ   حتى تتابع فيه الوترُ والحبلُ

يظهر وادي وتر كفرع من فروع الوادي الكبير الثالث في خولان،

قرب وادي أسَل (ءست ل) والفتول. وهنا وصف الهمداني لشوكان ووتران (صفة: ١٦٠-١٦٤) حيث كتاف وحظيرة حوشم -حشمون عند يشوع: حلف والبطنات وأفق وسيل جدرة وهي منازل يهوذه وبقية الأسباط:

ووتران وأسل والفتول فحظيرة حوشم ثم حلف وكل هذه الأعراض من بلد شاكر (..) فأما الشعبة اليمانية فإنها من شمالي وتران وغربيّ بلد شاكر فسيل جدرة (..) ولقيها بالفقارة سيل كتاف (..) ودلعان ثم يتقدم في شوكان.

وجود وادي شوك -شوكان قرب وتران- وتر؛ في الحيّز الجغرافي نفسه للمنازل والأودية والجبال الوارد ذكرها في قائمة يشوع، لا يمكن ردّه إلى عامل المصادفة اللغوية. ها هنا وادي وتر قرب شوك وغير بعيد عن شمير حيث شعبته الشمالية تلتقي سيل جدرة-جدرة. بقي أن نشير إلى أن علماء الآثار اكتشفوا آثاراً عظيمة في وادي شوكان بعضها يعود إلى الدور الحميري الأول من الدولة اليمنية القديمة.

زوف

يرسم هذا الاسم عند يشوع في صورة (زيف). ولكنه في ضبط الهمداني زوف (بتحويل الياء واواً). وحسب تسلسل المنازل؛ فإن أرض زوف تقع قرب جبل طلم. إن أحداً لا يعرف أرضاً في فلسطين تُدعى أرض زوف (عند يشوع وفي التوراة: برية زيف وفي العبرية دون تصويت زف). بيد أن الهمداني يصف لنا وصفاً مُسهباً المنازل القبلية في أرض زوف من سرو مَذْحج (ما يُعرف اليوم بمحافظة البيضاء) ويحدِّدها كمنازل قبلية في الجوف اليمني (١٧٧-١٨٠):

دثينة أولها عرّان (.....) يُرى وادٍ كبير لبني شكل[1]. (ثم) الدّبيّة لبني الحماس. (أما) الطرق التي تختلط بين السّرْوين وأبْيَنْ وردمان: فأول بلاد مَذْحج بعد أن تخرج من ذمار متوجهاً نحو المشرق بقدر فرسخين (فهي) أرض عنس (..) وأسفل من ذلك الأودية إلى تنين وما والاها: قائفة والمعافر (..) أما كومان فعدادهم في زوف.

ويضيف الهمداني إلى هذا التوصيف (١٨٣) ما يلي:

ولبني سلمة من زوف عماد الزوفيين وهم أبيات: بنو مالك ويُقال أن أصلهم من زبيد: حَرَم، وأدمه وعفار لصنابح وهم من زوف ذات القوة وسلم (..) ومرس. ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد وذو كزان لبني حبيش وهم في وسط أرض زوف في الميمنة وما والاها من البلاد إلى حدود يافع.

في هذين النصين هناك مجموعة من المنازل القبلية المذكورة في قائمة يشوع؛ إذْ فضلاً عن شوكان الوادي، هناك منازل قبيلة الحماس وهم عند يشوع (لحماس- انظر القائمة) ووادي يُرْى -يرءون وتنين- انظر تنين أعلاه، وحرم- حرم وسلم -وادي شلم- انظره تالياً، وهليل-نهليل (نهلل عند يشوع) وصيد -صيده ومرس- مرسه؛ بما يؤكد لنا أن الموضع المقصود هو في نطاق الجغرافية ذاتها لسائر الأماكن الواردة في قائمة يشوع. ولنلاحظ قول الهمداني التالي (وهم في وسط أرض زوف) في تأكيد واضح على وصف يشوع والتوراة للمكان بأن زيف برية تدعى برية زيف- زوف. وسوف نعود مطولاً إلى هذه المادة في السياق.

---

(١) عند يشوع وفي نصوص التوراة الأخرى: وادي يرئون - يُرى وءشكُلون - ءشكل.

أراب

يصف يشوع موضع أراب على النحو التالي (النصّ مختصراً):

(وب- هر- شمير ويتير وسوكه وءرب ودمت وء شعان).

بذلك يكون موضع أراب في السّرو ذاته، غير بعيد عن دَمت التي يرسمها المترجمون في صورة (دومة) بينما يرسمها الشعر العربي القديم في صورة دُمت. فهل تعرف فلسطين التاريخية مكاناً يُدعى أراب في أيٍ من جبالها؟ ترتبط أراب عند القبائل اليمنية بمعارك وحروب طاحنة لعلها من أيام العرب المنسية؛ التي يتذكرها - وبشكل بطيء- الرواة والمؤرخون القدماء. ومع ذلك فقد ظلت ذكراها حيّة بفضل الشعر. قال عَرْفَطَة بن الطمّاح الأسدي:

بنفسي مَنْ تركتُ ولم يُوسّدِ بجنب أرابَ وانطلقوا سراعا

وقال مُساور بن هند:

وجلبْنه من أهل أبْضَة[1] طالعاً حتى تحكم فيه أهل أرابِ

إننا لا نعرف -في فلسطين الحقيقية- مكاناً يدعى أبض وهي عند يشوع أبص. كما لا نعرف أراب حيث دارت معارك القبائل وحروبها القاسية. بيد أننا نعرف الموضعين في سراة اليمن قرب سائر المواضع التي حدَّدَها يشوع، ثم عاد الهمداني ليعيد توصيفها بالدقة ذاتها. إليكم النص المدهش التالي (صفة: ١٣٤-١٤١):

ثم يتلوه وادي مَوْر وهو ميزاب تهامة الأعظم، ثم يتلوه في العِظم

(١) انظر أبص في التوراة.

وبُعد المآتي زُبَيْد ومساقي مَوْر تأخذُ غربيّ همدان جميعاً وبعض غربيّ خولان (......) وسُمع (..) فأدران (ثم)حجة فنمل فشرس (...) فبلد عذر وهَنُوم ومن أيمنه سد ساقين (.....) فيه أراب. وأرض شرعب ومن بلد الركب جبال شمير (..) ثم وادي نخلة (..) ومن شماليّها دُمت ثم وادي زبيد (..) والشّعر (..) وتُبن، وميتم. وهي تُبن ابن الروية غير تُبن لحج.

وكنا رأينا من نصوصٍ سابقةٍ للهمداني أن ظلمه-طلم يقع قرب عذر وهنوم؛ وبذلك تكتمل اللوحة الجغرافية: ها هنا أراب قرب شمير ودمت وتنان حَضُور (عند يشوع والهمداني على حد سواء)، فضلاً عن المنازل الأخرى، سُمع -سُمع وأدران-ءدره وشرس-سرس وعذر وهنوم-عذر وهنوم. وأخيراً موضع الشّعر (انظر عند يشوع شعرءيم). لقد حافظ الهمداني في وصفه للأماكن على التسلسل ذاته عند يشوع: شمير ثم أراب ثم دمت. وسوف نرى تالياً المزيد من الأمثلة عن هذا التطابق المثير.

قال الأخطل:

ولقد سَمَا لكم الهُذيلُ فنالكم   بأراب حيثُ يُقسّمُ الأنفالا

وقال جرير:

فما تَيْمٌ غداة الحنو فينا   ولا في الخيلِ يوم عَلتْ أرابا

كما ذكرها الفرزدق في شعره:

ورَدوا أراب بجحفلٍ من وائلٍ   تحتَ العشيّ ضارم الأركانِ

تشير هذه القصائد وسواها كثير، إلى يوم من أيام العرب جرت فيه معارك طاحنة بين القبائل لم تكن فلسطين مسرحها بالطبع؛ بل سراة اليمن كما وصفها يشوع والهمداني. وهذا أمر مؤكد؛ ومع ذلك فقد توهم

البكري (معجم: ١٣٣-١٣٤) أن أراب هنا هي مياه، فيما هي جبل حسب تحديد ووصف الهمداني؛ بل وحسب منطوق القصائد نفسها. إننا لا نعرف مياها أو جبلاً في فلسطين يُدعى أراب كما في نصّ يشوع، الذي يضعه في السراة قرب شمير وجوشن وءشعان ودمت. وسوف نعود تالياً إلى ءشعان التي وصفها الهمداني ووضعها قرب عُرّ عدن.

جوشن

الرسم العبري للاسم هو جوشن؛ والنص يضعه قرب أراب (يشوع: ١٥: ٢١: ٦٢) - مختصراً-:

> (وفي السّرو شمير ويتر وسوكه وجوشن وأراب ودمت وءشعان.)

والشعر العربي القديم يضبط اسم الموضع في الصورة ذاتها جوشن؛ بينما يضبطها الهمداني في صورة جوش بإسقاط النون، ويضعها قرب أراب تماماً وفي سراة عذر -عذر (رقم ١) أي في المكان نفسه لسائر المنازل السابقة التي سجلها يشوع. إليكم ما كتبه الهمداني في وصف جوشن هذه (١٢٧-١٢٨-١٣٤):

> **ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهَنْوم وظاهر بلد الجواشه من الفائش (فائس بكيل) فبلد الشاكريين من أهل الدرب ونوده فالحفر من أعلى عصمان (..) فبلد عذر وهَنْوم وبلد حجور ومساقط بلد وادعة وبلد الجواشه (...) فيه أراب.**

هل ثمة مُصادفة أن تكون الجواشه منزلاً قبلياً (بلاداً) قرب أراب في سراة عذر عند يشوع والهمداني في الوقت ذاته؟ وغير بعيد عن مساقط

مياه بلد وادعة حيث المنازل السابقة؟ إنه لأمر هام للغاية التأمل في مغزى وجود اسم الفائس في نص الهمداني هذا، فهو ذاته اسم الجماعة القبلية نفسها في التوراة أليفاز من نسل عيصو. روى ياقوت الحموي البيت التالي من قصيدة طويلة لشاعر حلبي لم يدركه ياقوت، ولكنه نقل قصيدته من مصادر اطلع عليها (معجم البلدان: ٢: ١١٩):

ياساكني البلد الأقصى عسى نَفَسٌ   من سفح جوشن يُطفي لاعج الغللِ

طال المقام فوا شوقاً إلى وطن   بين الأحص وبين الصحصح الرّملِ

في هذه القصيدة التي تتغنى بجوشن الموطن القبلي القديم، يرسم الشاعر اسم جبل جوشن قرب منهل مياه الأحص في الطريق إلى نجران، على النحو ذاته الوارد في التوراة. يقع جبل جوشن بالفعل على مقربة من الأحص (عند يشوع: يهص وعند الهمداني: الأحص). إننا لا نعرف جوشن هذا في فلسطين قرب مياه الأحص، بحيث يشتاق شاعر مقيم في حلب بقية عمره حالماً بنسمات تُطفئ لواعج قلبه من سفح الجبل الخصب؛ بينما نعلم من التاريخ أن القبائل اليمنية التي شكّلت رأس رمح الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام، واستقرت في نهاية المطاف وإلى الأبد، في المدن والأمصار الجديدة، ظلت تتشوّق إلى أماكنها ومواطنها القديمة في اليمن والجزيرة العربية. قال النابغة الذُّبيانيّ مستذكراً جبل جوشن (جوش) (معجم: ٤٠٤):

سافَ الرُّفيدات من جوشٍ ومن حددِ   وماشَ من رهط ربعْيّ وحجّارِ

وتالياً سنرى صلة حدد هذه باسم هدد التوراتي في حروب داوود، وفي الصراعات الآرامية مع بني إسرائيل في السراة اليمنية؛ بما هي اسم مكان بعينه عاشت فيه جماعات قبلية عربية من بني كنانة. وقال البعَيْث:

يُحاوِرنَ من جَوْشين مفازةٍ   وهنَّ سوام في الأزمّة كالأجلِ

هذا هو جبل جوشن كما وصفه الهمداني والشعر العربي القديم ويشوع على حدّ سواء.

حرمه

أشرنا مراراً في هذا الكتاب - إلى حرمه- حرمه عند يشوع، باعتبارها من منازل سبط شمعون (سمعون رقم ٨) وها هي أمامنا في قائمة منازل يهوذه. إن الرسم العبري والعربي للاسم مُتطابق تماماً؛ ولكن ونظراً لوجودها ضمن منازل السبط الأكبر في بني إسرائيل، فلابد والحال هذه من إعادة تحديدها في الإطار الجغرافي الموصوف قصد بناء تصوُّر جغرافي دقيق للأماكن. تقع حرمه عند يشوع قرب فجّ المولدة- فجّ المولدة (رقم ١٤) وقرب عزيقه (رقم٢٧) وغير بعيد عن جبل الملح (عير ها- ملح رقم: ٦٦) فضلاً عن مذاب-مدبء وحلف-حَلَف. إن مثل هذا الوصف الدقيق يجعل من شبه المستحيل تخيُّل إمكانية تكراره في نطاق المصادفة وحدها. إليكم وصف الهمداني لموضع حرمه وتحديداته الدقيقة للمنازل المجاورة لها (صفة: ٢١٧-٢١٨) في سياق وصف مُنَمّق لأودية مأرب التي تصب في بلد همدان:

> **وما يصب منها إلى مأرب فهو مُلاقٍ لمياه عَنَسْ وذمار (..) وعذيقه ونياع (..) أما بلد همدان فإنه آخذ لما بين الغائط وتِهامه من السراة وشمالي صنعاء (..) فأول شق بكيل (و) الصّمع وحدقان وبئر العَرَم (..) ووادي شَرَع ومطرة لعذر(......) ومسوره وملح (..) وجبل ذيبان (..) وحَرمه (..) ثم الجوف الأعلى وبه من القرى هِران والسفل (...) وفجّ المولدة.**

هل يُمكن تخيُّل حدوث هذا التطابق بين النصّين على صعيد الأسماء

والتراتب، بوصفه نتاج مُصادفة جغرافية ولغوية جمعت بين قائمة يشوع وكتاب الهمداني؟ لدينا هنا طائفة من المنازل الواردة في نصوص يشوع: عذيقه-عزيقه (العبرية لاتعرف الذال المُعجمة وتستبدلها بالدال المُهملة أو بحرف الزاي) فضلاً عن العرم-يعرم وعذر- عدر وحرمه- حرمه وفجّ المولده- فجّ المولده؛ وأخيراً السفل - السفل. وسوف نتوقف مطولاً عند جبل ذَيْبان- ديبون عند يشوع و قرى جبل ملح (عير- ها- ملح). ولنلاحظ هنا أن المقصود بعذر في نص الهمداني؛ الجماعة القبلية نفسها التي أعطت اسمها للسراة وهي بطن من عذر بن سعد يُعرف بعذر مطرة. (انظر مطرة في التوراة- فصل شعوب وقبائل عندنا).

دُمت وء شعان

تُثير قراءة اسم دومة كما ورد في الترجمة العربية الراهنة، الحيرة والشكوك في صحة قراءة الاسم نظراً لوجود دومة في الجزيرة العربية هي المعروفة بـ (دومة الجندل). وهذا الموضع بعيد كل البُعد عن الجغرافية التي يصفها يشوع؛ بحيث يستحيل تخيُّل وجود دومة قرب جبال شمير، كما لو أن المرء يقول: إن يثرب قرب عدن. هذه الحيرة عند قراء النص العبري والعربي على حد سواء، مصدرها وجود قراءة خاطئة للاسم أدَّت إلى تصوره في صورة دومة- بواو واحدة وتاء مربوطة- فيما الاسم في النص العبري وفي سياق المواضع المذكورة هو دُمت ورسمه العربي: دُمت من دون واو وبتاء مفتوحة وضمَّة فوق الدال المهملة. يقول النص العبري: (وء رب- ودومت -وء شعن- وينوم- وبيت- تفوح- وء فقه): واراب، ودمت، وشعان، وينوم، وبيت تفوح، وأفق. إننا لانعرف دومت في فلسطين التاريخية ولا وجود لهذه المواضع هناك؛ بينما تعطينا نصوص الهمداني وصفاً دقيقاً لها مع ضبط صحيح للاسم، يستندُ إلى رواية الشعر

الجاهلي. يقع جبل دُمت في الضبط الشعري -ودَمَت حسب نطقه اليوم- إلى الشمال من جبل الصَّيرة-صيرة عند يشوع ودُبّاس -دباشت عند يشوع في مخلاف الكلاع الذي سبق الكلام عليه؛ والأهم من ذلك أن جبل دُمت يقع، بالفعل، قرب ءشعان وغير بعيد عن أراب وشمير. يقول الهمداني (صفة: ١٣٩- ١٤٠) ما يلي:

ومن بلد الركب جبال شمير (....) ثم وادي نخلة، فمن معاين وقرعد وهي جنوبي الوادي (....) وحصن جوالة، وجبل الصَّيرة وكل هذه جنوب وادي نخلة ومن شماليها جبل دمت (......) وعذاق، ثم يلقاه وادي الملح من أرض الركب ويقطعانها إلى البحر(..) فجبال معبر فدُبّاس.

يقع جبل دمت إلى جوار سلسلة من المنازل، الواردة في نص يشوع منها السفال-السفل وءشعان-شِعان. ولذا يضيف الهمداني (صفة: ١٩٨- ١٩٩) استكمالاً للتوصيف السابق مايلي:

ودُمْت وحميم في غربي قلامة ونمار وجبال شرعب ووادي نخلة (....) فالسفل الواديان الصنع وشيعان.

ها هنا وادي ءشعان-شيعان قرب جبل دُمْت تماماً كما في وصف يشوع. فهل حدث هذا التوافق بين النصَّين بفضل مُصادفة جعرافية ولغوية؟ ولماذا لايحدث مثل هذا التوافق في فلسطين الحقيقية؟ يُلاحظ البكري استناداً إلى الهجري (معجم: ٥٦٤) أن القدماء من العرب كانوا يرسمون اسم (دومة) بالضَّم (دُمة) وقد يكون هذا التقليد هو الدافع الخفي ولكن الحقيقي وراء رسم الاسم في صورة (دُمْت). لكل ذلك يمكن الاستنتاج

أن المقصود بموضع دُمْت في منازل يهوذه-هَوْذه قرب ءشعان إلى الجنوب من وادي نخلة، إنما هو الجبل اليمني جبل دُمْت وليس دومة الجندل في الجزيرة العربية. لقد أثار موضع دُمت هذا حيرة رواة الشعر المُتأخرين والجغرافيين، حين وجدوا الاسم يتردد في أشعار الكثير من الشعراء. قال الأخطل:

ألا يا اسْلمَا على التقادمِ والبِلى   بدومة خَبتْ أيها الطَّللانِ

قال البكري معلقاً على بيت الأخطل (لا أدري أهي دومة الجندل أم غيرها؟) هذه الحيرة تُضاهى بحيرة علماء التوراة إزاء دُمْت هذه قرب شمير ودُبّاس وجوشن في السرو حيث أراب، وهي حيرة ناجمة عن الخلط بين موضعين بعيدين عن بعضهما (يقع موضع دومة الجندل في منطقة الجوف في المملكة العربية السعودية، فيما يقع جبل دُمْت بين عدن وزبيد في اليمن). يتبقى أن نشير إلى أن محقِّق الكتاب العلامة الأكوع يضبط الاسم بالفتح والسكون (دَمْت) استناداً إلى طريقة نطقه اليوم، بينما ضبطه الشعر القديم بالضّم. وفضلاً عن جبل دُمْت هذا هناك دُمْت أخرى في وادي ثريد[١] من أرض رعين، ولكن لا صلة لها بالمواضع الواردة في نص يشوع (وانظر ما كتبناه حول خبت- جبتون) فالشاعر يصف دُمْت هذه قرب خبت ويسميها دومة خبت.

افق

يُعَدّ موضع ءفقه-ءفيقه في سِفر يشوع ثم في صموئيل، من المواضع الهامة نظراً لارتباط اسمه في مرويات التوراة وقصصها بحروب داوود

(١) قارن مع سريد الوارد ذكره في منازل الأسباط، حيث تستبدل العبرية حرف الثاء المثلثة العربية التي لا تعرفها بالسين أو الشين: شريد.

وبني إسرائيل. ولأجل تفادي الوقوع في خطأ الدمج أو الخلط بين (ءفقه) هنا و(ءفق) الوارد ذكره في سفر صموئيل؛ فسوف نُعيدُ ضبطه ضبطاً عربياً صحيحاً لتمييزهما من بعضهما. لقد رسمت الطبعة العربية من التوراة هذا الاسم في صورة (أفيق) بياء وسطية زائدة؛ وهذا اسم مكان آخر سبقت الإشارة إليه (مصنعة أفيق عند الهمداني) ونحن نرى أن الضبط العربي الدقيق الذي يتناسب مع الجغرافية المرسومة في هذا النصّ، وطِبْقاً للشعر العربي القديم ووصف الهمداني هو (أفق) من دون ياء وسطية. يقع جبل أفق حسب ضبط الهمداني غربي صَعْدَة على مقربة من وادي بطنة (بطن في سبط أشير رقم ٣) وهذا الوصف الذي يعرضه الهمداني يتطابق مع وصف يشوع تماماً. يقول نص يشوع كما رأينا : (وفي السّرو شمير ويتر وسوكه ودنه (..) وأراب ودُمت وأشعان وينوم وبيت تفوح - فوح وأفقه). يعني هذا أنَّ المكان المقصود في القائمة هو إلى جوار سلسلة من الأماكن والمواضع، التي وصفها يشوع في السّرو ذاته، مثل دلعان، وءنحرت، وشوك، وجدرة، وحضُور، بالإضافة إلى منازل أخرى يذكرها في قوائم الأسباط السابقة مثل: مدبء-مذاب وخلقه-حلقه. فهل يمكن لنا أن نعثر على مكان يُدعى أفق في هذا الفضاء الجغرافي؟ هنا نص الهمداني الذي يُحدد موضع أفقين (أفق وبزيادة الياء الوسطية والنون الكلاعية) قرب سلسلة المواضع التي يذكرها يشوع في نصّه (صفة: ١٦٢ - ٤ ١٦):

> والرابع وادي منبج وفروعه من يام القديمة (.....) ثم حلف، ثم وادي نجران (....) وغربي بلد شاكر إلى دمّاج من أرض خولان (...) والغيل والبطنات من بلد خولان ولقي سيل غربي صَعْدَة وأفقين (..) حتى يضام سيل دمّاج من البطنة ويلقاهما سيل عكوان (.) فسيل جدرة، وسيل كتاف من وادي نحرد من وادعة (..) ودلعان ويتقدم في شوكان.

ها هنا دلعان وهنا أفق-أفقين على مقربة من سيل جدرة-جدرة ووادي شوك-شوكان وحلف -حلف والبطنات- بطونيم عند يشوع والبطنة-بطن عند يشوع وكتاف-كتاف ويام-يام ونحرد-ءنحرت[١]. لقد تتبع العلامة الأكوع وصف الهمداني هذا وسار على خطاه في الأودية والجبال والشِّعاب، بحثاً عن أفقين، فلم يعثر على أي دليل قاطع على وجوده في المكان الموصوف، بينما وجد سائر الأسماء غربي صَعْدَة. ولأن رواية الهمداني عن المكان هي في الأصل، رواية منقولة في جزء منها عن أحد شيوخه أملاها عليه، فقد افترض العلامة الأكوع أن الهمداني قد يكون قصد أفقين- تثنية أفق- في وادي علاف القريب من المكان وليس في المكان نفسه. ومع ذلك ترك المجال مفتوحاً أمام حقيقة أن الموضع مندثر وقد لا يُعرف اليوم. في هذا الإطار لابد من الإشارة إلى وجود موضع يدعى مصنعة أفيق قرب جبل لبؤة - لبؤة عند يشوع - انظر القائمة وغير بعيد عن حمطه- حمطه عند يشوع، وهي منازل ذكرها في نصه كما سنرى تالياً. قال دعبل الخُزاعي (الكامل):

هلا ببعض خصاله قد حَنَظْتهُ فيضوعَ أفقُ منازل وقبور

وقال خُدّاش بن زهير العامري (شاعر جاهلي):

دروعٌ وغابٌ لايُرى من ورائهِ سنا أفقٍ بادٍ ولا جبلٍ وعرِ

جبعة اليمنية

في نص يشوع الآنف، تُسجل أسماء المنازل التالية متجاورة: (وينوم، وبيت تفوح -فوح- وء فقه وحمطه، وقرية أربع - وهي حبرون- وصيعر. تسع منازل بقراها. ومعون وكرمل وزيف ويوطه، ويزرعءل

(١) في نحرت تحولت الدال إلى تاء، وهذا أمر مشهود في النقوش اليمنية .

ويرقعم، وزنوح والقاين وجبعة وتمنة). لدينا في هذا المقطع من النّص، سلسلة من المنازل حددنا بعضها فيما سبق من صفحات؛ وسنباشر بإعادة تحديد ما تبقى منها، وبالطبع في سياق الإشارة إليها كلها. الاسم الأول في هذا المقطع هو: ينوم على مقربة من تمنة وحمطه وصيعر وجبعة. لنلاحظ، أن الهمداني يصف أفقين ويضعه إلى الغرب من صَعْدَة باتجاه جُرش وأحوازها، كما في النص السابق. يقول الهمداني (صفة: ٢٢٥-٢٣٠) في وصفه لمخلاف صَعْدَة وجُرش وبلد نهد ووادعة وهي في الفضاء الجغرافي نفسه يجاور بعضها بعضاً:

> يسنم لبني ثور وقيوان لهم (..) فإلى جبل شوك (و) بلد يام: ليام وطن بنجران نصف مع همدان (..) وذات عش (..) وأول الأودية بين نجران والجوف: ماوة (..) (و) من مياه بلحارث فتح عد (..) وربوع بئر عد (..) والذي يُصالي جنب من ديار عنز (..) الراكس وتمنية (..) وتمنية يسكنها بنو مالك (و) ذو الينيم.

في هذا المُقتطف المُكثف- لتسهيل الأمر على القراء- يضع الهمداني على غرار ما فعل يشوع، كلاً من تمنة وينوم-ينيم في المكان نفسه على مقربة من قايُن-قيوان[1]. وعند الهمداني؛ فإن اسم الجماعة القبلية التي عاشت في هذا الوادي تُدعى الأقيانيين (صفة: ٢١٢) وهم لا يُعرفون اليوم مثلهم مثل جيرانهم: الجدانيون من آل ذي جدن. قال كثير:

كأنَّ دموع العينِ لمّا تَخلَّلتْ مخارمَ بيضاً عن تمنٍّ جِمالهُا

يضيف الهمداني (صفة: ٢٣٩) حول جبل عيشان-عشان في القائمة ما يلي: المُسنمة من الجبال: صبر وذخر وظليمة والجمش وعيشان

---

(١) لاحظ تحوُّل الواو إلى ياء في الاسم ينوم.

والشرف. ويقول: (ص: ٣٢١): وعيشان من بلد حاشد إلى جنب هَنْوم وظليمة والجمش من شرف همدان. هذا هو جبل عيشان-عشان في المكان نفسه تماماً كما حدده يشوع، في الفضاء الجغرافي لتمنة وينوم-ينيم. أما جبعة-جبعة التي يذكرها يشوع في هذا النص ونصوص أخرى؛ فهي ذاتها جبعة المكان الأثري في الموضع المعروف اليوم بموضع هند، بين قاعة والبون الأعلى على مقربة تماماً من حيفة-حيفه وخلقه وحضّور بني أزاد وبيت أقرع- جبل أقرع في التوراة، وشبام- شبمه وبيت نعامه-نعامه في القائمة وبيت بوس-بيت بوس عند يشوع وجبل نُقم-لقُم عند يشوع، وسائر المواضع التي سبق تحديدها. إن نص الهمداني التالي لا يذكر جبعة ولكن محقِّق الكتاب العلامة الأكوع استدرك عليه بهامش هام للغاية يذكر فيه جبعة هذه (صفة: ١٥٦-١٥٨) ضمن الجوف اليمني:

ودبرة (..) وما أقبل من بيت بوس وجبل نُقم (.......) إلى أسفل الصمع ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف حضُور وبيت نعامة وبيت رفح فعلمان فرحابه فالرحبة، ثم من المصانع وشبام وبيت أقرع وهند (مكان أثري هو اليوم أطلال عُثر فيه هذه الأيام على باب قصر جبعة مع أغلاقه وعتباته من الحجر الصلد) والحيفه.

إذا ما قمنا بمقاربة هذا النص مع نص يشوع؛ فإنَّ جبعة التوراتية هي بالفعل، قرب سائر المنازل الواردة في القائمة، وفي الفضاء الجغرافي نفسه للجوف اليمني. وبينما لاتوجد جبعة في فلسطين التاريخية قرب المواضع الواردة في قائمة يشوع؛ فإن جبعة اليمنية القديمة تقع بالضبط قرب حضُور وبيت نعامة وسواها من المنازل. وسوف نعود تالياً إلى جبعة هذه في مكانها المناسب.

صيعر

تقع صيعر- صيعر بالعبرية على مقربة من دمون-دمون في هذه القائمة. إن اسم هذا الموضع له صلة حميمة باسم قبيلة صيعر اليمنية البدوية التي تنقلت طوال تاريخها، ما بين بادية وجبال السّراة ومملكة كندة اليمنية الشهيرة، وهي تنتسب إلى الصّدف سكان حضرموت -حضرموت في سِفر التكوين. فهل أرد النصّ التوراتي الإشارة بالفعل إلى اسم القبيلة؟ يتضح من الأشعار القديمة أن القبيلة أعطت اسمها لمكان آخر على الطريق من جُرش إلى صعدة، هو موضع صعر القريب من معرت-معرات في القائمة. وهذا أمر سيكون مفهوماً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن أفراد القبيلة من البدو الرُّحل. في هذا السياق، سنرى إلى اسم (معرت) عند يشوع على أنه الموضع ذاته في الضبط الشعري معورة ومن ثم؛ فإن الاسمين صعر ومعرة- معرت (عند يشوع في القائمة رقم ٥٥و٦٠) هما الموضعان ذاتهما في الشعر الجاهلي. إن أحداً لا يعرف هذين الموضعين في فلسطين، بينما يعرف اليمنيون الطريق إليهما جيداً، وهم في سفرهم يسيرون صوبهما على خطا الشعراء، كلما خرجوا من جرش. يقول الهمداني عن منازل صيعر-صيعر ما يلي:

> **وهم مع كندة، وفرقة من بلحارث بن كعب بَرِيْدَة الصيعر. وإليها تُنسبُ الإبلُ الصيعريّة (..) والصيعر قبيلة من الصَّدف تُنسبُ إليها رَيْدَة (..) فإذا خرج الخارجُ من العَبْر[1] لقي أول ذلك درب العجز الكندي (..) ثم عندل وعندل وخوْدون وهدّون ودمون من الصدف بحضرموت.**

(١) قارن مع (يصء- م- عبر) التي غالباً ما ترد في بعض نصوص التوراة بمعنى (تخرج من العبر).

حسب قائمة يشوع؛ فإنَّ دمون وصيعر هما في مكان واحد، وهذا يتوافق تماماً مع وصف الهمداني في هذا النص. أما معرت-معورة عند الهمداني وفي الشعر العربي القديم، فهي على الطريق من جُرش إلى صَعْدَة في سراة جنب-جنب عند يشوع كما سنرى. قال ذو الأصبع العدواني[1] (صفة: ٢٣٥)

إن داري بُــمــرْهَــب فــبــصــعــرٍ فــمــعــورة فــوخــدة فــالــمُــرار

ها هنا صعر وها هنا معورة - معرت تؤديان إلى ديار آل المُرار (بني مرر في التوراة) سكان كندة وملوكها في حضرموت ودمون. فهل تعرف القراءة الاستشراقية مثل هذه المنازل في فلسطين؟ إن البحث عن أرض التوراة في عسير كما فعل د. كمال صليبي لا يؤدي إلى صيعر ومعرت ولا إلى دمون، بينما تفضي بنا السراة اليمنية إلى هذه المنازل بسهولة.

شعرائيم

شعرائيم هو اسم الجمع العبري من شَعَر. والمكافئ العربي الصحيح له: الشَّعْراء. وبينما أخفقت التوراة المُترجمة في فهم معنى الاسم ولم تتمكن من إعطاء مكافئ عربي دقيق؛ فإن الاسم لا يزال حتى اليوم موجوداً في الصيغة ذاتها، وفي المكان ذاته الذي وصفه يشوع. لنلاحظ هنا- وهذا ما انتبه إليه صليبي وله الفضل في ذلك-أن مترجمي النص العبري ترجموا كلمة شعر الواردة في نصوص التوراة عن حروب داوود إلى (باب). الفهم المغلوط انعكس على فهم مقاصد النص بصورة مأسويَّة، إذْ أصبحت الجملة تعني أن داوود كان واقفاً عند الباب، فيما النص يتحدث عن حرب طاحنة في وادي شعر. ولأن هذا الفهم

(١) حارث بن حرثان، شاعر إسلامي عاش في عصر عمر بن الخطاب.

الخاطئ لمعنى الكلمة واجه مترجمي النص منذ البداية؛ فقد سجلوا اسم الموضع كما ورد في العبرية من دون مكافئ عربي، وذلك تفادياً لإعادة ترجمته إلى (باب)؟ تعني كلمة شعرائيم (رقم ١٩) الشعْراء. وعند اليمنيين القدماء والعرب بعامة تعني شعراء: الأرض ذات الشجر الكثيف والنباتات البرية التي لا دخل ليد الإنسان فيها. يروي العلّامة محمد بن علي الأكوع محقِّق كتاب الهمداني ما يلي: أنه قرأ كلمة شَعْراء في مخطوطة صفة جزيرة العرب في أثناء تحقيق الكتاب، فلم يعرف مقاصد الهمداني منها حتى سأل صديقاً له من سكان المكان الموصوف، فأجاب الصديق بما يلي: الأرض الشَّعْراء هي الأرض المهجورة التي لا يزرع فيها أحد؛ وإنما هي للكلأ والمرعى لا يمُنع عنها البدو الرُّحل. بهذا المعنى؛ سيتضمَّن اسم الشَّعْراء -شعرائيم صفة المكان، بما هو أرض كلأ ومرعى. وهذه الأرض بحسب وصف الهمداني موزعة بين بلد شاكر- يسكر ووائلة. يصف الهمداني (صفة: ٢٨٢) موضع شَعْراء- شعرئيم على هذا النحو:

> وَحبِل وعُضلة والصمع والجفرة: ثلاثة أودية في الغائط (من غيط، كما في العامية المصرية اليوم المؤلف) مما يُصالي دُهمة وأرحب، القو وطلاع لوائلة إلى وتران. كل هذا شَعرْاء بين شاكر والشَعْر الحمط (أي الشجر الغليظ) إلى رأس المحتبية ورحوب مسيلها إلى رباق وحلف ثم الغائط والحضن بنجران، وسدرا والسادة وهُراب وعراد.

لدينا في هذا النص الدقيق سلسلة من المواضع والمنازل القبلية الواردة في سِفري يشوع وصموئيل: حَبِل-وادي حبل في حروب داوود وأرحب -رحبه ورحوب- رحوب في سبط أشير (رقم ٢٣) وحلف-حلف (سبط نفتلي رقم ١) وعراد عراد- انظرها تالياً. وهذا ما يُعيدنا إلى فكرة

يشوع عن مرور منازل الأسباط في منازل سبط يهوذه. ها هنا موضع شَعْراء قرب الصمع -صمع. إن شعرئيم التي لا وجود لها في فلسطين؛ تشخصُ أمامنا قرب سائر المواضع السابقة في الجوف اليمني. قال ذي الرّمة:

يُقَلِّبنَ من شَعْراءِ صيفٍ كأنها ... موارقَ للدغ انخزامِ مُرامِ

نسوراً كنقش العاج بين دوابزٍ ... مُخيسةٍ أرساغهُا وحوامِ

وقال ابن مُفَرَّغ واصفاً شَعْراء في المكان نفسه:

ومَنْ تكن دونهُ الشّعْراء مُعرضةً ... والأيدعانِ وتُصبح دونه النهرُ

في تأويله لمعنى كلمة شَعْراء في الشعر العربي القديم؛ ارتأى أبو حنيفة أن يُقال لجماعة الشجر: شِعار ولا واحد لها، وللأرض إذا كثر فيها الشجر: شَعْراء. ولأجل ألا يختلط في أذهان القراء موضع شَعْراء هذا بجبل الأشعر اليمني؛ فإن لمن المهم التمييز بينهما. في سيرة الرسول ﷺ وحديث ابن نافع عن عبدالله بن عمر، قال الرسول ﷺ: «إذا وقعت الفتن فعليكم بجبلي جُهينة». أي الأشعر في الحجاز وهو الموضع نفسه الذي اجتازه الرسول في غزوة ذي العشيرة. المقصود بشَعْراء هنا وطِبقاً لوصف الهمداني والبكري والشعر الجاهلي، هو موضع شَعْراء في الطريق بين جُرش ونجران على مقربة من عصم - عصم عند يشوع كما يقول البكري (معجم: ١٥٧). وعصم هذا كما قلنا في مادة عصم-هو موضع يعرف باسم قبيلة بني عُصم الذين تحدث عنهم الهمداني (صفة: ٢٢٧) بقوله في وصف بلد يام ونجران حتى زبيد:

> **بلد زبيد: فيه وادٍ فيه نخل إلى الورة ويسكن هذه البلاد قبائل من زبيد وبنو عُصم.**

وبالطبع لا وجود في فلسطين التاريخية لموضع يُدعى شَعراء -شعرئيم قرب عُصم - عصم والصمع ووادي حبل ورحوب وحلف و منازل اليسكريين- اليشكريين ولا قرب جبل برق.

جَدِرَة وحشمون

في قائمة يشوع هذه، هناك ثلاثة مواضع تحمل اسماً واحداً، يظهر مرة في صيغة المذكر السالم و مرة في صيغة جمع المؤنث السالم و أخيراً في صيغة المفرد المؤنث وهي على التوالي: جدور، جديرتائيم، جدرة (جديرة حسب الرسم في التوراة المترجمة، انظر رقم ٢٨، ٦٤). هذا التكرار للصيغ المتنوعة والمُثيرة قد يبعث على الظن، أن محرر النص ارتكب خطأ من نوع ما، قد يكون ناجماً عن الاختلاف في رسم الاسم كما وجده في النسخ اليونانية والعبرية. بيد أن مثل هذا الانطباع سيبدو محض انطباع خاطئ حين نتأمل في روايات الشعر الجاهلي لأسماء مواضع تحمل بالفعل، مثل هذه الصيغ المتنوعة من الاسم نفسه. يُعد وادي جَدِرَة -جَدْرَة في ضبط الهمداني من فروع الوادي الثالث في الجوف اليمني (صفة: ١٦٠) حيث سُميت القرية التي نشأت على أطرافه بـ (حوام جدرة) وهي تتبع خولان صَعْدَة. وهذا الوادي عُرف عند شعراء الجاهلية في صورة وادي جُدُر وجدور. قال أبو ذؤيب الهُذليّ (ياقوت: ٢ : ١٣١) واصفاً وادي جُدُر:

فما أنْ رحيقٌ سَبَتْها التّجا رُ من أذرعاتٍ فوادي جُدُر

والوادي نفسه جُدُر وصفه شاعر آخر[1]:

---

(١) أغفل ياقوت اسمه وهو استخدم في قصيدته كما يُلاحظ ' صيغة الجمع الشائعة: جدائر.

عرفناكَ من شِعبٍ رحبٍ بطنه وأسلاعهُ صوب الغمامِ البواكرِ

أكلنا به لحم الحمار ولم نكن لنأكلهُ إلّا بشِعب الجدائرِ

هاتان الصيغتان جُدُر وجدائر تُطلقان على الوادي نفسه، وهما المكافئ العربي المقبول لصيغة الجمع العبرية جديروتئيم- أي الجديرات كاسم جمع لاسم المفرد جدِرة-جديرة. والجديرات أو الجدائر أو الجُدُر كلها واحد عند العرب القدماء وتعني: حظائر الصخور عند أطراف الوادي. (وهذا مغزى اسم حظيرة حوشم في نص يشوع التي يضعها قرب جدرة) بهذا المعنى؛ فإن التمييز يُصبح ضرورياً بين اسم الوادي وصفته فالمكان هو وادي جَدِرَة، وحظائره ومجمع صخوره التي تنتشر في امتداده الطبيعي هي الجدائر أو الجديرات. وليس ثمة في فلسطين التاريخية أي مكان يُدعى جديرات -جديروتئيم أو جُدُر، بينما نجدُ وادي جَدِرَة في خولان صَعْدَة تماماً كما وصفه يشوع والهمداني قرب حظيرة حوشم. فهل هي مُصادفة جغرافية ولغوية أن يشوع يعطي اسمي جدرة وجديروتئيم قرب حظيرة حوشم، بينما يعطي الهمداني وفي المكان نفسه، اسمي وادي جدرة وحظيرة حوشم؛ بل إن جملة حظيرة حوشم عند الهمداني لتبدو وصفاً لمجمع الصخور في هذا الوادي؟ هنا نص الهمداني في وصف وادي جدرة وحظيرة حوشم في الجوف اليمني حيث يصب الوادي الثالث في خولان (١٦٠- ١٦٣):

> **يظهرُ الوادي الثالث في زاويته التي ما بين شماله ومغربه وفروعه من بلد خولان (..) وحوام جدرة الجنوبية ومساقط بَرْط والمراشي والفتول (....) فمذاب، فحظيرة حوشم (..) والرابع من بلد يام (..) وغربي بلد شاكر(..) الغيل والبطنات ولقي سيل صعدة فروة وأفقين وسيل عكوان فسيل جدرة.**

لنلاحظ في هذا النص ما يلي: أن الهمداني يستخدم كلمة حظيرة في توصيف موضع حوشم عند أطراف وادي جدرة الجنوبية حيث أرض سبط نفتلي-الفتول؛ وبذلك يتوافق نصّه مع نص يشوع في إطار الإشارة إلى وجود منازل نفتلي وسط يهوذه، والذي اتخذ من الأطراف الجنوبية ومجمع صخورها أي جدائرها مكاناً لإقامته. هذا هو المعنى الحقيقي لتلازم جدرة مع حشم في نص يشوع. وفضلاً عن ذلك؛ فإنَّ سيل وادي جدرة المندفع في هذه الحظيرة يمر بموضع «فقه- أفقين (تثنية أفق وهي هنا مكان مندثر) ليلتقي سيل عكوه -عكون والبطنات- بطونيم عند يشوع. قال جعفر بن عَلية الحارثي (ياقوت: ٢: ١٣٣):

ألا هل إلى ظلِّ النظاراتِ بالضُّحى سبيلٌ وتغريد الحمام المُطَوَّقِ

وشربة ماءٍ من جدورة طيبٌ جرى بين أفنان العضاة المُسوّقِ

والشاعر في هذه القصيدة يتحدث عن وادي جدرة ومياهه الطيبة، وليس عن أي مكان آخر قد يكون تسمى بالاسم نفسه. والوصف لا يشير إلى بئر ماء أو إلى عين ماء جبلية، بل إلى مسيل مياه الوادي وهي تجري غزيرة ومتدفقة بين الأشجار والصخور. هذا الوادي المجاور لحظيرة حوشم هو المقصود بالاسم العبري المفرد جدرة؛ بينما يُقصد من جديروتئيم الضفاف الصخرية التي يتميز بها الوادي. ولكن: هل عرف العرب القدماء موضعاً ثالثاً يحمل الاسم نفسه كما في نص يشوع جدور؟ في الواقع هناك إشارة شعرية هامة للغاية إلى مكان عُرف بهذا الاسم على الطريق إلى لُبنى- لبنة (انظر شحور لبنة عندنا) قال صريع الغواني[1]:

إنْ عاد لي شَرْخُ الشباب ولم تَعُدْ لُبنى ولا أهلي بذي الجُدرِ

(١) عُمير بن سُليم القطامي التغلبي.

ومن غير شك؛ فإن وجود موضع يُدعى جدور- جُدُر قرب لُبنى- لبنة على الطريق من جُرش إلى معرت -معورة أمرٌ من شأنه أن يدفع بالتمييز بين المواضع الثلاثة قدماً إلى أمام، بوصفها مواضع متفرقة وليست مكاناً واحداً اختلط على محرر النص العبري.

في وادي سرس

في وادي سرس يمكن للباحث أن يعثر على سلسلة جديدة من المواضع الواردة في قائمة يشوع هذه، عن منازل ومضارب وبيوت وأغوار سبط يهوذا من بينها موضع أثار حيرة شديدة لدى الباحثين الغربيين؛ إذْ لا تعرف فلسطين في إطار القراءة الاستشراقية وادياً يدعى التقون-ءلتقون ورد اسمه بهذه الصيغة. ولذلك أخفقت الجهود في تحديد المكان، وجرى إهماله في الخرائط التي تُرفق عادة مع الكتاب المقدس لليهودية عن فلسطين المُتَخيّلة. بيد أن التّقون المُحيّرة هذه ليست مكاناً خيالياً؛ إلّا إذا جرى وضعها في فلسطين التاريخية بشكل متعسف من أجل تبرير قراءة خاصة للتوراة لا سند لها في الواقع. عدا ذلك ستبدو التّقون مكاناً معلوماً وبالاسم نفسه الذي سجّله يشوع، وفي الفضاء الجغرافي الموصوف عند الهمداني ما بين جُرش ونجران. قال سُلمى بن ربيعة (معجم: ٣٥٨):

وأهل جاشٍ وأهل مأربٍ   وحي لقمان والتَّقونِ

وقال الحُطيئة (ياقوت: ٤: ١٥٦):

وحلُّوا بطنَ عُقمة والتَّقونا   إلى نجران من بلدٍ رَخيِّ

هذه القصائد وسواها تُحدد موضع التَّقون-ءلتقون في الفضاء الجغرافي ذاته لصنعاء، وليس غربي الأردن وفلسطين كما تزعم القراءة الاستشراقية للتوراة. وإذا ما سار المرء خلف خُطا الحُطيئة وابن ربيعة

وطرفة بن العبد، قاطعاً الطريق الموصلة إلى صنعاء من موضع جاش وجُرش؛ فإنه سوف يصل المكان. قال طرفة واصفاً ومحدداً موضع جاش الوارد في قصائد الشعراء السابقين:

بتثليث أو نجران أو حيثُ تلتقي من النجد في قيعان جاش مسايلهُ

هذه هي التَّقون التوراتية بالاسم نفسه وفي المكان نفسه. أما وادي سرس فهو وادي شرس الذي ورد ذكره مراراً في هذا الكتاب. وبطبيعة الحال لا وجود لوادي سريس في فلسطين قرب عِذر وهَنْوم. إليكم ما يقوله الهمداني عن وادي شرس (صفة: ١٢٥) في سياق وصفه لسراة المصانع بين حجَّة[١] وصنعاء:

> **والحتر ومسور والظلمه والعر وجبل التخلي وقيلاب ونمل وشرس وأرض أدران وحجَّة (..) ثم يتصل بهذه السراة قُدُم وأعلاها الظهرة وجعرم.**

ويضيف في (صفة: ١٣٤):

> **فبلد بني حارثة وبني رفاعة وحمَّاد ويرد (المحقِّق: هذه القبائل من بلاد الشرق[٢] تحتفظ بأنسابها إلى التاريخ) فشرس وقيلاب حتى يلتقي بمَوْر الآتي من بلد خولان وشمالي بلد همدان فبلد عذر هَنْوم وبلد الجواشة (...) ومن أيمنه أراب.**

(١) قارن اسم حجَّة المحافظة اليمنية القديمة (والحالية) مع اسم الشاعر والنبي حجه في التوراة.

(٢) يستعمل اليمنيون المعاصرون تعبيراً غارقاً في القدم (بلاد أو قبائل المشرق) وهو نفسه التعبير الوارد حرفياً في التوراة.

إذا ما قمنا بمقاربة نص يشوع ونص الهمداني في نطاق البحث عن الفضاء الجغرافي الموصوف؛ فإن المقصود من العبارة التوراتية (بلاد الشرق) سيبدو- لنا- واضحاً كل الوضوح: ها هنا قبيلة يرد-يردن إلى الشرق وها هنا منازل سبط يهوذه إلى الغرب منها. إنها مضارب وبيوت ومنازل تقع بالفعل إلى الشرق والغرب من وادي مور (الذي سيعرف في وقت ما من التاريخ اليمني القديم باسم القبيلة يردن) وليس ثمة - بالطبع - مكان في وصف يشوع يمكن الافتراض أنه غربي الأردن البلد العربي؛ بل ثمة مكان آخر وبعينه يدعى غربي يرد - يردن حيث الوادي- القبيلة في بلاد الشرق. وفي هذا الفضاء الجغرافي هناك وادي شرس على مقربة من سراة عِذر (عدر رقم ١) وهَنْوم وبلد الجواشة (جوشن) وأراب؛ وأخيراً ها هنا وادي مَوْر- مور[1] الوارد ذكره في سفر التكوين وهو ميزاب تهامة العظيم. قالت الخنساء (من مجزوء الكامل، الديوان البيت الثالث) في وصف القتال على ضفتي وادي شرس، حيث احتمت إحدى القبيلتين:

بينا نراهُ بادياً يحمي كتيبتهُ شرسُ

يتبقى- هنا- وادي عنون الذي يضعه يشوع قرب ءلتقون- التَّقون. يُرسم الاسم في هذا المقطع في صورة بيت عنن؛ بما يسمح في الخلط بينه وبين مواضع أخرى تحمل البناء نفسه مثل (بيت عناة، بيت عنوت، عناتوت- انظر سبط نفتلي رقم ١٨). ولتمييز هذه المواضع ومنع الخلط بينها؛ فإننا نُعيدُ ضبط الاسم استناداً إلى وصف يشوع والشعر الجاهلي مع الإشارة إلى أن وادي عنون لا علاقة له بوادي عُنّة الذي سبق الكلام

---

(١) تسجل التوراة في سفر التكوين هذا الاسم القديم في صورة وادي مور حرفياً وهذا أمر مثير. ولاحظ أن بعض المواليد اليهود الأمريكيين اليوم يسمون أولادهم (مور).

عنه. في الواقع عرف العرب القدماء وادي عنان[١]- عنن وهو من منازل القبائل على مقربة من موضع التّقون، بالنسبة إلى السائر في سواد باهلة في اليمامة قاصداً جُرش. قال بشّار بن برد (خمسة أبيات في الديوان من البحر المنسرح):

عنانُ يا مُنيتي وياسكني أما تَريني أجولُ في سككِ

حُرِمتُ منك الوفا مُعَذبتي فعجلي بالسّحل من صككِ

في هذه القصيدة ارتكب رواة الشعر خطأ فظيعاً حين ضبطوا كلمة (السّحل بالحاء المُهملة وتصوَّروها السّجل بالجيم المُعجمة) وذلك بسبب جهلهم بالمواضع القديمة المندثرة، والتي يعرفها الشعراء في إطار التقاليد الشعرية الراسبة والمستمرة. ومع ذلك يمكننا ملاحظة ما يلي: أن وادي عنان الذي كان مُنية بشّار بن برد ومكان إقامته يقع على مقربة من موضع سكك-سكاكه عند يشوع (رقم ٦٥) وقرب صكك-صككه في التوراة (انظرها تالياً) وهما كلمتان لم يفهم رواة الشعر المقاصد منهما، ولذلك تصرفوا في تحديد معنى كلمة السّحل- بالحاء المهملة- في سياق قراءة خاطئة تصوُّر الشاعر كما لو كان يطلب رقعة للكتابة (أو سجّلاً) فيما هو يطلب الوصول مُتلهفاً إلى مخلاف السحل اليمني (السحول). ومخلاف السحول (مفردها السحل) يقع بالضبط بين عقبة إب الذهوب جنوباً باتجاه النجد شمالاً فيما يُعرف ببلاد ذي السفال، وعلى مقربة من محافظة إب المجاورة لصنعاء. والسائر في هذا القفر (البرية) انطلاقاً من مخلاف السحول، سوف يتجه نحو وادي عنان وسكك-سكاكه، كما سيشاهد موضع صكك- صككه في سواد باهلة. هذه الأبيات هي التي تفسر لنا على أكمل وجه، المعنى الحقيقي لوجود صيغتي سككه وصككه في

(١) قارن مع اسم عنان (كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة).

التوراة. يصف الهمداني وادي عنان هذا على النحو التالي (صفة: ٢٦٢):

> ... وادٍ يُقال له عِنان والعذيب، نخلٌ وقرية؛ وبينه وبين سواد باهلة ماء يُقال له الغابة.

قال عنترة بن شدّاد:

ونـاداني عـنـانٌ فـي شـمـالـي وعـاتـبـني حُـسـام فـي يـمـيـني

وادي عِنان هذا يُعَد من أودية اليمامة التي تصب في البيضه، وهي حسب وصف الهمداني مستطيل أبيض من الرمال فيه مزارع ومياه ونخيل أقامت فيه قبيلة تميم وأحلافها حتى شرقي تهامة، قرب وادي عمق-عمق عند يشوع وفي أسفار التوراة. ولذلك دعاه ياقوت (٤ : ١٨١) من أودية بني عامر وأعلاه لبني جعدة. قال تأبط شرّاً:

عفا من سُليمى ذو عِنان فمُنشدُ فـأجـزاع مـأثـول خـلاء فـبـديـدُ

كما وصفه شاعر بني جعدة النابغة الجعديّ:

أتـانـي مـا يـقـول بـنـو جُـعـيـل بـوادٍ مـن عَـتـيـة أو عِـنـانِ

أتـانـي نَـصـرُهـم وهـم بـعـيـد بـلادهـم بـلاد الـخـيـزرانِ

هذا هو وادي شرس وتلك هي منازل سبط يهوذا تماماً كما وردت في التوراة من دون أي تلاعب من جانبنا.

حول وادي الحماس (ملاحظات تمهيدية)

إن الأسماء التي يسجلها يشوع في قائمته ليست أسماء مواضع وحسب؛ بل هي أسماء جماعات عاشت وتطورت في أماكن بعينها

أعطتها أسماء آباء أو آلهة أو معبودات تخصّها في الصميم. وهذا ما يتوافق مع تصوُّرات الهمداني في الإكليل عندما عدد أنساب هذه الجماعات وفصَّل في تفرُّعاتها وبطونها. وكما أن عذر، مثلاً اسم قبيلة ومكان (وكذلك اسم هَنْوم) فإن اسم لحماس[1] الوارد في التوراة هو اسم قبيلة ومكان (والرسم العبري: لحماس- من دون ألف مهموزة سابقة). يقول الهمداني في الإكليل (١ : ١٠٨) إنه قرأ في المساند الحِمْيَرية نقشاً ورد فيه ما يلي:

نمران. سأق وبنوه. نقم أشوع ويريم آلهة همدان وهوجين بن يشيع

في هذا النقش الذي يعرفه علماء الآثار جيداً، نعثر على صيغ أولى وقديمة من الأسماء التي ورد ذكرها في التوراة وأشرنا إليها في هذا الكتاب، مثلاً: يسجل الهمداني اسم ءشوع-يشوع كمعبود قبلي عرفته همدان، كما يُسجل اسم هوجين-يهوقين الملك الإسرائيلي في عصر نبوخذ نصر (انظر الفصل الخاص بالسبي البابلي)[2]. وكنا توقفنا أمام اسم نُقم وهو لُقم عند يشوع وفي الطبعة العربية من التوراة يُرسم في صورة (لقوم) بتحويل الحركة الإعرابية في أصل الاسم إلى حرف. إن لُقم هذا من أشهر جبال صنعاء، وكما يقول الهمداني في صفة جزيرة العرب

(١) كما بيَّنَّا فيما سبق من فصول هذا الكتاب فإن اليمنيين القدماء وسائر القبائل في العربية الجنوبية استعملت في الكتابة حرف اللام المنفردة كأداة تعريف (لحماس في الحماس).

(٢) لا بد للقارئ من العودة إلى رواية الهمداني عن المكان الحقيقي الذي جرى فيه حادث السبيّ التاريخي؛ والذي لا علاقة لفلسطين به لا من قريب ولا من بعيد، وسوف نقوم في سياق هذا الفصل بفحص أسماء مثل نمران بوصفه أباً أعلى لجماعة قبلية بعينها هي بنو نمر، قامت بتسجيل النقش وبإهدائه ذكرى لآلهتها ومعبوداتها.

فأسماء المواضع، هي أسماء آباء أطلقت على أماكن إقامة القبائل. في هذا الإطار سنتوقف أمام اسم موضع لحمس-لحماس في قائمة يشوع. قال بُدّاء بن سلمان (الإكليل: ١٠: ٧١):

صَبَحنا الجمعَ جمعَ بني حماس بجنبِ رماحه كأسَ العرامِ

فأجلوا عن كرائمهم جميعاً وخلّوها لفرسانٍ كرامِ

في هذا البيت من الشعر يتضحُ تماماً المقصود باسم لحماس: ها هنا جماعة قبلية تُقيم في مكان بعينه لابد أنها أعطته اسم أبٍ أعلى من آبائها. ومن غير شك؛ فإن القراءة الاستشراقية لا تستطيع تقديم تفسير مقبول لوجود الاسم نفسه عند يشوع كاسم مكان وقبيلة في سراة اليمن، بينما يستحيل تقديم أي دليل مهما كان صغيراً على وجود المكان أو القبيلة في فلسطين التاريخية. في وصفه لسرو مَذحج (مدينة البضاء اليوم والتي بُنيت على أنقاض المخلاف) يُسجل الهمداني أسماء سلسلة من الأودية والجبال، كما يُعدد أسماء الجماعات القبلية ومنازلها التاريخية في السرو (صفة: ١٧٥: ١٧٦: ١٨٠):

العفه[1] وسَمَع (...) ذو عُرف لصُداء وهم مع النخعيين (...) دثينه أولها عرّان (...) يُرى وادٍ كبير لبني شكل بن حيّ من أود، وادي ثره (.......) الدّبّية لبني الحماس (....) أما كومان فعدادهم في زوف.

في هذا النص الدقيق يسجل الهمداني اسم الموضع نفسه، الذي عاشت فيه القبيلة اليمنية بنو الحماس في الوادي المعروف باسمهم وادي

(١) انظر موضع العفن في منازل الأسباط (العفنه بزيادة النون الكلاعية والهاء الأخيرة: العفن).

الحماس، قرب مجموعة من الأودية والجماعات الأخرى، والتي سجلها يشوع في قائمته مثل صُداء- صديم (اسم الجمع للمفرد صداء) وزوف- زوف ووادي العفه- العفنه عند يشوع. وءشكلون-شكل وَسَمع- سمع. قال أبو زُبَيْد (معجم: ٤٦٦):

إذا ما رأوا دوني الوليدَ كأنّما يَرون بوادي ذي حماسٍ مُزَعْفرا

والبيت الآنف يشير إلى حماس الوادي حيث دارت رحى الحرب بين القبائل في سرو مَذْحِج؛ وبالطبع فحروب كهذه لم تكن لتدور في فلسطين التي لا تعرف أيٍّ منها. قال القُطامي (معجم: ١٢٧٠):

كأني ورَحْلي من نجاءٍ موشك على قارحٍ بالـمَفْضَلية قاربِ

حدا في صحارى ذي حماسٍ فعرعر لِقاحاً يُغيثُها رؤوس الصياهِبِ

عرعر هذه هي على الطريق بالفعل، إلى وادي حماس وقد ورد ذكرها عند يشوع في الصورة ذاتها (عرعر) كما سنرى ذلك تالياً. قال أبو زُبَيْد واصفاً منازل القبيلة في وادي حماس وعرعر:

تناذروهُ السُّفار فاجتنبوا له منازلهُ من ذي حماسٍ وعرعرا

أما جبل سَمَع هنا، فهو غير سُمع الوارد ذكره في قائمة يشوع هذه، لأن المقصود سمع مكان آخر أقام به رهط مالك بن الحارث الأشتر (من التابعين). هذا هو وادي لحماس- الحماس تماماً كما وصفه يشوع.

دلعان ووادي حدثة وجبل ضين

يقول يشوع في نصّه عن منازل يهوذه- هَوْذه ما يلي: «وضن وحدشه ومجدل جد ودِلعان والمصفاة ويُقتءل ولكيس وبصقه وعجلون وكبون ولحماس وكتليش وَجِدرَة»،

في إطار هذا التسلسل تقع دلعان على مقربة من وادي لحماس-الحماس، غير بعيد عن سيل وادي جَدِرَة، وعلى مقربة من الحدث-حدشه[(١)].

إن فلسطين التاريخية لا تعرف قط، مثل هذه الأسماء. كما أن أحداً من القدماء لم يترك لنا إشارة عن وجودها هناك. ومع هذا؛ فإن هذه المواضع موجودة في سراة اليمن وتحديداً في منطقة الجوف.

يقول الهمداني (صفة: ١٦٣-١٦٤) واصفاً وادي نجران وفروعه إلى الشمال الغربي من صَعْدَة وخولان:

> **فسيل جدرة وأداني أملح (..) من بلد شاكر ولقيها بالفقارة سيل كتاف يصب بأسفل الحربا من وادي نحرد (..) ويسنم (.....) ودلعان (.....) ويتقدم في شوكان من أعلى وادي نجران.**

وسائر هذه المواضع هي إلى الغرب وإلى الشمال الغربي من صَعْدَة، أي: بين جُرَش وصنعاء. وكنا حددنا مواضع عدّة يسجلُها الهمداني في نصّه هنا (وادي وجبل شوكان مثلاً). ولنلاحظ أن دلعان هي بالفعل على مقربة من وادي حماس وسيل وادي جدرة. وهذا أمر يصعب تجاهله على مستوى التماثل في نصّي يشوع والهمداني. قال الراجز اليمني أحمد الرداعي في وصف طريق المحجّة القديمة من صنعاء (صفة: ٣٦٩):

دَعْ ذا وراجع بالقلاص الكوم دلعان واحْدرها على سروم

---

(١) ما يعرف اليوم بـ(حداشه) وهو اسم حديث أطلقه المستوطنون الإسرائيليون استناداً إلى التوراة على مكان مزعوم. بينما المقصود من الاسم الإشارة إلى مكان ساحلي هو المحدث (الميم أداة تعريف منقرضة لصقت بأوله حتى مع دخول أداة التعريف العربية الحديثة) والمحدث مكان في ساحل اليمن لا يزال موجوداً هناك حتى اليوم.

هذه هي دلعان في الفضاء الجغرافي نفسه لسائر المواضع والمنازل القبلية. إن الاسم الأول في هذا المقطع من قائمة يشوع والذي يبتدئ فيه النص العبري، يُرسم في صورة: صن. لكن النص المُترجم يرسمه في صورة ضان (بالضاد المعجمة) وهذا رسمٌ مُضلل؛ إذْ لا توجد في بنية الاسم حركة مدّ تبرر رسمه على هذا النحو. إن الضبط العربي الصحيح للاسم هو صن وفي صيغة التثنية صنان؛ وهما موضعان أحدهما يسمى صنان خثعم نسبة إلى قبيلة خثعم الشهيرة. أما صن التي عناها يشوع فهي في المكان نفسه الذي وصفه الهمداني قرب جُرَش (صفة: ٢٢٧) حيث بنو عُصم:

> **وما بين منقطع سراة خولان بحذاء بلد وادعة إلى جُرَش: صنان (ثم) بلد زبيد ويسكن هذه البلاد قبائل من زبيد وبنو عُصم.**

بُصاق ولكيز وحمطه وسواها

استطراداً في تحليل ما سبق فسوف نتوقف عند نصّ طويل نسبياً، من أجل مقاربة شاملة بين يشوع والهمداني. يقول نص يشوع الآنف ما يلي:

> **(وضن وحدشه ومجدل جدّ ودلعان والمصفاة ويُقت ءل ولكيس، وبصقه وعجلون وكبون ولحماس وكتلش، وجَدِرَة وبيت دجون ونعمه ومقدة (..). ولبنه وعثر وعُسن ويفتح وءشنه ونصب وقعيله وء كزب ومرسه: تسع منازل بقراها وعقرون وتوابعها. ومن عقرون إلى البحر كل ما يُجاور ءشدُد وقراها وءشدُد وتوابعها وقراها.وعزه وقراها وتوابعها وقراها إلى وادي مسر والبحر الكبير والساحل. وفي السّرو شمير ويتر وسوكه ودنا وقرية سنه- وهي دبر- وعناب وء شتمو وعنم**

وجوشن وحولن وجيلو: أحد عشر منزلاً وقراها. وأراب ودمت وء شعان وينم وبيت تفوح وء فقه وحمطه وقرية أربع: وهي حبرون وصيعر: تسع منازل بقراها. ومعون وكرمل وزيف ويطه ويزرع ءل ورقعم وزنوح والقيان وجبعة وتمنة: عشر منازل بقراها وحلحُل وبيت صور وجدُر ومغراة وبيت عَنُّة والتقون: ست منازل بقراها)

في هذا المُقتَطَف الطويل من النّص، يُعدد يشوع أسماء المواضع التي أقام فيها أكبر الأسباط الإسرائيلية يهوذه؛ وقد تعذَّرَ على علماء التوراة والباحثين الغربيين، وباستمرار البرهنة على وجود هذه الأسماء في فلسطين التاريخية إلى الغرب من وادي الأردن. بيد أن نص الهمداني (صفة جزيرة العرب) والشعر الجاهلي على حد سواء، يقدمان لنا الأسماء نفسها وبالتسلسل ذاته إلى الغرب من وادي يردن اليمني، الذي يحمل اسم الجماعة القبلية البائدة بنو يرد بن مهلءل-مهلئيل حسب الرسم العبري. وهذا الوادي الكبير من الأودية القادمة من ميزاب تهامة وادي مَوْر-مور في سفر التكوين. وفي سياق تفكيك النص التوراتي من أجل إعادة بناء الوصف الجغرافي الوارد فيه؛ فسوف نواصل تحليل بقية الأسماء الواردة في هذا النصِّ الطويل. وهنا بعض الأسماء كما تمّ ضبطها: لكيز في لكيس، بُصاق في بصقه، عَجَلان في عجلون، كبوان في كبون، الحماس في لحماس، كثلت في كتلش، جَدِرَة في جديرة. تقع هذه المنازل في حيز جغرافي واحد، يمتد من سرو مَذحج حتى جُرَش ونجران. قال كثير واصفاً جبل بُصاق (معجم: ٢٥٣):

وَرَدْنَ بُصاقاً بعد عشرين ليلةً وهُنَّ كليلات العيون ركائكِ

في تأويله للأسماء والمفردات الواردة في قصيدة كثير؛ يُعرّف ابن حبيب صاحب كتاب المحبّر اسم بُصاق هذا على النحو التالي: بُصاق

جبل. وقد علّق البكري على قول ابن حبيب بالقول: ويشهدُ لك على صحة قول ابن حبيب قول الراعي النُّميري:

وماءٌ تصبحُ الفضلاتُ منه كزيت بُزاق قد فرّط الأجونا

يستخدم الراعي النُّمَيري في هذا البيت حرف الزاي بديلاً من الصاد في رسم اسم الجبل (بُصاق)، جرياً على تقاليد العرب وعاداتها الصوتية في تخفيف الصاد إلى سين أو تحويلها إلى زاي. بما يؤكد قوة هذه العادات وانتشارها وهو أمر نجده في القراءات السبع للقرآن التي أجازها الإسلام المبكر (في سياق تفهم عميق الدلالة لوجود تفاوت في أشكال نطق الحروف في لهجات القبائل). لقد نطق الشعراء اسم الجبل نفسه في صورة بُساق- بالسين المُهملة-. وروت المصادر الإسلامية قول أميّة بن حرثان الأسكر، عندما أصبح ضريراً ودخل على عمر بن الخطاب في المسجد مُعاتباً (كما يروى البيت نفسه لمُتمم بنويرة) ذاكراً جبل بُصاق في صورة بُساق:

أعاذلُ قد عذلتِ بغير قدري ولا تدرين عاذلُ ما أُلاقي

سأستعدي على الفاروق ربّاً له عُمَد الحجيج إلى بُساقِ

والشاعر أراد بُصاق-بصقه من جبال اليمن القديم (التاريخي) على مقربة من نجران حيث ديار بني تميم. وكما قلنا فقد تعذّر على علماء التوراة تحديد هذه المواضع في فلسطين، وفشلت كل الجهود في إيجاد دليل لغوي أو جغرافي واحد يؤكد أو يدعم تصورات القراءة الاستشراقية السائدة، عن المواضع المقدسة المزعومة والمُتخيَّلة التي حصل عليها شعب بني إسرائيل من النبي يشوع في فلسطين. أما الموضعان كبون ولكيس فهما على مقربة بالفعل، من جبل بُصاق تماماً كما في وصف يشوع. تقع كبون في ديار بني عامر التي تمتد حتى الساحل. قال لبيد (معجم: ١١١٢):

طالت إقامتها وغيّرَ عَهْدَها   وهم الربيع ببرقة الكبوان

برقة كبوان- كبون هذه في ديار بني عامر التي وصفها الهمداني (صفة: ١٣٦-١٣٩) على النحو التالي:

ثم بعد وادي خُلب وادي جازان (....) ومساقط عنم ويسقيان أرض ضمد وجازان إلى البحر (..) ويسقي صبيّا إلى صادة عثر، ثم وادي بيش ومأتيه من قيوان وبلد بني عامر من الغور(..) فشرقي ذبحان فغربي الرما (....) وأرض بني مجيد وفي أديم وغربي جبل أبي المُغلس الصّلو (المحقّق: وربما أن قدساً- قدس كان تابعاً لآل أبي المُغلس فلم يذكره المؤلف مع أنه كبير مشهور في عصرنا هذا) ووادي الضبّاب وأرض شرعب ومن بلد الركب جبال شمير .

حسب وصف يشوع؛ فإن برقة كبوان هي في الفضاء الجغرافي لسلسلة من المنازل: ها هنا مساقط وادي عنم-عنم (انظرها تالياً) وصادة عثر-عتر ووادي قيوان-القُيان وشمير. هذه هي بلاد بني عامر التي وصفها الشعر العربي القديم بالتلازم مع برقة كبون. وها هنا جبل قدس والرما وسواها. أما لكيس فهي في الشعر العربي الجاهلي لكيز- سنعود إليها مراراً في هذا الكتاب بوصفها من أقدم وأشهر منازل الساحل اليمني-. قال ابن مُقبل (معجم: ١١٦٢):

سَلكْنَ لكيزاً باليمين ولوزة   شمالاً ومُفضَى السيل من الغَذَيانِ

لكيز- لكيس هذه تقع على الطريق إلى لوزة- لوزة عند يشوع في سبط بن يامن (رقم ٢) بالنسبة إلى السائر في ساحل اليمن من منازل بني بلحارث بين زبيد وجُرش. وشهرة هذا المكان بالنسبة إلى العرب القدماء، مرتبطة بذكريات الانزياح من الأوطان التاريخية باتجاه تهامة اليمن على

إثر الاجتياح الآشوري. وهذا ما رأيناه بوضوح في شهادة الهمداني عن السبي البابلي، حيث فرَّت القبائل من وجه الحملة العسكرية الضخمة صوب تهامة الحصينة بجبالها الوعرة. وبطبيعة الحال كانت لكيز من بين هذه المواضع. ما تبقى من منازل في المقطع الأول من النَّص أعلاه هو يقُت‌ءل- يقتئيل وكتلش وعجلون وسوف يجري الحديث عنهما تالياً. أما مجدل جدّ ولحماس ودلعان وسواها فقد سبق لنا تحديدها في مواضعها.

في المقطع الثاني من النص الآنف يسجل يشوع أسماء المنازل التالية: لبنه، عثر، عسن، يفتح، وقرية سنه، نصب، قعيله، ءكزب، مرسه: تسع منازل بقراها.

يتعين -هنا- تمييز وتحديد مقاصد النص من الاسم لبنه؛ الذي سبق لنا رؤيته في صورة شحر لبنه- انظر شحر لبنه في منازل الأسباط السابقة- . هذا الموضع لا صلة له، كما سنرى بالاسم السابق (لبن)؛ إذْ المقصود به جبل لبن بالفعل، وهو من الجبال الشهيرة والقديمة. ونظراً لاشتباه كثير من الباحثين بهذا الموضع، كما حدث مع د.كمال صليبي، الذي لم يُميز بدقة كافية بين لبنه وشحر لبنه ولبنان وتصوَّرها كلها الموضع ذاته؛ فقد أفردنا له حيزاً خاصاً ضمن كتابنا (قصة حب في أورشليم[1]، فانظره هناك). كما أن عثر في هذه القائمة لا صلة له بالموضع الساحلي الشهير ساحل عثر الذي سبق لنا التحدث عنه؛ بل له صلة بموضع عثر الذي يعرف اليوم باسم صادة عثر قرب صبّيا ومنازل بني مجيد-مجدو. لقد حدد الهمداني هذا الموضع في المُقتطف السابق من صفة جزيرة العرب، في الحيز نفسه لجميع المواضع الواردة في النص على مقربة من جبال الركب

(١) قصة حب في أورشليم: غرام سليمان بالإلهة العربية سلمى (ترجمة جديدة لنشيد الإنشاد عن النصّ العبري) دار الفرقد - دمشق، سورية ٢٠٠٥

وشمير، وكذلك الحال مع غُسن الجبل الذي تحدثنا عنه فيما سبق من صفحات.

يفتح ومرسه

لم تعثر القراءة الاستشراقية للتوراة على أثر لمكان في فلسطين التاريخية، يحمل اسم يفتح-فتح (بإسقاط الياء اللاصقة مثل: يعرم: عرم) لا غربي الأردن ولا في الساحل الفلسطيني. كما أن مرسه[١] لم توجد قط، هناك، بينما نجد في السراة اليمنية مسيل مياه الفتح -يفتح[٢] على مقربة من لوزة، وغير بعيد عن قرية ءسنه- السنّه (مؤنث سن) وفي مكان واحد قرب جميع المنازل السابقة؛ وهذا أمر يستحيل ردّه إلى مصادفة محض. إليكم وصف الهمداني (صفة: ٢٢٨):

موارد بني بلحارث: أعداد مياه بلحارث مما يُصالي الهجيرة بأطراف جبال غاذ (و) لوزة (......) والهرار والبتراء. هذه أعداد شمالي بلاد بني الحارث وأول الأودية بين نجران والجوف ماوة (....) ثم الخل أعلاه فيه من مياه بلحارث فتح عدّ.

ها هنا فتح وهي مياهٌ عدّ؛ أي مياه غزيرة جارية في الأرض لا تبعد كثيراً عن لكيز ولوزة (كما رأينا من وصف ابن مقبل) وها هنا لوزة نفسها قرب ماوة- ماوة عند يشوع وفي مراثي أنبياء التوراة (انظر مادة ب-موت بعل). وكما يُلاحظ هنا؛ فإن إسقاط الياء اللاصقة في أول الاسم له صلة

(١) قد تكون هناك صلة بين اسم مرسى في ساحل تونس العاصمة قرب حلق الوادي وبين الاسم اليمني مرسه الذي نقلته القبائل إلى شمال إفريقية.

(٢) استخدمت القبائل الياء اللاصقة كأداة تعريف يعرم: العرم، يفتح: الفتح. والهاء الأخيرة في مرسه حرف صوتي مثل بيشة-بيش.

بتطور أشكال نُطق الأسماء اليمنية. أما ءسنه -السّنه (مؤنث سن) فقد وصفها الهمداني ومُحقِّقه في سياق وصف بلد همدان؛ أي في المكان نفسه للمنازل السابقة (صفة: ٢٢٢-٢٢٣):

السّنتان لعك وحاشد (المحقِّق: السّنتان تثنية سنَّة قريتان مُتقابلتان أعلى نقيل الغوله (.....) هذا ظاهر بلد حاشد. فأما أول بلد حاشد فأولها لاعة وهي داخلة نحو الجنوب في غربي صنعاء (...) وهذه المواضع زاوية من تهامة داخلة بين جبال السراة لهمدان وحِمْيَر (....) وبلد وادعة مما يُصالي عُذر وهَنْوم وظُلَيْمه.

هذه هي قرية ءسنه- السّنّ في المكان نفسه الذي وصفه يشوع؛ وها هنا مرسه كما وصفها الهمداني (صفة: ١٧٨ -١٨٣) غير بعيد عن وادي لحماس وزوف وعنم وعزه -عزه:

الدبيّة لبني حماس من بلحارث بن كعب (......) أول بلاد مَذْحج بعد أن تخرج من ذمار متوجهاً نحو المشرق بقدر فرسخين أرض عنس وهي واسعة حدودها من ناحية الشمال (.......) جيرة، ومن ناحية المشرق ثات (......) والجبل المعروف بإسبيل في وسط بلدهم إلّا أن فيه نفراً ليسوا منهم مثل: بني عنم. وأما كومان فعدادها في زوف. وقد تركتُ صفات هذه المواضع وابتدأتُ بصفات مخلاف بني عامر (.......) عزّان (المحقِّق: عزّان تثنية عز). وبنو عامر بيتان: زوف وناجي ولبني سلمه من زوف حرم قلعة في وادٍ عظيم ومرس.

حسب وصف يشوع؛ فإن وادي حماس وزوف ومرسه وعزه وعنم هي في مكان واحد؛ على مقربة من جبل إسبيل - إسبيل في التوراة (انظر الجزء الخاص بقبائل التوراة عندنا). وحسب وصف الهمداني الذي قمنا

بتكثيفه؛ فإن حماس وزوف وعز ومرس فضلاً عن عنم وحرم، هي كذلك في مكان واحد. وهذا أمر مثير يستحيل ردّه إلى عامل المصادفة اللغوية.

وسوف نتوقف مطولاً عند (عُزة-عُزى) التي جرى تخيّلها على أنها مدينة غزه (بالغين المُعجمة). إننا لا نعرف غزة هذه قرب وادي لحماس ومرسه وحرم وبرية زوف؟ تُرى مَنْ يعرف غزة هذه؟ (وسوف نتحدث تالياً عن نصب وقعيله وء كزب وسواها في مكانها المناسب). في المقطع التالي من نص يشوع أسماء بقية المواضع وهي: أراب، ودمت، وء شعان، وينم، وبيت تفوح، وء فقه، وحمطه، وقرية أربع وهي حبرون وصيعر، وسبق لنا الكلام على بعضها (وهي تتكرَّر في هذا النص). إن أحداً لا يعرف موضعاً يُدعى حمطه قرب جبل أفيق الفلسطيني مثلاً؟ ومع ذلك أصرَّت القراءة الاستشراقية للتوراة على الادعاء أن ءفقه في سِفر يشوع، قصد بها جبل أفيق الفلسطيني؛ غير عابئة بحقيقة أن الفضاء الجغرافي لهذا الجزء من فلسطين لا يعرف حمطه التوراتية. على الضد من ذلك يعرض الهمداني وصفاً دقيقاً لموضع حمطه قرب ءفقه تماماً كما عند يشوع. وفي هذا الفضاء الجغرافي الموصوف بدقة تقع حمطه- المقطع الأخير من النص- غير بعيد عن ءسنة وجميع المنازل السابقة، وإلى الغرب تماماً من صنعاء في مخلاف حراز وَهوْزن (حمطه رقم: ٥٤) مما يُدعى اليوم عند اليمنيين بالشرقي، وبالضبط قرب جبل ء فقه غير بعيد عن جبل لبوءة (لبوءة رقم: ٢٥). قال ذو الرمة:

فلما لَحِقنا بالحَمولِ وقد عَلَتِ   حَماطَ وجرْباء الضُّحى مُتشاوسُ

والحماط (حمطه) في لغة العرب القديمة: الشجر الغليظ الذي ينبتُ في الجبال.

قال الشنفرى (معجم: ٢٤٩):

أمشي بأطراف الحماط وتارةً   تَنفضُ رجلي بُسيطاً فَعنْصرا

يصف الهمداني موضع حماط (حمطه) هذا قرب جبل ءفقه على النحو التالي (٢٠٦- ٢١٠) في سياق وصف مخلاف حضور والمخاليف المتاخمة مثل ذمار وحراز وهوْزَن:

> مخلاف ذمار: ذمار قرية كبيرة جامعة (...) ويُقال: إنه منسوب لعنس بن زيد بن سدد بن زرعه بن سبأ الأصغر، وهو مخلاف كثير الخيل عتيق الخيل (..) وجبل لبؤة بن عنس (...) والأودية التي بها مطاحن الماء فهي (.....) ماوة. وأما مخاليف ذمار من غربيها فهي مصنعة أفيق. مخلاف حراز وَهْوزن (.....) (وادي) الأحص والحورانيان ومناهل لعسان ذو الكامه (..) والحماطه. مخلاف حضُور وهو حضُور بن عدي بن مالك من ولده شُعيب النبي.

في هذا النص لدينا حمطه وءفقه (حمطة وأفيق) وهما في المكان القديم الذي عُرِفَ ذات يوم بعيد باسم الأب الأعلى سدد (ءشدُد) بن زرعه بن سبأ؛ ثم صار يُعرف باسم مخلاف ذمار. إن الجملة العبرية التي تُسجل اسم ءشدد لا تشير إلى الموضع بوصفه ميناء على الساحل، كما هو الحال مع ميناء إشدود الفلسطيني. وهنا نص الجملة:

> (عقرون- وبنتيه- وحصريه-م-عقرون-ويمه-كل-ءشر-عل-يد-ءشدود -وحصريهن-ءشدود-بنوتيه-وحصريه-عزه-بنوتيه-وحصريه-عد-نحل مصريم-وها-يم-ها-جبول-وجبول-وب-هر-شمير.)

وهذه الجملة تقول ما يلي:

> عقرون وتوابعها وقراها. من عقرون ويام وكل ما يجاور أشدود. أشدود وتوابعها وقراها. عزه وتوابعها وقراها حتى وادي مسر مقبلاً نحو البحر. ومقبلاً في السرو: شمير

وفق هذا التسلسل يجب أن تكون مدينة غزة قرب ميناء إشدود على البحر الأبيض المتوسط (ءشدود - بنوتيه- وحصريه- عزه)؟ بيد أن هذا التوصيف يجعل من التسلسل الآنف أمراً مستحيلاً. ومع ذلك تخيّلت القراءة الاستشراقية عزه التوراتية- بعين مهملة- في صورة غزة - بعين معجمة- حتى من دون مراعاة هذا الجانب من المفارقة الجغرافية. كما قامت استطراداً، بتخيُّل نحل-مصريم (وادي مصريم) على أنه وادي مصر، وذلك ما يجعل من المفارقة الجغرافية مشكلة عويصة، ففي هذه الحالة تكون مملكة يهوذا ممتدة من ميناء إشدود الفلسطيني على ساحل المتوسط حتى حدود مصر الصحراوية وغزة ثم امتداداً إلى شواطئ البحر الأحمر؟ وهذه مملكة لا وجود لها من حيث المساحة الهائلة التي شغلتها في عصر كانت فيه مصر دولة عظمى في العالم القديم.إن كلمة مصريم في جملة نحل - مصريم (وادي مصر) لا تؤدي معنى مصر البلد العربي، لسبب بسيط للغاية هو أن مصر لم تُعرف قط، في أي مدونات قديمة بأنها وادي مصر؟ لكل ذلك؛ فإن المقصود من ءشدود بالتلازم مع وادي مصريم، سوف يتضح تماماً عبر قراءة نصوص الهمداني، التي يُحدد فيها هذه الأسماء بدقة مُذهلة.

في النص الآنف هناك عقرون وعزه وشمير متجاورة. فهل تعرف فلسطين مثل هذه المواضع؟

إن أحداً لا يستطيع الزعم أن غزة الساحلية في فلسطين التاريخية، يمكن أن تكون على مقربة من السلسلة الجبلية التي تحمل اسم شمير؟ كما أن أحداً ليس بوسعه البرهنة على وجود موضع يُدعى عقرون، كان موجوداً قرب ميناء إشدود الفلسطيني على سواحل المتوسط؟ بينما نستطيع رؤية هذه المواضع متجاورة بالفعل، في وصف الهمداني وفي الشعر الجاهلي. ونظراً لطول نص يشوع وتشعبه؛ فإننا سنقوم بتفكيكه وتحليل وحداته وعناصره في سياق رسم جغرافية المكان الموصوف.

حول (حصر عزه) أو ما يدعى غزة التوراتية

في النص العبري (٦٢: ٢٩: ١٥) يُعطى اسم عزه في صورة عزه- بالعين المُهملة- مقروناً بكلمة حصر. وقد تمت مكافأة الكلمة العبرية حصر بكلمة قرية. ولكن الكلمة في الواقع تَخْتَزِنُ دلالات أبعد أثراً وأكثر قوة من كلمة قرية، التي هي في العبرية قريت. برأينا يجب أن تكافأ كلمة حصر بكلمة حظيرة، وهي كل مجمع صخور على ضفاف الوادي أو على أطرافه. ولنلاحظ التماثل في البناء اللغوي بين الكلمتين العربية والعبرية حصر- حظر، التي استعملها اليمنيون القدماء في سياق تعبيرهم عن نمط من الاستيطان القبلي داخل عُزلات جبلية. بهذا المعنى؛ فإن كلمة عُزلة وليس قرية مثل (عُزلة شباع) التي استخدمها اليمنيون القدماء؛ هي التي أرادها محرر النص العبري، عندما وضع كلمة حصر السابقة على اسم عزه، ولتصبح الجملة في العربية على النحو التالي: عزه وتوابعها وحظائرها بمعنى: عزلاتها. إن نمط الاستيطان القبلي القديم في السراة اليمنية، والذي لا تزال آثاره قائمة ومستمرة حتى اليوم، يعرف عُزلات في الساحل والمرتفعات الجبلية لا تزال مأهولة بالسكان مثل عُزلة شباع الواردة في نص يشوع. وهذه العزلة تخيَّلَتها القراءة الاستشراقية، ويا للمفارقة، في صورة بئر سبع؛ مع أن عُزلة شباع اليمنية هي بئر قديمة بالفعل، ومعروفة وهي مُحاطة بحظائر(مجمع من الصخور) في حين ليس ثمة بئر قديمة وتاريخية في موضع بئر سبع الصحراوي في فلسطين. ويمكن لقارئ الهمداني، الصبور والباحث عن الحقيقة أن يتعرّف بنفسه على هذا المعنى الدقيق والخاص، أي المعنى المستمد من الثقافة القديمة، ليلاحظ أن كلمة حصر العبرية تعني عُزْلة وليس قرية بالمعنى الضيق. وفي شعر امرئ القيس اليمني-الحِمْيَري، يمكن للقارئ أن يُلاحظ المغزى الذي ينطوي عليه استعماله لكلمة عُزلة كما سنُبين تالياً. هذا التحديد للمعنى

الدلالي للكلمة؛ من شأنه أن ينسف كل أساس قامت عليه المُطابقة بين عزه في سفر يشوع ومدينة غزة الفلسطينية.

وكما هو واضح من نص يشوع في العبرية وترجمتنا له؛ فإن لا صلة بين عزه ووادي مصريم، والنص لا يقول: إنها تقع قرب أو إلى جوار هذا الوادي؛ بل يحدد اتجاه السائر إلى حصر عزه بقوله: إنه يمكن الانطلاق منها صوب مصريم، ثم سلسلة الجبال في السرو، حيث جبل شمير ويتر- وتر، وشوك وسواها. وهذه كلها أماكن ووديان وجبال لا وجود لها في فلسطين على وجه الإطلاق. وكنا أشرنا في الفصل الخاص بحروب داوود، إلى صلة عزه باسم الموضع التوراتي الذي توقف فيه داوود ويُدعى عزا، ورأينا صلة هذا الاسم بالمعبودة العربية-اليمنية الأصل عزى، وهي إلهة العرب في الجاهلية العزى. إننا لا نعرف غزة في فلسطين قرب جبعة ولا قرب عنم ولا قرب زوف كما لا نعرف شمير قرب غزة؟ في الواقع؛ عرف العرب قديماً موضعاً مُندثراً يُدعى غزة حملت اسمه القبائل المهاجرة إلى بلاد الشام. وهذا الموضع كثير الشبه، وإلى حد التطابق مع غزة فلسطين فهما موضعان صحراويان، بينما لا يشير يشوع إلى مثل هذه الصفة في نصه عن عزه- بالعين المهملة-. ولذلك لابد من الفصل بين مقاصد يشوع من الاسم عزه وبين وجود مكان بعينه يُدعى غزة، انتقل من اليمن إلى بلاد الشام مع هجرة القبائل البدوية. وللتدليل على ذلك نسوق الأدلة التالية: قال مطرود بن كعب:

ميتٌ بردمان وميتٌ بسا ... مان وميتٌ عند غزاتِ

وميتٌ أوجعني فقدهُ ... مات بشرقي البُنياتِ

يقول ياقوت (٤: ٢٢٩، ٢٣٠، والبكري: معجم: ٩٩٧) نقلاً عن أبي منصور الثعالبي قال:

(ورأيتُ في بلاد سعد بن مناة بن تميم رملةً يُقال لها: غزة)

غزة هذه، هي التي استذكرها الأخطل كما استذكرها حسّان بن ثابت وسواهما، بالتلازم مع مواضع يمنية معروفة يستحيل تجاهلها في التحليل. قال الأخطل:

كأنها بعد ضمِّ السّتر جبلتها من وحش غزة مَوْشي الشوى لهِقُ

وقال حسّان بن ثابت (الديوان- من البحر الوافر):

ألا أبلغ بني الدّيان[1] عني مُغلغلةً ورهطَ بني قنان

وأبلغْ كل مُنتَخب هواءٍ رحيب الجوف من عبد المدانِ

ميامس غزةٍ ورماح غاب خفاف لا تقوم بها اليدانِ

في هذه الأشعار، أسماء مواضع وقبائل عربية لم يسمع أحد أنها في فلسطين؛ فليس ثمة ردمان ولا بني الدّيان (قارن مع ديان العبرية) ولا بني قنان ولا بني عبد المدان؛ بل إن هذه المنازل والقبائل في اليمن. قال أبو العلاء المعري في سياق التقاليد الشعرية العربية القديمة في ذكر المواضع القديمة واصفاً الهجرة الكبرى للقبائل:

ألم ترَ طيئاً وبني كلاب سموا لبلاد غزة والعريشِ

وهذه أوضح وأهم إشارة نملكها عن هجرة طيئ وكلاب إلى فلسطين في وقت ما من التاريخ القديم[2]. يتضح من كل هذا أن القبائل العربية

---

(١) انظر اسم الدَّيان في قصيدة الأعشى التي حذر فيها سادة نجران من حرب اليمن اليهودية ضد النصارى (الكتاب الثالث).

(٢) وهذا ما يؤيد فرضيتنا عن نقل قبيلة طيئ اسم معبودها الفلس إلى هناك، وربما تكون هي من أعطت البلاد اسمها المعروف: فلس-طيئ والنون في آخرِ

عرفت مكاناً مُندثراً وزائلاً دُعي-ذات يوم- غزة، قبل أن تُعيد القبائل بعثه إلى الحياة في الساحل الفلسطيني عند وصولها إلى هناك بقيادة طيئ وكلاب. وهذه الإشارة تؤيدها قصيدة هجاء مقذعة لحسّان بن ثابت قالها بحق قبائل الجوف اليمني (معجم البكري: ٢٨١، ٢٧٦، ٢٧٢):

ألم ترَ أن الغدرَ واللؤمَ والخنا بنى مسكناً بين المعين إلى عردِ
فغزة فالمروت فالمنى[1] إلى بيت زمارا تلداً على تلدِ

ماذا يعني كل ذلك؟ إنه يعني ببساطة أن المكان الذي عناه يشوع ليس غزة فلسطين ولا غزة اليمن القديمة؛ بل قصد مكاناً يُدعى عزه- بالعين المُهملة- تماماً كما في التهجئة العبرية. والآن لنلاحظ ما يلي:

أ- في قصيدة مطرود بن كعب، يتلازم ذكر غزة مع اسم ردمان. وليس ثمة ردمان في فلسطين بكل تأكيد. كما أن ردمان من مواضع اليمن المعروفة قرب ذمار. وقرب ردمان هذه يوجد مخلاف رداع، وفيه موضع يُدعى العرِش من قراه عزان (تثنية عز).

ب- توصف غزة في قصيدة الأخطل بأنها من مواطن الوحش، وهذا وصف يستحيل تطبيقه على غزة فلسطين في العصر الأموي الذي عاش فيه الأخطل، لأنها كانت قبل هذا الوقت بكثير وبعده أيضاً من مراكز التجارة الدولية (تجارة الإيلاف) التي

الاسم لاصقة معروفة بالنون الكلاعية مثل صنعا- صنعن.

(١) وهذه مواضع يمنية لا سبيل إلى النقاش حولها؛ ها هنا عرد - عرد في سِفر التكوين: النص العربي: ١٩: ٢٦: ٢٠: ٥، من منازل الكنعانيين. وها هنا معين- معين الجوف الشهيرة وهي معون في التوراة، فضلاً عن المروت ومنى وزمارا؛ وهي منازل لا وجود لها في فلسطين. من الواضح هنا أن غزة اليمنية القديمة كانت في الجوف قرب منازل لا يذكرها يشوع في نصه.

قادتها قريش بما يُعرف في القرآن برحلة الصيف ورحلة الشتاء. ولذلك؛ فإن الأخطل عنى في قصيدته غزة الجوف اليمني المندثرة، وهذا ما يتوافق مع وصف حسّان بن ثابت وتعداده لأسماء القبائل اليمنية في الجوف.

٣- إن وصف يشوع لموضع عزه غير قابل للمُطابقة مع غزة فلسطين. وهذا واضح من أسماء المواضع المجاورة لها، بينما يتضح من أسماء القبائل في غزة القديمة، مثل بني الدَّيان وعبد المدان أن لا صلة بينها وبين موضع عزه في نص يشوع، ففي عزه هناك بدلاً من عبد المدان وبني الدّيان، أرض زوف وبنو عنم وجبل شمير وسلسلة من الأسماء الأخرى التي لا تعرفها فلسطين.

وهاكم وصف الهمداني لعُزلة عزه-عزان وهي عُزلة جبلية في مخلاف بني عامر، على مقربة من موضع عقارب- عقربيم عند يشوع. وكنا رأينا مما سبق أن مخلاف بني عامر يؤدي إلى البحر. إن عز- من دون النون الكلاعية- موجودة قرب سائر المواضع التي يذكرها يشوع وهي تؤدي إلى البحر:

١- (صفة: ١٣٦) في وصف بلد بني عامر: ثم وادي خُلب ومساقط عنم يسقيان أرض ضمد وجازان إلى البحر. ويسقي صبيًا في صادة عثر ثم وادي بيش من قيوان وبلد بني عامر من الغور (...) من شمالي بلد خولان وجنوبي بلد جنب.

ها هنا عنم-عنم عند يشوع وها هنا جازان-جاسان[1] والبحر وصادة

(١) أشرنا مراراً إلى أن السين والزاي تتبادلان الوظيفة.

عثر-عتر. وإذا ما سار المرء على خطا يشوع والهمداني في هذا الطريق؛ فإنه يصل إلى جبل شمير مباشرة وتماماً كما في نص يشوع:

٢- (صفة: ١٣٩) في وصف جبل شمير: وأرض شرعب ومن بلد الركب جبال شمير (.....) فينتهي جميع هذه الأودية في وطن حيس وبين أرض بني مجيد حتى تخالط البحر. ثم وادي نخلة (...) وأرض شرعب وطلاق وحصن جوالة.

ها هنا جبال شمير في الفضاء الجغرافي نفسه حيث أرض بني مجيد-مجدو، وها هنا حصن جواله الجبلي (جيلو في التوراة). وإذا ما مضينا في السرو شرقاً حسب وصف يشوع والهمداني، فسوف نلتقي بني عنم وبطون زوف. وهاكم وصف الهمداني:

٣- (صفة: ١٧٩- ١٨١) في وصف مَذْحج: أول بلاد مَذْحج بعد أن تخرج من ذمار متوجهاً نحو المشرق بقدر فرسخين (..) كومان وفجاءة عدادهم في زوف وبنو عنم من بني جليحة من أكلب.

٤- (صفة: ١٨١-١٨٣) العودة إلى بلد بني عامر: وقد تركتُ صفات هذا المخلاف وابتدأتُ بصفات مخلاف بني عامر (....) عزان لبني سلمة. وبنو عامر بيتان: زوف وناجية (..) عقارب لأهل رداع الأكراب لبني منبه (..) مرس لبني ظفر. ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد لبني حُبَيش وهم في وسط أرض زوف.

ها هي عزه-عزان (بإلحاق النون الكلاعية والمد وهي لهجة يمنية) تماماً كما وصفها يشوع قرب زوف وعنم ومرسه- مرس وجوالة-جيلو

وعتر- عثر وغير بعيد عن البحر. والآن: ما المقصود بالضبط بعبارة نحل- مصريم المترجمة إلى وادي مصر؟ وأين تقع عقر - عقرون التي تمتد حتى نحل مصريم هذا؟ إننا لا نعرف عقرون في فلسطين تمتد حتى غزة وإلى البحر الكبير ووادي مصر؛ مروراً بجبل شمير ومرسه وعنم وزوف؟ عقرون بمثل هذا التوصيف تصبح دولة عظمى لا مجرد منزل قبلي؟ ولكننا نعرف الوادي اليمني عقر الذي تغنّى به امرؤ القيس في شعره - انظر عقرون في السبط السابق - والسائر فيه صوب مخلاف ذي جُرة وخولان (يجر وحولون عند يشوع) يصل بالفعل، إلى وادي مسر (وليس مصر) قبل أن يواصل طريقه نحو البحر، مجتازاً سلسلة من المواضع في مخلاف ذمار بن ءسدد -ءشدد ورداع، حيث عُزلة عزه وسواها. وهذا كله سوف نراه بوضوح تام في المواضع والمنازل القادمة.

الفصل الرابع

خراب الهيكل الأول
في سراة اليمن

البكاء على أورشليم وعند حائط المبكى

عير- ها- ملح

يُكافئ الاسم: عير-ها- ملح في العبرية عادة، بالاسم التقليدي مدينة الملح. وقد دارت نقاشات غنية بين أهل الاختصاص حول اسم هذا الموضع التوراتي الذي لا وجود له في فلسطين. في هذا الإطار اقترح أحد الكتاب[1] ترجمة الاسم إلى: دار الملح ضمن سراة غامد وزهران في بلاد عسير. وهذا تلاعب غريب من الطينة الاستشراقية نفسها. والاقتراح حتى في هذه الحدود لا يعالج المشكلة الناجمة عن وضع الاسم في جغرافية بلاد عسير؛ حيث يستحيل الوصول إلى دليل واحد على وجود بقية المنازل. بكلام آخر إن الاقتراح يضع المكان خارج الفضاء الجغرافي لسائر المواضع، الواردة في نص يشوع وقائمته. ولأن

(١) جغرافية الجذور، مصدر مذكور ص: ١٥٩:

عير -ها- ملح في القائمة هي قرب التَّقون-ءلتقون وحلحل- حُلْحُل؛ فإن البحث يجب أن ينصب في هذه الحالة على الحيز نفسه، الذي وجدنا فيه كل المنازل السابقة، نعني الفضاء الجغرافي لسراة اليمن وليس فلسطين أو بلاد عسير. وعلى وجه التحديد في سراة المصانع إلى الجنوب من حجَّة، على مقربة من صنعاء حيث تغنى الشعراء الجاهليون بموضع التَّقون وحُلْحُل- حلحول-. ولنبدأ من الكلمة العبرية (عير) التي فُهِمَت استشراقياً على أنَّها تعني مدينة، بينما نرى أنّ أجواء النصّ العبري والثقافة البدوية العربية القديمة لا يشيران إلى هذا المعنى؛ بل إلى معنىً محدد هو (منازل، بيوت، مضارب) أي: إلى المواضع والأماكن التي نزلت فيها القبائل. وهذا واضح من مراثي الشعر الجاهلي لمنازل القبائل، إذْ ما من شاعر إلا ويبدأ قصيدته بأبيات مطلعها البكاء على المنازل. وفي الواقع؛ فإنَّ لتقاليد البكاء على المنازل في الشعر العربي القديم، صلة وثيقة وعضوية بثقافة البكاء العربية الأولى، الصحراوية التي لا تزال مستمرة حتى اليوم[1]. في هذا الإطار يجب أن يُنظر إلى البكاء اليهودي عند حائط

---

(١) ونجد رواسبها في الغناء العراقي الحزين والبكائي. والمثير للاهتمام في هذا الإطار، أنّ أبناء الريف العراقي، في الجنوب، لا يزالون - حتى اليوم- يفضلون مغنيّاً شعبيّاً له شهرة واسعة النطاق في بغداد وبقية المحافظات العراقية يُدعى المنكوب، ويردِّدون معه أغنيته الشهيرة التي يقول مطلعها: أمرن بالمنازل منازلهم خليّة أي (خاليه، مهجورة). والمثير للاهتمام، أن قبائل الجنوب العراقي لا تزال تنطق الأسماء وحتى بعض الأفعال بإضافة النون، وهذا ما يعيد تذكيرنا بالنون الكلاعية التي يشتهر بها اليمنيون القدماء؛ فهم يقولون في أمر - أي أسير إلى-: أمرّن، وفي أظن: أظنن وأكول - أقول- أكولن (أقولن) و راديو(راديون). ما من سبب- بالطبع- يدعو ابن بغداد للبكاء مع المغني على المنازل المهجورة، سوى السبب الأكثر جوهرية والمتعلق بالتقاليد الشعرية وثقافة البكاء القديمة هذه (درسنا هذا الأمر في مقالة طويلة في الناقد البيروتية بعنوان: نواح الأقنعة وأعاد نشرها رياض الريس في كتاب السيف والقلم مع =

المبكى وإلى تقاليد البكاء اليهودية على أورشليم المهدّمة؛ كتواصل لتقاليد ثقافية قديمة عرفتها القبائل العربية في طفولتها البعيدة. ولن يُفهم هذا التقليد بصورة صحيحة وخلّاقة، من دون إدراجه في سياق تقاليد ثقافة البكاء البدوية العربية الأولى التي انتقلت مع الهجرة الكبرى، إلى مصر وبلاد مابين النهرين وتجلّت مع تأسيس الحضارات العظيمة فيهما، وهذا واضح في الشعر السومري وفي أساطير تموز وعشتار وإيزيس وإيزوروس، وصولاً إلى تقاليد البكاء الكربلائية في عاشوراء على الإمام الحسين عند أبناء الطائفة الشيعية في العراق. ومن غير شك؛ فإن تقاليد البكاء اليهودية عند ما يسمى حائط المبكى (البراق) تنتسبُ بقوة، إلى التقاليد البدوية الأولى في المنطقة، عندما كانت الجماعات العربية البائدة تعيش طفولتها القاسية في حقبة الهجرات الكبرى بحثاً عن الطعام، وعن أوطان جديدة، أي عن أرض ميعاد. فكما بكى الشعراء على المنازل المُحطمة والمهجورة؛ بكى الأنبياء (الذين تصوّرهم التوراة كشعراء مثل إرميا وأشعيا) على هذه المنازل ومنها أورشليم الأولى. ولذلك؛ فإن فهماً عميقاً لدلالة الكلمة العبرية (عير) بمعنى منزل قبلي بدلاً من مدينة، سيكون ضرورياً لأجل فهم أعمق لتقاليد البكاء اليهودية، وإعادة وضعها داخل بيئتها القديمة والحقيقية، التي اختطفتها القراءة الاستشراقية وقامت بتغْريبها واحتكارها. لقد كان الهدف الاستراتيجي، الخفيّ والمسكوت عنه من إحتكار تقاليد البكاء ونسبتها إلى اليهود، يسير في الاتجاه نفسه لأحتكار الفاجعة بما هو امتياز الجماعة المُضَطهدة. قال الحارث بن حِلّزة (المعلقة):

زعموا أن كل مَنْ ضَربَ العير ... موالٍ لنا وإنّا الولاءُ

= دراسات لكتاب آخرين - انظر الهامش حول مجلة الناقد والكتاب في المصادر والمراجع).

إن الحارث بن حلّزة في تَمثُّله العميق للإشارات المُختزنة في المفردة العربية القديمة (عير) بمعنى (خيمة) يشير إلى الفكرة التالية: ليس كل من يضرب وتداً في الأرض قصد الأقامة؛ يمكن أن يحصل على الحق في الانتساب إلى القبيلة مالكة الأرض. هذه الرابطة الوثيقة بين الوتد الذي يُشدّ إلى الأرض، وبين نشوء القرابات الأسرية هي التي تعطي الدلالة الحقيقية لكلمة عير العبرية-العربية. ولنلاحظ أن الشاعر وبروحه البدوية النافرة من كل غريب وطارئ على الأرض، يرفض أن يكون نزول الغرباء قرب أو في مضارب القبيلة، سبباً كافياً لقبولهم مواليَ أي: كأبناء عمومة. يقول المُتَلمس الضبعي (الديوان):

يُعطون ما سُئِلوا والخطا منزلهم كما أكبَّ على ذي بطنهِ الفهدُ

ولن يُقيمَ على خَسَفٍ يُسامُ به إلّا الأذلانِ عيرُ الأهلِ والوتدُ

وبذا تتضحُ الدلالة الحقيقية للكلمة العبرية (عير) بمعنى المنزل القبائلي وليس المدينة، لأن الجماعات البدوية والرعْوية التي صورتها التوراة والشعر الجاهلي، ومنها الجماعة العربية- اليمنية القديمة بنو إسرائيل، أقامت في منازل لا في مدن - بالمعنى العصري للكلمة كما توحي القراءة الاستشراقية بذلك-. هذا النمط القديم من الاستيطان، الذي سعى المخيال الأوروبي إلى طمس معالمه وتهشيم صورته ودلالته، سوف يتطور- تالياً- إلى قرى ومُجمعات سكنية أكثر تنظيماً واتساعاً؛ ليمهد السبيل أمام ظهور الممالك الصغيرة في اليمن القديم، والتي تُعرف حتى اليوم باسم المخاليف - جمع مخلاف، مثل مخلاف حضُور- حصور ومخلاف ماذن -مدن في التوراة. وثمة رابطة قوية بين الكلمة اليمنية مخلاف وبين الدلالة التي تنطوي عليها عملية توارث الزعامة، حيث الأبناء يخلفون الآباء داخل الأسرة الواحدة. هذا النموذج القبلي في الحكم لا وجود له في التاريخ الفلسطيني، وليس هناك من دليل واحد على وجود مخلاف فلسطيني يُدعى

مادن قرب حصور؛ بينما سنجد في السراة اليمنية مخلاف حضُور إلى جوار مخلاف ماذن تماماً. بهذا المعنى؛ فإن اسم الموضع عير-ها- ملح ليس مدينة الملح في فلسطين المُتخيَّلة، كما في الترجمة السائدة، وليس دار الملح في عسير، كما اقترح أحد الكتاب؛ بل هو جبل الملح الشهير في مأرب والذي كان من منازل السبئيين. وهنا الدليل: تروي جملة من المصادر العربية- الإسلامية أن الرسول ﷺ أقْطَعَ الأبيض بن حمّال السبئي، في جملة ما أقْطَعَ للمسلمين اليمنيين جبل الملح في مأرب؛ وذلك حين وفد الأبيض على رسول الله طالباً الإسلام. لكن رجلاً من المسلمين في المجلس خاطب الرسول ﷺ معترضاً وقائلاً: إن في جبل الملح ماء عدّ، أي ماء لا ينضب؛ وأن سُنّة رسول الله هي أن المسلمين جميعاً شركاء في الماء والكلأ والنار. ولذا أعاده الرسول ﷺ إلى أملاك المسلمين. لقد كان اليمنيون يعرفون بعمق، المعنى الذي ينطوي عليه احتكار هذا الموضع من قبل جماعة بعينها. قال أعشى همدان واصفاً ثروات جبل الملح:

واقفاً يُجبى لهُ خرْجُهُ   كل ما بين عُمان وملح

وقال البُحتري (الديوان: من البحر الوافر):

وكان البُعدُ عن ملح   عدو الصبر والجلدِ

أتوبُ إليكَ من بيْنٍ   سوى هذا ومن بُعدِ

فإنْ غَنيت لنا دارٌ   بجمع الشمل لم أعُدِ

وقال جرير (الديوان):

تُهدي السلامَ لأهل الغورِ من ملح   هيهاتَ من ملحٍ بالغورِ مُهدانا

وكما رأينا؛ فإن يشوع يضع عير ها- ملح قرب سلسلة من المواضع لا وجود لها في فلسطين أو عسير، مثل حرمه وفج المولدة والسفل

ويام. وها هنا وصف الهمداني لجبل الملح في سراة المصانع (صفة: ٢٠٤):

... وهذه المواضع مساقطها من الجبل في جنوبي مأرب، ومساقطه في شمالها إلى نهج (طريق) الجوف فإلى جبل الملح. وليس بجبل مُنتصب ولكنه جبل في الأرض يُحفر عليه.

ثم يضيف (صفة: ٢١٧):

وتنقلبُ كلها (أي مياه الأودية - المؤلف) إلى الخارد وعذر مطرة (..) وملح (.....) وجبل ذَيْبان وحرمه وجبل يام إلى هيلان إلى حريب ثم الجوف الأعلى، وبه من القرى هرّان والسفل وفجّ المولدة.

وهذا هو بالضبط، تسلسل المواضع الواردة في القائمة حيث يقع جبل الملح ومنازله في نطاقها، وحيث فج المولدة هي فج المولدة (رقم: ١٤) وحرمه هي حرمه (رقم: ٢٤) وعذر هي عذر (رقم: ١) إلى الجنوب من مدينة مأرب وفي السراة ذاتها. إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين التاريخية قرب المواضع الآنفة، يُدعى الملح وكان من منازل القبائل وفيه ثروات هائلة من المياه وملح الطعام والمعادن. فهل كان يشوع يصف جغرافية فلسطين أم كان يصف السراة اليمنية؟ من الواضح أننا حيال موضع لم يكن مدينة في أي وقت من الأوقات؛ بل كان منزلاً (عير) من منازل القبائل، وهذا ما يُفسر السبب الجوهري والتاريخي لمُطالبة الأبيض بن حمّال السبئي، بأن يحصل على حق استرداد الجبل، بماهو من منازل قبيلته قرب مأرب (إذ ليس من المنطقي أن يطالب بجبل الملح في فلسطين).

حلحول التوراة وسكاكه ودنّه ووادي العرب

نَسَبتْ القراءة الاستشراقية موضع حلحول-حلحل بالعبرية والوارد في سِفر يشوع بالصيغة الآنفة، إلى جغرافية فلسطين حتى من دون الالتفات إلى قربها من عير- ها- ملح. وهذا دليل آخر على الطبيعة المُخادعة في تحديد الأسماء على أساس لغوي محض. إن أحداً لا يعرف حلحول الفلسطينية هذه قرب عير- ها- ملح؛ بل ليس ثمة حلحول فلسطينية في فضاء جغرافي واحد مع فج المولدة وحرمه ويام. وفي الواقع؛ فإن قراءة الاسم حلحل في صورة حلحول كانت تهدف، وبصورة مباشرة إلى إقامة تماثل بين القرية الفلسطينية القديمة حلحول في الضفة الغربية، وجبل حُلحُل اليمني على مقربة من بلد صُحار في سراة المصانع حيث جبل الملح. قال الأخطل (ياقوت ٢ :٣٣٢، معجم البكري: ٤٦١):

قـبَّـح الله مـن الـيـهـود عـصـابـةً بالجزع ما بين حُليْحلٍ فصُحارِ

في هذا الهجاء المُقذع يقوم الأخطل بتصغير اسم الموضع حلحل إلى حُليحل، على جري عادات الشعراء العرب في الهجاء تحقيراً للمكان وسكانّه، وهذا واضح من استخدامه لكلمة عصابة في وصف الجماعة اليمنية اليهودية التي أقامت ما بين صُحار وحلحل. إن الربط بين عصابة من اليهود أي جماعة صغيرة معزولة لعلها من بقايا جماعة أقدم، وبين المكان حلحل المنسوب -عند يشوع - إلى سبط يهوذه؛ جدير بأن يُنظر إليه على أنه يندرج في إطار معرفة حقيقية بموضع من مواضع القبائل قرب بلد صُحار، كان يقيم فيه - حتى العصر الأموي- رهط من بقايا سبط يهوذا لم يدخلوا الإسلام وظلوا على دين آبائهم. يصف الهمداني بلد صُحار في سراة المصانع على النحو التالي (صفة: ١٢٣ : ١٢٤):

ثم يتصل بها سراة المصانع وأعلاها جبل ذُخار وحضُور بني أزاد (..) وغورها الباقر (.........) وسُمع وفج عك وبه المدهاقة والفاشق والمنصول من أرض صُحار من عك (........) ومسْور والعُر وشرس.

هذا هو بلد صُحار وعلى مقربة منه جبل حُلْحُل، كما وصفه الشعراء في الحيز الجغرافي الذي يجمع مأرب وحضرموت. أما سُكاك -سكاكه فهو من أودية حضرموت الشهيرة في الأحقاف موطن النبي هود؛ وكنا لا حظنا الصلة الوثيقة التي تجمع اسم السبط اليمني- الإسرائيلي يهوذه بما يُعرف في الإخباريات العربية الكلاسيكية والقرآن (بقوم هود). قال ذي الرّمة (الديوان):

فَهُنَّ ينهضنَ إلى الصدورِ خوارجاً من سككٍ ودورِ

وسكاك ودور موضعان يمنيان معروفان ورد ذكرهما مراراً في التوراة وبالصيغة ذاتها (سكاكه ودور) وسيرى القارئ مغزى هذا التلازم، بوضوح أفضل عندما يعود إلى مادة (دور) في حروب داوود، والتي صورتها القراءة الاستشراقية في صورة (دورا) القرية الفلسطينية التي لا تعرف وادي سكاك هذا. قال بشار بن بُرد:

عِنان ياأُمنيتي وياسكني أما تريني أجولُ في سككِ

وكنا رأينا من مادة عنان التوراتية - فيما سبق من صفحات هذا الكتاب- أن المقصود بها موضع بعينه، قرب وادي سكاك في حضرموت موطن السبط الإسرائيلي يهوذه (هوده في حضرموت والأحقاف). وللتحقق من مقاصد سارد النصّ سنعود هنا إلى المقطع الخاص بوادي سكاك - سكاكه:

(وب-مدبر- بيت -ها-عربه- ومدين- وسكاكه-وها- نبشن-
وعير-ها- ملح.)
(وفي البادية بيت العرب ومدين وسكاك والنبشن ومنزل الملح)

والعرب من الأودية الكبيرة (التي أشرنا إليها مراراً) في السراة اليمنية التي تمر في المكان نفسه،حيث يمكن الانتقال منه إلى وادي سكاك حسب وصف يشوع. يؤكد ياقوت (٣: ٢٦٠) إن وادي سكاك اليمني من أودية حضرموت وقد تغنّى به الأعراب قديماً، أي بالضبط في المكان الذي رأى إليه يشوع على أنه الموطن القديم والتاريخي لسبط يهوذا، حيث أقام السبط هناك مملكته -مخلافه المعروف باسم مخلاف يهوذا. قال أعرابي:

جابَ التنائف في وادي سُكاك ذات الأماحل في بطحاء أجيادِ

وحضرموت كما نعلم مُتاخمة لمأرب، ومنها يمكن السير صوب الأحقاف، وهي سلسلة من الكثبان الرملية والكهوف. قال الأعشى (الأسود بن يعفر، معجم: ٣٧٩) واصفاً وادي العرب:

أسناه أحْمِرَةٍ صَدَرْنَ معاً نبتَ الشمام لهنّ والعُربُ

يملأنَ جوفَ متالعٍ ضَرِطاً فضّاً يَردُّ فضيضهُ الهضبُ

إن أحداً لايعرف وادياً يُدعى ها- عربه (العرب) في عسير أو فلسطين. بينما عرف اليمنيون واديهم هذا الذي عبره داوود في أثناء معاركه وحروبه وفي أثناء فراره من وجه غريمه الملك شاول. لقد تخيلت القراءة الاستشراقية هذا الوادي في صورة وادي عربه وزعمت أنه نفسه وادي العربة الأردني، وذلك في سياق المُطابقة التعسفية بين قصص التوراة وجغرافية فلسطين، ومن دون أن تأخذ بنظر الاعتبار وجود سلسلة

من المنازل المجاورة؛ لا وجود لها أصلاً في فلسطين مهما بحثنا هناك. قال لبيد بن ربيعة العامري (الديوان):

فلما اعتقاهُ الصيفُ ماءِ ثمادِهِ   وقد زايلَ البُهمى سفا العربِ ناصلا

ولم يتذكر من بقية عهده   من الحوض والسُّوبان إلّا صلاصلا

ما يقوله لبيد واضح كل الوضوح: ها هنا وادي العرب وهناك الحوض-حوصه عند يشوع التي تجتمع المياه فيها لتصب في البحر. وكنا شرحنا ذلك تفصيلاً (في مادة حوصه). يتبقى في صدد المواضع الواردة في المقطع الآنف، أن نلاحظ مغزى وجود موضع ها- نبشن-النبشن. يرسم اسم هذا المكان في العبرية في صورة قريبة من (النبجن) بمعاملة الشين جيماً. والاسم في صورته هذه لا ينطوي على أي نوع من الاجتهاد الشخصي، بل من الالتزام بالرسم كما هو في العبرية. ومع ذلك، لا تعرف فلسطين التاريخية موضعاً يُدعى النبشن- بالشين- أو النبشان، كما لا تعرف (النبجان) بمعاملة الشين جيماً، لا قرب سكاك ولا قرب وادي الدنا أو وادي العرب؛ بينما عرف شعراء العرب هذه المواضع قرب البعض. يصف الهمداني موضع (النبجه) بوصفها مسيل مياه (النبجن- بإلحاق النون الكلاعية) قرب مسيل مياه أون[1] وغير بعيد عن وادي الشكول-ءشكول في التوراة؛ وهي في الفضاء الجغرافي ذاته لسائر المواضع الواردة في المقطع الآنف (صفة: ٢٦٤):

> ومن الأودية التي تدفع في الخرج (طريق اليمامة) الروقية (..) ثم تنحدر من الثنيّة ففي أصلها ماء يُقال لها النبجه (..) وأوان وفي العمايات مياه منها الشكول

---

(١) في الطقوس الماسونية المعاصرة ينظر إلى أون كمدينة مصرية مقدّسة استناداً إلى ورودها في التوراة.

سلسلة المياه المتجاورة هذه، والتي تردُ في نص يشوع ونصوص التوراة الأخرى على التوالي، تماماً كما عند الهمداني في النصُ المذكور (رُقية، أون، وادي ءشكول، النبجه- النبجن) تدفع بنا إلى الاعتقاد بوجود وحدة جغرافية (إيكولوجيا) يصعب تخطي منطقها الصارم، فليس ثمة مياه متجاورة ومتدانية أو قريبة من بعضها من بعض في فلسطين التاريخية، وتحمل الأسماء نفسها الواردة في التوراة. إن وجود وادٍ يُدعى النبجه-النبجن غير بعيد عن وادٍ يُدعى النباج ذكره الشعر العربي القديم، يدعم تصورات يشوع والهمداني لمنازل القبائل في الفضاء الجغرافي نفسه. فهذه المياه التي تحمل اسم النبجه ولا تبعد كثيراً عن وادي النباج، ترتبط بصلات قرابة لغوية وجغرافية بالمكان نفسه. يقول البكري[1]: النباج، نباجان في قبلة الفلج (أي في البادية المعروفة باليمامة على الطريق إلى حضرموت) موضع قرب ثيتل ينزلهما اللّهازم من بني بكر ابني ثعلبة. قال ابن مقبل:

إذا أتَيْنَ على وادي النباج بنا   خُوصاً فليس على ما فاتَ مُرتجعُ

ها هنا النباجان في البادية تماماً كما وصفه يشوع. وفي هذا الحيز الجغرافي تقع مياه الدنا-دنه عند يشوع غير بعيد عن مدين وسُكاك. قال النابغة الذّبيانيّ:

فأمواهُ الدنا فعويرصاتٍ   دوارسٍ بعدَ أحياء حلالِ

وقال الفرزدق:

فتى السّن كهلُ الحلمِ قد عَرفتَ له   قبائل ما بين الدنا وإيادِ

وقالت الخِرَنق بنت بدر (الديوان، مجزوء الوافر):

---

(١) معجم ط: بيروت: ٤: ١٣٩.

فأمواه الدنا فالنجـ ـدِ فالصحراء فالنسرُ
فلاةٌ ترتعيها العيـ ـنُ فالظلمان فالعُفرُ

يصف الهمداني مياه الدنا هذه على النحو التالي (صفة: ٢٩٥):

> والغمر غمر ذي كندة (في حضرموت-المؤلف) والسّر وعاقل وبه قبر الحارث الملك بن عمرالكندي والنباج وعيهم على طريق اليمامة إلى نجد (.) عُراعر ماء (.......) ذو الجليل من مواضع الوحش. الدنا، وإليها تُنسبُ أمواه الدنا جماعة ماء وعويرصات.

هذه هو الفضاء الجغرافي لسلسلة المنازل الواردة في نص يشوع، كما وصفها الهمداني والشعر الجاهلي وبالأسماء نفسها.

عُناب ونُعمى ولبَنه وغرام الشعراء بالأماكن

استناداً إلى نص يشوع تقع عناب في آخر السرو، غير بعيد عن جوشن وسواها من المواضع التي يجمعها مع جبل شمير حيز جغرافي واحد:

> (وفي السرو: شمير ويتر وشوك ودنا وقرية سنّة -وهي دبر- وعناب وء شتمه وعنم وجوشن وحولن وُجله: ١٥ : ٢١ : ٦٢)

لا تعرف فلسطين التاريخية موضعاً يُدعى عناب في آخر السرو، الذي يضمُّ شمير وجوشن وعنم. بيد أن جغرافية اليمن تعرفها بصورة لا تُخطئها العين، وهي موجودة، بالفعل، في آخر السرو حيث تبدأ عندئذٍ حدود نجد اليمن، لتمتد باتجاه حضرموت شرقاً وإلى الحجاز شمالاً. قال كثير:

ليـاليَ منـهـا الـواديـان مـظَـنَّـة فـبـرق الـعـنـاب دارهـا فـالأمـالـحُ

وذكرها عمروبن قميئة:

وكـأنـي عـرفـتُ ديـار الـحـيّ بـالـسـفـح عـن يـمـيـن الـعُـنـابِ

وقال أرْطأة بن سُهَيَّة:

تـمـشي بـهـا خُـرجُ الـنَّـعـام كـأنـهـا بسفح العُنابين بين النساء الأراملِ

وقال عمرو بن مرْخيَّة (انظر ياقوت، مواد: ٨٦٠١، ٨٦٠٤):

أرقـتُ بـذي الآرام وهـنـاً وعـادنـي عداد الـهوى بين العُناب وحنثلِ

كل هذه المُقتطفات الشعرية تشير إلى جبل عُناب (سفح عُناب) حيث سار الشعراء قاصدين منازل القبيلة. فهل هي مُصادفة لغوية أن يكون موضع عناب عند يشوع، من منازل يهوذه؛ وأن يكون عُناب عند الهمداني والشعراء العرب، من منازل القبائل العربية البائدة؟ بل وأن يكون جبلاً في البادية؟ ولماذا لا نجد هذا الموضع في فلسطين إذا ما قبلنا مزاعم القراءة الاستشراقية؟ لأجل الاستدلال إلى المكان وفي الحيز الجغرافي نفسه للمنازل الواردة في النص، فسنقوم بإعادة قراءة الهمداني. يقول الهمداني (صفة: ٢٩٨) ما يلي:

بلاكث - الأخرى- بين غمرة ومدين والعناب وهو عنابه (..) فمجدل فالمثال وعاثرة (..) ذو سويس وأله.

ها هنا عناب ومدين تماماً كما في نص يشوع. يقول البكري (معجم: ط بيروت: ٣: ٢٢٩): العُناب، بضمِّ أوله، موضع ما بين بلاد يشكر وبلاد بني أسد، وأصل العُناب الجبل الصغير المُنتصب. وكنا رأينا أن بلاد يشكر-يسكر هي جُرش-جرشن عند يشوع وأحوازها. أما ديار بني

أسد فهي في الامتداد الجغرافي نفسه لجُرش باتجاه النجد، حيث وادي المثال ومجدل وعاثرة. هذا هو عُناب الجبل غير بعيد عن مدين والدنا- دنه والنباج وسواها من المواضع. وفي هذا النجد حيث بلد وادعة وبلد همدان- كما بينا من قبل- تقع (ءشتمه) الواردة في نص يشوع الآنف. يُرسم اسم هذا الموضع في الترجمة السائدة في صورة (ء شتمو[1]) والرسم العربي الصحيح هو (ءشتم). برأينا أن المترجمين أخطؤوا في ضبط الاسم، ولم يلاحظوا أن الميم الأخيرة في (ءشت) هي أداة التعريف اليمنية المنقرضة؛ ولذا يتوجب رسمه في صورة (الشت: ءشت). وهذا الموضع من المواضع النجدية المعروفة في بلد وادعة النجدية من همدان، وتُعد من أحوازها قرب جُلجُل- جلجل عند يشوع. قال الراجز اليمني أحمد الرداعي (صفة: ٣٧٢) ذاكراً موضع الشتات:

أو كالقطا الكدري قاربات إلى شتاتٍ متواهقات

يقول الهمداني-في تعقيبه على هذا المقطع من الرجز- ما يلي: شتات موضع في بلد وادعة النجدية من همدان. يعني هذا، أن المكان المقصود في نص يشوع شتم-ءشتمه هو نفسه الذي يسميه الهمداني (شتات مفردها شت). ومن الواضح أن الاسم المقصود يتطابق، حتى على صعيد التوصيف الجغرافي، مع الاسم الذي يرسمه الهمداني في صيغة جمع المفرد. ومن غير المنطقي افتراض وجود مصادفة جغرافية، وضعت المكان في الفضاء الجغرافي ذاته، بينما يستحيل العثور على هذه المواضع متقاربة في جغرافية فلسطين. لقد حددنا في الفصول السابقة المواضع الواردة في المقطع الآنف، ويتبقى الآن تحديد موضعي

(١) في لهجات القبائل العربية القديمة تستعمل الواو الأخيرة مع السين اللاصقة كما في لهجات حضرموت (بهنسو في ابنه، نفسيهو، في نفسها) والسين ضمير الغائب في لهجة أهل حضرموت بشكل خاص.

بيت نعامه ولبنه (انظر القائمة). إن الرسم العبري للاسم الأول هو بيت نعامه. فهل تعرف فلسطين موضعاً نزلت فيه القبائل القديمة يُدعى بيت نعامه؟ وفي الحيِّز الجغرافي نفسه للمنازل السابقة؟ إن أحداً لا يعرف مثل هذا المكان؛ والقراءة الاستشراقية تتجاهله وتقوم، بالضد من منهجها الصارم، بالتغاضي عن وجوده في فلسطين. تقع نعامه عند يشوع قرب بيت داجون، غير بعيد عن لحماس- الحماس ودلعان؛ وعند الهمداني تقع نعامه في المكان نفسه. إليكم وصف الموضع المقصود في الجوف اليمني قرب بيت بوس ورفح وعند تخوم وادي دبرة وقرب وادي حضُور (صفة: ١٥٦-١٥٧):

> **وما أقبل من عد وَرَد وهو وادٍ يصب مع سامك ودبرة إلى الحقلين والسهلين وما أقبل من أشراف بيت بوس، ونُقم وما بينهما من حقل صنعاء. ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف ماذن من حضُور وبيت نعامه.**

ها هنا سيل وادي بيت نعامه وقد اختلطت مياهه بمياه مخلاف ماذن- مدون في التوراة وحضُور وجبل نُقم-لقُم وبيت بوس، في الفضاء الجغرافي نفسه الذي وصفه يشوع. وبالطبع ليس ثمة من مكان آخر لا في فلسطين التاريخية ولا في عسير-كما افترض د. كمال صليبي- يُدعى نعامه (نعمه) قرب المنازل القبلية ذاتها. قال الأخطل واصفاً نعامه في السرو:

برقتِ بعارضكِ ولم تجودي ولم يكن ذاك من نُعمى ثوابا

ليست نُعمى هذه معشوقة الأخطل كما توهم رواة الشعر القدامى والنقّاد المعاصرون؛ بل هي وادي نعامه الذي ألفَ القدماء رسم اسمه في صورة نعمه ونعمى (مثل عزه وعزى). قال بشار بن بُرد في وصف الوادي:

إذا لاحَ الصّوارُ ذكرتُ نعمى وأذكرها إذا نَفَح الصّوارُ

كأن حمولهم لفحات وادٍ من الجبار طابَ بها الثمارُ

والصّوار في بيت بشار اسم أشهر بطون حمير (الذي أنجب ملوك همدان). وهذا ما يؤكد أن نعامة- نعمه التي عناها بشار إنما هي وادي نعامة ذاته لا معشوقته كما توهم نقّاد الشعر العربي القديم. وقال النابغة الذّبياني:

أصابَ بني غيظ فأضحوا عبادهُ وجلَّلها نُعمى على غير واحدِ

وقال ابن ميادة[1] راسماً اسم نعامة في الصورة ذاتها التي يرسمها الهمداني:

فهل يمنعني أن أسيرَ ببلدة نعامة مفتاح المخازي وبابها

وقال النابغة الذُّبياني:

أهاجكَ من سُعداكَ مَغْنى المعاهدِ ببُرقة نُعمى فذات الأساودِ

هذه هي نعمه التوراتية التي لا وجود لها في فلسطين التاريخية، وتلك هي سيول واديها التي خوّض فيها العابرون في السرو.

أما لبنه عند يشوع فهي جبل لَبن عند الهمداني وفي الشعر الجاهلي. وهنا يتوجب التنبيه إلى أهمية وضرورة التمييز بين موضع لبنة عند يشوع، والمقصود به لُبنى الجبل الشهير الذي عُرِفَ بأشجاره الباسقة ذات الثمارالحلوة الشبيهة بالعسل؛ والمُسماة عند القدماء بعسل لُبنى (لبنات اسم الجمع العبري للمفرد لُبنى: الشجرة الواحدة) وبين لبنه في هذه

(١) الرّماح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني، توفي ٧٦٦م، شاعر مخضرم نُسبَ إلى أمه ميادة.

القائمة، والتي يُقصد بها حصراً جبل لَبَن. وفي قصص التوراة يُدعى خال يعقوب (لَبن) ويُرسم في الترجمة العربية في صورة (لابان) وذلك ما يُعيدنا إلى النقطة المركزية في فهم البُعد الرمزي في القصص التوراتية. لقد سجلت قصص التوراة من المنظور الرمزي أسماء المواضع، وصوَّرتها في هيئة أبطال وأشخاص يلعبون أدواراً بطولية في حياة الجماعات البشرية، كما فعل الشعر الجاهلي. ولذلك ترسخت مع الوقت الصور الآدمية (البشرية) للمواضع والأماكن وصارت دالاً على مدلول بشري، كما هو الحال مع لُبنى وسلمى وعُنيزة وميّة ونعمى، اللواتي جرى تخيلهنَّ في هيئة معشوقات لشعراء لا يجمع بينهم جامع زمني أو مكاني. مثل هذا التمييز الضروري سوف يساهم في تفهم المقاصد الفعلية من الأسماء الواردة، بما يشبه التكرار في نص يشوع. قال صريع الغواني:

ما كنتُ أحسبني أحيا وتملكني   من بعد حُرية[1] لبُن وأحجارُ

وقال ذو الرّمة:

حتى إذا وجَفَت بُهمي لوى لُبن   وابيضّ بعد سواد الخُضرة العودُ

وقال طُفيل (معجم: ط- بيروت: ٣: ٢٥٧):

جَنْبنا من الأعراف أعراف غَمْر   وأعراف لُبنَ الخيل يا بعدَ مَجْنَبِ

وقال الراعي النميري (معجم -ط بيروت: ٤: ٣٥):

سيكفيك الإله ومُسنمات   كجندل لُبن تطرّدُ الصلالا

وقال النابغة الجعدي (الديوان):

(١) تحدثنا في فصول هذا الكتاب عن حرية الواردة في التوراة في صورة (حري، «حره، «حري).

وذكرتُ من لُبنِ المُحلق شُربةً　والخيلُ تعدو بالصعيدِ بدادِ

يقع جبل لُبن في سرو حمير حيث نزلت طيئ قرب جبل القنان، حسب تحديد البكري والسجستاني في روايتهما لبيت زيد الخيل. قال أبو حاتم السجستاني إن زيد الخيل في قصيدته:

وأحللتكُم من لُبنَ داراً وخيمةً　وكنتم بأطراف القنان بمرتعِ

أراد جبل لُبن وليس لُبنى. مثل هذا التمييز الدقيق الذي يعرضه علينا النقّاد القدامى في روايتهم الشعرية؛ جدير بأن يُنظر إليه من جانبنا على أنه تمييز يتمع بقابلية عالية على حسم الجدل حول المكان المقصود.

حول سبط (جاد) ووادي حضر

حصر جد

الرسم العبري لاسم الموضع هو حصر جد (رقم ٧١). وقد حافظ المترجمون على هذا الرسم من دون الانتباه إلى أن الاسم يجب أن يُرسم في صورة (حضَر) بالضاد العربية المُعجمة (مثل: ءرص- أرض). وبذلك كرر المترجمون الخطأ نفسه مع اسم الوادي والمخلاف الشهير حضُور الذي رُسِمَ في صورة حاصور تارة وحصور تارة أخرى. وفي الواقع لا وجود لمكان بهذا الاسم (حصر جد) لا في فلسطين ولا في أي بلد آخر في العالم، وهو بصيغته هذه تلفيق جغرافي سيظل خيالياً إلى النهاية. ولكن؛ إذا ما جرى رسم الاسم وضبطه ضبطاً عربياً صحيحاً؛ فسيكون بوسعنا العثور عليه في الفضاء الجغرافي نفسه لسائر المنازل السابقة التي أقام فيها سبط يهوذه-هَوْذه. تعني كلمة (جد)[1] ومنها- برأينا- جاء اسم

---

(١) أثارت كلمة (جد) الواردة في النقوش والمساند اليمنية ومدوّنات القبائل البائدة =

السبط الإسرائيلي جاد (القديم، العتيق) وعند العرب العاربة والجماعات البائدة؛ فإن كل بئر قديمة أو موضع قديم هو (جد). وثمة صلة حميمة بين كلمة جد العربية بمعنى والد الأب، وبين دلالتها التي تنصرف إلى القديم والعتيق. ومن هذه الكلمة جاء اسم الجماعة اليمنية القديمة والزائلة (الجدون) الذين أقاموا قرب جبال شمير. ولنلاحظ هنا أن جد العبرية- اليمنية (جدن)- بإلحاق النون الكلاعية في آخر الاسم على جري عادات النطق عند اليمنيين- لا وجود لها بأية صورة من الصور في فلسطين التاريخية، كما لا وجود لاسم حصر أو حَضَر؛ بينما على الضد من ذلك نستطيع رؤيتهما في السراة اليمنية كاسم موضع واسم جماعة في المكان نفسه. بقي أن نشير إلى أن أنساب اليمن التي شرحها وفصّلها الهمداني في (الإكليل) وأشار إليها في صفة جزيرة العرب أيضاً، تضمُّ اسم جماعة عربية بائدة تُدعى جُديد- تصغير جد، وهذا اسم الأب الأعلى للأزد سكان عُمان القديمة، ومنهم بقية في الساحل السوري يعرفون باسم (جديد)[1]. يعني هذا أن اسم جد-من دون تصغير- موجود في السراة

= في شمال وجنوب الجزيرة العربية، نقاشات وخلافات كبيرة بين علماء الآثار. ففي نقش عثر عليه محفوراً على قبر كبير إل مناع إل ملك دادان (مملكة دادان) قام العالم الآثاري كاسكل بترجمة النص على النحو التالي (كهف كبر ال بن متع ال ملك ددن وثر ونعم به نار جد) قائلاً إن (نار جد) اسم موضع. لكن كري وهو عالم آثار مرموق اعتقد أن الاسم يشير إلى الذات الإلهية (اسم الله) بينما اقترح بيستون أن (نار جد) هي اسم إله الحظ، وأن (نار) اصلها (لوار) وتعني إله عند العبريين، إن تسمية المعبود بجد تقليد معروف في عدد من أقطار الشرق القديم، كبعل جد عند البابليين، ومجدال جد عند الآشوريين، وكذلك جد نعم ونعم جد عند السبئيين وجد عوض وجد ذايف عند الصفويين. للمزيد انظر (اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام، أحمد شرف الدين - مصدر مذكور).

(١) انظر ما ذكره الهمداني في صفحة ٩١- الهامش.

اليمنية لا في فلسطين. وفي هذا السياق؛ فإن اسم المدينة الساحلية المعروفة في المملكة العربية السعودية جدة، لا صلة له باسم جد بمعنى العتيق، القديم؛ بل هي ذات صلة بالجذر نفسه الذي يؤدي إلى كلمة جادة أي: الطريق الطويل والمستقيم. نخلص من ذلك إلى القول: إن المقصود بالاسم حصر جد في العبرية هو: حضَر جد، أي وادي حضَر المنسوب إلى جدن-القبيلة التي تعرف في التاريخ القديم بملوكها من آل ذي جدن (آل ذي جد) تمييزاً له عن أية مواضع أخرى، يمر أو يصب فيها الوادي.

وادي حضر

يُعدُّ وادي حضر من أهم أودية مخلاف رداع وثات، إلى جانب ثريد-سريد وصور عند تخوم مأرب، حيث يصب وادي العرب. وحسب وصف الهمداني؛ فإن جبل الجدون (مفرد جد) يقع قرب شمير (صفة: ١٤٧):

> **جبال السكاسك (...) سمع وصبر للحواشب، جبال الركب: شمير، والجدون ودُبّاس (ملاحظة المحقق: لم نعثر على جبل الجدون[1] رغم البحث، ثم وقفنا على جبل الجدون من جبال موزع)**

ها هنا جد -جدون حسب البناء العبري- اليمني القديم. أما وادي حضر فهو من الأودية التي يقع فيها الطريق القديم من عدن إلى صنعاء، وكان يُعد في عصر الهمداني من أودية قبيلة الإعضود من بني جعدة. وهاكم ما يقوله الهمداني في وصف سرو حمير (١٧٢-١٧٤):

(١) تدعم هذه الصيغة اعتقادنا بأن البناء العبري للأسماء (صور صورون، صيد، صيدون، عقر، عقرون، جد، جدون) هو من أبنية الأسماء اليمنية القديمة، وأن العبرية بما هي لهجة منقرضة من لهجات اليمن حافظت على شكل البناء ووظائفه.

سرو حمير وأوديُته وساكنُه: العُر لأذان من يافع ووادي حضر الذي فيه محجَّة عدن إلى صنعاء (.....) ووادي ضُرعة (....) حضَر للأعضود من جعدة.

فهل هي مصادفةٌ محض، أن يكون وادي حضَر لبني جعدة عند الهمداني وأن يكون حصر عند يشوع لبني جد؟ وهل هي مصادفة أن يكون سبط دان في المكان نفسه في صورة قبيلة أدان- أذان؟ إننا لا نعرف على وجه الدقة الروابط والوشائج اللغوية بين جد (جدون) و (جدن) القبيلة والجماعة الزائلة، التي أعطت أو أخذت اسمهما من جبل الجدون؛ وبين القبيلة العربية جعدة مالكة الوادي. ومع ذلك؛ فإن التقاليد اللغوية العربية القديمة كانت تسمح بإسقاط حرف العين من النطق واستبداله بالهمزة، ولنلاحظ أن حرفي العين والهمزة يتماثلان في الرسم (ع- ء) وهذا ما نجده في كنعان العبرية وكنأن العربية (كنانه) بعد إسقاط الهمزة. وبحسب وصف الهمداني الآنف؛ فإن وادي حضَر يمر في بلاد الحواشب- حشبون من الضالع (بما يبعد عن قعطبة اليوم بنحو ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب منها) حيث يصب في أبْيَنْ؛ وهذا هو سرو حِمْيَر الذي يوجد فيه شمير. إن أحداً لا يستطيع المُضي في فلسطين التاريخية، مُتتبعاً وصف يشوع نحو حصر-وجد؛ لأن مكاناً بهذا الاسم لا وجود له هناك؛ بينما يستطيع السير نحو منازل جدن في الوادي نفسه حضَر. بهذا المعنى يتوجب قراءة الاسم في النص العبري، الخالي من الفواصل، على النحو التالي: (حضَر، وجد) بوصفهما موضعين.

إلى بيت لحم اليمنية عبر الفرات؟

يلتبس اسم (ءفرة) في النص العبري (ءفراتة في الطبعة العربية من التوراة) في ذهن قارئ النص، باسم (الفرات) النهر العراقي الشهير. لقد

نشأ عن هذا الالتباس، سوء فهم فظيع أدّى بدوره إلى نوع مثير من الدمج الماكر والمُخادع، تجلى في أبشع صوره في تخيل حدود مملكة إسرائيل القديمة؛ التي لا وجود لها في التاريخ الفلسطيني، وقد امتدت من النيل إلى الفرات. هذه الفكرة المُخْتَلقة لم تنل ما يكفي من السجال ضدها، في إطار فهم مقاصد النص التوراتي من الاسم والطريقة الصحيحة لضبطه. لكن شهادة الهمداني ستكون حاسمة في هذا الميدان، فهو يصف النيل اليمني في سياق توصيف الأودية ذاتها التي يسجلها نص يشوع، ومنها مسيل وادي ءفرة. إن وجود اسمي النهرين العظيمين النيل والفرات في الكتاب المقدس لليهودية، هو مخيال استشراقي قامت أوروبة بتصعيده في سياق حمى الاستيلاء على الأرض في الشرق في عصر الفتوحات؛ وهي وجدت في قراءة الاسم (ءفرة) في صورة (الفرات) استكمالاً للصور الاستشراقية وتطويراً مُنظماً لها. يقول نص يشوع عن (ءفرة) ما يلي:

> **وتقوع وء فرة وهي بيت لحم.وُفعر وعُطم وقولون وتتم وشرس**
> **- ١٥ : ٢١ : ٦٢ -**

كما تمت إضافة المقطع التالي إلى النصّ الآنف: (ء فراة وهي بيت لحم) وذلك استناداً إلى نسخة يونانية من التوراة. فكيف حوَّلت القراءة الاستشراقية (ءفراة) إلى (الفرات)؟ وما صلة الفرات أصلاً، ببيت لحم الفلسطينية؟ ولماذا جرى القفز على هذا الاستدراك الواضح والقاطع والذي لا يقبل الجدل: (ء فرة وهي بيت لحم)؟ وإلى هذا كله؛فإن التوراة في مرويتها عن حروب داوود، تذكر اسم بيت لحم وء فرة في سياق أحداث تدور في مواضع لا وجود لها قط، في فلسطين.

تقع (ء فرة) اليمنية في حرّة الصبيح (أو ما يدعى وادي صيحان) في الشمال الغربي من ذمار، وهي وادٍ كثير الينابيع. والبكري (معجم: ٨٤٧)

يضبط الاسم في صورة (فراة). وفي وادي صيحان هذا، تصب مياه وادي شرس-سرس. وبكل يقين فإن بيت لحم الفلسطينية لا وجود لها قرب وادي شرس؛ والذين يعرفون تاريخ المدينة وجغرافيتها لم يسمعوا بوادٍ على مقربة منها يُدعى وادي سرس. بيد أن سكان وادي صيحان يعرفون مسيل مياه تدعى فراة، كما يعرفون قبيلة لخم العربية الشهيرة - بالخاء المُعجمة- التي أعطت اسمها للمكان لخم- لحم. وهنا بعض الملاحظات الضرورية عن الموضع :

١- ارتبطت حروب داوود ببيت لحم وبموضع فراة؛ بل إن داوود نفسه يُنسب إلى فراة هذه كما سنرى، بحيث يدعى في بعض نصوص التوراة داوود الإفراتي من بيت لحم، وهو استولى في حروبه على ءفراة هذه وانتزعها من أيدي الإرميين بعد سلسلة من المعارك. لكن تاريخ الآراميين في بلاد الشام وفلسطين لا يعرف أي شيء عن هذه الحروب، كما لا يعرف أي شيء عن بيت لحم-لخم الوادي الذي يُسمى أيضاً فراة؟ وليس ثمة أي دليل لغوي أو جغرافي أو تاريخي أو أثري عن سقوط الفرات العراقي- السوري في يد ملك يُدعى داوود. فهل اختلقَ يشوع هذه المواضع؟ أم أنها تقع في مكان آخر؟ إن النص الآنف المأخوذ من النسخة اليونانية، له أهمية عظيمة في نسف الأساس الذي استندت إليه القراءة الأوروبية.

٢- يقول البكري: إن فراة تقع في وادي الصيح- صيحان حسب ضبط الهمداني بينما يقول نص يشوع، إن بيت لحم هي قرب وادي شرس. إليكم هذه المقاربة بين نصي يشوع والهمداني (صفة: ١٢١-١٢٥) في وصف وادي صيحان وما يجاوره من مواضع في سراة اليمن:

ثم يتصل بهما سراة جُبلان و(وادي) صيحان و(وادي) العرب ونقيل السود وجبل حضُور (..) وأسافل حضُور وهو غوره مثل بلد الصيد وشُم (..) وسُمع ومسور والعر وشرس (..) فراجعاً إلى فج عك.

ها هنا وادي صيحان (صيح) الذي نسب البكري إليه مسيل مياه فراة وها هنا وادي شرس-سرس على مقربة منه، تماماً كما في وصف يشوع. وإلى جوارهذه المواضع هناك سلسلة من الأماكن سجلها النص مثل وادي العرب ها- عربه وسُمع-سمع ومسور- مسريم وشرس. لكن الهمداني يضبط اسم فراة هذا في صورة فرَوة- اسم التصغير من فراة- قائلاً عنه: إنه مسيل مياه وآبار غير بعيدة عن وادي شرس في صَعدة. ها هنا مقاربة أخرى بين النصين (صفة: ٢٢٤):

لعيان من همدان وأدران وحجة ونمل وشرس (..) أما حقل صَعْدَة فإنه مُختزل من همدان (....) وأما ظاهر خولان فهو أسل وفيه زروع وأعناب (.....) وأفقين وفرَوة وهي أرض سيل وآبار

ها هي فَرْوَة (اسم التصغير من فراة): مسيل مياه وآبار تماماً كما وصفتها التوراة في حروب داوود. ولنلاحظ هنا ما يلي: إن نص يشوع ونصوص حروب داوود لا تشيران ولا بأي صورة من الصور، إلى أن ءفرة هي نهر؛ بل إن كلمة نهر أضيفت على النص الأصلي من التوراة.

٣- ولأجل فهم أعمق لمقاصد النص التوراتي، لا بد من الاستدراك على الاسم في جملة: (ء فرة وهي بيت لحم). ولهذا الغرض سنقوم -هنا- بتفكيك الترابط اللغوي والتاريخي بين بيت لخم (بالخاء المُعجمة) ولخم القبيلة اليمنية الشهيرة التي تشآمت (أي هاجرت إلى الشام حسب لغة النصوص الكلاسيكية العربية). وإلى هذه القبيلة كما هو معروف تنتسبُ الأسرة اللخميّة التي أسّست ثم حكمت لقرون عدّة مملكة الحيرة في العراق. إن بيت لحم الفلسطينية لا تُدعى ءفرة؛ وإذا ما قبلنا مزاعم القراءة الاستشراقية القائلة أن المقصود بها الفرات العراقي-السوري، ففي

هذا الحالة لن تكون ثمة رابطة بينه وبين بيت لحم في فلسطين، لأنها ببساطة لا تقع على نهر الفرات؟

يروي البكري (معجم: ٢٨٩) رواية هامة للغاية عن بيت لحم القرية التاريخية التي أسستها قبيلة لخم اليمنية وأعطتها اسمها، وبالطبع قبل أن تهاجر إلى بلاد الشام بقرون. ولنلاحظ هنا مغزى التطور في نطق حرف الخاء المُعجم في العربية- في اسم القبيلة- حاء مهملة، وصلة ذلك بالطفولة البعيدة للقبائل العربية. يروي البكري:

حدثني الحجاج عن ابن جُريَجْ عن عكرمة قال: لما أسلمَ تميم الدّاري، قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله: الله مُظهركَ على الأرض كلها فَهَبْ لي قريتي من بيت لحم؟ قال: «هي لك». وكتب له بها. فلما استخلفَ عمر وظهر في الشام، جاء تميم الدّاري بكتاب رسول الله ﷺ فقال له عمر: أنا شاهدكَ فأعطاه إياها)

ما تقوله هذه الرواية الثمينة والنادرة ما يلي: إن بيت لحم الفلسطينية هي من قرى اللّخميين اليمنيين المهاجرين إلى بلاد الشام؛ لأنَّ تميم الدّاري السائح المشهور في الجاهلية، والذي طاف الأرض ووضع أول معجم جغرافي للعرب قبل الإسلام، وحدث الرسول ﷺ بما شاهده من بلدان وشعوب، هو من زعماء قبيلة لخم واسمه الذي عُرِفَ به هو: تميم بن أوس الدّاري اللّخمي. لقد أقرَّ الرسول ﷺ في الإسلام المبكر وقبل فتوحات الشام، لقبيلة لخم اليمنية بحق استرداد قريتها التاريخية بيت لحم وإدارتها مع الإسلام، لأنها كانت من منازلها في اليمن ثم في الشام. وفي هذا الإطار، ثمة صلة لغوية عضوية وحقيقية بين لخم العبرية ولخم العربية، فهما تشيران إلى القبيلة نفسها مالكة المنزل القبلي الذي تسميه نصوص التوراة بيت لخم؛ أي منازل قبيلة لخم اليمنية في وادي صيحان،

حيث مسيل مياه وآبار ءفرة، غير بعيد عن وادي شرس حسب توصيف يشوع. بهذا المعنى وحده يمكن فهم مقاصد النص التوراتي ءفرة وهي بيت لحم.

٤- كان تميم الداري اللّخمي صحابياً جليلاً، وقد استقر في قريته بيت لحم بعد سنوات من السياحة في الأرض، طاف فيها على البلدان ووصف الشعوب والجماعات -وحدَّث الرسول عنها-. وكتاب المقريزي المعروف (ضوء الساري في سيرة تميم الداري) يلقي الكثيرمن الأضواء على هذه الشخصية المثيرة.

تُرى لماذا يطالب رجل من قبيلة لخم بأن تُعاد له ملكية قرية فلسطينية تُدعى بيت لحم، قبل أن ينتصر الإسلام نفسه؟ ولماذا يُقرُّ له الإسلام بهذا الحق لو لم تكن بيت لحم من قرى قبيلته اليمنية المهاجرة إلى الشام؟

حول بيت حولون في جبل حضُور

لدينا في قائمة يشوع الأسماء التالية حسب الرسم العربي: حصور حدته- حضُور حدا (رقم ١١) قريوت حصرون قرية حصر (رقم ١٢) حصر شوعال-حضَر شُعل (رقم ١٧). وهذه الأسماء تبدو متماثلة على نحو يصعب التمييز بينها. وكما هو واضح من تراكيب الأسماء؛ فإنه يبدو كما لو كان ينسب إلى وادي حضَر، وبعضها الآخر ينسب إلى مخلاف حضُور. إن حصر وحصور، موضعان لاوجود لهما في فلسطين على وجه الإطلاق، بينما نجدهما في السراة اليمنية بسهولة وإلى جوارهما سائر المنازل التي يذكرها يشوع. لنتوقف قليلاً هنا عند مقاصد نص يشوع من الاسم بيت حولون الذي يرتبط باسم حصور. ولأجل التفريق بين الصيغتين ومنع الخلط بينهما، فسوف نعطي الوصف الصحيح لكل منهما. رأينا مما سبق أن المقصود باسم حصر جاد (جد) إنما هو حَضَر الوادي الذي

أقامت فيه قبيلة جدن- جدون امتداداً حتى جبل شمير في سرو حِمْير، وهو الجبل الذي نزلت فيه جماعة مندثرة عُرفت تاريخياً باسم الجدون. فضلاً عن وجود بطن آخر من الجماعة عُرف باسم آل ذي جدن، أقام في سراة المصانع قرب صنعاء في الامتداد الطبيعي للسرو نفسه (صفة: ٢١٢). بينما يُقصد بحضُور في نص الهمداني ويشوع، الجبل والوادي. وهذا هو سر تكرار اسم حصور في نصوص يشوع. هذا التمييز الضروري هو الذي سوف يقودنا إلى تحديد موضع حولون. يلاحظ محقِّق الهمداني في حديثه عن الجبل الشامخ حضُور ما يلي (هامش ص: ١٢٢):

> **جبل حضُور عال منيف يُقال: إنه أرفع جبل باليمن وفي قمته قرية تُسمى بيت خولان.**

ومن غير شك؛ فإن وجود موضع له صلة بحضُور يدعى بيت خولان، أمر مثير ويتوافق بصورة مذهلة مع وصف يشوع، الذي يشير إلى بيت حولون في المكان نفسه حيث وادي مسور والظلمة وسُمع وشيعان ووادي العرب وسواها، وهي منازل في السرو المتصل بسراة عذر. وهنا توصيف الهمداني لما يُسمى سراة جُبلان وسراة الكلاع، ومباشرة بعد وصف وادي شيعان (صفة: ١٢٢-١٢٧):

> **ثم يتصل بها سراة ألهان فظاهره ضوران ومذاب وجبل حضُور(.....) وأسافل حضُور هو غوره مثل شُم وبيت أقرع وسُمع ومسور والظلمه وشرس وأرض أدران وعيان ثم يتصل بهذه السراة سراة عذر وهَنوم.**

يميِز الهمداني في هذا النص بين جبل حضُور الشامخ حيث بيت خولان (حولن-حولون) في أعلى قمته، وبين وادي حضُور الذي تختلط

مياهه بمياه أودية سجلها نص يشوع بدقة؛ مثل وادي مذاب -مدبء ومسور-مسريم، وسواهما مما ورد في النص أعلاه. تكمن أهمية هذا التمييز من جانبنا نحن أيضاً، في أنه سوف يمكننا من رؤية المعنى الحقيقي للتكرار في نصوص يشوع، والتوراة لأسماء مثل قريوت حصرون وهي حصور (رقم ١٢) حصر، حصور، حصر جد، حصور حدته (رقم ١١) إلخ. وهي أسماء عجز علماء التوراة عن تقديم تصور عنها، ولكنهم وضعوها بصورة اعتباطية في فلسطين التاريخية. ها هنا بيت حولون-حولن التي سجلها يشوع قرب حضُور وقد ظهرت في نص الهمداني كموضع في المكان نفسه. إن اسم الموضع التوراتي حصور حدة-وفي الرسم العربي السائد: حصور حدته هو ذاته وادي حضُور الذي تجري مياهه عند نقطة التقاء بلد حدا ومخلاف حضُور إلى الشرق من صنعاء. ولأن النصَّ العبري على غرار نصوص القبائل العربية البائدة في النقوش التي تركتها، يفتقد إلى الفواصل بين الكلمات، فقد اختلط الأمر على محققي النص العبري وظنوا أن هذه الأسماء هي تراكيب لغوية. ولذا لا بد من فصل الاسمين حضور وحدة (بلد حدة- حدا) المتاخم للوادي. وفي هذا المكان سوف نعثر على اسم قريوت الذي سجَّلَه يشوع فهو وادي قروى (والبناء العبري كما رأينا يضيف الواو والنون أو الواو والتاء). ولنلاحظ استدراك النص التوراتي: قريوت حصرون وهي حصور. وهاكم وصف الهمداني الدقيق (صفة ٢١٦):

ووادي قروى ووادي سيان ووادي مقولة ووادي سامك ووادي دبرة ووادي مرحب (..) ويحادها من ناحية القحف الحدا، ومن ناحية يكلى جيرة. ومن أودية ذي جُرة فأما جمهور هذه المياه فإلى ثلاثة مواضع ويلاقيها سيل مغرب صنعاء من مخلاف مأذن وحضُور.

عند هذه النقطة التي تلتقي فيها مياه الأودية الكثيرة والغزيرة، قبل أن تصبَّ في البحر سوف نعثر على مسيل مياه حضُور قرب بلد الحدا، تماماً كما في وصف يشوع (حصور- حدة). وفي هذا الحيز الجغرافي وُجِدَت منازل وادي قروى قرب حصور (قريوت وحصرون). إننا لا نعرف موضعاً في فلسطين يُدعى حصور قرب موضع آخر يُدعى حدا كما لا نعرف قروى هناك. لكننا نعرف من الهمداني أن مياه حضُور تسيل بالقرب من بلد حدا؛ وأنها تلتقي مياه وادي قروى في المكان نفسه. قال بشار بن بُرد (الديوان، من مجزوء الكامل):

فَـدَعِ الـفـضُـول لأهـلـهـا   قـطَـعَ الـمِـراءَ حـضُـور صـاعـدِ

حول أحيرام ملك صور ومروية التوراة عن بناء الهيكل الأول (من مناخ إلى وادي صور في مملكة يهوذا)

هذه هي- بصورة إجمالية- معظم المواضع الواردة في قائمة يشوع لمنازل سبط يهوذة- هَوْذه وما تبقى منها، سبق لنا تحديده في الفصول السابقة فلا حاجة للتكرار. وهنا الجزء الواقع في نجد اليمن مع بعض المنازل في السرو، والتي تركناها إلى خاتمة هذا الفصل وهي: مقيده- مقيد، شلحيم-سلحين، عاتر-عاثر، قعله-قعله، نصب-نصب، ومناح- مناخ، وبيت صور- بيت صور، وقبصءيل- القبص. إن لمن الهام للغاية تكرار حقيقة أن هذه المنازل لا وجود لها في فلسطين التاريخية، بينما نعثر عليها في توصيفات الشعر الجاهلي وعند الهمداني، وبالأسماء ذاتها دون أدنى تلاعب من جانبنا. ولنبدأ من الموضع الأول هنا وهو وادي مقيد.

الرسم العبري للاسم هو مقده. وفي الطبعة العربية من التوراة يُرسم في صورة مقيدة بإضافة ياء وسطية. والضبط العربي الصحيح حسب

الروايات الشعرية هو مقيد بإسقاط الهاء الأخيرة أو التاء المربوطة (مثل بيش في بيشه). قال الفرزدق (معجم: ١٢٠):

لو كنتَ تدري ما برملِ مُقيّد   فقرى عُمان إلى ذوات الحجرِ

في هذا البيت تأكيد قاطع من الفرزدق، على أن (مقيَّد) ليس منزلاً قبلياً في فلسطين؛ بل هو من منازل القبائل العربية على الطريق إلى وادي الحجر في تهامة، عبر سرو حِمْير وصولاً إلى قرى عُمان. إن الهجاء المقذع والمُتبادل بين جرير والفرزدق في العصر الأموي، يتضمن مادة مثيرة تَخْتَزِنُ وصفاً دقيقاً لمنازل القبائل ومواضع إقامتها، ربما لم تُجرب ثقافتنا العربية المعاصرة بعدُ اكتشاف قيمته الثمينة. لقد مضى الشاعران في هجائهما قدماً، على طريق تقليد شعري قديم أساسهُ توصيف المواضع. ومع أننا لا نملك دليلاً قاطعاً على معرفتهما المباشرة بالأماكن الموصوفة؛ فإن التوصيفات الشعرية الأخآذة تُدللُ، من منظور موازٍ، على القيمة التي أولاها الشعر العربي لهذا الجانب، من خلال ربطه بأساليب وأنماط الحياة الاجتماعية والعادات ومائدة الطعام والأنساب. ها هنا يُعيّر الفرزدق خصمه جرير بشظف العيش الذي عاشته قبيلته تميم عندما كانت تقيم عند وادي مقيّد. ولذا رد جرير قائلاً:

فليسَ بصابرٍ لكم وَقِيظٌ   كما صبرت لسوأتكم زرودُ[1]

فقد أخزى الفرزدق رهطَ ليلى   وتَيْماً قد أقادهمُ مُقيدُ

في هذه الأبيات يعطي جرير اسم الموضع الذي أقامت فيه قبيلته تميم (وادي مقيّد) على مقربة من وادي زرود- زرود في تثنية الاشتراع. وبالطبع؛ فإن من المحال التفكير بوجود مقيد في فلسطين قرب زرود، بينما تقول لنا

(١) انظر ما كتبناه عن وادي زرود المذكور في التوراة (مادة زرود).

نصوص التوراة أن زرود هو الوادي الذي عبره بنو إسرائيل نحو قادش (ونعبرو-ءت- نحل- زرد: فعبرنا وادي زرود: ١٣ : ٢:٣٩: ١ - تثنية الاشتراع). فكيف تمَّ تمرير هذا التزوير الفاضح في جغرافية التوراة؟ ولماذا جرى نقل وادي زرود ومقيّد إلى فلسطين؟ يقول ياقوت (٥ : ١٩١) ما يلي: مُقيّد من أرض الصمّان في بلاد بني تميم. وهذا تأكيد قاطع آخر على أن الموضع لا صلة له بفلسطين. قال مروان بن أبي حَفْصة:

قَطَعَ الصرائِمَ والشقائقُ بيننا   ومن الوريعةِ دوّها فمقادُها

في هذا البيت يعطي الشاعر اسم مقيّد برسم مألوف في الشعر، حتى عند جرير نفسه (مقاد) ويضعه على مقربة من الدّو، وهي في نصوص التوراة دوتن. قال جرير:

أيُقيمُ أهْلكِ بالسّتارِ وأصْعدَتْ   بين الوريعة والمُقاد حمولُ

والآن: لابد من التوقف عند مرويات التوراة الخاصة بسفن الملك سليمان، والتي نقلت الخشب من صور لبناء الهيكل. ترتبط هذه المرويات بوجود ملك يُدعى ءحرم (أحيرام في الطبعة العربية من التوراة) عاش في هذا الوادي الخصب وكانت له صلات طيبة مع سليمان وساعده في بناء بيت الرب (بيت الهيكل). وفي الواقع لا وجود لمثل هذا المكان في فلسطين، كما لا وجود لملك يُدعى أحيرم. وفضلاً عن ذلك لا وجود لأي أثر، مهما كان بسيطاً لما يُدعى هيكل الرب؛ بينما تعج أرض اليمن بما يُدعى- حتى اليوم- الهياكل- وهي أبنية قديمة لم تتبق منها سوى الأطلال. واليمنيون على جري تقاليد قديمة يسمون الأبنية العظيمة هياكل. وبالفعل؛ فإن أحداً لا يعرف صور فلسطينية أو لبنانية عاش فيها ملك يُدعى أحيرم (ءحرم في العبرية). كما لا وجود لأي أثر لغوي أو ثقافي أو جغرافي، يشير إلى بقايا جماعةٍ تنتسبُ إلى سَلمة-شلمة أو سليمان هذا،

كما لا يعرف التاريخ الفلسطيني بقايا جماعة تنتسب إلى أحيرم صديق سليمان (سلمة). فهل دارت هذه المرويات في إطار الأسطورة، أم ثمة ما يشير إلى مواضع وجماعات في جغرافية أخرى لا علاقة لفلسطين بها؟ ولأن صور المدينة العجائبية هذه، ترتبط عضوياً بقصص الملك سليمان كما ترتبط، على نحو ما بموضع يُدعى مناح- مناخ- مثلما يشير تسلسل الاسمين في قائمة يشوع، فسوف نرسم إطاراً جغرافياً متكاملاً عن هذين الموضعين. إن مناح عند يشوع هي ذاتها مناخ عند الهمداني - بالخاء المُعجمة- وهذا ما يُعيدنا إلى مسألة تطور شكل نطق حرف الحاءعند اليمنيين كما في نطق كلمة لحم - لخم. تقع مناخ اليمنية في مخلاف السّحول (الاسم القديم لمخلاف الكلاع) وكان ملوكه يُعرفون بالمناخيِّين، نسبة إلى موضع المناخ هذا. وقد ورد الاسم نفسه في النقوش الحِمْيَرية. إن مخلاف الكلاع أو السّحول هذا، يمتد من عقبة الذهوب في محافظة إب جنوباً إلى البادية (القفر) شمالاً. وسوف نلاحظ من وصف الهمداني أنه يقع على مقربة من سائر المنازل التي ذكرها يشوع في نصّه ومنها وادي صور. إليكم النص (صفة: ١٩٧-٢٠٣):

> **مخلاف السّحول ساكنه آل شرعب وبطون الكلاع وهي بطون من حِمْيَر (.. وادي) عنَّة وذو مناخ بن عبد شمس (..) وجبل أدِم ودمت في غربي قلامة ونمار (..) وملوك بلد الكلاع المناخيون في الجاهلية. ويتصل بمخلاف السّحول من شماليها يحصب السّفل فالسفل الواديان الصنع وشيعان (..) ومنوب (..) وورف العالية وماوة ومن جيشان بدر وصور وحضر**

في هذا النص المُكثَّف لدينا مناخ-مناح في الفضاء الجغرافي للمنازل الواردة في نص يشوع: دُمت -دمت وجبل أدِم-أدم وقلامة-قلامون

ونمار-نمر وشيعان-شيعان ومنوب- نوب (انظر سِفر صموئيل). والأهم من ذلك أن مناخ هي في الامتداد الطبيعي لوادي صور-بيت صور ووادي حضر-حصر، أي تماماً كما في وصف يشوع. إن بيت صور التي بحث عنها التوراتيون عبثاً في فلسطين قرب حصر-حضر ومناح، هي ذاتها وادي صور اليمني قرب مناخ كما في نص الهمداني أعلاه. ولسوف نلاحظ تالياً مغزى قول قصص التوراة الخاصة بسليمان، أن صديقه ملك صور كان يُدعى ءحرم-أحيرام؛ ففي وادي صور هذا أقامت جماعات قبلية تنتسب إلى أحِرمْ وهم أحرم من قبائل الصّدف اليمنية الشهيرة. ولذلك يقول الهمداني: إنَّ بعض الجماعات القبلية القاطنة قرب صور كانت (تتحرّم) أي تنتسب إلى أحرِم من قبائل الصّدف، وهم ملوك مخلاف الكلاع. وهنا النص مع هامش المحقِّق (صفة: ١٨١):

ومن الكلاع وبه بقية يسيرة (....) وعزان لبني سلمة وقوم يُقال لهم بنو أسد وقد يتحرّمون (المحقّق: أي ينتسبون إلى أحرم من الصدف).

ها هنا بقايا من الجماعة القبلية التي تنتسب إلى سلمة- شلمة في التوراة؛ وها هنا صور الوادي الخصب وسكانه من بقايا جماعة زائلة، تنتسب إلى أحرم-ءحرم في التوراة. وفي الفضاء الجغرافي للمكان هناك عز-عزه- أو عزان كما في نطق أهل الكلاع- وغير بعيد عنها مناخ-مناح. هل يتعلق الأمر بمصادفة جغرافية أو لغوية؟ ولماذا لا نجد بقايا من الجماعة التي تنتسب إلى ءحرم وشلمة في فلسطين التاريخية قرب صور؟ إن المنطوق الأصلي لمرويات التوراة عن صور وسفن سليمان وهدايا أحيرم من الخشب، يجب أن يوضع في إطاره الصحيح بوصفه مروية من مرويات قبائل اليمن التي اعتنقت اليهودية.

لقد روى اليمنيون القدماء في طفولتهم العبرانية البعيدة، قصة الصداقة التي جمعت ملكي الجماعتين القبليتين (شلمة وأحرم) في وادي صور، في سياق سلسلة من المرويات التي تحكي التاريخ بلغة الأسطورة. ومن غير شك؛ فإن القبائل كما تؤكد سلسلة من الشواهد الشعرية والسردية، كانت تسمي الوادي نهراً أو بحراً بحسب غزارة المياه فيه، وهو تعبير يكشف عن الطبيعة المجازية في الكثير من التوصيفات الجغرافية وفي الثقافة القديمة. كما أن نظرة العرب الأوائل اتسمت بالدهشة والانبهار لرؤية الأبنية والشواهد العمرانية، فهم سمّوا -مثلاً- كل بناء عظيم وشامخ هيكلاً. ونص الهمداني يزخر بمثل هذا الوصف للأبنية العظيمة. إليكم - مثلاً - هذه الملاحظة من محقّق الكتاب (صفة: ١٥٧) عن بيت نعامة والصمع وموضع حدقان:

ويقال له: قصر حدقان، وهو من الهياكل اليمنية التي فيها آثار ضخمة بالقلم الحِمْيَري يتضمن قوانين قامت على العدل والنظام.

هذا هو الإطار الجغرافي والثقافي القديم لمرويات التوراة عن الهيكل وصور وأحرم وسلمة. ولذلك يجب أن ينظر المرء بقدرٍ كبيرٍ من الاحتراس، والحذر، إلى التصورات الاستشراقية في التوراة العربية عن المواضع والقبائل والجماعات والمعارك والأحداث والقصص. إن ما يُدعى هيكل الرب في التوراة، بيت من بيوت العبادة التي أقامها اليمنيون القدماء في صور وقدس وبيت بوس وجبعة وبيت لحم وسواها. ولعل نص الهمداني وهوامش محققه، تكفي للتدليل على نمط المخْياليَّة التي طبعت بطابعها القراءة الأوروبية للتوراة، فليس ثمة هيكل تحت قبة الصخرة في القدس (بينما يقال: إنه جبل الهيكل وهذا تناقض فاضح في الصور الاستشراقية الزائفة). بل لا وجود لأي هيكلٍ مزعوم في طول

فلسطين وعرضها. لقد بُني هيكل الرّب في مخلاف- مملكة يهوذا في عصر سليمان (الأسطوري) بعد أن استعان بملك وادي صور وهو من قبائل أحرم اليمنية. وبكل تأكيد - وطبقاً للمنطق المثيولوجي في المروية - فقد استخدم الملكان لنقل الخشب، قوارب راحت تمخر مياه الوادي جيئة وذهاباً (بينما يستحيل تخيُّل سفن عملاقة تجوب شواطئ المتوسط جيئة وذهاباً بين فلسطين ولبنان).

يتبقى أن نشير إلى موضع نصب-نصب في نص يشوع الآنف، والذي قمنا بتفكيكه، فهي ذاتها نصب عند الهمداني وفي الشعر الجاهلي، وتقع أسفل العرمة -يعرم قرب السحلين - شلحيم عند يشوع، في البلاد التي تُعرف تاريخياً عند العرب ببلاد تميم. هنا وصف الهمداني (٢٥١ -٢٥٣) حيث ديار هوذة بن علي السحيمي الحنفي في أول اليمامة، وحيث موضع القنع-يقنعم[١]:

> ثم تصعد قاصداً اليمامة وإلى السلحين (المحقِّق: يُعرفان باسم سلح منهلان غرب الدهناء) ثم الصمَّان وليس بالصمَّان ماء عدّ. ثم تخرج من الجبال والشقاق إلى العثاعث وديار هَوْذَة بن علي السّحيمي الحنفي وهي أول اليمامة (...) والقنع (..) وبُرك ووادي المجازة وهذه الأودية مفضاها واحد في ذات نصب أسفل العرمة، وكل هذه الأودية فيها نخل وزروع ومساكن وهي تُسمى الثنايا ثنايا العارض وهو قفٌّ مستطيل أدناه حضرموت.

---

(١) الميم والياء العبرية في الاسم شلحيم، والميم من دون ياء في (يقنعم) من أدوات الجمع أو التثنية (شلحيم اسم التثنية من شلح سلح في العربية: سلحين) كما أنها هي ذاتها الميم اليمنية التي تُستخدم كأداة تعريف: القنع في يقنعم.

وجود موضع نصب قرب سلحين-شلحيم في نصي يشوع والهمداني في الفضاء الجغرافي ذاته لوادي مقيّد، يستحيل ردّه إلى المصادفة الجغرافية. قال بشار بن بُرد (الديوان: من البحر البسيط):

نَصبتُ والشوق عناني ونَصبني إلى سُليمى وراعيهنَّ في نَصَبِ

وقال عَلْقَمَة الحِمْيَري (بن شراحيل بن مرثد) واصفاً سلحين-شلحيم:

أبعد بينون لا عين ولا أثر وبعدَ سلحين يبني الناس أبياتا

رثاء عَلْقَمة لمنازل سلحين القديمة الزائلة، والبكاء على بَينون الشهيرة في اليمن (انظر البكري: ٧٤١) يندرج بكل تأكيد في إطارثقافة البكاء على المنازل القبلية في الشعر العربي والثقافة العربية الكلاسيكية، وهو في صُلب تقاليد الحنين والتشوُّق لمنازل وأوطان القبائل. ولأن فلسطين التاريخية الحقيقية لا المخياليَّة لم تعرف موضعاً يُدعى شلحيم أو سلحين قرب نصب؛ فإن وصف يشوع لا يمكن، في هذه الحالة، أن ينصرف إلى جغرافية أخرى خارج جغرافية اليمن القديم مادامت المواضع ذاتها وبالأسماء ذاتها هناك. ولنلاحظ ما يلي: إن وصف يشوع لموضع شلحيم هو على النحو التالي:

مقاربة بين نصَّي يشوع والهمداني

يشوع:
لبؤة- شلحيم -رمن
(ولبوءة وسلحين ورمان)

نص الهمداني (صفة: ٢٥١):
ثم تصعد قاصداً اليمامة فيكون عن يمينك خرشيم وهي هضبات مُطرحة إلى الحفرين وإلى السلحين والحفران هما الرّمانتان وهن من مياه العرمة

ها هنا الحفران-حفرئيم عند يشوع؛ وهما من مياه وادي يعرم-عرمه ويُطلق على كل منهما رمان (رمون عند يشوع). ويمكن للسائر في السراة اليمنية، أن يبلغهما صعوداً من جبل لبوءة (انظر لبوءة ووصفه فيما سبق من فصول) باتجاه اليمامة ماراً بمنازل سلحين-شلحيم ونصب. فهل بوسع مِنْ تخيَّل وجود شلحيم في فلسطين، أن يصل إلى نصب ويعرم ورمون إذا ما سار من تل حاصور باتجاه النقب؟ وهل هي مصادفة محض أن يتطابق وصف يشوع والهمداني ومعهما الشعر العربي القديم على هذا النحو، وبحيث تكون سلحين-شلحيم قرب منهلين للماء عرفا، بالفعل، باسم (رمن)؟ لاشك أن الأساطير اليمنية تروي ما نحن بأمسِّ الحاجة إليه. تقول إحدى الأساطير المرتبطة بقصة بناء سلحين أنها بُنيت في سبعين سنة، كمدينة أسطورية وباعتبارها هيكلاً عظيماً من الهياكل، وكانت مرتبطة بقصص بلقيس ملكة سبأ على مقربة من نجد صنعاء. وهذا أمر مثير يزخر بالكثير من الدلالات؛ فهو يشير إلى قِدم الموضع وارتباطه بأبطال القصص التوراتية. لقد نُسب هذا المكان إلى القبيلة اليمنية الشهيرة بنو سليح-سلح، التي هاجرت إلى بلاد الشام في وقت ما، حيث تمكن الضجاعمة وهم من بطون سليح، من السيطرة على بلاد الشام بعد وقت قصير من وصولهم.[1]

يتبقى موضع قعيله في هذه القائمة فضلاً عن عاثر وقبصئيم (الذي لم نُسجله في القائمة نظراً لتكراره في مواضع أخرى) ولنبدأ من قبصئيم التي

(١) انظر المستشرق الألماني نولدكه: أمراء غسان: ٤١ وما بعدها.

يسجلها يشوع في صورتين: قبصئيل وقبصئيم بما يُدلل على أن الأصل في الميم العبرية، هو استعمالها بوصفها أداة تعريف متأخرة فضلاً عن كونها أداة جمع وتثنية. إن الميم والياء العبرية في الاسم هي أداة الجمع أو التثنية: قبائص-اسم الجمع للمفرد قبص. ولما كانت العبرية لا تعرف حرف الضاد وتستعيض عنه بالصاد؛ فإن الضبط الصحيح للاسم هو قبائض. وهذا عينه الموضع الذي عناه ابن مقبل (معجم، ط: بيروت: ٣: ٢٩٤) بقوله:

منها بنعفِ جُرادٍ فالقبائض من ضاحي جُفاف مرى دُنيا ومُستمعِ

يشير بيت ابن مقبل إلى أن قبصئيم- قبائض، هي موضع في وادي جُفاف الذي أقامت فيه قبائل أسد وكان من أرضها. ومن أجل أن نستدل إلى المكان ونبلغه، فسوف نستعين بالشعر العربي الجاهلي ليدلنا إليه (تماماً كما فعلت الجماعة المهاجرة التائهة في الصحراء حين داهمها العطش، وراحت تغني أبيات امرئ القيس عن ضارج - انظر مقدمة الكتاب الأول). بشهادة الطرمّاح (معجم: بيروت: ٢: ٢٩) يقع وادي جفاف قرب مياه الدّنا (انظر موضع دنا السابق) وقرب جبتون- خبتون أو خبت. قال:

إلى وادي القُرى فرمال خبتٍ فأمواه الدَّنا فلوى جفافِ

وهذا يعني أن قبائض (قبصئيم - قبصئيل) هي في الفضاء الجغرافي لسائر المنازل التي سجلها يشوع في نصّه. أما قعيله-قعله التي هرب داوود نحوها (انظر الفصل الخاص بهروب داوود) فإن فلسطين التاريخية لا تعرفها؛ وسوف يكون من العبث البحث عنها هناك، ما دامت نصوص التوراة تحددها قرب نوف. لقد عرفت القبائل العربية العاربة سلسلة جبلية صغيرة بين ديار بني سُليم وجُرَش تُدعى قواعل- قعل، وهي بالفعل قرب ينوف -نوف التوراتية. قال امرؤ القيس (معجم: ١١٠١):

كـأن دثـاراً حَـلـقـتْ بـلـبـونـهِ   عُقـاب ينوف لا عقـاب القـواعـلِ

يصف امرؤ القيس هذا الموضع بدقة، ويبدو من قصيدته أنه كان يعرف نوف هذه، كما يعرف جارتها قعله معرفة مباشرة؛ إذْ تعرضت إبله في هذه السلسلة الجبلية الصغيرة لغارة من غارات اللصوص (عن ابن الكلبي - ياقوت: ٤: ٤٦٦). وهنا وصف الهمداني للموضعين (صفة: ٢٩٤):

> **وينوف والقواعل: جبلان. يُقال عُقاب ينوف وعُقاب ملاع فيُضاف إلى ينوف وإلى ملاعها.**

والآن: إلى الموضع الأخير في القائمة: عاتر. الضبط العربي الصحيح هو عاثر- بالثاء المثلثة-. إن نص يشوع يضع عاثر قرب عُناب- عنب وبُصاق-بصقه. الهمداني يفعل الأمر ذاته، ففي وصفه لنجد اليمن القديم يقول (صفة: ٢٩٨) ما يلي:

> **وصندد وبُصاق جبلان (..) وبلاكث بين غَمْرَة ومدين والعناب، والعناب هو عنابه (..) وعاثرة من بلد عامر فمجدل فالمثال (ثم) ذو سويس وأله .**

فهل ينطوي الأمر على مجرد توافقات عرضية جمعت أسماء سلسلة من الأماكن في حيز جغرافي واحد؟ في ختام هذا الفصل أود أن أشير إلى معتقد يمني قديم، تردد في الكثير من الأشعار عن وجود اتصال مباشر لليمنيين بشجرة هود النبي (يهوذه) الذي تُعد حضرموت موطنه الأصلي. إن الكشف عن قيمة هذا المُعتقد وأهميته في بحث من هذا النوع، تتجلى في الفكرة التالية: إن اليمنيين انتسبوا - ذات يوم- إلى أب أعلى هو هود- هوذه- بإسقاط الياء اللاصقة، كما أن أحد أشهر ملوك اليمن عشية

الإسلام كان يحمل الاسم نفسه هوْذَة السّحيمي الحنفي. وسوف نرى دلالة هذا كله حين نحلل سفر المكابيين ونتحدث عن معارك ملك يهودي لا يعرف عنه التاريخ المتحقِّق (المكتوب) أي شيء، ويدعى يهوذا أيضاً وقد خاض أشرس معاركه ضد الرومان حيث وقع الحادث الشهير في التوراة (ما يدعى خراب الهيكل الثاني). وإذا كنا رأينا مما سبق من فصول الكتب الثلاثة السابقة وهذا الكتاب (الرابع) أن الهيكل الأول احترق، أو تم نهبه وتدميره بضع مرات في السراة اليمنية؛ فإن المثير للدهشة - ونحن نعيد بناء الرواية التاريخية في التوراة- هو أن نكتشف الحقيقة المذهلة التالية: إن معارك سفر المكابيين ضد الرومان حدثت في منطقة اليمامة والسراة اليمنية وأن الهيكل الثاني تم تدميره هناك وليس في فلسطين؟

ينسب الهمداني - في إطار هذه الفكرة- إلى شاعر لا نعرف عنه أي شيء ويُدعى قحطان بن عابر الخزاعي (الإكليل: ١: ٩٧) قوله:

إني رأيتُ أبي هوداً يؤرقهُ حزنٌ دخيلٌ وبلبال وتسهاد

لا يحزننكَ إنْ حضب بداهية عاد بن لاوي بئس ما عاد

بصرف النظر عن ركاكة هذه الأبيات؛ ومع وجود احتمال قوي بأنها من تلفيق الهمداني نفسه (أو هو من بقايا تراث شعري موضوع ومختلق غالباً ما يلجأ إليه الإخباريون والرواة حتى اللغويون المشاهير مثل ابن منظور في لسان العرب) لأجل دعم مروياتهم وإسنادها وحمل القراء على تقبُّل استنتاجاتهم؛ فإن الأمر الهام فيها يكمن هنا: لقد استذكر اليمنيون القدماء صلة قرابة ثقافية بالتراث العبراني بوصفه تراث جماعات يمنية قديمة زائلة، تركت كل ما يدلُّ على أنها عاشت في السراة اليمنية وليس في فلسطين. إن أسماء مثل: عابر وهوذه ولاوي يُنظر إليها على أنها أسماء جماعات يمنية- عربية دخلت في شجرات الأنساب، وليست

أسماء جماعات يهودية غريبة، قدم لنا تاريخها بطريقة سردية مماثلة لطرق السرد الأسطوري. وهذا ما تشهد به المُفاخرات الشعرية داخل البلاط الأموي والعباسي حول انتساب بني إسرائيل وصلة قرابتهم باليمنيين. وبذا؛ فإن احتكار الغرب الأوروبي للرواية التوراتية منذ عصر الفتوحات والاستيلاء على الأراضي في الشرق، ونسبتها بالكامل إلى تاريخ مصنوع و(موضوع - مختلق) سيبدو مجرد استطراد في احتكار أعم: السيطرة على السرد التاريخي تمهيداً لتثبيت حق الاستيلاء على الأرض. وهذا هو جوهر المسألة ولبّها في النقاش الذي يثيره هذا الاكتشاف.

الفصل الخامس

خراب الهيكل الثاني: صراع ضد الرومان في اليمامة (رواية جديدة عن تمرد الحشمونيُين ومعارك الحسيديُين في بلاد اليهودية القديمة بسرو حمير)

مَنْ هو يهوذه المكابي الذي كان ملكاً في اليهودية عام ١٦٦-١٦٠ ق.م؟ ومن أين جاء لقبه هذا (المكابي)؟ ولماذا لم تذكره كتابات اليونانيين المتأخرين والرومان ضمن التاريخ الحقيقي لفلسطين؟ ومَنْ الحسيديون؟ وَمنْ خصومهم الحشمونيون؟ لقد صورت التوراة سلسلة من المعارك والحملات الحربية الرومانية على بلاد اليهودية؛ المُدعى أنها شمال فلسطين أي الضفة الغربية، أو ما يدعى اليوم في التراث الكتابي (والتاريخي: مملكة يهوذا) كما صورت سلسلة من الصدامات العنيفة التي رافقتها بدءاً من العام ١٩٨ ق.م. كما أن التوراة تفرد لواحدة من هذه المعارك حيزاً معقولاً تسرد فيه جانباً من الظروف والبواعث، التي دفعت بالحسيديِّين، وهم فرقة دينية يهودية مُتشددة؛ إلى التعاون مع خصومهم

المكابيين. وحتى هذه اللحظة، لا يزال معظم (إنْ لم نقل كل) النقاش التاريخي حول هؤلاء، يدور في نطاق التاريخ الفلسطيني على الرغم من عدم وجود أي دليل حقيقي، على أن فلسطين التاريخية كانت مسرحه الفعلي. إن إعادة بناء الرواية التاريخية عن المكابيين، سوف تسهم في حل الكثير من الألغاز المستعصية على الحل، وتعيد بناء التاريخ (العالمي) القديم برمته، بأكثر مما تقوم بتصحيح وترميم أطرافه المتكسِّرة أو التالفة.

بدأت الحملة الحربية الرومانية على بلاد اليهودية بعد استيلاء أنطيوخوس على مصر مباشرة، حيث تمكن من دخول يروشليم (أورشليم) بعد سنتين فقط.بعد نحو اثنين و ثلاثين عاماً من بداية هذه الحملة، أصبح يهوذه المكابي في العام ١٦٦ ق.م ملكاً على بلاد اليهودية؛ لتبدأ منذئذٍ، سلسلة جديدة من المعارك والصدامات الدامية. ولد يهوذه المكابي حسب قول كاتب السفر التوراتي في مكان يدعى (مِدان) لأبٍ كاهن يُدعى متنيه بن يوحنن بن سمعان[١] من قبيلة بني يريب[٢]. عندما أصبح يهوذا (هوذه) ملكاً في بلاد اليهودية واجه أكبر حملة عسكرية رومانية، كان قائدها المباشر أبلونيوس حاكم مقاطعة السمرا؛ حيث اصطدما في معركة وادي حورون الفاصلة. تمكّن يهوذه في هذه المعركة المُبكرة من حياته كملك قبائلي، من إلحاق هزيمة قاسية بالقائد الروماني الذي فر من ساحة

---

(١) على الأرجح فإن الاسم الحقيقي وضبطه هو (مثنة - مثنت). ولأن الميم في الأسماء، هي أداة التعريف اليمنية المنقرضة والعبرية لا تعرف حرف الثاء وتستبدله بالتاء؛ فإن الاسم يجب أن يضبط في صورة: المثنى بن حنه بن سمعان.

(٢) ما يدعم الاستنتاج السابق وجود اسم القبيلة (يريب) وهي ريب بإسقاط الياء اللاصقة (مثل يعرم: عرم، يكرب: كرب). وبالطبع ليس ثمة قبيلة في فلسطين أو الجزيرة العربية قاطبة تحمل هذا الاسم سوى الريب (ومنها الشاعر الشهير مالك بن الريب).

المعركة مع رجاله، باتجاه الساحل. في هذا الوقت كان أنطيوخوس (قيصر مصر الجديد) يستعد لتجهيز حملة كبرى على فارس؛ مستغلاً إفلاس الإمبراطورية الرومانية ولمواجهة المصاعب المالية التي كانت تعصف بها. اتجه أنطيوخوس من مصر نحو بلاد الشام ليتوقف في أنطاكية التي اتخذها عاصمة له.ثم أصدر، بعد وقت قصير من وصوله أوامر بتعيين بطليموس (قائد إقليم سورية وفينيقيا) وجرجياس أحد أبرز ضباطه، قائدين عسكريين مطلقين للحملة على فارس. ولذا قام القائدان فور صدور الأمر لهما، بتجنيد مرتزقة من القبائل الموالية للرومان؛ ومن بين هذه القبائل بنو إسرائيل؛ الذين سارعوا إلى إرسال فرسانهم من جبل أدم.

أدت هذه الإجراءات بيهوذه المكابي إلى الصدام مع جرجيوس، من أجل منعه من مواصلة عمليات التجنيد القسرية هذه. وهكذا؛ وإبّان التحضيرات لغزو فارس اشتبك الرومان مع يهوذه المكابي، مبكراً في معركة موضع عمواس؛ ثم وقعت - تالياً- معركة أخرى في جازر وفي نجد أدم (أي في مرتفعات جبل أدم) وفي يمنيه-منيه. في العام التالي؛ وعندما كانت العلاقات السياسية بين الرومان وبلاد اليهودية تتدهور بسرعة وتلوح في الأفق بوادر معارك ضارية جديدة، بدا أن الرومان كانوا يجمّعون قوات إضافية بقيادة ليسياس، قوامها ستون ألف جندي لم يكن الغرض منها سوى وضع حد لتمرد يهوذا على الإمبراطور (المصري). ولذا اندفع الرومان نحو بيت صور لتعسكر قواتهم هناك؛ وهو ما عده يهوذه المكابي إنذاراً باجتياح وشيك لبلاد اليهودية. وفي هذا الوقت أيضاً، ومع تزايد الحشود الرومانية قرّر يهوذه المكابي أن يعتصم، هو ورجاله، في حصن جبل صيون-صهيون تفادياً لهزيمة منكرة. ومع ذلك نشبت معركة أخرى أقل ضراوة في هذا المكان. كان يهوذه عازماً، رغم متاعبه مع الرومان، على فرض نفوذه السياسي والديني في بلاد

اليهودية؛ بل وتوسيع هذا النفوذ ليشمل بني عيصو- العيص في جبل أدم. ولذا قام (في إطار المواجهة المرتقبة مع الرومان) بمهاجمة هؤلاء في موضع (ءقربتين- القرب). كما هاجم جماعات بدوية من السراق واللصوص في (بين) وأخيراً سار بقواته نحو بني عمون. ولسوء طالع يهوذه المكابي فقد صادفه في طريق حملته على بني عمون، جيش جرار بقيادة القائد الروماني طيموتوس. لكن الظروف وطبيعة المعركة ساعدتاه، هذه المرة أيضاً على تخطي عقبة الهزيمة المنكرة أمام القوات الرومانية؛ إذ تمكن من إلحاق الهزيمة بالقائد الروماني المحلي والتخلص من خطره؛ بل وليدخل منتصراً إلى يعزور-عزور وتوابعها من العُزلات. وعلى الفور تناهي خبر انتصار يهوذه إلى أسماع القبائل، التي هلَّل بعضها لاندحار الرومان؛ فيما فرت القبائل المتواطئة معهم إلى موضع دي تما-ذي تمه، خوفاً من انتقام المكابيين وبطشهم. وسرعان ما تلقى يهوذه المكابي وإخوته كتاباً من بعض القبائل المتورطة في تحالفات عسكرية مع الرومان، تبدي فيه استعدادها-في ضوء الانتصارات المُتتالية- للتعاون معهم على دحر القائد المحلي طيموتوس نهائياً وطرده من السمرا- السمراء؛ التي جعل الرومان منها قاعدة سياسية وإدارية وعسكرية في قلب الجزيرة العربية؛ بل وضمان انحياز قبائل حليفة أخرى تُقيم في طبوت- ظبوت القريبة من مسرح الحرب. بعد هذه الأحداث بوقت قصير، قرر يهوذه المكابي، وفي إطار سياسة جديدة، القيام بسلسلة من المناورات والحملات العسكرية لطرد الولاة الرومان الذين عينتهم روما حكاماً على الأقاليم والمقاطعات، وتمكّن، في غضون وقت قصير تالٍ من تجهيز حملة ناجحة على الجليل لطرد الوالي الروماني منها، وأوكل لشقيقه سمعان مهمة قيادة القبائل المحاربة والتي انحازت لهم، بينما اختار السير بنفسه نحو جلعد. وبينما كان يهوذه المكابي وشقيقه الأصغر يوناتان يعبران ها- يردن وبعد ثلاثة أيام من المسير في العربه، سمعا من القبائل

البدوية المرتحلة في المنطقة، أن الرومان استولوا على بُصرة و باصر وعلم وكشر ومقيّده وقرنئيم، وأن القبائل الموالية لهم هناك، باتت مُحاصرة أو مرغمة على الاستسلام. أجبر هذا التطور المفاجئ يهوذه المكابي، على تغيير وجهته وربما إحداث تعديل جوهري على كامل خططه الحربية. وبالفعل اتجه بقواته بدلاً من جلعد إلى باصر، التي تمكن من دخولها بسرعة، وليتفرغ لطرد الرومان من موضع حيلم- حيلمة. بيد أن القائد الروماني المحلي طيموتوس، فاجأ يهوذه المكابي بجيش كبير تم تجميعه في رفون وفي وادي العبر. وهكذا؛ كان على يهوذه المكابي الدخول في معركة ضارية جديدة، سوف تمكنه كما تقول لنا الرواية التوراتية، من تحقيق انتصار لامع في بيت بسان؛ بل والصعود إلى حصن صيون-جبل صهيون مبتهجاً. ويبدو أن وهج الانتصارات اللامعة والمتتالية، أغرى بعض قواد جيش يهوذه المكابي بإمكانية تحقيق انتصارات أخرى سهلة على الولاة الرومان، وهذا ما يُدلل عليه قيام هؤلاء بالتحرك صوب إقليم يمنيه-منيه. بيد أن هؤلاء سرعان ما واجهوا هزيمة ماحقة على يد الرومان المُتحفزين هناك. وفي وقتٍ تالٍ من هذه الأحداث زحف يهوذه المكابي على سراة جنب-سراة جنب وحبرون واجتاز مريشه-مرسه قبل أن يصل إلى أشدود- ءشدد؛ وكانت إحدى أهم معاركه تلك التي وقعت في كفر سلامة وفي بثروت- بثرة، إذ أمكن مطاردة القوات الرومانية حتى حصور- حضُور.

بين أعوام ١٦٠-١٤٣ ق. م وبعد وفاة يهوذه المكابي، صعد إلى عرش مخلاف اليهودية شقيقه يوناتان. كان على الملك الجديد أن يواصل السياسة ذاتها: طرد الولاة الرومان من المنطقة، فكانت أولى معاركه في نجد تقوع، ولكنه وفي سبيل خوض معركة كبرى جديدة وناجحة، كان بحاجة ماسة لمساعدة القبائل العربية فيءنبطه- النبط؛ ولذا أرسل على وجه السرعة، شقيقه يوحنا رسولاً إلى هذه القبائل لضمان ولائها

وإسنادها. بيد أن القبائل البدوية في (ء نبطه- النبط) وبدلاً من تقديم المساعدة للملك الجديد، قامت باغتيال رسول الملك وشقيقه في معركة مفاجئة عند وادي مدبء. سمع الرومان بأنباء هذه المعارك المفاجئة بين القبائل وبمصرع رسول الملك؛ ولذا زحفوا نحو ها- يردن لتطويق المشتبكين وتدميرهم. وهكذا وقعت معركة جديدة كبرى ضد الرومان في الغياض والغاب. بيد أن يوناتان ورجاله أفلتوا من الكمين الروماني وفروا من الوادي. في النهاية، زحفت القوات الرومانية في إثر الفارين ودخلت عمواس-عماس وبيت حورون وءيل-آل وتمنية- تمنة كما حاصرت ثفون- ثفن وبيت بيصي-بيت بيضه. وفي وقت تالٍ، وفي سياق هذه الصدامات الدامية أخفق الرومان في معركة جرت عند مكمس-الكامس. ولكن ومع صعود بطليموس الرابع في مصر وتوليه العرش، بدأت تطفو على السطح علامات جديدة على إمكانية إبرام معاهدة صلح بين الرومان وبلاد اليهودية. وبالفعل، جرى إبرام معاهدة جديدة قرب يفاء-يافا، تسلم يوناتان بموجبها مقاطعتي أفرمه و لدة- لذة من الإدارة الرومانية، بالإضافة إلى الرمتثيم- الرمات، التي ضُمت إلى بلاد اليهودية. وفي أعوام ١٤٣-١٣٤ ق.م صعد نجمُ الشقيق الأصغر: سمعان كقائد لجيش اليهودية؛ ولكن في وقتٍ عادت فيه العلاقات مع روما إلى التدهور. ومع أولى المعارك في هذه الحقبة، وقع يوناتان الملك نفسه أسيراً في يد الرومان. كانت مهمة القائد الجديد للجيش تحرير شقيقه الملك من الأسر. ولذا اتجه بقواته نحو حدد حيث أقام معسكراً اتخذه قاعدة لإطلاق عملية تفاوض صعبة ومُعقدة. ويبدو أن هذه المفاوضات منيت بنكسة مفاجئة، إذ هاجم الرومان منطقة ء دور- دور بينما كانت الثلوج تغطي سقم (في النص العبري: ب-سكمه)[1]. واعتباراً من هذا الوقت كانت أوضاع

(١) بما أن الجملة تتضمن حرف الجر (ب) فهذا يعني أن المكان المقصود سقمه(في سكمه أو سقمه).

الإمبراطورية الرومانية تتدهور وبدأت تغوص في مشاكلها الداخلية العويصة وبحروبها مع فارس. وبذا عاشت بلاد اليهودية في سلام طوال هذه الحقبة. وعندما توفي سمعان تم دفنه في حصن دوق.

هذه هي-بإيجاز شديد- أهم الأحداث التي وقعت في ما يُدعى بلاد اليهودية (المُدعى أنها شمال فلسطين أو ما يُدعى في التراث الكتابي مملكة يهودا) أي في الجزء الذي يدعى في التقسيم الإداري (يهوذا السامرة) وهي أحداث كُتبَ لها أن تُروى مرة، بصوت راوٍ واحد هو صوت كاتب سفر المكابيِّين، ومرة أخرى بصوت أوروبي- استشراقي، وجد أن الأماكن المذكورة في النص لا تنسجم ولا تتلائم مع جغرافية فلسطين (فقام بإهمال النص والتشكيك في صدقيته). لقد اعتمد الكتاب المعاصرون في روايتهم للحقبة الرومانية من التاريخ الفلسطيني، على هذا السفر بشكل شبه تام هيمنت فيه السردية التوراتية على السرد التاريخي؛ ولايكاد يوجد في حوزة الرواة المعاصرين، وثيقة أخرى موازية أكثر دقة أو موضوعية يمكن الاعتماد عليها لتصحيح المسار الغامض للأحداث، والذي ظل مساراً مستعصياً على الفهم؛ ذلك أن قراءة السفر على أنه يسرد أحداثاً تخص فلسطين التاريخية، يرتطم بتداخل غير معقول في أسماء أماكن ومواضع لا وجود لها هناك. والمثير للاهتمام أن هيرودوت (نحو ٤٥٠ ق. م) لا يذكر في تاريخه أي شيء عن بلاد اليهودية هذه في فلسطين. إذا كانت مملكة اليهودية قائمة قبل المرحلة السلوقية، فإن لمن الصعب، حقاً، فهم السبب الذي دفع المؤرخين والجغرافيين إلى إغفال الإشارة لها، مع أنهم كتبوا بالتفصيل عن تللك المرحلة؟ فأين يجب أن نضع هذا الجزء الخطير من التاريخ الروماني؟ هل نضعه ضمن التاريخ الفلسطيني؟ وعلى أي أساس؟ هل هناك ما يُثبت أن مسرح المعارك هو مسرح فلسطيني؟ وإذا كانت المواضع الواردة في هذا النص هي مواضع

فلسطينية بالفعل، وأن المعارك ضد الرومان جرت هناك؛ فلماذا تصمت النقوش عن ذكر أي شيء عنها؟ ولماذا لا تعرف سجلات الإمبراطورية الرومانية نفسها مثل هذه الحروب في فلسطين؟ وأخيراً: لماذا لا نجد أي موضع من المواضع المذكورة هناك، مع أن التاريخ المحتمل لاندثارها، يبدو مُلتبساً ومتناقضاً مع فرضيات العثور على مواضع أقدم ذكرتها التوراة؟ فإذا كان ممكناً الادعاء أن علماء التوراة عثروا على أسماء مواضع من عصر موسى قبل خمسة آلاف عام ق.م (في فلسطين) ومن عصر (سليمان١٩٢٠ ق م) فمن باب أولى أن يعثروا على أسماء مواضع تعود إلى عصر قريب نسبياً (نحو العام ١٦٠ ق.م)؟ سنقوم في إطار رواية جديدة لهذه الحقبة ولأجل وضعها ضمن التاريخ الحقيقي، وهو تاريخ الحملات الحربية اليونانية-الرومانية ثم البيزنطية في الجزيرةالعربيةواليمن، وعلى ساحل البحر الأحمر بالخطوات التالية: أولاً، إعداد قائمة بأسماء المواضع الواردة في النص، ومقاربتها مع أسماء القائمة التي يسجلها الهمداني. ثانياً، مقاربة هذه الرواية بنصوص ابن العبري عن يهوذه المكابي وبلاد اليهودية. ثالثاً، مقاربة وصف السفر لبلاد اليهودية مع وصف الجغرافي اليوناني بطليموس، الذي نقل الهمداني شهادته لنا. رابعاً، تحديد اسم المكان الذي أعطى ليهوذه لقبه الذي عُرف به (المكابي) واستطراداً: إعادة تنسيب الحسيديِّين والحشمونيِّين وتأويل حملهما لهذين اللقبين. ولنبدأ من النقطة الأخيرة:

أولى الحقائق التي يتوجب اعتمادها مبدئياً لأغراض الدراسة والتحليل، أن لا وجود - شمالي فلسطين- لأي أثر لغوي أو تاريخي أو ثقافي - ديني يشير من قريب أو بعيد إلى الاسم التوراتي مكابيين- مكابيين، كما لا وجود له، شمالي فلسطين كاسمٍ لموضع أو مكانٍ بعينه؛ بينما يمكن لنا أن نعثر عليه بسهوله في منطقة اليمامة في صورة

كاب[1] وهذا الموضع من مرتفعات اليمن القديم كما وصفها الهمداني. وعلى مقربة منه بالضبط توجد مدان -مدان التي يقول النص التوراتي أن يهوذا ولد فيها، لأسرة كاهن من كهان اليمامة يُدعى متنا (مثنت- بن حنه - بن سمعان من بني يريب). وهذا الموضع هو بالضبط كذلك على مقربة من الجليل -الجليل في النص العبري، بل وقرب حدد- حدد التي دارت فيها إحدى أهم المعارك. وأخيراً وليس آخراً؛ على مقربة تماماً من موضع ء نبطه-ء نبطه التي سنرى أن يوناتان انتقم فيها من بني يمرء (امرئ) لاغتيال شقيقه يوحنا. هذا فضلاً عن قربها تماماً من بيت ءيل التي جرت فيها معركة أخرى؛ بل وقرب موضع حسم-حشم (الذي جاء منه اسم الحسمونيين-الحشمونيين). هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٩٥-٢٩٦) لهذه المواضع كما وردت في السفر التوراتي - ودون أي تلاعب لغوي من جانبنا-:

> **من اليمامة إلى نجد: حرض وعمير والغمر وغمرذي كندة والسر وعاقل وبه قبر الحارث الملك، والكاب، ووادي قاعة من أرض تميم وأدم بديار مُزينة-وأدم بالسحول- جبلان، وذو الجليل من مواضع الوحش ثم الغميضاء لكنانة في تهامة الحجاز، وحدد أرض لكلب وحسم ويُقال ذو حسم والإل جبل وأنبطه هي مواضع الوحش.**

هذه هو الفضاء الجغرافي المتكامل للمنازل القبائلية التي وصفتها التوراة حيث عاشت الجماعات المذكورة: ها هنا الكاب-مكاب وها هنا جبل أدم في نجد اليمن (والذي هاجمه يهوذه -هوذه لفرض نفوذه على أبناء عمومته من بني العيص-عيصو، وانظر عندنا تالياً موضع العيص في

(١) في اللهجة اليمنية: مكاب في كاب، ومثل: مكمس في كمس، ومنوب في نوب.

اليمامة). وعلى مقربة منه وادي الجليل-الجليل، الذي شهد المعارك مع القوات الرومانية فضلاً عن حدد وءيل وأنبطه وقاعة-تقوُع، وحسم (الموضع الذي جاء منه اسم الجماعة القبائلية الحسمونيين-الحشمونيين). إن تاريخ الحملات الرومانية على الجزيرة العربية لإخضاع قبائلها وفرض النفوذ الروماني عليها؛ انطلاقاً من مصر (عصر البطالمة) يندرج في إطار التاريخ ذاته للصراعات القديمة، التي شهدتها المنطقة بين الآشوريين والمصريين، هو على الأرجح استطراد في هذا الصراع مع تغيُّر وتبدُّل اللاعبين وأزيائهم وسحناتهم. إنه لأمر صعب حقاً، تخيل وقوع هذه الحروب في فلسطين؛ لسبب بسيط للغاية هو أن بلاد الشام التاريخية كلها كانت في هذه الآونة، تخضع فعلياً للسيطرة الرومانية المباشرة؛ بينما على العكس من ذلك، ظلت الجزيرة العربية واليمن عصيّة عليها، ولم يتمكن الرومان من تحقيق وجود مستقر وفاعل في اليمن، حتى مع سقوط ميناء عدن في العام ٥٠ ق.م بأيديهم، وحتى مع نجاحهم في تنفيذ إنزال بحري ضخم هناك. بل إن الإسكندر المقدوني في حملته الكبرى على الجزيرة العربية واليمن، وبالرغم من نجاحه في ترك حامية عسكرية في جزيرة سوقطرة اليمنية قدّرها الهمداني بعشرة الآف رجل لتأمين نفوذ يوناني-إغريقي حقيقي هناك[١]، فإنه لم ينجح تماماً في فرض سيطرته على قبائل متمردة وغير مُطيعة (بطبيعتها البدوية) ومستعدة فوق ذلك لقتال قاسٍ في مناطق وعرة. والمثير للاهتمام في هذا النطاق أن التقسيم الروماني الإداري لفلسطين التاريخية والمعروف جيداً عند الباحثين، لا يتضمن أي اسم من الأسماء الواردة في النص الآنف. ولو كان الرومان يخوضون صراعاتهم في فلسطين بالفعل، ضد ما يُدعى بلاد اليهودية فمن المنطقي

---

(١) وحتى اليوم لا يزال هؤلاء يعيشون في سوقطرة اليمنية كقبائل عربية لها سجلات أنساب ترتفع إلى اليونان. وقد شاهدت بنفسي بقايا هؤلاء عندما عشت في اليمن زهاء عام وسمعت قصصاً عن أصولهم اليونانية.

أن يسجل الكتّاب الرومان أسماء المقاطعات التي كانت خارج نفوذهم، أو تلك التي سعوا إلى إخضاعها عبر هذه السلسلة من الحروب؟ والأمر المدهش حقاً، أن يتجرأ الكتّاب الاستشراقيون على ادعاء وقوع الأحداث في فلسطين في عصرٍ أنجز فيه الرومان وسجلوا بدقة كافية، كل ما يتعلق بالتقسيم الإداري لفلسطين وبلاد الشام. ولم يتركوا بالطبع أي إشارة مهما كانت عابرة، إلى الأسماء المذكورة في السفر التوراتي.

وفي الواقع؛ فإن الحملات الرومانية-البيزنطية على فارس والتي يعرفها العرب جيداً، لأنها استمرت حتى عشية الإسلام، كانت تنطلق من مصر ومن بلاد الشام الخاضعة أصلاً، لنفوذهم، حيث اتخذوا من أنطاكية عاصمة حربية وإدارية لهذه الحملات. وهذا ما يفسر لنا واقعة تاريخية كانت معروفة في الإسلام المبكر، عندما طلبت قريش من أبي بكر (رض) الدخول معها في رهان على انتصار فارس في الحرب مع روما (بيزنطة). آنذاك؛ كان المسلمون الأوائل يراهنون على انتصار روما المسيحية على فارس المجوسية[1] هذا يعني أن المعارك كانت في أدنى الأرض أي على مقربة منهم لا في مكان بعيد. وبالطبع؛ فقد كان رهان فارس التاريخي، يقوم على فرضية أن الرومان سوف يغطسون في النهاية داخل رمال الجزيرة العربية. في الواقع لم تتوقف الحملات الحربية الرومانية على اليمن لانتزاعها من يد الفرس حتى عشية الإسلام، حين تركوا لوكيلتهم المحلية (الحبشة) أن تبادر إلى احتلال اليمن نيابة عنها (عام٥٢٤م). لقد كانت فلسطين في أعوام ١٦٠-١٣٤ ق.م هادئة وتخضع كلياً لسيطرة الرومان (في إطار سيطرة كاملة على الجنوب السوري) بينما كانت سواحل البحر الأحمر ونجران واليمامة ونجد، تمثل صداعاً مزمناً يصيب

---

(١) وجاء القرآن الكريم على ذكرها في آية ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢-٣].

روما بالدوار جراء استمرار تحديات القبائل البدوية، تماماً كما هو الحال في عصر الإمبراطوريتين الآشورية والمصرية (وأي منهما لم توقف حملاتها الحربية من أجل تأديب هذه الجماعات البدوية المتمردة). بكلام آخر: إن الحملات الحربية الرومانية على اليمامة والساحل اليمني انطلاقاً من مصر، يجب أن يُنظرَ اليها كاستطرادٍ وحسب في حملات تقليدية قام بها المصريون أنفسهم من قبل وفي المكان نفسه، وذلك حين بلغت تنافساتهم مع الآشوريين للسيطرة على سواحل البحر الأحمر، ذروتها مع تهديم ونهب أورشليم لمرات عدّة. وكل ما في الأمر، أن الرومان أي حكام مصر الجدد، كانوا يواصلون الدور ذاته الذي فرضته من قبل، مصالح مصر الاستراتيجية في ساحل البحر الأحمر واليمن[١]. إذا ما وضعنا هذه التصورات العامة كأساس مقبول لفهم مسرح الحروب الرومانية التي سجلتها التوراة؛ فسوف نتمكن بسهولة من رؤية كل المواضع المذكورة. هاكم وصف الهمداني للموضع الذي ولد فيه يهوذه-هوذه وللمواضع الأخرى التي شهدت المعارك الدامية (صفة: ٢٥٩ -٢٦٠):

الريان من مياه الضّباب وأيمن من قنوين وأسفل منه القُرية والحصاة حصاة جبلة وعن يسارها بطن السر وهو أسفل وادي الرمة (....) ويظهر النير بينه وبين الجنوب بطن العبري، وإحساء بني حوثه وحلاقيم وفي رأس العبرى صوقع والمدان.

ها هنا المدان-مدان تماماً كما في النص التوراتي على مقربة من وادي الرُّمَّة (رمتثيم) التي أُعيدت إلى سيطرة القبائل بعد المفاوضات مع الرومان. وها هنا وادي العبرى - العبر، الذي شهد المعارك. فضلاً عن

(١) وهذا ما يجب أن يفسر لنا سرّ اهتمام مصر في عصر الزعيم الراحل عبد الناصر بدخول اليمن؟

هضبة جبلة التي يقول النص (في تفاصيل طويلة لم نذكرها أن معركة دامية وقعت فيها ضد الرومان). وها هنا الفُرية-ء فرمه الميم اللاصقة هي أداة تعريف. أما الحسيديين-حسيديم الذين تمكن يهوذه- هوذه من استمالتهم إليه؛ فهم سكان وادي الحسيد. هاكم ما يقوله الهمداني عن هذا الوادي وقبائله التي رأينا بعضها في الصفحات السابقة من الكتاب- (صفة: ١٣٧- ١٣٩):

في وصف الساحل وقبائله وأوديته: ثم عتود وادٍ صغير ثم وادي بيض ومآتيه من سراة جنب يرد العارة من أرض بني مسيح من شرقيه جبال السريح (حيث جبل قدس. انظر ما كتبناه عن قدس- المؤلف)- ثم- وادي الحسيد مآتيه من غرب جبل صبر، وجبل سامع، ثم يخرج المخا إلى البحر فتجتمع جميع مياه رُسيان حتى تلتقي بالحسيد، ويصبان في موزع، فينتهي جميع هذه الأودية في وطن حيس وبين أرض بني مجيد حتى تخالط البحر.

هذا هو باختصار شديد وصف الوادي الذي جاءت منه الجماعة المُسماة (الحسيديين) والتي تم تخيُّلها على أنها جماعة مُتشددة دينياً بسبب الاسم الذي تحمله. هؤلاء الحسيديون (حسديم) هم سكان وادي الحسيد، وكانوا يقيمون في السراة الممتدة حتى جبل قدس إلى الجنوب من تعز، وليسوا بكل تأكيد سكان فلسطين الذين استمالهم يهوذه المكابي، بل هم من القبائل التي تعيش مع بني مجيد-مجدو. ها هنا وادي بيض-بيصه فضلاً عن سراة جنب.

فهل ثمة أي دليل على أن فلسطين التاريخية كانت على معرفة بالمكابيِّين أو الحسيديِّين أو الحسمونيِّين؟ وماذا سيحدث لو أننا نظرنا إلى الحملات الرومانية (التي يصفها سِفر المكابيين بدقة) على أنها استمرار

للحملات الفرعونية القديمة من أجل السيطرة على ساحل البحر الأحمر كله واليمن ونجران؟ هل سنقلب التاريخ رأساً على عقب أم نعيد إنشاءه بطريقة منسجمة وصحيحة؟. دعونا نعود إلى الوراء قليلاً: تنتسب أسرة يهوذه المكابي كما رأينا من النص، إلى قبيلة بني يريب-ريب. وهذا الاسم ينبغي أن ينظر إليه على أن له صلة حميمة باسم الريب، الوادي الشهير قرب مدان والذي تقول التوراة: إنه مكان ولادة يهوذه[١]. هاكم وصف الهمداني لوادي الريب ووادي يمرء- المرء (صفة: ٢٦٢-٢٦٤):

الريب وادٍ رغّاب[٢] ضخم فيه بطون من بني قشير. وأسفل وادي الريب وفي وسطه بنو حيدة، ثم من فوق ذلك مما يحف الريب إلى بلاد باهلة (..) ومن قصد الشمال من الفلج وادٍ يُقال له: الهزمة، بينه وبين اليمامة ومن أخذ الثفن من الفلج إلى اليمامة أخذ أسافل أودية جعدة فيأخذ الغادي على أسفل الغيل من الثفن وهو وادِ رُغَّاب كثير النخل كثير الحصون ثم وادي المراء ثم البرك.

ها هنا الوديان ذاتها التي وصفها سِفر المكابيين، وهي حسب تسلسلها في نص الهمداني السابق والحالي: الحسيد والريب (وانظر معركة الأعماس-عمواس عندنا ولاحظ جبل أرياب وجبل أدم حيث انخرطت قبائل أخرى في القتال، وهما في مكان واحد قرب الأعماس-عمواس) ثم الثفن وحُسم والعبرى والمراء (الذي ينتسب له بنو يمرء) على مقربة من بعضها البعض، فضلاً عن سائر الأسماء الأخرى مثل مدان (مسقط رأس يهوذا المكابي). ولأجل مقاربة جغرافية تجعل من هذا

---

(١) من المؤكد أن اسم المولود الأكبر للكاهن يوحنه بن سمعان جاء تيمناً باسم السبط الإسرائيلي الأكبر هوذه.

(٢) قوله (وادٍ رغاب) أي إنه كثير الزروع والفواكه والمياه.

الحدث قابلاً للتصور ضمن وحدة جغرافية، هاكم وصف الهمداني للوديان الكبرى في اليمن (صفة ١٣٧ -١٣٩- النص مُختصراً-):

في وصف وادي الحسيد: والوادي الرابع هو وادي الحسيد مآتيه من غرب جبل صبر (..) ثم يخرج المخا إلى البحر ووادي الضباب إلى القرعاء من مناهل برداد وأرض شرعب من بلد الركب وجبال شمير فتجتمع جميع مياه رسيان حتى تلتقي بالحسيد.

(ويضيف: ١٤٦-١٤٧):

والثاني وادي أبين وهو مما يلي لحج ومآتيه من شراد و (بنا) ومن سائلة حورة (التي تتألف من جبال الأعماس: المحقق) والثالث وادي يرامس والرابع دثينة والخامس أحور وجبال السكاسك: جبل صبر للحواشب وجبال الركب وشمير.

هذا هو وادي الحسيد وها هنا جبال عمواس-الأعماس حيث أرياب وأدم.

لعل وجود هذه المواضع وبالتوصيفات نفسها، داخل فضاء جغرافي متكامل لمنطقة اليمامة (ونجد اليمن وسراتها) أمر يستحيل ردّه إلى مجرد مُصادفة جغرافية، والذين وضعوا سِفر المكابيين ضمن التاريخ الفلسطيني عليهم أن يقدموا لنا دليلاً جغرافياً واحداً يدعم وجود مثل هذه الجغرافية المتكاملة، التي تسمح برؤية الأحداث بطريقة سلسلة ومنطقية. لقد جرى تلفيق تاريخ روماني في فلسطين وتمّ حشر جماعات وعصور وأماكن داخل مشهد جغرافي يعج بالتناقضات. ولذا ينبغي أن نشطب من التاريخ الفلسطيني عصراً بأكمله، زُعم أنه شهد تدمير الهيكل الثاني في فلسطين؛

وإعادة إدراجه في إطار التاريخ اليمني. وهذا ما سوف يتوضح لنا بصورة دقيقية حين نقوم برواية التاريخ بصوتنا.

كان الرومان ومنذ تفكك الإمبراطورية اليونانية، وانتقالها إلى البطالمة في مصر، والسلوقيين في العراق وخراسان وسواها، وبعد نحو اثني عشر عاماً من وفاة الإسكندر المقدوني (حيث دخل العالم القديم في عصر جديد إغريقي- روماني بدءاً من عام ٣٣٠ ق.م) يدركون الأهمية الاستراتيجية لسواحل البحر الأحمر؛ ولذا راحوا يصوبون أنظارهم نحو الجزيرة العربية واليمن بعد أن تمّ لهم إخضاع بلاد الشام. لم تكن هناك تحديات تُذكر في فلسطين أو بلاد الشام، بالمقارنة مع المتاعب التي تسببت بها القبائل البدوية في الجزيرة العربية واليمن، وهذا ما يُفسر على أكمل وجه، السبب الحقيقي لوجود تقسيم إداري روماني في فلسطين، في هذا الوقت وحيث دارت فيه مرويات التوراة عن المكابيين. إن هذا يُدلل، بصورة قاطعة على عصرٍ من الاستقرار شمل جنوب سورية بأكمله، وليس على عصر من الفوضى والحروب (عندما نضع أحداث سفر المكابيين في فلسطين سوف ينقلب التاريخ رأساً على عقب ويصبح التقسيم الإداري الروماني لفلسطين مشتعلة بالمعارك ضرباً من الهزل). والمثير أن هذا التقسيم لا يتضمن أي اسمٍ من أسماء المواضع والمدن والأماكن الواردة في سِفر المكابيين؟ بينما كان هناك نحو العام ١٦٠ ق.م حاكم روماني على إقليم بلاد السمرا[١] (كما كان هناك ولاة عسكريون في سلسلة من المناطق تمتد إلى وادي حورون. وبالطبع ليس ثمة في فلسطين مثل هذا الوادي الذي يصفه السِّفر بأنه على مقربة من البحر). لقد حدثت أولى المعارك ضد حكام المقاطعات الرومانية في أماكن متفرِّقة لا وجود لأي منها في فلسطين. فإلى ماذا يشير هذا؟ ببساطة، يشير هذا الوضع إلى

(١) تعني كلمة (مدينة) العبرية: بلاد.

حقيقة أن هذه المقاطعات لم تكن في فلسطين، بل في نجد واليمامة وبعض أجزاء اليمن، ولم يكن ممكناً إخضاعها فعلياً أو السيطرة عليها بشكل مباشر، ولكن يمكن إدارتها بواسطة حكام يتلقون، باستمرار، وكلما اقتضت الحاجة دعماً حربياً يتمثل في الحملات التأديبية للسكان المتمردين. في هذا النطاق؛ ركز الرومان على إنشاء قاعدة عسكرية خلفية لدعم عملياتهم الحربية في أنطاكية، التي أصبحت العاصمة الحربية والإدارية منذ عصر بطليموس الصغير.

يقول سِفر المكابيين ما يلي: إن الرومان تعرضوا لهزيمة ماحقة على يد يهوذه المكابي (هوذه الكابي) في وادي حورون وفي جُزر-جازر، وإنهم فروا من القتال باتجاه البحر. كما نعلم من السفر أن يوحنا شقيق يهوذه، قُتلَ في وادي حورون على يد بني يمرء؛ وأن إحدى هذه المعارك وقعت في ءشدد التي جرى تخيّلها على أنها ميناء أشدود. إننا لا نعرف ضمن خريطة فلسطين القديمة أي موضع يُدعى حورون، يمكن الوصول منه إلى موضع جُزر أو الهروب منه صوب البحر، كما لا نعرف أشدود ساحلية قرب الوديان والجبال تقيم فيها أو قربها جماعة بشرية باسم المراء؟ بينما نعلم من وصف الهمداني أن هذا الوادي هو بالفعل لقبيلة تحمل الاسم نفسه المراء (المرائيون) وأن وادي جُزر يجاوره وهما معاً يصبّان في البحر، وأن ءشدد هي اسم الوادي والمكان الذي تُقيم فيه القبيلة اليمنية، التي تحمل الاسم نفسه؟ يقول الهمداني (صفة: ١٨٦-١٨٧) ما يلي:

> في وصف الطريق إلى ردمان: عقد والصدر وذو جُزر لبني عبد من حمير، حضنان واديان للمربين، البضع أودية منها حوران كلها لبني مر (..) وادٍ كثير النخل لبني شداد.

النص الآنف يرسم صورة متكاملة ودقيقة لطريق ساحلي فيه وادي حوران وجازر- جزر وشداد (ءشدود). يعني هذا أن المعارك التي دارت بين يهوذه هوذه الكابي والرومان، لم تكن في فلسطين لأنها لا تعرف، وحسب، مثل هذا الطريق الساحلي (وأنها من ثم وقعت في الساحل اليمني لهذا السبب، أي لأنه يعرف مثل هذه الأسماء) وإنما لأن التاريخ العسكري لروما في هذا الجزء من العالم، وفي عصر أنطيخوس وخلفائه تحديداً كان -بامتياز- تاريخ الحملات الحربية على فارس واليمن وسواحل البحر الأحمر (كما أنه كان عصر الحروب الفارسية- البيزنطية الطويلة). علماً أن اليمن كانت هدفاً مُغرياً بالنسبة إلى الرومان (وخصوصاً عندما احتلوا عدن في ٥٠ ق. م أو عندما طلب منهم بعض ملوكها النجدة بعضهم ضد بعض أو ضد فارس)[١] لأنها كانت تخضع لنفوذ فارس

(١) دارت مرويات شعرية وتاريخية كثيرة حول مساعٍ قام بها ملك يمني صغير يدعى امرأ القيس، لدى روما من أجل مناصرته ضد خصمه. من بين هذه المرويات التاريخية ما يشير إلى علاقة من نوعٍ ما بين امرئ القيس وقيصر روما جستنيا. ومع أن المؤرخين البيزنطيين لا يذكرون أي شيء عن زيارة مزعومة قام بها امرؤ القيس (وذكرها الإخباريون العرب القدماء) بيد أن بروكوبيوس المؤرخ الروماني أشار إلى شخص يدعى (قيس) ارتبط اسمه بغزو الحبشة لليمن زهاء عام ٥٢٤-٥٢٥ م إذ طلب القيصر منه أن يقود جيشاً من المرتزقة لمواجهة الفرس. ويلاحظ نونوس أن جستنيان كلف امرأ القيس هذا بالسفارة لديه نيابة عن قبائل العرب. وفي هذا السياق افترض المستشرق كوزان دي برسفال أن المقصود بـ (قيس) في مؤلفات البيزنطيين هو امرؤ القيس ملك كندة. وفي الديوان المنسوب إليه يقول امرؤ القيس ما يلي (من قصيدة تعرضت لسوء فهم فظيع من نقاد الشعر القدماء والمعاصرين وسنشرح ذلك تالياً):

فشبّهُهم بالآلِ لمّا تكمّشوا ... حدائق دَوْمٍ أو سفيناً مقيرا

أو المكْرعات من نخيل بن يامنٍ ... دوَين الصَّفا اللائي يلين المُشقرا

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمداً إلى الروم أنْفرا

=

السياسي والديني. أما فلسطين وبلاد الشام، فلم تكن هناك أية اضطرابات متواصلة وعنيفه وجدية، تستدعي مثل هذه الحروب المتواصلة؛ بل إن المسرح الصغير لبلاد الشام وفلسطين ومن المنظور الجغرافي المحض لحملات ضخمة من هذا النوع الذي وصفه السفر التوراتي، لا يحتمل تواصلاً وعنفاً وزخماً، ولا إمكانات على المقاومة والصمود وإلحاق الهزيمة بالرومان من جانب قبائل مبعثرة هنا وهناك، وبالطبع يصعب تخيُّل تتحقق انتصارات لامعة على الرومان يمكن أن تكون وقعت في جنوب سورية (أي في فلسطين) في أي وقت. إن منطق الأحداث يخالف أي محاولة لوضعها داخل التاريخ الفلسطيني.

هذا هو الإطار التاريخي- الجغرافي المقترح، والذي سوف يسهل على القراء غير المتخصصين، إمكانية تتبع التوصيف التوراتي للمواضع التي دار فيها القتال. وهاكم، أولاً، القائمة التي أعددناها عن النص:

قائمة بأسماء الأماكن التي دارت فيها الحروب الرومانية ضد يهوذا المكابي

الاسم العبري	الضبط العربي	الاسم العبري	الضبط العربي
١ : أدم	أدم	٢١ : جزر	جزر
٢ : ء قربتن	القرب	٢٢ : بيت زيت	وادي الزيت
٣: بني بين	بني بين	٢٣ : سلامة	سلامة

= فمن يكون هؤلاء الذين ألهب منظر سفنهم، خياله الشعري، ورأى إليهم وهم يتشبثون بساحل الآل؟ ومن هو الشخص (الذي إذا شاء أن يغزو) لانطلق من أرض حمير ولكنه قصد الروم لطلب المساعدة؟ هل هو امرؤ القيس صاحب القصيدة، الذي انتظر الروم قرب ميناء عدن ليتغنى بجمال وعظمة سفنهم؟

٤ : يعزير	عزور	٢٤ : تقوع	القاع
٥ : دي تيمه	ذي تمه	٢٥ : الغياص	الغياض
٦ : ظبت	ظبوة	٢٦ : ءنبطه	أنبطه
٧ : الجليل	الجليل	٢٧ : بني يمرء	المراء
٨ : صور	صور	٢٨ : ءيل	الآل
٩ : صيدا	وادي صيد	٢٩ : تمنية	تمنة
١٠ : عرابات	غرابات	٣٠ : بيت بيصه	وادي بيض
١١ : بصرة	بصرة	٣١ : مكماس	كامس
١٢ : باصر	بصر	٣٢ : عفرة	عفر
١٣ :عليم	علم	٣٣ : لدة	لذة
١٤ : مقيد	مقيّد	٣٤ : رمتيم	الرمات
١٥ : حيلم	حيلمه	٣٥ : حصور	حضور
١٦ : رفون	رفن	٣٦ : الزبديون	الزبيديون(١)
١٧ : بيت سان	شان	٣٧ : ء دوره	الدور
١٨ : كشر-كشّر	كشّر	٣٨ : سكمه	سقمه
١٩ :جنبه	جنب	٣٩ : عزة	عز
٢٠ : حبرون	حبر	٤٠ : حصر مثيل	حضر
٤١ : حصن دوق	حصن دوق	٤٢ : يمنيا	منيه

تتضمن القائمة- أعلاه- طائفة من المواضع التي سبق لنا البحث عنها وتحديدها ضمن جغرافية اليمن القديم؛ ونحن، كما هو واضح، نكتفي بعرض معظم وليس كل المواضع الواردة في السِّفر- منعاً للتكرار-.

---

(١) نسبة إلى زبيد.

وسوف نبدأ من موضع دوق (رقم ٤١) الذي دُفن فيه سمعان قائد جيش يهوذه المكابي وشقيقه حسب قول النص، وكذلك من موضع سلامة (رقم ٢٣) الذي دارت فيه إحدى أهم المعارك.

إن شمال فلسطين المُدعى أنه كان موطن مملكة يهوذا التاريخي، لا يعرف ولم يسمع سكانه قديماً باسمي هذين المكانين؛ وإذا كان ثمة ما يؤكد وجود مدفن لملكٍ إسرائيلي مزعوم، فمن المنطقي أن تظل الأرض هناك محتفظة ببقايا ذكريات، من نوعٍ ما، أو حتى مرويات شعبية تحتفظ باسم صاحب القبر؟ لكن شيئاً من هذا كله لا يبدو موجوداً إلى النهاية لأن موضع دوق ليس هناك. يصف الهمداني موضعي دوق وكفر سلامة ويحددهما على النحو التالي (٣٠٣-٣٠٤):

> **محجّة صنعاء إلى طريق تهامة: من صنعاء صِلّيت من البون، ثم الموبد ثم عثر ثم (وادي) بيض ثم حلي ثم الجو ثم دوقه، وهي للعبديِّين من بقايا جُرْهُم. هذه طريق الساحل والمحجة القديمة ترتفع إلى حلي العليا.**

ها هنا وادي دوقه على الطريق الساحلي قرب وادي بيصه-بيض تماماً كما في السِّفر التوراتي. وللتأكيد على أن القدماء من الجغرافيين العرب كانوا يعرفون هذا الوادي؛ بوصفه مكاناً يمنياً نورد - هنا- شهادة ياقوت الحمويّ التالية (ياقوت: ٢: ٥٥١):

> **(دوقة: بأرض اليمن لغامد. وادٍ على طريق الحاج من صنعاء لمن سلكوا تهامة. قال زهير الغامدي:**

أعاذلُ منا المُصلتون خلالهم   كأنّا وإياهم بدوقة لاعب

أما كفر سلامة (قرية سلامة) التي التقى فيها جيشا نكانور الروماني ويهوذه المكابي فهي ذاتها سلامة التي حددها الهمداني في قبلة الطائف شرقاً؛ قائلاً عنها وفي إطار الاعتقاد السائد في عصره ما يلي: (موضع سلامة تبقى منه حائط كبير لا يُعرف صاحبه وهو من أبنية العباسيين، ولذلك أطلق عليه العامة من الناس اسم حائط أم المقتدر)

وهذا مفهوم تماماً، فالعامة في كل مكان وعصر، يُسمُّون أسماء المواضع التي يجهلون تاريخها؛ بأسماء لا تزال حاضرة في ذاكراتهم الجمعية. وهاكم وصف الهمداني لموضع سلامة (٢٣٢-٢٣٣):

ثم بلد حرام من كنانة وهو وادي أتمة وحلي وحلي العليا والسّرين ساحل كنانة والليث ومركوب واديان فيهما عيون، وطيبة وملكان ومن قبلة الطائف أيضاً وادٍ يُقال له مشريق لبني أمية من قريش ووادي جلذان وفي قبلة الطائف حائط أم المقتدر الذي يُدعى سلامة.

قال امرؤ القيس (صفة: ٣٤٤) ذاكراً سلامة القديمة:

عفا شطب من أهلهِ فعزورُ فمويولة إن الديار تدور

فجزع مُحياة كأن لم تقُم به سلامة حولاً كاملاً وقذورُ

وجود مكان ساحلي في الامتداد نفسه يُدعى سلامة، على مقربة من موضع عزور- يعزور في سفر المكابيين، حيث دارت معركة انتصر فيها المكابيون (الكابيون) اليمنيون على الرومان، أمر يتوافق بكل تأكيد، مع تصوراتنا عن الحروب الرومانية في ساحل البحر الأحمر، والتي استهدفت كما نرى، إخضاع القبائل المتمردة هناك. وما يؤكد ذلك أن النص التوراتي يتحدث عن جماعة يسميها الزبيديون. وهؤلاء كما هو معروف هم قبائل زبيد. ولا وجود، بالطبع لهذه القبائل في الساحل

الفلسطيني. ومع ذلك تزعم القراءة الاستشراقية أن هؤلاء هم أنفسهم الذين يعيشون في سهل الزبداني[١]. وهذا غير معقول؟ لأن الزبداني مكان بعيد للغاية عن الساحل الفلسطيني؛ بينما نرى أن المنطق الجغرافي يقول: إن هذه الجماعة هي التي تقيم في ساحل زبيد في الامتداد نفسه لساحل الطائف وعثر كما رأينا. وفضلاً عن هذا كله، يشير سفر المكابيين إلى موضع ألماس والمقصود به موضع الماس الذي وصفه الهمداني (صفة: ٣٦٥) بقوله: الماس أكمة سوداء من بلد الهُجن من أرحب.

في هذا الإطار يقول السفر التوراتي ما يلي: ضرب يهوذه المكابي في طريقه لمحاربة الرومان، جماعة الرعاع والصعاليك من قطاع الطرق واللصوص يُعرفون بأنهم من بني بَيْن؛ وهؤلاء حسب وصف الهمداني هم سكان وادي ذي بين، الذي تصب مياهه في بلد صيد- صيدا، بينما نعلم من السِّفر التوراتي أن الرومان كانوا يهاجمون في هذه الأثناء موضع صيده. لقد تخيَّلت القراءة الاستشراقية هذا الهجوم وكأنه وقع بالفعل على صيدا اللبنانية، وهذا غير معقول من الناحية الجغرافية، إذ كيف يمكن من الناحية الجغرافية- العسكرية، جمع سهل الزبداني السوري بساحل صيدا اللبناني وساحل فلسطين في آن واحد؟ هاكم وصف الهمداني للمكانين (صفة: ١٥٩):

أودية من ظاهر همدان مثل: ذي بَيْن وما يسقيهما من ظاهر الصيد وما يسقط إليه من مدر وإتوة والخشب (المحقق: الخشب: قبيل ووطن مشهور وهم من عُتاة أرحب).

ولنلاحظ وصف المحقِّق لسكان هذا الوادي بأنهم (عُتاة) قبيلة أرحب ممن يقيمون في وادي بين، أي الرجال الذين يتصفون بالبأس والشدة.

---

(١) وهذه مغالطة لغوية وجغرافية وتاريخية فظيعة. ففي هذه الحالة تكون المعارك دارت ضد الرومان قرب دمشق؟ وهذا ما لا دليل عليه في المدونات التاريخية.

وهؤلاء ليسوا قطاع طرق ولا رعاع أو صعاليك، بل كانوا (عتاة) أي أشداء، وقد اصطدم بهم يهوذا الكابي. إذا ما قمنا بإعادة رواية حروب يهوذه المكابي، في هذا الإطار التاريخي- الجغرافي المقترح؛ فإن لُغز هذه الحروب سوف يكون قابلاً للتفكيك بسهولة. كان أبولونيوس والياً رومانياً على إقليم السمرا، وقد هيأ جيشاً عظيماً لتأديب القبائل المتمردة في المرتفعات اليمنية، ومن بين هذه القبائل التي قبلت التعاون مع الرومان بقايا جماعة تنتسب إلى بني إسرائيل. تناهت إلى أسماع يهوذه المكابي أنباء التحركات الرومانية في نجد وفي اليمامة، وعلم أن الرومان جهزوا جيشاً قوياً لمحاربته، ولذا بادر إلى ملاقاتهم لتنشب معركة كبرى حقَّق فيها أول انتصار لامع على الرومان، إذ تمكن من سلب سيف أبولونيوس نفسه. وكانت لهذه اللحظة من القتال، بكل يقين، قيمة رمزية هائلة بالنسبة إلى القبائل البدوية. كما كان لهذا الانتصار وقع خاص على أسماع قائد سورية الروماني سارون، الذي فكر في اغتنام الفرصة والقيام بهجوم مباغت للانتقام من يهوذه المكابي. وهكذا جهز جيشاً من الحاميات السورية وصعد لمهاجمته حيث نشبت معركة أخرى، أكثر ضراوة على ضفاف وادي حورون-حوران. هاتان المعركتان شرَّعتا الأبواب أمام سلسلة من الصدامات في نجد والبادية العربية وسواحل البحر الأحمر؛ استعان فيها الرومان بالجيش الروماني في بلاد الشام وبالمرتزقة من القبائل البدوية المنافسة والوثنية في شمال الجزيرة العربية (الكارهة للقبائل اليهودية العربية ذات الأصول القحطانية اليمنية). ثم كانت هناك الحملة الثالثة الكبرى بقيادة جورجياس والتي بلغت جبال عم أوس- الأعماس؛ حيث التحقت بهم جماعات إسناد من أرض أدوم. إن فلسطين التاريخية (إذا ما قبلنا فرضية أن الحروب دارت في المسرح الفلسطيني) تعرف بكل تأكيد موضع عم أوس-عمواس هذا؛ وقد وجد الجغرافيون المسلمون (ياقوت -مثلاً) أن عم أوس-عمواس هو من

المواضع القريبة من الرملة على الطريق إلى القدس العربية. بيد أن وجود مثل هذا الاسم لوحده ليس دليلاً بحد ذاته، للبرهنة على أن المقصود المكان ذاته الوارد في السِّفر، لسبب بسيط للغاية هو أنه موجود بمعزلٍ عن أيّة أسماء أخرى وردت في النص. على سبيل المثال، ليس هناك إلى جواره أرض تُدعى أدوُم، كما أنه لا يؤدي إلى أي مكان آخر، من الأمكنة التي وصفها السفر. إن الرسم العبري الصحيح للاسم ليس عمواس بل عُماس، وهو سلسلة جبلية صغيرة تتجمع في أسافلها المياه القادمة من قرية السّدّة، وعلى مقربة تماماً من عزلة أرياب وأدم، أي بالضبط قرب سائر الأماكن التي يصفها السِفر التوراتي، ويشير إلى أنها كانت مسرحاً للقتال مع الرومان. هاكم التوصيف الدقيق من الهمداني ومحققه لجبال الأعماس- وهذا هو الضبط الصحيح لصيغة جمع المفرد من عماس. يقول الهمداني (صفة: ١٩٧) في وصف مخلاف السحول الممتد من عقبة الذهوب في مدينة إب جنوباً إلى البادية شمالاً (ما يعرف بمخلاف الكلاع) ما يلي:

(مخلاف السحول: والمساكن من هذا المخلاف جبل بَعْدان وجبل أدم، وسلية وأرياب، الذي مدحه الأعشى وفيه قال:

ببعْدان أو ريمان أو رأس سلية   شفاء لمن يشكو السمائم باردُ

وبالقصر من أرياب لو بتَّ ليلة   لجاءكَ مثلوجٌ من الماء جامدُ

ويضيف الهمداني ومحققه (صفة: ١٤٦- وانظر الهامش) ما يلي:

وادي أبين وهو مما يلي لحج ومأتيه من شراد وبنا، أرض رُعين (المحقق: وادي بنا له فرعان يشكل سيلاً عظيماً من الروافد التي تمده

وتسمى باسم خاص. ينزل- بنا- الفرع الثاني للمياه الغربية لوادي-بنا- وتسقط من غرب وجنوب قلة بني مسلم وأشراف بني سبأ وما تصفى من أعالي عزلة أرياب (..) وتلتقي مع سيل الدلاني في أعلى قرية السدة ويرفدها ما جاء من سائلة حورة التي تتألف من جبال الأعماس)

في هذين المقتطفين الرائعين لدينا سلسلة جبال صغيرة في مخلاف السحول تُدعى الأعماس، ترتبط بعزلة أرياب وجبل أدم في وحدة جغرافية متكاملة، وهذا ما يجعل من رواية سِفِر المكابيين عن المعارك ضد الرومان، قابلة تلقائياً لأن توضع في موضعها الصحيح من التاريخ اليمني. ولذلك؛ فإن وجود اسم واحد مُشابه للاسم التوراتي لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً. وفي الواقع انتقل الاسم الأعماس-عمواس[1] على الأرجح من اليمن إلى فلسطين في السياق ذاته لانتقال سلسلة من أسماء المواضع اليمنية إلى بلاد الشام القديمة، مع الهجرات الكبرى والانزياحات المُتتالية للقبائل العربية- اليمنية عن أوطانها التاريخية. كانت أوامر الملك الروماني ليسياس واضحة وصريحة بعد هزائم قادته في البادية العربية: السير نحو قلب القبائل العربية اليهودية وتدميره أي إلى أورشليم اليبوسية اليمنية القديمة. وكنا أشرنا إلى أن بيت بوس اليمنية هي أورشليم التوراة. وبكل تأكيد؛ فإن قاصد بيت بوس اليمنية من مخلاف خولان وأرض أدوم سوف يبلغها بسهولة، في حين أن من المستحيل العثور على عمواس في أرض أدوم من أجل الوصول إلى القدس الفلسطينية؟. ولنتذكر هنا أن هدف الحملة المباشر، بالنسبة إلى روما هو القضاء على القبائل المتمردة في عقر دارها، ومهاجمة مراكزها الدينية في سياق الصراع ضد الوثنية العربية؛ بل وفي سياق الصراع الديني الجديد

(١) ومن هذا المكان جاء اسم الشاعر النبي- التوراتي عاموس.

بين روما المسيحية وبلاد اليهودية المتمردة. كانت أورشليم هي الهدف الذي سعى اليه الآشوريون في حملاتهم العسكرية من قبل، ومع الرومان أضحت هدفاً جديداً في صراع ديني- سياسيّ جديد. وهذا ما يُفسر قول السِّفر: أن القوات الرومانية وصلت إلى أدوم ثم خيمت في بيت صور (وادي صور) في طريقها إلى أورشليم لتدمير الهيكل (الذي سوف يتم تدمير في حملة هيرودت). فهل هناك أدوم وصور في الطريق إلى القدس؟ إذا ما افترضنا أن الأحداث وقعت في فلسطين، فكيف يمكن التوفيق بين إشارات ومقاصد الجملة الآنفة: إذ كيف يصلون إلى أدوم في فلسطين ثم يعسكرون في صور اللبنانية إذا ماكان هدفهم تدمير أورشليم (المزعوم أنها القدس العربية)؟

في أعقاب معركة سلامة قرب الطائف نحو العام ١٦٠ ق.م وبعد هزيمة الحملة الرومانية بقيادة القائد الروماني نكانور، تمت ملاحقة فلول الرومانيين حتى جزر قرب ردمان اليمنية، وعلى مشارف وادي حوران. وفي هذه المعركة قُطع رأس نكانور نفسه وأُخذت أسلابه. ومع ذلك؛ وبالرغم من هذه الأحداث بادر يهوذه المكابي إلى الاتصال بالرومان وأرسل موفدين منه هما أولمبس بن يوحنا وياسون بن آليعزر إلى روما، بهدف إقناع القيصر بجدوى التحالف مع القبائل اليهودية العربية، وأكثر من ذلك طرح الموفدان إمكانية أن تقوم بلاد اليهودية في اليمن، بدور عسكري في حروب روما. بيد أن الآمال بعقد هذا الحلف سرعان ما تبددت، مع أول حملة للملك الروماني في نجد اليمن لبسط النفوذ الروماني على وادي الجليل، عندما زحفت الجيوش الرومانية للاستيلاء أولاً على جبال الزيت (زيتيم) حيث نشبت معركة ضارية أخرى، كان مسرحها بئرة - بئروت ووادي حضُور - انظر ما كتبناه عن هذه المواضع في الكتاب-. وفي هذه السلسلة من المعارك الدامية سقط يهوذه المكابي

قتيلاً. بعد مقتل يهوذه المكابي أصبح شقيقه يوناتان ملكاً على بلاد اليهودية. يقول النص التوراتي: إن يوناتان قرر الانتقام لدم أخيه يوحنا الذي قتله بنو يمرء- المراء في حوران عندما أُرسل لطلب العون من القبائل في مواجهة القوات الرومانية، وأنه أنزل بهم العقاب انتقاماً لدم شقيقه في أنبطه. وبذلك أصبحت مهمته المباشرة ذات طبيعة مزدوجة: إخضاع القبائل التي لا تعترف بسلطته ومواجهة التحديات الرومانية. ولذلك وفور تنفيذه لعملية انتقام مدبرة قام بها ضد بني يمرء، حيث تمكن من الإيقاع بهم في كمين محكم في أثناء عرس في أنبطة، تفرغ لتحصين مواضعه في تمنية وفرعتون وثفون- ثفن وسواها. والهمداني يصف هذه المواضع في نصه بصورة دقيقة للغاية. هاكم ما يقوله عن موطن بني يمرء- مرء وأودية ثفن، وفرعة- فرعتون (صفة: ٢٦٤):

> **ومَنْ أخذ طريق وادي الثفن من الفلج إلى اليمامة، أخذَ أسافل أودية جعدة. والثفن وادٍ رغاب كثير النخل كثير الحصون فإنْ أحبَّ شرب (من وادي) دلاميس، وإنْ أحبَّ شربَ (من وادي) المراء ومن قبلة الفلج فرع وادي أكمة ثم الفرعة.**

ولنلاحظ التناظر بين النصوص؛ فالنص التوراتي يتحدث عن حصون أقامها يوناتان في ثفون-ثفن وفرعتون-فرعة؛ بينما يتحدث نص الهمداني عن حصون كثيرة في هذين الواديين. في العام ١٥٩ ق.م حاصر الرومان أورشليم مرة أخرى إثر حملة قادها ضابط روماني كبير يُدعى بكيديس، عسكر خلالها في وادي بيصه على الساحل. لقد سعت القراءة الاستشراقية عبثاً إلى مُطابقة اسم قرية (بصا) قرب بيت لحم الفلسطينية، مع اسم وادي بيصه. بيد أن سياق الأحداث يشير إلى وادٍ كبير أقام فيه الجيش الروماني معسكره، وليس إلى قرية صغيرة بعيدة كل البعد عن القدس العربية. إن

وادي بيصه هذا ليس سوى وادي بيض- بيصه (في العبرية تعني كلمة بيصه: بيض). والدليل على ذلك أن الرواية التوراتية تقول ما يلي: تراجعت الحملة الرومانية إلى موضع يُدعى مكماس بعد فشل الضابط الروماني بكيديس في مهمته الحربية. وبالطبع ليس ثمة من موضع يُدعى مكماس على الطريق إلى وادي بيض سوى موضع الكامس الشهير في الشعر العربي. (انظر الخرائط وانظر كذلك تفصيلات وافية عندنا عن معارك أخرى جرت في مرج الكامس بين المصريين والآشوريين). وفي العام ١٤٧ ق.م. جهَّز الرومان حملة أخرى بقيادة أبولنيوس لتأديب القبائل المتمردة (أبولنيوس هذا هو ابن والي السامرة الذي قهره يهوذه المكابي وهو يحمل اسم والده) وقد عسكر بقواته في يمنيه- منيه. يرسم اسم هذا الموضع في الطبعة العربية من التوراة خطأ في صورة (يمنيا) والصحيح ما أثبتناه.

في بداية هذه الحقبة من الحروب، وفي إحدى المعارك الدامية سقطت يفاء في يد يوناتان (تُرسم يفاء خطأ في الطبعة العربية في صورة يافا كجزء من التضليل والإيحاء بأن الأحداث تدور في فلسطين- انظر ما كتبناه عن يفاء ومنيه في هذا الكتاب). وفي وقت لاحقٍ ومع صعود أنطيخوس السادس (١٤٥-١٤٢) ق.م- المعروف باسم أنطيخوس الصغير جرت أول محاولة جدية لعقد معاهدة صلح، تُمنح القبائل المتمردة بموجبها حق السيادة على ثلاثة أو أربعة مواضع هي (ء فرمة، لدة - لذة - وهذه جرى تخيلها على أنها اللد الفلسطينية ثم رمتئيم، وربما ءقربتن كما ترى القراءة الاستشراقية من دون إسناد أو دليل، بينما نرى أن الموضع الرابع هو يُفاء التي سقطت للتو، في يد يوناتان). إن فلسطين التاريخية لا تعرف أي موضع من هذه المواضع (انظر ما كتبناه عن لذة في هذا الكتاب: لذات والرمة والفرية - ءفرمه). بيد أن محاولة التوصل إلى

معاهدة صلح حقيقية، سرعان ما فشلت مع تعاظم مخاوف الرومان من نفوذ يوناتان بين سائرالقبائل العربية في النجد، ولذلك جهزوا حملة أخرى لإلحاق الهزيمة به ولكن، واستعداداً لهذه التطورات، أقام يوناتان مخيماته قرب وادي خناصر-جناسر في الطبعة العربية قبل أن يتجه إلى وادي حضُور. ووادي خناصر هذا هو مسيل مياه على مقربة من مخلاف حضُور، تماماً كما في وصف السفر. إليكم هذه المقاربة بين النصين:

سفر المكابيين (النص العربي؛ ١١: ٦٤ ؛ ١٢: ١١ -لتسهيل عودة القراء إليه)	الهمداني (صفحة ٢٠٩-٢١٠)
وخيّم يوناتان مع جيشه عند مياه خناصر. ووصلوا فجراً إلى أسفل حضُور	والأحص وهو منهل الظّهار (ثم) مناهل لعسان ذو الخناصر ثم مخلاف حضُور. فسافلة حضور
قارن بين جملتي (أسفل حصور) في السفر التوراتي، و (فسافلة حضور) عند الهمداني	

تكشف هذه المُقاربة عن حقيقة مُذهلة: إن المعركة التي خاضها يوناتان- يونتن ضد القوات الرومانية، وقعت إلى الغرب من صنعاء وليس في فلسطين؛ التي لاتعرف أي موضع أو مسيل مياه يُدعى مياه خناصر ولا موضعاً يمكن تسميته أسفل حضُور-حصور. في هذه المعركة زحف يوناتان برجاله على القوات الرومانية وكسرها، ثم طارد العدو إلى قدش-جبل قدس (نحو ٨٠ كيلو متراً جنوب تعز). إن أحداً لا يعرف قدس هذه قرب مياه خناصر وأسفل حضُور في فلسطين؛ بينما يمكن ببساطة تصوُّر مسرح القتال وقد امتد من غرب صنعاء حتى جنوب تعز حيث جبل قدس. في أعقاب هذا الصدام الدامي، قرر يوناتان وفي إطار الاستراتيجية التقليدية ذاتها؛ والتي لطالما اتبعتها القبائل على اختلاف دياناتها

وظروفها، إرسال موفدين إلى روما من أجل إبرام وتجديد الاتفاقات المعقودة بين القبائل العربية والإمبراطورية. عنى هذا، أن القبائل المتمردة على الرومان كانت لاتزال، حتى في ظروف الحرب، مستعدة لانتهاج خط سلمي إذا ما تمت الاستجابة إلى بعض مطالبها. وهذه هي الاستراتيجية التقليدية التي تنتهجها معظم القبائل مع القوى الكبرى؛ فهي مستعدة للمضي معها شوطاً أبعد، سلماً أو حرباً، ولكن في سياق الاحتكام إلى مستوى الاستجابة لمتطلباتها ومصالحها وميولها الاستقلالية.

في النهاية وبعد سلسلة من الحروب والمعارك مع الرومان، وقع يوناتان-يونتن في قبضة القوات الرومانية في معركة وادي بسيان- بشيان نتيجة لخدعة دبرها تريفون القائد الروماني الطموح ولتبدأ منذئذٍ، حقبة جديدة يصبح فيها شقيقه سمعان قائداً وحيداً من غير منافس، ثم - تالياً- ملكاً وكبيراً للكهنة في بلاد اليهودية في سرو حِمْيَر. وبين أعوام ١٤٣- ١٣٤ ق.م وقبيل صعود سمعان إلى العرش، عادت القوات الرومانية بقيادة تريفون إلى سياسة الحملات الحربية لإرغام خليفة الملك الأسير، على إظهار مزيدٍ من الخضوع لمشيئة الإمبراطورية. ولكن؛ ولمواجهة هذا الوضع وربما تحديه بصورة مباشرة وفورية، اتجه سمعان بقواته في شتاء عام ١٤٣ ق.م إلى حديد- حديد في العبرية، وهي منطقة تقطنها قبائل عربية من بني حديد- (وهذه غير حدد في اليمامة التي سبق الكلام عنها) بينما كان تريفون يستدير بقواته منءدور-الدّارة، ليمضي في سكمه- سقمه، بسبب كثافة الثلوج التي تساقطت على الطرق الجبلية[1]. وفي هذه

(١) تشتهر مناطق اليمن الجبلية وخصوصاً قرب بيت بوس بكثرة الثلوج. ويكفي المرء التمعن في توصيف امرئ القيس لجبل أبان وهو جبل بعيد عن اليمن الحالية، ليلاحظ مغزى وصف هطول الثلج فوق الجبل الأسود: (انظر مادة أبان عندنا).

كأن أباناً في تفاني وبله كبير أناسٍ في بجاد مزمّلِ

المواجهة القاسية بين المتحاربين قُتل الملك الأسير يوناتان- يونتن الذي جيء به إلى مسرح الحرب بقصد المساومة. وبعد مفاوضات معقدة تمكن شقيقه سمعان من الحصول على حق دفنه في مُدان موطن آبائه. إن فلسطين التاريخية لا تعرف أي موضع من المواضع الآنفة؛ فليس ثمة طريق جبلي تتساقط فيه الثلوج بكثافة في الشتاء ويُدعى حديد أو سكمه- سقمه كما لا توجد مُدان. إن الهمداني يصف سائر هذه المواضع على الطرق الجبلية من جرش (ولنتذكر أبيات امرئ القيس عن جبل أبان عند وادي الرمة-رمتئيم الذي تغطيه الثلوج). يقول الهمداني في وصف مواضع القبائل القاطنة بين نجران والجوف إلى جرش (صفة: ٢٣٧-٢٣١):

> **غرب، والحضارة، والعشتان، والبردان، والبردان بئر بتبالة وبالعرض من نجران، وسقم، والذي يسكن هذه البلاد من قبائل نهد وحرام (..) وأول الأودية بين نجران والجوف قضيب واليتمة (ثم) جُرش: وهي كورة نجد العليا من ديار عنس من أشراف حمير. وجُرش في قاع ولها أشراف غربية بعيدة تنحدر منها مياهها. والدارة والفتيحا وطبب هذه أودية عسير. والذي يُصالي جنب من ديار عنز الرفيد والغوص وتمنية والغوص يسكنه بنو حديد وتمنية يسكنها بنو مالك والدارة والفتيحا، وتسمى هذه أرض طود.**

ها هنا وفي جبال نجران وصولاً إلى جُرَش، سنرى المواضع ذاتها الواردة في نص السِّفر: هذه هي سقم -سقمه التي اتجه صوبها الجيش الروماني بعدما حاصرته الثلوج، وها هنا الدارة التي سار إليها من النجد

= وهذا وصف رائع ونادر للثلوج، وهي تسقط فوق قمة جبل أبان عند وادي الرمة، علماً أنه يُدعى أبان الأبيض لكثافة الثلوج التي تغطيه، بحيث يبدو مثل رجل كهل مهيب يتدثّر بثوب بدوي مخطط هو البجاد (وفي العبرية: بجد).

(انظر ء دوره في القائمة). وها هنا منازل القبيلة العربية بنو حديد- حديد كما في النص التوراتي إلى جوار عدد من القبائل البائدة منها حرم. وفضلاً عن ذلك؛ هناك المواضع ذاتها الواردة في السفر (انظر القائمة) مثل تمنية والغوص (الغياض) كما في الترجمة العربية واليتمة-ديتمه[1] وإذا ما سار المرء على خطا الرومان بين هذه السلسلة من الوديان والجبال ومسايل المياه متجهاً صوب الطائف؛ فإنه سوف يصل إلى البحر تماماً كما في وصف السِّفر لسير العمليات العسكرية. ثم يختتم السفر روايته للحملات الرومانية على بلاد اليهودية القديمة بقصة مصرع سمعان ودفنه في دوقه-دوق.

إذا ما عُدنا إلى بعض المواضع الواردة في السفر، ومنها الموضع الذي قيل: إنَّ القبائل فيه مستعدة لمساعدة يهوذه المكابي في حربه ضد الرومان، أي إلى ظبوة- طبت؛ فسوف نراه في المكان ذاته لسائر الأماكن الواردة في النص التوراتي. يقول الهمداني عن ظبوة (صفة: ١٥٥-١٥٦):

في وصف الجوف اليمني: ومساقي الخارد من فروع مختلفه فأولها من مخلاف خولان في شرقي صنعاء فيصب إليه غيمان وما أقبل من ظبوة (..) وما أقبل من عد ورد ومن أشراف نقيل السود فبيت بوس.

وكنا رأينا أن المقصود من أورشليم التوراة (بيت بوس). ها هنا القبائل القاطنة قرب بيت بوس في وادي ظبوة - العبرية تستعيض عن الظاد بالطاء -أما- كشور (في العبرية الحديثة يُلفظ الواو فاء) فليست سوى وادي كشور اليمني نفسه (صفة: ١٦٢-١٦٣):

(١) الرسم العبري للاسم (دي تمة) هو ذاته الرسم العربي- اليمني (ذي تمة).

ثم وادي نجران وفروعه من ثلاثة مواضع من خولان ومن بلد شاكر والحناجر (..) ويلقاها سيل عكوان من شرقي دماج فيضم إلى العشة ثم يلقاها وادي كشور فسيل جدرة.

هذه هي أحداث سفر المكابيين التي جرى تخيُّلها في فلسطين على الرغم من انعدام أي عنصر تاريخي موثوق به- في الرواية التوراتية- يمكن أن يدعم أو يؤيد بأي صورة من الصور، وجود المواضع المذكورة هناك. على العكس من ذلك ثمة كل ما يلزم من العناصر التاريخية والثقافية التي تؤيد وبقوة، فرضية وقوع الأحداث في اليمن القديم. إن إعادة بناء الرواية التاريخية التي سجلتها التوراة، على أساسٍ جديد يقطع مع التخييل الاستشراقي، سيكون ممكناً ومطلوباً في الآن ذاته، وعندما تُقرأ الأحداث في سياق طموح الإمبراطورية الرومانية لبسط نفوذها على امتداد سواحل البحر الأحمر؛ فإن هذا وحده ما يفسر المعنى الذي ينطوي عليه تمييز الهمداني[1]، نقلاً عن بطليموس القلوذي الجغرافي اليوناني، بين فلسطين وبلاد اليهودية. لقد كانا يعرفان الفرق الشاسع بين المكانين ويدركان أن فلسطين في العصر الروماني المبكر شيء وبلاد اليهودية شيء آخر: إن الحدود المفهومية التي يُقيمها الهمداني وبطليموس على حد سواء، بين أرض سورية: بلاد الشام وأرض فلسطين من جهة، وبين (بلاد اليهودية العتيقة من إيلياء) والتي كانت تُعرف - قديماً- بـ (يروشليم) يجب أن يكون مُتضمناً لمعنىً ما، وإلا فما هو مبرر التمييز بين هذه البلدان؟ هذا المعنى - من وجهة نظرنا- يتمثل هنا: إن بلاد اليهودية العتيقة التي دارت

(١) وأما سائر أجزاء هذا الربع، الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة وما يقع منها، مثل: أرض سورية وأرض فلسطين، وبلاد اليهودية العتيقة من إيلياء، وتسمى بالعبرانية يرشلم وتعرّبها العرب فتقول أوراشلم (الهمداني صفة: ٧٣).

فيها أحداث سفر المكابيين ليست أرض فلسطين، كما أنها ليست أرض سورية -بلاد الشام (أو جنوب الشام) بل هي مكان آخر.

وبكل تأكيد؛ فإن هذا المكان الآخر الذي تم تمييزه بأنه بلاد اليهودية العتيقة (أي البلاد التي ورثت مملكة يهوذا وتواصلت مع ديانتها حتى ظهور الملك الحميري ذي نواس الذي أعاد بعث اليهودية في سائر أرجاء اليمن في العام ٥٢٤ م) كان يُعرف عند الجغرافيين اليونانيين باسم (يروشليم). ولو كانت يروشليم هذه هي ذاتها مدينة القدس العربية في عصر بطليموس اليوناني، فمن غير المنطقي أن يميزها عن فلسطين؟ بل لا مبرر لتمييزها أصلاً، ولتوجب على بطليموس وهو الجغرافي الحاذق أن يقول: يروشليم في فلسطين؟ بيد أن هذا سيبدو أمراً مخالفاً لمنطق الجغرافية في عصر بطليموس؛ فهو يعرف أن يروشليم هذه لم تكن في فلسطين ولم يكن اسمها القدس أيضاً؟

لقد اندثرت بلاد اليهودية العتيقة من إيلياء (وعاصمتها الدينية القديمة أورشليم العربية- اليمنية وهي بيت يبوس) واختفت من مسرح التاريخ قبل وقت طويل من هذه الحروب المدمرة، التي أرغمت القبائل العربية العاربة على الهجرة نحو حاضرة الإمبراطورية الرومانية آنذاك: بلاد الشام. والتاريخ المقبول من وجهة نظر هذا الكتاب- لبداية تدفق القبائل العربية العاربة بما فيها بقايا قبيلة بني إسرائيل، من يهود اليمن وسواحل البحر الأحمر وتهامة ونجد اليمن، واليمامة نحو جنوب بلاد الشام (فلسطين) لن يتجاوز حدود العام ٢٠٠ ق.م. إذ بدءاً من هذا التاريخ تدفقت وعلى شكل موجات متعاقبة وتحت ضغط الحروب والحملات العسكرية المدمرة؛ جماعات وقبائل وشعوب منهكة تقلصت وإلى حد بعيد إمكاناتها القتالية والحربية، وأضحت قدرتها على مواصلة التمرد، محدودة وتكاد تكون معدومة؛ وكان عليها بالمصالحة مع الرومان أو حتى التواطؤ معهم

أن تتملّقهم، لضمان حريتهم في التنقل ثم الاستقرار في جنوب بلاد الشام (ولتترك هناك ذكرياتها في صورة أسماء قديمة للمواضع والأوطان الأم بالتلازم مع ظهور أولى التجمعات السكنية للقبائل اليهودية اليمنية، أي إن القبائل هاجرت في النهاية إلى حواضر الإمبراطورية الرومانية خصمها اللدود الذي حاربته وتصالحت معه مراراً وتكراراً).

إن رواية ابن العبري[1] المُقتضبة للغاية لهذه الأحداث؛ ولكن الموازية مع ذلك، تنبني في جزء منها على مصادر عدَّة من بينها الرواية التوراتية الواردة في سفر المكابيين؛ ولذا يمكنها أن تقدم دعماً للاتجاه الذي تسير فيه نظريتنا عن المسرح الحقيقي لهذه الحروب في اليمامة ونجد اليمن. يقول ابن العبري في كتابه ما يلي: إن بطليموس أفيفانوس وبعد الانتصار في مصر، جهز حملتين حربيتين سارتا نحو بلاد الشام وبلاد اليهودية لإخضاعهما. ويضيف (تاريخ: - مصدر مذكور٦١) ما يلي:

> **وملك بعده أنطيخوس أوفاطور، سنتين، واضطهدَ اليهود اضطهاداً شديداً. ووليَ أمرَ اليهود يهوذا المقبي، وجمع بين المُلك والكهنوت ونفى نواب أنطيخوس من أرض يهوذا وصار اليهود يحاربون ملوك الروم.**

يشير هذا النص إلى اسم يهوذه المكابي في صورة يهوذا المقبي، الذي جمع بين كونه كاهناً أعلى وملكاً، كما يشير إلى قيامه بطرد نواب الإمبراطورية (في اليمامة ونجد اليمن أو ما يُسمى إقليم السمرا ويفاء ورمتثيم وسواها). إن إقليم بلاد السمرا-السامرا الذي قُرئ في صورة السامرة ليس في شمال فلسطين؛ بل في شمال اليمن. أما المعارك التي

(١) تاريخ مختصر الدول: ط، بيروت- بدون تاريخ نشر ولد ابن العبري في العام ١٢٢٦ م وعاصر الأحداث الدامية في بغداد، وفاوض- بنفسه- هولاكو بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨ م من أجل الإبقاء على حياة رعايا الكنيسة في أنطاكية .

دارت ضد الولاة الرومان فإنها دارت في اليمامة وفي أطرافها عند موضع الغرابات (انظر ما كتبناه عن عرابات التوراتية). وبالطبع؛ فإن السامرة (الضفة الغربية من فلسطين) لا تعرف هذا الاسم، بينما نجد إقليم السمرا اليمني، يضمُّ الغرابات وديار هوذة نفسه[1]؟ هاكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٥٢-٢٥٣):

ثم تقطع بطن قَو، ثم السمراء وهو أرض سهب، ثم تأخذ في الدهناء وهي هناك مسيرة يومين ومن عن يمين ذلك الغُرَابات، ثم تسير في السهباء ثم تقطع جُبيلاً قريباً له ثم الروضة ودار عجل وديارهوذة (بن علي السُحيمي الحنفي) وهي أول اليمامة. ثم من أسفل ذلك القُرى من اليمامة والقنع، وهذه اليمامة حصون متفرقة ونخل ورياض.

هذا هو إقليم السمرا - بلاد السمرا في المكان ذاته، وها هنا اليمامة التي دارت فيها الحروب ضد الرومان؛ وها هنا ديار الحنفيين (الموحدين الأوائل في الجزيرة العربية) الذين تسمى آخر ملوكهم باسم يهوذة تيمناً باسم يهوذة المكابي أو اسم السبط الأكبر في بني إسرائيل. لأجل ذلك كله يتعين- اليوم- أن نشطب من التاريخ الفلسطيني عصراً بأكمله نُسب إلى فلسطين خطأ؛ بل وأن نشطب كل ما له صلة بحروب يهوذه المكابي من تاريخ بني إسرائيل في فلسطين الخيالية، وأن نعيد وضعه بكل أمانة ضمن تاريخ اليمن القديم والحملات الرومانية لإخضاعها. وآخر هذه الحملات عشية الإسلام، كانت حملة الحبشة المسيحية وكيلة روما في المنطقة، والتي نعرف بعض تداعياتها في الجزيرة العربية باسم (حملة عام الفيل).

---

(١) ليس من غير معنى أو دلالة أن ديار آخر ملوك اليمامة كان يدعى هوذة بن علي السّحيمي الحنفي.

الجزء الخامس

التوراة الإغريقية

مدخل

الفصل الأول: إغريق وعرب

تمهيد

الفصل الثاني: حروب في وادي لحا: من جدعون إلى شمشون

الفصل الثالث: أنبياء وشعراء

الفصل الرابع: حضور وحليفاتها (ممالك حضور ومأذن)

الفصل الخامس: مشكلة سعير: سعير ليست مقلوب عسير

الفصل السادس: حبرون إبراهيم ليست الخليل الفلسطينية

الفصل السابع: نشيد الانتصار في أرنون

خلاصة واستنتاجات

مدخل

هل هناك حقاً توراة إغريقية كما يزعم عنوان كتابي هذا؟ بمعنى واحد فقط يمكنني أن أجيب: نعم. وبمعنى واحد أيضاً يمكنني القول: إن هذا الافتراض قابل لأن يُبرهنَ عليه، وإن من واجبنا ألّا نسمح بالتلاعب به أو استغلاله أو تشويهه. في الواقع يتضمن النص التوراتي (العبري) مرويات وأساطير عربية قديمة ذات مكوّن يوناني- إغريقي مبكر، يسمح بتقديم مثل هذه الفرضية كما يسمح بالعمل البحثي في نطاقها. لكن أساطير التوراة هذه خضعت لتأويل استشراقي تعسفي ربط بينها وبين فلسطين؛ بينما سوف تدلل دراستي هذه على أنها قصص وأساطير عربية- يمنية قديمة مهاجرة. وقبل سنوات قليلة فقط لاحظ المؤرخ العراقي جواد علي في دراسته الموسوعية الضخمة (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) استناداً إلى المؤرخ اليوناني نونوس، أن هناك الكثير من الأساطير اليونانية تعود بأصولها إلى الثقافة العربية القديمة. بيد أن التقدير لم يخضع لأي نوع من العمل البحثي، فلم تصدر أي دراسة في هذا الشأن حتى اللحظة فيما أعلم.

من بين أهم هذه الأساطير، مثلما ارتأى علي، أسطورة ملك يدعى (عربيوس Arabios) والد "Kassiopeia" وأسطورة أخرى- تحدث عنها المؤرخون الرومان أيضاً -تدور حول فتاة تدعى أوربة أو عرابيا Arabia ومن هذا الاسم جاء اسم أوربة. فضلاً عن ذلك هناك أساطير تدور حول

أب أعلى يدعى "Aigyptos" إيجبتوس - إيجبت وهو الاسم القديم لمصر. لكن أوربة التي أصبحت اسماً للقارة لم تكن هي الاسم الإغريقي - الفينيقي الوحيد؛ مثلما لم يكن إيجبتوس الذي جاء منه اسم مصر القديمة اسماً وحيداً أو متفرداً، بل كانت هناك أسماء كثيرة قد يصعب تعدادها هنا. إن الكتّاب اليونانيين الكلاسيكيين لا يخفون مقدار تأثرهم بأساطير الفينيقيين، ولا يستبعدون - على غرار مؤرخهم هيرودت- الاحتمال القائل بأن كل أسماء الآلهة والأساطير الإغريقية جاءت من شعوب مهاجرة وصلت كريت عبر البحر الأحمر. ولأن مسالة أصل الأساطير وجذورها لا تبدو أمراً قابلاً للحسم، فإن كتابي هذا لن ينشغل بتقديم أي معالجة على هذا الصعيد، وسيكتفي بعرض المسألة من منظور مختلف يلاحظ العلاقة بين النص التوراتي والإغريقي والعربي القديم. وهذا هو الإطار الجديد الذي يجعل منه فيما أرى، كتاباً يسير في طريق خاصة ويطرح مواضيع لم يسبق طرحها.

إن الهدف الحقيقي من المقاربة بين الأساطير الإغريقية وقصص التوراة، يكاد ينحصر في نطاق الفكرة التالية:

لقد تسنى لي في أثناء العمل في معالجة النصوص التوراتية، رؤية الكثير من مظاهر التماثل والتطابق بين الصور والمشاهد السردية الخاصة بالأبطال الأسطوريين في القصص التي ترويها هذه النصوص، وبين ما يقابلها في الأساطير الإغريقية من صور ومشاهد بطولية. وكان يمكن لي في أثناء العمل أن أعزو - وبشيء من السهولة النسبية- هذا التماثل إلى عوامل متنوعة. بيد أن الباعث الأهم وراء كل مظهر تماثل، ظل بالنسبة إلي على الأقل، وفي ضوء البحث المتواصل، شاخصاً في الحقيقة القائلة أن قصص التوراة وأساطير الإغريق كانت ذات أصول مشتركة. إذا كانت للأساطير- مثل البشر- طفولة بعيدة؛ فإن هذه الطفولة قد تكون هي

المصدر الأهم للتماثل في أشكال السرد وفي وسائل وتقنيات الإرسال. وهذا ما تبيَّن لي بوضوح في أثناء العمل.

وبالفعل، لاحظت أن الكثير من مرويات وأساطير الكتاب المقدس تكاد تكون مزيجاً من أساطير عربية قديمة، تنتسب إلى طفولة العرب البعيدة قبل تشكلهم كجماعة بشرية ستعرف تالياً بهذا الاسم؛ ومن صور ومشاهد تنتسب إلى الثقافة الإغريقية. وهذا أمر مثير يستحق الاهتمام. على سبيل المثال؛ إن صورة الملك - النبي سليمان الذي كانت له قدرات مذهلة على حل الألغاز (والتحادث بلغة الطيور والكائنات ومخاطبة الرياح كما في الأسطورة الإسلامية) تكاد تكون حرفياً أسطورة إغريقية من أصل فينيقي. على الطرف الآخر تأثر كتاب اليونان القديمة بمجمل الأساطير التي وصلتهم عبر البحر الأحمر - مع الفينيقيين- واعتبروها جزءاً من ثقافة وافدة سرعان ما أصبحت جزءاً عضوياً من ثقافتهم الخاصة، وجرى مع الوقت، نسيان حقيقة أنها وصلتهم من العرب القدماء. إن الكثير من القراء العرب المعاصرين قد يشعرون بالصدمة والمفاجأة، حين يعلمون أن العرب القدماء كانوا أمة بحرية ولم يكونوا من أمة البدو وحسب، وأن البداوة كانت تطوراً دراماتيكياً في حياتهم نجم عن زحزحة منتظمة وبواسطة القوة من الساحل إلى الصحراء. بكلام آخر؛ فإن ما يجمع الفينيقيين القدماء والعرب والإغريق أنها أمم بحرية عظيمة، وأساطير هذه الأمم بفضل ذلك، هي أساطير مجتمعات عرفت البحر التي اختبرت أهواله وعاشت ثقافة الهلع الجماعي من أخطاره. يُعرف الفينيقيون تاريخياً (وفي المصادر التاريخية والأساطير العربية هم بنو قين أو البنيقيين) بأنهم الجماعة البشرية الكبرى التي شكلت تاريخ وثقافة اليونانيين القدماء. وبطلهم الأسطوري قدموس يحمل اسم وصفات البطل الأسطوري في التوراة (قدمه السين لاحقة في اللغة اليونانية). وبالإجمال، يمكن القول: إن المكوّن الإغريقي الذي نفتش عنه داخل النص التوراتي،

هو في الأصول البعيدة له مكوّن عربي (جنوبي - من اليمن) ينتسب إلى طفولة العرب كجماعة بشرية قديمة. وهذا ما يتوافق مع تصورات معظم المؤرخين اليونانيين. إن تفكيك النص التوراتي من هذا المنظور، سوف يكشف عن الطابع الحقيقي لقصص الكتاب المقدس؛ وسيمكّن الباحثين من البرهنة على أن لا صلة بين التوراة وفلسطين.

في هذا السياق سوف تدّلل دراستي على أن هذه الأساطير عادت، عبر النص التوراتي إلى موطنها الأصلي الجزيرة العربية في وقت ما. كما سوف تدلّل على أن ساردي النصوص التوراتية الأصلية في اليمن، تأثروا بدورهم بالصناعة الجديدة للأساطير العائدة؛ وإلى الدرجة التي حملتهم على إضفاء طابع خيالي من البطولات على المشاهد الحربية والمعارك القبائلية، وذلك حين شرعوا، في وقتٍ ما بتسجيلها. وهذا ما تؤكده حقيقة أن أساطير العرب الكبرى وشجرات الأنساب الخيالية لملوك اليمن، وقصص البطولات التي رواها الطبري-مثلاً - استناداً إلى مصادر فارسية كما ارتأى نولدكه؛ هي أساطير وقصص يونانية تسربت إلى العرب خلال الحروب اليونانية-الفارسية نحو ٣٠٠ق.م عندما كان العرب يقاتلون مع الفرس ضد اليونانيين كتفاً لكتف، وبشكل أخص قبائل اليمن التي كانت قد وقعت تحت السيطرة شبه العسكرية لفارس. كما أن هذه الأساطير عادت إلى حاضنتها العربية القديمة والأولى؛ وبقوة في أثناء الحملات العسكرية اليونانية على الجزيرة العربية نحو عام ١٢٥م، في أثناء حملة أوليوس غالوس.

بهذا المعنى يحتفظ النص التوراتي المكتوب بالعبرية، بالنصوص الأصلية لهذه الأساطير التي تمّ تدوينها بلهجات القبائل، وبالطبع لا علاقة لهذه الأساطير والقصص والحكايات بفلسطين بكل تأكيد.

كل ما يرغب المؤلف في التشديد عليه ومنعاً لأي التباس بين القراء غير المتخصصين، ومن أجل إعادة التأكيد على أن المقصود بالمكوّن

الإغريقي في التوراة حصراً، ذلك المزيج المتشابك من المواد والعناصر الأدبية والميثولوجية والدينية العربية والإغريقية والفينيقية، هو التالي: إن التفتيش عن هذه المكوّنات سوف يساهم في تقديم قراءة جديدة للنص التوراتي تقطع نهائياً مع القراءة الاستشراقية السائدة. أي إنه سوف يساهم في الفصل النهائي بين التوراة وقصصها وفلسطين. إن التفتيش داخل النص الأصلي عن هذه المكوّنات (العربية - الإغريقية) سوف يساهم من جانب موازٍ، في حل الكثير من ألغاز القصص التي أرادت القراءة الاستشراقية استغلالها مع عصر الفتوحات الاستعمارية. والحال هذه فإن أساطير وقصص التوراة عن ولادة موسى، مثلاً، أو ولادة إسحاق بعد مجيء الملائكة إلى منزل إبراهيم النبي، ثم صراع إسحاق وإسماعيل وولادة يوسف، وكذلك وقوع إمرأة العزيز (فوط- يفار) في غرام يوسف، أو أسطورة يونان (يونه) الذي يعرف في المرويات الإسلامية يالنبي يونس، وسواها كثير من القصص والأساطير التي سردها النص التوراتي كما جاء القرآن على ذكرها؛ هي قصص فينيقية (عربية بدائية) قديمة مهاجرة من منطقة البحر الأحمر على ما ارتأى هيرودت. ومن ثمَّ فإنها لم ترتبط لا من قريب ولا من بعيد بفلسطين. لقد جرى ربطها بفلسطين في وقتٍ متأخر من القرن السابع عشر في أوربة وفي أثناء الفتوحات الاستعمارية للشرق، وذلك حين سعى الغرب إلى اختلاق تاريخ إسرائيلي قديم في فلسطين، هو جزء من تاريخ أوروبي ضائع ومزعوم. ولذلك وفي سبيل البرهنة على أن التوراة تتضمن مكوناً إغريقياً - هو في الأصل مكوّن عربي قديم يعود إلى طفولة العرب البعيدة - فسوف أخصِّص الفصل الأول من هذا الكتاب لاستعراض أهم هذه الأساطير عبر مقاربتها مع النص العبري، بينما أخصّص الفصول التالية لمقاربات من نوع مختلف، بين النص العبري والنصوص الجغرافية العربية القديمة، بقصد البرهنة على وجود مسرح تاريخي

حقيقي دارت فيه هذه المرويات ذات يوم، مع أدلّة وشواهد شعرية (من الشعر الجاهلي) تماماً كما فعلتُ في الكتب السابقة.

المثير للاهتمام في هذا السياق، أن عالم الأساطيرالإغريقية يعجّ بمشاهد وأحداث مماثلة تماماً للمشاهد والأحداث الواردة في التوراة، من ذلك مثلاً أسطورة يوسف (التوراتية- الإسلامية). لا يقتصر هذا التماثل على وجود مشاهد قصصية وحسب؛ وإنما وجود بنى سردية تجعل منها أسطورة واحدة؛ وإلى الدرجة التي يستحيل معها تخيل أن التطابق في نمط ونوع الإرسالات الرمزية هو مجرد تطابق عرضي لا معنى له. على العكس من ذلك بوسع قارئ هذه الأساطير أن يلاحظ أنها تكاد ترتبط مع الأسطورة التوراتية، بروابط قرابة قوية على مستوى السرد والدلالات والطاقة الرمزية.

ونظراً لوجود الكثير من الأساطير التي تدور حول فكرة (الوقوع في غرام الضيف) الجميل أو البطل؛ وهذا هو المحور الحقيقي لقصة يوسف؛ وصلة هذا الغرام ببقايا عبادات وأديان قديمة تخص إله الخصب بما يصعب معالجته ضمن هذا الكتاب، فقد أفردت كتاباً خاصاً بها هو (النار والصولجان: يوسف والبئر- سيصدر قريباً). وفي هذا النطاق من العرض السريع لفكرة الكتاب، يأمل المؤلف أن يتلطف قراؤه بقراءة متأنية تليق بالجهد المبذول، وأن يشاطروه تأملاته بالفكرة القائلة: إن التوراة - فضلاً عن كونها كتاباً دينياً مقدساً؛ فإنهاتسرد قصصاً وأساطير يمنية قديمة لا صلة لها بفلسطين. ولهذا الغرض، ومن أجل تقديم إيضاحات كافية بشأن أفكار الكتاب، فقد أعدَّ المؤلف خرائط دقيقة تبيِّن المسرح الحقيقي لهذه الأساطير.

في كتابي السابق (أبطال بلا تاريخ: المثيولوجيا الإغريقية والأساطير العربية) ركزت عملي على البحث عن المكوّن اليوناني في أساطير

العرب، مع التأكيد على أن هذا المكّون ليس دليلاً بأي صورة من الصور، على وجود أصول أو جذور إغريقية في أساطير ومرويات العرب؛ بمقدار ما هو دليل على وجود طفولة مشتركة جمعت أساطير الإغريق والعرب (البائدة). وكتابي الجديد هذا تطوير بوسائل وتقنيات جديدة لأفكار (أبطال بلا تاريخ) وذلك من أجل اكتشاف الجانب الخفي من العلاقة بين التوراة وأساطير الإغريق وأساطير العرب القدماء.

فاضل الربيعي

هولندا: آب / أغسطس ٢٠٠٥

الفصل الأول

إغريق وعرب

تمهيد

افترض علماء التوراة أن النصّ العبري كتب نحو عام ٥٠٠ ق. م (بعد السبي البابلي ٥٣٩ ق. م وهذه فرضية تستلزم اليوم مراجعة شاملة نظراً لأنها تثير مشكلات عويصة داخل التاريخ الذي تسرده هذه النصوص). وكما هو معلوم فقد تمت مراجعة النص اليوناني (الترجمة السبعونية) للتوراة بمقاربتها مع النص العبري الأصلي. ومع ذلك فمن النادر رؤية أي محاولة جادة من جانب علماء التوراة، أو الباحثين الغربيين في التاريخ القديم وعلى مستوى البحث الموضوعي، للتفتيش عن جذور العلاقة بين النصوص العبرية والعربية- اليمنيّة، واستطراداً الأساطير الفينيقة- الإغريقية، أو حتى طرح أسئلة من قبيل: هل للنص التوراتي علاقة من نوعٍ ما بالأساطير اليونانية؟ وما هي حدود هذه العلاقة؟ وأين تبدأ وأين تنتهي؟ ولماذا نجد بعض الأسماء أو الشخصيات ذات الطابع الإغريقي مثل قصة شمشون ودليلة أو قصة يونان (يونه)؟ على الضد من ذلك جرى التركيز دون وجه حق على وجود علاقة بين قصص التوراة وفلسطين. وهذا

أمر يندرج بكل يقين في سياق قراءة استشراقية تعسفية لا أساس لها، لأن التوراة كما بينا في الأجزاء الأربعة من (فلسطين المتخيّلة) لا تذكر اسم فلسطين قط، فضلاً عن أنها لا تعرف الفلسطينيين ولا ترسم اسمهم في هذه الصورة: فلسطينيون، فلسطيني إلخ؛ بل في صورة فلستيم- أي الفَلَسْيون. وهؤلاء جماعة يمنية- عربية بائدة عرفت تاريخياً بعبادة الإله (فلس) إله قبيلة طيئ البدوية العربية الشهيرة[1]. فهل نقلت التوراة بعضاً من أساطيرها وقصصها ومروياتها عن أساطير وقصص يونانية، أم أن هذه المواد والعناصر اليونانية هي بقايا أساطير تنتمي إلى الطفولة البعيدة للعرب. إن جزءاً من نقدي لدراسات الأدب المقارن في العالم العربي، وفي هذا الميدان على وجه التحديد، ينصبّ في النقطة التالية: ليس المهم البرهنة على وجود تأثيرات يونانية أو بابلية في النص التوراتي؛ بل المهم إعادة قراءة هذه القصص والأساطير من منظور وجود مقاربة أخرى، تبحث في المكوّن الأصلي الذي جعل منها (ثقافة) مشتركة في العالم القديم. وعلى سبيل المثال؛ فإن أسطورة رمي موسى في النهر داخل سلة هي أسطورة أقدم من النص التوراتي وأقدم من اليهودية نفسها، وإلى ذلك فهي أسطورة طبق الأصل عن حكاية رمي سرجون الأكدي (الأول) في النهر، والتي دونتها الألواح السومرية قبل أكثر من أربعة آلاف عام. لكنها في الوقت ذاته أسطورة طبق الأصل عن أسطورة إغريقية مهاجرة من البحر الاحمر تعرف عند الإغريق بأسطورة (أيون Ion) رواها يوربيدس، وتقول: إن الإله أبولو هو الأب الحقيقي لإيون وإنه أرسله إلى معبد دلفي بعد أن ولدته أمه كريوزا ونبذته في الماء داخل سلة. وبكل تأكيد لا معنى لأي بحث عن أصل بابلي أو إغريقي للنص التوراتي؛ لأننا في النهاية لن

---

(١) انظر ما كتبناه في (فلسطين المتخيّلة) وكذلك كتابنا (قصة حب في أورشليم: غرام النبي سليمان بالإلهة العربية سلمى) دار الفرقد، دمشق ٢٠٠٥.

نتمكن من التعرف بدقة على مثل هذا الأصل مهما حاولنا، وقد لا نصل، مهما سعينا، إلى تحديد صحيح ومقبول عن درجة تاثر النص العبري بالنصوص البابلية أو اليونانية. بينما يمكن لنا عبر مقاربة مختلفة أن نتوصل إلى حقائق أهم؛ في أساسها أن قصة موسى - مثلاً -تدور في نطاق الفكرة ذاتها عن عقيدة دينية شائعة من عقائد العالم القديم البابلي ثم الإغريقي، كما تدور في نطاق علاقة الإله بالماء. وقد شرحت بالتفصيل هذه المسألة في بحث خاص ضمن كتابي (أبطال بلا تاريخ)[١] عندما قمت بتحليل الآية القرآنية ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: ٦٨/١]، من منظور صلتها بالعبادة القديمة الخاصة بالإله العربي(نون - الإله السمكة). بكلام آخر: إن ما يجب البحث عنه ليس البرهان على تأثر النص التوراتي بقصص البابليين وأساطيرهم، ولا درجة تأثر النص العبري بأساطير الإغريق فهذا ما لا طائل من ورائه؛ بل استكشاف المكوّنات الثقافية القديمة في النص والبرهنة على أنها لا تتصل لا من قريب ولا من بعيد بفلسطين؛ وأنها - في الأصل- قصص ومرويات وأساطير عربية بدائية عرفها العرب في طفولتهم البعيدة. وهذا ما يقول به المؤرخ اليوناني هيرودت، عندما كتب جملته الشهيرة: إن تحقيقاتي قادتني إلى حقيقة أن كل أسماء الآلهة في اليونان جاءت من البحر الاحمر عن طريق الفينيقيين[٢].

التوراة من وجهة نظري - والتي سبق لي وأن بيّنتها في كتب سابقة - هي كتاب إخباري وديني من كتب الأحبار اليهود في اليمن؛ يتضمن بالإضافة إلى الجانب الفقهي- التشريعي المتصل بالعبادة والطقوس، مرويات وقصص وأشعار وأساطير أقدم مما عرفته الحضارات التي سبقت

---

(١) مصدر مذكور.

(٢) مارتن برنال: أثينا السوداء، الجذور الأفرو- آسيوية للحضارة الكلاسيكية - الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥-١٩٨٥ تحرير ومراجعة وتقديم د. أحمدعثمان- المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.

تدوينه. لقد هاجرت الأساطير كما هاجر البشر، وأصبحت جزء من عقائد وطرق تفكير وثقافات شعوب أخرى؛ ولتغدو من ثمَّ جزءاً من (المشتركات الإنسانية) أو (الكليات النفسية) بتعبير فريزر. لكل ذلك؛ فإن قصارى ما تهدف فرضية هذا الكتاب إلى البرهنة عليه، إنما هو وبالضبط تبيان المكوّنات الإغريقية في النص التوراتي من أجل بناء أرضية أو أساسٍ أكثر صلابة وصدقية، للبرهنة على بطلان الصلة المزعومة بين التوراة وفلسطين. هذا البرهان أصبح ضرورياً اليوم ويشكل ملحّ للغاية، لأنه سوف يفتح السبيل أمام إعادة قراءة التوراة كنص قديم ينتسب إلى ثقافة القبائل العربية البائدة (ومنها قبيلة بني إسرائيل). لقد عرفت قبائل العرب في طفولتها البعيدة قصص وأساطير التوراة وتداولتها وروتها في منتدياتها، وكان اليمنيون يرون في أبطال هذه الأساطير أبطالاً ينتسبون إلى شجرات أنساب ملوكهم الحميريين وممالكهم في سبأ وريدان وحضرموت ووادي حضور وصيد وصور، وذلك ما يفسر لنا المعنى الحقيقي لوجود اسم (ملكة سبأ) في نصوص التوراة، ومغزى وجود اسم عدن وحضرموت وأزال (صنعاء القديمة) ومئات مما يصعب إحصاؤه من أسماء القبائل والجماعات وأسماء المواضع. إنه لمن المثير حقاً أن القراءة الاستشراقية التي طبقت جغرافية التوراة، تعسفاً وزوراً على جغرافية فلسطين، لم تقدم لنا أي تفسير منطقي لوجود أسماء يمنية خالصة في نصوص التوراة، وهي في الغالب أسماء أماكن ومواضع ومدن وأسماء ملوك مثل سليمان وداوود، أو حتى أسماء قبائل عربية بائدة مثل قبيلة جشم وحاشد وزبيد وحشب وأشعر وعك وبني مجيد.

كل هذه الدلائل اللغوية والجغرفية هي التي تدفع إلى التساؤل عن صلة التوراة باليمن. من هذا المنظور سوف نقوم بالتفتيش عن المكوّنات الإغريقية في التوراة؛ بما هي نص عربي قديم ينتسب إلى ثقافة موغلة في

القدم، نسميها الطفولة الثقافية البعيدة للعرب، أي العرب في طور تشكلهم كجماعة أو عرق بعينه سيدعى العرب؛ علماً أن اسم العرب له صلة باسم الوادي اليمني (العرب) وهو اسم شهير وقديم، كما يرتبط بكلمة (عربه) العبرية بمعنى (البادية).

أساطير الماء وولادة إله الخصب

في الأسطورة الأكثر شهرة وعالمية: إلقاء الطفل في النهر داخل سلة وانتشاله بعد ذلك؛ يمكن للمرء أن يلاحظ هذا البعد الرمزي الذي سبق لفرويد أن عالجه من منظور علم النفس حين قام بتحليل أسطورة موسى. بالنسبة إلى فرويد وعلم النفس الجديد كان المقابل الرمزي للسلة هو الرحم، حيث يسبح الطفل داخل محيط من الماء. بيد أن رمزية الماء والرحم تتخطى هذا النطاق المحدود من الفكرة؛ إذ ما صلة هذه الأسطورة بقصة اجتياز موسى البحرَ ببني إسرائيل أو فلقه البحر بعصاه؟وما علاقة هذا البعد الرمزي بقصة عبور أسباط بني إسرائيل ما يدعى (نهر الأردن- ها-يردن)؟ إن أساطير الماء وهي كثيرة ومتشعبة في النصوص الدينية، تستمد قيمتها الدلالية من كونها أساطير شعوب قديمة عاشت قرب البحر. ليس ثمة أمة أو شعب قديم يملك سواحل بحرية طويلة مثل أمة العرب القديمة. لكن العرب، لسوء الحظ، نسوا طفولتهم البعيدة يوم كانوا شعباً بحرياً، وترسخت لديهم في المقابل قناعة زائفة أنهم أمة صحراوية وأن البداوة هي طفولتهم البعيدة. ما يمكن قوله في هذا الصدد أن البداوة هي طور تالٍ في طفولة العرب بعد انزياحهم عن السواحل الطويلة بفعل جملة عوامل تاريخية متشابكة. ومن غير شك؛ فإن أساطير الماء التي استمرت معهم وفي ثقافتهم حتى اليوم، استمدت قيمتها وحيويتها هي الأخرى، من انتقالهم القسري من السواحل إلى

الدواخل (من ساحل البحر إلى الصحراء). ذلك يعني أن كل جماعة مهاجرة في الصحراء وهي تواجه قدر الموت من العطش، كانت لا تسترد بقوة، ذكرياتها عن نفسها وتجاربها التاريخية كجماعة بحرية مطرودة من الساحل؛ بل كانت بالقدر نفسه من الحيوية والنشاط، تسترد وتدمج في الآن ذاته كل معارفها عن الثقافات الأخرى، وهي بكل تأكيد معارف تتسم بكونها نتاج عقل أسطوري. لقد كان هذا الاسترداد ولا يزال حتى في عالمنا المعاصر، مصمماً لإشباع حاجات روحية وأخلاقية. وفي هذا النطاق؛ فإن الحاجة الأكثر مأساوية بالنسبة إلى الجماعات المهاجرة والمطرودة، إنما كانت تتمثل في رواية قصص وأساطير تدور حول فكرة البحث عن الماء بما هو مصدر الخصب.

يمكن من منظور موازٍ رؤية المغزى الفعلي لأسطورة إلقاء الطفل في الماء؛ بوصفها تمثلاً مطرداً للفكرة ذاتها عن ولادة إله الخصب. إن آلهة الأساطير القديمة يولدون داخل الماء وينبثقون منه. ما من بطل أسطوري إلا وارتبطت به قصة ولادة شبيهة بولادة تموز أو إيزيروس، حيث يُلقى بهما في النهر لينبثقا من جديد من بين أمواجه. إذا كان يوسف في القصة التوراتية يُلقى في البئر من دون ذنب (خطيئة) كما أُلقي تموز البابلي وإيزيروس المصري في النهر ليبعثا حيّين من جديد، في صورة إلهين مخلّصين على ضفاف النيل ودجلة والفرات؛ فإن موت الآلهة سوف يرتبط وبشكل مأساوي بوجود نقطة ضعف قاتلة، سنراها واضحة كل الوضوح في أسطورة الإله الإغريقي آخيل، الذي أدرك أعداؤه في أثناء حروب طروادة أنه إذا ما أصيب بسهم في عقبه (أو كعبه) فإنه سيموت. لقد رُميَ آخيل الطفل في الماء، ولكن ولسوء الطالع لم يلامس الماء أسفل قدمه وليصبح بسبب ذلك عرضة للموت (هذه هي بالضبط جذور عقيدة التغطيس العربية القديمة، التي سوف تتحول تالياً إلى عقيدة دينية تستمر

طويلاً في ثقافة العرب القدماء، وبحيث ستظهر في المسيحية العربية المبكرة والأولى في صورة طقس ديني- التعميد- فيلقى عندئذٍ كل مولود جديد في الماء، أو يجري تغطيس قدميه في النهر كما عند الصابئة المندائيين في العراق). هذا المغزى يتحدد في الحقل نفسه: ذكريات الجماعة التي تحولت إلى جماعة بدوية باحثة عن الماء.

تروي سلسلة من الأساطير الإغريقية (تينيس Tenes وأيون Ion وروموليوس Romulus) أسطورة الطفل الذي تلقي به أمه في النهر داخل سلة ليخرج في النهاية ويصبح بطلاً. تقول أسطورة أيون: إنه حفيد الجد الأسطوري الأول للإغريق هيلن، الذي كان له ثلاثة أحفاد هم دوروس وإيول وأكسوتوس. والأخير (أي أكسوتوس) هو الذي رحل إلى أثينا ليتزوج كريوزا ابنة إيريختوس، حيث أنجبت كريوزا هناك ابنها البكر أيون الجد الأعلى للأيونيين. لكن رواية يوريبيدس الأكثر شهرة للأسطورة تتحدث عن أن أبولو هو الأب الحقيقي لأيون. لقد أنجبته أمه في ظروف عصيبة، ولكنها خشيت عليه من الموت، ولذا قامت برميه في النهر داخل سلة، ثم سرعان ما عادت لتلتقطه (تنتشله من الماء) بعد أن استشارت الوحي في معبد دلفي. أما أسطورة تينيس Tenes فإنها تتحدث عن بطل يدعى تينيس، وضعه والده داخل صندوق وألقاه في البحر على شاطيء جزيرة تيتدوس، حيث التقطه الرعاة هناك، وأصبح فيما بعد بطلاً وإلهاً ومعبوداً في كريت. كما تتحدث أسطورة رومولوس Romulus عن الفكرة ذاتها ولكن ارتباطاً ببطل آخر هو البطل الطروادي سيليوسس بن بروكوس. ولد رومولوس مع أخيه التوأم بعد أن تزوج الإله مارس امرأة تدعى بريبا سيلفيا، شاهدها مصادفة في الغابة تملأ جرارها بالماء. كانت بريبا تنقل الماء من نبع وسط الغابة عندما ظهر الإله مارس فضاجعها وأنجب منها ولدين، أحدهما هو الذي سوف يعرف برومولوس. ولما علم عمها بالنبأ

قام بوضع الطفلين في سلة وألقاها في النهر عند أسفل تل يدعى البالاتان (وهناك أسفل التل سوف تنشأ تالياً مدينة روما).

ظل الطفلان في السلة يجرفهما ماء النهر حتى ظهر فجأة الراعي الطيب فولوتوس، الذي قام بالتقاط السلة وإخراج الطفلين ثم ليسهر على تربيتهما طوال حياته. عندما كبر الطفلان أصبحا لصين اشتركا مع عصابة من اللصوص في سرقة المواشي. وهكذا تستمر الأسطورة في سرد تطورات الأحداث التالية حيث اختلف الأخوان فيما بينهما وتصارعا بضراوة، حتى قام رومولوس - ذات يوم- بقتل شقيقه وتوأمه، عندما حظر عليه اجتياز خط قام بوضعه بواسطة المحراث من حول المدينة التي أراد بناءها. وكما في أسطورة قابيل وهابيل فقد تصارع الشقيقان بضراوة، وحين تجاوز الأخ الشقيق خط الحظر (الممنوع، الحرام) قام توأمه رومولوس بقتله[1]. ما يجمع بين سائر هذه الأساطير ومثيلاتها إنما هو الرمزية الطاغية لفكرة الماء (التوأمان هما نتاج علاقة جنسية بين الإله مارس وفتاة في غابة قرب نبع ماء، كما أنهما نتاج رحلة في نهر داخل سلة). هذا يعني أن رمزية الماء هي الشيء الجوهري في الرسالة التي سعت الأساطير إلى إرسالها، وذلك ما يجمع سرجون الأكدي الأول في العراق القديم مع موسى التوراة ورومولوس الإغريق (وبالطبع مع تينيس وأيون). وهذا هو الإطار ذاته لولادة- انبعاث البطل من داخل سلة في نهر. لاحظ فرويد في (موسى والتوحيد)[2] الصلة الحميمة بين إلقاء الطفل في الماء وخروجه سالماً وبين فكرة الرحم وولادة الإنسان. إنها صلة -

(١) تعيد الأسطورة تذكيرنا بكيفية حدوث الدمج بين مجموعة أساطير منها أسطورة هابيل وقابيل (وهما توأمان أيضاً) اختلفا حول النار والتقدمة الإلهية وتصارعا ثم قام أحدهما بقتل الآخر.

(٢) موسى والتوحيد، فرويد، سيجموند، ترجمة جورج طرابيشي / دار الطليعة - بيروت ١٩٧٩.

على نحوٍ ما- مكرّسة للكشف عن ذكرى الإنسان الأولى التي تلازمت مع تطوره، فهو كائن انبثق في الأصل من الماء. ثمة رمزية موازية في هذا السياق؛ فالطفل داخل السلة (الرحم) يعيش فعلياً داخل الماء قبل أن تلتقطه الأيدي وتخرجه منه. تنتمي هذه الأساطير، من المنظور الثقافي، إلى عقيدة روحية لشعب بدوي مهاجر لا يعرف الاستقرار، كما أنها تنتسب إلى ثقافة شعب مرتحل وباحث عن الماء، وجدت صداها وتجسيدها في أدب كامل كان شائعاً ومألوفا في العالم القديم. هذه العقيدة -وبكل يقين -عقيدة شعب باحث عن الماء بما هومصدر الخصب؛ ولا تنتمي إلى ثقافة شعب أو شعوب تعيش في حالة استقرار (أو حضارة مزدهرة كما هو الحال مع البابليين والإغريق تالياً). ولذلك لابد من رؤية القصة التورانية عن ولادة موسى (ثم شقيقه هارون كما في الأسطورة العربية) من هذا المنظور. أي بوصفها قصص شعوب انتقلت من طور مجابهة مخاطر البحر وأهواله، كما في أساطير بوسيدون (صيدون) الإغريقية- الفينيقية، وكما في أساطير وحوش البحر وكائناته الشريرة (اللوياثان) إلى طور البحث عن الماء داخل عالم غير عضوي هو عالم الصحراء، التي انزاحت هذه الجماعة صوبها، بالقوة أو بفعل عوامل متراكبة أخرى. ولذلك يمكن تقسيم الأساطير المتصلة بالماء إلى قسمين:

الأول: عالم البحر وأهواله وكائناته الشريرة والمخيفة.

والثاني: عالم البحث عن الماء في أثناء الهجرة (وجود طفل داخل سلة في نهر يتضمن مغزى رمزياً عن الهجرة).

في القسم الأول من هذه الأساطير سنجد صوراً ومشاهد ذات طابع خيالي مشحون بالرموز، حيث يتقابل الخير والشر. إن الحوت أو الدلفين الطيب في قصة يونان أو يونس العربي، والذي يقوم بإنقاذ البطل حيث يقذف به في النهاية إلى البر بأمان، هو المقابل الرمزي للكائن الشرير

بوسيدون أو اللوياثان. كما أن أسطورة نوح تقع في هذا الجزء من الحيز الرمزي للمجابهة مع البحر، فهو يقوم بصراع ضد الطوفان (الإله طيفون عند الفراعنة والإغريق) لينتصر عليه وينقذ البشرية من الفناء. وإذا ما قمنا بإعادة تحليل أسطورة الطوفان ونوح، طبقاً لهذا النظام من الإرسالات الرمزية، فسوف نرى أنها أسطورة تدور في نطاق عقيدة اجتياز وعبور الماء التي جسدتها القصة التوراتية عن عبور الأردن- اليردن أو شق البحر.

في المسيحية المبكرة ثمة صور عن المشي فوق الماء. ولعل طقس التعميد المسيحي من هذه الزاوية نوع من اجتياز أو عبور للماء. إلى جانب هذا كله؛ فإن عقيدة الاغتسال بالأردن النهر (ها- يردن في اللغة العبرية) هي عقيدة ضاربة في القدم سابقة على اليهودية، ويمكن لنا أن نجد جذورها في الديانة المندائية (الصابئة) في العراق الذين يطلقون -في كتابهم المقدس المعروف باسم كنزا ربه- اسم اليردن على النهر الذي يتم فيه الاغتسال أو التعميد المندائي. لقد كان أتباع هذه العقيدة ولا يزالون يمارسون طقس الاغتسال، كطقس تعميدي ويسمونه باللغة المندائية (اليردنا) تماماً كما في اللغة العبرية.

هذا العرض السريع ستكون له وظيفة مفتاحية محددة، حين نقوم بتحليل القصص والأساطير التي نرى أنها ذات طابع مشترك بين الإغريق والعرب.

إبراهيم وولادة التوأمين

وكما هو الحال مع أسطورة موسى الإغريقية والبابلية والتوراتية والعربية؛ فإن أسطورة إبراهيم في التوراة وولادة إسحاق وإسماعيل (التوأمين السوسيولوجيين) ستبدو متطابقة تماماً مع الأصل الإغريقي.

تروي واحدة من مجموعة أساطير منها (أسطورة بوسيس Baucis) قصة امرأة وزوجها عاشا في شبه عزلة داخل كوخ. كانت بوسيس زوجة فيليمون الفريجي طاعنة في السن ولم تنجب ولداً، وكانا يعيشان بمفردهما في شبه عزلة عن سكان المدينة التي تظهر في صورة مدينة فاسقة. ذات يوم أنعم عليهما الإله زوس والإله هرمس بالعطف لأنهما قاما برعايتهما وتكريمهما عندما كانا في رحلة لتفقد البشر على الأرض. كان الإله زوس والإله هرمس قد وصلا إلى المدينة عندما أوصد الأغنياء كل الأبواب في وجهيهما. لكن فيليمون وبوسيس قاما بتقديم الضيافة والرعاية لهما. وقبل أن يرحل زوس وهرمس عاقبا المدينة وسكانها الفاسدين بتحويل المدينة كلها عدا الكوخ إلى مستنقع. مع الوقت تحول الكوخ إلى معبد. وعندما حانت منيتهما وماتا تحول فيليمون الشيخ إلى شجرة بلّوط وبوسيس إلى شجرة زيزفون. في هذه الأسطورة يظهر إبراهيم التوراتي تحت اسم فيلمون وسارة التوراتية تحت اسم بوسيس. لكنهما يظهران في أسماء أخرى تدور حول المحور ذاته: تكريم البشر للآلهة. تروي أسطورة كيكولوس Caeculus قصة طفل ولد من شرارة نار تطايرت من موقد. كان الطفل ويدعى كيكولوس ابناً لفولكا؛ ولكنه نشأ تحت رعاية أعمامه الرعاة. ولما كبر الطفل حضر احتفالاً نظمه والده في مدينة برينست. وفي هذا الاحتفال طلب الأب من ابنه أن يقفز داخل حلقة نار هائلة. وبالفعل قام كيكولوس باجتياز حلقة التار وخرج منها سالماً، ولذا أصبح مقدساً وصار الناس يأتون إليه ويتعبدون في المكان الذي حدثت فيه المعجزة. تحيلنا هذه الأسطورة بكل تأكيد إلى الأسطورة العربية عن النار التي اجتازها إبراهيم وخرج منها سالماً بعد الامتحان. ولنلاحظ أن الطفل نشأ تحت رعاية أعمامه (أو أخواله) الرعاة (كما أن موسى التقطه راعٍ وإبراهيم عاش وسط قبائل من الرعاة في الجزيرة - وفي التوراة وسط الكنعانيين). كما أن أسطورة إيفيجينيا Iphigenie تروي جانباً

هاماً من أسطورة إبراهيم الإغريقي (فيليمون) لم تأت الأساطير الأخرى على روايته. تقول الأسطورة: عندما قرر أوليس (عوليس) القيام برحلته الشهيرة في أثناء حروب طروادة، عجز الأسطول عن الإبحار، فأشار عليه الكاهن كالشاس أن يضحي بابنته إيفيجنيا ويقدمها للإلهة إرتميس. وبعد تردد استدعى عوليس ابنته بحجة أنه سوف يزفها إلى الإله آخيل، بينما كان هو يحضّر فعلياً المذبح من أجل تقديمها كأضحية. وحين أصبح عنق الفتاة تحت السكين سارعت الإلهة إرتميس إلى إنقاذها بعد أن أشفقت عليها. أرسلت إرتميس غيمة كبيرة من السماء حملت وعلاً (أو كبشاً) ووضعته على المذبح بديلاً من الفتاة، وبذلك أنقذت حياتها. (سوف نعالج هذا الجانب حين نتحدث عن أسطورة يفتاح الجلعدي في التوراة الذي قدم ابنته للذبح حين قرر الذهاب إلى الحرب)[1]. يمكن لنا - عند تفكيك بنى هذه الأساطير- رؤية ما هو جوهري ومشترك فيها: وقوع المعجزة وتدخل الآلهة في اللحظات الأخيرة لإنقاذ البشر من المصائر الدرامية التي تنتظرهم. وهذه واحدة من تجليات عقيدة روحية كبرى كانت الأساس في ثقافات العالم القديم؛ فالإله هو صانع المعجزة، وهو نتاجها في الآن ذاته. إن تحول البشر إلى آلهة (وسموهم وصعودهم وانقلابهم على طبيعتهم البشرية وانتقالهم إلى طور جديد) يرتبط بحدوث معجزة كبرى، استثنائية ومفارقة ولا مثيل لها، تكون هي أرضية انتقال البشر إلى طورهم الإلهي. ومن هنا تبدو الأساطير جزءاً من أدب كامل تدور موضوعاته في هذا الإطار. كما يمكن لنا أن نلاحظ كيف تتشظّى مواضيع الأسطورة وتتناثر في وحدات منفصلة. ولكن إذا ما قمنا بتجميع الشظايا وإعادة تركيبها فسوف نحصل على أسطورة واحدة متكاملة: ينجح البطل في عبور

(١) انظر أسطورة يفتاح (فتاح) الجلعدي في التوراة، النص العبري، وانظر معالجتنا لها في الصفحات التالية.

حلقة نار كيكولوس، ثم يصادف الإله زوس وهرمس في أثناء رحلتهما، كما أنه سيشهد لحظة سخطهما على المدينة ودمارها وبعد ذلك سيقدم ابنه (أو ابنته) كأضحية. تشكل هذه الوحدات المتناثرة - بعد تجميعها-بنية أسطورة واحدة تمت روايتها بأشكال مختلفة. وهنا النص التوراتي (النص العربي لتسهيل الأمر على القراء الذين لا يعرفون العبرية).

مقاربة رقم ١

تك: ١٨: ٢: ٢٥ (النص العربي)
(وتراءى الرَّبُّ له عند بلّوطة ممرا[١]، وهو جالس بباب الخيمة. وعند احتدام النهار رفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال[٢] واقفون بالقرب منه فلمّا بادر إلى لقائهم من باب الخيمة سجد إلى الأرض) (وكان إبراهيم وسارة شيخين طاعنين في السّن. وقد انقطع عن سارة ما يجري للنساء[٣] فضحكت سارة في نفسها، قائلة: أبعد هَرَمي أعرف اللذة وسيدي قد شاخ؟)
النص العبري لجملة:
(وتصحق- سرة- ب-قربه) فضحكت سارة في سرها*

* ضحكت الأرنب: حاضت. وجملة فضحكت معطوفة على جملة (وانقطع عن سارة ما يجري للنساء).

---

(١) قارن بين جلوس الشيخ- في النص التوراتي- قرب شجرة بلوط، وبين النص الإغريقي الذي يصوره وقد تحول إلى شجرة بلّوط

(٢) في المقطع التالي مباشرة من هذا النص يرد ذكر رجلين لا ثلاثة ويوصفان بأنهما (ملاكان).

(٣) أي انقطع الحيض عنها.

مقاربة رقم ٢

الأسطورة الإغريقية	النص التوراتي
١ : شيخ عجوز وامرأته	١ : شيخان طاعنان في السن
٢ :الشيخ قرب شجرة بلوط	٢ : الشيخ يتحول إلى شجرة بلّوط
٣: كوخ	٣: خيمة
٤ : الإلهان زوس وهرمس	٤ : ثلاثة رجال سماويين (ملاكان)
٥ : تحويل المدينة إلى مستنقع	٥ : تدمير المدينة
٦ :ولادة طفل	٦ : ولادة طفل

وكما أن إبراهيم تزوج هاجر فأنجبت له ولداً هو إسماعيل؛ فإن الأسطورة الإغريقية تسير في الاتجاه ذاته حيث يقوم بتقديم الأضحية البشرية. تروي أسطورة موازية (مكملة) تدعى آتاماس Athamas كيف أن هذا تزوج من الحورية نفيلية لتنجب له ولدين[1] هما فريكسوس وهيله. لكنه هجرها وتزوج من أينو (وأينو هذه هي الإلهة البقرة عند الإغريق). أنجبت أينو ولدين هما لياركوسس وميليسرت، وقد نصحته بأن يتقرب إلى الإله زوس بولديه الأولين من نفيلية حتى ينقذ البلاد من الجدب والقحط والجفاف. ولكن آتاماس استمهل زوجته الثانية حتى يتحدث مع زوجته الأولى نفيلية، التي رفضت هذا الطلب وأنقذت ولديها. ثم غضبت الإلهة هيرا من سوء تصرف أيو ولذا حوّلتها إلى عجلة، فذهبت هذه إلى مصر لتستعيد هناك صورتها البشرية. في الأسطورة التوراتية كانت هناك أيضاً مشاهد مماثلة للقحط والجفاف، أدّت إلى تقديم إبراهيم أحد ولديه (إسحاق أو إسماعيل) كقربان للآلهة. كما أن سارة ذهبت بالفعل إلى

(١) في الرواية التوراتية تنجب سارة إسحاق.

مصر. (تماماً كما ذهبت نيفيلة لتنجب هناك ولداً يدعى أيبانوس سرعان ما أصبح ملكاً على مصر). علماً أن هاجر عند العرب القدماء هي رمز الناقة[١] الأم (المقدسة). كما أن يوسف حفيد سارة أصبح ملكاً في مصر. لدينا في هذه الأسطورة وحدات رئيسية عدّة تمّ دمجها في النص التوراتي عن إبراهيم على النحو التالي:

التوراة	النص الإغريقي
سارة تنجب إسحاق	نيفية تنجب لأتاموس فريكوس وهيلة
إبراهيم يتزوج من هاجر	أتاموس يتزوج من أيو
هاجر مصرية (وسارة تذهب إلى مصر)	أيو تذهب إلى مصر
إسحاق يرزق بولد هو (يوسف)	
ويؤخذ إلى مصر ليصبح	أيو تنجب ولداً هو أيبافوس
ملكاً	ويصبح ملكاً على مصر
في أرض كنعان مجاعة شديدة	مجاعة شديدة

داوود الإغريقي

تبدو صورة داوود في التوراة؛ إذا ما نُظر إليها من خلال مرآة الاستشراق، واحدة من الصور النموذجية للبطل الأسطوري الذي سحر خيال الكتاب والمؤرخين في أوربة. ولأن التاريخ المدوَّن لا يعرف بطلاً تاريخياً بهذا الاسم؛ فإن البحث عن صورته وتجلياتها في الأساطير القديمة يبدو ضرورياً. لقد روت سلسلة من الأساطير الإغريقية جوانب

(١) انظر كتابنا (شقيقات قريش) الصادر عن رياض الرّيس للنشر - بيروت ٢٠٠٠ الذي شرحنا فيه بالتفصيل كيف أن هاجر في التوراة وعند العرب هي رمز للناقة المقدسة.

مختلفة من قصة هذا البطل الذي يظهر في صور شتى. من بين هذه الأساطير أسطورة أورفيوس .Orphes كان أورفيوس[١] أشهر مغنٍّ في اليونان القديمة وأكثر شعرائها الأسطوريين إثارة للخيال، فهو ابن الإله أبولو من إحدى زوجاته (وكانت ربة الموسيقا). يظهر أورفيوس في صورة شاب خارق الجمال يمسك قيثارة ذات أوتار سبعة (فيما بعد سيضيف وترين إلى قيثارته لتصبح أوتارها تسعة). ثم بلغ سحر عزفه على القيثارة حدّاً يفوق الوصف، فقد سحر الحيوانات والصخور والأشجار. كان أورفيوس إذا ما غنى وأنشد توقفت الأنهار عن الجريان والريح عن العويل، بينما تسير الصخور والحجارة. إن ما يعرف بمزامير داوود في التوراة وسحر صورته كمغنٍّ وشاعر (انظر مراثيه التي قمنا بترجمة بعضها[٢] عن النص العبري) تبدو مقبولة من المنظور الأدبي حين نقوم بمقاربة الصورتين الإغريقية والتوراتية. بيد أن هذه الصورة هي مجرد تجلٍ واحد بين سلسلة تجليات للبطل الذي يظهر في أساطير أخرى، في صورة بطولية مثيرة كما هو الحال مع أسطورة ثيسيوس .Thesees كان ثيسيوس ابناً لملك أثينا إيجيوس من زوجته إيترا. وقد ترك الملك زوجته وهي حامل في شهرها الأخير وأبلغها أنه ذاهب للحرب وأنها إذا ما ولدت غلاماً فعليها ألا تخبره عن أبيه. ثم ولد الغلام وظهرت عليه إمارات الشجاعة وحدث أن رآه هرقل[٣] في بلاط جده. عندما دخل هرقل إلى البلاط رمى بجلد الأسد الذي يرتديه فلم يشعر الغلام بالخوف، فأعجب هرقل برباطة جأش الغلام وشجاعته. ثم تسرد الأسطورة صوراً من شجاعة الغلام الذي سوف يصبح بطلاً أثينياً.

---

(١) أورفيوس اسم ديانة تعرف بالمذهب الأوريفي ويقوم على ما يدعى (الأسرار) وهذه الديانة ذات ملامح مماثلة للعقيدة الأوزيريسية في مصر .

(٢) فلسطين المتخيلة (الجزء الأول والثاني- مصدر مذكور).

(٣) هرقل: انظر ما سوف نكتبه عن بنية الاسم (ها- ركل).

(في التوراة ذهب داوود إلى الحرب تاركاً إحدى زوجاته وهي حبلى وقد ولدت له سليمان كما أن صراع داوود الغلام مع جوليات الجبار في التوراة يبدو متماثلاً مع النص الإغريقي للأسطورة). هاتان الصورتان للبطل التوراتي كمغنٍّ ساحر وشاعر له مزامير - أو قيثارة وبطل يصارع الجبابرة وهو غلام، هما مكوّنان أصيلان ينتسبان إلى تصورات ثقافية قديمة عن البطل.

يونان والبحر ومعجزة الدلفين

لم يجد علماء التوراة تفسيراً مقبولاً ومقنعاً حتى الآن لسبب وجود اسم نبي توراتي (لا تقول التوراة قط: إنه يهودي) يدعى بالعبرية (يونه) ويرسم اسمه في الترجمات ومنها العربية في صورة يونان؟ ما علاقة التوراة باليونان ولماذا استعمل سارد النص التراتي اسم (يونان) في روايته لقصص دينية يُفترض أنها موجهة لقارئ يهودي متدين. ولماذا افترضت القراءة الاستشراقية التعسفية أن البطل هو من مقاطعة بحرية من كريت اليونانية على الرغم من عدم وجود دليل قاطع داخل النص العبري؟ مثل هذه الأسئلة ستكون في مواجهتنا حين نعيد تركيب القصة التوراتية. لقد سبق لي وأن قدمت معالجة موسعة للأسطورة في كتابي (أبطال بلا تاريخ)[1] ولكنني سأتوقف هنا أمام جوانب أخرى تستحق معالجة جديدة، لم يتسن لي القيام بها في المرة السابقة بسبب اختلاف الموضوع الذي أطرحه. هذا الجانب يتعلق بصلة التوراة بشخصية (يونه). يدعى بطل الأسطوة اليونانية (آريون Arion) وُيزعم أنه عاش في القرن الثامن عشر ق. م. ذات يوم قرر آريون مغادرة المدينة التي يقيم فيها في جزيرة

---

(١) انظر ما كتبناه عن الآية القرآنية ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ في كتابنا (أبطال بلا تاريخ - مصدر مذكور).

ليسبوس في سفينة كانت وجهتها إلى إيطالية. وفي هذه الرحلة وحين بلغت السفينة عرض البحر استولى البحارة على ثروة آريون وقرروا قتله. لكن آريون توسل إلى البحارة أن يسمحوا له بأن يقذف نفسه في البحر. وهكذا واجه آريون قدره ورمى بنفسه في اليم المتلاطم في الطرف الجنوبي من جزيرة تدعى (مورة - وسوف نتوقف عند هذا الاسم تالياً لدلالته البالغة فهو اسم لجزيرة ووادٍ في اليمن[١]). ولكن، ما إن ألقى آريون بنفسه في البحر حتى صادفه دلفين طيب حمله إلى الشاطيء سالماً. هذا حرفياً هو منطوق الأسطورة التي روتها التوراة مع تبديل اسم البطل إلى (يونه- يونان) بما يشبه استذكاراً لاسم البلاد التي جاءت منها الأسطورة. من المهم ملاحظة أن هذه الأسطورة تدور في المحور ذاته: الماء بوصفه مصدر الخصب، ولكن هذه المرة بالتلازم مع رمزية جديدة تتمثل في ظهور الدلفين الطيب مصدراً للخلاص. إن الدلفين من منظور موازٍ هو تمثيل لرمزية الخصب؛ إذ إن البحر ليس مكاناً للوحوش والكائنات الشريرة المفترسة وحسب؛ بل هو مصدر للخير والخلاص والطعام. علماً أن كلمة (حوت) التي وضعها سارد النص التوراتي محل كلمة (دلفين) تتضمن هذا البعد الدلالي؛ فالحوت عند العرب القدماء (كما في شمال إفريقية اليوم) يعني سمكة كبيرة. وهذه بجلاء كلمة دالة على معنى ارتباط حياة سكان الساحل بثروات البحر وخيراته.

---

(١) انظر حول مورة (مور اليمن) ما كتبه الهمداني في (صفة جزيرة العرب) وانظر كتابنا (فلسطين المتخيلة) مصدر مذكور، وكذلك ما سنكتبه عنها في هذا الكتاب. وانظر كذلك اسم جازون في أسطورة أخرى عن أبطال اليونان المماثل لاسم جازان الوادي اليمني. وانظر ما سنكتبه عن آلهة اليونان وصلتهم بأسماء مواضع وجبال يمنية (الفصل الثاني).

مقاربة للنصين التوراتي والإغريقي

أريون عند الإغريق	يونان في التوراة
آريون يغادر الجزيرة بسفينة	يونان يغادر مدينته بواسطة سفينة
عاصفة هوجاء	عاصفة هوجاء
البحارة يرمون به في البحر	البحارة يرمون به في البحر
ينقذه دلفين	ينقذه حوت
يصل مدينة جديدة	يصل مدينة جديدة

النص العبري ٢-١:١ / ١، ٣:٢، ٦	(ويهي- دبر- يهوه-ء ل- يونه-بن- امتاي- لءمر- قوم- لك-ءل- نينوه- ها-عير) (وكان أمر الرّب يهوه إلى يونان بن أمتي أن انهض واذهب إلى نينوى المدينة)
النص العربي:	(وقالوا ما نصنع بك حتى يسكن البحر عنا. وكان البحر يزداد هياجاً فقال لهم: خذوني وألقوني إلى البحر يسكن البحر عنكم) (فأمر الرب الحوتَ فقذف يونان إلى اليابسة)
النص الإغريقي:	(ثم ألقى بنفسه في البحر. وفي البحر تلقفه دلفين أوصله إلى رأس تينار في الطرف الجنوبي من جزيرة مورة).

تشير هذه المقاربة بين النصوص الإغريقية والتوراتية (العبرية) والنص العربي كذلك بمجملها؛ إلى وجود أساس حقيقي لاعتبار الأسطورة جزءاً عضوياً من عقيدة روحية قديمة أساسها اجتياز (عبور) البحر والوصول

بسلام إلى اليابسة. لقد قمنا بتحليل الأسطورة من هذا المنظور في كتابنا (أبطال بلا تاريخ - مصدر مذكور) ورأينا كيف أن ما يبدو مشتركاً بين الأساطير ليس ناجماً عن تأثيرات مباشرة، بمقدار ما هو ناجم عن عناصر مشتركة في ثقافات العالم القديم وتصوراته. ومن بين هذه العناصر فكرة إيصال (الهدية). وهي فكرة دخلت في معظم الأساطير والقصص والحكايات. ليست هذه (الهدية) سوى رسالة يحملها رجل إلهي (مقدس) إلى آخرين. وفي سبيل هذه الرسالة سوف يخوض البطل مغامرة عبور البحر. إن أسطورة نوح والطوفان وشق البحر (موسى) و أساطير المشي فوق الماء، هي الإطار الثقافي الذي يجمع سائر الأفكار والتصورات القديمة عن ذلك الصراع الشرس ضد البحر وكائناته الشريرة.

ايوب ومأساته

إن صورة أيوب التوراتية (والعربية الإسلامية) هي الأكثر طغياناً ونفوذاً في الروايات الدينية والميثولوجية السائدة. وقد يبدو أمراً مثيراً، بحق، إذا ما تحدث المرء عن صورة موازية في الأدب الإغريقي، يمكن اعتبارها المادة الخام الأولى التي صنعت منها شخصية أيوب الأدبية العربية- الإسلامية. ولكن؛ وفيما يتصل بعلاقة النص التوراتي بهذه الشخصية، فإن من غير المتعذر رؤية مكوّن يوناني قديم يعود بها إلى الأسطورة الشهيرة عن حروب[١] طروادة. لقد خلد هوميروس وهو شخصية خيالية على الأرجح كما بينت الدراسات الحديثة في الأدب

(١) طروادة: حرب أسطورية خلّدها الأدب اليوناني القديم، وكانت المدينة تعرف باسم (إيليون- إيلون). انظر ما سنكتبه تالياً عن إيلون هذه. واسم ايلون يرد في التوراة كاسم لمنزل من منازل الأسباط الإسرائيلية؛ وفي المرويات العربية الكلاسيكية تدعى إيليا (انظر: أبطال بلا تاريخ).

اليوناني، ما يُعرف بحصار اليونانيين للمدينة والذي دام زهاء عشر سنوات، وذلك في رائعته (الألياذة)[١]. في هذه الملحمة برزت الشخصية المأسوية لأيوب (الإغريقي) بوصفها جزء عضوياً من أحداث الحرب ووقائعها. تروي أسطورة فيلو كتيت Philoctete حكاية هذا البطل الذي شهد نهاية هرقل وموته، إذ عهد إليه هرقل بقوسه وسيفه كأمانة، وذلك عندما قرر الدخول في المحرقة (النار) التي ختم بها آخر فصول بطولته[٢]. لكن فيلو كتيت وفي أثناء حرب طروادة وبينما كان الأسطول الحربي الإغريقي يرسو قرب شواطئ إحدى الجزر، تعرض لحادث غريب إذ لدغته أفعى. وسرعان ما تعفن جسده بسرعة وصار ينفث الروائح الكريهة. وبسبب ذلك ابتعد عنه المحاربون وتركوه وحيداً في تلك الجزيرة يعاني آلام الوحدة والمرض. في وقت تالٍ علم قادة الإغريق أن طروادة لن تفتح

---

(١) أقرب التواريخ المقبولة لأحداث هذه القصة الأدبية الخيالية هو القرن الثالث عشر ق. م، وقد جرت على مدى سنوات طويلة ودون جدوى محاولات يائسة للبرهنة على وجود المدينة واعتبار أحداثها الأسطورية أحداثاً تاريخياً. ولكن مع فشل علم الآثار في التوصل إلى نتائج مقنعة، تراجعت سائر المحاولات المماثلة وبرز ميل قوي في الدراسات الحديثة لمعاملة الأسطورة بوصفها أسطورة لا تاريخاً

(٢) يحيلنا هذا الجانب من صورة البطل الأغريقي إلى الأسطورة العربية الكلاسيكية (المعروفة باسم سلاح امرؤ القيس) التي تتحدث عن سلاح الشاعر العربي الجاهلي امرؤ القيس. كان امرؤ القيس بحسب المزاعم الرائجة في كتب التاريخ العربي قد اودع سلاحه (دروعه وسيوفه) عند السموأل الشاعر اليهودي الأسطوري وذلك عندما قرر الذهاب إلى الحرب. (انظر ما كتبناه في أبطال بلا تاريخ) مصدر مذكور. وقارن بين صورة أيوب وجروحه المتعفنة مع صورة امرؤ القيس المعروف باسم (ذو القروح). كما توجد أسطورة -.... شعبية شائعة حتى اليوم في البادية السورية - العراقية تعرف باسم (قصة عبد الله الفاضل) وهي مغناة شعبية تتحدث عن شاعر هجرته قبيلته بعدما أصابت القروح جسده.

أبوابها الموصدة بوجوههم من دون استخدام السلاح الذي تركه هرقل أمانة عند فيلوكتيت[١]. ولهذا السبب مضى البطل الأسطوري أوليس (عوليس) بنفسه إلى تلك الجزيرة النائية؛ ليعيد الرجل المريض إلى قومه وبلاده وليساعده على الشفاه من قروحه.

إذا كانت هذه الصورة للبطل المأسوي معروفة في الأدب الإغريقي منذ ما يقرب من أربعة آلاف عام؛ فمن المنطقي ألَّا يكون النص التوراتي هو الأصل، ومن المنطقي كذلك القول: إن الأصل المقترح - كما ترتئي ملاحظات هيرودت- هو أصل فينيقي وموطنه التاريخي شواطئ البحر الأحمر (أي الجزيرة العربية). ومما يساعد على تقبل فرضية هيرودوت أن اسم الجزيرة (مورة) هو اسم أشهر وأكبر وديان البحر الأحمر (وادي مور اليمني) علماً أن اسم مور (مورة) يتكرر بصورة مطردة في قصص التوراة. يبدو ارتباط قصة أيوب (الإغريقي) بالحرب في طروادة أمراً مثيراً. فمن زاوية التماثل والتطابق في شكل السرد ونمط الدلالات التي تتضمنها الأسطورة سنرى، بالإضافة إلى ذلك، وجود أماكن لها صلة بجغرافية البحر الأحمر. من بين هذه الأماكن اسم طروادة نفسه، فهي تعرف أيضاً باسم (إيلون). وهذا هو بالضبط اسم (الأرض) الصغيرة التي أقام فيها أحد الأسباط الإسرائيلية في عصر موسى الأسطوري. إن بنية الاسم (إيلون) لا مثيل لها في اليونانية، فيما تنتمي إلى نظام البناء اللغوي الخاص بالعبرية بوصفها لهجة يمنية منقرضة (إيون، صيدون، حورون، إلخ....) وأياً يكن الأمر؛ فإن هدف هذا البحث ليس البرهنة

---

(١) تدور مروية سلاح امرؤ القيس (وفي روايات تاريخية أخرى سلاح النعمان بن المنذر ملك الحيرة في العراق- انظر: أبطال بلا تاريخ، مصدر مذكور) حول هذا الجانب: استرداد سلاح البطل المتوفى لحسم الحرب. وهذا هو جوهر الفكرة التي تطرحها الأسطورة الإغريقية.

على الأصول القديمة واكتشاف جذور الأساطير ومن أين جاءت كما قلنا، بل البحث عن المكّون الإغريقي بما هو مكوّن أصيل في قصص التوراة وحسب. وهذا الهدف مصمم لنقد القراءة الاستشراقية الزائفة، التي نسبته بطريقة تعسفية إلى فلسطين. من المهم ملاحظة أن النص التوراتي عن أيوب التيماني[١] هو نص شعري (قصيدة طويلة) وهذا النص من حيث بنيته السردية مماثل للنص الإغريقي. يجب أن نميز - هنا- تمييزاً دقيقاً بين فكرتين:

الأولى: وتتمثل في مقاربة الموضوعين بما هما موضوعان قديمان عرفهما الأدب القديم في المنطقة، حيث يظهر الرجل المتعبد في صورة رجل شقي ومعذب يمتحنه الرب بالآلام.

والثانية: أن النصين كتبا بلغة شعرية تتضمن مناجاة العبد الشقي لإلهه. ولذلك؛ فإن المقاربة لا تدور حول التماثل بين قصيدتين؛ بل في بنية الموضوع الذي تناولتاه وفي المادة الإنسانية التي اهتمتا بها مع اختلاف العصور. هاكم مقاربة مع النص التوراتي:

---

(١) اسم البطل هنا مثير للاهتمام ويستحيل ربطه بفلسطين. و" التيماني " اسم النسبة إلى تيمان المنطقة المعروفة في التوراة (انظر اسم تيمان في وصف الهمداني والتوراة عندنا: كتابنا فلسطين المتخيلة - مصدر مذكور). تيمان مكان شهير في اليمن تغنى به الشعراء في الجاهلية. في الواقع هناك نص أقدم للأسطورة يعرف باسم (أيوب السومري) كتب بالحرف المسماري ويتناول الموضوع نفسه (المتعبد المعذب) الذي تمتحنه الآلهة بالصبر على الآلام؛ كما يوجد نص مصري مماثل يتحدث عن رجل عليل تركته أسرته وحيداً فراح يناجي ربه ويغني أغنية عذابه.

النص التوراتي
هل قوتي من حجارة؟
هل جسدي من نحاس؟
أخوتي غدروا بي وتركوني كما يترك السيل
كمجرى الوديان العابرة
تحيد القوافل عن طريقها
ترقبها قوافل تيماء
وترجوها قوافل سبأ

لنلاحظ أن النص التوراتي يورد أسماء لا صلة لها بفلسطين، ها هنا اسم تيماء (الواحة التي دارت فيها مروية سلاح امرئ القيس عندما ترك سلاحه عند السموأل) وها هنا اسم سبأ المملكة اليمنية القديمة، فضلاً عن اسم تيمان الموضع الشهير في اليمن (وثمة أسماء أخرى في القصيدة مثل النعماني نسبة إلى وادي نعمان اليمني واسم الشوحاني نسبة إلى شوح وهو موضع واسم قبيلة في اليمن). إن قراءة متعمقة في النص العبري سوف تبرهن على أن هذه القصيدة الرائعة، هي قصيدة ضائعة من قصائد الشعر الجاهلي في طفولته البعيدة يوم كان يكتب بلهجات القبائل، ومنها العبرية (وهي لهجة يمنية كما بيّنّا في دراسات سابقة). المثير في القراءة الاستشراقية لهذا النص أنها تربط بطريقة تعسفية بين السبي البابلي وبين (أيوب اليمني) هذا، وذلك من أجل البرهنة على أن الحدث ينتسب إلى أدب (عبري) كتب في فلسطين بعد العودة من السبي البالبلي وهذا ما لا دليل عليه؛ إذ لا وجود لتيمان أو تيماء أو سبأ في فلسطين؟ بينما نعلم أن هذه الأسماء هي أسماء ممالك عربية- يمنية قديمة.

اسطورة يفتاح (فتاح) الجلعدي

تبدو شخصية يفتاح الجلعدي في التوراة أكثر انتساباً إلى عهدٍ سابق على ظهور الديانة التوحيدية، منه إلى ما يعرف بقصص بني إسرائيل الدينية بما فيها بدايات ما يعرف باليهوية (نسبة إلى الإله اليهودي يهوه[1]). ولأن محققي التوراة لا يملكون دليلاً على تاريخيّة هذه الشخصية؛ فإن جهودهم انصبت على محاولة الربط بين أسلوب إنشاء النص التوراتي وما يزعم أنه (أسلوب خاص في الأدب العبري). تقول الرواية التوراتية ما يلي: إن يفتاح الجلعدي اختاره بنو إسرائيل ملكاً في أثناء الحروب ضد بني عمون، وبعد وفاة أبي مالك بن جدعون (قضاة: النص العربي لتسهيل عودة القراء العرب إلى النص: ١١: ٢٥: ١٢: ١):

"نذر يفتاح نذراً للرب وقال: إن أسلمت بني عمون إلى يدي فكل خارج يخرج من باب بيتي إلى لقائي حين أعود بسلام ومن عند بني عمون يكون للرب فأصعده محرّقة" ثم حدث أن عاد الجلعدي منتصراً. " فإذا ابنته خارجة للقائه بالدفوف والرقص وهي وحيدة له، ولم يكن له ابن أو ابنة سواها، فلما رآها مزق ثيابه وقال آه ياابنتي قد صرعتني صرعاً....". بعد ذلك قدم يفتاح الجلعدي ابنته قرباناً للآلهة.

هذه باختصار شديد قصة يفتاح الجلعدي الذي قام بذبح ابنته في التوراة، وهي كما سنرى القصة الأسطورة الإغريقية ذاتها المعروفة باسم إيدومينوس Idomenes. كان إيدومينوس حفيداً لملك كريت وقائد الكريتيين

(١) يهوه، كما نرى وبدلائل كثيرة هي ذاتها صيغة اسم الإشارة (هو) التي دخلت في الديانة التوحيدية تعبيراً عن الذات الإلهية. وذلك ما نراه في الأدب السومري- البابلي من خلال الملحمة الشعرية المسماة (هو..... الذي رأى). كما أن اسم الإشارة (هو) لا تزال تستخدم حتى اليوم كاسم للذات الإلهية الخفية.

في حروب طروادة، وهو واحد من الذين كانوا في جوف الحصان الخشبي الذي دخلوا به إلى المدينة. عندما عاد إيدومينوس من الحرب منتصراً (انظر الأوديسا) داهمت أسطوله عاصفة هوجاء فنذر نذراً للإله بو زيدون[١] " أن أول من يستقبله عند عودته سيكون أضحية وقرباناً للإله. وعند الشاطئ فجع إيدومينوس بوجود ابنه الوحيد هناك. ". إن وجود هذا الطقس الديني - الوثني في التوراة بما هو عنصر أدبي عضوي في تصعيد المأساة، لا يمكن أن يكون عنصراً أصيلاً من عناصر الرواية الدينية (ففي هذه الحالة ستفقد مصداقيتها وقوتها الأخلاقية إذ لايستقيم التوحيد مع قصص وثنية) بل يجب أن يُنظر إليه كعنصر دخيل ناجم عن التاثيرات الهائلة التي تركتها الأساطير القديمة السابقة على ظهور التوحيد، في البنى الثقافية التي قام على أساسها النص التوراتي.

آلهة وابطال حميريون وإغريق

إذا كانت آلهة الإغريق جاءت من البحر الأحمر كما ارتأى المؤرخ اليوناني هيرودت؛ فإن الأسماء المتماثلة والطقوس والقصص المتشابهة، هي من بين أكثر الأدوات التي نملكها اليوم، وفي ظل غياب الأدلة الأثرية للبرهنة على صحة ما ذهب إليه هيرودت. بيد أن ما نبحث عنه ليس التماثل الشكلي أو المجرد، وليس التشابه في الكلمات والصور؛ بل

(١) بو سيدون - بو صيدون (قارن مع اسم صيدون) ولاحظ أن كلمة (بو - أبو) لا أصل لها في اللغة اليونانية الكلاسيكية. بينما نعلم أن صيدون التوراة وصيدون (صيد- في اليمن) هي اسم واد في اليمن وفيه دارت قصص أسطورية لا يزال بعضها شائعاً.

التماثل في البنى السردية، وفي شبكة الدلالات. لدينا سلسل من أسماء الآلهة والأبطال والأماكن التي لا وجود لها إلا في جغرافية البحر الأحمر. هاكم قائمة بالأسماء:

الاسم عند الإغريق	عند العرب- الحميريين	وظيفته المشتركة
أبولون[1]- أبولو	هبل- هابيل	إله الرماة- الصيد
آسية- آسيا	آسية	حورية
أجاممنون	أجا- المنون	إله التضحية
دوسرا	ذو الشرى	إله الشمس
عروبا- أوربة (أمها ليبيا)	عروبا	زوجة الإله ذوس
إيجبتوس	الجبت	ملك مصر
بريام	بن يام	شيخ مسن له ذرية كثيرة
بوسيدون	بو صيدون	إله المياه
بيجاس	براق	حصان مجنح
جازون	جازان	زوج ميدي
ميديا	ميدي	ميناء بحري
ذو دون	ذات أنواط	شجرة بلوط تعلق عليها الأواني
ذي ميترا	ذو مطرة	إلهة الحصاد

(١) إن بناء أسماء الآلهة الإغريقية مثير للاهتمام، فهو مطابق تماماً للبناء العبري- اليمني القديم (أبولون، بوسيدون: أي أبي صيدون، أجا- ممنون، جازون) والاسم الأخير يلفت انتباهنا نظراً لصلته بجبل أجا (في المقطع الأول من الاسم) أما (ممنون، فهي المنون) بمعاملة الميم الأولى كأداة تعريف منقرضة. وهذا ما يدعم فكرة الأصول الفينيقية (العربية الأولى) للآلهة الإغريقية.

ذو نيزس	ذو ينس	إله الكروم
ذوس	ذو	كبير الآلهة
شامير	شامير	وحش أسطوري- جبل
قدموس	قدمه	إله- وإنسان
مونيتا	منية-مناة	إلهة النقود - المال

هذه هي باختصار شديد أسماء الآلهة والأبطال عند الإغريق والعرب القدماء (جنوب الجزيرة العربية). وكما يُلاحظ في القائمة فإن التماثل لا يتوقف عند بنى الأسماء، وإنما يتجاوز ذلك إلى الوظائف المشتركة. الأمر الهام في القائمة أن الكثير من الأسماء تسجلها التوراة في الصيغ ذاتها (هابيل- شمير، قدمه، صيدون، مطرة-اسم عشيرة في التوراة- وكنت أشرت وتحدثت عن جميع هذه الأسماء بالتفصيل في كتبي السابقة فلا حاجة للتكرار: انظر مثلاً: أبطال بلا تاريخ، شقيقات قريش، فلسطين المتخيلة إلخ..). في هذا الإطار يستحق اسم هرقل وقفة تأمل.

يدعى هرقل عند الرومان (هركول) وهذه - كما يبدو- هي الصيغة الأصل التي وصلت إلى الرومان من الإغريق. وأهمية هذه الصيغة أنها تحتفظ بالجذر الأصلي والحقيقي للاسم هركل- هرقل. لقد اشتق العرب القدماء كلمة امرأة من كلمة (مرء بمعنى الرجل). قبل ذلك كانوا يسمون المرأة (رجلة - من الرجل، انظر ابن منظور في لسان العرب ففيه تفاصيل وافية) واليمنيون بعامة- الحميريون بشكل خاص- ينطقون كلمة الرجل في صورة الركل بالجيم المصرية، كما كانوا ينطقون كلمة رجلة في صورة ركلة، ومع استخدام الهاء كأداة تعريف في بعض اللهجات اليمنية ومنها العبرية نطق الاسم في صورة هرجل. ولذا فالهاء في هركول- هركل هي ذاتها أداة تعريف في لهجة الحميريين وفي العبرية كذلك. تبدو صورة

هركل- هرقل الأسطورية هي الصورة البدائية الأولى للإنسان كما تصورته العقائد القديمة في مواجهة الكائنات الأخرى. إنه بطل أسطوري يتفوق على الكائنات الأخرى ويقهرها. واستناداً إلى التاريخ الأسطوري اليوناني فإن هرقل هو ابن كبير الآلهة زوس (ذوس). لكن الإلهة هيرا (التي اعتبرها برنال صورة موازية من هاجر، انظر أثينا السوداء، مصدر مذكور) حرمته من امتيازه الذي منحه زوس بأن يكون له سلطان عظيم. في النهاية كبر الطفل، وأنجز أعمالاً عظيمة، عُدَّت من المعجزات من بينها القضاء على "الطيور المفترسة"(١) التي كانت تأكل لحوم البشر، وتعيش على افتراسهم. يلفت انتباهنا بصدد هذه الصور الأسطورية للبطل إنه ابن كبير الآلهة زوس (في اليونانية ذيوس). وليس ثمة ثقافة قديمة تستعمل صيغة (ذو) للدلالة على الإله سوى الفينيقية- الإغريقية واليمنية- العربية القديمة على حدٌ سواء. إن عبارة هيرودت البليغة القائلة: إنَّ كل الآلهة الإغريقية جاءت من البحر الأحمرِ، تستمد قيمتها الحقيقية من هذا الاستخدام الفريد والمشترك للصيغ اللغوية الأولى المعبِّرة عن الذات الإلهية. لقد استخدم العرب القدماء وبشكل خاص الحميريين في اليمن صيغة (ذو - ذيو والسين لاحقة يونانية ليست من أصل الاسم) للدلالة على الذات الإلهية، فكان هناك الإله ذو الشرى الذي أصبح عند الإغريق ذوسيرا، كما كان هناك الإله قيس الذي صار عندهم وعند الرومان كيسوس(كيسو أو كاسيوس).

هذا الاستعراض لأهم الأساطير المتماثلة في بناها السردية ومحمولاتها الرمزية، يرسم خطاً بيانياً ضرورياً لاستكشاف مسرح الأحداث وآليات تشكّل صور الأبطال الأسطوريين.

---

(١) انظر ما كتبناه عن هذه الأسطورة في (النار والصولجان - مصدر مذكور) فهي ذاتها أسطورة خالد بن سنان عند العرب.

الفصل الثاني

حروب في وادي " لحا ": من جدعون إلى شمشون

(سفر القضاة ٥: ٢٥: ٦: ٣ من النص العربي و ٧: ١٢: ٢٥: من النص العبري)

من وادي حرد إلى وادي بيت باري

يروي سفر القضاء (النص العبري) قصة الملك جدعُن- جدعون الذي تراءى له الرب واختاره ملكاً على بني إسرائيل. وجدعون هذا -حسب القراءة الاستشراقية المخْياليّة- هو الذي قاد في فلسطين ما يدعى معارك غربيّ الأردن وهزم بني مدن - مدان. وللتحقق من هذه المزاعم والتعرّف إلى مسرح الأحداث التي يرويها السِّفر، فسوف نقوم بتقديم مُلخص عنها مع ذكر أهم المواضع الواردة فيه. نشبت معارك جدعن-جدعون الأولى ضد بني مدن - مدان في وادٍ يدعى حسب الرسم العبري للاسم وادي " حرد ". كان جدعن- جدعون يُخيم مع قواته في وادي حرد في الوقت ذاته الذي كان فيه خصومه من بني مدن- مدان يعسكرون شمال الوادي

في موضع يدعى موره[١]. في أولى المعارك فرّ بنو مدن - مدان باتجاه وادي بيت شطه، وإلى مكان يدعى سريره- سرير التي توجهوا منها إلى محواله، وهي موضع قرب وادي طب- طبة. وآنئذٍ استعان جدعن- جدعون برجال أشداء من الأسباط الثلاثة لبني إسرائيل (منسّه وأشيْر ونفْتلي) لملاحقة بني مدن في جبل ء فرثيم ووادي بيت باري - وادي باري؛ طالباً منهم أن يستولوا على مصادر المياه في الوادي وصولاً إلى وادي ها- يرد. وهذا الاسم يُترجم تقليدياً إلى (الأردن). ويبدو أن قوات جدعون تمكنت من إلقاء القبض على زعماء المدينيين وقامت بذبحهم عند صخرة عوريب - عريب[٢]. بعد ذلك استمرت المعارك بين الطرفين في قرقر، واتجه جدعون بقواته نحو وادي نفح ويجبهه-جبيهة ماراً بمعلاة حرسه-حرس. انتهت هذه السلسلة من الحروب القبائلية بموت جدعن- جدعون، ولكن لتستمر مع صعود ابنه أبي مالك- أبيملك إلى عرش بني إسرائيل[٣]. بعد موت جدعن-جدعون أصبح ابنه أبي مالك- أبيماك ملكاً بدعم من أخواله في شكم - شكيم عندما قدموا له أموالاً تم جمعها من مكان يدعى برية - بريت. وبذلك تمكن أبي مالك - على خطا والده جدعون-من مواصلة الصراع ضد بني مدن. تولى أبي مالك الحكم لنحو ثلاث سنوات، ولكن أعيان شكيم سرعان ما دبروا مؤامرة لقتله والتخلص منه. وبعد سلسلة جديدة من المعارك استقر المقام بالملك الجديد في

---

(١) في النص الإغريقي ينزل يونان في جزيرة تسمى (مورة) وهذا الاسم لا وجود له في كريت أو أي جزيرة يونانية لا اليوم ولا بالأمس البعيد. كما أن الأساطير اليونانية لا تشير إليها بوصفها جزيرة يونانية؟

(٢) لا وجود لهذا الاسم في فلسطين أو اليونان القديمة. ولكن الأساطير الإغريقية تتحدث عن بطلة أسطورية أعطت اسمها لمكان بعينه وعرفت به هو عوربا (عرابيا) Arabia ومنها جاء اسم أوربة.

(٣) هذا الاسم اسم يمني بامتياز وهو يكتب حسب تقاليد التدوين اليمنية القديمة بالطريقة نفسها التي يرسم فيها باللغة العبرية (أيمالك، ملكيصادق، ملكيكرب إلخ..).

أرومه- أرومه التي اتخذها مركزاً سياسيا. هذه باختصار شديد أهم أحداث القصة التوراتية التي يُزعم أنها دارت في المسرح التاريخي الفلسطيني. سنقوم في هذا الفصل، بالبرهنة على أن الأحداث التي يسردها النص التوراتي (العبري) قد حدثت في المسرح التاريخي لليمن، وأنها لم تحدث قط في فلسطين، وذلك من خلال تتبع أسماء المواضع الواردة في القصة. وسنبدأ من موضع تحشد القوات قبل بدء المعارك الأولى في عصر الملك جدعن-جدعون، وهو مكان نموذجي للقتال، ويعرف باسم وادي (حرد). خيم جدعون في موضع يدعى- حسب النص العبري وضبطه-عين حرد. وهذا اسم وادٍ من أودية اليمن دون أدنى شك؛ بينما لا تعرف فلسطين أوغربي الأردن وادياً أو عين ماء بهذا الاسم. في الواقع، لا يوجد أي دليل مهما كان سطحياً يؤكد وجود مثل هذا الوادي؛ بينما نجد في جغرافية اليمن أن أهم الأودية التي تقع إلى الشمال من تهامة حيث وادي مور (قارن مع اسم موره التوراة وفي الأسطورة الإغريقية) إنما هو وادي حرد. وهما بالفعل، وتماماً كما وصفهما السِفر التوراتي في فضاء جغرافي واحد. إليكم وصف الهمداني وضبطه للواديين (صفة جزيرة العرب: ٢٠٠-٢٠١):

> **مخلاف ذي رعين: ومن الأوديةوادي سبا ووادي حرد (..) فراجعاً إلى مخلاف ميتم وحدود مَذْحج.**

وادي حرَد هذا- بفتح الحاء والراء المهملتين آخره دال- يقع في عزلة كحلان، وهي جزء من إقليم صغير يسمى خبان شرقي مدينة يريم اليمنية اليوم. وحَرَد وادٍ خصب ينتسب معظم سكانه إلى مَذْحج. أما وادي مور- موره، الذي عسكر فيه بنو مدن -مدان إلى الشمال؛ فهو أكبر وديان اليمن التي تسقي غربي همدان أي غربي وادي ها- يردن تماماً كما في النص

التوراتي (ما يعرف اليوم بميزاب اليمن الشرقي). وهذا ما يقوله الهمداني (صفة: ١٣٤):

وادي مور وهو ميزاب تهامة الأعظم، ومساقي مور تأخذ غربي همدان، فأول شِعابه ذُخار (..) فبلد بني حارثة وبني رفاعة وحماد، ويرد.

ها هنا وادي مور إلى الشمال الغربي من منازل قبيلة يرد بن مهلئيل، حيث يسمى فرع مور هنا بوادي يرد (يردن-حسب نطق أهل الكلاع أي إلى الغرب من الميزاب) وليس إلى الغرب من الأردن البلد العربي، الذي لا يعرف في جغرافيته القديمة والحديثة وبكل تأكيد لا اسم وادي حرد ولا اسم وادي مور. ولأجل التحقق من صحة هذا التصور، فسوف نقوم بتتبع أثر بقية المواضع الواردة في القصة، وهي مواضع يقول عنها سارد النص: أنها تقع في المكان نفسه لهذه السلسلة من الوديان حيث دارت رحى معارك طاحنة بين بني إسرائيل وبني مدن- مدان. قال جرير:

أنتم فررتُم يومَ غدوة مازن وقد هشموا أنف الحاةِ على عمدِ

هم مُهْدوه رجَعه بعدَ رثمهِ وأنتم شهود معصمون على حَرَدِ

وهذا يعني أن جرير الشاعر الذي عاش في العصر الأموي، كان يعرف اسم الوادي نفسه بوصفه وادياً يمنياً لا علاقة له لا بالأردن ولا بفلسطين. والآن: عندما نشبت المعارك فرّ قادة ورجال مدان إلى بيت شطة وإلى سريره، قبل أن يصلوا إلى مكان يسمى محواله قرب موضع يسمى طبة. فهل تعرف فلسطين التاريخية مثل هذه الأسماء؟ إن الجغرافيين اليونانيين والعرب القدماء لا يذكرون أي شيء عن مثل هذه الأماكن في فلسطين- بلاد الشام، وليس ثمة أي نقش أو أثر لغوي يدل على وجودها

في بلاد الشام أو غربي الأردن. لكن الهمداني يعرض علينا الأسماء ذاتها وفي الفضاء الجغرافي نفسه لغربي وادي يرد (القبيلة التي تنتسب عند العرب وفي التوراة إلى يرد بن مهلئيل). ها هنا نص الهمداني عن بيت شطة التوراتية وهي عنده جزء لا يتجزأ من وادي مور. ولذلك سنقوم بتكرار بعض السطور عن وادي مور من أجل تصور أفضل عن جغرافية المعركة (صفة: ١٣٤ : ١٣٨):

> **وادي مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ومساقي مور تأخذ غربي همدان(..) فبلد بني حارثة وبني رفاعة وحماد ويرد (..) ثم وادي حرض ويسقي ما أخذ من هذه البلاد إلى البحر (...) ثم يخرج المخا إلى البحر[١]. والوادي الخامس رسيان وجميع شِعاب شطة.**

هذا هو وادي شطة- بالظاد التي تفتقدها العبرية وتستبدلها بالطاء- إلى الغرب تماماً من وادي يرد-ن ووادي مور. يعني هذا أن مقاتلي بني مدن الذين فرّوا من المعركة، اجتازوا سلسلة من الوديان والشِّعاب قبل أن يبلغوا وادي شطة لينتقلوا منه إلى وادي سريره-سرير. لنلاحظ أن سارد النص يؤكد على الفكرة التالية: استعان جدعون في أثناء ملاحقته لرجال مدن بمقاتلين من ثلاثة أسباط، منها سبط نفتلي- نفتله (والنون في أول الاسم عند اليمنيين القدماء أداة تعريف مثل عدنن بمعنى العدن وعربن بمعنى العرب. أي الفتل). ستبدو فكرة الاستعانة بمقاتلين من

---

(١) دارت نقاشات كثيرة حول اسم سجله الجغرافيون اليونانيون القدماء في وصف جزيرة العرب واليمن يدعى مكا. وقد اشتبه الأمر على جواد علي (انظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ولم يلاحظ المؤرخ العراقي الحصيف أن المقصود به مخا، وليس مكا-مكة. ومن هذا الاسم جاء اسم النبي- الشاعر اليهودي مخا (ميخا) الذي لا يعرف المحققون أي شيء عنه (انظر ترجمتنا لأشعاره في هذا الكتاب).

أسباط (قبائل) أخرى غير مفهومة، إذا لم تكن هناك معطيات كافية بالنسبة إلى متلقي النص عن جغرافية هذه السلسلة الوعرة من الوديان والجبال. في الواقع، استعان جدعون بمقاتلي سبط نفتلي-نفتل لأن هؤلاء يقيمون بالضبط على مقربة من وادي سريره - سرير الذي فرّ باتجاهه بنو مدن - مدان (وهذا اسم مكان في المنطقة ذاتها في اليمن). وهؤلاء يعرفون جيداً الطرق والمسالك المؤدية إلى هناك. يعطي الهمداني اسم الوادي في صورة سرير إلى الجنوب من صَعْدَة، وهو لا يزال معروفاً حتى اليوم في الفضاء الجغرافي ذاته، إذ إن أحد فروعه يصب إلى الغرب من وادي قبيلة يرد -ن وبلد جُماعة. إليكم وصف الهمداني لوادي السرير (صفة: ١٦٠-١٦٣):

والوادي الثالث (من أودية منطقة الجوف)يظهر في زاويته التي ما بين شماله ومغربه. وفروعه من بلد خولان شرقي أبذَر وبلاد دمّاج ووتران والسرير (..) ومساقط برط والفتول ثم وادي نجران وفروعه من وادعة ومن بلد بني جماعة، فأما الشعبة اليمانية فإنها من شمالي (وادي) السرير.

ها هو وادي السرير-سريره الذي فرّ صوبه رجال مدن- مدان، بعد أن لاحقهم الملك جدعن-جدعون، مستعيناً برجال من سبط نفتلي-نفتله، وهم كما قلنا سكان موضع يسمى الفتول (النون العبرية في أول الاسم يجب أن تعامل كأداة تعريف منقرضة تماماً كما في اللهجة اليمنية). جرت المعارك إذن، وكما هو واضح من الوصف، غربي وادي يرد-ن وليس غربي الأردن البلد العربي- انظر النص السابق عن يرد ولاحظ مقدار التطابق في أسماء الأماكن وتسلسلها-. أما محواله -ءبل- محواله التي اتجه إليها الفارون من المعارك فهي ذاتها وادي الحواله (والميم في العبرية يجب أن

تعامل كما تعامل الميم في اللهجة اليمنية القديمة- الحميرية- باعتبارها أداة التعريف المنقرضة مثلها مثل النون في أول الأسماء أو آخرها مثل ءم رجل: الرجل، ءم بعير: البعير، ءم سفر: السفر: ولذلك يجب أن يقرأ الاسم في صورة: الحواله أو الحوال). وإلى هذا المكان ينتسب ملوك اليمن من سبأ الأصغر، الذين أسّسوا واحدة من أشهر الممالك القديمة التي تُعرف في كتب التاريخ باسم مملكة حوال إلى الغرب من صنعاء وسكانها يدعون (الحواليون). (وانظر ما كتبناه عن ء بل: إبل في مكان سابق). هاكم وصف الهمداني (صفة: ٢٠١ -٢٠٣) ما يلي:

> **شِبام أقيان قرية بها مملكة بني حوال (....) ويعرف مخلاف شِبام بمخلاف الشرف الأعلى والشرف الأسفل من بلد بني عريب -بن حاشد لهمدان.**

وسوف نلاحظ تالياً صلة هذا الموضع بالمعارك التي دارت في مكان آخر هو عبارة صخرة مقدّسة تسمى عوريب -عريب[1] في القصة التوراتية نفسها، حيث تم إعدام زعماء بني مدن- مدان. والغريب أن النص التوراتي يقول ما يلي: إن زعيمي مدن- مدان يُدعيان: عريب وزيب وإنهما ذُبحا فوق صخرة عريب(ءت-عرب-وءت- زيب). ومصدر الغرابة يكمن في توافق هذا الادعاء مع قول الهمداني: إن عريب ينتسب إلى حاشد من همدان وهو بلد على مقربة من مملكة حوال تماماً كما في النص التوراتي، وهذا يعني أن المروية التوراتية تحاول تفسير سبب وجود اسم عريب هذا، من خلال ربط الاسم بقصة مصرع زعيم مدان في حربه ضد بني مالك. قال علقمة بن إلحاف يطلب المدد على هوازن وبني

---

(١) انظر في صفحات هذا الكتاب ما كتبناه عن العلاقة بين الاسمين الإغريقي والتوراتي.

سليم، ويصف البلاد التي سلكها من بلده إلى صعدة، ومن صعدة إلى وسط همدان: (صفة: ٣٤٠):

ترامت ببويان بأول ليلها ... وماء أثاف والعُريب رقود

فهل مثل هذا التطابق في أسماء المواضع والأبطال، ناجم عن سلسلة من المصادفات العرضية؟.

يتبقى أن نلاحظ أن موضع طبة الذي تصفه التوراة بأنه قريب من محواله، حسب الرسم العربي الذي تخيله المترجمون والرسم الصحيح هو الحوال بمعاملة الميم كأداة تعريف، يُدعى عند الهمداني طَبْيَة، وهو من أودية ساحل كنانه قرب ساحل الليث؛ وسوف نرى صلة هذين الموضعين بعضهما ببعض في القسم التالي من قصة جدعون وابنه أبي مالك-أبيمالك. ولكن، وبالعودة إلى واقعة مصرع زعيمي مدن؛ فإن سارد النص يشير إلى إرسال بعض رجال جدعون إلى بيت باري ويرد-ن (الأردن في الترجمات التقليدية). فهل تعرف فلسطين أو (غربي الأردن البلد العربي) موضعاً يُدعى بيت باري أو وادي باري؟ في الواقع لا وجود لمثل هذا المكان في طول فلسطين وعرضها، ولكنه موجود في الفضاء الجغرافي نفسه للمواضع السابقة. وهنا نص الهمداني عن وادي باري (صفة: ١٢٦):

> **قُدم والكلابح و- وادي-باري، فذاهباً إلى جبل الشرف المطل على تهامة وهو جبل واسع فيه قرى كثيرة. ثم يتصل بها السراة سراة عذر وهنوم. (هامش المحقق: مدينة باري وهي مدينة واسعة في بلد الجبر أبادها الناصر هدماً وتخريباً وهي اليوم خاوية على عروشها)**

هذا هو وادي باري - بيت باري الذي دارت فيه معارك جدعون،

وهو من الوديان المتصلة بتهامة وسراة عذر وهنوم[١]. إننا لا نعرف مثل هذا الوادي غربي الأردن البلد العربي، ولا توجد أي دلائل على أن فلسطين القديمة شهدت مثل هذه المعارك، بينما نستطيع رؤية المكان نفسه وضمن الفضاء الجغرافي للحروب والمعارك القبائلية التي صورتها نصوص الهمداني. بعد الاستيلاء على وادي باري اتجه جدعون بقواته نحو وادي يرد-ن عابراً إلى سكوت-سكُة. وبينما كانت المعارك تندلع على جبهة قرقر البعيدة، كان جدعون يواصل زحفه نحو نفح- نُفح و يجبهة-جبهة ماراً بمعلاة حرس. وبذلك تمكن جدعون من إلحاق أكبر هزيمة ببني مدن-مدان. ومن أجل التحقق ممّا إذا كانت هذه المواضع حقيقية وليست من نسج خيال سارد النص؛ فإن الوسيلة الوحيدة التي نملكها -في الظروف الراهنة بما أننا نبعد عن زمن الحدث آلاف السنوات - إنما هي استخدام طاقة الموروث الشعري العربي وشهادة الهمداني بوصفهما وثيقتان ثقافيتان متكاملتان. سوف نركز عملنا في هذا المقطع من التحليل على المواضع التي لم نتحدث عنها مثل قرقر ويجبهة-جبهة ونفح. وهذه المواضع في نص الهمداني تقع في حيز جغرافي واحد وبالأسماء نفسها. هنا نص الهمداني (صفة: ٢٨٢):

> **ومن أوطان بلحارث سوحان وميان-وبه تحصنت بنو بلحارث عن العلوي، أيام أجلبَ عليهم بهمدان وخولان - (..)- ثم-جدير وقرقر .**

ها هنا قرقر في نجد اليمن[٢] (مرتفعاته) وهي من أوطان بلحارث،

(١) انظر ما كتبناه عن سراة عذر وهنوم في كتابنا (قصة حب في أورشليم) دار الفرقد- دمشق ٢٠٠٥.

(٢) أثار اسم هذا الموضع نقاشات واسعة بين الباحثين، ففيه دارت معارك شرسة بين بني إسرائيل والقوات المصرية وبين البابليين والمصريين - حسب رواية التوراة- لقد أخفق الجميع (مثلاً: د. كمال صليبي في التوراة جاءت من جزيرة =

وكانت مسرحاً لحروب طاحنة بين القبائل -حتى عصر الهمداني- أما يجبهة- جبيهة تصغير جبهة- بحذف الياء الزائدة واللاصقة في أول الاسم حسب تقاليد الكتابة اليمنية والعبرية القديمة، مثل: يكرب: كرب، ويعرم: عرم- فإنها تقع في منطقة الحجر. اليكم نص الهمداني عن بلاد الحجر التي تتصل بجُرش[1] (صفة: ٢٣٤ - ٢٣٥):

فأول بلد الحجر من يمانيها عبل، وادٍ فيه الحبل ساكنه بنو مالك بن شهر وباحان، وبه القرى والزرع وساكنه بنو مالك. تنومة وادٍ فيه ستون قرية أعلاه لبلحارث (..) وقَرَب وادٍ أهله من الحجر -ثم - جُبَيهة: جبهة الحجر.

ها هنا بنو مالك وهناك منازلهم ومضاربهم في المكان نفسه الذي دارت فيه المعارك. فهل تنطوي هذه النصوص على احتمال حدوث سلسلة من المصادفات اللغوية والجغرافية الجديدة؟ لاشك أن وجود موضع يجبهة- جبيهة في بلاد الحجر الممتدة في نجد اليمن والمتصلة بجُرَش- جرش في التوراة، حيث منازل قبيلة بني مالك وحيث موضع قرقر؛ يؤكد الحقيقة التالية: إن الموضع المقصود هو في اليمن القديم وليس في فلسطين. ولذا ليس ثمة مصادفة وراء هذا التوافق المذهل بين التوصيف الجغرافي لمكان معلوم كما يقدمه الهمداني وبين وصف التوراة للمكان نفسه. قال عُبيد بن الأبرص:

= العرب، وفراس سواح في رده على صليبي إلخ.) في تحديد المكان حتى ذهب بعضهم إلى أنه مكان خيالي. إن وجود اسم هذا المكان وضمن التسلسل نفسه لعشرات الأسماء المتماثلة والمتطابقة في النصين التوراتي ونص الهمداني، بما فيه أسماء القبائل وبالأخص اسم بني مالك سوف يعيد النقاش إلى موضعه الصحيح: أي جغرافية اليمن.

(١) انظر جرش في التوراة.

بُحّاً حَناجِرهُا هُدْلاً مشافِرُها   تُسيمُ أولادها في قرقر ضاحي

بعد هذه المعارك مات جدعون، وتولى الحكم إبنه أبيمالك - أبي مالك ولنلاحظ التوافق بين اسم الملك الجديد واسم القبيلة التي تُقيم في بلاد الحجر (بني مالك). ها هنا الوادي باسمه القديم وها هنا اسم الجماعة التي تعتبر نفسها من سلالته (بنو مالك). حكم أبيمالك نحو ثلاث سنوات خلفاً لوالده، ولكن أعيان شكيم أخوال والده دبروا مؤامرة لقتله. وبعد سلسلة من المعارك استقر به المقام في موضع تسميه التوراة أرومه التي زحف منها للاستيلاء على تباص. من الواضح أن مسرح المعارك يشير إلى الحقبة التي كان فيها بنو إسرائيل في الطور البدوي ولم يتمكنوا بعد من الاستقرار في المدن، مع أنهم دخلوا في تنافسات حربية دامية مع الجماعات الأخرى. وموضع أرومه هذا الذي استقر فيه الملك الجديد أبيمالك لا وجود له في فلسطين ولا في عموم بلاد الشام، ولكنه موجود في الفضاء الجغرافي للبادية العربية. قال الإيادي (صفة: ٣٤٢):

أوحشتْ من سروب قومي تعارُ   فأروم فشابةُ فالستارُ

تقع أرومه- أروم حسب الضبط الشعري على مقربة من وادي شابة، وعلى مقربة تماماً من المخا- التي سنعود إليها في القسم التالي-والأهم من ذلك أن أروم وشابة هما من أودية الساحل في تهامة اليمن. لقد اندثرت أروم هذه وأضحت مكاناً مقفراً وموحشاً حسب وصف الهمداني وقراءته للقصيدة. أما شابة فهي من الأودية المحاذية لمسيل مياه وادي مور، كما أنها تُعد من الأماكن التي حكمها ملوك صُبا-صبيا. وللاستدلال إلى أروم هذه فسوف نتتبع وصف الهمداني لوادي شابة. يقول (صفة: ٢٣٢) ما يلي:

> مور (عكية أيضاً: أي تتبع قبيلة عك) ثم بلد حكم فيه أودية بلد همدان وخولان (...) ووادي شابة وجازان وصبيا.

وكنا لاحظنا في أبيات الشعر السابقة أن أروم التي اختفت من مسرح الجغرافية، تقع قرب وادي شابة وهما معاً من أودية الساحل. هنا، إذن وادي شابة ووادي مور قرب أروم. إن الشعر العربي لا يزال يحتفظ لها بذكرى حزينة عن هجرة القبائل منها وخرابها، ولكنه لا يزال يحتفظ كذلك بذكريات القتال على ضفاف هذه الوديان. يتبقى الآن أن نحدد موضع بعل بريت-بريت الذي تم جمع الأموال منه لدعم صعود جدعون إلى العرش كما رأينا من القصة التوراتية. الأمر الهام الذي يتوجب لفت الانتباه إليه هو أن النص يشير إلى مكان ديني وثني يرتبط بالإله القديم للقبائل، والذي يُدعى بعل. إن كلمة بعل ترتبط غالباً بوجود عيون ماء وينابيع وآبار ومساقط مائية ووديان، ولذلك أصبح بعل الإله العربي - الآرامي القديم هو كبير الآلهة[1]. ومن غير شك؛ فإن وجود مكان وثني (معبد، مدينة مقدسة) هو الذي يفسر لنا سر الكمية الكبيرة من الفضة التي سُلمت إلى جدعون من قبل أخواله من أعيان شكيم. في الواقع لا توجد بريت أو مياه بريت في فلسطين التاريخية، ولكن توجد (بريت) يمنية في منطقة الفلج غير بعيد عن وادي لحا (انظر لحا في الصفحات التالية حيث دارت معارك البطل الأسطوري شمشون ضد الفلستيين). يكتب الهمداني (صفة: ٢٥٣: ٢٥٦) ما يأتي:

ومن ميامين أودية اليمامة نِساح وملك ولحا ثم تخرج مصعداً في العرض فأول وادٍ من العرض وهو وادٍ يجمع ثلاثمئة وادٍ، فأول ما يلقاك قرية بني عَدي: النقب، ثم أباض (..) ثم تصعد في بطن الفقي ثم تمضي إلى قارة (..) وإن تياسرت عن فلج وقعت بالبريت وهو مكان ينبت فيه الصعتر.

---

(١) يحيلنا هذا الأمر مباشرة إلى الفكرة التي تصدّرت كتابنا عن العلاقة العضوية بين أساطير وقصص العرب في طفولتهم البعيدة (وكذلك قبائل بني إسرائيل) وبين الماء.

ها هنا بريت التوراتية في الطريق إلى وادي لحا، وغير بعيد عن قرية النقب التي تتبع بني عدي (عديتثيم في التوراة) وأباض-ءبص التوراتية أيضاً وهي من منازل الأسباط. كما يوجد في الفضاء الجغرافي نفسه موضع يدعى قارة (وانظر كذلك وادي ملك عندنا). إن بعل بريت توصيف للمكان، فهو مكان تكثر فيه عيون الماء ووالوديان كما هو واضح من النص الآنف. والمثير أن الهمداني يرسم الاسم في الصورة ذاتها التي يرسمها النص التوراتي، كما أنه يضعها بالقرب من سائر الأماكن الأخرى التي يسجلها النص العبري وبالتسلسل نفسه. أخيراً لابد من التوقف عند شكيم التي لم يُعثر لها على أثر في طول فلسطين وعرضها، والتي وضعها التوراتيون بطريقة اعتباطية ودون دليل أثري واحد غربي الأردن (الضفة الغربية من فلسطين). في الواقع اختفت شكيم-شكم هذه، ولكن المرويات التاريخية العربية احتفظت بصور أسطورية عن الأب الأعلى الذي أعطى اسمه للقبيلة وهو عند نسّابة العرب: شُكم بن ثعلبة بن عدي. إليكم رواية صاحب معجم مااستعجم (البكري: ١: ٣٩) عن هجرات القبائل اليمنية:

ثم ظعنت بعد جُهينة سعد هُذيم فنزلوا وادي القرى والحجر وما والاهنَّ من البلاد، ولحقت بهم قُضاعة وبنو ملكان بن جَرْم، غير شُكم بن عدي بن ملكان بن جرم، وهم بطن ينتسبون إلى فزارة ويقولون: شُكم بن ثعلبة بن عدي بن فزارة.

الضبط الاستشراقي للاسم شكيم (كما هو الضبط التوراتي للاسم بن يامن-بنيامين بزيادة الياء قبل النون والذي بني على أساس معاملة الحركة الإعرابية كحرف من أصل الاسم: شكِم: شكيم، يامِن: يامين) هو ضبط

غير مقبول، لأن الكسرة لا تصلح في كل الأحوال للتوظيف كحرف، والرسم الصحيح شُكم ويامن. لقد صوّرت الروايات التاريخية العربية والمرويات الأسطورية شكم هذا بوصفه أباً أعلى لبني عدي، وهم من فزارة القبيلة اليمنية-عديتثيم في التوراة. والمثير أن البكري يلاحظ وصول هذه الجماعة بعد هجرتها من مواطنها القديمة إلى بلاد الحجر، أي إنها وصلت تماماً إلى المكان نفسه الذي وصفته التوراة، وهذا أمر لا يمكن تخيل وقوعه مصادفة. كما أن المكان يتوافق مع وجود بني عدي في الامتداد الجغرافي نفسه باتجاه اليمامة صعوداً. أي: في المكان نفسه الذي كان مسرحاً للمؤامرات والحروب القبائلية. أما نفح- نُفح فهي عند الهمداني نفحة وهي من مرتفعات (أسرار) نجران. إليكم ما يقوله عنها (صفة: ٢٨٣):

> **فأسرار نجران شوكان ونفحه (..) ويسكن هذه المواضع وادعة من همدان.**

هل ثمة مصادفة جغرافية إذن جمعت كل الأماكن الواردة في سفر القضاة، في فضاء جغرافي واحد متماثل مع وصف التوراة؟ بل وأن تكون بالتسلسل ذاته؟ دعونا نتحقق من هذا الادعاء.

أسطورة شمشون: الصراع ضد الفلسطينيين المزعومين في ساحل المِخا

يروي النص التوراتي(قضاة: ١٢ : ١٣ : ٧: من النص العربي: ١٥ : ٨: ١٦ : ١٣من النص العبري) أسطورة صراع شمشون ضد الفلستيين (الفلسطينيين في الترجمات السائدة). وهذه القصة الشعبية المكتوبة بشروط إنشاء الأساطير القبائلية والتي تتضمن مكونات يونانية متأخرة، تفيد مع ذلك بالحقيقة التالية: إن سارد النص سعى على غرار تقاليد سردية قديمة،

إلى دمج صور بطولية مُستقاة من ثقافات أخرى، في سياق مرويات تاريخية أو ذات طابع تاريخي تخص القبائل في الجزيرة العربية واليمن. وهذا أمر مألوف سبق لنا معالجته بالتفصيل في (أبطال بلا تاريخ - مصدر مذكور، وفي كتابنا شقيقات قريش، مصدر مذكور أيضاً). تدور أحداث هذه القصة في جغرافية رأى إليها المِخيْال الغربي على أنها جغرافية خيالية، لا لشيء إلا لأن علماء الآثار أخفقوا في الحصول على أي دليل يدعم وجود هذه الأماكن في المسرح الفلسطيني؟ حسب الرواية التوراتية نشبت معارك طاحنة بين شمشون المُصوَّر كبطل إسرائيلي والفلسطينيين- ها- فلشتيم، في مكان يدعى وادي لحا: (ويعلو- فلشتيم - ويحنو- ب- يهوده- وينطشو-ب- لحه). بالطبع لا وجود لبطل تاريخي عند بني إسرائيل اسمه شمشون، كما لا يوجد مكان في فلسطين يحمل اسم لحا. الجملة أعلاه تُترجم تقليدياً إلى: (وصعد الفلسطينيون وعسكروا في يهوذا وانتشروا في لحي). ولو أننا فتشنا الجغرافية القديمة لبلاد الشام كلها (وخصوصاً جنوبها) أي فلسطين؛ فلن نجد أي إشارة إلى مثل هذا المكان؛ والفلسطينيون القدماء لا يعرفون أي شيء عن وادي لحا. كما أن تاريخ بلاد الشام وفلسطين لا يعرفان البطل الذي قاتل الفلسطينيين؟ فهل نحن أمام رواية خيالية أو نحن أمام وقائع وأحداث جرت في مكان آخر ونسبت خطأً إلى التاريخ الفلسطيني؟ كان الغرض من تحرك الفلسطينيين المزعومين اغتيال البطل شمشون ثأراً لمزارعهم التي أحرقها. على هذا النحو بدأت المعارك بين الجانبين وامتدت إلى الجوف، الذي شقه الله، وخرجت منه المياه بحيث دُعي ها-قوري. كما يروي السِّفر- على هامش القصة- هجرة بني دان إلى منطقة تسمى بيت مخا، حيث بنوا هناك المعبد المعروف في التوراة بمعبد مخا قرب أرض الليش- الليث. هذه باختصار شديد هي الأماكن التوراتية الواردة في القصة (وأهملنا بعض المواضع لتكرارها، مثل: صرعه وفرئيم ويعريم، وهي مواضع سبق لنا تحديدها في

كتبنا السابقة). فهل هذه المواضع والأحداث هي من نسج خيال سارد الأسطورة؟ دعونا نتحقق منها تباعاً.

بين التوراة والأسطورة الإغريقية

تصّور الرواية التوراتية شمشون في صورة بطل إسرائيلي ولد في مكان يسمى (تمنة)[1] وكان منذوراً للرب حيث حرّمت أمه حلق شعر رأسه. بعد أن كبر الصبي المنذور وأصبح بطلاً له قوة خارقة بفضل شعره الكثيف، عرضَ على القبائل لغزاً محيراً لم تتمكن من حلّه. ولكن رجال القبائل التي طرح شمشون عليها لغزه، ذهبوا بعد ثلاثة أيام إلى زوجته طالبين منها المساعدة في حل اللغز. وهذه راحت تتوسل إلى البطل أن يعطيها الحل. استجاب شمشون أخيراً لتوسلات زوجته وقدم لها الحل. لكن شمشون بعد ذلك أحب امرأة أخرى تدعى دليلة. وبعد سلسلة من الأحداث طلبت دليلة من زوجها أن يطلعها على سرّ قوته الخارقة. فقال لها : إن هذا السرّ يكمن في شعر رأسه الذي لم يحلقه قط. وذات يوم (نوّمته على ركبتيها ودعت رجلاً فحلق سبع خصال) - ١٦ : ١٤ : ٢٧ النص العربي-. وهكذا فقد البطل قوته ووقع في الأسر.

تدور أحداث هذه الأسطورة في مسرح جغرافي واسع يضمّ حشداً من أسماء المواضع منها : وادي لحا، بيت داجون-دجون والمخا، ووادي سوريق. وهي أماكن لا وجود لها بكل تأكيد لا في اليونان ولا في فلسطين. ولكنها مطابقة حرفياً للأسطورة الإغريقية المعروفة باسم نيزوس Nisos وهذه تتطابق بدورها حرفياً مع الأسطورة العربية القديمة المعروفة

---

(١) انظر ما كتبناه عن موضع (تمنة) اليمنية التي ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، وهي بالفعل قرب وادي لحا - لحا في التوراة (فلسطين المتخيلة - مصدر مذكور، وانظر كذلك ما سنكتبه في هذا الكتاب).

باسم النضيرة[1]، إذ تقوم سيلا ابنة الملك نيزوس بسرقة الخصلة الذهبية من شعر والدها فتنهار قوته ويموت، لتسقط المدينة في أيدي الأعداء. وهناك أسطورة يونانية أخرى هي (كوميثو ابنة بتريلاوس) تدور حول المحور ذاته، إذ تقوم كوميثو بقطع الشعرة الذهبية لتعطيها إلى عشيقها إمفتريون، الذي تمكن أخيراً من أسر والدها الملك القوي وقتله. إن الألغاز التي تشكل مادة أساسية في هذه الأسطورة، تتماثل على مستوى السرد مع الرواية التوراتية عن علاقة سليمان مع ملكة سبأ. وكنت قد شرحت بشيء من التفصيل هذه المسالة من منظور مثيولوجي في كتابي (الشيطان والعرش)[2]. مسألة الألغاز هذه يجب أن ينظر إليها من منظور وظائف المثيولوجيا. إنها مصمَّمة وعلى أكمل وجه لأداء مهمة غاية في الدقة والحساسية بالنسبة إلى ظروف صعود البطل، فهو حين يلقي الألغاز بوجه خصومه؛ فإنه والحال هذه يقوم بإنشاء نظام من الفوارق بينه وبينهم من أجل أن يبرهن على فرادته كبطل، فهو وحده من يملك حل اللغز (الأحجية) بينما يعجز الآخرون عنه. وهذا ما نجده في أسطورة أوديب الذي ألقى بوجه أبي الهول لغزاً محيراً.

وفي هذا السياق يمكن القيام بسلسلة من المقاربات بين النصين الإغريقي والتوراتي.

---

(١) انظر ما كتبناه في (أبطال بلا تاريخ - مصدر مذكور) ففيه مقاربات مستفيضة بين هذه الأساطير.

(٢) عالجت مسألة الألغاز التي طرحها سليمان على بلقيس في كتابي (الشيطان والعرش: رحلة النبي سليمان إلى اليمن) بيروت، شركة رياض الريس للنشر ١٩٩٩. ورأيت أن هذه التقاليد متأصلة في الثقافة البدوية العربية القديمة وهي لا تزال مستمرة حتى اليوم.

مقاربة أولى

النص التوراتي	النص الإغريقي
بطل له شعر ذهبي	بطل له شعر ذهبي
يطرح على الآخرين ألغازاً	يطرح ألغازاً
امرأته تسرق خصلة منها	ابنته تسرق خصلة منها
تعطيها للأعداء	تعطيها للأعداء
تنهار قواه	تنهار قواه

ولكن: أين جرت أحداث القصة التوراتية التي يفترض محققو التوراة، أنها تتضمن تاريخاً خاصاً بحروب ملوك بني إسرائيل؟. يجب أن نلاحظ بداية أن بنية الاسم شمشون متماثلة مع بنية الأسماء العبرية (البناء العبري - العربي القديم شمشون، صيدون، حورون إلخ). وهذا البناء لا تعرفه اللغة اليونانية الكلاسيكية. كما أن الجذر الثلاثي شمش- شمس جذر عربي (سامي) وهو اسم الإله العربي القديم شمس الذي عبده عرب الجنوب وكانت معابده منتشرة في الجزيرة العربية، وبه تسمت بطون من العرب (وقريش: بنو عبد شمس). إلى هذا كله؛ فإن شمس من أكبر الآلهة التي عبدها عرب الجنوب، وكانت بلقيس ملكة سبأ من ملوك اليمن الذين ارتبط اسمهم ببناء معبد لهذا الإله (رمزياً يصوّر الإله في صورة بطل له شعر ذهبي وهي صورة نموذجية للشمس). يضمّ المسرح الجغرافي لحروب هذا البطل الأسطوري سلسلة من الأماكن؛ التي لم يعثر المنقبون الآثاريون على أي دليل يؤكد وجودها حتى على المستوى اللغوي المحض. ولكنها - استناداً إلى النص العبري- أماكن ومواضع موجودة. فأين حدث الخطأ؟

لا بد أن نلاحظ في البداية أن تقاليد التدوين القديمة تقوم على الخلط والدمج بين الأخبار والأساطير. ما من نص تاريخي أو ديني قديم إلا ويتضمن هذا النمط من الدمج. وقد بيّنا في دراستنا لمصادر تاريخ الطبري (راجع: أبطال بلا تاريخ، مصدر مذكور) كيف أنه قام بدمج أخبار عربية قديمة مع أساطير يونانية وفارسية؟ وهذا أمر مألوف؛ فالعرب القدماء وسائر القبائل البائدة ساروا على طريق هذه التقاليد في التدوين والتناقل الشفاهي، وبحيث دمجوا أخباراً تاريخية صحيحة بأساطير ومرويات قبائل وجماعات أخرى ونسبوها لأنفسهم. والحال هذه؛ فإن التوراة بما هي كتاب أخبار - فضلاً عن كونها نص ديني مقدس- من كتب اليهود اليمنيين؛ سارت على الطريق ذاته، وقام ساردو النصوص بإنشاء نصوصهم على أساس دمج الروايات الإخبارية بالأساطير. ولأجل التحقق من هذه الفرضية إليكم وصفاً للمسرح الجغرافي الذي لم يعثر المنقبون له على أي أثر في فلسطين. يقع وادي لحا الذي دارت فيه معارك سفر القضاة (وأسطورة شمشون بالطبع) في اليمامة. والجغرافيون العرب القدماء ومعهم الشعراء في الجاهلية، يرسمون الاسم بالرسم نفسه وادي لحا. وفي أسفل هذا الوادي أقامت قبائل يشكر- يسكر التوراتية؛ بينما سكنت قيس بن ثعلبة في أعلاه. يقول الهمداني (صفة: ٢٥٣-٢٥٣) ما يلي:

ومن ميامين أودية اليمامة: لحا (..) ثم ترجع في بطن العرض عرض بني عدي فأولها القري، قري بني يشكر عن يسارهما وادي لحا.

هذا هو وادي لحا من أودية اليمامة وفيه دارت المعارك ضد الفلستيين- ها- فلستيم، ثم امتدت إلى منطقة الجوف حيث شق الله الأرض هناك وتدفق منها الماء في موضع يقال له ها-قورى (القورى) وفي العبرية: ها-قوره-. فهل تعرف أرض فلسطين جوفاً انشقت عنه المياه في

موضع يُدعى ها-قورى أو قورى؟ في الواقع لا وجود لهذا الاسم إلا قرب يثرب غير بعيد عن خيبر. وهذا مكان يُعرف تقليدياً عند العرب والمسلمين بوصفه من منازل القبائل العربية اليهودية. إليكم وصف الهمداني لأرض يثرب وضبطه للاسم ها-قورى (بحذف الهاء اللاصقة: قورى مثل: يهريق الماء: يريق الماء وهو من كلام أهل اليمن المعروف، صفة: ٢٣٦):

أرض يثرب: المدينة وقبا وسلع وقورى والعُريض والنطاة من خيبر.

عنى توسع الحروب وامتداد المعارك إلى هذا المكان، تواصلاً للصراع على الساحل والسيطرة عليه في إطار نزاع ديني سيولّد حروباً ومصادمات جديدة. إن وجود رواية عن هجرة بني دان إلى مكان ساحلي يدعى مِخا حيث بُني هناك معبد مِخا حسب رواية التوراة؛ يُلمح إلى أن هذا الصراع هو من النسيج الأصلي للأسطورة وليس تصويراً خيالياً عرضياً أو لا قيمة له؛ لأن المِخا موضع ساحلي شهير في اليمن القديم في ساحل بني مجيد. كما أن بني دان هم عند الهمداني قبيلة بني آذان-ءدان وقد هاجروا، بالفعل باتجاه الساحل اليمني، وأقامت بعض بطونهم في سرو حمير. أما الساحل فقد فرض بنو مجيد عليه سيطرة شبه مطلقة، وهم في التوراة يُعرفون باسم المعركة الشهيرة معركة مياه مجدو. إليكم ما يقوله الهمداني عن المخا (صفة: ١٣٧- ١٣٨):

والوادي الرابع: وادي الحسيد مآتيه غرب جبل صبر وجبل سامع، وعن يمينه الجبزية وعن شماله برداد ما بين جبلي صبر وذخر وجبا[1]،

(١) لاحظ العلاقة بين جبأ - جبع حيث تتحول العين إلى همزة في لهجات بعض القبائل.

ويماني جبل ذخر فينتهي الموزع ثم يخرج إلى المِخا إلى البحر. وجميع شعاب شظة.

المِخا في هذا النص-وفي التوراة يُرسم الاسم في صورة ميخا بزيادة الياء وهي كما قلنا حركة إعرابية وليست حرفاً أي مِخا- من أهم الموانئ اليمنية التي جاء ذكرها في النقوش وفي الآداب اليونانية (المحقق: صفة: ١٦٩). ولنلاحظ أن الهمداني يسجل اسم وادي الحسيد وهو الحسيد في التوراة (انظر: حسيديم في سفر المكابيين). كما يسجل اسم وادي شظة (انظر ما كتبناه عن شظة في معارك جدعون فيما سبق من صفحات) فضلاً عن جبأ - جبع وجبل سامع - سامع[1]. يعني هذا أن هجرة قبيلة بني دان - آذان كانت بالفعل صوب الساحل اليمني حسب نص التوراة ولم تكن رحلة من نسج الخيال، بل هي مروية يمنية قديمة عن وصول القبائل إلى الساحل تماماً كما روتها القصيدة المسماة "نشيد بارق ودبُرة - دبورة" في سفِر القضاة. وللتدليل على أن وصف الهمداني مُطابق لوصف التوراة، نشير إلى أن السِّفر يقول ما يلي:

إن بني دان وصلوا إلى أرض الليش قرب المِخا. ولما كانت فلسطين لا تعرف المخِا أو الليش فقد أصبح المكان خيالياً في نظر القراء. لكن الليش- الليث والمخا هما مكانان معلومان في جغرافية اليمن؟ يكتب الهمداني عن أرض الليث-ليش في العبرية وهو موضع على الساحل قرب المِخا ما يلي (صفة: ٢٣٢):

من حدود بني مجيد فإلى حيس فزبيد والمندب والمِخا ساحلا بني

(١) كتبنا عن جميع هذه المواضع وسواها في مؤلفاتنا السابقة (مثلاً: فلسطين المتخيّلة، مصدر مذكور).

مجيد (......) ووادي شابة وجازان وصبيا ثم بلد حرام من كنانه (.......) ساحل كنانه الليث وطبية وملكان.

فهل هي مصادفة أخرى أن التوراة تتحدث عن وصول بني دان إلى الساحل، حيث مِخا و الليث: الليش، وأن يصف الهمداني الموضعين و يجعلهما في فضاء جغرافي ساحلي واحد؟ ولنلاحظ وجود طبية-طبة، وشابة، وهما واديان سبق الكلام عليهما في السِفر نفسه: (انظر ما كتبناه عن معارك جدعون أعلاه). ليس ثمة مُصادفة جغرافية يمكن أن تجمع كل هذا العدد من المواضع في سردية واحدة عن معارك قديمة، دارت بين جماعات مهاجرة من أجل السيطرة على الساحل اليمني. على الأرجح روت التوراة قصة ملك يمني صغير من ملوك اليمن تسمى باسم شمس (شمش) تيمناً بإلهه، وقد خاض حرباً ضد جماعة تدعى الفلست (فلستيم - الميم هنا أداة تعريف منقرضة وليست أداة جمع وتثنية). وهؤلاء نُسبوا إلى إلههم فلس (انظر ابن الكلبي وروايته عن معبد الفلس). فهل استند سارد النص التوراتي في روايته إلى أسطورة يونانية أو أنه عاد إلى الراسب الثقافي (المحلي، البدوي) حيث بقايا أسطورة قديمة من أساطير البحر الأحمر؛ ظلت متداولة هناك حتى بعد هجرة الفينيقيين؟.

ما نخلص إليه هو التالي: إن المسرح حقيقي تماماً ولكن الأحداث قد تبدو ذات طابع خيالي. وهذه هي آليات السرد القديم بكل جلاء في ظل غياب المدوّنات التاريخية. ذلك ما سنرى مغزاه حين نحلل أسماء المواضع الأخرى في الأسفار الثانوية.

الفصل الثالث

أنبياء وشعراء

ليس لدى محققي التوراة الكلاسيكيين، ولا القراء المعاصرين الذين تعلّقوا بقصصها الغرائبية، وليس لدى الباحثين والكتاب والمنقبين الآثاريين الذين سحرهم وقع خطا الأبطال فوق مسرح التاريخ؛ أو أطربهم رنين التراكيب المثيرة لأسماء المواضع الأسطورية، حيث سار الفرسان فوق صخورها إلى الموت(وبالطبع ليس لدى علماء الآثار من التيار التوراتي، كذلك ممن بذلوا جهوداً شاقة ومضنية في سبيل البرهنة على تاريخية قصص التوراة) ليس لدى كل هؤلاء جميعاً، أدنى دليل مهما كان بسيطاً على أن الأسماء هي لأبطال أو أنبياء تاريخيين أو لأماكن يمكن العثورعليها في فلسطين. ومع ذلك جرى تقديس القصائد التي قيل: إنها "كانت كلام الرب في أفواههم" أي كانت وحياً سماوياً ولم تكن من اختلاق بشر. وتم بفضل ذلك ومن جانب محققي التوراة تلفيق تاريخ يُبين فترات ظهورهؤلاء والأدوار النبوية التي لعبوها، سواء في مواجهة الآشوريين أو في صراعات بني إسرائيل مع الأمم والقبائل الأخرى. إن السِفر الذي يحمل اسم حجي-حجه[1]، وهو رسالة مُقتضبة عن إعادة بناء

(١) هذا هو الرسم الصحيح على الأرجح للاسم حجه وليس حجي كما في التوراة =

الهيكل الأول في عهد الملك الفارسي داريوس (دارا: ٥٢٢-٤٨٦ ق. م) يجب أن يحيلنا على الفور إلى اسم المكان اليمني الشهير حجة (محافظة حجة اليوم- لواء حجة في الماضي القريب) الذي ينتسب إليه الشاعر أو هو جاء منه. إن فلسطين التاريخية لا تعرف مثل هذا الاسم وليس هناك مكان أو محافظة قديمة أو مدينة أو موضع أو قبيلة أو أسرة باسم حجه، بينما تعرفه اليمن ومنه جاء اسم النسبة الحجي الذي يستخدم حتى اليوم كلقب جهوي. والأمر ذاته ينطبق على اسم كاتب السِفر التوراتي المعروف باسم مِخا -ميخا؛ وهو اسم بطل أسطوري لا يزال موجوداً في الساحل اليمني بالصيغة نفسها: المِخا. والأمر ذاته ينطبق على كاتب السِّفر التوراتي المعروف باسم "ملاخي". ما يثير الاهتمام حقاً في هذا النطاق، وفيما خص اسم ملاخي- ملاحي، أن ثمة تماثلاً في طريقة نطق ورسم حرف الحاء المهملة في العبرية واليمنية القديمة. ومصدر الإثارة أن كلاً من العبرية واللغة اليمنية (الحميرية) تنطقان هذا الحرف في صورة خاء معجمة. وقد روى البكري (معجم ما استعجم) بإسناد صحيح (انظر مادة وسحه في المعجم) كيف أن يمنياً قصد النبي الكريم ﷺ يريد الإسلام كان قد حمل معه عسلاً هدية. وحين سأله النبي ﷺ: من أين " شريت- اشتريت-" هذا؟ قال اليمني: "من وادي وَسخه "- بالخاء المعجمة-؟ فقال له النبي ﷺ: «بل وسحه» -بالحاء المهملة-. لقد أدرك النبي ﷺ أن الرجل اليمني يريد (وادي وسحه) ولكنه وعلى جري عادات النطق اليمنية - الحميرية قال: وسخه بالخاء المعجمة. يفيد هذا المثال الهام للغاية بحقيقة أن العبرية ليست سوى لهجة يمنية قديمة؛ وقد برهنا بأمثلة لغوية كثيرة على ذلك (انظر ما كتبناه في فلسطين المتخيلة - مصدر مذكور مثل

= المترجمة إلى العربية، لأن الياء العبرية في آخر الأسماء يجب أن ترسم في صورة هاء خفيفة: حجي- حجه.

بيت لحم - بيت لخم، ولخم قبيلة عربية- يمنية شهيرة)[1]. والحال هذه فإن رسم الاسم ملاخي في التوراة المترجمة يجب أن يقرأ في صورة ملاحي - بالحاء المهملة-بينما يجب أن يقرأ الاسم الآخر مخا في صورته هذه. بكلام آخر لابد من التمييز في طريقة نطق الحروف العبرية (ففي مثال بيت لحم فإن الحاء المهملة أصلية ولكنها تنطق خاء: بيت لخم، بينما في مثال مخا فإن الخاء هنا أصلية ويجب أن تنطق خاء معجمة). يجب أن نلاحظ هنا مغزى قول التوراة: إن دواد من بيت لحم- لخم؟ إن إشارة التوراة إلى أن داوود (ء فراتي ومن بيت لحم) يعني ببساطة أنه من سكان مكان لا وجود له في فلسطين، لأن بيت لحم لا علاقة لها بالفراة (بالتاء المربوطة) ولا يوجد في بيت لحم أو على مقربة منها موضع يدعى ءفراة. بينما نرى أن فراة هذه هي جزء من بيت لحم في وادي صيحان اليمني (وصيحان- صيحة اسم مكان - وادي قديم أقامت فيه قبائل ذكرتها التوراة ضمن قوائم أسرى السبي البابلي). المثير أيضاً أن أسماء المواضع الواردة في السِفر لا وجود لها إلا في اليمن (مثل: جبل صنان، جبل صافر، وادي ناري، وجبل ء صل). بكلام آخر: إن اسم حجي-حجه له صلة بالموضع اليمني حجّة، واسم ميخا- مِخا، له صلة باسم ساحل اليمن الشهير والقديم الذي عرفه الجغرافيون اليونانيون بهذا الاسم؛ كما أن للاسم ملاخي المُدعي أنه نبي توراتي، صلة فعلية - كما سوف نُبين - بما يُعرف عند اليمنيين بالملوك الملاحيين: مفردها ملاحي. يعني هذا أن بعض هؤلاء الأنبياء، هم شعراء ينتسبون إلى مواضع بعينها في اليمن بينما البعض الآخر هم من الكهان. ومعروف أن الأحبار اليهود والكهنة في الجزيرة العربية كانوا - في معظمهم- من اليمنيين كما يُبين تاريخ العرب قبل الإسلام.

---

(١) وانظر كذلك ما كتبناه في (قصة حب في أورشليم) وسواها من المؤلفات التي تناولنا فيها التوراة، وترجمنا من نصوصها العبرية الأصلية .

يقول النبي التوراتي مخا، في قصيدته (النص العبري: ١ :٥: ١٥):

مقاربات:

رقم ١
(النص العبري)

ب - جت - ءل - تنيدو - بكو - ءل - تبكو - بكيت - ل - عفرة - عفر - هتفلشتي
عبره - لكم - يوشبت - سافير - عره - بوشت - لء - يصئه - يوشبت - صءنان - مصفد - بيت - هاءصل -
يقح - مكم - عمدتم
كي - هله - ل - طوب - يوشبت - مروت

رقم ٢
(من النص العبري)

بيت - ءكزيب - ل - ءكزب - ل - ملكه - يسرئل
عد - ها - يرش - ءبي - لك - يوشبت - مرشه

ترجمة النص العربي في التوراة	الترجمة البديلة
وبيوت أكذيب تكون أكاذيب على ملوك إسرائيل	وبيت كرب تكون لأكرب مُلكاً لإسرائيل
وإليكِ أيضاً آتي الفاتح ياساكنة مريشة	واليريس ستعود إليك ياساكنة مرسة

رقم ٣

النص العربي من التوراة (ميخا١: ٩-٢/٥)	الترجمة البديلة
لا تخبروا في جت ولا تبكوا بكاء	لا تنوحوا في (جت)
وفي بيت عفرة تمرغوا بالعفر	وفي بيت عفرة لا تنادوا ولا تبكوا كما بكيتم على عفار
جوزي ياساكنة شافير وعارك عريان	واندبوا عاره ياساكنة صافر يامخرج العار
إن ساكنة صانان لم تخرج	فبيت الصّلي منكم أخذت
سياخذ منكم نحيب إيصل سندُ	كما أخذت هلّة
لأن ساكنة ناروت انتظرت الخير	وكما أخذت طوب والمروت
فنزل الشر من عند الرّب	

في الواقع لا توجد مثل هذه الأسماء في فلسطين مهما فتشنا هناك؛ ولكن يمكن العثور عليها في محيط ساحل المخا اليمني الذي يخرج إلى البحر الأحمر، و هو فضاء جغرافي لا يزال يحتفظ باسم الشاعر حتى اليوم. كما يمكن العثور عليها في محيط مخلاف صعدة وقرب لواء حجة أيضاً. من المهم ملاحظة أن الترجمة التي اعتمدتها الطبعة العربية من التوراة، تقوم على تأويل الكلمات "غير المفهومة" بالنسبة إلى المترجمين، طبقاً لاستراتيجيّة تلفيق المعاني البديلة والمقبولة، والتي يمكن أو يجب أن تضفي على النصّ مسحة غرائبية وسحرية، وهذا ناجم بكل تأكيد عن استحالة العثور على معانٍ مناسبة لكلمات لا معاني لها في القواميس والمعاجم العبرية، وعن تعذر معرفة المعاني الحقيقية لها في

سياق النص. والسبب واضح كل الوضوح، فهذه الكلمات غير المفهومة والتي لا مرادفات لها في القواميس العبرية، هي أسماء مواضع يمنية كما هو الحال مع الكلمات التالية:

١: ها-يرش -ها-يرس:

تُرجمت الكلمة ومن دون دليل أو تأويل مقنع إلى (الفاتح) أو (الرأس، القائد) من الفعل رأسَ (قادَ، تزعم، زعيم، قائد) وبنوا على هذا المعنى معنى افتراضياً بأن المقصود بها الفاتح. ليس ثمة فاتح في القصيدة والقدماء من الجماعات الرعوية والبدوية لا يعرفون أي مرادف لهذه الكلمة. كما أن التقاليد القديمة للبدو لا تعرف هذا الاصطلاح في الحروب. والصحيح أن يرش هي"يرس" اسم موضع أسفل وادي حضُور على الطريق إلى محافظة حجة. أي تماماً في المكان ذاته الذي دارت في المعارك. ولذلك تكشف ترجمة الكلمة بصورة اعتباطية إلى (الفاتح) عن المغزى الحقيقي لاضطراب النص الشعري.

٢: مروت – مروت:

وهذه الكلمة رُسمت في صورة نروت-لأن المترجمين افترضوا حدوث خطأ في رسمها أو حدوث تبدل فونيطيقي نجم عنه تبادل النون والميم بسبب الحركات الإعرابية، ولذا تم الإبقاء عليها في النص. والصحيح أن الكلمة هي (مروت) تماماً كما في النص العبري، وليس ثمة خطأ او تبادل للحروف وقد ذكرها الهمداني (صفة: ٢٦٧) كاسم مكان غزير الماء في النجد اليمني.

٣: عاره – عاره:

عاره من مواضع الساحل اليمني المعروفة وقد تُرجمت إلى (عريان) بينما تُرجمت كلمة (بوشت) إلى (عار)[١] لتصبح الجملة هكذا (وعارك عريان). وهذا تركيب غير مفهوم وغريب لأننا لا نستطيع قول مثل هذه الجملة في العربية؛ إذ كيف يكون العار عرياناً؟ علماً أن المترجمين اضطروا إلى إعطاء مرادف (عر) في نص سابق في صورة (عار) بينما قلنا أن (عر) العبرية هي ذاتها (عر) اليمنية - الحميرية بمعنى الجبل المرتفع والمنيف.

٤ : أما بيت ءكزيب التي تلاعب سارد النص على المعنى المباشر فيها (أي: الكذب) في جملة: (بيت ء كزيب التي تكذب على ملوك إسرائيل- كما في الترجمة العربية) وبحيث اختلطت مع كلمة (ءكزب) في صيغة المفرد (ءكزيب- ءكزب: الكذب)؛ فهي اسم موضع يُسميه الهمداني والشعر الجاهلي (بيت أكرب) في صيغة المفرد و(أكراب) في صيغة الجمع. ومن المعلوم أن الحرف العبري"ز" يُقابله "ذ" أو "ر" أو "س" وفي العبرية بزق تعنى برَق. ومن غير شك؛ فإن فلسطين لا تعرف مثل هذا الموضع في الفضاء الجغرافي للمواضع السابقة، بينما يمكن لنا الوصول إلى بيت ءكريب أو ءكزيب إذا ما سلكنا الطريق الساحلي باتجاه مرس -مرسه. اليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٨٣):

> **المحجر الأعلى والمحجر الأسفل والأكراب (..) فإلى صلحلح مُشرقاً على - جبل-السر: مرس لبني ظفر ودون هذه المواضع أودية منها هليل وصيد لبني حبيش من زبيد**

(١) لاحظ أن كلمة بشت العبرية بمعنى عار هي ذاتها الكلمة الإرمية والعربية والأكدية التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم في اللهجة العراقية والسورية.

٥ : تُرجمت كلمة "هله" في الشطر الشعري (كي- هله - طوب) والتي لا معنى دقيقاً لها في العبرية إلى: (لأنها انتظرت الخير). وبذلك أصبحت القصيدة غير مفهومة؛ بينما المقصود من الجملة هو التالي: (مثل هله وطوب) وهما موضعان يصف الشاعر كيف تم إخضاعهما في أثناء القتال. إن الهمداني يعطي اسمي الموضعين في المكان ذاته وطِبقاً للضبط العربي القديم (هلة، وطُب). وهذا ما يقوله في صفة جزيرة العرب (١٢٦- ١٢٨):

> **وموتك وحجة وباري فذاهباً إلى جبل الشرف المُطل على تهامة، ثم يتصل بهذا، السراة سراة عذر وهنوم (..) ثم يتصل بها سراة خولان فالهلة .**

وإليكم ما يكتبه الهمداني (صفة: ١٣٣-١٣٤) عن جبل الصّلي -ها- ءصل:

> **ويهريق في جانبه الأيمن جنوبي حضور و(..) صيحان وشمالي جبل ريمة والصلّي(..) فيسقي ذلك الصقع إلى البحر فيهريق وادي العرب (...) والفرع الثاني رأسه شعبة الهلّة.**

تصبّ مياه جبل ووادي الصلّي في البحر. ويمكن للسائر في هذه السراة بعد أن يجتاز الصّلي وشعبة رأس وادي الهلّة أن يصل (عاره) والعميرة على الساحل. وهذا وحده ما يفسر لنا العلاقة بين اسم عاره التي يهجوها الشاعر، وبين المناحة في مكان غير بعيد عن هذا الفضاء الجغرافي، إذ عرف اليمنيون هناك جبلاً يدعى جبل الصّلو اشتهر بنواح سكانه (وبوجود ثقافة بكائية). وكنا تحدثنا مطولاً عن عارة هذه (انظر مادة عارة عندنا). أما صافر فهي قرب لواء حجة اليمني تماماً كما في التوراة. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢٢٣):

وحجة وموتك لحاشد، ومنها حجور بينة وحجور البطنة (......) فأما أسواق حاشد فأولها وأقدمها سوق هَمَل وهي سوق جاهلية وباري للفائش من الجبر (..) وصافر.

وكنا رأينا وادي باري في الصفحات السابقة وصلته بالمواضع التي دارت فيها معارك جدعون وأبيمالك. فهل هي مصادفة أخرى أن صافر في التوراة تكون قرب حجة عند الهمداني؟ يتبقى أن نلاحظ كذلك أن اسم ملاخي- ملاحي هو اسم النسبة من ملاح. وفي العبرية والعربية القديمة يُنطق حرف الحاء والخاء المعجمة بصورة متقاربة مثل: بيت لحم، بيت لخم (قارن مع قبيلة لخم العربية اليمنية الشهيرة، ومثل: وسْخَة: وسْحَة). إن أحداً لا يعرف في فلسطين الحقيقية اسم موضع أو بطل تاريخي أو شاعر يُدعى ملاحي-ملاخي، بينما تعرف أرض اليمن وتاريخها القديم اسم جماعة زائلة كانت-ذات يوم- تُعرف بالملوك الملاحيين مفردها ملاحي، وهم سكان وادٍ يعرف باسم وادي ملاح في المكان نفسه لسائر المواضع السابقة. وهنا نص الهمداني (١٨١-١٨٣):

ابتدأت بوصف مخلاف عامر: التنهب وملاح من الكلاع والمحجر الأعلى والأسفل والأكراب، فإلى صلحلح مُشرقاً على-جبل-السر، وعفار ومرس (..) ودون هذه المواضع أودية.

ها هنا عفار- عفر التوراتية إلى جوار مرس- مرسه والأكراب-ءكزب. وهذه المواضع في محيط وادي ملاح: ملاخ. وهناك وادٍ شهير إلى الشمال من وادي السر يُدعى وادي ملاحا. فهل جاء اسم هذا النبي الشاعر من اسم الوادي؟ يقول المحققون التوراتيون في تعريف وادي ء صل: إنه قد يكون أحد رواف نهر الأردن (انظر ملاحظات المحققين: سفِر زكريا).

لكن جغرافية نهر الأردن لا تعرف مثل هذا الاسم الذي تقول التوراة عنه :(سِفر زكريا : تهربون إلى وادي الجبال لأن وادي الجبال ينتهي إلى ء صل). بينما نعلم من الهمداني أن (وادي الجبال) هذا من أودية تهامة ومياهه مالحة لقربها من الساحل. (صفة : ٢٦٩):

وكثير من مياه تهامة أملاح، فمنها المعجر والجبال وكل ما قارب الساحل جميعاً أملاح إلا اليسير.

هنا ساحل المخا-مخِا وعلى مقربة منه عاره ومرس وبقية المواضع الواردة في القصيدة المنسوبة إلى النبي التوراتي. إن قراءة هذه القصائد في سياق معرفة مباشرة بجغرافية المواضع المذكورة وبالتاريخ القتالي الدامي والمرير للقبائل البائدة، سوف يكشف عن حقيقتها بوصفها قصائد تنتمي إلى ما سوف يُعرف تالياً في التقاليد الشعرية العربية القديمة - مع تطور الشعر- بـ"شعر الحماسة". لقد تلقى المِخيال الأوروبي المهووس بالشرق وسحره، هذا النوع من القصائد، بوصفه كلاماً نبوياً، تماماً مثلما تلقى أسماء المواضع بوصفها أمكنة غامضة وسحرية وإعجازية لا يعرفها إلا الكهان.

الفصل الرابع

حصور وحليفاتها
(ممالك حضُور ومأذن والمعارك ضد
الارميين في دمسق وَمجِدو)

عودة إلى سِفرْ يشوع

في مرثية أشعيا عن جبل صلع - ضلع كانت المعارك التي دعا النبي-الشاعر إلى خوضها انطلاقاً من مأسل - موشل، قد بدأت فعلياً ووفقاً لمنظور الرواية الشعرية، من موضع على الحدود مع مملكة حصور-مخلاف حضُور،[١] يُدعى جبل صلع - ضلع. أي من الجزء الذي يُعتبر أكثر ازدهاراً وثراء في هذه المنطقة، والذي يُسمى عند اليمنيين القدماء جنة اليمن. ومن أجل بناء تصور متماسك عن تاريخ هذه الحروب كما روتها التوراة، وإعادة تركيب الصور البطولية التي أضفاها المِخيال التوراتي الغربي على صور الأماكن والأبطال وعلى مسرحها المزعوم في

(١) انظر ما كتبناه عن حصور التوراة- حضور اليمن في (فلسطين المتخيّلة- مصدر مذكور).

فلسطين؛ فسوف نتوقف عند الصور الخيالية لإمبراطورية داوود. لقد لاحظنا كيف أن صورة داوود التي رسمها ساردو النصوص التوراتية القديمة، كانت مزيجاً من صور شعبية تتضمن شيئاً من التاريخ، وصور أبطال من أساطير شعوب أخرى كانت رائجة وشائعة في ثقافات العالم القديم. وهذا أمر مالوف في الروايات اليمنية، فهي مِن ادَّعى أن ذي القرنين الإسكندر المقدوني الذي سحرت انتصاراته على الفرس عقول اليمنيين بشكل خاص والعرب بشكل عام[١] إنما هو ملك يمني. ونحن نعلم كم أثار هذا الزعم الشائع من التباسات في كتابات القدماء ورواياتهم الشفاهية المتناقلة، حتى أن القرآن الكريم أشار إلى الفارق بين ذي القرنين اليمني وذي القرنين اليوناني في آية معروفة. كما أن ابن عباس (رض) تحدث عن هذا الفارق. يعني هذا أن تأثر اليمنيين بالأساطير والروايات اليونانية القديمة قد يمت زمنياً إلى نحو ٣٠٠ ق. م على الأقل مع احتدام الحروب اليونانية- الفارسية. ولذلك فمن المحتمل أن ساردي النصوص التوراتية مزجوا بين صورة داوود وبين سائر الصور البطولية عند اليونانيين.

تَنْبَني الصورة المِخْياليّة لمملكة داوود في فلسطين، ومن دون أي دليل علمي حتى الآن على مرويات التوراة بالكامل، ولا يوجد أي مصدر آخر لدعم رواية التوراة، لا من التاريخ المكتوب ولا من علم الآثار، كما لا وجود لأي دليل وإنْ بصورة عرضية وجزئية، يمكن أن يؤيد ظهور مثل هذه الإمبراطورية، أو ما بات يُعرف في الروايات التاريخية بمملكة

(١) انظر ما كتبناه بالتفصيل في (أبطال بلا تاريخ - مصدر مذكور) عن الكيفية التي اختلق فيها اليمنيون صورة امرئ القيس الشاعر الحميري وخلطوا بين رواياته الشعرية وبين قصص وأساطير الإغريق. والأمر ذاته مع الملك اليمني الذي يسميه النسَّابة (ذو القرنين الحميري).

داوود. ومع ذلك ما برح كتّاب التاريخ يستلهمون هذه الصور ويقومون باستخدامها على أنها هي التاريخ. ومن المؤسف أن الكتاب العرب يستخدمون المادة الاستشراقية ذاتها، كما تدفقت اليهم عبر عشرات المصادر الغربية، من دون نقد أو مراجعة حقيقية أو حتى تحفظ. إن مرويات التوراة هذه، تتحدث عن الحروب والمعارك التي خاضها بنو إسرائيل ضد جماعات أخرى؛ وجرى فيها ومن خلالها الاستيلاء على أراضٍ ومواضع خصبة. وفي هذا النطاق من المسألة تشكل الحروب الآرامية (الإرمية) في عصر يوشع بن نون (يوشع بن نون في الموارد العربية- الإسلامية) مادة أصيلة وعضوية يُعاد فيها تَمثُّل المواد والصورالمِخْيالية على نحو شديدة الإغراء. لقد جرى تصور مسرح هذه المعارك في بلاد الشام لمجرد الافتراض أن المقصود بالآراميين وملكهم هدد بن العيزار-هدد بن عيزر، أو بن هدد في صيغة توراتية موازية، إنما هو (الآراميون) وملكهم في بلاد الشام هدد. وبذلك تم تلفيق ملك في سورية القديمة لا وجود له إلا في الرواية التوراتية. ومما فاقم من ضغط هذه الصور الزائفة وجود اسم دمسق-بالسين المهملة- بالتلازم مع اسم آرامي صوبا؛ مع أن سورية القديمة لا تعرف أي شيء عن آرامي صوبا هؤلاء ولم تسمع بهم قط، ولا يوجد من ثمَّ أي دليل لغوي أو أثري يدعم وجودهم كجماعة بشرية سكنت أو أقامت أو مرت بفلسطين أو بلاد الشام لا في الماضي البعيد؛ ولا في أي وقت آخر من التاريخ المكتوب. بكلام آخر؛ فإن ما يعرف بآرامي صوبة في بلاد الشام ليس أكثر من تلفيق استشراقي انبنى على قراءة مغلوطة للنص التوراتي. إن طاقة الصور التوراتية على توليد تاريخ استشراقي يتفجر بأحداث درامية وببطولات أسطورية ومآثر ومعجزات يجترحها فرد استثنائي واحد؛ ستبدو في أذهان الدارسين الذين أطلقوا العنان لخيالهم، طاقة هائلة واستثنائية أيضاً يمكن تصعيدها مع كل قراءة موازية للنص نفسه. على هذا النحو كبرت

وتعاظمت صورة الإمبراطورية الإسرائيلية الأولى المُخْتلقة، وصارت "حدودها الدولية" تمتد من فلسطين إلى نهر الأردن فمروراً بلبنان ودمشق، صعوداً حتى التخوم الشرقية من بلاد الشام، أي كامل بلاد الشام التاريخية. يكتب نوت[١] في وصف هذه الإمبراطورية التي ساهم شخصياً بنشاط في" اختراعها" ودعم صورتها الكاذبة، ما يلي:

وصارت المنطقة كلها بُنية سياسية بالغة التعقيد، وتوسعت خارج الدولة الإسرائيلية الأصلية. لقد أصبحت إمبراطورية فلسطينية-سورية موحدة في شخص الملك- داوود-.

اختراع نوت هذا، مبني وبصورة مباشرة على الرواية التوراتية المقروءة بمخْيال أوروبي، ولا علاقة له بالعلم أو الأمانة للتاريخ. ومع ذلك يفيد هذا الاختراع بأن الحروب الآرامية مهدت السبيل أمام رجل استثنائي هو داوود من أجل أن يبني" دولة إسرائيل الكبرى" الأولى على أساس اتحاد فلسطيني- سوري يضم الأردن استطراداً. وبذلك تتزاحم الإمبراطورية الجديدة وبالمناكب، مع الآشوريين والمصريين على زعامة العالم القديم. هذه الإمبراطورية التي يجهلها التاريخ المكتوب ولا يعرف عنها أي شيء حقيقي ومقبول- كما أن السجلات والنقوش المصرية والآشورية لا تذكرها مجرد ذكر، ومن المفترض بالطبع أنها كانت تتزاحم معهما على قيادة العالم-هي اختراع غربي ينتسب بامتياز إلى عصر الاستعمار، لاغرض له سوى قول الفكرة التالية وترسيخها: إن إسرائيل المعاصرة هي الامتداد التاريخي للدولة الكبرى التي قامت، ذات يوم، عبر دمج سورية ولبنان وفلسطين ونهر الأردن في كيان إقليمي واحد. وعبر هذه الفكرة أمكن، عملياً، تهيئة غطاء أخلاقي لتشريع الاحتلال

---

(١) كيت وايتلام: تلفيق تاريخ إسرائيل ص: ١٩٣: دمشق- دار قدمُس.

الإسرائيلي الراهن وتبريره. لقد عادت إسرائيل المعاصرة من الماضي البعيد لتقهر أحفاد الآراميين بعدما قهرت الآراميين الأجداد، وفي الفضاء الجغرافي نفسه الذي شهد مولد الإمبراطورية. من شأن تفكيك هذه السردية اللاتاريخية المُزيفة والمُستخدمة كسلاح لادعاء حق ملكية الأرض، أن يكون ممكناً وربما ميسوراً بصورة لا توصف، لا نقد القراءة الاستشراقية وحسب؛ وإنما حرث الطريق وتمهيده كذلك أمام كشف العبث اللا أخلاقي بالتاريخ، والذي تَخْتَزِنهُ مئات المؤلفات المكتوبة عن مملكة داوود في أوربة المعاصرة وأمريكة. ولأجل هذا الغرض فسوف نعرض لمثال هام عن بدايات الحروب الآرامية (الإرمية). لا تشير الوثائق التاريخية التي بين أيدي علماء الآثار البتة، إلى وجود اسم دمشق العاصمة السورية في العصر الوسيط البرونزي؛ كما أن وثائق إيبلا ونصوصها المُكتشفة في تل مرديخ (إلى الجنوب من حلب) تصمتُ عن ذكر دمشق. بيد أن قائمة الفرعون المصري تحوتمس الثالث الشهيرة التي تضم نحو ١١٩ مدينة تحالفت ضده في معركة مجدو تشير إلى اسم دمسق- بالسين المُهملة. وليس ثمة دليل على أن المقصود بها دمشق في بلاد الشام. ويبدو أن اسم دمسق هذا، الذي يردُ بالتلازم مع مجدو قد اتخِذَ دليلاً قاطعاً على صحة الرواية التوراتية عن الحروب الآرامية (والصحيح الإرمية من إرم). إن المؤرخين بإجماعهم يعترفون بالحقيقة التالية: كل ما يملكونه عن هذه الحروب من معلومات وعلاقة دمشق المزعومة بهذه الحروب في عصر هدد بن عيزر ٨٤٥ ق. م لايتعدى معلومات متفرقة مُستقاة من التوراة وتحديداً من سِفر صموئيل الثاني؛ كما لا يوجد أي دليل أثري أو تاريخي آخر .

وعندما سعى علماء الآثار التوراتيون للمطابقة بين دمسق التوراة - كما تكتب بالعبرية- ودمشق السجلات الآشورية، ومن منظور الأحداث

التاريخية المؤكدة والموثقة والمعترف بها كوثائق تاريخية؛ واجهتهم معضلة غير قابلة للحل هي التناقض في الفترات الزمنية، التي يُفترض أن هذه الأحداث وقعت فيها، كما تعاقب بموجب هذا التناقض، ملوك على حكم دمسق لا وجود لهم في التاريخ السوري القديم؟ مثلاً: الملك رصونو (رصين): rasun الذي تسجل التوراة اسمه في هذه الفترة، وهي كما قلنا فترة معلومة بفضل السجلات الآشورية. وفضلاً عن ذلك؛ فإن بلاد الشام لاتعرف طريقاً ساحلياً يُدعى مجدو كان مسرحاً لمعارك دامية ضد المصريين؟ لقد تسببت المُطابقات العشوائية التي قامت بها القراءة الغربية للتوراة في حدوث فوضى تاريخية لا تزال مستمرة حتى اليوم. إن طلبة أقسام التاريخ القديم في الجامعات العربية يضطرون إلى ترديد الأساطير عن ملك لا وجود له في التاريخ السوري يُدعى هدد بن عيزر، وذلك في سياق ترديد أشد فظاعة لأفكار ومعتقدات وأحداث يُزعم أن لها أصلاً في هذا التاريخ. وحين يُصبح هؤلاء الطلاب في المستقبل أساتذة في الجامعات نفسها أو ينصرفون إلى البحث الأكاديمي؛ فإن الفوضى سوف تستمر مع غياب أي محاولة عربية جادة للتحقق من مُخْتلقات المستشرقين. نشبت الحروب الآرامية- حسب نصوص التوراة- في عصر يوشع بن نون، بعد معارك خاضها بنو إسرائيل ضد مملكة حصور وحليفاتها: مملكة مادون وءكسفه ومملكة دور في وادي عربه، وفي سلسلة الجبال المُتصلة بالنجد. لكن وفي إطار التخييل الاستشراقي جرى تصوير وادي عربه على أنه وادي العربة الأردني، ليتسنى قبول الرواية التوراتية من المنظور الجغرافي باعتبارها رواية عن حروب دارت قرب دمشق السورية.

بيد أن غياب أي دليل على وجود مملكة مادون؛ أو وجود أرض تدعى أرض مجدو على الساحل السوري، أو سلسلة الجبال قرب وادي

عربة الأردني؛ لم يكن مهماً كما يبدو بالنسبة إلى علماء التوراة الذين يُحركهم هوس المطابقة. كان الأمر الهام بالنسبة إليهم هو الدفع بالمُطابقات إلى أقصى حد ممكن، حتى وإنْ أدى إلى فوضى تاريخية؟ وهذا ما حدث بالفعل، فنحن إذا ما قبلنا رواية التوراة كما فسّرها علماء التوراة و(علماء الآثار من التيار التوراتي) ومن دون نقد أو تحفظ، فهذا يعني أننا سنقبل بفوضى تاريخية لا مثيل لها، ويستحيل الخروج من نتائجها. فمن هو رصونو ملك دمشق؟ وأين يقع ساحل مجدو الذي دارت فيه المعارك؟ ومن هم ملوك صوبة؟ بل من هم الآراميون في التوراة؟ يُرسم اسم حصور في نصوص التوراة المترجمة إلى العربية في صورة حاصور. وهذا رسم ماكر غرضه المُطابقة بين تل حاصور الفلسطيني وحصور التوراة؛ ومع أن هذا التل الأجرد والصغير لم يقدم لعشاقه من يهود أوربة وأمريكة، أي دليل مهما كان تافهاً على أنه كان مملكة من ممالك فلسطين، كما لا يوجد إلى جواره أي شاهد تاريخي عن مملكة مادون المُتاخمة له؛ فقد اعتبر بذاته ولذاته دليلاً قاطعاً على صحة الرواية التوراتية عن مسرح المعارك. ولئن قامت الدراسات التاريخية الاستشراقية بتنمية وتطوير صورة فلسطين مُتَخَيّلة ومُخْتَلقة، وبحيث ولّدت باضطراد صورة موازية عن إسرائيل قديمة وفريدة في نوعها، كتعبير عن فرادة الثقافة المسيحية - اليهودية؛ فقد عملت هذه الدراسات والبحوث بالتوازي والتلازم مع هذا النمط من العمل الفكري، على تصعيد شعري محموم لصورة إمبراطورية داوود في فلسطين. في خاتمة المطاف بزغت صورة جديدة هي خلاصة دمج بين نموذجين أحدهما من الماضي (هو إسرائيل القديمة) وأخرى من الحاضر (هي إسرائيل المعاصرة). لقد نمَّت هذه الدراسات والبحوث صورة إسرائيل راهنة تقوم وسط تحديات مخيفة وجديدة، ومشابهة لما كانت عليه التحديات في الماضي. وبذلك بلغ تزييف التاريخ ذروته.

كل ما حدث هو التالي: محل الآراميين والآشوريين والمصريين القدماء الذين زاحمتهم مملكة داوود بالمناكب، وتمكنت بفضل عبقرية ملكها من البقاء والصمود، سوف يحلُّ محيط عربي بغيض كاره لإسرائيل ومتحدٍّ لها، وهو- في النهاية- محيط مؤلف من مزيج مخيف من العرب والمسلمين المتعصبين. ولأجل ذلك؛ فإن الخلاص سوف يأتي حين تندلع معركة مجدو جديدة تقصي العرب والمسلمين أحفاد الآراميين المهزومين من تاريخ فلسطين، ليكون بالإمكان آنئذٍ، احتكار التاريخ وإعادة تنسيبه إلى الجماعة القديمة نفسها صاحبة الحق: بنو إسرائيل، ولكن هذه المرة من خلال رواية التاريخ الجديد بصوت المستوطنين. إليكم هذا الجزء من الرواية التوراتية عن حروب بني إسرائيل ضد مملكة حصور ومادون.

يقول سِفر يشوع (١٠: ٣٦: ١١: ٩: النص العبري) ما يلي:

(ويهي-ب-سمع-يبين-ملك-حصور-ويشلح-ء ل-يوباب-ملك-مدون- ءل- ملك- سمرون- ءل-ها-ملكيم-ءكسف- ءشر- م-صفون- ب- هر- وب-عربه- جنب- كنروت- وب-سفله- وب-جفوت- دور-م- يم)
(وكان ملك حضُور في سمع، ويَبيْن، فأرسلَ إلى يوباب ملك مأذن وإلى ملك سمرون وإلى ملوك كشاف التي في الشمال، وفي السراة و- وادي العرب- وإلى جنب وكنروت وفي السفل، وفي صفوح دور من يام)

ما يقوله هذا النص بتراكيبه اللغوية غير المعقدة واضح كل الوضوح: لقد كان نفوذ مملكة حضُور يمتد إلى جبل سمع وجبل يبيْن. وحين تناهت إلى ملوك هذه المملكة-المخلاف أنباء الحشود التي جهزها يوشع بن نون لمهاجمتهم، أرسلوا يطلبون نجدة حليفاتهم في الإمارات والمخاليف

(المشيخات) الإرمية الصغيرة المجاورة ومنها مملكة مأذن. كما أرسلوا في طلب مساعدة مملكة-مخلاف سمرون. ثم أرسلوا إلى الشمال رسلاً طالبين النجدة من مملكة كشاف ووادي العرب المجاور، ومن بلد جنب وكنروت الساحلية وصولاً إلى قبائل منطقة السفل ودور، وذلك من أجل تنظيم حملة مُنسقة لصد الهجمات التي أعد لها بنو إسرائيل. إن تاريخ سورية القديم لا يعرف على وجه الإطلاق، أي شيء عن هذه الممالك الآرامية - الإرمية الصغيرة التي تحالفت ضد إسرائيل؛ كما لا يعرف أي شيء عن هذه الحرب الضارية. وليس ثمة أي إشارة في السجلات والنقوش التي تركتها الممالك السورية المُتعاقبة في بلاد الشام، يمكن أن تُلمح إلى حدوث مثل هذه الصدامات على المسرح الشامي التاريخي. فهل كانت بدايات الحروب الآرامية من اختلاق ساردي النصوص التوراتية؟.

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا لم يعثر علماء الآثار على دليل واحد يدعم نظريات الوحدة الاندماجية لفلسطين ولبنان والأردن وسورية في "إسرائيل واحدة وكبرى"؟ يكمن الخلل في تركيب وبناء التاريخات داخل البحوث والدراسات الغربية عن الحروب الآرامية، في الافتراض المتهور وغير العقلاني القائل: إن هذه الممالك الآرامية، أي حضُور ومأذن ودور وسواها، قامت على تخوم بلاد الشام الجنوبية، ومن ثمَّ لم تجرِ ملاحظة أن التوصيف الذي تقدمه التوراة يشير إلى ممالك ساحلية أو هي قريبة من الساحل. وهذا الوصف لا يمكن مُطابقته إلا مع خريطة ساحل البحر الأحمر والسراة اليمنية (علماً أن البطون الآرامية المهاجرة إلى بلاد الشام كانت تهاجم الإمبراطورية الآشورية وتقض مضاجعها طوال العام ١٠٠٠ق. م) ولأجل تمزيق هذه الغلالة الشفيفة من التزوير، سنعطي وصفاً دقيقاً مُستمداً من نصوص الهمداني عن هذه الممالك المتجاورة والمتحالفة في السراة اليمنية. يكتب الهمداني عن جبل سمع ما يلي (صفة: ١٢٣-١٢٤):

وأسافل حضُور هو غوره مثل بلد الصيد وشُم وماضخ. وما يتصل بها سراة المصانع، و-وادي-حضُور. و- جبل-وسمع وسردد وهي جبال.

ها هنا مخلاف حضُور -مملكة حصور في مكان جبلي شامخ، وفي أسفله المساقط المائية التي تشكل الوادي وفي أعلاه جبل سامع تماماً كما في التوراة. لقد ارتكب مترجمو النص العربي خطأ فادحاً حين ترجموا جملة: (ويهي-ب-سمع-يبين-ملك- حصور) إلى (وكان أن سمعَ يَبيْن ملك حصور). بينما المقصود بها (وكان مُلك حضُور في سمع ويبين) بمعنى أن نفوذ هذا المخلاف- المملكة القديمة كان يمتد إلى جبل سمع وجبل يَبيْن. وهذا صحيح وحقيقي تماماً ويؤيده تاريخ اليمن. بكلام آخر: لقد توهم المترجمون أن الاسم سَمْع هو الفعل سَمعَ، كما توهموا ان الاسم يبيْن هو اسم ملك حضُور، بينما المقصود به يَبيْن ومنه جاء اسم أبين المحافظة اليمنية الجنوبية اليوم، وهي مكان قريب من جبل سَمْع.

ومن أجل بناء صورة جغرافية بديلة عن الصورة الاستشراقية السائدة عن الممالك الآرامية - الإرمية، التي جرى تضخيمها استشراقياً(تماماً كما فعل اليمنيون القدماء مع تاريخهم المكتوب في ضوء التأثير الإغريقي) فسوف نقوم بمقاربة جغرافية جديدة. اليكم ما يكتبه الهمداني عن مملكة حضُور ووادي العرب وجبل سمع المجاور (صفة: ١٣٣-١٣٤):

ثم يتلوه وادي سهام وأوله ورأسه نقيل السود من صنعاء يهريق في جانبه الأيمن جنوبي حضُور (..) فيسقي ذلك الصقع إلى البحر فيهريق في وادي العرب (..) ثم يتلوه وادي سردد فمساقط حضُور (..) فيسقيها وما يليها إلى البحر (..) ثم يتلوه وادي مور (..) فأول شعابه ذُخار (..) وسمع.

هذا هو وادي العرب-عربه إلى جوار مخلاف حضُور- حصور و جبل سمع- سمع، وها هنا ساحل زبيد حيث تمتد أرض بني مجيد-مجدو. وهذا الوصف الذي يقدمه الهمداني مُتطابق كل التطابق مع وصف الشريط الساحلي الذي سوف تدور فيه الحروب. وبالطبع ليس ثمة في فلسطين مثل هذه الوديان ولا مثل هذه الممالك القديمة. يكتب الهمداني عن تجاور مخلاف حضُور ومخلاف مأدن (حصور ومدون في التوراة) ما يلي (صفة: ٢١٠-٢١١):

> مخلاف حضُور (وهو حضُور بن عدي بن مالك من ولده شُعيب النبي ابن حضُور عليه السلام) يتصل به الأخروج. والأخروج بين حضُور وهوزن وهو بلد واسع. وعالية حضُور واضع والمعلل، ويجمع هذه المواضع ضهر وضلع وريعان مخلاف مأذن.

هوذا مخلاف-مملكة حضُور الذي يُنسب إلى النبي اليمني حضُور، يجمعه إلى جبل ضلع أحد جنَّتي اليمن- انظر ضلع في أشعيا-مخلاف مأذن في الفضاء الجغرافي نفسه. فهل ينطوي الأمر على أي مصادفة من المُصادفات اللغوية؟ في الواقع استخدم اليمنيون القدماء تعبير (مخلاف) للدلالة على نمط من الحكم. ولذلك تبدو كلمة مخلاف الكلمة الأنسب لوصف شكل التنظيم الاجتماعي والسياسي والإداري القديم، بالنسبة إلى جماعات قبائلية كانت لا تزال تخوض صراعات دامية ومدمرة فيما بينها، وعلى أسس دينية في الغالب أوعلى قاعدة من التحالفات التي تتحكم فيها العصبيات الحارة. والكلمة كما يلاحظ من مبناها، ذات صلة حميمة بكلمة خلافة التي اشتقها مسلمو الشمال بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ وكانوا قبل ذلك يجهلونها؛ ولكنهم وفي إطار محاولاتهم للتعريف بنمط الحكم، الذي سوف يسود بعد وفاة الرسول ﷺ استعادوا اصطلاحاً يمنياً

قديماً هو" المخلاف ". بهذا المعنى؛ فإن مخلاف وخلافة هما تعبير عن نمط من إدارة شؤون جماعات مستقرة، يتيح لها- في إطار ثقافة راسبة ومستمرة في مجتمع القبائل- أن تحصل على ما هو أقل من مملكة وأكثر من مشيخة. ولذلك؛ فإن التوافق المدهش بين نصوص الهمداني ويشوع في وصفهما لأوضاع ما يدعى" الممالك الآرامية " جنوب الجزيرة العربية، يسمح بالمُطابقة دون حرج بين الأسماء والتحديدات الجغرافية المتناسقة؛ وهو أمر نفتقده تماماً في جغرافية بلاد الشام. إليكم وصف الهمداني لأوضاع هذه المخاليف (صفة: ٢١٣-٢١٤):

وحضُور من المصانع (..) وحاز قرية عظيمة وبها آثار جاهلية. والعر وخِلقه(..) والبادة وبيت رفح وبيت حيقر، من حد حضور وضهر وضلع وهما جنتا اليمن من حد مأذن.

إننا لا نعرف ممالك قديمة في بلاد الشام تركها لنا الآراميون- الإرميون، تدعى حصور ومدون وضلع، وكانت مزدهرة وقوية إلى هذا الحد بحيث اعتبر بعضها بمثابة جنة، وهو أمر يغري على التنافس والصراع بين الجماعات والقبائل والعشائر المسلحة حولها. ومن بين الجماعات المتنافسة قبائل بني إسرائيل. بينما نعلم من نصوص الهمداني أن هذه الممالك كانت موجودة بالفعل، في السراة اليمنية على مقربة من ساحل زبيد، حيث وقعت معركة مجدو- مجيدُ التي خاضها المصريون في إطار التنافس على السواحل اليمنية وللسيطرة على تجارة البخور (اللبان والمر) وهي الثروة الكبرى في العالم القديم. علماً أن المصريين كانوا ينفقون أموالاً طائلة على شراء البخور لمعابدهم، وهو ما يُضاهي البترول اليوم في قيمته كسلعة استرتيجية[١].

(١) في هذا الإطار يجب أن ننظر إلى حملة الإسكندر المقدوني وسيطرته علي

والآن: إذا كانت هذه الممالك المتحالفة مع حضُور قد صممت على صدّ بني إسرائيل والصراع ضدهم، هي أماكن معلومة وحقيقية في السراة اليمنية، ففي هذه الحالة يجب أن تكون بقية المخاليف-الممالك على مقربة منها؟ إلى الشمال- مثلاً - كما يقول نص يشوع؟ إليكم وصف الهمداني للسفل (ب- سفله) والتي ترجمت من العبرية ويا للغرابة، إلى (وفي السهل) فيما المقصود بها منطقة السفل (صفة: ١٩٨ - ١٩٩):

وبطن السحول وفروع زبيد (..) والوحش من بلد حاشد وبلد الكلاع على ما اكتنف سائلة زبيد وهذه البلاد من السراة ويتصل بالسحول من شماليها على السراة: يحصب السفل. ومن نجدها قصد الشمال يحصب العلو. السفليون من همدان. فالسفل: الواديان: الصنع وشيعان (المحقق: السفليون منسوبون إلى ذي سفل)

ها هنا السفل وهو مكان لتجمع مياه واديين كبيرين أحدهما شيعان-شيعان عند يشوع، وتسكنه قبائل يمنية قديمة تنتسب إلى ذي سفل من حمير، على أطراف تفرعات وديان زبيد التي تبلغ مخلاف السحول في

= جزيرة سوقطرة اليمنية. وإلى حملة غالوس ١٢٥ ق. م على الجزيرة العربية ثم إلى حملات الرومان على ميناء عدن في ٥٠ ق. م. لقد كانت الحملات الحربية اليونانية- الرومانية على الجزيرة العربية واليمن وفي جزء منها، مصممة للسيطرة على طرق التجارة " الدولية " في البحر الأحمر، وللحصول على الثروة من خلال وضع اليد على إنتاج وتصدير البخور (اللبان والمر) التي اشتهر بها اليمن القديم، وهذا هو السبب الحقيقي للحملات التي قامت بها الحبشة تالياً نيابة عن روما وآخرها حملة إبرهة الحبشي - في الروايات التاريخية العربية الكلاسيكية- عام ٥٢٤ للميلاد. لقد اشتكى الرومان مراراً بأن أموالهم تستنزف على شراء البخور للمعابد، وكان تأمينها من خلال حملات حربية هدفاً استراتيجياً لمعظم القوى الكبرى في العالم القديم.

السراة. وهو تماماً كما وصفه يشوع في جملة (م-صفون- ب-هر) أي (من شمال السراة) -قارن مع وصف الهمداني أعلاه (من شماليها على السراة) -. أما مملكة سمرون (والصحيح سمارون) الصغيرة فليست سوى " سمارة " في ظاهر مخلاف السحول. هنا تعليق العلامة الأكوع على نص الهمداني (صفة: ١٩٧):

(قال المؤلف- الإكليل: ٢:١٩٩-: أرياب في رأس -جبل- أدم من يحصب العلو، وهو رأس-وادي- صيد[1]. ولزيادة الإيضاح قلتُ: هو الجبل الناتئ المطل على قرية سمارة وأرياب من ظاهر السحول وأرياب أيضاً بلدة من أعمال ذي السفال)

فهل هي مُصادفة أخرى أن يكون هناك موضع يُدعى سمارة وحسب البناء العبري: سمارون في المكان ذاته الذي وصفه يشوع؟ إن جملة (ويهي- ب- سمع-يبين- ملك حصور -ويشلح) التي تُرجمت خطأ إلى: (وكان أن سمع يَبْين ملك حاصور فأرسل.....) تفيد الآتي: إن نفوذ (مُلك) حضُور كان يمتد إلى سمَع ويَبْين، وهذا يعني أن يَبينْ ليست اسماً لملك حضُور؛ بل هو وادٍ من الأودية التي تُعد من أحواز هذا المخلاف، مثله مثل جبل سمع. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٥٧- ١٥٩):

ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف مأذن من حضُور (..) ثم من المصانع شِبام وبلد الصيد وبه أودية من ظاهر همدان مثل ذي بينْ وما يسقيهما من ظاهر الصيد.

(١) البناء العبري للأسماء معروف: صيد - صيدون، سمار- سمارون (أي بزيادة الواو والنون) وهو بناء لغوي تطور مع تطور لهجات القبائل في جنوب الجزيرة العربية ومع تطور اللغة العربية في الشمال، بحيث أصبح بزيادة الألف والنون مثل: عدن- عدنان، قحط - قحطان إلخ.

هذا هو يبين: بين- بحذف الياء مثل: يعرم ويكرب في عرم وكرب، وهذه لهجة يمنية معروفة أشرنا إليها مراراً- على مقربة من وادي حضُور وسَمع وبقية المواضع. لاريب أن وجود وادي يبين قرب حصور في التوراة، ووجود بينْ قرب مخلاف حضُور عند الهمداني، وإلى جوارهما مادون- في التوراة ومأذن عند الهمداني؛ يوضح على أكمل وجه مقاصد النص العبري الحقيقية. ليس ثمة ملك يُدعى يبْين أرسل إلى الملوك الآخرين يطلب النجدة منهم؛ بل هناك ملك حضُور الذي نجهل اسمه، كما نجهل أسماء حلفائه، "وكان يبسط نفوذه" في جبل سمع كما يبسط نفوذه في وادي ذي بين. وبهذا المعنى سوف نسقط من التاريخ المثيولوجي للتوراة المترجمة ملكاً لا وجود له هو من اختراع المستشرقين وعلماء التوراة في الغرب. وهذا تصور مقبول للحالة الفعلية التي كانت عليها الممالك الصغيرة قبل توسعها، فهي ممالك تسيطر على أجزاء صغيرة إضافية من جغرافية المعارك المحتدمة، ومن ثمَّ جاء طلب المساعدة الذي تقدم به ملك حصور-حضُور الذي لا نعرف اسمه الحقيقي، من حلفائه ملوك مدون وسمارون ودور ومن قبائل وادي السفل ووادي العرب- عربه في التوراة؛ في سياق الحفاظ على مواقعه ونفوذه ومن أجل التوسع القبائلي التقليدي ولصدّ محاولات بني إسرائيل، الذين كانوا في حقبة يوشع بن نون[١] في طورهم البدوي.

---

(١) يجب أن يحيلنا اسم النبي اليمني - التوراتي يوشع بن نون إلى اسم الإله العربي- اليمني القديم (نون) والذي ذكره القرآن في آية (نون والقلم وما يسطرون). واسم نون هذا له صلة باسم يونه (سفر يونه- يونان). إن العودة إلى رؤية وفحص العنصر الفينيقي - الإغريقي في الأساطير الواردة في التوراة، قد تقدّم مساهمة من نوعٍ ما على مستوى إعادة قراءة مجمل الأساطير العربية القديمة؛ ذلك أن (نون) مثلاً كان معبود ثمود وقد وجد المنقبون في معابده بقايا أسماك، بما يدلل على أن عبادة نون(أي السمكة) إنما هي عبادة ضاربة في القدم (انظر ما كتبناه حول سفر يونه).

أما المكان الآخر الخيالي الذي حيّر المترجمين فهو الذي يدعى جنب. في حالات كثيرة جرى، داخل النصوص التوراتية، ترجمة هذه الكلمة إلى (جنوبي) بما أن جنب في العبرية تعني جنوب. لكن المقصود بالكلمة في هذه النصوص، ليس تحديد الاتجاه وإنما اسم مكان بعينه أرسل إليه ملك حضور رسلاً وموفدين، طالباً من القبائل مساعدة عاجلة. إن جنب هنا هي على وجه الدقة والضبط السراة الجبلية المعروفة باسم جنب في مخلاف صَعْدَة، وهذه السراة تتصل ببلد يام تماماً كما في النص العبري. ذلك ما يفسر لنا معنى الجملة في العبرية:

وب-هر-عربه-جنب-كنروت-وب-سفله-وب-جفوت-دور-م-يم

هذه الجملة يجب أن تترجم ببساطة إلى (وفي السراة - وادي-العرب وجنب وكنروت. وفي السفل وفي صفوح ودور من - بلد-يام). بما يتوافق مع النص العبري ونص الهمداني. هنا النص عن سراة جنب التي تتصل ببلد يام (صفة: ٢٢٥-٢٢٦):

هذه بلد خولان على حد الاختصار وأغوارها في تهامة، وفي أعلاه سراة جنب، وفي نجدها يتصل ببلد وادعة (..) بلد وادعة- ثم - بلد يام.

مقاربة

التوراة (النص العبري)	الهمداني في وصف اليمن
ب- هر- عربه- جنب - م- يام	في السرو- أي الجبال- سراة جنب و يام
ب-سفل	في السفل
يبين	بَيْن
م-يام	من يام

هل ثمة مصادفة لغوية أن تكون هناك جنب قرب يام في التوراة، وأن تكون هناك سراة جنب اليمنية قرب بلد يام عند الهمداني؟ قد تكون هذه الصور الوصفية كافية بذاتها لمعرفة حدود ما يزعم أنها ممالك آرامية صغيرة في بلاد الشام. وهي إلى هذا كله، كافية لنقض الفكرة الاستشراقية الزائفة عن الأحداث التي صورتها التوراة. ها هنا الأماكن التي جرت فيها أحداث السفر التوراتي، تمتد من الساحل حتى النجد اليمني إلى الغرب من صنعاء. وفي هذا الجزء من النجد تقع صفوح دور- جفوت دور. لقد ترجمت جفوت العبرية إلى سفوح؛ بيد أن المكافئ الصحيح لها هو صفوح- بالصاد- أي: أعالي المكان (بينما تعني سفوح أسفله). وفي الواقع لم يعد هناك مكان يدعى دور[1]؛ ولكن يمكن الاستدلال إليه من قصيدة رائعة للبحتري يصفها بدقة متناهية. قال:

بَل أيها البرقُ إنْ جُزْنَ فعلى ... منازل أقفرت بالحنو أو دورِ

ألوتْ بجِدتها الأيام تُخْلِقُها ... مآثر من رباب المزن أو مَورِ

وقد تكون مُعاناً والهوى قَبَلُ ... لامس من ظباء الأنسِ أو فورِ[2]

يضع البحتري دور هذه على مقربة من أهم معلمين في اليمن القديم هما وادي مَور (انظر موره في أساطير حروب طروادة الإغريقية) الذي يفترض البحتري أن مياهه قد تكون سبباً في زوال (دور) عن الوجود، أو ربما بفعل الأمطار (رباب المزن). وجبل الأنس (جبل أنس المشهور بالظباء). وفضلاً عن هذين المعلمين البارزين هناك مدينة فور - قارن مع

(١) دور هذه لا صلة لها بموضع (ءدور- الدّارة) الذي سبق الكلام عنه.

(٢) فور هذه هي التي نقلت اسمها القبائل العربية إلى إفريقية (السودان) وسجلتها في صورة (دار فور) وهنا يتضح بجلاء معنى كلمة (عير العبرية- العربية) بمعنى (دار). كما أن وجود (دور) - جمع دار- قرب (فور) يدعم هذا التصور.

دار فور السودانية اليوم-قرب عدن. (انظر وصف الهمداني لفور: صفة: ١٩٢ من مدن لحج، وكذلك جبل أنس قرب حضُور: صفة: ١٢١-١٢٢ والجزء الأول من فلسطين المتخيلة-مصدرمذكور. وانظر: كنروت في منازل الأسباط على الساحل، وءكشف أيضاً). هذا هو مسرح المعارك التي خاضها بنو إسرائيل ضد الآراميين. وليس في هذا المسرح بكِل تأكيد-كما بينّا-ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن له صلة ببلاد الشام أو فلسطين التاريخية.

إنه لأمر يصعب تخيّله القول: إن كل هذه الممالك-المخاليف وبالأسماء ذاتها الواردة في التوراة هي نتاج مُصادفة جغرافية أو لغوية؟

الفصل الخامس

سعير ليست مقلوب عسير

(آلهة الإغريق والعرب والحميريين)

سيعالج هذا الفصل على وجه الخصوص مسألة شائكة في التوراة، يمكن تسميتها (بمشكلة سعير) وهي لا تزال عالقة ومثيرة للجدل. وسوف يسعى المؤلف إلى وضع تصورٍ جديد لها يرتكز إلى معارف العرب الثقافية القديمة والراسبة، التي أنشأت حول هذا المكان بالذات أفكاراً وتصوّرات ورؤى دينية يصعبُ تخطيها؛ مع أن أحداً من الباحثين العرب لم يهتم حتى الآن، ويا للأسف، بقيمتها التاريخية على صعيد نقد القراءة الاستشراقية للتوراة. كما يعالج الفصل مسألة العلاقة بين أسماء الكثير من آلهة الإغريق، وبين ما يماثلها عند العرب وفي التوراة، من أجل الكشف عن أصولها وجذورها العربية البدائية. نعني صلتها بطفولة العرب كجماعة بشرية.

وبينما ظل اسم سعير يثير حيرة وارتباك الباحثين والدارسين العرب، ممن يعملون في هذا المجال، وهم لم يتمكنوا في الكثير مما نشر من الدراسات والبحوث من إعطاء تصورات صحيحة عنه؛ فإن الدارسين التوراتيين في أوربة ظلوا متمسكين بالرواية التوراتيةعن وجود جبل سعير

في فلسطين. وباستثناء محاولة يتيمة قام بها د. كمال صليبي؛ فإن أي دراسة جادة في هذا الصدد لم تظهر في الدراسات التاريخية العربية. على هذا النحو تم التسليم بأن سعير التوراة، هو ذاته القرية الفلسطينية التي تحمل اسم سعير في الضفة الغربية، وذلك ما فاقم من نزعات المُطابقة التعسفية في الثقافة المسيحية- اليهودية الأوروبية المعاصرة. كانت محاولة صليبي في (التوراة جاءت من جزيرة العرب) مبْنية على أساس حدوث نوع من القلب في حروف الاسم الأصلي عسير، وأن هذا التحول الفونوطيقي نجم عن سلسلة من التغيرات التقليدية والمألوفة في تبادل مواقع الحروف. لكن هذا التأويل سرعان ما ساهم في تعقيد المشكلة بدلاً من حلها.

يعطي سِفر التكوين في آيات متفرقات، أفكاراً متناسقة عن هذا المكان، ولكنها آيات لا تشير البتة إلى فلسطين؛ ومع ذلك ما فتئ علماء التوراة يربطون بين هذا الاسم وقصص الصراع ضد الفلستيين، الذين يُزعم أنهم وصلوا متسللين من جزيرة كريت اليونانية (انظر الخريطة في ملاحق الكتاب). مثلاً: تك/ النص العبري٣٥: ١٨ : ٣٦:١١، وكذلك ٣١: ٤٩: ٣٢: ١٥:

(ويشب - عيصو - ب - هر - سعير - عيصو - هوء - ءدوم)
(ونزل عيصو في جبل سعير، وعيصو هو أدوم)
(ويشلح - يعقب - ملءكيم - ل - فنيو - ءل - عيصو - ء حيو - ء رصه - سعير - سده - ء دوم)
(وأرسلَ يعقوب رسلاً تسبقه اليعيصو أخيه في أرض سعير النجد من أدوم)

فضلاً عن رواية التكوين هذه، يعطي سِفر يشوع الاسم نفسه في إطار وصف تفصيلي دقيق يمكن اعتباره تطويراً لهذا التحديد (١٥ : ٧ ٢٨):

- م - رءش - ها - هر - ءلمعين - مي - نفتوح - ويصء - ءل - عري - هر - عفرون - وتءر - ها - جبول - بعله - هيء - قريت - يعريم - ونص - ب - ها - جبول - م - بعله - يمه - ءل - هر - سعير - وعبر - ءل - كتف.

من طرف السرو، معين ومياه نفتوح، ويخرج إلى منازل السرو: عفرون. وتأر والقابل: بعله وهي قرية يعريم. والناصية في القابل: من بعله غرباً إلى جبل سعير، مقبلاً إلى كتاف.

هذه النصوص، وسواها من إشارات هنا وهناك، تحدد صفة الجبل سعير قرب سلسلة من المواضع التي لا وجود لها في فلسطين. (ولا في بلاد عسير بالطبع وبحيث يصبح ممكناً تخيّل حدوث تحوّل فونوطيقي مألوف في اللغة العبرية يقلب الاسم من عسير إلى سعير، أو يحوّل المكان من جبل إلى قرية صغيرة في الضفة الغربية أمراً مفترضاً، بفعل قوة هذا الوجود). فأين يمكن لنا أن نجد مثل هذا الوصف؟ أول هذه المواضع التي توصلنا إلى جبل سعير، هو الموضع الذي تُسميه التوراة معين. لقد سبق لنا - في الكتب السابقة-تحديد معين هذه في منطقة الجوف اليمني. قال مالك بن حريم:

سنحمي الجوف مادامت معين بأسفلهِ مقابلة عرادا

صراع الراعي والفلاح:

تنازع الشقيقين (التوأم)

من المهم أن نلاحظ وجود مكان لا يُعرف في فلسطين ولا في بلاد عسير، ولكنه يُعرف جيداً في منطقة الجوف اليمني ويدعى عراد، تماماً

كما في الرسم العبري. كما أن اسم معين يتطابق في رسمه التوراتي مع الاسم الذي يعطيه الهمداني والشعر الجاهلي: معين. وكنا تحدثنا فيما سبق من أجزاء هذا الكتاب عن مملكة معين العظيمة في اليمن، والتي دخلت في حروب ومعاهدات مع سبأ. وإلى هذا كله؛ فإن الكثير من الحروف التي كتبت بها قبائل معين مماثلة للحروف العبرية. وبصدد النصّ الآنف يجب ملاحظة، أن المترجمين دمجوا اسمي مياه نفتوح- نفتح ومعين في تركيب جديد وغريب هو: معين مياه نفتوح. هذا الدمج ناجم عن سوء فهم فظيع لتراكيب النص العبري الذي تختصر فيه حروف العطف عادة أو تحذف نهائياً. وكنا أشرنا إلى أن نصوص التوراة، كما هو الحال مع النقوش التي تركتها القبائل، لا تعرف الفواصل. ولذلك؛ فإن الجملة في العبرية معين- مي- نفتوح يجب أن تُرسم في صورة (معين ومياه نفتوح) بما يدعم إشارة سارد النص الأصلية إلى وجود موضعين لا موضع واحد. إليكم ما يقوله الهمداني في وصف منطقة الجوف اليمني، حيث الأودية والجبال والبلدات الواردة في النص العبري مثل وادي كتاف ويعريم-عرم ومياه نفتح - الفتح (النون في أول الاسم أداة تعريف منقرضة في اللهجة اليمنية) وأخيراً معين. ولنبدأ بوادي كتاف قبل أن نحدد موضع جبل سعير (صفة: ١٦٠-١٦٢):

والوادي الثالث يظهر في زاويته التي ما بين شماله ومغربه وفروعه من- وادي-كتاف (..) وعيان والعبله والوادي الرابع وفروعه من بلد يام ويأتي قابل نهم الشمالي بأودية لطاف ثم وادي نجران.

لنلاحظ أن النص العبري يتحدث عن وادٍ يسمى كتاف، بينما يتحدث نص الهمداني عن وادٍ يسمى أيضاً وادي كتاف. ليس هذا الأمر ناجماً عن

مصادفة؛ بل عن توصيف لمكان واحد بعينه عرفه يشوع النبي اليمني (في النقوش اليمنية شوع ومن هذا الاسم جاء اسم يسوع)[١] مثلما عرفه الهمداني. ومن الواضح كذلك أن هذا الوادي يتصل بمكان آخر ورد في النصين، ويدعى عند الهمداني وفي التوراة (بلد) يام. يعني كل هذا أن سعير ليست مكاناً وهمياً ما دام اسمه يسجل إلى جوار أماكن حقيقية؟ وهل يمكن لاسم يسجل على هذا النحو من الوضوح أن يكون نتاج قلب للحروف (من عسير إلى سعير) كما افترض د. كمال صليبي؟ يضيف الهمداني صفة: ١٦٤ في وصف مجرى وادي كتاف ما يلي:

ولقيها بالفقارة سيل وادي كتاف يصب بأسفل الحربا من وادي نحرد ويمدها سيل قاضي (دينه) ويتقدم في شوكان من أعلى وادي نجران.

يتضح من هذا التوصيف أن مياه وادي كتاف تسيل في الجوف باتجاه نجران، حيث تلتقي سلسلة من المياه هناك ومنها مياه قاضي- قاضي دينه كما تُسمى اليوم- انظر ما كتبناه عن عين قاضي في مادة قدس-. أما مياه الفُتح-مياه نفتح فهي من مياه بلحارث التي تشكلها أول الأودية الجارية في نجران. وهنا تحديد الهمداني لها (صفة: ٢٢٨):

وأول الأودية بين نجران والجوف فيه من مياه بلحارث: فتح عد (أي مياه غزيرة)[٢].

---

(١) صيغة الاسم يسوع لا مثيل لها إلا في اللهجة اليمنية القديمة التي تزيد الياء في أول الاسم: يعرب في عرب، يحضب في حضب يكرب في كرب، يعرم في عرم. ولذلك فإن اسم يشوع التوراتي هو الاسم ذاته يسوع.

(٢) في العبرية تعني كلمة (عد) إذا ما وردت ضمن تركيب الاسم: مثل: عد-لام. عر- عد: مياه غزيرة. وفي اللهجة اليمنية المعنى نفسه. قارن بين فتح - عد =

يعني هذا أن وادي كتاف-كتف ومسيل مياه نفتح- فتح هما في مكان واحد، تماماً كما في النص التوراتي. وإذا ما سار المرء من طرف السراة باتجاه بلد همدان مُتتبعاً وصف التوراة، فسوف يُصادف سائر المواضع المذكورة في النص. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ٢١٧-٢١٨):

> **أما بلد همدان فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة من نجد والسراة فأول شق: بئر العرم من شرقي الرحبة[1] ويسكن هذه المواضع بلحارث من همدان (..) ثم الجوف الأعلى (..) فعيان (..) وكتاف أودية تصب إلى الغائط ومياه بلد شاكر تنصب إلى نجران .**

ها هنا يعرم-العرم ووادي كتاف-كتف، ومياه نفتح-مياه فتح في المكان نفسه. وهاكم اسم الموضع الذي تسميه التوراة معين. يقول الهمداني في وصف معين في الجوف اليمني ما يلي (صفة: ٢٨٠- ٢٨٢):

> **وإذا ذكرنا معين فإننا نذكر ما بالجوف من الآثار والعمور ونذكر من أوطان الجوف (...) معين (..) وكتاف يسيل إلى العقيق.**

فهل ثمة مصادفة وراء هذا التواتر في الأسماء ذاتها وفي الأماكن ذاتها؟ استناداً إلى هذا التوصيف سنرى أن جبل سعير ليس مقلوب عسير كما افترض صليبي؛ بل هو ذاته سعير القرآن الكريم والشعر الجاهلي والمرويات العربية التاريخية. وهذا ما سوف نبرهن عليه. قال جعفر بن أبي خلّاس الكلابي (ياقوت: ٣: ٢٥١):

= و(مياه نفتح) وكما قلنا فإن النون في آخر الأسماء في العبرية واليمنية هي أداة تعريف منقرضة (الفتح).

(١) انظر ما كتبناه عن الرحبة شرقي جبل سلمى في (قصة حب في أورشليم).

نَفَرتْ قلوصيَ من عتائر صُرّعَتْ   حول السعير يزوره ابنا يَقْدُمِ[1]

وجموع يَذْكُرَ مُهطعين جنابةً   ما إنْ يَجيزُ إليهم يتكلمِ

وقال رشيد بن رَميض العنزي (الأصنام لابن الكلبي- مادة سعير) واصفاً جبل سعير كموضع عربي من مواضع العبادة الوثنية تماماً كما في نصوص التوراة:

حَلفتُ بمائراتٍ حولَ عَوصٍ   وأنصابٍ تركنَ لدى السعيرِ

أجوبُ الدهرَ أرضاً شطرَ عمرو   ولا يُلقى بساحتها بعيري

مقاربات بين
النص التوراتي والشعر الجاهلي

التوراة: (النص العبري)	ب- هر- عيصو- سعير
الترجمة:	في السرو، العيص وسعير
الشعر الجاهلي:	عوص والسعير
التوراة:	سعير وعيصو: مكان وثني (مذبح)
الشعر الجاهلي:	سعير والعيص: مكان وثني (مذبح)

هاتان القصيدتان الرائعتان من الشعر الجاهلي، تعرضان على المُتلقي معرفة مباشرة بالمكان مُستمدة من فهم عميق ومباشر، للممارسات

(١) لاحظ كيف أن العرب القدماء كانوا يستخدمون الياء اللاصقة في أول الأسماء مثل يقدم في قدم ويذكر في ذكر (وفي التوراة قدمه. أما اسم زكر- ومنه جاء الاسم زكريه- زكريا فهو ينتسب برأينا إلى الجماعة القبلية اليمنية المعروفة باسم يذكر) (ذكر). وتحويل الذال إلى زاي لهجة إرمية- يمنية قديمة لا تزال بقاياها في لهجات أهل الشام: يزكر في يذكر، وزكر في ذكر.

الطقوسية والدينية الوثنية قبل ظهور الإسلام بوقت طويل؛ وهو كما يُلاحظ مكان عبادة لا وجود له لا في فلسطين ولا في أي بقعة أخرى خارج جغرافية اليمن القديم. ها هنا جموع القبائل اليمنية من أبناء يَقدُم- قادم ويذكُر- ذكر (زكريه) وهي تطوف حول الأنصاب وقد تناثرت من حولها الأضحيات المُقدمة للإله الوثني سعير. إن فلسطين التاريخية لا تعرف مكان عبادة بهذا الاسم؛ هذا إذا سلمنا جدلاً بصحة فرضيات القراءة الاستشراقية، كما أن التوراة ذاتها تشير إلى سعير كمكان عبادة كانت القبائل والجماعات تقصده لتقديم الأضحيات. وسوف نرى من إعادة تركيب النص التوراتي دون تلاعب، أن يعقوب " إسرائيل " قصدَ جبل سعير من أجل إبرام صلح مع أخيه عيصو، في الجبل المعروف حتى اليوم باسم جبل عيص؛ ولهذا الغرض ساق بنفسه الجِمال لتقديمها على جري عادة القبائل اليمنية الوثنية كتقدمة للإله سعير. إن أحداً لا يمكنه تصديق الأساطير الجديدة التي ينشرها التوراتيون، والقائلة إن سعير القرية الصغيرة في الضفة الغربية، والتي ظهرت إلى الوجود حديثاً هي ذاتها سعير التوراة. ومَنْ ذا بوسعه تبرير سر اختفاء الجبل؟ وبالطبع لا يحسبن أحد مهما كان جاهلاً بالجغرافية والأنساب العربية، أن قبائل العرب يمكن أن تقطع الصحراء وتتجه نحو فلسطين لتقديم أضحياتها هناك، بينما كانت جزيرة العرب وأرض اليمن تعج منذ القدم بأماكن العبادة الوثنية وبالآلهة؟

تشير نصوص التوراة إلى أن سعير كان من منازل عيصو-العيص الذي أقام قرب هذا الجبل (وعند الهمداني جبل عيص). كما تشير إلى أن عيصو تكنى بـ" أدوم " أي إن أدوم لقبه الذي عُرف به ويعني في العبرية: الأحمر (قارن مع حمير بمعنى أحمر). ولذلك تقول نصوص التوراة (عيصو أقام في سعير وعيصو هو أدوم- أدُم) وأن سلالته عرفت نسبة إلى المكان نفسه الأدوميون. كما أن بعض نصوص التوراة تقول

بوضوح: سعير جبل في بقعة لبنان؟ وهذا بُعد إضافي للمسألة يثير الشُبهة حول المُطابقات التعسفية التي قام بها المخِيال الأوروبي، لأن من المستحيل تخيل وجود جبل هو في الآن ذاته في الضفة الغربية ولبنان؟ فضلاً عن أن لبنان ليس بقعة من بقاع الأدوميين؟

والآن: انطلاقاً من الوصف التوراتي وتحديداته للموضع والأماكن المجاورة له، أو تلك التي تقع في نطاقه؛ فإننا ملزمون بتقبل الصورة التالية: سعير التوراة جبل من الجبال التي كانت من مواضع العبادة الوثننية في بقعة لبنان. ولقد رأينا في (قصة حب في أورشليم - مصدر مذكور) أن لبنان موضع مؤلف، من جبلين يُعرف كلٌ منهما باسم لبن (انظر الخريطة) وهما على مقربة من وادي الرمة. وهذا الفضاء الجغرافي الشاسع الذي يصفه الجغرافيون العرب بأنه (طويل عريض-انظر وصف العرب لوادي الرمة في معجم البكري مادة رمة) يضم سلسلة من المواضع التي كانت مقدسة عند القبائل البدائية، ومنها جبل سلمى الإلهة العربية الخاصة بالسلامة والأمان و جبل أبان وفَلس وسلام. وهذا ما تؤكده أشعار العرب التي صورت سائر الأماكن كمواضع عبادة. وفي هذا الفضاء الجغرافي الرحب عرف العرب القدماء جبلاً يُدعى أدوم-أدُم على مقربة من وادي الجليل في سلسلة جبال نجد. ولأجل التمييز بين جبل أدُم هذا وجبل أدُم آخر في مخلاف السحول اليمني، ومنعاً للخلط بينهما فسوف نورد الأدلة الكافية التي تدعم دلالات النص التوراتي ومقاصده. تشير التوراة إلى أن عيصو عرف بكنيته أدُم أي الأحمر (حمير) وعند العرب: الأدم والأديم هو الأحمر، ومنه كلمة الدم في العربية والعبرية. وعند الهمداني يُعرف بطن من خولان قُضاعة بالأدوميين أوالأديميين، وهؤلاء يقيمون في مخلاف صَعْدَة ومنهم جماعة تُعرف بـ(بني يعنق وهم في التوراة عنق). وهنا نص الهمداني الذي يميز بين جبلي أدُم (صفة: ٢٩٤-٢٩٥):

وأُدُم بديار مُزينة، وأُدُم بالسحول جبلان. ذو الجليل من مواضع الوحش وذو الجليل على محجة عدن.

ها هنا جبلان يحملان الاسم نفسه أُدُم؛ أحدهما في مخلاف السحول أو ما يعرف اليوم بمحافظة صَعْدَة، وهو ما يعنينا على وجه الدقة، والآخر في نجد وهو ما لا يعنينا هنا. فضلاً عن ذلك كله يشير النص التوراتي إلى بطون من قبيلة عيصو- عيص كانت تُقيم في هذا الجبل، فيما أقامت بطون أخرى عند سعير. يقول ابن الكلبي (الأصنام: ٤٤): الأدوم بطن من خولان. بينما يقول الهمداني (صفة: ٢٢٥): وبني يعنق وهم الأديم من خولان. وخولان كما نعلم حميرية يمنية. هذا التوافق بين المصادر الكلاسيكية العربية والتوراة على وجود جماعة قديمة يمنية الأصل من قضاعة عرفت، باسم: الأدُميين- الأدوميين الحميريين في صَعْدَة له أكثر من دلالة، فهؤلاء هم الذين نقلوا في هجراتهم إلى شمال الجزيرة العربية اسم جبلهم أدُم وأعطوه للموطن الجديد. ونحن نعلم أن العرب احتارت في نسب قضاعة؛ فهي شمالية وجنوبية قحطانية وعدنانية. بهذا المعنى؛ فإن اسم جبل أُدُم في نجد أحدث نسبياً من الاسم القديم الأصلي في مخلاف السحول. بقي أن نشير إلى أن اليمنيين لا يعرفون إلا ضبطاً واحداً لاسم أدُم هذا في صورة أدِم- بالكسر- وهذا ما يشجعنا على قبوله كطريقة نطق قديمة للاسم، تتناسب مع نطق اسم البطن القبائلي الأديم، كما عند الهمداني وليس الأدوم حسب قول ابن الكلبي والتوراة. ومن المرجح أن يكون مرد هذا الاختلاف في شكل نطق الاسم تباين لهجات القبائل وتنوعها، بما يفسر لنا ظاهرة قلب الواو ياء في كلام العرب. أدوم-أديم، عوص، عيص. يقول ابن الكلبي في تأويله لبيت شعرجعفر ابن خلاس الكلبي (الأصنام: ٤١):

وكان لعنزة صنم يقال له: سُعَير. قال أبوالمنذر: يَقْدم ويَذكر ابنا عنزة. فرأى الشاعر بني هؤلاء يطوفون حول السُّعير.

إذا صح ضبط ابن الكلبي للاسم بهذه الصورة السُّعَير استناداً إلى الشعر الجاهلي؛ وهذا أمر نشك فيه لأسباب عدة سنوضحها تالياً، فإن جبل سعير التوراتي كان بالفعل، مركزاً من مراكز العبادة الوثنية.

والمروية التوراتية، وهي من القصص الشائع بين البدو الرحل، تدور في نطاق التعريف بهذه العبادة السابقة على التوحيد الإبراهيمي؛ وهذا أمر هام للغاية، لأن القرآن الكريم نبه إلى عبادة سعير التي كانت منتشرة عند ظهور الإسلام في بطون من العرب الوثنيين. ويبدو من النص القرآني أن الإسلام واجه بقايا هذه العبادة وعمل بانتظام على زحزحتها؛ كما يبدو أن الآية الخاصة بالسعير لم تلق عناية كافية من الفقهاء والمفسرين الذين اضطربوا في تأويلاتهم بسبب اندثار العبادة وزوالها، وقاموا بإعطاء تأويلات غير صحيحة لها. قال تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/ ١١].

انصرف خيال الفقهاء إلى أن المقصود من آية السعير (أصحاب الجحيم) بينما أراد النص القرآني على غرار التوراة الاشارة إلى نمط من العبادات الوثنية القديمة أي: أصحاب الصنم المسمى سعير، وهو مكان في الجبل تماماً كما في التوراة. برأي محقق كتاب الأصنام (أحمد باشا زكي) فإن الاسم يجب أن يضبط في صورة سُعَير بالتصغير. وهذا مشكوك فيه استناداً إلى الآية القرانية التي تضبطه في صورة سعير، بوزن أمير وليس سُعَير بالتصغير، علماً أن الضبط القرآني يتوافق مع ضبط التوراة. لقد سبق للمستشرق فلهاوزن welhausen أن ضبطه في صورة سَعير، مُعتمداً على ضبط ابن منظور وصاحب الصحاح. وهذا ضبط مقبول يتوافق

والشعر الجاهلي. ليس ثمة ما يؤيد ضبط الاسم بالتصغير والتشديد (سُعيّر) إلا في حالة واحدة: اندثار العبادة وتقلص مساحة الطقوس الوثنية مع الوقت وظهور أشكال من التحقير البدوي المألوف للآلهة الوثنية، بحيث نُطِقَ في صورة سُعّير للدلالة على نفور الجماعات القبائلية منه كما هو الحال -مثلاً - مع بني حنيفة؛ الذين كانوا إذا غضبوا من آلهتهم المصنوعة من التمر قاموا بإلتهامها.

ولذلك لا بد من رؤية مسألة عبادة سعير من منظور عبادات القبائل البدوية البائدة. وإذا كان الشعر الجاهلي والقرآن أشارا إلى سعير وعُبّاده من قبائل الأدُميين سكان جبل أدُم، حسب ضبط الهمداني وهم من خولان قضاعة في نجد اليمن؛ فإن التوراة أشارت، من قبل، إلى هذا الأمر بوضوح شديد حين ربطت بين جبل أدم وبين سعير في نص التكوين ٣١ ؛ ٤٩؛ ٣٢؛ ١، الذي يقول ما يلي:

> ويشلح-يعقب-ملء كيم- ل- فنيو- ءل- عيصو-ءحيو-ءرص-سعير - سده- ء دم
> (وأرسل يعقوب رُسلاً تسبقه إلى عيصو أخيه في أرض سعير من نجد أدم)

إن جملة (ءرص-سعير-سده-ءدم) تترجم تقليدياً إلى أرض سعير في برية أدوم؛ بينما يجب ترجمتها إلى أرض سعير في نجد أدم. وكل مرتفع هو تجد. إن سده العبرية لا تعني برية، قط؛ بل تعني (نجد) بمعنى مرتفع جبلي. وحتى اليوم تقول القبائل العربية - وبالعامية العراقية- لكل مرتفع ترابي (سده) كما أن كلمة سد العربية (مثل سد مأرب) تتضمن الدلالة نفسها عن الارتفاع لحجز المياه. علماً أن الكلمة التي تؤدي معنى برية هي "مدبر" وفي العربية فإن أدبر تتضمن دلالة الهروب أو سار في الفلاة أو

مضى في البرية. يتوافق هذا الضبط مع حقيقة أن سعير التوراتي والعربي مكان عبادة في مرتفع جبلي (ءرص- سعير - سده) أي إنه يطل من النجد على جبل أدم السحول. هذا التوافق في الاسم والوصف الجغرافي لا يمكن اعتباره توافقاً عرضياً. لقد ذهب الرُسل إلى أرض سعير في القصة التوراتية، ثم ساق يعقوب بنفسه الماشية إلى المعبد الوثني لينحرها هناك، على جري عادة القبائل لتحقيق المصالحة مع أخيه عيصو. هذا المشهد الرائع، الذي تصوّر التوراة فيه لقاء الشقيقين المُتنازعين يُعيدُ تذكيرنا ببيت شعر جعفر الكلابي:

نَفرت قُلوصيَ من عتائر صُرّعَتْ   حولَ السعيرِ يَزوره ابنا يَقدُمِ

كان يعقوب هارباً من وجه أخيه ولكن طامحاً في الآن ذاته إلى مُصالحته وغفرانه؛ ولذلك اختار أن يسوق الماشية بنفسه إلى المعبود الوثني سعير لينحرها هناك. هذه المروية القبائلية البدوية في الجوهر، تكشف بجلاء أن مكونات النص التوراتي الأصلية، هي مكونات ثقافية عربية- يمنية قديمة لا صلة لها باليهودية التي ظهرت في اليمن تالياً، وأن هذه الأسطورة بشحناتها وإرسالاتها الرمزية تروي بشروط إنشاء الأسطورة وليس بشروط الرواية التاريخية، الفكرة ذاتها التي يرويها بيت الشعر الجاهلي عن طقوس العبادة الزائلة السابقة على التوحيد. ومن غير شك؛ فإن الجزء الخاص بسعير كمكان جبلي، يظهر باعتباره مادة مُنفصلة لا علاقة لها بنص سِفر التكوين؛ بل تمّ دمجها في البناء السردي في سياق الإبلاغ عن وجود مكان قديم للعبادة يُدعى سعير (تماماً كما سيفعل النصّ القرآني في سياق إشارته إلى وجود هذه العبادة الزائلة). وهذه هي الوظيفة الحقيقية لخبر سعير في سِفر التكوين. إذا ما قمنا بزحزحة هذا الجانب من الأسطورة وإرسالاتها الرمزية، قصدَ إعادة تركيب الدلالات الجديدة للنص؛ فإننا سوف نحصل على الفكرة التالية: تروي التوراة على غرار

ما تفعل المرويات العربية القديمة، قصة جماعتين مُتصارعتين ترمز إحداهما للراعي وهو يعقوب، والأخرى للفلاح وهو العيص-عيصو (الذي تسميه التوراة في سفر التكوين رجل الأرض[١] أي الفلاح) وأن هاتين الجماعتين اختارتا أخيراً التصالح على القتال، فقدمتا نذوراً لمعبودهما الناري الغضوب (البركاني) سعير[٢]. ها هنا الإله سعير وهؤلاء هم أصحاب السعير الذين ضرب القرآن بهم المثل في الوثنية؛ فهم عُباد إله ناري، بركاني جحيمي الطابع غضوب وعديم الرحمة. وبالطبع فإن فلسطين لا تعرف معبوداً من هذا النوع.

---

(١) وهذا ما يحيلنا إلى اسم امرئ (رجل) ومنها مرء.

(٢) قبل ظهور يهوه وتبلور عبادته كانت هناك سلسلة من الآلهة انتصر فيها الإله الغضوب البركاني المرتبط بالنار. وكنا رأينا من قصص التوراة أن بعض ملوك إسرائيل عادوا إلى هذه العبادة في جبل هنوم مرتدين على الدين التوحيدي. وعلى الأرجح أخذ الفرس هذه العبادة عندما كانوا يفرضون نفوذهم على القبائل العربية في اليمن، والتي تواصلت واستمرت بقوة خلال الحروب اليونانية- الفارسية ٣٠٠ ق. م، وبحيث تمّ تطويرها تالياً لتصبح ديانة فارسية.

فوضى الجغرافية
سعير وتوابعها من وادي أشكول إلى بحر القصب

١

تكمن أهمية المواضع التالية(حوريب-حُريب، ءشكول-أشكول، علمون-علمن) في أنها ترتبطُ بأحداث صُوِّرت وعلى نحو شديد الخيالية، على أنها في قلب حادث الخروج الإسرائيلي من مصر ثم بسنوات التيه في الصحراء أيضاً. إن حوريب-حُريب تتلازم في أسفار التوراة مع قصة الخروج هذه، ومع ظهور تعاليم موسى. (سِفر تثنية الاشتراع -مثلاً -: ١ :)

يهوه- ءلوهيم -دبر-ءلينو- ب- حورب - لءمر- رب-لكم- شبت--ب-هر-هزه-فنو-معو-لكم- ويئو- هر- ها- ءموري- وءل- كل- شبنيو- ب-عربه- ب- هر- وب- سفله - وب- جنب- وب- حوف- ها- يم- ءرص - ها- كنعني- وها- لبنوت - عد- ها- نهر - ها-جدل- نهر- فرت.
(الرَّبُ إلهنا تكلم في حُرِيب، فقال لنا: كفاكم الإقامة في هذه السراة، تحوّلوا وادخلوا سرو الأموريين، وكل ما في جواره: عربه، والسفال، وفي جنب، وفي ساحل البحر عند أرض الكنعانيين، ولبنان عند النهر، ومسيل نهر فراة)

مثل هذا الوصف وبالأسماء التي يعرضها النص على المتلقين، يستحيل مُطابقته مع وصف فلسطين القديمة أو مع سيناء مصر؛ وبالطبع

فمن غير المنطقي أن يطلب موسى من أتباعه الاستيلاء على الفرات العراقي. هذه الجغرافيات المتناقضة (التي تجمع العراق ومصر وفلسطين وبلاد الشام) يستحيل التوفيق فيما بينها مهما سعينا إلى التوفيق والمماثلة. ويبدو أن هذه الحقيقة كانت ماثلة أمام أبصار محققي ومترجمي التوراة، عندما استبدلوا بعض الأسماء بأسماء من وضعهم وتلفيقهم، لكي يكون بالإمكان تصوير الحدث وحصره داخل فلسطين. مثلاً: جرى تحريف أسماء المواضع التالية: عربه استبدلت بكلمة العربه بإضافة الف ولام التعريف غير الموجود في بنية الاسم، وذلك في إطار الإيحاء بأن المقصود بها وادي العربه الأردني. والصحيح هو عربه- من دون أداة تعريف- كما في العبرية والمقصود بها بلاد العرب القديمة (وكنا أشرنا مراراً إلى ضرورة التمييز بين كلمتي عربه بمعنى بلاد العرب أو البادية، وبين العربه بمعنى وادي العرب وهي من أودية سراة اليمن-. كما استبدلت جملة ب- سفل - السفل بجملة (في بالسهل) بينما استبدلت كلمة جنب بكلمة (النقب) وجملة (جدول- ها-نهر-ءفرة) بجملة (بالنهر الكبير نهر الفرات). ومع ذلك، وبرغم كل هذا التحريف والتلاعب في الصيغ الأصلية للأسماء، ظل النص عسيراً على التلقي والفهم بصورة سلسلة ومنطقية من منظور الحقيقة الجغرافية. فما الذي يجمع النهر الكبير نهر الفرات العراقي، بمنطقة النقب الصحراوية في فلسطين؟ وكيف يمكن ضمّهما معاً إلى وادي العربه الأردني؟ بل كيف يطلب إنسان من أتباعه أن يجتازوا النقب الفلسطيني ونهر الفرات العراقي ووادي العربة الأردني في وقتٍ واحد؟ وإذا ما كان ذلك ممكناً وجمعنا الفرات العراقي بوادي العربة الأردني، فكيف يمكن لنا ضمّهما معاً إلى لبنان في جغرافية واحدة، وفي إطار قصة تدور فصولها في سيناء المصرية؟هذه الفوضى الجغرافية موازية ومكمّلة للفوضى التاريخية التي خلقتها القراءة الاستشراقية؟ ولكن؛ إذا ما مضينا مع النص

في توصيفه للمواضع التي سلكها بنو إسرائيل بناء على أمر الرب، فسوف نجد أنهم ساروا بالفعل من لبنان (آخر لا علاقة له بلبنان البلد العربي) إلى (وادي ء شكول آخر) لا وجود له في فلسطين؟

(فتحولوا وصعدوا السرو وجاءوا وادي ء شكول)
- ١ : ١٢ : ٢٨ -

حسب ترجمتنا توصف (ءشكول) هنا بأنها من أودية أطراف السرو. وبذا تُصبح الرواية خيالية تماماً، إذا ما افترضنا صلتها بفلسطين. ولكن، إذاما مضينا قُدماً خلف خُطا السائرين وصدقنا التأويل الأوروبي الاستشراقي للرواية؛ فإن حوريب التي انطلقوا منها هي في سيناء المصرية؟وهذا أمر يستحيل تصديقه لأن الجغرافية، تصبح آنئذٍ، نوعاً من عبث العابثين فهي كمن يقول لك: إنه سار من برلين عبر إفريقية نحو القطب الشمالي. ومنْ ذا بوسعه تصديق هذه الجغرافية التي تُضغطُ فيها وتُحشر بين جنباتها، أمم وشعوب وجماعات ووديان وجبال وصحارى تمتد من أرض كنعان مروراً بلبنان وصولاً إلى سيناء في مصر؟ علماً أن النص يصف هجرة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، أي إن مصر غدت مجرد ذكرى بعد أن وصلوا إلى "العالم الجديد" أرض كنعان. بيد أن هذه الجغرافية تصبح معقولة وصحيحة تماماً إذا ما وضعت في الحيز الذي تنتمي إليه؛ وآنئذٍ، يمكن طرح المِخيالية جانباً وتحرير النص من عبثها من أجل استرداد الصورة الواقعية.

بكلام آخر: يصبح ممكناً تحرير الجغرافية من الحجب والتكميم والمعرفة الاستشراقية. يصف سِفر تثنية الاشتراع البرية التي قطعتها الجماعة المُرتحلة من حُريب بأنها: مُخيفة، وهي على طريق سرو العموريين ووادي أشكول ولبنان فالبادية. وبطبيعة الحال؛ فإن نهر الفرات

العراقي لا يمر في مكان يدعى حريب، وهو لا يتصل بلبنان ولا يصب في وادي أشكول، كما لا توجد في الطريق إليه برية مخيفة. كما أن بلاد الشام القديمة وفلسطين ومصر لا تعرف مثل هذا التوصيف.

ها هنا وصف الهمداني للبرية المخيفة التي اجتازها المرتحلون من حُرِيب (صفة: ١٥):

جُرْز اليمن الشرقي (الجُرْز: الأرض التي لا نبات فيها) وهي بمنزلة تهامة في الغربي أول هذا الحيز مما يُصالي عدن: تيه أبْيَن، وبه إرم ذات العماد - على ما يُقال- ثم أرض دثينة، ويسقيها جبال السرو، وحُريب، ويسقيه قرن من شرقيها.

ينتسب هذا التوصيف إلى جغرافية معلومة وحقيقية، يظهر فيها وادي حريب-حوريب على طريق سرو الأموريين باتجاه تيه بني إسرائيل وقرب وادي قرن. وحريب هذا، موضع جبلي مؤلف من واديين عظيمين تسكنهما قبائل من حمير، وهو كما في وصف التوراة تماماً: جبل حُريب وليس حوريب كما في النص العربي من التوراة. وبحسب وصف الهمداني يُعد حُريب من أفضل أودية اليمن وأكثرها خصوبة. وهما واديان يتصلان من طرف السرو ببرية مُخيفة بالفعل، دارت حولها مرويات القبائل العربية وأساطيرها هي برية إرم (انظر كتابنا: إرم ذات العماد، بيروت: ١٩٩٩). ولعل المروية التوراتية في سِفر تثنية الاشتراع عن هجرة القبيلة الإسرائيلية من موطنها الصغير بين الواديين، نحو أراضٍ خصبة جديدة تندرج في الإطار ذاته لهجرات سائر الجماعات البدوية، وهي هجرات تقليدية مُحركها الفعال البحث عن أماكن استقرار جديدة تتناسب مع تشعب بطونها، وتعاظم الحاجة إلى مصادر وشروط حياة أكثر ديناميكية. بهذا المعنى يمكن للمرء أن يجد في أسلوب الهجرة نمطاً تقليدياً ومألوفاً من

الحراك الجماعي. ويطبيعة الحال؛ فإن البرية المخيفة التي تجتازها الجماعة المُهاجرة هي تمثيل أدبي لفكرة العبور من العالم اللّاعضوي إلى العالم العضوي ومن الجدب إلى الخصب. إن مصر لا تعرف مثل هذا الوصف ومثل هذه الأسماء؛ فليس هناك جبل حوريب، ولا وادي أشكول، ولا وادي العرب؛ بينما نجد في خريطة تهامة اليمن الشرقية جبلاً بالاسم نفسه، وهو يُفضي إلى برية مخيفة أعتبرها القدماء تيه بني إسرائيل. وفي هذا المكان عاشت قبائل بني عامر (العموريون) على الساحل وفي السرو في جبلهم المعروف الجبل الأسود[١]. هنا وصف الهمداني للجبل الأسود جبل بني عامر (قارن مع العموريين وجبلهم، صفة: ١٨٩):

> الجبل الأسود مُنقطع دثينة وهو للعدويين والخُمسيِّن من حمير(..) القويع لبني عامر الشريرة لبني عامر، المُحدث قريب من البحر لبني عامر. من ساحل عرقة لبني عامر ثم رجع إلى الكور يُريد الطريق اليمنى إلى أبْيَن.

في هذا النص الدقيق لدينا المواضع التالية التي تذكرها نصوص التوراة: تقوع - قوع-حدشة -حدثه. وهي مواضع توصف بأنها جبلية أو على الساحل. ومن الواضح أن جملة ءر ص-كنعني في سياق وصف الهجرة من وادي حُريب تشير إلى ساحل كنانة- كنأنة وليس إلى أي مكان آخر (والعين تنقلب إلى همزة في لهجات القبائل كما هو معروف جيداً

(١) ولنتذكر هنا ان يهود الخزر الذين وصلوا أوربة بعد انهيار دولة الخزر في القرن الحادي عشر أطلقوا اسم الجبل الأسود على الدويلة الجديدة، التي سوف تكون بعد الحرب العالمية الثانية جزءاً من يوغسلافية. وحتى اليوم لا تزال هذه الدويلة تُعرف باسم الجبل الأسود على الحدود مع صربية.

عند اللغويين). ولكي يكون واضحاً معنى استخدام سارد النص لجملة: ب- جنب سنعرض هنا وصف الهمداني للطريق ذاتها الموصوفة في نص السِّفر (صفة: ٢٢٧):

والجبل الأسود هو معظم بلد جنب، وهو ما بين منقطع سراة خولان (..) ومن بلد جنب واديان يصبان من الجبل الأسود إلى نجد شرقاً وله أودية تهامة منها جوف (الخزميين) - ثم- بلد زبيد.

يعني هذا أن جنب التي قصدها النص حيث الوديان والجبال، ليست ولا بأي شكلٍ من الأشكال هي ذاتها النقب الفلسطينية، بل هي كما في النص العبري سراة جنب التي تتصل بساحل البحر (وعند الهمداني هي تتصل بساحل من زبيد). وهذا الطريق الساحلي- كما رأينا مما سبق من الصفحات - يؤدي إلى ساحل كنانة (ء رص كنعني). ولذلك؛ فإن الجماعة المهاجرة من حريب عبر تيه أبْيَن اتجهت إلى الساحل اليمني الطويل. فهل نجدُ في أبْيَن هذه-كما يقول النص العبري- موضعاً يدعى السفال يؤدي إلى الساحل؟ إليكم ما يكتبه الهمداني (صفة: ١٩٠-١٩١):

ثم بعد ذلك أبْيَنْ قرية كبيرة لها أودية يسكنها قوم يُقال لهم الربعيون من كهلان، وقرى أبْيَنْ كثيرة بين بني عامر وبني مجيد فإلى السفال إلى البحر.

هذا التوصيف لخط الهجرة من جبل حريب عبر البرية باتجاه السفال (أي أسافل ومساقط المياه) التي تصب في البحر، وصعوداً في سراة جنب من زبيد، يجعل الاتجاه الافتراضي معقولاً ومقبولاً. وإذا ما سار المرء في ساحل كنانة الطويل؛ فإنه سوف يبلغ لا محالة جبل لبنان. إن جملة (نهر-ها- جدل- نهر- فراة) لا تعني (النهر الكبير نهر الفرات) إذ من غير

المنطقي تكرار كلمة نهر مرتين في حملة قصيرة. وفي الواقع؛ فإن كلمة نهر العبرية تعني أيضاً: مسيل الماء، ونحن نعلم أن المياه الجارية في الوديان تُدعى عند القبائل نهراً. ولذا فالمقصود هو (مسيل الماء الكبير لنهر فراة- بالتاء المربوطة) علماً أن التوراة تسمي هذا المكان باسم آخر: فراة هي بيت لحم، كما تقول: إنّ داوود هو إفراتي من بيت لحم- لخم.

تقع ءفراة-فراة اليمن وهي من مساكن اللخميين (لخم) في وادي الصيح(صيحان) الذي توصف حجارته السوداء البركانية بأنها حرّة. وحرة صيح هذه حسب وصف البكري من حرار اليمن فيها مسيل مياه يدعى (فراة: البكري: ٣: ١٢٢ ط: بيروت). والآن: هل هي محض مُصادفة أن المرء إذا ما عبر سراة اليمن واجتاز الوديان والجبال متجهاً إلى الساحل فالبادية- عربه، يمكن أن يصل إلى وادي ءشكول؟ هل تعرف مصر أو فلسطين أو لبنان وادياً بهذا الاسم؟ إليكم وصف الهمداني لوادي الشكول بعد الخروج من الشريط الساحلي باتجاه الصحراء (البادية: صفة: ٢٦٤):

ثم تخرج في صحراء حمة، بعد أن قطعت عماية اليسرى واليمنى عن يمينك، وقطعت فجوات - وهي - قُصيبات سود (....) وفي العماية مياه منها الشكول.

ها هنا مياه ءشكول-الشكول في البادية. وفي هذه الحالة وعند وصول الجماعة المهاجرة والمرتحلة من حُريب؛ فإنها تكون قد دخلت أرض الكنعانيين - الكنانيين بالفعل. وهؤلاء هم سكان وأسياد البادية العربية والساحل وجبل لبنان الذي تُقيم فيه القبائل البدوية العربية القديمة. إننا لا نعرف مثل هذه الأسماء في جغرافية فلسطين أو مصر أو لبنان، بينما نعثر عليها في وصف جزيرة العرب. وجبل لبنان هذا الذي قصدته

الجماعة المُرتحلة هما جبلان (تثنية لبن) على الطريق من بلاد هذيل، الممتدة من الطائف حتى الساحل اليمني (انظر الخريطة). قال مسلم بن مُعبّد (ياقوت: ٥: ١٣):

جِلادٌ مثل جَندل لِبْن فيها حُبور مثل ما خشف الحساءُ

يقول الأصمعي (ياقوت: ١: ١٣):

لبن الأعلى ولُبن الأسفل في بلاد هذيل، ويُقال لهما لُبنان

هذا هو جبل لبنان الذي اتجه إليه المرتحلون عبر الساحل والبادية من حُريب، في الحيز الجغرافي نفسه الموصوف في التوراة. ولكن؛ وفي نطاق هذه الجغرافية لا بد من العودة إلى الوراء قليلاً لتحليل الاسم (دور) الوارد في يشوع (٢١: ١٠: ٣٦). إن اسم دور الذي اندثر مع اندثار قبائله القديمة يحيلنا إلى اسم دور D0ros الفينيقي - الإغريقي مباشرة؛ ونحن نعلم أن دور هو الجد الأسطوري للدوريين الفرع الأبرز الذي تشكل منه الشعب اليوناني. ورد الاسم في التوراة في سياق الكلام على معارك بني إسرائيل ضد مملكة حصور ومدون، وهما حضُور ومأذن عند الهمداني؛ وذلك ما يعني أن للاسم صلة حقيقية بالمادة التي يتحدث عنها سفر تثنية الاشتراع، حيث يقول: إن دور هذه وصحراء حمة-حمة تفضبان إلى وادي ءشكول. فهل نجد مثل هذا الوصف عند الهمداني؟ إن الاسم (دور) في سفر تثنية الاشتراع مسبوق باسم حمة في جملة (حموت-دور). وهذه التسمية لافتة للانتباه لأنها تتوافق مع وصف وتحديد الهمداني؛ فهو يقول: إن (دور تقع على طريق صحراء حمة). أي أنها يمكن أن تُنسب إليها تمييزاً لها عن دور أخرى وعن حمة أخرى ومنعاً للخلط بينهما. ولأن (حموت ودور) هذه من منازل بني جرشن-جرش؛ فهذا يعني أنها هي

المقصودة في الصيغ التوراتية للاسم: جفوت- دور أوحموت- دور. ليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه التماثلات المدهشة في التوصيف الجغرافي وفي تحديد الموضع تحديداً دقيقاً وفي رسم الأسماء كذلك؛ هي تماثلات ناجمة عن مصادفة جغرافية أو تناظرات لغوية صرف. إن وجود صحراء حمة ووادي ءشكول و دور في المكان نفسه ليس أمراً عرضياً بكل تأكيد.

يتبقى - أخيراً - تحديد موضع علمون- علمن. إن سِفر يشوع (٢١: ١٠: ٣٦) يصف علمون هذه على أنها من منازل القهاتيين ها- قهتي في سلسلة جبال اليهودية؛ مثلها مثل لبنه -لُبنى و نعمه- نعامه أي في السرو ذاته. فهل نجد علمون قرب حصور ومدون؟ أم نجدها قرب حضُور ومأذن؟ هذا ما يقوله الهمداني (صفة: ١٥٧):

> **ويلقى هذه الأودية سيل مخلاف مأذن من حضُور المعلل وحقل سهمان وبيت نعامة وبيت رفح فعلمان.**

ها هنا علمون التوراتية عَلمْان قرب رفح اليمنية وإلى جوار بيت نعمه- بيت نعامة وقرب حضُور ومأذن، تماماً كما في وصف يشوع. يمهد هذا المدخل الذي تناولنا فيه ثلاثة أماكن أساسية، السبيل أمام إعادة قراءة سِفر الخروج قراءة جديدة تقطع مع القراءة الاستشراقية الزائفة.

أسطورة الخلاص والوصول إلى الماء
(سِفر الخروج الإسرائيلي في وصف الهمداني لجزيرة العرب)

٢

تزخرالأساطير الإغريقية بقصص وأحداث متشابكة ومتراكبة، محورها الرئيس عبور البحر والصراع ضد كائناته الشريرة، كما هو الحال مع أساطير الصراع ضد بو سيدون - صيدون. لكنها تعجّ كذلك بقصص وأحداث مماثلة في تشابكها؛ محورها الرئيس الخلاص على يد البطل (آخيل، عوليس، هرقل إلخ..) هذان المحوران يشكلان أيضاً في مرويات التوراة، وبالمقدار ذاته من القوة التصويرية، مادة خصبة مولّدة لأحداث وقصص وحكايات وأخبار شديدة التراكب والتعقيد. ولعل مروية الخروج الإسرائيلي من مصر وعبور الصحراء، ثم التيه فيها لأربعين عاماً -وهي مروية كبرى من المرويات القديمة في التوراة-واحدة من أكثر الأساطير إثارة للخيال، لأنها تتضمن مواد وعناصر هي مزيج من المحورين: ثمة بطل يقود الجماعة في الصحراء ويخلصها من خطر الفناء ويجتاز معها الأهوال وصولاً إلى الماء. وهذه أسطورة بدوية لا يمكن تخيُّل أحداثها إلا في الصحراء.

وبصرف النظر عمّا إذا كان سِفر الخروج في التوراة يُمثل روايةعن حادث تاريخي بطله موسى-مشه؛ وما إذا إذا كان الأمر يتعلق بتقاليد أدبية غرضها المباشر وصف عذاب وشقاء الجماعات المطرودة، أوالمهاجرة الباحثة عن أرض خصبة للاستقرار؛ فإن المواضع والأماكن التي يصفها

السِفر تشكل لغزاً مُحيراً بالنسبة إلى القراء. لقد تلاعبت القراءة الاستشراقية تلاعباً فظاً في تحديد وضبط أسماء الأماكن والمواضع، حتى بلغ الأمر حداً راحت معه المؤلفات والدراسات الكتابية (من الكتاب: أي العهد القديم) المسيحية -اليهودية، تكرس وتُنمي وتطور في أذهان الملايين من القراء، صورة جغرافية عجائبية يستحيل التعرف معها على المسرح التاريخي لحادث الخروج من مصر حتى في بُعده الأدبي. والمُثير للاهتمام أن المرْويات الإسلامية المتأخرة في كتب الفقهاء المسلمين، تعجّ بأنماط من الخطاب الديني والمثيولوجي، كان من شأن حضورها القوي على الدوام في المؤلفات التاريخية، أن يتفاقم الخلط المأسوي بين أسماء الأماكن والمواضع. بيد أن الخلط كان ناجماً مع ذلك عن أسباب أعمق بكثير مما نتخيل، من بينها اختفاء وضياع معظم الأسماء الواردة في التوراة وتلاشيها عن المسرح الجغرافي، وهو أمر شجع على نحو ما، الميول الرامية إلى التغاضي عن الدقة التي تتطلبها التأويلات الفقهية. ولأن منظورنا - في هذا الكتاب- (كما في: كتابنا إرم ذات العماد)[1] يستند إلى قراءة حدث الخروج الإسرائيلي من مصر، بوصفه خلاصة دمج متواتر بين مادتين أصيلتين في بُنية سردية واحدة أي: دمج التاريخ بالأسطورة؛ فإن إعادة بناء جغرافية هذا الحدث وتخليصها من البُعد المِخيالي، سوف يكون هو الهدف المباشر من هذه القراءة، وصولاً إلى تحرير صورة فلسطين من أسر التوراة نهائياً وفك الترابط بينهما؛ لأن التوراة شيء وفلسطين شيء آخر.

إن المادة العضوية المؤلفة للإطار التاريخي لحادث الخروج الإسرائيلي من مصر بوجه الإجمال، هي ذكريات القبائل والجماعات

(١) إرم ذات العماد، من مكة إلى أورشليم، البحث عن الجنة، بيروت، شركة رياض الريس٢٠٠٠.

البدوية القديمة من العرب العاربة، التي هاجمت مصر في عصور المجاعة الكبرى، حين قامت بدافع الجوع وانهيار شبكات الطعام مع موجات الجفاف المتدافعة، باحتلال دلتا مصر والاستيلاء على الحكم هناك، فيما يُعرف في الأدب التاريخي بحقبة الهكسوس نحو العام ١٧٢٠ ق. م (حكم الملوك الرعاة) وهو حدث تاريخي، لاجدال حوله، وقع طبقاً لروايات المؤرخين المصريين القدماء (مانيثون -مثلاً) والعرب، وذلك عندما حدث اجتياح عنيف لمصر قاده تحالف من قبائل بدوية جائعة بسبب الجفاف، مثل العماليق وثمود وعبيل وأميم، وتمكن من تأسيس ما يُدعى عند الطبري بحكم الفراعنة العرب[١] وعند المصريين القدماء بحكم ملوك البدو وعند اليونانيين بالهكسوس. في وقتٍ تالٍ، وبعد نحو ١٥٠ عاماً ونحو ٦ سلالات حاكمة، تمكن المصريون من طرد القبائل البدوية وإعادة توحيد الإقليم المصري؛ بل وملاحقة المطرودين حتى عمق الجزيرة العربية (انظر الفصل الخاص بقوائم الحملات المصرية على اليمن عندنا- حملات سنحاريب وأسرحدون على نجران). لقد احتفظت سائر الجماعات القديمة بما فيها شعب بني إسرائيل بذكريات هذا الحادث: دخول مصر والخروج منها بالقوة. إن الطبري في (تاريخ الملوك والرسل) يروي أشياء كثيرة عن الفراعنة العرب؛ مستنداً إلى مرْويات وأساطير القبائل نفسها، وليس إلى التوراة. وهذا أمر واضح في سردياته التاريخية بما يُفهم منه أن العرب احتفظوا بذكريات هذا الحادث، منسوباً إلى عمل من أعمال قبائل بائدة كفت عن الوجود اليوم. على غرار الطبري قام إخباريون مسلمون آخرون بتطويرهذه المادة التاريخية، ومن بين هؤلاء المسعودي في (مروج الذهب) الذي أعطى

(١) انظر ما كتبناه في (أبطال بلا تاريخ) مصدر مذكور(دار الفرقد- دمشق ٢٠٠٥).

قائمة مشابهة تماماً لقائمة مانيثون المصري (نحو ٣٠٠ ق. م) تتضمن أسماء الفراعنة العرب (انظر:أبطال بلا تاريخ - مصدر مذكور وفيه تفصيلات عن القائمة). أما المادة الثانية العضوية التي دخلت في نسيج حادث الخروج، فهي ذكريات الهجرة والترحال بحثاً عن مواطن استقرار في أراضٍ خصبة، وهذه تنطوي على عناصر أدبية وفلسفية بدائية و تصورات مستمدة من تقاليد ثقافية راسبة ومستمرة في مجتمعات القبائل. بهذا المعنى سوف نتحدث عن اندماج التاريخي بالأسطوري في حدث الخروج الإسرائيلي من مصر. لقد تم دمج هاتين المادتين في سردية جديدة واحدة سوف تعرف في نص التوراة بسِفر الخروج؛ بما أن المادة الصمغية التي تؤلف بينهما هي مادة أدبية في الأصل. وبالفعل؛ فإن البُعد الأدبي في حدث الخروج من مصر هو بمثابة مادة صمغية جمعت العنصرين التاريخي والأسطوري. ولذلك؛ بات أمراً مُتعذراً تفكيك الرواية التوراتية من دون إعادة تفكيك المادتين المؤلفتين لنسيجها، والكشف عن الطبيعة المُخادعة لهذا الدمج. إن القبائل القديمة غالباً ما تنسبُ لنفسها ولتاريخها أحداثاً قد تكون وقعت لجماعات أخرى، ولكنها تقوم بروايتها كما لو أنها من أساطيرها الخاصة بها. وهذا أمر مألوف في سلوك مختلف الجماعات البشرية. ففي الأحداث البطولية يجري عادة تنازع على نسبتها؛ مثلما وقع لفهم بطولات الإسكندر المقدوني عند الإخباريين اليمنيين عندما نسبوها إلى أنفسهم واعتبروا جدهم الأسطوري حِمير أبو اليمنيين هو الإسكندر المقدوني. وهذا ما يجب أن يلفت انتباهنا ويصوّب أبصارنا نحو هذا الجانب من التماثل؛ إذ ما الذي يجعل وهب بن منبه في (التيجان) مثلاً أو الهمداني في (الإكليل) ينسبان إلى حمير صلة من نوعٍ ما بالإغريق؟ وبالفعل فقد نسبَ الإخباريون اليمنيون والشعراء ورواة الأخبار والقصاصين بطولات

الإسكندر المقدوني إلى قبائلهم، بل وتخيلوها على أنها جزء حقيقي من تاريخهم؛ وكما يقول نشوان بن سعيد الحِميري الأندلسي (انظر: نشوة الطرب في أخبار جاهلية العرب): فإن كل أمةٍ من الأمم نسبت الإسكندر وبطولاته لتاريخها هي، وتخيلته على أنه من أبطالها (وذلك لعلو همته في الأرض) على حد تعبير نشوان[1]. هذا المثال يوضح لنا جزءاً من آليات الدمج بين التاريخي والأسطوري في الصور والأفكار والأحداث. في هذا الإطار؛ فإن فكرة المُخلص الذي يظهر على المسرح من أجل انتشال الجماعة من عذابها، على غرار ما فعل عوليس في حروب طروادة، هي من من الأفكار الشرقية المحورية التي عرفتها العقائد القديمة، وقد دخلت في صُلب سردية الخروج التوراتية حيث تبلورت منذئذٍ، شخصية موسى-مسه التوراتي كبطل لجماعة بعينها، امتلكته بفضل وعيها لنفسها كجماعة مُهددة بخطر الفناء. ولذلك؛ فإن ثمة رابطة حميمة بين شخصية موسى - مشه الذي يعني في العبرية المُنتشل - المخلص، وبين سائر أبطال االقصص والأساطير الأخرى التي تدور حول فكرة الانتشال من الماء؛ فهو اجتاز بهم البحر كما خلصهم من التيه والنسيان وشقاء الخروج إلى الصحراء، تماماً كما فعل عوليس. ولأجل التحقق من المسرح الحقيقي لهذه المروية الكبرى في التوراة فسوف نقوم بمقاربة جديدة للنص العبري.

يقول سِفر الخروج (١٥: ٢٢: ١٦: ٣- النص العربي، ١٥: ٣: ٢٣: النص العبري):

---

(١) وانظر (الشيطان والعرش: رحلة النبي سليمان إلى اليمن) بيروت ١٩٩٦- الريس للنشر، وفيه إشارات وافية عن كتاب نشوان (نشوة الطرب)، وكتاب وهب بن منبه (التيجان في ملوك حمير - صنعاء) وكتاب عبيد بن شرية الجُرهمي (ذيل كتاب التيجان: أخبار اليمن).

النص العبري
(ويصع - مشه - ءت - يسرئيل - م - يم - سوف - ويصئو - ءل - مدبر - شور - ويلكو - شلشت -
يميم - بمدبر - وءل - مصئو - ميم - ويبئو - مرته - وءل - يكلو - لشتت - ميم - م - مره - كي - م - ريم - هم - عل - كن - قره - شمه - مره -)
الترجمة العربية: ١٥: ٢٢:٦/٣
ثم رحلَ موسى بإسرائيل من بحر القصب (يم-سوف)، وخرجوا
إلى برية شور فساروا ثلاثة أيام في البرية، فلم يجدوا ماء، فوصلوا
إلى مارة، فلم يطيقوا أن يشربوا من مياهها لأنها مرة. ولذلك سميت مارة.
الترجمة العربية البديلة
[ثم ارتحل موسى بإسرائيل من يام الساحل، فخرجوا
إلى برية شور. وساروا ثلاثة أيام في البرية يطلبون الماء فلم يجدوا ماء.
فعادوا إلى مرّة، فلم يطيقوا ماءها. ولذلك دُعيت مرّة لأن مياهها مرّة]

في النص العربي تُرجمت جملة يم- سوف إلى بحر القصب، كما تمت مكافأة الاسم في العبرية مرته؛ وهو اسم المياه التي وصلتها الجماعة المرتحلة، بالاسم مارة وهذا رسم غير دقيق لأن المقصود بالضبط: مرّة حسب الضبط العبري والعربي للاسم. بوجه الإجمال يبدو النص العربي وبشكله الراهن وكأنه يعطي أسماء يستحيل العثور عليها؛ بينما يمكن عند إعادة ضبطها ورسمها رسماً عربياً صحيحاً، الوصول إليها بسهولة داخل الفضاء الجغرافي نفسه. في وقتٍ ما من تاريخهم البعيد، أطلق العرب القدماء اسم مّرة على كل مياه مالحة؛ والشعر العربي يعجّ بأسماء المياه المالحة التي تُدعى مّرة. على العكس من ذلك لا يبدو أن مارة يمكن أن يُعثر عليها أو أن يكون لها أي وجود. في هذا النطاق

أثارت جملة يم- سوف التي جرى الاتفاق على ترجمتها إلى بحر القصب، الكثير من الجدل في أوساط الباحثين وعلماء التوراة نظراً لارتباطها بصحراء سيناء المصرية المزعومة، حتى أن د. كمال صليبي أفردَ لها حيزاً خاصاً في مناسبتين (التوراة جاءت من جزيرة العرب، ثم التعديل الذي قام به في كتابه التالي خفايا التوراة). في الواقع لا تعرف سيناء المصرية ولا برية فلسطين الحقيقية التاريخية وغير المتخيلة، موضعاً يدعى يم- سوف أو مكاناً يُدعى بحر القصب قرب شور. كما لا توجد هناك مياه مرّة (مالحة) تُدعى مرّة؛ والنص نفسه لا يقول قط أن موسى اتجه ببني إسرائيل من مصر إلى بحر القصب مباشرة - كما لو أن أنهما في فضاء جغرافي واحد، بل يقول: إنّ موسى وبعد الخروج من مصر ثم المسير منها على امتداد الساحل وصل إلى يم-سوف.

وهذا ما يشكل معضلة غير قابلة للحل أمام استراتيجّيي المُطابقات العشوائية بين جغرافية سِفر الخروج وجغرافية مصر وفلسطين، فهؤلاء وجدوا أنفسهم من الناحية التقنية، أمام صعوبة يستحيل تخطيها لأن أياً من هذه الأسماء لا وجود له هناك؛ عدا عن أن الأشعار العربية القديمة واستطراداً المعاجم الجغرافية العربية تجهل جهلاً تاماً وجود هذه المواضع والأسماء، والأمر ذاته ينطبق على سجلات الآشوريين والمصريين وكتب الجغرافيين اليونانيين، التي لاتتضمن أي إشارة إلى هذه الجغرافية. فهل الأمر يتعلق بمروية أسطورية لاأصل لها؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل من المنطقي الافتراض أن سارد النص وضع داخل نصه، أسماء وهمية لا وجود لها؟ إن سلوك ساردي النصوص القديمة يتعارض تعارضاً كلياً مع هذه الفرضية، فهو يشير وعلى الضد من ذلك إلى حرصٍ دائم ومتميز عند الرواة القدماء على تضمين سردياتهم، مهما كانت درجة خياليتها، أسماء حقيقة للأماكن حيث يُفتَرَضُ أن الأحداث وقعت فيها، وذلك لأجل إضفاء أكبر قدرٍ من الصدقية والإغراء؛ بل إن جاذبية هذه

النصوص تكمن في وجود كم مدهش من الأشياء الحقيقية مقابل أحداث تبدو أسطورية. في سياق معالجة جذرية وجديد تماماً، سنقوم بنزع القشرة الرقيقة والزائفة عن هذه المرويات، لنرد المواضع إلى فضائها الجغرافي الذي وصفه وتخيّله سارد النص.

وسنبدأ من اسم المياه المالحة التي وصلتها الجماعة المرتحلة في البادية. التوصيف الذي أطلقته الجماعة على المياه الْمُرّة التي بلغتها بعد شقاء وخوف من الموت، يشمل كل مياه مالحة " غليظة "- بحسب تعبيرات العرب القدماء-. كانت الجماعة تواجه خطر الموت عطشاً عندما اضطرت إلى العودة صوب المياه نفسها التي صادفتها ورفضت أن تشرب منها. لكنها وبتشجيع من النبي – المخلص موسى شربت منها اضطراراً وسمتها مرَّة. يُعيد هذا الجزء من المروية تذكيرنا بواقعة تاريخية صحيحة روتها معظم المصادر الإسلامية: كان الرسول ﷺ في طريق عودته من إحدى الغزوات عندما قال له المسلمون: إن العطش سوف يفتك بهم، ولم يكن أمام المسلمين، يومئذٍ سوى التوقف عند مياه تُدعى بيسان، وهي مياه مالحة (مرّة) لا يكاد الإنسان يطيق شربها. ولكن العطش كان يحمل المسلمين على تجرّع مرارتها.

فسأل الرسول ﷺ عن اسم المياه قالوا: إنها بيسان (من بؤس) فقال ﷺ: بل هي نعمان (أي من النِعَم): أي مياه طيبة. وحين شرب المسلمون من المياه المالحة (أي من بيسان) تغير طعم الماء في أفواههم. يقول الإخباريون بإجماعهم: غيَّر الرسول ﷺ اسم المياه فغير الله طعمها[1]. هذا التقليد الثقافي المستمر باستمرار الجماعات القبائلية البدوية الباحثة عن الماء؛ يقودها بطلها عبر الصحراء ويخلصها من الموت عطشاً ومن التيه والفناء، يمكن تخيل إيقاع تكراره في حياتها

(١) البكري – مادة بيسان –مصدر مذكور.

وهجراتها باستمرار، وإلى الدرجة التي تتولد معها أحداث ووقائع متطابقة. لقد صادفت العرب بعد مئات السنين، ولكن مع دين جديد ونبي جديد هذه المرة، المياه المالحة ذاتها التي صادفت بني إسرائيل وموسى من قبل، وهم قاموا -على غرار ما فعل موسى- بإعطاء اسم جديد للمياه. (لنلاحظ أن اسمها كان بيسان من الجذر الثلاثي بأس بمعنى شديد وبؤس بمعنى الشدة قبل أن تتحول المياه إلى نعمان من النعم أي الطيب).

وعلى الرغم من التذمر وإبداء الكراهية العلنية على تجرع الماء الغليظ، فقد قامت الجماعة العطشى بشرب الماء المالح. إن تقاليد الشعر العربي القديم تتضمن الصور ذاتها عن هذا العذاب، حيث يُرغم المُسافر أو المُهاجر في الصحراء على الشرب من مياهٍ مُرةٍ. ما من جماعة مهاجرة إلا وارتطمت بهذا الخطر وواجهته في الصحراء مواجهة مكشوفة ومريرة. ولذلك دعت العرب كل مياه مالحة "مياهاً مرّة" وقامت بهجائها، بل وضمنت كراهيتها هذه في مروياتها وأشعارها وقصصها الشعبية. هذا التقليد الشعري الحميم في تفاصيله ظل مُستمراً حتى عصر الإسلام المبكر ثم مع صعود الإمبراطورية الإسلامية وازدهارها؛ بما هو إعادة تمّثل للمادة الإنسانية ذاتها وبما هو استرداد للذكريات ذاتها عن الهجرة والشقاء والبحث عن موطن استقرار. قال الأعشى-الأسود بن يعفر أعشى نهشل:

لبَنُ المُريرة لا يزال يشجّهُ بالماءِ يمنع طعمه أن يَشخُما

إن المرويات العربية القديمة ثم الإسلامية، تتحدث عن أساليب مقاومة القبائل للمياه المُرة التي تضطر إلى شربها، ومن هذه المرويات تلك الخاصة ببئر زمزم؛ فلأجل تغيير طعمها الثقيل كانت القبائل تنبذ الزبيب في البئر حتى تتمكن من شرب الماء. قال جرير (الديوان):

قبّح الله على المُريرة أقْبراً أصداؤهن يَصحنَ كل ظلامٍ

إن جرير-في هذا البيت- مثله مثل أعشى نهشل يقوم بهجاء مياه تدعى المُريرة- تصغير مُرّة- وهي موضع في الدهناء (صحراء النفوذ الصغرى في المملكة العربية السعودية اليوم). تُرى ماصلة المُريرة هذه بما يُدعى مُرة في التوراة؟ الصلة الوحيدة كما سنرى، هي وجودها قرب المكان نفسه الذي تسميه التوراة برية شور (انظر النصوص أعلاه). وهذا المكان على الطريق من يام- سوف إلى شور، وهذا أمر مثير حقاً. اليكم ما يكتبه الهمداني عن شور (صفة: ٢٥٩):

> **والحصاة حصاة جَبْلة: هضبة عظيمة في شعبٍ منها دخلت بنو عامر من تميم في حربهم المعروفة بيوم جَبْلة، وهي كثيرة المياه ويحفها عن يسارها بطن السرير وهو أعلى وادي الرّمة. ويقطعه من ورائه بطن السر ويدفع أسفله في وسط الشور وهو قَيْف مطيريح طوله خمسة أميال.**

يُفهم من هذا النص أن الشور- شور التي توصف في سفر الخروج بأنها صحراء (وعند الهمداني صحراء طولها خمسة أميال انظر الخرائط) تمتد إلى نحو خمسة أميال. وهذه المسافة تعبر عنها التوراة (سفر الخروج) بالقول ما يلي: إن مياه مُرة التي وصلها بنو إسرائيل في رحلتهم الصحراوية تبعد ثلاثة أيام عن شور. وبذلك تكون المسافة الموصوفة في النصين مُتطابقة تماماً. هذه هي شور التوراة بالاسم والتوصيف ذاتهما. وإذا ما قمنا بمُطابقة نصي التوراة والهمداني فسوف نرى أن شور هي جزء من صحراء النفوذ الصغرى وجزء من صحراء الدهناء الشهيرة على تخوم الربع الخالي، وليست برية من براري مصر أو فلسطين. فهل ثمة طريق يؤدي إليها من يم -سوف؟ إن ترجمة يم-سوف إلى بحرالقصب دليل آخر على التلفيق والاختلاق. وهذا ما سنراه هنا. تسجل التوراة (خروج: ١٣: ١٧: ١٤: ٣) الحدث التالي:

(فحول الله الشعب إلى طريق برية يام سوف)

طِبقاً لهذه المروية؛ فإن بني إسرائيل ساروا بعد خروجهم من مصر، على امتداد ساحل البحر الأحمر ليخيّموا في مكان يدعى (بالعبرية: ءيتم) في أقصى البرية. وليس ثمة مواضع في سيناء المصرية تحمل هذه الأسماء، ومحققو التوراة يعترفون باستحالة تحديد يم-سوف وءيتم في المكان نفسه؛ ولذلك جاءت الترجمة لتعطي حلاً تلفيقياً للمشكلة من خلال اعتبار يم-سوف هي بحر القصب؟ وكنا رأينا في المقطع السابق من سفر الخروج أن شور موضع صحراوي يمكن الوصول منه إلى يام-سوف. إن المكان الوحيد الذي يحمل اسم ءيتم يقع على مقربة من ساحل البحر الأحمر غير بعيد عن يام؛ بل ويمكن التوجه منه إلى برية شور. ذلك هو وادي اليتْمَ - اليتمة الذي تسيل مياهه بين نجران والجوف اليمني. وهنا يتحتم القول: إن المكافئ العربي لكلمة سوف العبرية هو سيف. تعني كلمة سيف العربية والعبرية ساحل البحر، ونحن نعلم من الشعر العربي القديم ومن المرويات التاريخية اليمنية أن القبائل تسمي الساحل سيف البحر؛ ولذا فالمقصود بالجملة العبرية يم- سوف على وجه التحديد: يام الساحل تمييزاً لها عن يام الجبل. إليكم وصف الهمداني لوادي اليَتْمه (صفة: ٢٢٨):

وأول الأودية بين نجران والجوف: قضيب فيه من مياه بلحارث، واليتْمَه: وادٍ من بلد دهمة.

ها هنا وادي ءيتم-اليتمه أول الأودية بين نجران والجوف اليمني. أما يام التي اشتبه معناها على المترجمين فقاموا بترجمتها إلى بحر، فليست سوى بلد يام في الجوف اليمني، أي في المكان نفسه حيث جبال

السر (انظر جبال السر في كلامنا الآنف عن شور). وهنا نص الهمداني عن يام (صفة: ١٥٤):

ثم أودية لطاف إلى الجوف، ويكون على هذه الأودية بنو الحارث بن كعب، ثم أودية الرضراض وحريب نهم مشاربها من جبال السر وبلد يام .

ها هنا وادي حريب - حوريب التوراة عندما خرج موسى بالجماعة، وها هنا يام المنسوبة إلى الساحل تمييزاً لها عن يام الجبل المعروف، وغير بعيد عنها وادي اليَتْمَه-ء يتم حيث خيم المطرودون قبل أن يتجهوا نحو صحراء شور ليشربوا - اضطراراً -من المياه المُرّة. على هذا النحو تتوضح جغرافية القصة التوراتية التي روتها قبائل العرب البائدة مراراً وتكراراً، في إطار ثقافة المواعظ الدينية والاجتماعية عن العذاب الإنساني والهجرات القسرية.

من زوف إلى سوف
تلفيق " بحر السوافي

٣

في سِفر تثنية الاشتراع (١ : ١٢ : ٢٨ النص العربي، والنص العبري: ١ : ١٨ : ٣) نقرأ عن وصف المكان المسمى سوف ما يلي:

ء له - ها- دبريم- ء شر- دبر- مشه- ءل-كل-يسرءيل-ب-عبر-ها- يردن -ب- مدبر-ب -عربه- مول-سوف-بين-فـءرن-تفل-ولبن-وحصرت-يدي- زهب-: ءحد - عشر- يوم-م- حريب- درك- هر-سعير

حسب فهمنا للنص وبعد ضبط الأسماء فيه ضبطاً عربياً صحيحاً؛ فإن المقصود من اسم سوف هنا جزء من فضاء جغرافي مختلف عن أرض زوف (انظر ما كتبناه عن زيف في الجزء الثاني من فلسطين المتخيلة، مصدر مذكور) وهنا ترجمة للنص:

(تلك كانت كلمات الرَّب قالها موسى لكل بني إسرائيل فيعَبْر اليردن في البرية، وفي البادية مقابل سوف، بين فاران وثافل ولُبن وحضر، ذاهباً على بُعد أحد عشر يوم من حريب على طريق جبل سعير)

تظهر كلمة (سوف) في هذا النص غير مسبوقة باسم يام، كما هو الحال في النص السابق، كما أنها تأتي في سياق توصيف مختلف كل الاختلاف للبادية المحصورة بين جبال فاران و جبل ثافل ووادي حضر. فهل وقع سارد النص في الوهم؟وهل كان ضحية خطأ التشابه بين اسمين؟ أم كان يقصد موضعاً آخر؟ وهل يمكن العثور على هذه الأسماء في سيناء المصرية، وبالصيغ ذاتها وبالتوصيف ذاته الوارد في التوراة؟ تعني (سوف) هنا : سيف وهو مكان شهير في اليمن يُدعى عُزلة سيف. لا شك أن جغرافية مصر لا تعرف مثل هذه الأسماء، وجغرافية فلسطين تجهلها بكل تأكيد. وفضلاً عن ذلك يستحيل الافتراض أن (سوف) هذه هي ذاتها يام-سوف في النص السابق، وذلك لاختلاف التوصيف واختلاف أسماء المواضع المجاورة. فلماذا لم يترجم المترجمون هذه الكلمة إلى (القصب) كما فعلوا مع الكلمة نفسها في جملة النص السابق؟

ولكن هل يجوز حقاً ترجمتها إلى (قصب)؟ وإذا ما ترجموا جملة (مول- سوف - فءرن-) إلى (مقابل قصب بين فءرن.. إلخ) فهل ستكون جملة مفهومة؟

يكشف هذا المثال عن نمط من المشكلات الناجمة عن المُطابقات العشوائية؛ ربما لم يصادفنا - نحن القراء من قبل- فها هنا "سوف " أخرى قرب سلسلة من المواضع لا تشبه ولا يمكن أن تطابق سلسلة المواضع السابقة، فليس ثمة شور ولا يام، كما أن التوصيف المعطى لها يجعل منها كما لو أنها مكان آخر؟ في هذا الإطار قام د. كمال صليبي بمحاولة لمعالجة(مشكلة سوف) على أساس الافتراض أنها تعني(بحر السوافي) وهو موضع بعيد كل البُعد عن الجغرافية الموصوفة في هذا النص. من وجهة نظر هذا الكتاب لا يبدو اقتراح صليبي مقبولاً، بأي صورة من الصور، لأنه لا يقدم حلاً عملياً للمشكلة، كما أن النص

الأصلي لا يورد أي كلمة تؤدي معنى بحر، بحيث يمكن الافتراض أن المقصود بها بحر السوافي. والترجمة التي تعطيها النسخة العربية، تبدو هي الأخرى غير مقبولة لأنها تعطي مكافئاً غريباً للجملة (بحر القصب). وأخيراً يبدو إسقاط محرر سِفر تثنية الاشتراع لكلمة (يم) من جملة (يم-سوف) السابقة أمراً محيّراً، ولكنه في كل الأحوال ليس ناجماً عن الخطأ أو السهو في النسخ، أو عن اجتهاد جانبه الصواب في فهم المقصود من الكلمة كما افترض صليبي. ولولا أن هذه الكلمة أضحت مكاناً مقدّساً في أنظار المتدينين اليهود، ولولا أنها أصبحت جزءاً عضوياً من التصور الاستشراقي لحادث الخروج، بما ترتب عليه من مزاعم عن وقوع الحدث في مصر بعد الخروج من فلسطين؛ لما نالت هذه الكلمة منّا أو من الباحثين الآخرين أي اهتمام. لكل ذلك يبدو من الواضح أن النص أراد الإشارة إلى موضع آخر يُدعى (سوف) يقع قرب جبل تافل- ثافل وجبال فاران، كما أنه مقابل عربه- عربه وعند جبل لبن- لُبن (أحد جبلين يسميهما العرب لبنان). وسائر هذه المواضع لا وجود لها في سيناء مصر أو في فلسطين، وبالطبع لا وجود لها عبر نهر الأردن. إذا ما صدقنا التأويل الاستشراقي للنص؛ فإن (سوف) هذه هي في الآن ذاته، قرب نهر الأردن وفي سيناء وعند جبل لبن في فلسطين. وهذا مستحيل من الناحية الجغرافية؟ ومن أجل البرهنة على أن اجتهاد كمال صليبي القائل أن (سوف) هي (بحر السوافي في منطقة الأحساء السعودية) إنما هو تلفيق موازٍ للتلفيق الاستشراقي، نجمَ أصلاً عن نوع من المحاكاة للنمط نفسه من المُطابقات العشوائية، فسنقوم بمعالجة جذرية وجديدة للمشكلة.

لقد عرف الشعر العربي القديم كلمة سوف هذه لا كاسم لمكان بعينه، بل كتوصيف لساحل البحر الطويل؛ ونحن نعلم أن سائر المناطق الساحلية يُطلقُ عليها عند العرب العاربة اسم سيف، وجمعها أسياف

ويراد بها السواحل (أسياف البحر). وفي المقابل كاسم مكان معلوم هو عُزلة سيف في اليمن. بصدد المعنى الأول قال الأخنس بن شهاب التغلبي وهو يُصور بلاد العرب القديمة[١]:

لكيزٌ لها البحران والسيفُ كلهُ وإنْ يأتها من الهندِ كاربُ

من غير شك؛ تعني كلمة سيف هنا ساحل البحر الطويل، الذي نزلته قبيلة لكيز اليمنية-العمانية (لكيس في التوراة ولكيش عند البابليين) التي أعطت اسمها للموضع التوراتي. وفي هذا الحيز الجغرافي يمكن للمرء أن يجد (جبل ثافل وجبال فاران وجبل لبن) تماماً كما في النص العبري. وهنا نص الجملة في تثنية الاشتراع:

(في عربه، مقابل سوف بين فاران وثافل ولُبن).

إننا لا نعرف فاران قرب بحر السوافي، بل قرب سيف البحر. وجبال فاران هذه هي الجبال الشهيرة المطلة على مكة. وعند الهمداني (صفة: ٢٤٩): السيف سيف البحر، وقد وَرَدَ في شعرٍ موضوع نسب إلى الملك اليمني أسعد ملكيكرب (صفة: ٣٢٦) قال:

وأزْدٌ لها البحران والسيف كلهُ وأرض عُمان بعدَ أرض المُشقرِ

استخدمت كلمة سيف عند العرب قديماً للدلالة على مكان بعينه تارة، وكتعبير عن ساحل البحر بإطلاق تارة أخرى. وهذا ما يجب أن يُحيلنا إلى مقاصد الجملة في النص التوراتي (في عربه مقابل سوف بين فاران وثافل ولُبن)؛ فأين نجد ثافل أو تافل أو توفل (تفل في التوراة والتاء بديل الثاء المثلثة التي لا تعرفها العبرية)؟ هل نجده في سيناء المصرية أو

---

(١) الاشتقاق لابن دريد: ط، بيروت: ٣٢٩.

في فلسطين؟ لقد بحث علماء الآثار في مصر، كما بحثت أجيال من علماء التوراة في فلسطين وفي سيناء ولكن دون جدوى، عن جبل يحمل هذا الاسم وعن جغرافية تتضمن التوصيف ذاته الوارد في التوراة. بينما يمكن لنا رؤيته شامخاً في المكان نفسه الذي تصفه التوراة. لقد عرف الشعر العربي القديم جبل ثافل هذا وهو جبل معروف ولا يزال يحمل الاسم نفسه حتى اليوم في تهامة اليمن؛ بل هو أكبر جبال تهامة وأعظمها كما يقول السكوني اللغوي الشهير. قال أُمية بن أبي عائذ (معجم: ٣٣٤):

فلا تَجْزَعن من الموتِ لا أرى خالداً غيرَ أصخرٍ صمْ
من المُتَمثلاتِ من ثافلٍ رواسيَ أو شكلها من خَيَمْ

هذا هو جبل ثافل (تفل) الذي يضرب الشاعر به المثل في الخلود ومقاومة الزمن في المكان نفسه، حيث تتصل جبال فاران بجغرافية تهامة اليمن حيث (عُزلة سيف). أما لُبن (مفرد لبنان) وهما جبلان عظيمان من جبال تهامة في بلاد هذيل، فهو جبل لُبن عند الهمداني والشعر الجاهلي تماماً كما في النص التوراتي. ترسمُ النسخة العربية من التوراة اسم لبن هذا في صورة لابان- بالمد-وهذا رسم غير عربي وتهجئة خاطئة، بُنيتْ على أساس التصويت الحديث للعبرية المعروف بالتصويت الألماني، والذي لفق حركات إعرابية افتراضية لا أصل لها. يقول الهمداني (صفة: ٢٣٨): [ومن الجبال المشهورة عند العرب جبل لبن]. إن الرسم العبري للاسم هو ل-ب-ن -لُبن وليس لا-ب-ا-ن-لابان؛ وذلك ما يتطابق كل التطابق مع الرسم العربي كما حدده الأصمعي (ياقوت: ٥: ١٣) في بلاد هذيل من تهامة اليمن. قال:

(لبن الأعلى ولُبن الأسفل في بلاد هذيل. ويُقال لهما: لبُنان)

وقال ذي الرمة:

تمر لنا الأيام ما لمحت لنا بَصيرةُ عينٍ عن سوانا إلى شفرِ
تقضينَ من أعراف لُبنٍ وغمرةٍ فلما تعرفن اليمامة عن عُفْرِ

وقال زيد الخيل (معجم: ١١٤٩):

وأحللتكُم من لُبن داراً وخيمةً وكنتم بأطرافِ القنانِ بمَرْتَعِ
فخرتُم بأشياخٍ أُصيبوا بنَخْعَةٍ وتنْسَونَ شُباناً أنيموا بضفلعِ

هذا هو جبل لبن غير بعيد عن جبال فاران تماماً كما في وصف التوراة والشعر الجاهلي (وكنا حددنا وادي حضر في صفحات وفصول سابقة). نخلص من ذلك إلى أن المقصود بـ(سوف) هذه ليس (بحر السوافي) كما افترض صليبي؛ بل هي (سيف) وكاتب السفر قصد به الإشارة إلى سيف البحر أي الساحل قرب سلسلة جبال منها فاران (انظر ما كتبناه عن فاران) وقرب جبل ثافل (انظر ثافل أعلاه) وإلى جوار جبل لبنان (مفرده لبن).

البحث عن جرار

٤

أثار اسم جرار- جرر الوارد في (سِفر التكوين، النص العربي: ١٩ : ٢٦: ٢٠: ٥: والنص العبري: ١٩: ٣٨: ٢٠: ١٧) باعتباره مكاناً بعينه قرب شور-شور وجبل قدش- قدس؛ حيرةَ علماء الآثار والدارسين وعلماء التوراة أنفسهم الذين سعوا عبثاً، إلى البرهنة على أن جرار التوراة هي ذاتها جرار غزة المزعومة. كما أن د. كمال صليبي في (التوراة جاءت من جزيرة العرب) أفردَ فصلاً خاصاً لمعالجة المسألة لم تُزدها إلا تعقيداً فوق تعقيد. يقول النص ما يلي:

(ويصع - م-شم-ءبرهم-ءرصه-ها-نجب-ويشب-بين-قدش-وبين-شور-ويجر-ب-جرر)
ومن ثم تركَ إبراهيم أرض النجب ومضى بين قدس وبين شور، ونزل في جرار

رأينا مما سبق من صفحات أن شور صحراء طولها خمسة أميال في منطقة النفوذ الصغرى (انظر ما كتبناه حول شور). وهذه المنطقة تتاخم فعلياً الحيز الجغرافي الذي يضم جبل قدس الشهير في الشعر العربي وفي المرويات الإسلامية (انظر الخريطة). إن عبارة (بين قدش إلخ...) لن تكون مفهومة إلا إذا قرئت في سياق الحقيقة القائلة: إن قدس سلسلة جبلية صغيرة مؤلفة من جبلين عظيمين يدعى أحدهما آرة والآخر قدس، يفصل

بينهما وادي الرمة. وهما غير جبل قدس إلى الجنوب من مدينة تعز اليوم. ومن ثمَّ؛ فإن معنى جملة (بين قدس) ستكون مفهومة بوصفها إشارة إلى التنقل بين هذين الجبلين اللذين يعرفان الاسم نفسه، كما يعرفان كل باسمه: قدس وآرة. والأمر ذاته تشير إليه جملة (بين شور) التي تفيد معنى التنقل داخل مساحة جغرافية شاسعة تمتد حتى خمسة أميال في منطقة صحراوية. تتحدث الروايات العربية- الإسلامية عن توجه إبراهيم من مكان ما إلى مكة لبناء الكعبة. وفي هذه الحالة يجب أن تكون جرار-جرر التوراتية التي نزل فيها إبراهيم في الفضاء الجغرافي نفسه؟

تزعم القراءة الاستشراقية أن (ها- نجب) هي(النقب) الفلسطيني. بيد أن هذا الزعم سوف يبدو مفضوحاً حين نعلم أن النقب لا تعرف صحراء تُدعى شور ولا مكاناً يُدعى قدس يمكن الوصول إليهما عبر جرار؟ بينما يمكن للمرء إذا ما سار خلف خُطا إبراهيم من (ء رصه-ها-نجب: أرض النجب) باتجاه صحراء شور وجبل قدس، أن يصل إلى جرار -جرر بسهولة (انظر الخريطة). قال ابن مقبل (ياقوت: ٢: ١٣٦):

لِمَن الديارُ بجانبِ الأحفارِ قتيلُ دمخٍ أو بسفحِ جرارِ

هذا هو جبل جرار -جرر الذي نزله إبراهيم في طريقه بين شور وقدس قادماً من ء رص -ها-نجب، وقد شخص أمام أبصارنا باسمه ووصفه بالضبط كما في النص العبري. ومن الواضح أن ها- نجب لا يمكن مكافأتها بـ(النقب) إذ لو أراد سارد النص الإشارة إلى النقب الفلسطينية لتوجب عليه رسم الاسم في صورة (ها-نقب) لأن العبرية تعرف حرف القاف، ومن ثمَّ لا حاجة لاستبداله بالجيم المصرية. بيد أن سارد النص أراد (النجب) على وجه التحديد وهو لم يخطئ قط في رسم الاسم؛ ومن ثمَّ فهو لم يكن يعني النقب لا من قريب ولا من بعيد. علماً أن النقب الفلسطينية لا تؤدي إلى القدس العربية؟ إن النجب (ها- نجب)

هي المكان الوحيد الذي يؤدي بالفعل إلى جبل قدش وصحراء شور وجبل جرار في آن واحد، وتماماً كما في وصف سفر التكوين.

وبينما يستحيل الوصول إلى جرار غزة في فلسطين انطلاقاً من القدس والنقب الصحراوية، أو بالعكس وفي آن واحد؛ لأنهما تقعان في اتجاهين مختلفين ومتعاكسين؛ فإن الوصول إلى جبل جرار عبر صحراء شور ومروراً بجبل قدس عند وادي الرمة سيبدو ممكناً بسهولة. قال زيد الخيل الطائي (الديوان):

صَبَحت حيّ بني الجرارِ داهيةٌ   ما أن تغلبَ بعد اليومِ جرارُ

إن الأشعار العربية القديمة التي ذكرت جبل جرار؛ تضعه على مقربة من جبل دمخ أسفل نجران غير بعيد عن فرع من فروع وادي ملك وفرع وادي لحا. أي في الفضاء الجغرافي ذاته لجميع المواضع الواردة في القصة التوراتية عن هجرة إبراهيم وفي قصة أبي مالك. أما ءرص ها-نجب (أرض النجب) التي انطلق إليها إبراهيم؛ فإن الشعر العربي القديم يضعها على مقربة من وادي زرود-زرُد في التوراة وفي الامتداد الرملي لمنطقة أسفل نجران.

قال عامر بن الطفيل (الديوان) يصف معارك القبائل العربية في البادية:

ولاقينا بأبطح ذي زرودٍ   بني شيبان فالتُهِموا التهاما

وحيّاً من بني أسدٍ تركنا   نساءهم مُسلبة أيامى

ولاقينا بذي نجبٍ حُصيناً   فأهلكنا بُمقِلنا أُساما

ها هنا ء رص- ها-نجب (ذو نجب: وذو أداة تعريف تسبق الأسماء في كلام أهل اليمن: النجب). وهناك وادي زرود-زرد في التوراة.

ولنلاحظ أن الشاعر وفي إطار التقليد الثقافي اليمني القديم، يضيف أداة التعريف القديمة في لغة أهل اليمن ذو، ذي، إلى أسماء المواضع (مثل زرود: ذي زرود). إليكم وصف الهمداني لبادية زرود (صفة: ٢٥٧-٢٥٨) حيث وقع القتال وامتد حتى النجب:

ورمل زرود، ثم دون ذلك قصدَ مطلع الشمس (أي إلى الشرق) إلى ضرية، ثم تفضي في صحراء ظلم ثم إن تياسرت لمياه الشربة (..) ساق الفرْوين ثم أبانان الأسود والأبيض جبلان يمر بينهما بطن الرمة

وجود رمال زرود قرب وادي الرمة حيث جبل قدس كما لاحظنا من نصوص الهمداني والتوراة، ووجود النجب وشور وقدس وجرار وبالصيغ ذاتها دون أدنى تحوير أو تلاعب لغوي، لا من جانب الهمداني ولا من جانبنا وفي فضاء جغرافي واحد فوق ذلك، يؤكد على حقيقة أن الاستشراق تلاعب بأسماء المواضع لغرض واحد: هو إرغام خريطة فلسطين على التماثل مع التوصيفات والأسماء التوراتية. لقد تكفلت الروايات العربية الكلاسيكية برواية أخبار جرار هذه؛ وصدرت مع الإسلام المبكر اشارات عدة تؤكد معرفة العرب بالاسم نفسه، ولكن هذه المرة بوصفها مياهاً جارية (مسيل مياه جبلية) اطلقوا عليها مع انتصار الإسلام اسم (جرار) سعد، نسبة إلى بني سعد القبيلة العربية التي أقامت في الجبل نفسه. يلاحظ البكري (معجم: ٣٧٤) ما يلي: إن المسلمين حولوا مسيل مياه جرار إلى أهم مركز من مراكز سقاية الحجاج إلى مكة؛ ومعروف أن المكيين واجهوا، بطريقتين متميزتين، معضلة توفير المياه لحاج مكة، بسبب النقص الشديد في مصادر المياه في هذا الوادي المجدب: إما بحفر آبار جديدة أو باستخدام أساليب وطرق مبتكرة لنقل المياه من الأماكن القريبة في أثناء موسم الحج. ومن بين أكثر هذه

الأماكن غزارة في المياه وقرباً من مكة جبل جرار بني سعد. الخيط الناظم لمرويات التوراة ومرويات العرب القدماء، عن بناء الكعبة ووصول إبراهيم إلى جرار، يجعل من التواتر التاريخي لاسم المكان عاملاً ضاغطاً باتجاه الربط بين الاسم القديم والاسم الجديد: جرار سعد. وبرأينا؛ فإن إضافة سعد إلى اسم مسيل المياه القادمة في الأصل من جبل جرار، يندرج في سياق التغييرات التي تطاول بنى وتراكيب الأسماء القديمة من أجل الحفاظ عليها، أو إعادة نسبتها إلى القبيلة التي سوف تقيم في المكان الجديد. لقد تم الربط بين جرار غزة المزعومة وجرار التوراة؛ بفضل نظام المُطابقات العشوائية الذي اعتمده الاستشراقيون. وعندما حاول كمال صليبي تقديم تأويلٍ مقبولٍ للاسم وتحديده في عسير استناداً إلى "بقايا" لغوية من الاسم تُركت في أسماء جديدة لقرى عربية، لم يفطن - وبالأسف- إلى وجود (رملة غزة) التي قصدها سِفر التكوين حيث تقع جرار التوراة (وهي من ديار تميم) وبالفعل فقد تحدث العرب القدماء عن غزة تميم.

لا ريب أن جملة نجب -جرار لا تعني قط نقب جرار؛ بل تعني النجب وجرار. وما يؤكد ذلك أن سِفر العدد (٢٠: ١٤: ٢١: ٣ - الإصحاح ٢١، النص العبري ٢٠: ١٣: ٢١: :) يقول ما يلي:

> ويسمع-ها- كنعني- ملك- عرد- يشب-ها- نجب- كي به يسرءيل- درك- ها-ءتريم.
> وسمع الكنعاني ملك عراد الساكن في نجب بأن إسرائيل عاد إلى طريق تريم -ءتريم

من الواضح أن ها- نجب هنا لا تُنسب إلى أي موضع آخر؛ فهي مكان معلوم في الحجاز وعلى مقربة من مكة يُقيم فيه ملك كنعاني (من

كنانة المضرية العدنانية) هو من ملوك عراد - عراد في التوراة. ولو كان المقصود بـ(ها-نجب) النقب الفلسطيني؛ ففي هذه الحالة يجب أن نعثر على عراد فلسطينية في غزة وعلى قبائل كنعانية هناك؛ بل وأن نعثر في غزة على موضع يُدعى تريم-ءتريم؟ في الواقع هناك تريم- ء تريم كنانية (كنعانية) قرب عراد في المكان نفسه حيث تقع ذي نجب-النجب، تماماً كما في النص التوراتي الآنف. قال مالك بن حريم (شاعر وفارس يمني، جاهلي ارتبط اسمه بأساطير ومرويات عدة):

سنحمي الجوف ما دامت معين بأسفلة مقابلة عرادا

وقال الراعي النُّمَيري:

إذا أحلفَت صوبَ الرُّبيع[1] وصى لها عَرادٌ وحادٌ البسا كل أجرعا

تعطي أبيات الشاعر اليمني مالك بن حريم وعلى أكمل وجه، الرسم ذاته للاسم التوراتي عراد وتحدده قرب مياه معين-معون في التوراة؛ في منطقة أسفل الجوف اليمني. وهذه تخيلها التوراتيون معان الأردنية. كما تحدد أبيات الراعي النمَيري عراد على مقربة من وادي الرُّبيع-ربع. ومن سائر هذه التحديدات يتضح أن لا وجود للنقب المزعوم في هذه القصة؛ بل هناك النجب نفسه في أعراض اليمامة حيث تقع عراد. يقول الهمداني واصفاً عراد هذه (صفة: ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢):

> حَلف[2] يفيض إلى التكيم بهاوة ثم الغائط (الغيط) والحَضن بنجران، لها - ولوادي- أمير[3] وسدرا وهراب وعراد.

(١) انظر (ربع) في التوراة. وانظر ما كتبناه في (فلسطين المتخيلة - الجزء الأول، مصدر مذكور).

(٢) انظر: حلف في التوراة - منازل الأسباط.

(٣) انظر: أمير- أمير في التوراة.

ها هنا سدروت التوراتية-سدرا (والتاء اللاصقة مثل قرشت، فلست، تقليد يمني تؤكده النقوش) وها هنا أمير- أمير في التوراة، وهذه هي عراد التوراتية-اليمنية أسفل الجوف وعلى مقربة من نجران، أي في المكان نفسه الذي تقيم فيه بطون كنانة - كنعن. ومياه عراد هذه تتشكل من مياه أودية الجوف الكبيرة مثل وادي حلف -حلف في التوراة، وبالطبع لا يتضمن التوصيف الآنف أدنى إشارة إلى النقب الصحراوية في فلسطين. تقع عراد على مقربة من الطريق إلى ءتريم-التريم من بلاد قبيلة تميم البدوية (ومنعاً للالتباس فتريم هذه غير تريم حضرموت). إليكم تحديد الهمداني لتريم على مقربة من لبنه التوراتية - لُبنى عند العرب، وغير بعيد عن حرس-حرسه في التوراة (صفة: ٢٩٣):

> الحمى حمى ضرية (..) لُبنى جبل (..) حَرَس ماء ل- قبيلة-غني (..) تريم من ديار تميم.

قال كثير:

إليكَ تباري بعد ما قلتُ قد بدت جبال الشبا[1] أو نكبتْ هضبُ تِريمِ

وقال ذو الرمة:

إذا شئتُ أبكاني إلى جرعاء مالك إلى الدحل مُبدي لمي ومَحضَرا

يهيجُ البكا أن لا تَريمَ وأنها ممر لأصحابي مراراً ومنظرا

في هذا البيت ينص الشاعر على أن تريم هي طريق يسلكه المهاجرون والسائرون في البادية، تماماً كما في وصف التوراة؛ بما يعني أن هذا

(١) انظر: الشبا- الشبا في التوراة (انظر ما كتبناه حول جميع المواضع المذكورة أعلاه وعن كاهن الشبا في فلسطين المتخيلة- مصدر مذكور).

الموضع كان في الأصل من الطرق والمسالك القديمة التي عرفتها القبائل العربية البائدة.

إليكم هذه المقاربة بين النصوص:

التوراة	المصادر العربية الكلاسيكية
وعاد إسرائيل إلى طريق ءتريم	كثير: هضب تريم
	ذي الرمة: يهيج البكا أن لا تريم وأنها ممر.
	الهمداني: تريم من ديار تميم

إلى ماذا يشير هذا التوافق في رسم الأسماء ووجودها في فضاء جغرافي واحد؟ ببساطة: يشير هذا التماثل غير القابل للتلاعب؛ إلى حقيقة أن التوراة تصف مواضع وأماكن يمنية في الأصل، وإلى امتدادات جغرافية في الجزيرة العربية كانت مسرحاً لأحداث وهجرات وقصص وحروب ومعارك وقعت بين الجماعات المتنافسة على الأراضي الخصبة. وفي هذا الإطار سيبدو من المستحيل تخيل وجود تريم على طريق عراد في غزة الفلسطينية، حيث يُزعم أن جرار تقع هناك قرب النقب الصحراوي. بينما، على العكس من ذلك يستطيع المرء بفضل وصف الشعر العربي القديم، أن يجد الأماكن نفسها والأسماء نفسها أيضاً. والآن: إذا ما وضعنا قدش التوراة في سياق هذه الجغرافية؛ فإن مقاصد النص ستكون واضحة كل الوضوح: فالمقصود باسم قدس في التوراة - في هذا المقطع على وجه التحديد-جبل قدس عند وادي الرمة، وليس جبل قدس المبارك إلى الجنوب من تعز في سلسلة جبال السّريح، و هذا الجبل ليس- بكل تأكيد- مدينة القدس الفلسطينية لأن القدس لا تقع فوق جبل وليست قرب جبل.

إن إلحاح التوراة على تصوير قَدس - قدش كجبل؛ هو وحده الذي يفسر لنا الالتباس الفظيع في أذهان قراء التوراة من اليهود المتدينيين، الذين يؤمنون بأن قدس التوراة هي جبل، ولكنهم يتعامون عن رؤية حقيقة أن قدس فلسطين ليست جبلاً. كما أن المدينة لا تقع فوق جبل؟ هذا الالتباس مصدره الخلط بين قدش التوراة وقدس فلسطين[(١)].

ها هنا وصف الهمداني لجبل قدس (صفة: ٨٦):

ثم طلعت الجبال، وكان منها الأبيض جبل العَرَج وقدس وآرة والأشعر. وهذه جبال ما بين مكة والمدينة عن يمين الخارج من مكة إلى المدينة.

قال حسان بن ثابت (في قصيدة تنتمي إلى شعره الجاهلي الهجائي المُقذع الذي اشتهر به):

رب خالةٍ لكَ بين قُدسٍ وآرةٍ   تحتَ البِشام ورَفعُها لم يُغسَلِ

تسعى وترقصُ حول أيرِ حمارها   حتى يكاد يمسها أو يفعلِ

يتناغم هذا التوصيف لجبل قدس - حيث يرقص الطائفون حول الجبل رقصاتٍ دينية يهجوها الشاعر بأقذع الألفاظ- مع توصيف المواضع السابقة. ها هنا قدس التي قصدها إبراهيم في هجرته من ها-نجب باتجاه مكة من أجل أن يُقيم قواعد البيت الحرام - بحسب الرواية التاريخية والدينية عن بناء الكعبة-قبل أن ينزل في جرار أسفل نجران، أي: في الامتداد الرملي لما يُعرف اليوم بـ(نفود الدحى). قال كثير:

---

(١) انظر ما كتبناه عن قدس في (فلسطين المتخيلة- مصدر مذكور) في فصل طويل عن ثلاثة أماكن باسم قدس وردت في التوراة.

كـأن أخـاه فـي الـنـوائـب مـلـجـأ إلى عـلـمٍ من ركـن قـدس الـمُـنَـطّـق

وهذا الوصف يشير بما لا يقبل اللبس إلى المقصود من قدس الجبل الشامخ في بطن وادي الرمة، وهو ما يتوافق تماماً مع مقاصد النص التوراتي. وبالطبع ليست مدينة القدس الفلسطينية مَعْلماً جبلياً.

الفصل السادس

عودة إلى قصص سِفر التكوين: حبرون ليست الخليل

١

يعيش اليوم نحو ٤٠٠مستوطن يهودي في الخليل الفلسطينية، جاء معظمهم من أمريكة وأوربة؛ وهم يحولون حياة نحو عشرين ألفاً من الفلسطينيين إلى جحيم. إن هؤلاء، وتحت ضغط القراءة الاستشراقية للتوراة لا يريدون تصديق الفلسطينيين البسطاء من سكان الخليل، الذين لم يتوقفوا لحظة واحدة عن قول الحقيقة التالية ربما من دون أدلة لغوية كافية: الخليل أرض فلسطينية لم تعرف في أي وقت من التاريخ بأنها (حبرون) التي جاء إبراهيم إليها؛ وأن هذا الاسم التوراتي لا وجود له في الفضاء الجغرفي لفلسطين مهما بحث المنقبون.

ومع ذلك استمر تخيل فلسطين على هذا النحو، وغدت كل مدنها مسرحاً خيالياً لأحداث وقصص ذكرتها النصوص التوراتية. لقد تسبب هذا التخيّل في وقوع مظالم لا حدود لها، ناجمة في الأساس عن ذلك القدر

المفرط من التأويل الاستشراقي لكل اسم وكل كلمة. وإزاء هذه المظالم التي لا تُطاق؛ فإن على المرء أن يصدق ما يقوله هؤلاء البسطاء المقهورين لا لشيء، إلا لأن ما يقوله هؤلاء هو الحقيقة بعينها حتى وإن كانوا لا يملكون الأدلة اللغوية والجغرافية. يصدر النفي الفلسطيني لوجود حبرون في هذا المكان ومن حيث الجوهر (نظراً لمأسوية وضع سكان الخليل) عن معرفة مستمرة ومتواصلة بالأرض. فإلى أي شيء استندت القراءة الاستشراقية لتمرير الادّعاء؟.

سوف نقوم - هنا- بإعادة تركيب للقصة التوراتية عن وصول إبراهيم إلى حبرون كما روتها التوراة: بعد أن أقام إبراهيم طويلاً في(ءرص- ها- كنعنيم: أرض الكنعانيين) توفيت زوجته سارة في موضع يُدعى قرية- ءربع: قريات أربع التي انقلب اسمها تالياً إلى حبرون. هذه الواقعة المثيولوجية التي لا يعرف التاريخ المُتحقق عنها أي شيء وانفردت التوراة بتسجيلها ضمن قصص سِفر التكوين؛ تم تلقيها مع عصر الفتوحات الأوروبية في الشرق المسلم بوصفها مروية مسرحها فلسطين، حيث تصاعدت وتعاظمت منذئذٍ المشاعر الممزوجة بالهوس الديني وتم قبولها كواقعة تاريخية ودينية، و يمكن فوق ذلك إبرازها دليلاً على وقوع الحدث التوراتي في فلسطين. لقد دارت معظم قصص سِفر التكوين (بر-ء شيت) الخاصة بإبراهيم- أبرم التوراتي في الإطار المثيولوجي للتاريخ الشفاهي الذي اختَزنتهُ الذاكرة القبائلية. وهنا لا بد من التذكير بالهاء في اللهجة اليمنية التي تدخل في تركيب الاسم أو الفعل: مثل يهريق الماء في يريق الماء ويهرعش في يرعش و إبرم: إبرهم-. إن التحول في طريقة رسم اسم إبرام- إبراهيم تدلل على العلاقة بين العبرية القديمة واللهجة اليمنية، حيث تطور استخدام أدوات التعريف وحدث الانتقال من الحروف اللاصقة (النون والياء والهاء) إلى الألف واللام (عربن - العرب، يعرم - العرم، هرجل- الرجل - يهرعش -يرعش). بهذا المعنى يجب النظر إلى

مسألة إضافة حرف الهاء إلى اسم إبرام - إبرهم في سياق تطور الحروف الصوتية. في هذه المرويات كما عند الطبري، تبزغُ صورة أثيرة ومُنَمقة لآباء العرب القُدامى؛ الذين لشد ما يبدون لنا -نحن المعاصرين-أبطالاً من صنع الخيال. ومع ذلك؛ فإنَ صورة إبراهيم العربي لا تكاد تختلف عن صورة أبرم التوراتي، فهي بامتياز صورة أب أعلى مُشترك عاش في الجزيرة العربية وليس في فلسطين. والتوراة خالية تماماً من أي إشارة إلى فلسطين أو الفلسطينيين؛ كما لا توجد أدلة لغوية أو جغرافية تسمح بالربط بين قصص إبراهيم وفلسطين. وإلى هذا كله؛ فإن أور ur التي جاء منها إبراهيم ليست في بلاد ما بين النهرين، وما من دليل على أنه جاء منها، باستثناء ما ورد في التوراة عن مكان يدعى أور الكسديم. وهذا المكان كما برهنا في فلسطين المتخيلة (مصدر مذكور) لا علاقة له ب (أور) ur العراقية القديمة؛ بل هو أور- الكساد اليمنية (الكسديم جمع كسد: الكساد).

تبدو قصص إبراهيم العربي والتوراتي (مثلها مثل قصص الشيخ الفريجي في الأساطير الإغريقية)[1] متماثلة من حيث الجوهر؛ وإلى الحد الذي يصعبُ معه الفصل بين الصورتين اللتين كونتا تاريخاً رمزياً مشتركاً للعرب، ولسائر القبائل والجماعات البدوية القديمة والبائدة ومن بينها قبيلة بني إسرائيل القحطانية اليمنية. ربما لهذا السبب وحده أو بالتعاضد مع أسباب أخرى أعمق، تبدو قصة إبراهيم وسارة قصة عربية بامتياز بالنسبة إلى مُتلقيها العربي؛ كتبت مراراً وتكراراً منذ الطفولة البعيدة للعرب عندما كان بنو إسرائيل جزءاً من شجرة الأنساب اليمنية (وكنت قد بينت بما فيه الكفاية معتقدات اليمنيين حتى العصر العباسي الأول بأن آل إسرائيل هم قبيلة يمنية، وذلك واضح من الشعر العربي القديم المعروف

(١) انظر المقاربة بين الشيخ الفريجي وإبرام في مطلع هذا الكتاب.

بالمفاخرات الشعرية بين القحطانيين والعدنانيين). إن ساردي النصوص الكلاسيكية والتقليدية بطابعها المثيولوجي المُتفرد حتى في عالمنا المعاصر، يحرصون بأكثر مما نتوقع على إعطاء المتلقي إمكانية الحصول دون عناء، على صورٍ لأماكن أو مواضع حقيقية دارت فيها مروياتهم. هذا الحرص الذي يبدو مُفرطاً في بعض الأحيان على صعيد إبراز الجغرافية الحقيقية، موازٍ للحرص المُفرط في سرد وقائع وأحداث ذات طابع خيالي غير قابل للتصديق. ولذلك يبدو سارد النص التوراتي -في سلوكه واستراتيجياته- شخصاً شديد الواقعية حين يصف الأماكن والمواضع والجبال والوديان والمنازل، وفي الآن ذاته شخصاً شديد الخيالية حين يسرد الأحداث البطولية أو التراجيديات. هذا التناقض الشكلي في سلوك سارد النص التوراتي ينتسبُ بعمق إلى تقاليد ثقافية قديمة متوارثة، تتيح له حرية إظهار مهاراته السردية، فهو واقعي حين يتعلق الأمر بالواقع الثابت، وخيالي حين يتعلق الأمر بالأحداث والبطولات. إننا لا نرى أي تناقض أو تنافر في إستراتيجيات السرد التقليدي هذه عندما نلقي نظرة فاحصة ومتأنية على الطرائق والأساليب المُتبعة قديماً؛ لأن الرواة القدماء لم يكونوا أحراراً حيال إمكانية تلفيق أو اختلاق الأماكن والمواضع، فهذا أمر غير مسموح به أو لنقل غير مقبول أو مستساغ من قبل المتلقي، الذي يرغب في رؤية المسرح الحقيقي حتى للأحداث غير الحقيقية. إنهم يبدون لنا كما لو كانوا أحراراً أمام إمكانات تصعيد الصور الشعرية للأبطال والأحداث إلى الحد الذي يُقربها من الخيال. وهذا صحيح من وجهة نظر تقنيات السرد القديم. بينما لا يمكنهم إلا أن يكونوا شديدي الواقعية إزاء وصف الجغرافية.

إن قواعد السرد القديم تفرض على السارد عناية من نوع خاص في رسم مسرح الأحداث، ولكنها بدرجة أكبر من ذلك تفرض عليه عناية

حقيقية بضبط أسماء المواضع والأماكن وتحديدها تحديداً صحيحاً ، وفي الآن ذاته تقوم بتقييد درجة تصرفه إزاء إنتاج الصور البطولية. تنتمي هذه التقاليد إلى نظام ثقافي نجد تجسيده الأعلى في الشعر الجاهلي الذي أولى عناية خاصة بالأماكن والمواضع. بهذا المعنى؛ فإننا نقبل الرواية التوراتية والعربية القديمة من حيث هي استطلاع جغرافي بتقنيات عالية للأماكن والمواضع؛ ونتردد في قبولها في الآن ذاته من حيث هي تاريخ. هذا هو جوهر موقفنا -نحن المعاصرين- الذين نتلقى النصوص القديمة. إننا مُفرطون في الحساسية إزاء البُعد الأسطوري للحدث سواء أكان هذا الحدث توراتياً أم إخبارياً عربياً كلاسيكياً كما عند الطبري والواقدي وابن منبه مثلاً؛ بينما لا نشعر بالحرج من تقبّل التوصيف الجغرافي في النصوص القديمة. إن نظرة فاحصة على الجغرافية الموصوفة في النصوص القديمة سوف تكشف لنا عن بعض الحقائق الهامة وفي أساسها : أن الأماكن حقيقية بينما الأحداث خيالية. والحال هذه؛ فإن حبرون التوراة الواردة في سِفر التكوين والتي تخيلتها القراءة الاستشراقية في صورة مدينة الخليل الفلسطينية هي مكان حقيقي لا علاقة له بفلسطين. توصف حبرون بأنها في (ءرص- كنعن: أرض كنعان واسمها القديم هو قرية-ء ربع: القرى الأربعة).

هذا يعني أنها موضع آخر لا علاقة له بالموضع الذي يحمل الاسم نفسه في قصة حروب داوود (حبرون: انظر حروب داوود في التوراة ضد ابنه)[١]. في روايتها لقصة هروب داوود سجلت التوراة أحداثاً تتعلق بابنه أبشالم الذي ذهب إلى حبرون ليُقيم فيها، بوصفها من المدن التي يسيطر عليهاالملك. وبالطبع؛ فإن حبرون داوود تختلف كل الاختلاف من حيث التوصيف عن حبرون إبراهيم كما تختلف عن الخليل الفلسطينية، لأنها

(١) (فلسطين المتخيلة) مصدر مذكور.

ليست في(ءرص-كنعن) كما أن اسمها القديم لم يكن قرية-ءربع. فضلاً عن أنها كانت العاصمة القديمة قبل يروشلم، بينما توصف حبرون إبراهيم بأنها كنعانية.

هذا التمييز ضروري من أجل تفادي الخلط بين الموضعين اللذين يحملان الاسم نفسه. لقد عرفت القبائل الكنانية موضعاً يُدعى حبرون بالفعل، ورسمه الشعراء والرواة -طِبقاً للرسم العربي- تارة في صورة حَبران وتارة في صورة حبرى. قال زيد الخيل الطائي[1]:

غَدَتْ من رُخيخٍ ثم راحت عشيّةً بحبران إرقال العقيق المُجَفر

وقال الراعي النُّمَيري:

كأنها ناشط حمّ مدامعهُ من وحش حَبْران بين النقيع والظفر

استناداً إلى توصيفات الشعر العربي القديم؛ فإن حبران هذه من الأماكن التي اندثرت وتحولت إلى مرتع جبلي للوحوش في بادية بلاد تميم. وفي الروايات التاريخية العربية-الإسلامية أن تميم الداري وفد على الرسول ﷺ فأقطعه جبل حَبران في وادي القرى من مكة. يقول كعب الأحبار الإخباري المُسلم (والحبر اليهودي في الجاهلية: ياقوت: ٢: ٢٤٤، ٢٤٥):

> أول مَنْ مات ودُفن في حَبرى: سارة زوجة إبراهيم-ع -وكان مسكنه بناحية حَبْرى فاشترى الموضع بخمسين درهماً

ومن غير شك؛ فإن معرفة كعب الأحبار[2] بوجود جبل أو ناحية من وادي القرى، غير بعيد عن رافد من روافد وادي العقيق تُدعى حبرى كان

---

(١) ت: ٩ للهجرة- ٦٣٠ م. من شعراء الجاهلية وأبطالها.

(٢) الحَبْر اليهودي ثم المُسلم المُحدث والإخباري تالياً.

إبراهيم قد دفن سارة في حقوله؛ بل ومعرفته أن الاسم الأصلي هو حَبرى، أمر يصعب الافتراض أنه لا يصدر عن معرفة مباشرة بالمكان. وأكثر من ذلك عن وعي بجغرافية المرويات التوراتية. إن يهودياً عربياً كبيراً مثل كعب الأحبار يعرف المكان الذي قصدته التوراة - بكل تأكيد- لهو أجدر من كل يهود أوربة وأمريكة اليوم، بأن يحدد مقاصد النص التوراتي طبقاً لمعارفه المباشرة ولثقافته كيهودي عربي. ولو كانت التوراة تشير إلى حبرون بوصفها الخليل الفلسطينية المزعومة حقاً، لما قال كعب الأحبار: إنّ جبل حَبرى في سِفر التكوين هو من نواحي وادي القرى، وأن إبراهيم دفن سارة هناك؟ قال المُرار الفَقعسي راثياً أخاه قتيل موقعة حبرى:

ألا قاتلَ الله الأحاديث والمِنى وطيراً جرت بين السعافاتِ والحَبْري

وقاتلَ تثريب العيافة بعدما زجرتُ فما أغنى اعتيافي ولا زجري

وما للقفول بعد بدرٍ بشاشة ولا الحي يأتيهم ولا أوبَة السفرِ

تكمن أهمية هذه المرثية الرائعة هنا: أن الشاعر يجعل من القفول جزءاً من موضع حبرى وهذا أمر مثير بالفعل، لأن الرواية التوراتية عن موت سارة تشير إلى أن إبراهيم قام بدفنها في مغارة القفل (ها- مقفله) في جبل حبرون. وهنا قول إبراهيم في النص العبري: ٢٥: ٥: ٢٤: ٦

ويتن-لي-ءت- معرة-ها- مكفله-ءشر-لو-ء شر-بقعة-شده-
(فليُعْطني مغارة المقفله التي له في النجد)

إننا لا نعرف نجداً في فلسطين التاريخية فيه مغارة جبلية تُدعى المقفله، بينما نعرف من الشعر العربي القديم ومن الروايات التاريخية

العربية، أن القفول- مفردها قفله هي في النجد الممتد من جبل حَبرى باتجاه وادي العقيق (لنلاحظ الميم أداة التعريف اليمنية المنقرضة في الاسم مقفله -القفله وقارن مع مفرد القفول: قفله). قال النابغة الذبياني:

إن القَفُولَ إلى حيّ وإنْ بَعُدوا أمسوا ودونهم ثهلان فالنيرُ

وقال الأحوص الأنصاري وهو يشاهد مدافن القتلى:

فَمَنْ بكَ بالقفولِ قريرَ عَينٍ فما أمسيتُ يعجبني القفولُ

ها هنا-حسب شهادة الحَبر اليهودي اليمني ثم المسلم كعب الأحبار يقع جبل حبرى- حبرون. وهناك في النجد الممتدد بامتداه مقبرة مقفله- قفله التي ظلت منذ عهد طويل (استمر حتى الإسلام) المبكر مكاناً، له مكانة خاصة، لدفن القتلى، فهل من دون معنى، إذن، أن يكون العرب عرفوا في طفولتهم البعيدة مدفناً مقدساً يدعى القفول، بينما عرفت التوراة مدفناً مقدساً بالاسم نفسه ها-مقفله؟ المعنى الحقيقي الذي تنطوي عليه رواية التوراة عن دفن سارة في ها- مقفله، يتصل بفكرة وجود هذا المدفن القديم الذي اعتادت القبائل على دفن قتلاها وموتاها فيه. وفي هذا الفضاء الجغرافي ليس ثمة فلسطين بكل تأكيد. لكل ذلك فإن الخليل الفلسطينية ليست ولم تكن هي ذاتها حبرون.

٢

مسألة مَمْرا: حيث تراءى الله لإبراهيم

يقول سِفر التكوين: ٢٣: ٥: ٢٤: ٦: ما يلي: إن إبراهيم طلب من بني حوثه -حوث[١] أن يبيعوه مغارة المقفلة من أجل دفن زوجته سارة. وهذا المدفن يقع حسب النص في نجد عفرون-عفر قبالة ممرا؛ وبذلك يكون إبراهيم قد حصل على حق تملك المغارة والنجد بأشجاره الممتدة حتى وادي صبب. بيد أن الجملة البسيطة في النص العبري حول بيع المغارة تعرضت للتشويه على يد المترجمين لتصبح على النحو التالي: (كل الشجر بجميع حدوده المحيطة بحقل المقفله). تمت مكافأة الاسم صبيب - في العبرية- بالكلمة العربية يحيط، بينما تذهب مقاصد النص إلى معنى آخر، فهو يريد (كل الأشجار الممتدة حتى وادي ضبيب)- بالضاد-. والضبيب وادٍ حقيقي بين ممرا ومغارة المقفله، والدليل على ذلك أن كلمة صبب مسبوقة بكلمة جبول؛ أي (مقابل ضبيب) أو (قابل ضبيب). ما أهمية ذلك؟ إن إسقاط اسم الوادي أو مكافأته بكلمة أخرى يعني أن مسرح الحدث أصبح خيالياً؛ فإذا كان المقصود هو الأشجار المحيطة بمقبرة المقفله وحسب؛ ففي هذه الحالة يجب ترجمة الجملة على النحو التالي (والمحيط الكبير من أشجار المقفلة). لقد اضطر المترجمون إلى حذف كلمة جبول بمعنى: مقابل، قابل، ما يقابل، أو يواجه (أو الكبير حسب الفهم السائد) وذلك من أجل تفادي الحرج الذي تسببه كلمة

---

(١) انظر حوث-حث عند الهمداني وفي كتابنا هذا.

صبيب العبرية في هذا السياق، وهي كلمة فُهمت على أنها تعني(ما يحيط، أو حول)؛ بينما نرى أنها اسم المكان الذي تمتد إليه حقوق إبراهيم في عفر النجد الذي حصل عليه بعد المفاوضات مع بني حوثه-حوث. وهنا النص العبري

(ويقم- سده-عفرون-ءشر-ب-مكفله-ء شر- ل-فني- ممرء- ها- سده- وها- معرة-ء شر- بو-وكل-ها-عص-ءشر-ب-سده-ءشر-ب- كل-جبول-صبب-ل- ء برهم)

والترجمة البديلة والدقيقة لهذا النص، يجب أن تلاحظ، بطبيعة الحال التوصيف الجغرافي الذي يجعل من مسرح الحدث مسرحاً حقيقياً على النحو التالي:

وأصبح لإبراهيم نجد عفرون وفيه المقفله قبالة ممرا وكل الشجر الذي في النجد وكل قابل ضبيب.

ألمحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب إلى أننا نفضل استخدام الكلمة اليمنية(قابل) التي يستعملها الهمداني في التوصيف الجغرافي، كمكافئ للكلمة العبرية جبول-بالجيم المصرية كبول-المُحيرة لعلماء التوراة، مثلما ألمحنا إلى عجز المترجمين عن تقديم مكافئ دقيق لها أو يساعد في ضبط معناها الحقيقي. ولذلك؛ فإن الجملة في هذا النص تُفيد ما يلي: وكل (قابل ضبيب) وليس كل (ما يحيط)

وفي هذا الإطار؛ لنلاحظ أن التوراة تقول ما يلي: وصل إبراهيم مهاجراً وأقام فيءرص ها-كنعني، ثم اجتاز صحراء شور وصعد جبل قدس قبل أن يُقيم في مكان يدعى جرار. وأخيراً يتحدث النص عن موت

زوجته سارة بعد وقت ما من بلوغه المكان. وحسب النص قرر إبراهيم أن يدفن سارة، على جري عادة القبائل القديمة[١] داخل مغارة. وهذا ما تبرهن عليه الحفريات اليمنية عن أشكال وأساليب الدفن القديمة فقد كان الدفن يجري داخل الكهوف والمغارات؛ وكمثال على ذلك ما تزعمه الإخباريات اليمنية عن دفن النبي هود-يهوذا في مغارة من مغارات حضرموت في منطقة الأحقاف وهي في التوراة حقف.

حصل إبراهيم بعد مفاوضات شاقة مع شيوخ القبائل من بني حوثه-حوث على حق شراء وتملك مغارة المقفلة، وكل النجد بأشجاره قبالة ممرا حتى قابل وادي (ضبيب).

إليكم وصف الهمداني لهذه المواضع (صفة: ٢٥٩- ٢٦٠):

والحصاة حصاة جبلة يحفها بطن السرير وهو أسفل وادي الرمة، وفي أسفله وسط الشور وهو فيف مطيريح طوله خمسة أميال(..) ومن قصدَ شرقي الحمى بين ثهلان وابن دخن والخوان (..) بظهر-جبل-النير بينه وبين الجنوب بطن العبري وإحساء بني حوثه والضبيب.

ها هنا المكان نفسه الذي سبق لنا تحديده: وادي الرمة حيث جبل قدس. وها هنا بنو حوث-حوثه وصحراء شور - شور في التوراة التي قطعها إبراهيم متجهاً صوب وادي الضبيب. وها كم اسم المكان الذي يقيم فيه بنو سعد. وهؤلاء أعطوا وادي جرار اسمهم (صفة: ٣٦٧):

---

(١) تشير اكتشافات علماء الآثار في اليمن إلى وجود نمط الدفن في مغارات وكهوف، وهو أمر تؤيده إخباريات اليمنيين وأساطيرهم (انظر، مثلاً: التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه وأخبار اليمن لعبيد بن شرية الجُرهُمي).

ومن الدهناء: الوحيد منقطع مشرف على حفري بني سعد إلى الصمان، والمروت[١] (..) ومعدن الحفير بناحية عماية ومعدن الضبيب.

توضح هذه التحديدات الجغرافية أفضل تحديد، أجواء القصة البدوية القديمة عن إبراهيم؛ فهو مضى في البادية طويلاً قبل أن يستقر به المقام في وادي جرار، ثم توجه منها كما تقول الروايات الدينية العربية-الإسلامية إلى مكة لبناء البيت المقدس للعرب، ومن ثم ليحفر بئر شبع وهي عند العرب شباعة[٢] (الاسم القديم لبئر زمزم). وبطبيعة الحال؛ فإن القصة لا تملك مقومات التاريخ ومواده الثابتة، ولكنها في المقابل وككل قصة بدوية شفاهية تجري في مسرح معلوم، من دون أن تكون لها الصدقية ذاتها التي يملكها التحديد الجغرافي للمواضع. إن المروية التوراتية عن حفر بئر شبع-شباعة والتي تخيلها التوراتيون في صورة بئر السبع، يجب أن تحيلنا إلى معتقدات العرب القديمة القائلة: إن زمزم كانت تُدعى في زمن إبراهيم شباعة، وأنه هو الذي حفرها. ومن غير شك؛ فإن الجغرافية الموصوفة هنا تساهم في تقبل الحقيقة عن مسرح قصص سِفر التكوين، إذ سيكون أمراً منطقياً ومقبولاً للغاية تصديق سارد النص الذي يخبرنا بوصول إبراهيم إلى مكان بعينه سوف يُدعى تالياً بئر شبع وهو (شباعة القديمة أي زمزم) لأن المسير من وادي الرمة باتجاه مكة، هو سير في اتجاه متوافق مع الحقيقة الجغرافية للمنطقة؛ بينما سيكون مستحيلاً تخيل رحلة إبراهيم من القدس العربية في فلسطين باتجاه غزة، فالنقب، فبئر

---

(١) انظر الفصل السابق ما كتبناه حول (المروت) التي رسمها المحققون في صورة (نروت).

(٢) في كثير من الموارد القديمة تسمى زمزم: شباعة، وهو ذاته الاسم التوراتي (انظر مثلاً: أخبار مكة للأزرقي).

السبع. بكلام آخر؛ فإن جغرافية فلسطين التاريخية لا تتضمن المواضع التي قصدها إبراهيم، كما أن السير نحو بئر السبع من مدينة القدس سيكون ضرباً من الخيال. بينما وعلى الضد من ذلك، تبدو الصحراء التي قطعها بطل القصة التورتية وكأنها تفضي به تلقائياً وبسهولة، من جبل قَدَس (قَدَش) في وادي الرمة حتى شباعة. وهكذا فالوصول إلى بئر سبع الفلسطينية في الصحراء انطلاقاً من القدس العربية يصبح ضرباً من المستحيل. والسبب بسيط للغاية؛ إذ كيف يمكن لنا تصديق مثل هذا التوصيف لأماكن جغرافية متعاكسة يستحيل التوفيق بينها؟ هذا ما سوف نراه بوضوح في مسألة ممرا. يضيف النص العبري الآنف ما يلي:

(ب- كل - جبول- صبيب- ل- ءبرهم -
ل-مقنه- ل-عيني- بني - حت-ب-كل-
بنيء-شعر-عيرو-وءحري-كن-قبر-ءبرهم-ءت- سره-ءشتو-ءل-معرة-سده-ها-مقفله-عل-فني- ممرء- هوء-حبرون.)

ما يقوله هذا النص هو التالي:

(وبشهادة بني حث- حوث،
وكل بني شعر وحَرْيَة أصبح كل قابل ضبيب ومضاربها لإبراهيم
فدفن إبراهيم سارة في مغارة النجد في المقفله
قبالة ممرا التي هي حبرون)

لدينا في هذا النص ما يشير إلى أن إبراهيم تحادث مع بني حوثه- وهم عند الهمداني بنو حوث، واشترى منهم المدفن في مغارة النجد بشهادة رجال من بني شعر-وعند الهمداني هم سكان جبل أشعر، وبشهادة

كل بنيء حَرْي - وعند الهمداني قبيلة الحر من الأزد؛ قبل أن يقوم بدفن سارة في مغارة المقفلة قبالة ممرا- وهي ممر في الشعر الجاهلي. أما حبرون الواردة في هذا النص؛ فإنها ذاتها ممرا وهي ليست الخليل الفلسطينية بكل تأكيد. هذا يعني أن حبرون إبراهيم لا صلة لها بجغرافية حبرون المزعومة في فلسطين، فهي تظهر أمامنا في هذا النص وبفضل قراءة صحيحة خالية من التأويل الاستشراقي كمكان لا صلة له بالخليل؛ إذ لا يعُرَف عن الخليل أنها كانت ذات يوم تدعى ممرا أو أنها في النجد وفيها مغارة المقفلة. كما أن فلسطين لا تعرف صحراء تدعى شور تفضي إلى القدس أو غزة أو النقب؟ يعني هذا كله أن حبرون التوراة موضع لا صلة له قط بالخليل الفلسطينية. لقد قام مترجمو النص العبري بترجمة الجملة (كل - بنيء- شعر-عيرو- وء حري) إلى (وكل من دخل باب مدينته) وهذه ترجمة عجيبة فهي تُسقط عن عمد كلمة ءحري من سياق النص دون وجه حق، ربما لأنها غير مفهومة بالنسبة إلى محققي التوراة ومترجميها وحتى لقرائها من المتدينين. في الواقع، وحسب النص العبري حصل إبراهيم على المقبرة في نجد عفرون على مرأى ومسمع من القبائل التي حضرت الجنازة، ومن هذه القبائل قبيلة بني شعر- بنيء-شعر وقبيلة الحر-ءحري، ولم يكن ثمة باب للمدينة يدخله كل من شاء بحيث يصبح جزءاً من مفاوضات شراء المدفن؟ إن الأسماء الواردة في هذا النص والتوصيفات التي تُعطى لحبرون التوراتية يمكنها أن تدحض بسهولة المزاعم القائلة: إن الخليل الفلسطينية هي حبرون إبراهيم.

ومن أجل استكمال رسم صورة ممرا هذه. اليكم ما يلي:

في سِفر التكوين (النص العربي: ١٨ : ٢ : ٢٥ : الإصحاح ١٨- النص العبري: ١٧ : ١٧ : ١٨ : ١٠ :) قصة أخرى عن تجلي الرب لإبراهيم - إبرم في ءلني-ممر- بلوطة ممْرا:

وتجلى الربُّ لهُ عند ء لني- ممْر وهو جالس بباب الخيمة.

في بحثه عن هذا المكان التوراتي توصل د. كمال صليبي إلى الاستنتاج التالي(خفايا التوراة: ٩٨):

(.. وقد سبق لي-في كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب-تعريف ممرا-ممرء التي كانت موطن إبرام العبراني، على أنها بلدة نمر الحالية في تهامة جنوب الحجاز المحاذية لمرتفعات عسير)

يُمَثل هذا المُقتَطَف من نص كمال صليبي، نموذجاً حياً عن نوع المشكلات الفكرية والتقنية في معالجة القصص غير التاريخية. كما يمثل نموذجاً عمّا يمكن أن يسفر عنه التعسف في ضبط وتحديد، أوتعريف المواضع الجغرافية، باستخدام تِقْنيات قلب الحروف الأصلية والتلاعب بها، وذلك بافتراض حدوث تغيرات فونوطيقية عالية، ينجم عنها انقلاب لغوي مذهل في شكل نطق الأسماء. ولما كنا ضربنا أمثلة عدة عن أشكال هذا الانقلاب وظروف حدوثه؛ ورأينا أن مثل هذه التغيّرات المحتملة لا تؤكد بالضرورة وقوع مثل هذا الانقلاب الفونوطيقي بسهولة؛ فإن فرضية كمال صليبي في هذه الحالة، ستكون مَبْنية على لُعبة لغوية لا على أدلة حقيقية وهي مُصممة لغرض واحد، تجسده لعبة إرغام الأسماء في بلاد عسير على التماثل مع جغرافية التوراة. إن هذه التِّقنية، في الجوهر، نوع من استشراق مقلوب يُعيد إنتاج طرائق القراءة الأوربية للتوراة. وهذا هو جوهر اعتراضنا على كتاب صليبي ومعالجاته.

ليست قرية نمر في جنوب الحجاز هي ذاتها ممرء التوراتية، ولا يوجد أي دليل آخر يؤكد صحة الفرضية؛ بل إن ممرء التوراتية هي ذاتها ممر العربية القديمة التي ذكرها الشعر الجاهلي وعرفها فرسان العرب في

المكان نفسه حسب وصف التوراة (قبالة مقفله في النجد). قال شاعر اليمن وفارسها عمرو بن معد يكرب- كرب الزبيدي (معجم البكري: ١٢٦١):

ويومَ ممر قد حَميَتْ لقائحي   وضَبْني عن أبناء جُعفٍ ومازنِ

يرتبط يوم ممر- ممرء هذا، في الشعر العربي القديم، بيوم شهير من أيام العرب وقع فيه قتال بين همدان وزبيد (بني الجُشاش من همدان وقبيلة الشاعر من زبيد) حيث احتمى خصمه في أثناء القتال بموضع حصين؛ يُوصف في الشعر والمرويات العربية -اليمنية بأنه: موضع جبلي كثيف الأشجار، يقع على أطراف بلد همدان عند تهامة اليمن بين نجد والسراة. ويستدل من قصيدة رائعة لذي الرمة أن ممر هذه مكان جبلي كثيف الأشجار بالفعل وليست قرية النمر كما توهم صليبي قال:

كأني ورحْلي فوق أحقبَ لاحهُ   من الصيف شل المُخلفاتِ الرواجع

ممر أمرت مَتنهُ أسدية   يمانية حلت جنوب المضاجع

دعاها من الأصلاب أصلاب شُنطبٍ   أخاديدُ عهدٍ مستحيل المواقع

كسا الأرض بُهمى غضة حبشية   نؤاساً وبقعان الظهور الأقارع

هذه هي ممرا اليمنية موضع كثيف الأشجار وتماماً كما وصفتها التوراة.

وقال كعب بن زهير:

فكأني كسوتُ ذلك رحلي   أو ممرَ السراة جأباً ذريرا

أما زهير بن أبي سلمى؛ فإنه يُحدد على أكمل وجه موضع ممر في قصيدة رائعة وشهيرة يقول مطلعها:

لِمَنْ طلل كالوحي عافٍ منازلهُ عفا الرس فالرسيسُ فعاقلُه
فرَقدَ فصاراتٍ فأكناف منعجٍ فشرقي سلمى حوضه فأجاولهُ
فوادي البدي فالطوي فثادقٍ فوادي القنان جزعهُ فأفاكلهُ
وغيثٍ من الوسمي حوٍ تلاعهُ أجابت روابيه النجا وهواطلهُ
هبطتُ بممسودِ النواشر سابح ممر أسيل الخد نهدٍ مراكلهُ

وكنا قد حددنا معظم هذه المواضع والأماكن فيما سلف من صفحات وفصول هذا الكتاب. ومع ذلك لا بد من ملاحظة أن وجود بطل الأسطورة أو القصة التراثية العربية، في مكان كثيف الأشجار ينسجم كل الانسجام مع منطوق الأسطورة الإغريقية حيث تحوّل البطل بعد أن تجلى له الإله؛ إلى شجرة بلوط (وهذا ما يقوله النص التوراتي أيضاً عن وجود البطل قرب شجرة بلوط).

قد تكون هذه القصائد كافية بحد ذاتها، وفي إطار قراءة مُعمقة للدلالات والصور التي تتضمنها؛ للبرهنة على أن ما يُدعى ءلني- ممرء في التوراة (بلوطة ممرا) إنما هو المكان نفسه إلى الشرق من جبل سلمى في وادي الرمة وعلى مقربة من وادي القنان-قنه في التوراة. وهذه هي حبرون الجبل (أو جبل حبرى) الذي تحدثت عنه رواية كعب الأحبار الحبراليهودي اليمني والإخباري المسلم تالياً.

الفصل السابع

نشيد الانتصار في أرنون
والاستيلاء على الشعر الجاهلي
(إعادة تركيب التاريخ في قصائد سِفر العدد)

احتارعلماء التوراة في الطريقة التي يتوجبُ اتباعها لأجل فهم وتأويل القصيدة الواردة في سِفر العدد (النص العربي: ٢١: ١٨: ٣١: الإصحاح ٢١ - والنص العبري: ٢١: ١٩: ٣٣:) فهي تُنسب إلى الشعراء بإطلاق؛ ومن دون تحديد واضح لقائلها أو مَنْ هم هؤلاء الشعراء الذين كتبوا كلماتها أولأي غرض كتبوا القصيدة؟ وأخيراً: لماذا افترض محققو التوراة أنها " نشيد انتصار إسرائيلي " بحسب التعريف بهوية القصيدة الذي توصلوا إليه؟ القصيدة برأينا ومن حيث البناء الشعري تماثلُ؛ لا من حيث الشكل وحسب، وإنما من حيث وظائفها الشعرية والدينية وموضوعها الصاخب ومادتها الحارة والانفعالية كذلك، سائر القصائد الجاهلية وعلى وجه الخصوص القصائد المعروفة في شعر الحماسة العربية؛ كما أنها تبدأ بالمطالع التقليدية المألوفة: الوقوف على الأطلال. هذه القصيدة التي لا يُعرف قائلها، وتُنسب إلى ذاكرة بدويةرعوية جماعية؛ يمكن تفكيكها وفحص نبرتها الحماسية وروحها البطولية النبوية

المُخْتَزَنة فيها. لقد كانت هذه الروح شديدة الجاذبية والإغراء بالنسبة إلى القراءة الاستشراقية وإلى الدرجة التي تخيلتها وكأنها " نشيد انتصار إسرائيلي " على جماعات يستحيل التعرف عليها. وهذا أمر هام للغاية في تحليل القصيدة؛ إذ بدلاً من أن نرى فيها مزيجاً مُتْقَناً من شعر الحماسة والوقوف على الأطلال، وهما ميزتان بارزتان في الشعر القديم برمته، جرت محاولة مثيرة لرؤيتها على أنها تنتسب إلى جماعة بعينها ومن دون أي دليل. ومن ثمَّ؛ فإن لمن العدل أن يُعاد تنسيبها إلى التقاليد الشعرية العربية القديمة دون تردد أو حيرة أو تحايل على التاريخ.

إن الأغراض الشعرية هي التي سوف تكشف لنا الحقيقة عن قائل القصيدة والمناسبة التي قيلت فيها، ولكن ولأجل فهم أعمق وأفضل لما يُدعى نشيد الانتصار؛ وهو وصف استشراقي بامتياز لم يرد في نص القصيدة ولا أصل له؛ فسوف نعالج -في سياق تفكيك البُنى الشعرية- مسألة انتسابها إلى الخزان الشعري العتيق للقبائل العربية البائدة، التي لطالما تغنت بحروبها وأيامها. إننا لا نكاد نعرف الشيء الكثير عن هذه الحروب المُستعرة والمتواصلة بقسوة ودون رحمة، ولكن الشعر القديم الضائع والذي لم يصلنا لأنه كتب على الأرجح بلهجات القبائل، ومنها العبرية بما هي لهجة يمنية منقرضة، هوالذي سوف يوضح لنا وعلى أكمل وجه، الصلة بينه وبين هذه القصيدة.

اللافت للانتباه أن بُنية القصيدة تشير إلى كونها من بقايا قصيدة طويلة، ضاع أصلها وتشظى القسم الأعظم منها كما هو واضح من مادتها التي تم دمجها في سردية تقليدية؛ لكأن سارد النص قام باستخدام بقايا القصيدة وتوظيفه في إطار سردي لرواية حدث لا نعرف عنه الكثير. في نهاية المطاف؛ سيكون ممكناً رؤيتها على أنها بقايا موروث شعري وثقافي، لا تصّح نسبته إلى قبيلة بعينها أوجماعة بشرية مستقلة عن

الجماعات الاخرى أو غريبة عنها. ولنلاحظ أن النص العبري يصف القصيدة بأنها (ء مر-ها-مشليم) أي (وقالت الأمثال) ذلك ما يدعم بصورة غير مُتوقعة فكرة كون القصيدة، في الأصل، بقايا عمل شعري أكبر لم يصلنا توارى فيه الشاعر وراء ثقافة الأمثال، وهذه ثقافة حقيقية كان لها حضور قوي في مجتمعات القبائل. يدور موضوع القصيدة حول حروب نشبت ذات يوم بعيد بين قبائل وجماعات، للسيطرة على الأرض الخصبة وطرد السكان الأصليين. وتبدأ-على غرار المُعلقات الجاهلية- بذكر أسماء المواضع والأماكن التي جرت فيها المواجهات الدامية. وبالطبع ليس ثمة أدب قديم يضاهي في قيمته وميزته-من هذه الناحية- الشعر العربي بتقاليده الأدبية المستمرة. إن طاقة الشعر الجاهلي على ابراز وإظهار هذه الخاصيات تكاد تكون فريدة.

هنا النص العربي (٢١ : ١٩ : ٣٣:) والنص العبري (٢١ : ١٨ : ٣١):

التوراة العربية	النص العبري
أدخلوا حشبون تُبن	ب‌ءو-حشبون- تبنه-عير-سيحون
ولتُرسّخ مدينة سيحون	كي-ءش-يصئه-م-حشبون-لهبه-م-قريت-سيحون
لأن ناراً خرجت من حشبون	ء كله-عر-موءب
ولهيباً من مدينة سيحون	ب-عله-ب-موة-ء رنن-
فأكلت عار موآب	ء وي-لك-موءب-ء بدت-عم-كموس
وأسياد مشارف أرنون	نتن-بنيو-فليطم- وبنيتو-ب-شبيت-ل-ملك- ء
ويل لك ياموآب	مري- سيحون
هلكت ياشعب كموش	ونيرم-ء بد-حشبون-عد-ديبون

لقد جعل بنيه مشردين

وبناته سبايا

للملك الأموري

أمطرنا عليهم السهام

واجتحناهم

حتى نوفح قرب ميدبا

فأقام إسرائيل بأرض الأموريين

ونشيم-عد-نفح-ء شر-عد-ميدبء

ويشب-يسرءل-ب-ء رص-ها-ءمري)

الترجمة البديلة

(دخلوا تبن وحشبون

ومنازل سيحون

وكالنار خرج لهيبهم من حشبون

ومن قرية سيحون

يلتهم العرّ في مآب وعلّة وماوة وأرنون

فولولي ياماَب

أيفنى شعب كامُس

وفلول أبنائه وبناته

سبايا لملك سيحون الأموري يُعطون؟

جبل النيّر خسرته حشبون

ومن نسيم طردناهم حتى ديبون

حتى نفح عند مذاب

وفي أرض العموريين يابني إسرائيل تمضون

المهمة الأولى والجوهرية بالنسبة إلى ناقد هذا النص الشعري، هي إعادة ضبط أسماء المواضع الواردة فيه؛ ولهذا الغرض قمنا بإعادة ترجمة القصيدة والالتزام بما ورد فيها من توصيفات وتحديدات، بخلاف ما فعل مترجمو النص في النسخة العربية المُعتمدة من التوراة، عندما أسقطوا أسماء بعض المواضع ظانين أنها كلمات غير مفهومة أو وردت سهواً في النص. وهذا ما سوف نُبيّنه بالتفصيل.

أسماء الأماكن والمواضع والجماعات كما وردت في النص العبري

الاسم العبري	الضبط العربي
- تُبْنُه	(تُبن)
-سيحون	(سيحون)
-سيحن	(سيحان)
-موءب	(مآب)
-أرنون	(أرنن)
-كموس	(كامس)
-ديبون	(ذيْبَنْ)
-ميدبء	(مذاب)
- نشيم	(نسيم)
- نفح	(نفحه)
- موة	(ماوة)
- نيرم	(النير)
عله	(عُله)

هذه هي المواضع التي دار فيها القتال حيث تغنى الشاعر المجهول بالانتصار. ومن الواضح أن أياً منها لا وجود له في فلسطين التاريخية؛ فكيف تسنى اعتبارها هناك؟ليس ثمة موضع يُدعى تبْن ينسَبُ إلى حشبون فيدعى: حشبون تبْن كما في الترجمة السائدة لا في فلسطين ولا في بلاد عسير؛ بل ثمة تبن كانت- ذات يوم - من منازل ومضارب قبيلة الحواشب اليمنيين الذين أقاموا قرب ساحل زُبيد. ومن غير شك؛ فإن وجود هذا الموضع على الساحل اليمني سوف يحدد لنا وعلى أكمل وجه، المسرح الحقيقي للمعارك. يقدم الهمداني وصفاً دقيقاً لتُبْن ويرسمها تماماً كما في النص العبري (صفة: ١٤٠):

ثم وادي زبيد، وما بين بلد بني مجيد وأبْيَنْ من الأودية تلقاء المشرق وادي الرغادة (..) ودلال، وميتم، وتبْن.

تبْن هذه لا تعرف اليوم مثلما لاحظ محقق الكتاب العلامة الأكوع (كما لا تعرف تبْن أخرى في لحج القريبة من عدن) وذلك لأن المكان اندثر وضاع نهائياً. ولولا أن شعراء حمير ومعهم الهمداني شاهدوا وسجلوا اسم هذا الموضع لكنا اليوم في حيرة من أمر القصيدة. لقد نسبت القصيدة تبْن هذه، وتماماً كما في النص العبري، إلى حشبون وليس إلى أي جماعة أو قبيلة أخرى، وهذا أمر في غاية الأهمية ويستحيل ردّه إلى المصادفة. ها هنا اسم جماعة قبائلية يمنية يسميها الهمداني الحواشب، وهم من سكان ساحل زبيد. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٩٥):

ويُفضي قاع جبأ في المُنحدر إلى ناحية بلد مجيد إلى كثير من قُرى المعافر مثل حرازة وُصحار وغزارة والدمينه (...) وسكان صبر الركب والحواشب من حِمْيَر ورأسهم والقائم بأمرهم عبد الجبار بن الربيع الحوشبي.

ها هنا بلد مجيد -مجدو التوراة في منازلهم وديارهم الساحلية وها هنا تبْن (كما في النص السابق). وهناك غير بعيد عنهم سكان جبل صبر من الحواشب (الحشبونيين). هذا هو- برأينا- المكان الذي اندلعت فيه المعارك بين بني إسرائيل والحواشب الحِمْيَريين للسيطرة على الساحل اليمني. وكنا رأينا كيف أن الهمداني يحدد موضع تبْن هذه استناداً إلى مشاهداته الشخصية ومعرفته المباشرة بجغرافية بلاده، ففي عصره كان لا يزال هناك أثر دال على المكان هو مسيل مياه يحمل اسم تبْن ويُدعى سيل تُبْن، أقام فيه الواقديون. إليكم ما يقوله الهمداني عن هذا الأثر (صفة: ١٩٢):

> بنو الحبل يسكنها قوم يعرفون بالأعدون منسوبون إلى عدن. وبنو الطفيل من بني الحبل، يسكنها قوم من بني مجيد (..) وتبْن يسكنها الواقديون

وقال الحميري الشاعر[١]

هلا وقفتَ على الأطلالِ من تبْنِ   وما وقوفُ كبيرِ السن بالدمَنِ

هذه هي تبْن التي خربتها الحروب بين القبائل الساحلية وها هنا أطلالها. فهل ينطوي الأمر على مفاجأة؟ هو ذا وادينا وها هنا قبائلنا. هذا يعني أن تُبْن حشبون مكان حقيقي؛ والكلمة، حتى وإن بدت غريبة وشاذة في البناء الشعري، فهي كلمة عبرية-عربية قديمة (لا تعني: ترسخ، انبنى، بنوا من العبرية تبنه) مثلما توهم المترجمون؛ بل هي (تُبْن) اسم مكان منسوب للحواشب الحميريين (الحشبونيين). تقول القصيدة في اللغة العبرية:

---

(١) أخباره في الأغاني.

(ء كله - عر- موءب- ب- عله

ب- موة- ء رنن.)

ولأن المترجمين لم يفهموا على وجه التحديد، مقاصد النص الشعري من كلمة عرّ؛ فقد انصرف خيالهم إلى أنها تعني العار. وهذا غير معقول. ولذلك تبدو القصيدة غير مفهومة حين تقول:- النص العربي من التوراة-:

(أكلت عار موآب

وأسياد مشارف أرنون)

في الواقع لا يمكن لأي قارئ أن يفهم هذا الشطر من القصيدة مهما حاول؛ إذ كيف يمكن للنيران أن تلتهم (عار) الإنسان؟. كما لا يوجد ما يدل على المعنى الوارد في البيت الشعري الآنف. كل ما في الأمر أن الشاعر وبعد أن تحدث عن النيران التي تخرج من حشبون وتُبْن أي نيران المعارك المندلعة؛ عاد ليُحذر من أن هذه النيران سوف تلتهم عر- موآب (مآب). والعرّ هو الجبل الشامخ في المكان نفسه (مثل عرّ عدن - انظر الخريطة). يُدلل هذا التماثل على أن القصيدة لم تأتِ على ذكر العار الذي يلحق بالقبيلة بحيث يصل إلى أسياد مشارف أرنون. إننا لا نفهم المقاصد من هذه الجملة الغريبة (أسياد مشارف أرنون) ونراهن على أن أحداً من المترجمين أوالمحققين لا يستطيع أن يدلنا على أي معنى لها. بينما على العكس من ذلك ستكون الجملة مفهومة حين نعيد ترجمتها بدقة إلى:

فتأكل العر في مآب

وفي عُله

وفي ماوة و أرنون

وهذه مواضع وقبائل يمنية في الفضاء الجغرافي نفسه للمعارك. يقع جبل العرّ في سرو حِمْيَر (ما يُعرف اليوم بيافع على مقربة من قعطبة اليوم)

إلى جوار عله - ب- عله، تماماً كما في القصيدة. إليكم ما يقوله الهمداني (صفة: ١٧٢):

سرو حِمْيَر وأوديته وسكانه: والعرّ وثمر وحُبَه وُعلة فالعرّ لأذان وُعلة الأصووُت من يافع (..) ومن الأودية الضباب ووادي حضر الذي فيه محجة عدن إلى صنعاء.

تعني كلمة عر-العرّ، الجبل المُنيف المرتفع مثل عر عدن، عر-عد: الجبل غزير المياه. وهذه توصيفات يستحيل رؤية ما يماثلها إلا في الثقافة اليمنية القديمة. وذلك ما يدعم نظريتنا القائلة: إن التوراة تتحدث عن جغرافية يمنيية وليس عن جغرافية فلسطين. إن قيمة النص الآنف والتي لا تُقدر بثمن، تكمن في أنه يقدم لنا اسم السبط الإسرائيلي الذي خاض المعارك في هذا الجبل؛ نعني سبط دان-أذان (وهو عند الهمداني يرسم بالذال المُعجمة التي تفتقدها العبرية). هذا السبط لم يعد له وجود منذ زمن طويل والعلامة الأكوع يشير إلى أن هذه القبيلة لا تعرف اليوم. لقد تلاشت من المسرح التاريخي ولم يتبق من ذكرٍ لها إلا في الأماكن التي وصفها الهمداني. يعني هذا أن الشاعر وفي معرض إشارته إلى المعارك التي خاضتها الأسباط الإسرائيلية في جبل عرّ بقيادة السبط دان-أذان؛ إنما كان يتحدث عن الفضاء الجغرافي ذاته حيث نشب القتال بين الحِمْيَريين، لأن المعارك كانت تجري في سرو حِمْير ثم امتدت لتشمل وادي عُله. وعُلة هذه تتبع يافع وتدعى عُلة الأصُووت، وهؤلاء جماعة لا تزال لها بقية في منطقة يافع اليوم. في هذا المكان يوجد وادي الضباب ووادي حضر الذي فيه محجة - طريق عدن إلى صنعاء. والضباب وادٍ لا يزال معروفاً قرب الضالع في بلاد الحواشب. تبعد بلاد الحواشب-حشبون التوراة عن قعطبة جنوباً بنحو ثلاثين كيلو متراً؛ وهذه كلها تُدعى

اليوم يافع-يافع في التوراة. فهل ينطوي الأمر على مفاجأة أخرى؟ ها هنا سبط أذان القبيلة اليمنية في سرو حِمْيَر وها هنا بلاد الحواشب وهناك جبل عرّ ووادي عُله. وعلى الطريق إلى عدن هناك تبْن حيث انطلقت شرارة المعارك.

حسب منطوق القصيدة؛ فإن نيران المعارك تخرج من حشبون تُبْن بحيث تأكل جبل العرّ، قبل أن تصل إلى وادي موة -ماوة ووادي أرنون- أرنن. لقد توهم مترجمو النص أن حرف الجر (ب) في جملة (ب-عله-ب-موة-أرنون) هو حرف من أصل الاسم، والصحيح أن الجملة تقول (في ماوة) وفي (أرنون) وهما واديان أحدهما في المكان نفسه الذي دارت فيه المعارك ويُدعى مياه ماوة. ومن وادي ماوة هذا الذي يصب في ذمار، يمكن للسائر أن يأخذ طريقه، عبر مخلاف الهان نحو وادي مذاب- ميدبء؛ الذي يشكل حداً فاصلاً بين مجموعة من المخاليف في هذ المنطقة. إليكم وصف الهمداني للموضعين (صفة: ٢٠٧-٢٠٩):

> **والأودية التي بها مطاحن الماء فهي سربة وشُراد بنا وماوة (..) وفي شمالي هذه المواضع أرض مُقري(..)والحد بين هذه المخاليف وبين جُبلان ريمة (..) مذاب.**

يؤكد هذا النص أن الوادي الصغير ماوة هو في الفضاء الجغرافي ذاته لوادي مذاب - ميدبء[1]، حيث تقيم بطون من حِمْيَر الطرف الفعلي في هذه المعارك. يعني هذا أن الشاعر كان يصف توسع القتال وامتداده حتى هذين الواديين؛ وذلك هو مغزى إشارته إلى أن القتال كالنار، التي سوف

(١) غالباً ما يرسم المترجمون والمحققون اسم مدبء العبري في صورة ميدبا، للدلالة على أن المكان المقصود هو مأدبا الأردنية. وهذا تزوير فاضح.

تلتهم فتأكل العرّ وماوة وميدبء. ليس ثمة إذن أي " عار " يحترق في هذه النيران- بحسب ما يفهم قارئ النص في النسخة العربية من التوراة - وليس هناك " مشارف سادة أرنون " ؛ بل هناك معارك ضارية كانت قبائل الحواشب وهم من العوالق الحِمْيَريين طرفاً فيها، حيث هزم حلفاؤهم من قبيلة مآب وسقطت مدنهم واحترقت. أما " نشيم " الواردة في القصيدة والتي قام المترجمون بحذفها من النص اعتباطاً، فقد توهم هؤلاء أن معناها (نساء) ولذلك احتاروا في معناها الشاذ والغريب عن مباني القصيدة. وبالفعل؛ فإن كلمة نشيم العبرية تعني نساء؛ ولكن إذا ما تقبل المترجمون هذا المعنى، والتزموا ترجمته حرفياً؛ فإن البيت الشعري في هذه الحالة سيكون على هذا النحو: (حتى نساء نفح اللواتي عند ميدبء) وهذه جملة لا سياق لها في النصّ. إن نشيم هنا لا تعني نساء؛ بل اسم الموضع الذي امتدت إليه نيران المعارك. وهذا ما فعلناه عند أعادتنا لترجمة النص على هذا النحو:

(ومن نسيم طردناهم حتى ديبون

وحتى نفح عند مذاب)

هاكم اسم وادي نشيم - نسيم بالكسر كما وصفه الهمداني (صفة: ٢٨٠-٢٨١):

> **صفة الجوف: عمران، ثم معين، وقد ذكرنا سوائله الكبار وهي مذاب(....) وطب ووداديا بني الأجدع وهذه أودية تصب من قابل نهم الشمالي (ثم) نسِم.**

يعني هذا أن المعارك امتدت إلى الجوف؛ قبل أن تنشب معركة أخرى ضارية في وادي نسم غير بعيد عن مذاب- ميدبء. والآن: سنقوم

بتحديد سائر المواضع المتبقية في القصيدة مثل نفح ونيرم وسيحون. إذا كانت مطالع القصيدة تبدأ مع حشبون وتُبن وسيحون؛ فإنها تنتهي مع نفح وميدبء. اللافت للانتباه أن الرسم العبري الذي يعطيه النص للموضعين، يختلف بعض الشيء عن الرسم العربي في النسخة المُعتمدة من التوراة، فهما يُرسمان في صورة نوفح ومأدبا، وهو نطق للاسمين مبني على الحركات الحديثة التي جاء بها العلماء التوراتيون الألمان(ن- ف- ح) و(م-ي-د-ب-ء). والصحيح أنهما نفح وميدب-مذاب. ولذا يبدو القصد فاضحاً من طريقة رسم الاسم الأخير، فهو مُصمم لغرض واحد: المُطابقة مع مأدبا الأردنية؛ وبالطبع في إطار الإيحاء بأن التوراة ذكرت اسم هذه المدينة التوراتية، أي: تحريف مضمون القصيدة وإرغام منطوقها الجغرافي على الانسجام مع المسرح الافتراضي لنشيد الانتصار الإسرائيلي في شرقي الأردن. ومن هذا المنظور؛ فإن الرسم مرفوض وغير مقبول بسبب طابعه التضليلي. والأمر ذاته ينطبق على الاسم ن-ف-ح- نفح الذي لا وجود له إلى الشرق من نهر الأردن. إن الرسم الصحيح هو نُفح - والواو حركة إعرابية وليست حرفاً من أصل الاسم-(نفحه في الرسم العربي). أما ميدبء التوراتية هذه، فليست سوى وادي مِذاب- بالذال المُعجمة-أكبر وديان اليمن في الجوف والذي تسيل مياهه باتجاه الطريق الصحراوي إلى مكة. قال شُنَيف (معجم: ١٢٠):

حتى إذا لحقت أوائل خيلنا   آخرهم وجزَعنَ بطنَ مِذابِ

ولَّت فوارسُ عامرٍ وسليمها   رغباً وما غنموا جناح ذبابِ

في هذه القصيدة يستعيد الشاعر ذكريات المعارك التقليدية ذاتها، حيث دارت رحاها في وادي مِذاب ضد بني عامر. ولنلاحظ أن القصيدة التوراتية تشير صراحة إلى معارك ضد (العموريين). إننا لا نعرف أي شيء عن معارك جرت في مأدبا الأردنية شارك فيها العموريون، ولا يوجد في

التاريخ الحقيقي المكتوب والمتحقق، أي إشارة إلى مثل هذه الصدامات بين القبائل؛ بينما نعلم من الشعر الجاهلي أن هذه المعارك كانت تشكل تاريخ المنطقة بالدم. يصف الهمداني وادي مِذاب هذا (صفة: ١٦٠-١٦١) على النحو التالي:

والوادي الثالث يظهر في زاويته التي ما بين شماله ومغربه وفروعه من بلد خولان (......) ويسقط أسيل أبذر على الأعيْن والعقلة، عقلة خطاطير فمِذاب.

هذا هو وادي مِذاب الذي دارت فيه المعارك. وإذا ما سار المرء في الجوف اليمني قاصداً نجران متتبعاً خط سير مياه الوديان التي تصب هناك؛ فسوف يجد أن وادي مِذاب هذا يصب عند أطراف جبل ذَيُبّنْ - ديبون التوراتي كما يصل إلى نُفح. وهذا - بكل تأكيد- دليل قاطع على أن القصيدة التوراتية وصفت الفضاء الجغرافي للمعارك الممتدة إلى هناك. يضبط الهمداني اسم نفح في صورة نفحة ويضعها في المكان نفسه، فهي من جبال نجران وأوديته التي تسيل باتجاه الفلج. وهذا الجبل يقع بالضبط في بلد همدان قرب منازل بلحارث (صفة: ٢٨٣):

فأسرار نجران (أي جباله ومرتفعاته) شوكان والجوز والدّاران والحمدة والجلاليان ونفحة. ويسكن هذه المواضع وادعة من همدان.

نُفحة- نُفح هذه وطِبقاً لوصف الهمداني هي من جبال وأودية نجران. تقول القصيدة أيضاً:

ونيرم-ء بد- حشبون-عد- ديبون-

ونشيم -عد- نفح-ء شر-عد- ميدبء)

وحشبون خسرت النير

فطردناهم حتى ديبون

ونسيم

حتى نفح التي عند ميدبه

هذه الترجمة الحرفية للمقطع مُفيدة لتعميق فهم القارئ وتعريفه بحقيقة التلاعب الذي جرى للنص. فهل تعرف فلسطين التاريخية موضعاً يُدعى ديبون؟ وفي الحيز ذاته للمعارك؟ وبحيث أمكن لبني إسرائيل أن يطاردوا الحشبونيين حتى مأدبا الأردنية؟ وهل هناك جبل يُدعى نيرم؟ إن نيرم-الميم هنا أداة التعريف اليمنيةالمنقرضة-سلسلة جبلية صغيرة تعرف بجبال النير. وهو بالفعل في الحيز الجغرافي نفسه الذي شهد المعارك. قال زيد الخيل(معجم، ط: بيروت: ٤: ١٧٧):

كأنّ مَحالها بالنّير حرث أثارته بُمجَمَرة صلابُ

فلما أن بدتْ أعلام لُبنى وكن لها كمُستترِ الحجابِ

عرَضناهُن من سَمل الأداوى فمُصطبح على عجلٍ وآبِ

ويوم الملح يومَ بني سُليمٍ حددناهُم بأظفارٍ ونابِ

ها هنا النمط ذاته من المعارك القبائلية (يوم الملح - انظر معارك داوود في وادي الملح ضد الآراميين) فهي تدور بين جماعات بدوية وفي أماكن ومواضع وعرة. وها هنا جبل نيرم-النيّر. يقدم الهمداني الوصف التالي للجبل (صفة: ٢٦٠ :) ويظهر النير بينه وبين الجنوب بطن العبرى وإحساء بني حوثه (انظر ما كتبناه عن بني حوثه الذين اشترى إبراهيم منهم مغرة المقفلة في سفر التكوين). ما تقوله القصيدة التوراتية حسب الترجمة يخالف منطق القراءة الأوربية؛ فليس ثمة نيرم قرب مأدبا؛ بل ليس ثمة

مأدبا أردنية قرب ديبون بينما نعلم من الهمداني أن وادي مِذاب يصب عند أطراف جبل ذَيْبَون-ذَيْبان تماماً. وهذا هو الضبط العربي للاسم في العبرية (بما أن العبرية لا تعرف حرف الذال المُعجمة). وإذا ما قمنا برسم اسم ذيبان هذا، بحسب البناء العبري في صورة: ذيبون، فسوف تكون القصيدة واضحة المقاصد والمعاني. ها هنا جبل ذَيْبان الذي تسيل إلى جواره مياه وادي مِذاب في نجران (٢١٨):

وأضحَرْ وبيَحْر والعبْلة. وماارتفع إلى جبل ذَبْيان (.....) فجميع حدود ما بين خيوان وحدود صَعْدَة كله لبكيل (..) فمِذاب، فقصران، وحَلف[١] وضَدَح أودية تصب إلى نجران.

يؤكد وصف الهمداني الآنف، على أن شاعر القصيدة التوراتية المجهول كان يصف المعارك بين القبائل، ويسجل ذكريات الهزيمة والبطولة؛ ويتباهى على غرار ما سيفعل شعراء الجاهلية تالياً، بإلحاق الهزيمة بالحواشب ومآب (حشبون وموءب). لقد خسرت القبيلة جبلها الشامخ ذَيْبان-ديبون بعد أن أُزيحت من وادي ميدبء-مِذاب ونُفح-نُفحة ونشيم-نسم. لابد هنا من لفت عناية القارئ إلى ضرورة التمييز بين ذَيبان- بتقديم الياء المُثناة من تحت-وبين ذَبيان القبيلة بتقديم الباء الموحدة، فهما اسمان مختلفان. هاهنا جبل ديبون التوراتي كما وصفه الهمداني (صفة: ٢١٧):

أما بلد همدان؛ فإنه آخذ لما بين الغائط وتهامة من نجد والسراة (..) وجبل ذَيْبان وشق محصم الشرقي وحُرمة.

(١) انظر ما كتبناه عن حلف في: فلسطين المتخيلة- وقصة حب في أورشليم (مصدران مذكوران).

هذا هو الفضاء الجغرافي الذي دارت فيه المعارك: من النجد إلى السراة إلى الغائط من نجران حتى تهامة؛ وهو مسرح جغرافي متنوع في تضاريسه. ولنلاحظ أن سفر العدد يشير في بعض آياته السابقة على القصيدة، إلى استيلاء بني إسرائيل على حرمة؟ وهنا النص: ٢١: ٣: ١٨ سفر العدد:

وسمع الكنعاني ملك عراد الساكن في النجب، أن إسرائيل عاد إلى طريق ء تريم - تريم فقاتله فسمى ذلك المكان حرمة.

فهل هي مصادفة أن نص الهمداني يصف حرمة في هذا المكان، بينما يشير سفر العدد إلى الاستيلاء على حرمة في التمهيد السردي لما يُدعى نشيد الانتصار؟. رأينا، مما أوردنا من نماذج شعرية في فصول سابقة أن الميزّة الأهم في الشعر الجاهلي، تكمن في قوة تصويره للتنوع الجغرافي للأماكن، ومهارات الشعراء في وصف التضاريس الجغرافية لمسرح المعارك بين القبائل؛ فهي تدور في الوديان والجبال والسهوب وفي البادية والنجد والسراة حيث تجترح البطولة وتحدث المأساة. ومثل هذا التنوع كافٍ بذاته للتدليل على أن القصيدة كانت تصف حروب القبائل العربية العاربة البائدة، ومنها قبيلة الحشب أو الحواشب اليمنيين ولا علاقة لهؤلاء بفلسطين. ولنلاحظ أيضاً أن شعراء الجاهلية وفي إطار التقاليد الأدبية ذاتها، يصفون لنا مسرحاً متباعد الأماكن بحيث يصعب، لمن لا يعرف بدقة جغرافية المعارك الموصوفة، تصديق أن حرباً كهذه وعلى مساحة شاسعة يمكن أن تكون قد وقعت بالفعل. ومع ذلك؛ فإن ضراوة الحروب والعصبيات القبلية وفنون القتال ومظاهر الشجاعة والصبر والقدرة على تحمل الأهوال؛ والاستعداد الفطري للانتقام مهما كانت المسافات شاسعة، تؤكد كلها أن المسرح الموصوف مقبول تماماً.

يُبين هذا المظهر بما فيه الكفاية الأغراض الأدبية المباشرة للقصيدة التوراتية؛ فهي ترسم مسرحاً جغرافيته متباعدة المواضع ومتنوع التضاريس. وبالطبع يتعين علينا ملاحظة أن المعارك لم تجرِ دفعة واحدة، ولم تستمر دون توقف؛ بل هي سلسلة من المعارك وقعت في فترات مختلفة، ولكن الشعراء يجْملونها في عمل شعري ملحمي واحد. علينا في النهاية أن نصدق فكرة وقوع الحرب بين القبائل وأن القبيلة المنتصرة لم تكف عن ملاحقة القبيلة المهزومة، برغم المسافات الشاسعة وأهوال الأمكنة وتضاريسها الوعرة، فهي تلاحقها حتى ديارها لتسبي النساء تماماً كما تقول القصيدة التوراتية.

والآن: أين تقع كامُس[(١)] هذه؟ وأين أرنون المزعومة؟ ومَنْ هي قبيلة موءب التوراتية؟ افترضت القراءة الاستشراقية أن موءب هي مآب الشام من دون إبراز سبب هذه الفرضية. وفي هذه الحالة يجب أن تكون أرنون في فلسطين إلى جوار كامس؟ بيد أن فلسطين لا تعرف أي موضع من هذه المواضع، ولأن مآب ليست مآب الشام؛ فإن سائر المواضع الأخرى في القصيدة لن يكون وجود لها في بلاد الشام؟ وهذا منطقي تماماً. ولكن؛ إذا ما صدقنا الادعاء الاستشراقي القائل أن المعارك جرت في المسرح الفلسطيني، فعلينا أن نصدق كذلك التوصيف التوراتي الذي يحدد منازل هذه القبيلة؟ في هذه الحالة سيكون هناك تناقض لا مثيل له وغير قابل للحل. هاكم أولاً وصف التوراة لمنازل بني موءب: أرنون، والتي هي خارج حدود الأموريين وهي قرب منازل بني موءب: ٢١: ٣: ١٨: سفر العدد النص العبري:

---

(١) في التوراة تدعى كامس: كر- كامس (أو كركميس في الرسم العربي - انظر الخريطة عن معركة كركامس) وكر بالعبرية تعني مرج (مرج الكامس). كما تعرف شيحون: شيحن بأنها موطن قبيلة الحواشب (وهي اليوم تدعى شيحان) وهذا توافق مذهل يستحيل رده إلى عامل المصادفة.

ءت-وهب- ب-صوفه- وءت- ها-نحايم- ء رنون -وء شد- ها- نحليم- ء شر- نطه-ل-شبت-عر- ونشعن- ل-جبول- موءب
(وتأتي وهب[1]. وفي صوفه. وتأتي أودية أرنون. مساقط الوديان التي تميل إلى شبث والعرو، ونشعان إلى قابل موءب)

إذا قمنا بمقاربة اللغة الجغرافية لهذا الوصف مع لغة الهمداني في (صفة جزيرة العرب) فسوف نلاحظ التماثل المذهل والتطابق شبه الحرفي في أسلوب الوصف (بصرف النظر عن تطابق أسماء المواضع لأن غرضنا هنا هو إعطاء نموذج وحسب، عن شكل التطابق على مستوى لغة الوصف):

مقاربة لأسلوب التوصيف

نص سفر العدد	نص الهمداني: ٢٣٥- وانظر ١٨٩
وتأتي وهب. في صوفه	من جُرش إلى صعدة تخرج من جُرش
أودية أرنون ومساقط الوديان	على بلد جنب في سعيا وادي بني بشر ثم
وتجزع إلى العرو	جزعت منه في وادي نحيان(..)
	ثم انتهيت إلى وهب فلقيت الطريق الأول هناك

توضح هذه المقاربة على أكمل وجه، فكرة تطابق أسلوب الوصف الجغرافي في الثقافة القديمة لليمنيين، فهي لغة تهتم بإبراز نوع المرتفعات

(١) انظر ما كتبناه عن وهب في التوراة وعند الهمداني في الجزء الأول من هذا الكتاب (سبط راؤوبين).

والمياه (مساقط المياه) في المكان، ولنلاحظ أن الهمداني يستعمل تعبير (جزعت) أي (ملت نحو، ذهبت صوب)بينما يستعمل سفر العدد تعبير (تميل، تجزع) أيضاً. ولأن اللغة الوصفية في (صفة جزيرة العرب) للهمداني تبدو ذات طابع غرائبي بالنسبة إلينا نحن المعاصرين؛ ربما بسبب صرامتها وتقشفها وكلماتها التي لم تعد مستخدمة في التعاملات اليومية، فقد بدت - في النص التوراتي - غرائبية وعسيرة على الفهم أيضاً؛ فيما هي تتضمن، بخلاف هذا الانطباع، التصوّر ذاته للجغرافية. ها هنا التوصيف التوراتي للطريق المؤدي إلى منازل موءب: يبتدئ من مكان يدعى في النص العبري وهب، ثم يبلغ موضعاً آخر يدعى صوفه، فالأودية المؤدية إلى موءب من موضع شبث والعرو وأخيراً نشعان.

إذا كانت موبء هذه هي مآب الشام كما يزعم محققو التوراة - وهم بذلك يناقضون النص العبري-ففي هذه الحالة يجب على علماء التوراة أن يبرهنوا على وجود مثل هذه الجغرافية؟ إن أحداً لا يعرف أي شيء عن وديان ومساقط مياه في أرنون قرب مآب الشام، كما لا يوجد موضع أو جبل أو عين ماء أو تل يدعى وهب كما لا توجد صوفه هناك؟ لنلاحظ هنا أن المترجمين أخطؤوا في ضبط الأسماء الواردة في النص. إنهم لا يعرفون أي شيء عن جغرافية المكان الموصوف، كما صادفتهم في النص أسماء غريبةلا معنى ولا مرادف أو مكافئ لها في العبرية الحديثة؛ ولذا قاموا-مثلاً- بمكافأة كلمة (شبت) بكلمة (موقع) معتقدين أن الاسم التالي هو (عار). كما ترجموا الجملة على هذا النحو: (المائل إلى موقع عار). بينما المقصود بالضبط هو (إلى شبث، والعرو) وهما مكانان معلومان في الفضاء الجغرافي ذاته للمواضع الموصوفة في النص. والجملة الصحيحة هي (إلى شبث المائل إلى العرو). وإلى هذا كله لم يضبط المترجمون ضبطاً صحيحاً اسم صوفه بحرف الصاد (فيما هي ضوفه

بالضاد. وهذا حرف لا تعرفه العبرية وتستبدله بالصاد عادة مثل ءرص: أرض). يكتب الهمداني واصفاً الموضع الأول وهب في الطريق إلى منازل قبيلة مآب ما يلي (صفة: ١٨٩):

ونعيد الصفة في أحْوَر: أولها الجثوة والمحدث قريب من البحر ثم انتهيت إلى حجر وهب من هذه الطريق فلقيت الطريق الأول هناك[١] .

هذا هو الطريق الساحلي نحو المكان نفسه: وهب حيث دارت المعارك وتمكن المآبيون من دخول بلاد حشبون (بلاد الحواشب بتعبير الهمداني). وإذا ما تتبعنا خطاه من وهب إلى ضوفه فسوف نصل إلى سائر المواضع الأخرى بسهولة. إن مخلاف أحْوَر الذي يصفه الهمداني لنا، مخلاف واسع من مخاليف اليمن الجنوبي ويقع شرقي أبْيَن ويوصف بأنه أرض ساحلية تتبع العوالق السفلى. وإذا ما سرنا صعوداً من هذا المكان قاصدين البون-بونت في التوراة فسنرى ضوفه هناك ونحن نقترب من الجوف اليمني. قال أبو داوود الإيادي واصفاً ضوافه- ضوفه التوراتية (معجم، ط: بيروت: ٤ : ٤١):

فَحـك بـذي سـلـع بَـرْكـهُ تـخـالُ الـبـوارقَ فـيـه الـذُّبـالا
فـروى الـضـوافـة مـن لـعـلـعٍ يـسـح سِـجـالاً ويَـفْـري سِـجـالا

هذه هي ضوفة التوراتية (ضوافة- بالمد) على مقربة من جبل لعلع الشهير في الشعر العربي، وهو من أشهر جبال نجد. وإذا ما سرنا في الطريق ذاته متخذين من شبيث والعرو معالم للاستدلال إلى منازل مآب؛

(١) هذا هو بالضبط الطريق ذاته الذي يصفه السفر التوراتي باللغة نفسها (تأتي وهب/ انتهيت إلى وهب).

فسوف نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام المواضع ذاتها الواردة في هذا النص. قال النابغة الجعدي (معجم: ٣: ٦٣ ط، بيروت) ذاكراً شبيث:

فقال جساس أغْثني بشربةٍ وإلا فنبيء منْ لقيت مكاني

فقال تجاوزتَ الأحص وماءه وماء شبيثٍ وهو غير دفانِ

وهاكم وصف الهمداني للعروض من نجد (صفة: ٢٨٦- ٢٨٧):

ساحل تيما وذو المروة والعيص وفيف الفحلتين وفيف الريح في أرض هوازن وخيبر إلى النقرة، إلى أرن (..) والأحص وشبيث.

ها هنا شبيث وأرنون-أرن قرب بعضهما. ولنلاحظ أن التوراة ترسم أرنون في صورتين (أرنن وأرنون). في الواقع يتضمن البناء العبري للأسماء أصلاً قديماً: أرن-أرنون -صيد-صيدون إلخ.. وهذا البناء يقوم على زيادة النون ثم أصبح تالياً بزيادة الواو والنون. وفي العربية تطورت هذه الزيادة في أحرف بناء الاسم بإضافة ألف سابقة على النون: قحطن: قحطان، عدنن:عدنان. وهذا كما نرى له صلة بالعادات الصوتية بأكثر مما له علاقة بقواعد البناء، فحيث تقيم القبائل في السهول صارت أميل إلى تخفيف عادات المد أو إلى إسقاط الهمزة أو تحويلها إلى ياء كما الحال في لغة الحجاز: فأس: فاس. بئر: بير. وحيث أقامت في السواحل صارت أميل إلى الرفع باضافة الواو إلى آخر الأسماء مجد: مجدو، أحمد، أحمدو، عبد، عبدو.

شبيث التوراة - بالثاء المثلثة- هذه لا وجود لها في فلسطين مهما فتشنا، وهي إلى جوار أرنون تماماً كما في النص التوراتي. فهل هي محض مُصادفة أن أرنون وشبث عند الهمداني وفي التوراة هما في مكان واحد؟ أما العرو فهو من أشهر الجبال على الطريق الموصل من مخلاف

صعدة إلى سراة جنب فإلى نجدها في بلد وادعة. ها هنا وصف الهمداني له (صفة: ٢٢٥):

> السرو وحرجب لبني خولان - وجبل-عنمل والمذرى وعرو فهذه بلد خولان على حدّ الاختصار وأغوارها داخلة في تهامة ويتصل بلد وادعة(..) ووادي عرد ووادي نجران.

وهذا هو جبل العرو الذي كان معلماً مثله مثل شبيث لوصف الطريق إلى منازل مآب. قال الحطيئة واصفاً منازل مآب:

أتاني وأهلي بذات الدماخِ   فلا من مآبٍ ولا من قَرَبِ

وقَرَب في هذا البيت هو وادي قَرَب الذي يصفه الهمداني (صفة: ٢٣٥) أي إنه لا يستطيع الوصول لا إلى مآب ولا إلى وادي قَرَب، بينما أتاه من يطلبه. بقوله:

> والذي يلي تيّة من غوائر الحجر: مرة، وادٍ ينصب إلى الكفيرة وحلي (..) وقرب وادٍ أهله من الحجر ساكنه إلى تهامة.

ها هنا منازل القبيلة العربية مآب (الأولى) قبل هجرتها إلى بلاد الشام. وها هنا تيه (وهي التي استولى عليها المصريون في حملة عسكرية خلدتها لوحة الكرنك الشهيرة - انظر ما كتبناه في حملة أسرحدون-). ومن الواضح أن التوصيف التوراتي لمنازل المآبيين- الموآبيين يشير إلى أنها أقرب إلى الساحل وموطنها القديم هو (حجر وهب). وكنا رأينا في نص سابق أن التوراة تحدد منازل قبيلة موءب-مآب انطلاقاً من موضع وهب. وقال ابن مقبل (صفة: ٣٥٣):

وقـريـة حَـبـل الـمقـيـظِ وأهـلـهـا   بـحـسـي مـآب تـرى قـصـور قـراهـا

احـتـلَ أهـلُـكِ ذا الـقـتـود عـرادا   فـالـصحصحـانِ فـأيـنَ منكِ نواهـا

في سفر صموئيل الثاني: ٨: ١: ١٦، تقدم التوراة وصفاً مذهلاً لهزيمة المآبيين على يد داوود في وادي حبل. (انظر ما كتبناه عن وادي حبل في فلسطين المتخيّلة- مصدر مذكور). فهل هي مُصادفة أن الشاعر يضع مآب في وادي حبل، بينما يجعلها صموئيل في المكان نفسه في سرده لحروب داوود؟ ووادي حبل هذا من الوديان التي تصب في الحجر (حجر وهب) كما يخبرنا الهمداني (صفة: ٢٣٤):

> **فأول بلاد الحجر من يمانيها عبل، وادٍ فيه الحبل ساكنه بنو مالك (..) وقرب وادِ أهله من الحجر به ساكنة إلى تهامة.**

تشير هذه التوصيفات الدقيقة إلى الأماكن نفسها الواردة في التوراة، ولكنها بدرجة موازية تشير إلى ارتباطها بأجواء ذات طابع خاص لا يمكن ردّه إلى فلسطين، التي لا تعرف في تاريخها القديم جماعات بدوية متحاربة بضراوة من أجل فرض السيطرة على الساحل، كما لا تعرف أياً من الأسماء الواردة. مثلاً: يرتبط اسم سيحون (من سيح وهو كل مسيل للمياه الجبلية) في الذاكرة العتيقة للعرب ولسائر الجماعات البائدة كما في الذاكرة اليهودية العربية باسم جيحون (سيحون وجيحون). وهذان نهران ظن التوراتيون الأوربيون أنهما خياليان أو أن لهما صلة بالأساطير الواردة في قصص التكوين وحسب. بينما نرى أنها- على الضد من هذه الصورة المِخْيالية-موضعان حقيقيان تشكلا من مسيل مياه عظيمة. لقد درجت العادة في الثقافة العربية القديمة أن يُسمي الشعراء والرواة مياه الوادي نهراً، وهذا ما تفعله التوراة أيضاً فيقال- مثلاً - إن نهراً يخترق وادي

الرمة. وبالطبع؛ فإن المقصود بالنهر الذي يخترق الوادي إنما هو مسيل المياه المندفعة في قلبه، لأن النهر لا يكون في الوادي كما نعلم. ونجد في تعبير التوراة نهر- ها- يردن دليلاً على أن المقصود مياه الوادي العظيمة (مياه الميزاب الشرقي لليمن الذي عرف ذات يوم باسم يردن)، كما يُقال عن هذا النهر في التوراة: وادي اليردن. وعند ياقوت والسكري والأصمعي أكثر من إشارة إلى نهر الرمة؛ والمقصود به وادي الرمة. إنه تعبير مجازي يُستخدم في معرض الإشارة إلى مسيل المياه في الوادي لا أكثر .

هذا التمهيد ضروري-مرة أخرى- لفهم أعمق لمقاصد النص التوراتي. فهل عرفت فلسطين القديمة نهراً أو وادياً يُدعى سيحون؟ هاكم إذن، وصف الهمداني لمسيل المياه العظيمة سيحون- قارن مع الكلمة العربية: ساحَ، بمعنى اندلقَ، مشى في الأرض، ومنها السائح-. يقول الهمداني (ولبني جعدة سيحان) وهما مسالك مياه الأودية -مثنى سيح- وفيه الأراضي الخصبة والمنازل العامرة والمدن الحصينة. وبالطبع حين كان الهمداني يكتب (صفة جزيرة العرب)، كان سوق مدينة سيحان مُحاطاً بخندق وسورٍ من الحديد، وفي وسط السوق مئتان وستون بئراً فيها ماء عذب (صفة: ٢٧٣):

ولبني جعدة سيحان يُقال لأحدهما الرقادي والآخر الأطلس .

أما كامُس فليست سوى كامُس ذاتها التي عناها نص التوراة، وهي ترسمه في صورتين مكمس و كمس - بإسقاط الميم أداة التعريف المنقرضة-. وهذا الموضع هو المكان ذاته الذي تغنى به الشعر الجاهلي ووصفه وصفاً دقيقاً. قال جابر بن حُريش (معجم، ط: بيروت: ١: ١٥١):

ولـقـد أرانـا يـاسُـمـي بـحـائـلٍ   نرعى القري فكامساً فالأصفرا

والقريّ- قريتيم في التوراة هي قرى ومضارب قبيلة بني يشكر- يسكر في التوراة قرب نجران. هذا هو نشيد الانتصار الإسرائيلي المزعوم يتكشف لنا عن قصيدة من شعر الحماسة القديم، يروي فيه شاعر مجهول بطولات القبائل وحروبها وهزائمها، في فضاء جغرافي واحد ومعلوم لا صلة له بفلسطين التاريخية والحقيقية .

في ختام هذا الجزء من فلسطين المتخيّلة، وهو الخامس؛ يرغب المؤلف في تسجيل الفكرة التالية: ليست المصادفات اللغوية هي التي تقود نص الهمداني ومعه الشعر الجاهلي والمرويات العربية الكلاسيكية، إلى التوافق أو التماثل مع نصوص التوراة؛ بل ثمة عامل هام للغاية يتعين الاعتراف به اليوم دون تردد، أن كلاً من التوراة والنصوص اليمنية- العربية كانت تصدر عن معرفة بجغرافية واحدة هي جنوب الجزيرة العربية، حيث ولدت اليهودية الأولى كدين عربي قديم، وليس عن فلسطين التي لم تتعرّف إلى اليهودية أو القبائل اليمنية المهاجرة صوبها إلا في وقتٍ متأخر للغاية قد لا يتعدى ٢٠٠ ق. م، وأن ما يبدو عناصر إغريقية(أو فينيقية) لا يتعدى كونه في الأصل البعيد مرويات عربية مهاجرة سجلتها التوراة بلغة القصص الشعبي؛ ومن ثمَّ؛ فإن البحث عن هذه العناصر لا غرض له سوى تعميق فهمنا للتوراة كنصّ إخباري - ديني سجل فيه يهود اليمن تجربتهم التاريخية هناك. لقد كانت فلسطين ضحية قراءة استشراقية، أفضت إلى تخيّلها (كوطن تاريخي للإسرائيليين القدامى) قبل أن تصبح ضحية هوس استعماري. واليوم، إذ ننزع عن هذه القراءة قشرتها الرقيقة والزائفة؛ فإن ما يبزغ أو يمثل أمام أبصارنا إنما الفضيحة الأخلاقية كاملة. لقد نشرت القراءة الاستشراقية الخاطئة نوعاً من الفوضى

في أحداث التاريخ يستحيل التخلص منها من دون تصحيح الخطأ الذي قاد إلى الفوضى، نعني تخيّل فلسطين. وتلك مهمة تتجاوز نطاق النظرية التي يطرحها هذا الكتاب للنقاش.

المصادر الأساسية المعتمدة

(القديمة والحديثة)

١- الهمداني: الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (صفة جزيرة العرب) تحقيق: العلامة محمد بن علي الأكوع - سلسلة خزانة التراث - دار الآفاق التابعة لدائرة الشؤون الثقافية العامة: بغداد ١٩٨٩.

٢- الهمداني (الإكليل: من أخبار اليمن وأنساب حِمْيَر) الكتاب العاشر: في معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها، حققه وعلق عليه، محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مكتبة الجيل الجديد - صنعاء ١٩٩٠.

٣- الهمداني (الإكليل) الكتاب الأول، تحقيق: محب الدين الخطيب، الدار اليمنية للنشر، دار المناهل، بيروت: ١٩٨٧.

٤- البكري: أبو عبيد بن عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، الوزير الفقيه المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) حققه وقدم له ووضع فهارسه الدكتور جمال طلبة، دار محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٨.

٥- البكري (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) تحقيق: مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٤٩.

٦- الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات) تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف المصرية، ١٩٨٠.

٧- الكلبي: أبو منذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي- المعروف بابن الكلبي - تحقيق: أحمد زكي، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٥.

٨- الحموي: الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية (معجم البلدان) تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي - دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٩٩٠.

٩- وانظر كتابنا (شقيقات قريش: الزواج والطعام في الموروث العربي) - الريس للنشر، بيروت ٢٠٠٢.

١٠- حول القصائد الواردة في هذا الكتاب من دون الإشارة إلى المصدر: انظر CD الشعر العربي (قرص مدمج). (الموسوعة الشعرية - أبو ظبي- الإمارات المتحدة).

١١- التوراة، الكتاب المقدس - النصّ العبري (تورة - نبئيم - كتوبيم - بعبريتو - ءنكليت THE SOCIETY FOR DISTRUTING HEBREW SCRIPTURES 1 Rectory Lane. Edhwarte. Middles H A87LF . ENGLAND U.K

١٢- الربيعي، فاضل: نواح الأقنعة: من تموز إلى إيزوريس، دراسة ضمن كتاب: السيف والقلم، مجموعة كتاب، مجلدان، شركة رياض الريّس للنشر - بيروت ١٩٩٦.

مستخلص

كتاب في خمسة أجزاء؛ يطرح نظرية ترى أن نزول التوراة كان في اليمن القديم، وليس في فلسطين، ويدلل على ذلك.

في الجزء الأول نقل المؤلف ما عند الهَمْداني في كتابه (الإكليل) في وصف أرض التوراة ببلاد السراة اليمنية، ومنازل الأسباط. ورأى في الجزء الثاني أن القدس ليست أورشليم، فتحدث خلاله عن حروب داوود عليه السلام في اليمن وفتوحه، وفتح أريحا اليمن. ثم أشار إلى حملة نبوخذ نصّر على القبائل العربية وبني إسرائيل في نجران، وحادثة السبي البابلي. وأخيراً أشار إلى شعوب التوراة وقبائلها في اليمن، وقدّم أدلة.

ثم قدم للجزء الثالث بمقدمة تساءل فيها عن الحملات الآشورية، وأين جرى حادث السبي البابلي، وشكك بأشياء كثيرة متعلقة به مما ذهب إليه المؤرخون. ثم خصص الجزء الثالث لحملات سنحاريب على بني إسرائيل في نجران، فتحدث عن مهاجمة الآشوريين للساحل اليمني، وعن معارك السراة، وإعادة بناء أورشليم في سرو حمير، وعن لائحة أسرى القبائل في السبي، وعن حملات بلاسَّر الثالث على السراة، ومراسلات الآشوريين مع ملوك مخلاف اليهودية، وحروب نبوخذ نصّر في السَّراة وأسطورة عبور الأردن. وتوقف في الجزء الرابع عند معركة يهوذا والسامرا ورأى أنها ملفّقة، وأعطى رأيه فيها. بينما خصّص الجزء الخامس لموضوع التوراة الإغريقية؛ وأشار فيه إلى بعض مسائل مختلفة، تنحصر تحت العنوان المذكور.

Abstract

"Imagined Palestine" is a book divided into five parts. It presents a theory which proves that the Torah was sent down in Old Yemen, not in Palestine, and it gives proofs verifying this fact.

In *Part One*, the writer reports what al-Hamadani says in his book *"Al-Ikleel"* [i.e., The Wreath] when he describes the land of the Torah in the Yemenite town called Sarat and the residents of the Asbaat [the Siblings]. In *Part Two*, he asserts that Al-Quds is not Orshalim. It also talks about the wars and conquests of Prophet Dawud [David] in Yemen and about Yemen's Ariha. Thereafter, it refers to Nabukhadh Nassar's campaign against the Arabian tribes, the Children of Israel in Najran and the incident of the Babylon captivation. In the end, he alludes to the peoples and tribes of the Torah in Yemen supported by proofs.

The author precedes *Part Two* with an introduction in which he inquires about the Assyrian campaigns and where the incident of the captivation took place, and so it raises suspicions about many points related to it on the basis of the statements of historians. Then he dedicates *Part Three* for Senhareeb's campaigns against the Children of Israel in Najran, and so it brings to light the Assyrians' attack of the Yemeni coast, the battles of Sarat, rebuilding Orshalim amongst Himiar's cypress trees, the list of the captives from the tribes during the fights, the campaigns that Blassar III launched against Sarat, the Assyrians' correspondence with Mikhlaf's Jewish kings, Nabukhadh Nassar's wars in Sarat and the legend of crossing Jordan.

In *Part Four*, he pauses at Yahudha and Samira battle, and concludes that it was a fabricated tale and gives his opinion about it. Finally, he dedicates *Part Five* for the topic of the Greek Torah, and so it refers to a few different questions related to this subject and to the mentioned heading.